وصف إفريقيا

الحسن بن محمد الوزان الفاسي
المعروف بليون الإفريقي

ترجمه عن الفرنسية

محمد حجي
عضو أكاديمية المملكة المغربية

محمد الأخضر
أستاذ بجامعة محمد الخامس

دار الغرب الإسلامي

منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر

وَصْف إفريقيا

للحسن بن مُحمد الوزان الفاسي

المعروف بليون الإفريقي

الجزء الأوّل

ترجمه عن الفرنسية

محمد حجي

دكتور دولة من جامعة السربون

محمد الأخضر

دكتور دولة من جامعة السربون

الطبعة الثانية

دار الغرب الإسلامي

طبعة ثانية 1983

دار الغرب الإسلامي

ص. ب: 5787 - 113
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

نفاد طبعة كتاب علمي في أقل من سنتين ظاهرة جديدة في المغرب تبشر بالخير، وتنبيء نبأ يقين بأن طبقة القراء في تزايد وتكاثر، وأن غد هذه البلاد السعيدة في ميدان الفكر خير من يومها.

لقد كتب الأستاذ محمد بن العربي من مراكش تعليقا مطولا في العلم الثقافي (6 مارس 1981) على الجزء الأول من ترجمتنا لكتاب **وصف إفريقيا**، دلت على روحه العلمية، وسعةاطلاعه على المصادر العربية والأجنبية، واستفدنا من ملاحظاته القيمة في هذه الطبعة الثانية لا سيما في البيبليوغرافيا. وأشار الناقد المحترم، بشيء غير قليل من الالحاح والاستعجال، إلى ترجمة أخرى لـ **وصف افريقيا** صدرت في المشرق بمناسبة انعقاد المؤتمر الجغرافي الاسلامي بالرياض سنة 1979 مستغرباً سكوتنا المطبق عنها. وقد ضربنا فعلا عنها صفحاً لأمرين: أولهما أن الجزء الأول من ترجمتنا كان قد قدم إلى المطبعة قبل انعقاد المؤتمر الجغرافي؛ والثاني أن جامعة الإمام محمد بن سعود الاسلامية بالرياض التي استدعتنا لحضور المؤتمر، بعد أن اطلعت على الفصل المنشور من ترجمتنا لوصف افريقيا بالمجلة التاريخية المغربية الصادرة بتونس (العدد 12، يوليوز 1978، ص 202-206) ألحت ــ في مراسلات متعددة ــ على ان تطبع ترجمتنا (أنا والأستاذ الأخضر) لـ**وصف إفريقيا** بمناسبة انعقاد المؤتمر، لكننا اعتذرنا بضرورة التريث والتمهل في نشر ترجمة نص في غاية الصعوبة والتعقيد. ولما لم تجد الجامعة منا استجابة لطلبها كلفت الدكتور عبد الرحمان حميدة بترجمة الكتاب وطبعه في

بضعة أشهر! وفوجئت في المؤتمر بالكتاب، فأقبلت على قراءته، وتعرفت منذ الصفحات الأولى على حالته المفجعة، ــ بتراً وخلطاً وقلباً ــ وعوضاً عن البحث الذي هيأته عن الوزان ووزع على اعضاء المؤتمر خصصت تدخلي في الجلسة العلنية لانتقاد هذه الترجمة انتقاداً لاذعاً ومهذباً بحضور الدكتور عبد الرحمان حميدة. وما كان غرضي التعرض إلى هذا الموضوع، ولو ترك القطا لنام.

الرباط في فاتح ربيع الثاني 1402 / 27 يناير 1982

محمد حجي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

(أ) ترجمة المؤلف(*):

الحسن بن محمد الوزان الفاسي شخصية عربية إسلامية فـذة، اجتمع له من الخصال العلمية والإنسانية ما جعل الغربيين المسيحيين

(*) مصادرترجمة الحسن الوزان الفاسي (مرتبة ترتيباً زمنياً):

1 ـ الحسن الوزان نفسه في كتابه وصف افريقيا، في مواضع متعددة.
2 ـ المعلم بطرس البستاني، دائرة المعارف، 28:4. سنة 1876.
3 ـ سليم أفندي ميخايل شحادة، في الجغرافية وجغرافيي الاسلام، مجلة المقتطف، سنة 1883، ج 7، ص 713.
4 ـ شفير، مقدمة الترجمة الفرنسية لكتاب وصف افريقيا سنة 1896 ص 38.
5 ـ ل. ماسينون، المغرب في السنوات الأولى من القرن السادس عشر، سنة 1906، ص 32 وما بعدها.
6 ـ ل. ماسينون، دائرة المعارف الاسلامية، 3:22-32.
7 ـ مترجمو ليون الافريقي، هيسبريس، سنة 1930.
8 ـ محمد المهدي الحجوي، حياة الحسن الوزان وآثاره، سنة 1933.
9 ـ سعيد حجي، سلسلة مقالات في مجلة المغرب، ديسمبر 1934،يناير ـ ابريل 1935.
10 ـ ج. كولان، تعليق على كتاب حياةالحسن الوزان وآثاره، هيسبريس، 1935، ص 94-98.
11 ـ ك. بروكلمان، ملحق، سنة 1937، 710:2 (وذكر بعض مراجع ترجمته).
12 ـ ريمون مونى، الأسفار العظيمة لليون الافريقي، هيسبريس جزء 41، سنة 1945، ص 379-394.
13 ـ ابيولار مقدمة الترجمة الفرنسية لكتابوصف افريقيا، سنة 1956، ص 5-11.
14 ـ اغناطيسون كرا تيدكوفسكي، الأدب الجغرافي عند العرب، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم، سنة 1957 القسم الأول ص 450-455.
15 ـ محمد داود، تاريخ تطوان، 87:1، هامش 1. سنة 1957.

يقدرونه حق قدره ويستفيدون من تأليفه الجغرافي في عصر النهضة، بل يعتمدونه كمصدر أساسي عن افريقيا طوال العصر الحديث. أما العرب المسلمون فلم يعرفوا عالمهم الوزان ولم يعرفوا به وأغفلوا كتابه القيم في زوايا النسيان.

□ في البيئة الإسلامية:

ينتسب الحسن بن محمد الوزان إلى قبيلة بني زيات الزناتية، الواقع موطنها في أقصى غرب بلاد غمارة من سلسلة جبال الريف المغربية، بين ساحل البحر المتوسط ومجرى وادي لاو القريب من مدينتي شفشاون

= 16 ــ عمر رضا كحالة، **معجم المؤلفين**، 3:292. سنة 1957.

17 ــ أحمد أبو سعيد، **كتاب أدب الرحلات**، سنة 1961.

18 ــ الدوميلي، **العلم عند العرب وأثره في تطور العلم العالمي**، ترجمة عبد الحليم النجار وآخر، سنة 1962، ص 531-532 و 537-539.

19 ــ محمد عبد الله عنان، **الحسن الوزان أوليون الافريقي**، مجلة العربي سنة 1962، عدد 43.

20 ــ نجيب العقيقي، **المستشرقون**، 1:136-137، سنة 1964.

21 ــ محمد المختار السوسي، **إيليغ قديماً وحديثاً**، ص 210، هامش 443، سنة 1966.

22 ــ محمد عبد الله عنان، **شخصية الحسن الوزان الغرناطي**، محاضرة بالفرنسية في جنيف سنة 1967. (جريدة العلم الرباطية، 21 أبريل 1967).

23 ــ بوفيل، **الممالك الاسلامية في غرب افريقيا**، ترجمة د. زاهر رياض ص 157-171. القاهرة 1968.

24 ــ عبد القادر زمامة، **ليون الافريقي**، مجلة اللقاء، العدد 10، ص 115-117، يناير 1969.

25 ــ مصطفى مسعود، **الحسن بن محمد الوزان**، مجلة جامعة القاهرة بالخرطوم، سنة 1970.

26 ــ شوكت الشطي، **نظرات الى ثقافة العرب الطبية في الحضارة الأندلسية**، سنة 1972.

27 ــ جمال زكريا قاسم، **الحسن الوزان رحالة عربي ومصنف فرنجي**، مجلة العربي، يونية 1972.

28 ــ عبد الهادي التازي، **جامعة القرويين**، 2:507. سنة 1973.

29 ــ شوقي عطا الله الجمل، **محمد الحسن الوزان**، مجلة المناهل، مارس 1975.

30 ــ محمد حجي، **الحياة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، سنة 1977. 1:23-26 و 2:348-349.

31 ــ محمد أحمد زوام، **الحسن الوزان ــ رسالة ماجستير ــ مخطوط بمعهد الدراسات الافريقية بالقاهرة**، 1398.

وتطوان. عاشت أسرته حقباً من الزمن في الفردوس المفقود، وولد هو بمدينة غرناطة قبيل سقوطها في يد الاسبانيين. ويختلف المؤرخون في تحديد سنة ولادته، فيجعلها بعضهم عام 1495/901، وبعضهم عام 1500/906، أخذا من تاريخين وردا في كتاب **وصف افريقيا** استطرد المؤلف بعدهما ذكر سنه عن طريق الربط والمقارنة. ولا يستقيم كلا التقديرين عادة، لأنه يلزم منهما أن الحسن الوزان دخل الحياة العامة عدلاً وسفيراً في سن الثانية عشرة أو الرابعة عشرة، لذلك نرجح ما ذهب إليه غير واحد من أن الوزان ولد حوالي عام 888/ 1483 أي قبل سقوط غرناطة بنحو عشر سنوات، وانتقل مع أسرته صغيراً إلى فاس حيث درس على أعلام القرويين الكثيرين وعلى رأسهم آنذاك الإمام محمد بن غازي المكناسي الذي يفترض أن الوزان قرأ عليه بعض الكتب التي اشتمل عليها فهرسه المعنون بـ **التعلل برسوم الاسناد بعد انتقال أهل المنزل والناد**، هذا الفهرس الذي كان ابن غازي يجيز به تلاميذه، ويحتوي على علوم اللغة وآدابها، والعقائد والفقه والتصوف، والتفسير والقراءات والحديث والسير والحساب والفلك والمنطق ربما إلى ذلك من العلوم المعروفة عند المسلمين. ويؤكد هذا الافتراض ما نقف عليه استطراداً في كتاب **وصف افريقيا**، إذ نجد المؤلف يستهل حياته العلمية بالانتصاب للشهادة مع عدول فاس الرسميين، ثم نجده يجالس الفقهاء والقضاة في المدن والقرى التي يزورها خلال رحلاته العديدة، يناظرهم ويناقشهم في نوازل فقهية وفتاوي دقيقة. وهو إلى ذلك كاتب شاعر يحبر الرسائل وينظم القصائد فيكون محط اعجاب الرؤساء وينال من عطاياهم، وحيسوبي ماهر يستخلص واجبات بيت المال من القبائل.

هذا النبوغ المبكر للحسن الوزان لفت إليه نظر سلطان فاس محمد الوطاسي المعروف بالبرتغالي فقربه إليه ونظمه في سلك رجال بلاطه، وأسند إليه ــ على حداثة سنه ــ مهام سياسية خطيرة في ظرف كان المغرب خلاله يشكو علة التقسيم إلى مملكتين في الشمال والجنوب، وإمارات

مستقلة في الجهات النائية، واحتلال برتغالي ـ اسباني لعدد من الثغور المغربية على البحر المتوسط والمحيط الأطلنطيقي.

هذه المهام السياسية المسندة إلى الحسن الوزان، بالاضافة إلى النشاط الديبلوماسي والتجاري لأسرته، هي التي دفعته إلى القيام برحلات عديدة داخل المغرب وخارجه وتسجيل مشاهداته في مذكرات شبه يوميات غدت على ما يظهر أساس كتابه الجغرافي الذي سنتحدث عنه فيما بعد. أشار الوزان إشارة عابرة إلى رحلات صحب فيها وهو صغير أباه إلى اقليم جبال الريف والأطلس المتوسط، وكان أبوه مكلفاً من قبل السلطان بجمع ضرائب هذه المنطقة. كما أشار إلى رحلة أخرى طويلة زار أثناءها بلاد مصر والجزيرة العربية والعراق وفارس وأرمينيا والتتار. قائلاً عنها: تلك البلاد التي رأيتها وقطعتها في صغري.

أما الرحلات التي فصل القول فيها في **وصف افريقيا** وكانت مادة هذا الكتاب فهي تسع:

1 ـ **رحلة إلى الشواطىء الغربية القريبة من فاس**، حيث حضر محاصرة الوطاسيين لمدينة أصيلا المحتلة من طرف البرتغاليين، عام 1508/914، ثم زار منطقة سلا في آخر السنة نفسها.

2 ـ **رحلة إلى وسط المغرب**، حيث زار منطقة تادلا، ومدينة تفزا بعد أن خضعت لحكم الوطاسيين. وتعرف في هذه الرحلة على الشريف السعدي محمد القائم بأمر الله الذي بويع في الجنوب أميراً للجهاد، عام 1509/915. وكانت العلاقات آنذاك طيبة بين مملكة فاس وإمارة السعديين الناشئة، لاتحاد وجهة نظرهما في ضرورة التعاون لمناهضة المسيحيين المحتلين، لا سيما في المناطق النائية عن فاس التي لا تصل إليها كتائب الجهاد الوطاسية. وسيتردد الحسن الوزان على هذه المنطقة الحساسة أكثر من مرة ليقوم بأدوار سياسية باسم كل من الملك الوطاسي والأمير السعدي في محاولة لاسترجاع أحد الرؤساء المحليين المنحرفين، وهو يحيى بن تعفغت الذي انبسط نفوذه على بلاد عبدة

ودكالة وطرف من تادلا تحت حماية البرتغاليين الذين كانوا يزودونه بالمال والعتاد، وأصبحوا من ورائه يهددون داخل البلاد حتى وصل فرسانهم إلى أسوار مراكش، بعد أن كان الاحتلال المسيحي لا يتجاوز سيف البحر. وإذا كان اتصال الحسن الوزان بيحيى ابن تعففت لم يسفر عن نتيجة ايجابية، ولم يحقق صرف هذا القائد الضال عن محالفة العدو المسيحي، فإنها كانت فرصة لصاحبنا أن يجوس خلال الديار المحتلة ويتعرف على ناحية أسفي وعبدة. وسيقضي السعديون بعد سنوات على يحيى وحلفائه في معركة فاصلة.

3 ــ **رحلة إلى بلاد السودان**، صحب فيها عمه الذي كان مكلفاً عام 1511/917 بسفارة بين ملك فاس محمد الوطاسي البرتغالي وملك سنغاي محمد أسكيا الكبير، وقد سلكوا في الذهاب الطريق الغربي عبر مراكش ودرعة، وأخذوا في الرجوع طريق سجلماسة ــ فاس.

4 ــ **رحلة إلى الأطلس الكبير**، حين كلف عام 918-1513/12 بمهمة سياسية لدى القبائل الساكنة في جبال دادس وما حواليها. فتجول في هذه المنطقة سبعة أشهر ولم يرجع إلى فاس إلا في أواخر السنة.

5 ــ **رحلة أخرى إلى بلاد حاحا في السنة التالية**، 1514/919 كلف أثناءها بالاتصال بالأمير السعدي محمد القائم بأمر الله الذي بايعته آنذاك قبائل المنطقة وأخذ سلطانه يشمل حتى سفوح الأطلس الغربية والشمالية. ويبدو أن الوزان وفق في مهمته السياسية هذه فثبت الود والتعاون بين الامارتين أو المملكتين في الشمال والجنوب، وتمكن من زيارة منطقة أخرى لم يكن يعرفها، إذ كان لقاؤه بالشريف السعدي في مدينة تسكدلت، وصحبه من هناك إلى مدينة تكاووست في وسط سوس ثم تركه ورجع عن طريق دكالة، فحضر معركة بولعوان بين المغاربة والبرتغاليين قبل أن يلتحق بمراكش.

6 ــ **رحلة من مراكش إلى سوس عبر ممر أمزميز عام 1515/920**، حيث اخترق جبال الأطلس ليلتقي بالشريف السعدي. ولعل زيارة مراكش

هذه كانت بايعاز من الشريف لربط الصلات مع الأمير الناصر الهنتاتي الذي كان مستبداً بمنطقة مراكش سهلاً وجبلاً. وإذا صح هذا الافتراض فإن رحلة الوزان كانت أيضاً موفقة سياسياً لأنه لن تمضي سنوات حتى تنضم مراكش إلى السعديين، مثلما كانت موفقة علمياً حيث اطلع على جغرافية المنطقة وتعرف على جبالها وقراها وسكانها.

7 ــ **رحلة إلى الحجاز في أواخر عام 1516/921**، سلك فيها مع ركب الحجاج الفاسيين الطريق الشمالية عبر مدن تازا فدبدو فتلمسان فتونس.

8 ــ **رحلة إلى الأستانة**، خرج إليها بعد أداء فريضة الحج للقاء السلطان سليم الأول سفيراً لديه من قبل ملك فاس محمد الوطاسي البرتغالي. غير أن سليمًا كان قد خرج في حركته العسكرية الكبرى للاستيلاء على بلاد الشام ومصر، فلحق به الوزان هناك وحضر معه المعارك العنيفة التي انتهت يوم 21 ربيع الأول 13/923 أبريل 1517 بالقضاء على مقاومة المماليك في مصر. ومكث في زيارة بلاد الكنانة بضعة أشهر إلى أن خرج السلطان سليم من الاسكندرية، فصعد هو مع النيل إلى السودان وتجول فيه قبل أن يبحر إلى جدة ويزور الينبوع. وقد استغرق في ذلك بقية عام 923.

9 ــ **الانتقال إلى البلاد الليبية والتونسية في طريق الرجوع إلى المغرب.** ويبدو أن الحسن الوزان مكث هناك حوالي سنتين، إذ نجده في عام 1520/926 يبحر من تونس ليعود إلى المغرب، لكن سوء الحظ أوقعه في أيدي القراصنة الايطاليين فأسروه بالقرب من جزيرة جربة، وأخذوه إلى نابولي ثم قدموه هدية إلى البابا في روما.

□ في البيئة المسيحية:

من المعروف أن البابا ليون العاشر (Léon X, Jean de Médicis) من باباوات عصر النهضة الذين عملوا على إحياء العلوم والآداب والفنون.

لذلك سر بهذا العالم العربي الشاب الذي قدم إليه، وسرعان ما وثقت الصلة بينهما، لا صلة سيد بأسير ولكن صلة قريب بقريب كان ينشد ضالّة فعثر عليها. ولعل من أسباب هذا التقارب والتجاوب ذكاء الحسن الوزان وسرعة تأقلمه مع البيئة المسيحية، فهو موريسكي فتح عينه في غرناطة التي كانت اللغة القشتالية الوثيقة الصلة باللاتينية منتشرة فيها، والكنائس بأساقفتها وطقوسها منبثة في جوانبها. ولا نظن الوزان إلا أنه كان يتفاهم مع البابا بلغة عجمية ويقدر ظروف أسره تقديراً موضوعياً، مدركاً أنه لا يمكن أن يعيش عيشة إسلامية في بؤرة المسيحية، فتظاهر بالتمسح وحمل اسم مالكه وحاميه البابا فصار يدعى (J. Léon) أو يوحنا الأسد الغرناطي أو الافريقي، تستراً وعملاً بقول الله تعالى: **﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّه مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إلَّا مَن أكْرِهَ وقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإيمانِ﴾**.

ولنا أكثر من دليل على استمرار إسلام الحسن الوزان وثبات عقيدته طوال السنين الثلاثين التي قضاها أسيراً في ايطاليا. من ذلك:

1 ــ الصبغة الإسلامية المتجلية في كتاب **وصف افريقيا** كلما تحدث المؤلف عن عادة أو عيد أو غير ذلك مما يخص المسلمين نسبه إلى نفسه مع جماعة المسلمين قائلاً «عندنا» وهذا كثير في الكتاب، بينما لم ينسب فيه لنفسه شيئاً مع المسيحيين بخصوص الطقوس الدينية ولو مرة واحدة. وإنما عبر بقوله (عندنا هنا في ايطاليا) عن بعض المزروعات وعادات الفلاحين وما إلى ذلك من الأمور الدنيوية العادية.

2 ــ اهتمام الكتاب بالملامح الإسلامية في المدن والقرى التي زارها المؤلف واعتزازه بالتعرف على حملة الشريعة الإسلامية من فقهاء وقضاة ومفتين، ولو أنه يحكي واقعاً حدث قبل انتقاله إلى البيئة المسيحية، إذ لو تنصر حقاً لاستنكف عن ذكر ذلك أو استهجنه على الأقل، وذلك ما لم يقع.

3 ـ التواريخ المذكورة في **وصف افريقيا** كلها هجرية إلا مرات قليلة جداً ورد فيها التاريخ الميلادي، وقد أحصى ماسينيون التواريخ المذكورة في القسم المتعلق بالمغرب الأقصى من كتاب **وصف افريقيا** فإذا هي 72 تاريخاً، منها 67 بالتاريخ الهجري و4 بالميلادي، وواحد مؤرخ بسنة طرد اليهود من اسبانيا على طريق التزامن التاريخي.

4 ـ تمسك المؤلف باسمه الإسلامي رغم مرور سنين عديدة على أسره وتداول اسمه المسيحي، فهو حينما يوقع في نابولي أو روما أحد كتبه يقول: «العبد الفقير إلى الله مؤلفه يوحنا الأسد الغرناطي المدعو قبل الحسن بن محمد الوزان الفاسي». وماذا يا ترى يمكن لأسير في مثل ظروفه أن يفعل أكثر من ذلك للتعبير عن حنينه إلى ماضيه الإسلامي. بل نلاحظ أن نسبه «الغرناطي» يأتي بعد اسمه المسيحي اعتباراً بأن غرناطة أصبحت آنذاك حاضرة مسيحية، وكأنه أرغم على ذلك أو اصطنعه تستراً وتقية، في حين تأتي النسبة القديمة إلى فاس مع اسمه الإسلامي تذكيراً وتشبثاً بالوسط الإسلامي الخالد.

أما النشاط الثقافي للحسن الوزان في ايطاليا فيتمثل في تدريس اللغة العربية للخاصة من رجال الكنيسة في روما ونابولي ولعامة الطلبة في مدرسة بولونيا الشهيرة في عصر النهضة الأوروبية، كما يتمثل فيها كتب من مؤلفات باللغة الايطالية أو اللاتينية في التاريخ والجغرافيا واللغة، وتتصل موضوعاتها اتصالاً وثيقاً بالمسلمين وبلادهم ولسانهم. ومؤلفات الوزان صنفان، صنف سلم من الضياع فوصل إلينا كاملاً أو ناقصاً، وصنف عفى عليه الزمان فلم نعرف عنه غير الاسم وما استطرد منه المؤلف عرضاً من اشارات في كتبه التي وصلت إلينا.

من المؤلفات الباقية:

1 ــ **معجم عربي ــ عبري لاتيني** ألفه الوزان للطبيب اليهودي يعقوب بن شمعون وانتهى من تأليفه بمدينة بولونيا كما ذكر ذلك في آخر الكتاب. وهذا المعجم ما يزال مخطوطاً بمكتبة الاسكوريال باسبانيا.

2 ــ **كتاب في التراجم**، باللاتينية عرف فيه بثلاثين شخصية بارزة من فلاسفة العرب وأطبائهم، انتهى من تأليفه عام 1527/933، ونشر في زوريخ سنة 1664.

3 ــ **الجغرافية العامة**، كتاب ضخم باللغة العربية اطلع عليه بعض مترجميه القدامى إلا أنه ضاع ولم يبق منه غير القسم الثالث الذي ترجمه الحسن الوزان نفسه إلى اللغة الايطالية، أو اعتمد عليه في كتابه **وصف افريقيا** الذي سنتحدث عنه فيما بعد.

أما كتب الحسن الوزان الضائعة فيظهر أن بعضها كتب في بلاد الإسلام، وبعضها الآخر في ايطاليا، منها:

(أ) **مختصر تاريخ الإسلام** الذي أحال عليه كثيراً في **وصف افريقيا** كلما أراد تفادي ذكر تفاصيل الأحداث التاريخية التي تعرض لها.

(ب) **أشعار الأضرحة**، كتاب جمع فيه مختلف أشعار الوعظ والزهد مما وجده مكتوباً على الأضرحة والقبور في أقطار المغرب التي زارها، وقال عنه: «انه يقع في سفر صغير جمعته وأهديته لأخ السلطان الحالي عند وفاة أبيه» مشيراً ولا شك إلى أحد أبناء السلطان محمد الشيخ الوطاسي المتوفى عام 1505/910.

(ج) **كتاب في الفقه المالكي** أشار إليه كذلك في **وصف افريقيا**، كما أشار إلى مؤلفات أخرى في الأعياد الإسلامية، وقواعد اللغة العربية، والشعر.

أما تقلبات الحسن الوزان في ايطاليا، فإننا نعلم أنه انتقل بعد موت البابا ليون العاشر سنة 1521 ليعيش في كنف الكردينال جيل دي فيطيرب (Gilles de Viterbe) فكان يعلمه اللغة العربية، وكان هذا الكردينال معجباً كثيراً بالحسن الوزان ويأمل أن ينشر بواسطته اللغة العربية وآدابها في ايطاليا ليتمكن الأوروبيون ـ وهم في عصر النهضة ـ من الاطلاع المباشر والاستفادة الكاملة من كتب العرب في الفلسفة والطب والفلك والكيمياء وغيرها. وقد استدعى الكردينال جيل في آخر حياته أحد أصدقائه النبلاء من حاشية الامبراطور شارلكان في بولونيا، وهو جان ألبير ويدمانسطار (J.A. Widmanstard) استدعاه إلى روما ليرى يوحنا الأسد. وكأن الكردينال كان يريد أن يكل أمر هذا الأسير العربي العالم إلى ذلك النبيل المسيحي ليكفله إذا مات كما فعل هو بمؤلفنا بعد موت البابا ليون العاشر. وقبل أن يصل ويدمانسطار إلى روما اختفى منها الحسن الوزان في ظروف غامضة حوالي عام 1550/957، والتحق بأقرب نقطة إليه في بلاد الإسلام وهي تونس، حيث عاد إلى حياته الإسلامية الأولى.

وقد كتب وديمانسطار في مقدمة الانجيل الذي طبعه سنة 1555 أنه لبى دعوة الكردينال جيل، فزار روما وافريقية ليتصل بيوحنا الأسد الذي كان قد ذهب إلى تونس ورجع إلى الديانة الإسلامية، لكن محاولة الاتصال هذه لم تكن ذات جدوى.

وهنا يسدل الستار على حياة الحسن الوزان، فلا ندري هل بقي في تونس أم عاد إلى أهله في فاس، ولا نستطيع تحديد تاريخ ومكان وفاته إلا أن نقارب ونقول إنّه مات بعد عام 1550/957.

(ب) كتاب وصف إفريقيا:

يمثل هذا الكتاب، كما أشرنا إلى ذلك من قبل، القسم الثالث من كتاب **الجغرافيا العامة**، الذي ألفه الحسن الوزان باللغة العربية. ثم

ترجم المؤلف هذا القسم إلى اللغة الايطالية، أو اعتمد عليه في انشاء **وصف افريقيا** بالايطالية انشاء، وأتمه عام 1526/933 بمدينة روما. وقد اعتذر المؤلف عما يمكن أن يقع في كتابه من أخطاء خاصة عند النقل، بأنه قد مر عليه عندما ألف **وصف افريقيا** عشر سنين لم يطلع أثناءها على أي كتاب من كتب تاريخ افريقيا أو جغرافيتها. وإنما اعتمد على ما علق بذهنه مما رآه قبل هذه المدة الطويلة. وذلك ما يفسر خلو هذا الكتاب من نقول حرفية عكس ما هو الشأن عند غيره من الجغرافيين العرب. وأكثر ما ينقل الوزان عن ابن الرقيق' القيرواني وعبد الرحمان ابن خلدون، ولو أنه ذكر عشرات المؤلفين العرب كالبكري، والشريف الادريسي، وابن فضل الله العمري واضرابهم. ومع ذلك يبقى معظم مادة الكتاب من مشاهدات المؤلف وخبراته الشخصية.

قسم الوزان كتابه **وصف افريقيا** إلى تسعة أقسام أو كتب. في القسم الأول تدقيقات تتعلق بجغرافية افريقيا العامة، ومناخها وخصائص شعوبها وأخلاقهم. وقد جزأ فيه افريقيا تجزيئاً عمودياً باعتبار ميزاتها النباتية والاقتصادية أربعة أجزاء:

(أ) بلاد البربر شمال سلسلة جبال الأطلس الممتدة من تخوم مصر شرقاً إلى المحيط الأطلنطيكي غرباً.

(ب) بلاد الجريد جنوبي جبال الأطلس التي كان الرومان يطلقون عليها نوميديا.

(ج) الصحراء الكبرى المترامية بعد بلاد الجريد.

(د) بلاد السودان الواقعة وراء الصحراء.

ثم قسم كل جزء من هذه الأجزاء الأربعة إلى عدة أقسام اعتباراً لاختلاف نظم الحكم فيها أكثر من اعتبار الفوارق الطبيعية، مبيناً ــ كما قال ــ «المدن والجبال والمواقع والقوانين والعوائد دون إهمال شيء

مما يستحق أن يعرف». ونذكر على سبيل المثال أقسام الجزء الأعلى من افريقيا الذي سماه بلاد البربر تقليداً للرومان، ونسميه اليوم شمال افريقيا أو المغرب الكبير. لقد كان هذا الجزء في مطلع القرن الهجري العاشر يشتمل على أربع ممالك:

1 ــ مملكة مراكش المحتوية بدورها على سبعة أقاليم: حاحا، وسوس، ومراكش، وجزولة، ودكالة، وهسكورة، وتادلا.

2 ــ مملكة فاس المحتوية هي أيضاً على نفس العدد من الأقاليم: تامسنا، وفاس، وأزغار، والهبط، وكرط، والحوز.

3 ــ مملكة تلمسان المشتملة على ثلاثة أقاليم: الجبال، وتنس، والجزائر.

4 ــ مملكة تونس التي تخضع لها أربعة أقاليم: بجاية، وقسنطينة، وطرابلس الغرب، والزاب.

وذكر الوزان أن إقليم بجاية كان موضوع نزاع مستمر، يتبع تارة سلطة ملك تونس وتارة أخرى سلطة ملك تلمسان «إلى أن أصبح في أيامنا هذه ــ يقول المؤلف ــ مملكة مستقلة استولى على عاصمتها الكونت بيير نافارو باسم ملك اسبانيا فرديناند».

ويلاحظ هنا أن الحسن الوزان لم يذكر في هذا القسم من ثغور شمال افريقيا المحتلة من طرف المسيحيين غير بجاية ووهران والمرسى الكبير، وسكت عن العديد منها، خاصة في سواحل المغرب الأقصى الشمالية والغربية. كما يلاحظ أنه لم يولِ العناية الكافية للتحركات البحرية للأخوين التركيين عروج وخير الدين في الحوض الغربي للبحر المتوسط في نفس الفترة التي كان المؤلف يجوس خلال ديار شمال افريقيا، وكان من نتائج هذه التحركات تغيير الخريطة السياسية للمنطقة ولم تمر غير عقود قليلة

من السنين، الأمر الذي يحملنا على الاعتقاد بأن أنباء المغرب العربي عميت على المؤلف في أسره أو صرفت عنه صرفاً.

أما الأقسام السبعة التالية من كتاب **وصف افريقيا** فتتناول بالتفصيل الأقسام الأربعة الأصلية لإفريقيا وأقاليمها الفرعية المذكورة إجمالاً فيما سبق، ثم فصلت انطلاقاً من الغرب إلى الشرق بالترتيب التالي: مملكة مراكش، مملكة فاس، مملكة تلمسان، مملكة بجاية وتونس. بلاد الجريد والصحراء، بلاد السودان، مصر.

ويعود المؤلف في القسم التاسع والأخير من الكتاب إلى ذكر الظواهر الجغرافية العامة لإفريقيا فيبين أنهارها وحيوانها ونباتها، ويظهر هنا أيضاً تغليب جانب المغرب الأقصى لا لشيء إلاَّ لأن المؤلف عرفه أكثر من غيره وخبر سهوله وجباله ووديانه في رحلاته العديدة التي أشرنا إليها آنفاً. فهو مثلاً لا يكتفي بالتعريف بالأنهار المغربية الكبرى كأم الربيع وملوية وسبو ودرعة، وإنما يعرف أيضاً بالأنهار الصغرى كتنسيفت وأبي رقراق وبهت، وسوس، بينما اكتفى في غير المغرب بالأنهار الكبرى التي تعرف عليها كالنيجروالنيل وتافنة وشلف.

ثم ذكر حيوانات افريقيا الكبرى كالفيل والأسد والزرافة والجمل والأبقار والخيول المختلفة دون أن يغفل الحيوانات الصغرى أيضاً كالغنم والماعز والقرود والأرانب وقطاط الزباد.

ولما تعرض للحيوانات المائية اهتم بالضخمة منها كسمك العنبر وفرس البحر وثور البحر، والتمساح، وما إلى ذلك مما يوجد في النهرين العظيمين النيجر والنيل، ثم استعرض أشهر الطيور الإفريقية في الأقاليم المختلفة، كالنعامة، والنسر والباز والخفاش والببغاء. وذكر بعض معادن افريقيا كالملح والكحل، بالإضافة إلى ما سبق ذكره من معادن الفضة

والذهب والنحاس وغيرها، وأشار إلى نباتات تستخرج منها مواد صناعية كالصمغ والقطران، وإلى بعض الفواكه كالموز والترفاس والتمر والجميز.

□ مزايا الكتاب ومآخذه:

لعل من أبرز مزايا كتاب **وصف افريقيا** الذهنية المتفتحة التي كتب بها، حتى قال عنه بعض النقّاد الأوربيين انه تأليف عربي بتفكير أوربي أو في إطار مصطبغ بالصبغة الأوروبية. وقد استفاد الحسن الوزان من عمله الإداري وصلته ببلاطي الوطاسيين والسعديين في تحديد عباراته عندما كتب عن القبائل المغربية فأتى بإحصاءات شبه مدققة مبنية على عدد الكوانين في المدن والقرى، وبالتقسيمات السياسية في مختلف الجهات، وبمبالغ الخراج التي يستخلصها بيت المال.

وإذا تحدث المؤلف عن أماكن زارها في أية جهة من جهات افريقيا بين المسافات الفاصلة بالأميال لا بالدرجات الفلكية المعقدة الشائعة عند غيره، ولم تقصر همته عن زيارة التجمعات السكنية المنحرفة عن الطرق الكبرى فأوغل في المسارب والمضايق لاستكمال النظرة الشاملة على الناحية التي يزورها، حتى إذا عجز عن الوصول إلى بعض المواقع النائية جداً كالممالك السودانية الموغلة في الجنوب، بحث عن أهلها أو عمن يعرفها من غيرهم مستكشفاً أحوالها ومتثبتاً في ذلك غاية التثبت، ثم ذكر مصادر روايته مفرقاً بين ما رآه بنفسه وما حكي له.

يضاف إلى ذلك نزاهة المؤلف وحياده التام في كل ما كتب غير متأثر بعاطفة قرابة أو دين أو وطن، تجده يمدح مكاناً وقوماً في جهة، ويذم نظيرهما في جهة أخرى تبعاً لما شاهد وعرف. فالأرض هناك طيبة تنبت من كل زوج بهيج، وأهلها أوفياء كرماء، والنساء جميلات أنيقات عفيفات. وهنالك أرض مجدبة موحشة تكثر فيها البراغيث أو تفوح من بيوتها

الروائح الكريهة، ويسكنها لصوص فتاكون أو أشقياء حفاة عراة، ونساء قبيحات أو فاجرات.

غير أن تلك المزايا على كثرتها لم تعصم المؤلف من الوقوع في هفوات جغرافية وتاريخية صارخة، ولو أن عذره بين بسبب غيبة المصادر عنه وبعد عهده بالأماكن التي تحدث عنها على افتراض أنها لم تكن مسجلة في مذكراته. من ذلك خطؤه في اتجاه مجرى نهر أم الربيع الذي ظنه يجري نحو الجنوب، واعتقاده أن نهر سوس يصب عند رباط ماسة، وخلطه في تقدير المسافات ببعض الأماكن، بل تناقضه مع نفسه أحياناً في أرقام يكررها مختلفة، كعدد الأميال الفاصلة بين مدن فاس والقصر الكبير وأصيلا والبصرة.

وقد استقرأ ماسينيون التواريخ الهجرية المذكورة في الأقسام المغربية التي تهمه من كتاب الوزان، فوجدها 67 تاريخاً، 52 منها صحيحة بالمقارنة مع مقابلها من التاريخ الميلادي عند المؤرخين البرتغاليين المعاصرين له، و 6 تواريخ تقريبية، و 9 مغلوطة إذا اعتبرنا تواريخ البرتغاليين صحيحة سليمة. واشتبهت على الوزان كذلك أحداث تاريخية تعرض لها، فحرف مثلاً أخبار البرغواطيين وخلط أمر المتنبئين صالح بن طريف البرغواطي وحاميم الغماري على بعد المسافة الفاصلة بينهما زماناً ومكاناً، فالأول تمرَّد بتامسنا وسط المغرب في القرن الثاني للهجرة، والثاني ثار بأقصى الشمال في القرن الرابع للهجرة، وتاريخهما مفصل عند ابن خلدون في **كتاب العبر** الذي قرأه الوزان، وخانته ذاكرته.

وفي **وصف إفريقيا** أخطاء أخرى أخطر من الأولى، إلاَّ أن صاحبنا بريء من تبعتها، وهي تحريف عدد كثير من الأعلام الجغرافية والتاريخية بسبب عملية نقل الحروف العربية وتكييفها بالحروف اللاتينية. وقد تتبع ماسينيون عملية النقل عند الوزان فوجدها سليمة، لأنه اختار طريقة معقولة والتزمها في كل عمليات النقل والتكييف. لكن راميزيو ناشر كتاب

وصـف افريقيـا أخطأ في قراءة كثير من الأعلام العربية فحرَّفها وأفسدها من حيث أراد إصلاحها. وبذلك بقيت عشرات الأعلام مشوشة مجهولة وأمكن التعرف على أخرى بجهد ومشقة عن طريق الحدس والاستنتاج أو المقارنة مع ما ذكره مؤلفون آخرون.

إن تلك الهفوات لم تصرف الأوربيين عـن كتاب **وصـف افريقيـا** ولا نقصت من قيمته لديهم، بل أقبلوا على تـدارسه والنقـل عنه في مؤلفاتهم. وكذلك كان أكثر المستفيدين منه الخرائطيون فصححوا بواسطته ما رسم قبله من خرائط ووضعوا أخرى جديدة بحسب ما فيه من مسالك ومسافات وتضاريس، فكانت أقرب إلى الخرائط العلمية المطابقة للواقع. وان صحة المعلومات الـواردة في الكتاب، بغض النظر عن الهفوات، لمشاهدة إلى الآن في الأشياء الثابتة، وحتى في المدن التقليدية التي لم تتعرض لكبير تغيير في القرون الأربعة الأخيرة، كمدينة فاس التي يمكن للإنسان أن يتجوّل فيها اليوم اعتماداً على ما كتبه الوزان فيزور المساجد والمدارس والكتاتيب والأسواق والفنادق والأراحي حيث ذكرت في الكتاب، ويشاهد الفقهاء والعدول والصناع والتجار والحمالين يتحركون نفس التحركات.

وإن أعدل شاهد على تقدير علماء أوربـا لكتاب الحسن الوزان لهو إقبالهم عليه بالنشر والشرح والنقل إلى لغاتهم اللاتينية والانكلوساكسونية، من لدن عصر المؤلف إلى أيامنا هذه. فقد نشر **وصـف افريقيـا** لأول مرة العالم الإيطالي راميزيو سنة 1550 بمدينة البندقية، اعتماداً على مخطوط المؤلف باللغة الإيطالية ولو أنه جنى عليه بالتصرف في نصه زيادة ونقصاً وتغييراً ليجعله سهل القراءة ــ كما قال ــ. ونفدت هذه الطبعة بعد أربع سنوات، فأعيد نشره، وتجددت بعد ذلك هذه الطبعة أكثر من ست مرات أخر. وقد ترجم فلوريان (Florian) **وصـف افريقيـا** إلى اللغة اللاتينية ترجمة رديئة، اعتماداً على الطبعة الإيطالية الثانية، ونشر في بلجيكا سنة

1556 ثم أعيد نشره فيها بعد سنتين، ونشر مرة ثالثة في زيوريخ بعد سنة أخرى، ورابعة في لايد سنة 1632.

وعلى هذه الترجمة اللاتينية اعتمدت الترجمة الهولندية المنشورة في أمستردام سنة 1665، والترجمة الانجليزية المنشورة في لندن سنة 1600، التي أعيد طبعها في سنة 1896 مع شروح كثيرة، بينما اعتمدت الترجمة الألمانية المنشورة في هيربورن سنة 1805 على الطبعة الإيطالية الأصلية. أما أول ترجمة فرنسية لوصف افريقيا فهي لطمبورال (J. Temporal) اعتمد فيها الطبعتين الإيطاليتين الأولبين، ونشرت مرتين سنة 1556(؟) في كل من ليون بفرنسا وأنفير ببلجيكا وأعيد نشرها في لايد سنة 1564، وفي باريز سنة 1830 ثم سنة 1896 بتحقيق وتحليل شفير (Schefer) في ثلاثة أجزاء. ولما كانت الترجمة مكتوبة بفرنسية القرن السادس عشر التي أصبحت الآن شبه مغلقة على عموم القراء، فإن الطبيب الفرنسي إيبولار (A. Epaulard) قام سنة 1949 بترجمة فرنسية حديثة لكتاب **وصف افريقيا**، نشرها معهد الدراسات العليا بالرباط سنة 1956 في جزئين، وهي الترجمة التي اعتمدناها في نقل هذا الكتاب وإرجاعه إلى أصله العربي.

(ج) عملنا في الترجمة:

الترجمة الفرنسية التي اعتمدناها اشترك في التعليق عليها إيبولار نفسه، وثمونو، وهـ. لوط، ور. موني. وإذا كنا قد التزمنا نقل النص الفرنسي بحذافيره إلى العربية، فإننا لم نلتزم بترجمة التعليقات لما لنا عليها من ملاحظات، لا سيما فيما يتعلق بالتاريخ، فأهملنا الكثير منها، وأثبتنا بعضها كاملة أو مختصرة أو استبدلنا بها أُخرى متى رأينا ذلك مناسباً، دون أن نشير إلى الاختصار أو الحذف أو الزيادة.

واجتنبنا التكرار الكثير الموجود في هوامش الترجمة الفرنسية التي لا تترك كلمة «ميل» تمر إلاّ وذكرت ما يساويها من الكيلومترات، ولا تاريخاً

هجرياً عند المؤلف إلاّ أوردت موافقه من التاريخ الميلادي، تركنا ذلك اعتماداً على ما أثبتناه في التنبيه العام الذي يلي هذه المقدمة، وعلى قاعدة الموافقة المشهورة وجداول المطابقة المعروفة بين التاريخين الهجري والميلادي. كما أنا لم نر فائدة في التعليق على أسماء المساحات والأوزان والمكاييل كالذراع والقدم وحمل الدابة وما أشبه ذلك كلما ورد ذكرها في الكتاب، بل رأينا في بعض تلك التعليقات تكلفاً ظاهراً كتقييد الذراع المطلق عند المؤلف بالذراع الروماني. ولماذا لا يكون الذراع الهاشمي أو العربي عموماً أو الإفريقي ما دام المؤلف عربياً يستعمل أساساً المصطلحات العربية كالتاريخ الهجري مثلاً؟ على أن الأمر سهل لا يحتاج إلى كل هذا التأويل والتمحل، إذ الأذرع متقاربة، العربية منها والعجمية، ويفهم القارىء بأية لغة المسافة المرادة بالذراع أو القدم أو الشبر على سبيل التقريب. على أن مسألة تحديد الأوزان والمكاييل والنقود في عصر المؤلف تبقى مطروحة، لا ينهض بها إلاّ المختصون.

ولما كانت محنة كتاب «وصف إفريقيا» الكبرى تتمثل في أن الأعلام الجغرافية والتاريخية فيه عربية الأصل أو إفريقية نقلت نقلاً غير سليم إلى الإيطالية أو اللاتينية ثم إلى الإيطالية ثم إلى الفرنسية الخ، وفقدت في كل مرحلة من هذه المراحل جزءاً من شكلها ومفهومها حتى غدت رموزاً مغلقة لا يهتدى إلى حلها، لولا الجهود المشكورة للعالم لوي ماسينيون الذي تنزل لها بأناة وصبر وحل معظم تلك الرموز، فإننا لم نر من الفائدة ولا من الأمانة العلمية أن نترك تلك الأعلام محرفة كما جاءت في الأصل المنقول عنه لننبه في الهامش على الحقيقة كما هو الحال في الترجمة الفرنسية، وإنما أثبتناها مباشرة في صلب الكتاب على ما نجزم أو نظن أنه الصواب.

وقد اجتهدنا في الترجمة أحياناً حتى ليظن البعض أننا حرفنا عدداً من المفاهيم، وما ذلك منا إلاّ نتيجة لاستقراء استعمال المؤلف لبعض الكلمات

أو لاعتبار الظروف التاريخية والاجتماعية التى أُلِّف فيها الكتاب، مثل كلمتي غرناطة والغرناطي اللتين ترجمناهما في الغالب بالأندلس والأندلسي. ذلك أن المتأخرين من الأندلسيين، لا سيما الذين عاشوا في مملكة غرناطة الضيقة ثم غادروها بعد سقوطها، لم يكن في تصورهم أن بلاد الإسلام في شبه جزيرة إيبريا تعدو غرناطة، ومن ثم كان المهاجرون إلى العدوة المغربية في نظرهم غرناطيين. وكذلك ترجمنا كلمة (Feu) بالكانون نظراً للاصطلاح المشهور عندنا في البادية حتى الآن، واعتباراً للمصطلح الرسمي الثابت في وثائق القرن العاشر الهجري، حيث كانت عملية إحصاء القبائل تجري بحسب الكوانين أو السروج لفرض عدد من الفرسان في الحروب، أو الخراج السنوي لبيت المال.

هذا، ولا نزعم لأنفسنا الكمال أو القرب منه، فإن مجرد الإقدام على النقل عن نقل بعيد عن الأصل بعدة وسائط يعد جرأة ومخاطرة، غير أنه لم يكن بد من رجوع هذا الأثر العلمي إلى أصله العربي، بالرغم على النقص والغموض، وقديماً قالوا ما لا يدرك كله لا يترك كله.

الرباط، في 23 ربيع الأول عام 1398
3 مارس 1978.

المترجمان

تنبيـــه

ـ الميل: (ألفا ذراع عند العرب، وألف خطوة عند الرومان) يساوي نحو 1.340 ميتر

ـ الذراع (الروماني أو الهاشمي الخ) يساوي نحو .... 67 سنتيميتر

ـ القدم .... 33 سنتيميتر

ـ الشبر .... 23 سنتيميتر

ـ الرطل الإيطالي (Livre) يساوي نحو .... 339 غرام

ـ الرطل المغربي أو الافريقي كما يسمى في الكتاب .... 508 غرام

ـ القنطار الإيطالي (مائة رطل) .... 33 كيلوغرام و900 غرام

ـ القنطار المغربي أو الافريقي .... 50 كيلوغرام و800 غرام

ـ حمل الجمل .... 237 كيلوغرام

ـ البطة (Botta) كيل إيطالي قدره .... 938 ليتر، و465 سنتيليتر

ـ الأونس (Once) الإيطالي ترجمناه بأوقية، ويزن بالتقريب 28 غرام و256 سنتيغرام

ـ الدوكة (Ducat) عملة إيطالية ذهبية ترجمناها بمثقال وكانت تزن في عصر المؤلف .... 3 غرام و532 سنتيغرام

ـ المثقال السوسي، أو الدينار الرائج آنذاك، يزن بالتقريب 3 غرام و853 سنتيغرام

ملحوظتان:

1 ـ اختلف الجغرافيون القدماء والمحدثون في مقدار الميل، فجعله بعضهم أربعة آلاف ذراع، وبعضهم ثلاثة آلاف ذراع، واخترنا المشهور الذي أخذ به ابن الحاجب ومن تبعه من الفقهاء المالكية وهو ألف ذراع، لأنه المتداول عند المؤلفين بفاس وسائر بلاد المغرب في عصر الحسن الوزان.

2 ـ كل ما ذكرناه أعلاه إنما هو بالتقريب، وما زال تحديد الأوزان والعملات في كل من المغرب وإيطاليا على عهد المؤلف، بحاجة إلى مزيد من البحث والتدقيق.

القسم الأوّل

وصف إفريقيا وما فيها
من أشياء تستحق الذكر

أصل تسمية إفريقيا

يسمى هذا القطر باللغة العربية إفريقيا، من الفعل فرق بمعنى فصل باللاتينية (Separavit) وهناك رأيان في أصل هذه التسمية، يعتمد الأول على كون هذا الجزء من المعمور مفصولاً عن أوربا وجزء من آسيا بالبحر المتوسط، ويذهب الرأي الثاني إلى أن هذا الاسم مشتق من افريقش ملك اليمن الذي كان أول من سكن هذه البلاد، فلما لم يستطع الرجوع إلى مملكته بعد أن غلبه الملوك الأشوريون وطردوه، اجتاز النيل مسرعاً، ثم تابع سيره نحو الغرب، ولم يقف حتى وصل إلى ضواحي قرطاج. لذلك نرى العرب لا يكادون يعتبرون إفريقيا سوى ضاحية قرطاج نفسها، بينما يطلقون اسم المغرب على سائر إفريقيا[1].

حدود إفريقيا

تحد افريقيا، حسب رأي العلماء الأفارقة والجغرافيين، بالنيل من

(1) لما استولى الرومان على قرطاج وخربوها أسسوا مكانها اقليمًا دعوه «بروفانسيا أفريكا» التي أصبحت افريقيا عند العرب، وكانت تطلق على بلاد تونس الحالية تقريباً. أما اسم المغرب فكانوا يطلقونه على جميع المناطق الواقعة بين العدوة اليسرى للنيل والبحر المحيط.

الناحية الشرقية ابتداء من روافد بحيرة ڭـاوڭا[2] جنوباً إلى مصب هذا النهر في البحر المتوسط شمالاً. فتبتدىء افريقيا شمالاً من مصب النيل وتمتد غرباً إلى أعمدة هرقل، ثم تمتد غرباً من هذا المضيق إلى نون[3] الذي هو آخر أجزاء ليبيا على ساحل البحر المحيط. ومن ثم يبتدىء جنوب افريقيا ليمتد على طول البحر المحيط الذي يحيط بها كلها إلى صحراء كاوكة.

أقسام افريقيا

يقسم مؤلفونا افريقيا إلى أربعة أقسام، هي بلاد البربر، ونوميديا، وليبيا، وأرض السودان. تبتدىء بلاد البربر شرقاً من جبل مييس، آخر قمم الأطلس، على بعد نحو ثلثمائة ميل من الاسكندرية[4]، ويحدها شمالاً البحر المتوسط من جبل مييس إلى أعمدة هرقل، وتمتد غرباً من هذا المضيق إلى آخر قمم الأطلس على طول ساحل المحيط، أي إلى أقصى الجهة الغربية لهذه الجبال، حيث تقع مدينة ماسة، وتنتهي جنوباً قرب الأطلس، على السفوح المواجهة للبحر المتوسط. وهذا أشرف أقسام افريقيا، حيث يسكن أناس من الجنس الأبيض، ويحتكمون إلى العقل والقانون.

والقسم الثاني يسميه اللاتينيون نوميديا، ويدعوه العرب بلاد

---

(2) لا تعرف هذه البحيرة، لأن أعالي النيل لم تكن معروفة عند العرب في القرن السادس عشر.

(3) أطلق البحارة الأوربيون القدامى اسم رأس نون على أقصى نقطة من القارة وصلوا إليها في الجنوب، ولا شك أنهم كانوا ينطلقون من هذا الرأس إلى وادي نون الذي كان مأهولاً بالسكان وذا حركة تجارية نشيطة.

(4) كان الجغرافيون يعتبرون الأطلس سلسلة جبال متواصلة من ساحل البحر المحيط إلى العقبة الكبرى جنوبي خليج السلوم. وجبل مييس الذي يجعله الكاتب على بعد نحو 500 كيلوميتر من الاسكندرية لم يمكن التعرف عليه بعد.

الجريد، حيث ينبت النخيل[5]. يبتدىء شرقاً بالواحات[6]، وهي مدينة تقع على بعد نحو مائة ميل من بلاد مصر، ويمتد غرباً إلى نون على ساحل المحيط، ويصل شمالاً إلى سفح الأطلس الجنوبي، ثم يتاخم رمال الصحراء جنوباً، ويطلق العرب نفس الاسم على جميع هذه البلاد المنتجة للتمر، لأن موقعها واحد.

والقسم الثالث المعروف بليبيا عند اللاتينيين لا يطلق عليه بالعربية سوى اسم الصحراء أي القفر، ويبتدىء شرقاً بتخوم الواحات، ويمتد غرباً إلى المحيط. ويجاور نوميديا في الشمال بلاد النخيل، وفي الجنوب أرض السودان التي تبتدىء شرقاً بمملكة ولاتة[7] الواقعة على شاطىء المحيط.

أما القسم الرابع، وهو أرض السودان، فيبتدىء شرقاً بمملكة كاوكة، ويمتد غرباً إلى مملكة ولاتة، ويتاخم في الشمال صحراء ليبيا، وينتهي جنوباً إلى المحيط في مواقع لا نعرف عنها غير ما يرويه التجار الذين يأتون إلى مملكة تنبكتو، وهو كثير.

---

(5) كان الرومان يطلقون اقليم نوميديا على الجبال التي يتكون منها بالتقريب حوض المجردة، بينما كانوا يسمون سكان السهل الشرقي في اقليم قرطاجة أفري، والقبائل التي تعيش في الغرب حتى ساحل المحيط موري، وجميع أهالي الصعيد وما وراءه من الساحل التونسي إلى ساحل المحيط «كيتولي».
ويبدو أن نوميديا لفظة بربرية الأصل، إلا أنها امتزجت منذ القديم، بكلمة نومادس اليونانية التي تدل على الرعاة الرحالة.

(6) هي القرية الرئيسية لواحة الخركة التي تصلها اليوم بنهر النيل سكة حديد تبلغ إلى النخيل على بعد 170 كلم. وسيجعل المؤلف في الكتاب السادس الواحات في ليبيا ويسميها الكشات.

(7) حرف هذا الاسم في الأصل فكتب (كوالاطة). ومن المعلوم أن ولاتة تقع في الداخل، شمال غرب تمبكتو. ولا يبعد أن يكون نفوذ حكامها وصل إلى شاطىء المحيط، في الوقت الذي كانت ملجأ للفارين من الطاغية سني على ملك السودان.

يشق أرض السودان نهر النيجر الذي يخرج من فلاة تدعى ساوو، نابعاً من بحيرة عظيمة(8). وهو ــ حسب الجغرافيين ــ فرع من فروع النيل، يغيب تحت الأرض ثم يخرج منها ليكون هذه البحيرة. ويرى البعض أنه ينبع في جبال تقع إلى جهة الغرب، ثم يسيل نحو الشرق ليتحول إلى بحيرة، وهذا غير صحيح: فإننا سرنا في النهر شرقاً من تمبكتو واتبعنا مجرى المياه إلى مملكة جني ومملكة مالي، وكلتاهما واقعتان غربي تمبكتو. وأجمل أرض السودان ما امتد منها على طول مجرى النيجر. ويزعم الجغرافيون أن قسمًا من أرض السودان، الذي يشق النيل جزأه الغربي، يمتد شرقاً إلى بحر الهند، ويصل شمالاً، في بعض النقط، إلى البحر الأحمر، في القسم الذي يقع من هذا البحر وراء المضيق (باب المندب) الفاصل بين هذه الأرض وبلاد اليمن. ولم يعتبر هذا القسم من افريقيا لأسباب عديدة تكفلت الكتب المطولة بشرحها. ويسميه اللاتينيون أتيوبيا، ومنه يأتي بعض الرهبان الموسومة وجوههم بالنار، وهم يوجدون في أوربـا كلها، ولا سيما في روما. ويحكم هذه البلاد رئيس من نوع الشيوخ يسميه الايطاليون بريطي جياني(9). ومعظم السكان من النصارى، إلا أن أميراً مسلمًا يملك اقليمًا شاسعاً في أثيوبيا.

أقسام أجزاء افريقيا الأربعة وممالكها

تشتمل بلاد البربر على أربع ممالك:

الأولى: مملكة مراكش، وتنقسم إلى سبعة أقاليم: حاحا، وسوس، ومراكش، وجزولة، ودكالة، وهسكورة، وتادلا.

---

(8) هي بحيرة التشاد.

(9) لقب حبشي حرف عند ذلك التاريخ، فصار بريطر جان، أو يوحنا الراهب.

والثانية: مملكة فاس، وتحتوي على نفس العدد من الأقاليم، تامسنا، وفاس وازغار، والهبط، والريف، وكرط، والحوز.

والثالثة: مملكة تلمسان، وفيها ثلاثة أقاليم: الجبال، وتنس، والجزائر.

والرابعة: مملكة تونس، وتخضع لها أربعة أقاليم: بجاية، وقسنطينة، وطرابلس الغرب، والزاب، وجل هذا الأخير تابع لنوميديا.

وكان إقليم بجاية موضوع نزاع مستمر، يتبع تارة سلطة ملك تونس، وسلطة ملك تلمسان أخرى، إلى أن أصبح في أيامنا هذه مملكة مستقلة استولى على عاصمتها الكونت بيير نافارو باسم ملك اسبانيا فيرديناند[10].

أقسام نوميديا
أي البلاد التي ينمو فيها النخيل

لم يطلق جغرافيونا اسم مملكة على هذا الجزء من افريقيا الذي يعتبر أقلها قيمة، وذلك للبعد الشاسع الذي يفصل بين المواقع المسكونة فيه. فهناك مثلاً تيشيت[11] المدينة النوميدية المشتملة على أربعمائة كانون، تبعد بـ300 ميل عن أي مكان آخر مسكون في فلوات ليبيا، لذلك لم تستحق لقب مملكة. وسأذكر أسماء المواقع المسكونة، لا سيما وأن بعضها يشبه المناطق

(10) الواقع أن بجاية كانت تابعة للحفصيين ملوك تونس حين انتزعها منهم الاسبانيون في 25 ماي 1509.

(11) جعل المؤلف هذه المدينة في نوميديا، وكذلك توات وكورارة وتكورت، وورگلة، وغدامس، وفزان، وهي في الواقع قرى أو مناطق صحراوية، الأمر الذي يدل على أن معلوماته الجغرافية تقريبية فيما يتعلق بمواقع نوميديا وليبيا. وسيرتكب نفس الخطأ عندما يتعرض للمرابطين فيقول إنهم جاؤوا من صحراء نوميديا.

الأخرى، كدولة سجلماسة المعروفة بموريطانيا، ودولة الزاب المقابلة لمملكة بجاية، وبلاد الجريد الممتدة نحو مملكة تونس.

أما الآن فأعتزم تفصيل المسائل المتعلقة بهذا الجزء الثاني من افريقيا في قسم آخر من هذا الكتاب. وأكتفي بسرد الأسماء الآتية، مبتدئاً من الغرب: تيشيت، ودان، افران، أقا، درعة، تبلبلة، تدغة، فركلة، سجلماسة، بني كومي، فكيك، توات، تسابت، تيكورارين[12]، مزاب، توكورت، وركلة.

ويكون الزاب اقليمًا يضم خمس مدن، وهي: بسكرة، والبرج، ونفطة، وتلكة، ودوسن. وفي بلاد الجريد حالياً نفس العدد من المدن، وهي: توزر، وقفصة، ونفزاوة، والحامة، وقابس. ويجيء بعد هذا الاقليم، إلى جهة الشرق، جزيرة جربة، غريان، مسلاتة، مسراتة، تاورغة، غدامس. فزان. أوجلة، برداي، والواحات[13].

تقسيم الفلوات
الواقعة بين نوميديا وأرض السودان

لم نطلق أي اسم على هذه الفلوات، غير أننا نقسمها خمسة أقسام تحمل أسماء من يسكنها، وتتوفر لديهم فيها أسباب المعاش، وهم النوميديون المنقسمون إلى خمسة أقسام: زناكة، وونزيكة، وتاركة، ولمطة، وبرداوة[14]. وتوجد في هذه المناطق أماكن تحمل أسماء خاصة حسنة أو

---

(12) صيغة بربرية تعرب هكذا: كورارة.

(13) ما زالت «الواحات» تطلق على الأرض المصرية المعروفة بالخارجة. وسيجعلها المؤلف في الكتاب السادس من ضمن بلاد ليبيا أي الصحراء، وكذلك كفرة وسيرت على ساحل البحر المتوسط.

(14) هذا التقسيم مأخوذ جزئياً من ابن خلدون، غير أن الوزان كان يجهل أن برداوة ليسوا بربراً، بل هم زنوج من نوع خاص يعرف باسم تبو.

قبيحة بحسب حال البلاد، كالأزواد[15] المسماة هكذا لمحلها وجفافها، وهير[16] التي هي، وإن كانت أيضاً صحراء، فإن هواءها طيب معتدل.

تقسيم أرض السودان إلى ممالك

تنقسم بلاد السودان أيضاً إلى ممالك نجهل بعضها، لبعدها عن تجارتنا. لذلك لن أتعرض إلا للبلاد التي ذهبت إليها وترددت عليها كثيراً، أو التي كان التجار يأتون منها إلى البلدان التي زرتها، فيبيعون بضائعهم ويزودونني بمعلومات عنها. ولا أكتم أني زرت خمس عشرة مملكة من أرض السودان، وفاتني ثلاثة أضعافها لم أزرها، وكل منها معروف ومجاور للممالك التي كنت فيها.

وإليك أسماء هذه الممالك، ابتداء من الغرب إلى الشرق: ولاتة، جني، مالي، تنبكتو، كاوو، كوبير، أغدس، كانو، كلاتسينة، زكزك، زنفرة، ونكرة، بورنو، ݣاوݣا، ونوبة. وهذه هي الممالك الخمس عشرة الواقع معظمها على نهر النيجر، والتي تمر بها الطريق التي يسلكها التجار الذاهبون من ولاتة إلى القاهرة[17]، وهي طريق طويلة لكنها مأمونة. وتبعد هذه الممالك بعضها عن بعض، تفصل رمال القفار أو ماء النيجر بين عشر منها. ومن المعلوم أنه كان على رأس كل مملكة منها ملك مستقل، إلا أنها اليوم خاضعة لثلاثة ملوك: ملك تمبكتو الذي يملك الحظ الأوفر منها، وملك بورنو الذي يملك أقلها، وملك كاوو الذي يسيطر على

(15) جمع زاد بالعربية، وهو ما يأخذه المسافر معه من طعام وغيره.

(16) كلمة بربرية معناها الريح.

(17) يبدو أن الطريق بين ولاتة ومصر في جنوب الصحراء، والتي تلتحق بدرب الأربعين بين درفور وأسيوط، لم تكن مسلوكة كثيراً، ولم تفتح إلا ابتداء من آخر القرن السادس عشر، بعد سقوط مملكة نوبة المسيحية. وجميع الطرق المؤدية من غرب السودان إلى مصر كانت تخترق الصحراء وتلتقي عند فزان.

سائرها. ويلاحظ أن لملك دانكلة هو الآخر مملكة صغيرة. وهناك عدة ممالك أخرى تتاخم في اتجاه الجنوب الممالك الآنفة الذكر، وهي: بيتو، وتميام، وداومة، ومدرة، وكرهان، وملوكها ــ كسائر سكانها ــ أثرياء كثيرو الاتجار، يحكمون بالعدل ويدبرون أمورهم أحسن تدبير. أما سكان باقي الممالك فإنهم أحط من الحيوان الأعجم.

الاسكان في افريقيا
ومعنى كلمة بربر

يزعم الجغرافيون والمؤرخون أن افريقيا في القديم كانت خالية من السكان باستثناء أرض السودان. ومن المؤكد لديهم أن بلاد البربر ونوميديا لم تكن كل منها مسكونتين طوال عدة قرون. ويعرف سكانها البيض بالبربر، وهي كلمة مشتقة، حسب رأي بعضهم، من الفعل العربي بربر بمعنى هَمَس، لأن اللهجة الافريقية كانت عند العرب بمثابة أصوات الحيوانات العجماوات. ويرى البعض الآخر أن بربر مكرور (بر) الذي هو الصحراء باللغة العربية. يحكى أن الملك افريقش، عندما غلبه الأشوريون أو الاثيوبيون، هرب إلى مصر. ولما وجد نفسه مطارداً عاجزاً عن مقاومة العدو، استشار قومه في أي سبيل يسلكونه للنجاة، فأجابوه صارخين: «البربر!» أي إلى الصحراء! معبرين بذلك عن كونهم لا يعرفون أي حل سوى عبور النيل واللجوء إلى صحراء افريقيا. وهذا التفسير لكلمة بربر متفق مع رأي من يقول ان أصل الأفارقة من اليمن(18).

---

(18) أطلق الاغريق القدماء بربروس على الأجنبي الذي يتكلم بلغة لا يفهمونها، ثم تبعهم اللاتينيون في هذا الاطلاق. وربما وجد العرب هذا اللفظ يطلق على الأهالي عندما فتحوا شمال افريقيا.

أصل الأفارقة

لم يختلف مؤرخونا كثيراً في أصل الأفارقة، فيرى البعض أنهم ينتمون إلى الفلسطينيين الذين هاجروا إلى افريقيا حين طردهم الأشوريون، فأقاموا بها لجودتها وخصبها، ويزعم آخرون أن أصلهم راجع إلى السبئيين (أي الحميريين) الذين كانوا يعيشون في اليمن قبل أن يطردهم الأشوريون أو الاثيوبيون منها ـ كما أسلفنا ـ، بينما يدعي فريق ثالث أن الأفارقة كانوا يسكنون بعض جهات آسيا، فحاربتهم شعوب معادية لهم، وألجأتهم إلى الفرار إلى بلاد الاغريق الخالية آنذاك من السكان، ثم تبعهم أعداؤهم إليها، فاضطروا إلى عبور بحر المورة واستقروا بافريقيا، بينما استوطن أعداؤهم بلاد الاغريق[19]. كل هذا خاص بالأفارقة البيض القاطنين في بلاد البربر ونوميديا.

أما الأفارقة السود بمعنى الكلمة فإنهم جميعاً من نسل كوش بن حام بن نوح. ومهما اختلفت مظاهر الأفارقة البيض والسود، فإنهم ينتمون تقريباً إلى نفس الأصل، ذلك أن الأفارقة البيض، إما أتوا من فلسطين ـ والفلسطينيون ينتسبون إلى مصرائيم بن كوش ـ، وإما من بلاد سبأ، وسبأ ابن هامة بن كوش ـ[20]. وهناك افتراضات أخرى لا أذكرها

---

(19) يلخص الحسن الوزان هنا مسألة اهتم بها المؤرخون القدماء منذ هيرودتس، وكلف بها المؤلفون العرب، ولم تزل تشغل بال المؤرخين المعاصرين الذين يعجبون من وجود شعوب عديدة يختلف نوعها البشري أشد الاختلاف ولا تعرف أي وحدة سياسية، تكون شعباً حقيقياً متحد اللغة عريقاً في القدم رغم تنوع لهجاته، ذا طابع خاص لم يتغير منذ القدم. إن العلم الحديث يهتم بمعطيات واضحة للشعوب الشمالية من بين البربر، ولكن الاقدمين لم يعتبروا سوى هجرات المشارقة، بحيث أصبح البربر ولغتهم يعتبران من النوع الحامي. ومن الغريب أن يتحدث الوزان عن «هجوم شعوب البحر» قبل عدة قرون من اكتشاف الوثائق المصرية.

(20) سبا هذا مذكور في التوراة (×، 7) لكن السبئيين في القرآن الكريم هم رعايا بلقيس ملكة سبا اليمنية التي جاءت إلى سليمان (الاية 22 من سورة النمل، و 15 من سورة =

بالضبط لأني لم أر منذ عشر سنوات ولم أمس أي كتاب في التاريخ الإسلامي.

تقسيم الأفارقة البيض إلى عدة شعوب

ينقسم الأفارقة البيض إلى خمسة شعوب: صنهاجة، ومصمودة، وزناتة، وهوارة، وغمارة. تسكن مصمودة الجزء الغربي للأطلس من حاحا إلى وادي العبيد، وكذلك الجهة المواجهة للجنوب وجميع السهول المجاورة. وتحتل أربعة أقاليم هي حاحا، وسوس، وجزولة، وناحية مراكش.

وتسكن غمارة جبال موريطانيا أي المحاذية للبحر المتوسط، وتحتل الساحل المسمى بالريف، والذي يبتدىء من أعمدة هرقل ليصل شرقاً إلى تخوم مملكة تلمسان التي يسميها اللاتينيون قيصرية[21]. ويعيش هذان الشعبان منعزلين عن سائر الشعوب الذين يختلطون عادة بعضهم ببعض وينتشرون في افريقيا كلها، لكنهم يتميزون فيما بينهم كما يتميز الأهلي عن الأجنبي. وهم دائماً في حروب وخصام مستمر، لا سيما النوميديون منهم.

ويذهب كثير من المؤلفين إلى أن عدد هؤلاء الشعوب الخمسة هو نفس عدد الذين كانوا يعتادون العيش في البادية تحت الخيام. ويؤكدون أنهم كانوا قديماً في حروب طويلة بينهم، وأن المغلوبين الذين أصبحوا أرقاء للمنتصرين اضطروا إلى السكنى في المدن، بينما استولى الغالبون على

= سبأ). وسبأ ـ في الرواية العربية ـ هو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان، وهو أول ملوك اليمن (حوالي القرن 20 ق. م.) تفرق أولاده العشرة بعد سيل العرم، فكانوا أصولاً تفرّع منهم سكان الجزيرة العربية.

(21) قيصرية اللاتين عاصمتها شرشال كانت تشكل تقريباً مملكة تلمسان.

البوادي التي استقروا فيها. ويؤيد هذه النظرية وحدة اللهجة عند كل من البدويين والحضريين: فبدو زناتة مثلاً يتكلمون بنفس اللهجة التي يتكلم بها حضرهم، وكذلك الحال عند سائر الشعوب(22).

ويتعايش في بادية تامسنا ثلاثة من هذه الشعوب: زناتة، وهوارة، وصنهاجة متسالمين تارة ومتحاربين بضراوة أخرى، لعداوة قديمة بينهم فيما أعتقد.

وقد سيطر بعض هذه الشعوب مثل زناتة على افريقيا كلها، وهم الذين طردوا آل ادريس، مؤسس مدينة فاس وملكها الشرعي. ويسمى هذا الفرع الزناتي مكناسة. ثم جاء من نوميديا فرع زناتي آخر يدعى مغراوة وطرد مكناسة واحتل المملكة مكانها. ولم يمض وقت قصير حتى جاء من صحراء نوميديا قوم ينتمون إلى صنهاجة ويعرفون بلمتونة، فطردوا الزناتيين واستولوا على بلاد تامسنا كلها وقضوا على سكانها باستثناء رهط من جنسهم نقلوهم إلى دكالة، وهم الذين أسسوا مدينة مراكش(23).

واتفق بعد ذلك أن رجلاً عظيم الشأن في أمور الدين يدعى المهدي ثار على اللمتونيين وتحالف مع هرغة التي هي فرع من مصمودة. وقد تمكن المهدي من أن يطرد لمتونة ويبايع هو ملكاً، وخلفه بعد موته تلميذه عبد المؤمن من بني ورياكل واستمر الملك في أولاده زهاء مائة وعشرين سنة. حكموا خلالها افريقيا كلها تقريباً إلى أن قضى عليهم المرينيون

(22) يقصد الكاتب أن برابرة المدن وبرابرة البوادي لا يختلفون إلا بوضعيتهم الاجتماعية، فالعيش تحت خيام الوبر رمز الحرية والشرف، بينما حياة الحضر هي رمز الذلة والعبودية.

(23) حارب اللمتونيون (المرابطون) فعلاً البرغواطيين الضالين المنتشرين في بلاد تامسنا وقضوا عليهم بعد أن سقط قائد المرابطين عبد الله بن ياسين قتيلاً في المعركة، وخلفه يوسف ابن تاشفين الذي أسس مدينة مراكش عام 1062/454 وقعد قواعد الدولة اللمتونية المرابطية.

الزناتيون. ودامت دولة هؤلاء نحو مائة وسبعين سنة، فانتزع الملك منهم بنو وطاس، وهم فرع من لمتونة[24].

وكان بنو مرين في حرب مستمرة ضد بني زيان ملوك تلمسان، وأصلهم من قبيلة صنهاجة فرع مغراوة، وضد الحفصيين ملوك تونس، وهم من قبيلة هنتاتة فرع مصمودة[25].

هكذا نرى كم كان كل واحد من هذه الشعوب الخمسة يكافح ويعمل جاهداً في هذه النواحي. والواقع أن غمارة وهوارة لم تنجبا قط ملوكاً حقيقيين، وإنما كانت لهم إمارات في بعض الأقاليم الخاصة، كما هو مذكور في تواريخ الأفارقة. وقد تولوا هذا الحكم على أثر فتح المسلمين لافريقيا. وبعد ذلك اتخذ كل شعب منهم سكناه على حدة في البادية وجعل يساند أبناء عشيرته، مقسمين الأعمال الضرورية للحياة فيما بينهم، يشتغل سكان البادية بتربية الماشية، ويتعاطى سكان المدن الصناعات اليدوية والفلاحة.

وتنقسم كل هذه الشعوب الخمسة في جملتها إلى عدة أفخاذ، كما ذكر ذلك أحد كتابهم وهو ابن الرقيق الذي قرأت تاريخه مراراً، إلا أن معظم المؤرخين يزعمون أن ملك تمبكتو الحالي وملك مالي السابق وملك أكدز ينتمون إلى قبيلة زناكة الصحراوية[26].

---

(24) يقصد ولا شك زناتة، لأن الوطاسيين أبناء عمومة المرينيين

(25) كان بنو زيان عمالاً للموحدين ملوك مراكش على تلمسان، كما كان الحفصيون عمالاً للموحدين على تونس. فلما ضعفت دولة الموحدين استبد كل من الزيانيين والحفصيين بالحكم، فأسس الأولون إمارة تلمسان التي ستستمر إلى عام 1555/962، والأخيرون إمارة تونس التي ستنتهي عام 1573/981، وذلك على يد الأتراك العثمانيين.

(26) زناكة تحريف لصنهاجة شائع في أماكن متعددة بالصحراء. ويذكر النسابة السودانيون، مثل أحمد بابا، أن كثيراً من الأسر السودانية النبيلة صنهاجية الأصل.. ويبدو أن فرقاً من صنهاجة التي سكنت الصحراء نزلت في فترات متعددة إلى بلاد =

اختلافات اللغة الافريقية وموافقاتها

إن هذه الشعوب الخمسة المنقسمة إلى مئات السلالات وآلاف المساكن تستعمل لغة واحدة تطلق عليها اسم أوال أمزيغ، أي الكلام النبيل، بينما يسميها العرب البربرية. وهي اللغة الافريقية الأصيلة الممتازة والمختلفة عن غيرها من اللغات. ولما كانت مشتملة على عدد من المفردات العربية استدل البعض بذلك على أن الأفارقة ينتمون إلى السبئيين، وهم سكان اليمن كما أسلفنا. لكن أنصار الرأي المخالف يؤكدون أن هذه المفردات إنما أدخلها العرب عندما جاؤ وا إلى افريقيا وفتحوها. وكانت هذه الشعوب في حالة من البداوة والجهالة بحيث لم تترك أي كتاب يؤ يد احدى النظريتين، على أن هناك اختلافاً بين اللهجات لا في النطق فحسب، ولكن أيضاً في معنى كثير من الألفاظ. والأفارقة الذين هم أقرب إلى مساكن العرب وأوثق صلة بهم هم أكثر الأفارقة استعمالاً للكلمات العربية في لهجتهم. فغمارة إلا أقلهم يستعملون العربية، لكنها عربية رديئة، وكذلك الشأن في عدد كبير من قبائل هوارة. والسبب في ذلك أن هذه الشعوب على اتصال شفوي مستمر مع العرب.

أما في بلاد السودان فاللغات متباينة، تسمى احداها **سونغاي** وتستعمل في عدة نواح، كولاتة، وتمبكتو، وجني، ومالي، وكثاوو، بينما تدعى لغة أخرى كوبر وتستعمل في بلاد كوبر، وكانو، وكاسنا، وبرزكزك، ووانكرة[27]. وهناك لغة في بورنو[28] تشبه المستعملة في كاوكاو[29]، وأخرى بقيت مستعملة في مملكة النوبة تختلط فيها العربية والسريانية والقبطية.

= السودان واختلطت بالسكان الأصليين عن طريق الزواج، ولا سيما في القرنين الرابع والخامس للهجرة 10 و 11 م.

(27) هي لهجة الحوصة.

(28) هي لهجة الكنوري.

(29) هي لهجة الكنمبو.

وفي جميع المدن الافريقية الواقعة على شاطىء البحر المتوسط[30] إلى جبال الأطلس يتكلم الناس على العموم بلغة عربية فصيحة، ما عدا في مملكة مراكش وفي مدينة مراكش نفسها، فإن اللغة المستعملة هي البربرية وهذه اللغة مستعملة أيضاً في بلاد نوميديا، أو على الأقل عند النوميديين المجاورين لموريطانيا والقيصرية، لأن الشعوب المجاورة لتونس تتكلم كلها بلغة عربية فاسدة.

العرب القاطنون في مدن افريقيا

ان الجيش الذي أرسله عثمان ثالث الخلفاء الراشدين في العام الرابع والعشرين للهجرة، حمل إلى افريقيا عدداً كبيراً من العرب يناهز الثمانين ألفاً من الأشراف وغيرهم[31].

ولما فتح الكثير من المناطق، عاد إلى الجزيرة العربية تقريباً جميع الأعيان والأشراف، ولم يبق مع المخلفين إلا قائد الجيش المدعو عقبة بن نافع. وقد بنى مدينة القيروان وحصّنها، إذ كان يخشى أن يخذله سكان الساحل وترد عليهم إعانة من جزيرة صقلية فيحاربوه بها. لذلك تراجع إلى داخل الصحراء حاملاً معه جميع الثروات التي غنمها، وأسس مدينة القيروان على بعد نحو 120 ميلاً من قرطاج[32] وأمر القواد العسكريين

(30) لعل المؤلف يقصد شاطىء المحيط الأطلنطيقي، لأن سهوله هي مواطن القبائل العربية، كما هو معروف، ولأنها هي الممتدة إلى جبال الأطلس كما ورد في نص المؤلف. ويؤكد ذلك استثناؤه مملكة مراكش الواقعة في جنوب سهول الشاطىء الأطلنطيقي.

(31) يمكن أن يكون هذا العدد صحيحاً إذا اعتبرنا الحملات المتلاحقة من عهد الخلفاء الراشدين إلى أيام الأمويين الأولين.

(32) على بعد 192 كلم من تونس العاصمة.

والمدنيين الذين أقاموا معه أن ينزلوا في الأماكن الأكثر مناعة والتي يسهل الدفاع عنها، وأن يشيدوا قلاعاً وحصوناً حيث لا توجد ففعلوا[33].

وعندما أمن العرب، أصبحوا مواطنين بهذه البلاد ممتزجين بالأفارقة. وكان هؤلاء قد اتخذوا آنذاك اللغة الإيطالية لغة لهم بعد أن خضعوا مدة طويلة لحكم الإيطاليين. لذلك فإن العرب الذين عاشوا بين الأفارقة وظلوا على اتصال دائم بهم فسدت لغتهم وصارت خليطاً من اللهجات الافريقية، وامتزج الشعبان المختلفان شعباً واحداً، غير أن كل عربي وبربري ظل يحتفظ بكتابة عمود نسب آبائه، وهذا شيء من الأهمية بمكان، يمكن كل عدل أو محرر عقد رسمي أن يذكر اسم المعني بالأمر وأصله عربياً كان أو بربرياً.

العرب القاطنون بإفريقيا تحت الخيام لا في الدور

كان الخلفاء المسلمون يمنعون الأعراب دائماً من اجتياز النيل بأهلهم وخيامهم، إلى أن كان عام 400 للهجرة، فأذن لهم بذلك أحد الخلفاء الشيعيين، لأن شخصاً صديقاً مواليًا له كان قد ثار واستولى على مدينة القيروان ومعظم بلاد البربر، وتوارث الملك بعد وفاته أولاده مدة من الزمن[34].

(33) كان معاوية بن حديج قد أقام القيروان في سفح جبل وسلات، فحول عقبة هذا المركز إلى السهل الرملي الذي هو الموقع الحالي للقيروان ليكون في مأمن من الهجمات المتوقعة من الجبال. وقد قتل عقبة بن نافع عند رجوعه من المغرب الأقصى في كمين أعد له قرب بسكرة عام 63 هـ/ 683 م.

(34) تحدث المؤلف هنا بالتقريب معتمداً فقط على ذاكرته، دون أن تكون له كتب يرجع إليها ليتأكد من تسلسل الأحداث وضبط تواريخها. فذكر أن هجرة الأعراب من مصر إلى افريقيا في عام 400، وقد كانت في الواقع عام 441 هـ/ 1050 م. أمر بها الخليفة الفاطمي المستنصر بالله انتقاماً من الزيريين الصنهاجيين أمراء القيروان الذين قطعوا =

قرأت في كتب تاريخ افريقيا أنه في أيام القائم، ملك هذه الدولة البدعية وإمامها، اتّسعت امبراطوريته وتكاثر أتباعه، فبعث إلى الغرب غلاماً له يدعى جوهراً، وكان مولاه وكاتبه، على رأس جيش عرمرم فتح به جميع بلاد البربر ونوميديا إلى أن وصل إلى الجنوب، ثم رجع إلى سيده بكل ما جمع من خراج هذه البلاد وإتاواتها، ذهباً وغيره.

ولما تأكد الخليفة من قيمة هذا الرجل ورأى ما أحرز عليه من انتصارات، عزم على أن يكلفه بمهمة أكثر خطورة، فأطلعه عليها وأجابه جوهر قائلاً: «أتعهد لك يا مولاي أنني كما فتحت لك هذه الأقاليم الغربية سأفتح ممالك الشرق، أي مصر وسوريا وكل الجزيرة العربية، وسأنتقم لك بذلك من كل ما ارتكبه العباسيون من بغي وظلم ضد أسلافك. ومهما كانت المخاطر والمصاعب التي ستواجهني، فلن يقر لي قرار حتى أبوئك عرش أسلافك الشرفاء الكرام الأمجاد».

تأثر الخليفة بشجاعة مولاه واطمأن إلى قوله، فاستنفر جيشاً مؤلفاً من ثمانين ألف رجل جعل على رأسه جوهراً مفوضاً له الأمر مزوداً إياه بكثير من الأموال والأقوات. سار الغلام الوفي على رأس جيشه مخترقاً الصحراء الفاصلة بين بلاد البربر وديار مصر، وقبل أن يصل إلى الاسكندرية فرَّ والي مصر ملتحقاً بالخليفة العباسي ببغداد(35).

= دعوة الفاطميين وخلعوا طاعتهم. وقد أضعفت فعلاً هجرة أعراب بني هلال سلطة الزيريين إلى أن قضى عليهم نهائياً عبد المؤمن الموحدي عام 555 هـ/ 1160 م.

وكذلك الشأن فيما حكاه المؤلف بعد هذا مما كان قرأه في كتب التاريخ عن اتساع الدولة الفاطمية غرباً وشرقاً.

انظر تفاصيل هذه الأحداث بدقة عند الدكتور حسن ابراهيم حسن في كتابه «تاريخ الدولة الفاطمية».

(35) كانت مصر آنذاك خاضعة لأمراء الدولة الاخشيدية التابعين لخلفاء بني العباس ببغداد.

هكذا استولى جوهر على كل بلاد مصر وسوريا في أمد قريب دون أن يلقى مقاومة كبيرة، إلاَّ أنه لم يطمئن باله، وأخذ يتساءل عما إذا فاجأه خليفة بغداد بجموع جيش آسيا، وأرغمه بهجوم مضاد قوي على فقدان وسائل الدفاع وجيوش البربر في آن واحد. لذلك عزم على أن يشيد حصناً يأوي إليه رجاله عند الاقتضاء ويقاومون هجوم العدو(36). فبنى مدينة أحاطها بالأسوار، وأقام على حراستها من كانوا عنده محط الثقة الكبرى ومعهم طائفة من الجند. وقد سمى هذه المدينة القاهرة «أي التي تقهر» ويدعوها الأوربيون عموماً (Le Caire) فلم تزل تنمو وتتسع أحياؤها ويتكاثر سكانها داخل الأسوار وخارجها حتى أضحت لا تضاهيها أية مدينة أخرى في العالم.

ولما رأى جوهر أن خليفة بغداد لم يحاول مقاومته، أخبر سيده بأن جميع البلدان التي احتلَّها قد تم خضوعها وعاد إليها السلم، وأنها محروسة مستعدة للدفاع. وإذا ما ارتأى سيادته أن يذهب بنفسه إلى مصر، فإن مجرد حضوره سيساعد على فتح ما بقي من البلاد أكثر مما يساعد على ذلك مئات المحاربين، وسيكون من شأن ذلك أن يتخلى خليفة بغداد عن الإمامة والملك ويفر بنفسه.

وعندما طرق هذا الكلام الجميل سمع الخليفة الفاطمي، أعدَّ جيشاً عظيمًا وذهب غير مبالٍ بما عسى أن يعترضه، مهتبلاً بهذه الفرصة الجديدة، بعد أن ولى على بلاد البربر قائداً أميراً من صنهاجة لم يكن صديقاً له

(36) لم يكن تهديد الفاطميين من قبل خليفة بغداد، وإنما كان التهديد من القرامطة الذين هاجموا العباسيين واقتطعوا الكثير من مناطق نفوذهم. انظر: ح. ابراهيم حسن، «تاريخ الدولة الفاطمية»، ص 157-160. وانظر: أصل القرامطة واتساع نفوذهم عند ابن خلدون «العبر»، 3:736-747، 4:181-200.

فحسب، بل خادم بيته[37]. ولما وصل إلى القاهرة استقبله مولاه بغاية الخضوع. ثم ظهرت له عدة مشاريع وأرسل جنده لمحاربة خليفة بغداد[38].

وفي هذه الأثناء تمرَّد حاكم بلاد البربر (الصنهاجي) وعرض طاعته على خليفة بغداد الذي رحَّب بهذا العرض ومنحه مزايا عظيمة وعيَّنه ملكاً على افريقيا كلها. علم القائم[39] بهذا الخبر وهو في القاهرة، فكبر عليه الأمر، لأنه كان خارجاً عن مملكته وقد أنفق كل ما حمل معه من ذخائر الذهب والمؤن وحار في أمره وأخذ يصب لعناته على مولاه (جوهر) الذي أشار عليه بالقدوم إلى القاهرة. وقد كان عنده كاتب عالم ذكي اسمه أبو محمد الحسن[40] أدرك سبب ندم مخدومه وأنه هالك لا محالة إن لم يعالج الحالةالتي هو عليها، فأخذ يواسيه ويقول له: «مولاي! إن الدهر قلب، فلا تفقد الثقة في قوتك من أجل ما أصابك أخيراً. وإذا قبلت رعاك الله الرأي الذي سأعرضه عليك أنا خادمك الوفي بكل نية وإخلاص، فلا شك أنك ستسترجع عما قريب كل ما سلبك إياه الثوار، وتدرك بعد ذلك كل ما تتمناه دون أن تستأجر أي جندي، بل أريد أن يكون الجيش الذي سأجعله بين يديك هو الذي يؤدي لك الثمن لسبب سأشرحه لك».

---

(37) خرج الخليفة المعز لدين الله من عاصمته المنصورية (مدينة صبرة المتصلة بالقيروان) يوم الأربعاء 22 ذي القعدة عام 361/4 سبتمبر 972 بعد أن استخلف على افريقية بلكين بن زيري الصنهاجي وأمر الناس بطاعته.

(38) بل حارب الفاطميون القرامطة ومن معهم من ثوار الأتراك، انظر: «**تاريخ الدولة الفاطمية**».

(39) يستعمل المؤلف هنا لقب القائم بتجوز، لأن هذا اللقب خاص بثاني الخلفاء الفاطميين أبي القاسم محمد بن عبيد الله المهدي المتوفى عام 334/946. وكان المتولي للخلافة أيام استبداد الزيريين بحكم إفريقيا هو المستنصر بالله ثامن الخلفاء الفاطميين، المتوفى عام 487/1094.

(40) هو الحسن بن علي اليازوري قاضي قضاة مصر الذي عين وزيراً عام 442/1050 وقتل عام 450/1058.

طابت نفس الخليفة لهذا الكلام، وسأل: كيف يكون ذلك؟ فتابع الكاتب كلامه قائلاً: «إنك تعلم يا مولاي أن سكان الجزيرة العربية تكاثروا إلى حد أن البلاد أصبحت اليوم لا تسعهم جميعاً، وما تنتجه الأرض يكاد لا يكفي لعلف الماشية لشدة قحطها. والناس لا يشكون فيها قلة الأماكن للسكنى فحسب، وإنما يعانون أيضاً قلة الطعام، لهذا فإنهم سيهاجرون إلى افريقيا إن أذنت لهم. فَأْذَنْ لهم بالهجرة، وسأضع بين يديك بسبب ذلك كمية هائلة من الذهب»(41).

ولما أنهى الكاتب كلامه لم يقتنع الخليفة كثيراً بنصيحته، إذ اعتبر أن الأعراب سيخربون افريقيا فلا يستفيد من ذلك هو ولا الثائر، لكنه رأى من جهة أخرى أنه فقد مملكة إفريقيا على أي حال، فأخف الضررين أن يحصل على مبلغ طائل من المال كما وعده بذلك مستشاره، وأن يثأر من عدوه في نفس الوقت، بدلاً من أن يفقد الأمرين معاً. لذلك أمر كاتبه أن ينشر مرسوماً يقضي بأن كل اعرابي يؤدي ديناراً فقط(42) يسمح له بالعبور إلى افريقيا بكل حرية، شريطة أن يحلف أنه سيعامل الأمير الثائر معاملة العدو. فكان ذلك، وعبر نحو عشر قبائل عربية، أي نصف سكان

---

(41) تختلف الروايات التاريخية المعروفة قليلاً عما أورده المؤلف هنا بحكم اعتماده على الذاكرة أيضاً. والمعروف أن المعز بن باديس الصنهاجي حاكم افريقيا قطع الخطبة باسم الفاطميين على منابره وأحرق بنود المستنصر ومحا اسمه من السكة والطرز سنة 443 هـ/ 1051 م، ودعا للخليفة العباسي القائم بأمر الله، فجاءه خطابه وكتاب عهده فقرىء بجامع القيروان ونشرت الرايات السود العباسية، انظر: «الاستقصا»، 2:147-148.

(42) هنا أيضاً إجمال وبعض اختلاف، إذ بعث المستنصر وزيره اليازوري إلى بني هلال وبني جشم المقيمين بصعيد مصر وأرضخ لأمرائهم في العطاء، ووصل عامتهم ببعير ودينار لكل واحد منهم، وأباح لهم إجازة النيل، فعبروه ونزلوا ببرقة واستباحوها وأعجبتهم البلاد، فكتبوا إلى إخوانهم الذين بقوا شرقي النيل يرغبونهم في البلاد، فأجازوا إليهم بعد أن أعطوا المستنصر دينارين لكل رأس، فأخذ منهم أضعاف ما أخذوه. (انظر: «الاستقصا»، 2:148).

صحراء الجزيرة العربية، وبعض بطون قبائل اليمن. كان عدد الرجال المحاربين يناهز خمسين ألفاً، ولا يكاد يحصى عدد النساء والأطفال والبهائم، وقد أحصاهم عدداً المؤرخ الافريقي ابن الرقيق المذكور آنفاً(43). وهكذا قطع العرب في وقت وجيز الصحراء التي قلنا انها تفصل بين مصر وبلاد البربر، فتوقفوا أولاً لمحاصرة طرابلس حتى أخذوها عنوة ونهبوها وقتلوا كل من أمكنهم قتله بها، ثم توجهوا إلى قابس وخربوها، وأخيراً أقاموا الحصار على القيروان التي تحصَّن فيها الأمير الثائر بكل ما يحتاج إليه من زاد وغيره مدة ثمانية أشهر انتهت بدخول الأعراب إلى المدينة عنوة ونهبها وقتل الثائر بها صبراً(44).

وبعد ذلك اقتسم هؤلاء الأعراب جميع البوادي وسكنوها، وفرضوا على كل مدينة ضرائب وتكاليف جسيمة، وظلوا سادة هذه الناحية من افريقيا إلى أن ظهر يوسف بن تاشفين أول ملوك مراكش، فبالغ المجهود في إسعاف أقارب الثائر الهالك، وما زال يعمل إلى أن حرر المدن من سيطرة الأعراب الذين استقروا رغم ذلك في البوادي يقتلون وينهبون ما استطاعوا، بينما بقي أهل الأمير الثائر يحكمون في أماكن مختلفة.

ولما تولى الحكم أمير المؤمنين المنصور رابع الملوك الموحدين عزم على محاربة أبناء الأمير الثائر وحرمانهم من كل سلطة، خلافاً لأسلافه الذين

---

(43) يبدو أن ابن الرقيق لم يتكلم عن هجرة بني هلال لأن الأحداث التي يتحدث عنها تنتهي عام 417 هـ/ 1027 م. وربما أراد المؤلف أن يقول ابن رشيق، فكلا الرجلين من القيروان. ولابن رشيق الأديب «تاريخ القيروان»، و «ميزان العمل في تاريخ الدول».

(44) انتصر العرب، وعددهم ثلاثة آلاف، على أمير افريقيا المعز بن زيري وجيشه المؤلف من ثلاثين ألف جندي عام 1052/443، ثم نازلوه بالقيروان وطال عليه أمر الحصار إلى أن افتتحها العرب ونهبوها وفرَّ المعز إلى المهدية متحصناً بها إلى أن مات 1052/454. وتوارث أبناؤه من بعده إمارة المهدية إلى أن قضى عليهم نهائياً الموحدون. انظر ابن خلدون «العبر»، 6:31، وما بعدها.

أشفقوا عليهم وأصلحوا حالهم. لجأ المنصور إلى الحيلة وعقد معهم معاهدات، ثم دفع العرب إلى محاربتهم، فانتصروا عليهم دون عناء، وبعد ذلك نقل المنصور أهم قبائل الأعراب إلى الممالك الغربية، فأسكن أشرفهم بدكالة وأزغار، وأدناهم بنوميديا[45].

وبعد ذلك استرجع أعراب نوميديا حريتهم من النوميديين الذين استعبدوهم، واستولوا بالغلبة على الجزء الذي منحهم إياه المنصور، موسعين إقليمهم يوماً بعد يوم. وأما النازلون بأزغار وباقي نواحي موريطانيا فاستعبدوا أيضاً جميعاً، لأن الأعراب خارج الصحراء كالسمك خارج الماء. وكان بالإمكان أن يذهبوا إلى الصحراء لو لم يمنعهم من ذلك امتلاك البربر لمسالك الأطلس، كما كان عليهم من جهة أخرى ألا يحاولوا أي توغل في البوادي لأنها خاضعة لغيرهم من الأعراب. فأقبلوا على رعي الماشية وحرث الأرض متخلين عن كبريائهم، وعاشوا مع ذلك تحت الخيام لا في الأكواخ والدور الخشنة. وزاد من فقرهم أنهم كانوا مرغمين على أداء إتاوة سنوية لملك فاس، بخلاف أعراب دكالة الذين أعفوا من كل التكاليف، محتمين بوفرة عددهم.

وتخلف بعض الأعراب في ناحية تونس العاصمة، لأن المنصور امتنع عن أخذهم معه، فاستولوا بعد ذهابه على تونس، وملكوا البلاد إلى أن قام بعض الأمراء الحفصيين، فاتفقوا معهم على أن يتركوا لهم السيادة المطلقة شريطة أن يعطيهم الحفصيون نصف الأعشار وما يستخلصونه مما تُنتجه المملكة[46]، لكن ملوك تونس لم يستطيعوا إرضاء جميع الأعراب، لأن

(45) عبارة ابن خلدون («العبر»، 46:6) هكذا «وراجعت قبائل جشم ورياح من الهلاليين طاعته ــ أي المنصور ــ ولاذوا بدعوته فنفاهم إلى المغرب الأقصى، وأنزل جشم ببلاد تامسنا ورياحاً ببلاد الهبط وأزغار مما يلي سواحل طنجة إلى سلا».

(46) استبد الحفصيون، وكانوا حكاماً لتونس من قبل الموحدين، بأمر تونس عام 1320/627، وأسسوا بها دولة مستقلة استمرت أزيد من ثلاثة قرون إلى أن تغلب =

عددهم يفوق إمكانيات المداخيل ومنتجات البلاد، فوزعوا ذلك على طائفة منهم شريطة أن يحافظوا على الأمن في البوادي، ففعلوا ولم يسيؤوا إلى أحد. وأما الأعراب المحرومون فإنهم أخذوا يتعاطون النهب والقتل وارتكاب أفظع الجرائم، وكثيراً ما يتربصون في الكمائن، حتى إذا مر بهم مسافر خرجوا وجردوه من المال والثياب، ثم فتكوا به؛ فأصبحت الطرق غير آمنة البتة. والتجار الذين يريدون الذهاب من عاصمة تونس إلى مدينة أخرى لقضاء بعض الحاجات يصحبون معهم خفيراً من أصحاب البنادق، إلّا أنهم يتعرضون لأحداث خطيرة: أولها أداء مبلغ ضخم من المال للعرب المأجورين من قبل الملك ليسمحوا لهم بالمرور، وثانيها وأقبحها التعرض في كثير من الأحيان لهجوم الأعراب الآخرين، فلا يغني عنهم شيئاً خفير النجاة المصاحب لهم، ويفقدون أموالهم وأرواحهم معاً.

أصناف العرب الذين سكنوا إفريقيا وسموا بالعرب المستعجمة(47)

ينتمي العرب الذين دخلوا افريقيا إلى ثلاث قبائل: حكيم، وهلال، ومعقل. وتنقسم حكيم إلى ثلاثة فروع كبرى: اثبج، وسميت (؟)، وسعيد.

= عليهم الإسبانيون في مطلع القرن الهجري العاشر، وقضت عليهم نهائياً الحملة التركية الكبرى بقيادة الوزير سنان باشا عام 1573/981، فأصبحت البلاد التونسية ولاية عثمانية.

(47) لم يسر المؤلف هنا على نمط تقسيم ابن خلدون لقبائل العرب الداخلين إلى المغرب في القسم الأول من المجلد السادس من كتاب «العبر» بعنوان: الطبقة الرابعة من العرب المستعجمة (جزء 6، ص 3-174). والعذر للمؤلف في انعدام المراجع المكتوبة لديه أثناء التأليف. فقد احتفظت ذاكرته ببعض أصول القبائل وفروعها حسبما كتبه ابن خلدون، وذلك مثل بطون ذوي منصور، وذوي عبيد الله، وذوي حسان المتفرعة عن قبيلة معقل، إلّا أن التحريف الناتج عن الترجمات الأعجمية المتعددة للكتاب أفسدت كثيراً من أعلام القبائل وجعلت التعرف على اسمها الحقيقي متعذراً في بعض =

وتتفرع اثبج بدورها إلى ثلاثة فروع صغرى: دلاج، والمنتفق، وصبيح. كما تتفرع كل قبيلة من هذه القبائل إلى عدة بطون.

وتنقسم هلال من جهتها إلى أربعة فروع: بني عامر، ورياح، وسفيان، وهوازن ويتفرع بنو عامر إلى: عروة، وعقبة، وهبرة، ومسلم.

وتشتمل رياح على ذواد (دواودة)، وسويد، وأسجع، وحارث، والنضر (؟) وكرفة، بينما تتفرع هذه القبائل الست إلى عدة أسر.

وأما معقل ففروعها ثلاثة: مختار، وعثمان، وحسان.

تشتمل مختار على روحة، وسليم، وعثمان على حاسن، وكنانة، وحسان على ذوي حسان، وذوي عبيد الله، وذوو حسان على دليم، والأوداية، والبرابش، والرحامنة، وأحمر.

ويشتمل ذوو منصور على العمارنة، والمناهبة، وأولاد حسين، وأولاد أبي الحسين.

وينقسم بنو عبيد الله بدورهم إلى خراج وحدج، وثعلبة، وجعوان. وتتفرع كل هذه القبائل إلى بطون عديدة يصعب بل يستحيل استحضارها.

= الأحيان. على أن الاختلاف البيِّن بين ما عند ابن خلدون والحسن الوزان، في تعداد بعض البطون والعمائر والأفخاذ، راجع كذلك إلى تطور الأسماء تبعاً لتعاقب الأجيال، واختفاء بعض الأسر وانقراضها، وظهور أخرى مكانها على مسرح الأحداث بأسماء رؤسائها وأحيائها الجديدة، إذ لم يعتمد الحسن الوزان في معرفته للقبائل العربية على ما قرأه في كتب النسابين والمؤرخين، وإنما انتقل إلى ديارهم وعرفهم عن قرب كما سيصرح بذلك فيما يأتي.

وقد حرر أحمد الناصري في «الاستقصا» (جزء 2، ص: 145-161) أصول عرب المغرب وكيفية دخولهم إليه واستيطانهم إياه ملخصة من «تاريخ» ابن خلدون، و «جمهرة الأنساب» لابن حزم.

توزيع العرب
بحسب المناطق وذكر عددهم

كانت اثبج أشرف العرب وأنبههم شأناً، فاختارهم المنصور لسكنى دكالة وسهول تادلا. ويؤدون في أيامنا هذه ضرائب جسيمة لملك البرتغال تارة، ولملك فاس تارة أخرى. ويبلغ عددهم نحو مائة ألف مقاتل نصفهم من الفرسان.

وتخلفت سميت في بيداء ليبيا من أعمال صحراء طرابلس، وقليلاً ما يأتون إلى بلاد البربر، إذ لا نفوذ لهم فيها، ولم تخصص لهم بها أية منطقة يسكنونها. فهم مقيمون دوماً بالصحراء مع إبلهم، وعددهم تسعون ألف رجل على أهبة حمل السلاح، غالبهم من المشاة.

يسكن بنو سعيد نفس الصحاري الليبية، ويتعاملون معاملة صداقة وتجارة مع مملكة وركلة، ويكسبون عدداً وافراً من الماشية يمونون بلحومها جميع المدن والقرى المجاورة في فصل الصيف فحسب، لأنهم لا يغادرون الصحراء في فصل الشتاء. ويناهز عددهم مائة وخمسين ألف رجل، لا خيول لهم.

وينتشر دلاج في مناطق متعددة، فيعيش معظمهم في تخوم القيصرية ومملكة بجاية، ويتلقون إعانات مالية من الأمراء المجاورين لهم. وتسكن أصغر فرقهم سهل أدخسان[48] بتخوم موريطانيا والأطلس، وتؤدي الخراج لملك فاس.

ويسكن المنتفق سهل أزغار ويعرفون اليوم بالخلط[49] ويؤدون الخراج كذلك لملك فاس. ويقدر عددهم بثمانية آلاف فارس مجهز أحسن تجهيز.

---

(48) السهل الحالي لمدينة خنيفرة شمالي قصبة تادلا.

(49) مايزال الخلط يسكنون ضواحي مدينة القصر الكبير.

أما صبيح، أعني أهمهم وأعلاهم قدراً، فإنهم يعيشون في تخوم مملكة الجزائر، ويتلقون إعانات مالية من ملك تلمسان، ولهم في نوميديا أقاليم عديدة خاضعة لهم. ومن عادة هؤلاء الأعراب أن يرحلوا كذلك في فصل الشتاء إلى الصحراء لكثرة إبلهم. وتقيم فرقة أخرى من صبيح في السهول بين سلا ومكناسة[50]، ولهم أغنام وأبقار، يحرثون الأرض ويؤدون الخراج كذلك لملك فاس. ويقدر عددهم بأربعة آلاف فارس مجهز أحسن تجهيز.

رهط بني هلال ومواطنهم

أهم فرع لهذا الرهط هم بنو عامر المقيمون بتخوم مملكتي تلمسان ووهران، يرحلون إلى صحراء تيكورارين ويستأجرهم ملك تلمسان. وهم ذوو شجاعة فائقة وثروة طائلة، عددهم نحو ستة آلاف من أحسن الفرسان وأقواهم عتاداً.

أما عروة القاطنون بضواحي مستغانم فهم وحوش ولصوص، يرتدون أرذل لباس ولا يبتعدون عن الصحراء، إذ لا موطن لهم في بلاد البربر ولا إعانة مالية، وعددهم نحو ألفي فارس.

وتسكن عقبة ضواحي مليانة ويمدهم ملك تنس بقليل من المال، لكنهم فتاكون بدون شفقة ولا رحمة، وهم نحو ألف فارس.

وديار هبرة في السهل الممتد بين وهران ومستغانم، وهم فلاحون يؤدون الخراج لملك تلمسان، ولعل عددهم مائة فارس.

تسكن مسلم مفازة مسيلة الممتدة نحو مملكة بجاية، ويأخذون اتاوات من مسيلة وبعض القرى.

---

(50) ما تزال مساكن قبيلة صبيح معروفة وعامرة حتى اليوم شمال مدينة القنيطرة.

تقيم رياح بقفار ليبيا جنوبي قسنطينة، وتمتد سلطتهم على جزء من نوميديا، وينقسمون إلى ستة أفخاذ كلهم أبطال حرب نبلاء مجهزون أحسن تجهيز، وتصلهم إعانات مالية من ملك تونس، وعددهم خمسة آلاف فارس.

تقطن سويد القفار الممتدة نحو مملكة تنس، ولهم صيت بعيد وسيطرة واسعة وأجور يتقاضونها من ملك تنس، وهم شرفاء شجعان يمتلكون كل ما يحتاجون إليه.

تخضع أسجع لقبائل مختلفة من الأعراب، ويسكن معظمهم مع العمارنة في صحراء كرط، في حين يقيم فريق آخر منهم مع أعراب دكالة في نواحي آسفي[51].

يقيم الحارث بسهول حاحا[52] مع الشياظمة، ويتقاضون خراجاً من أهل حاحا، وهم ضعفاء.

يسكن النضر[53] كذلك سهول حاحا. وجميع هؤلاء الأعراب المقيمين بحاحا نحو أربعة آلاف فارس، كلهم سيؤو التجهيز هؤلاء وأولئك.

وتوجد كرفة في مواطن مختلفة بدون رؤساء، ويختلطون مع المنابهة والعمارنة، وهم الذين يحملون التمر من سجلماسة إلى مملكة فاس، ومنها يحملون الأقوات الضرورية لسجلماسة.

---

(51) هم سكان مدينة الغربية الخربة اليوم.
(52) ورد هذا الاسم محرفاً في الترجمة الفرنسية هنا هكذا (حلين) وقد كرر بعد ذلك مرتين باسم حاحا وهو مايقتضيه السياق.
(53) انقرضوا.

مواطن معقل وعددهم

تسكن روحة، وهم فرع من مختار، الصحاري المجاورة لدادس وفركلة. وهم فقراء لا يملكون إلّا قليلاً من الأرض، غير أنهم شجعان يحاربون وهم راجلون، حتى ليعتبر من العار عندهم أن ينتصر فارسان على راجل واحد. ولا يوجد من بينهم أحد مهما كان بطيئاً لا يمكنه أن يسرع في سيره إسراع أي فارس كيفما كان طول الطريق. وهم نحو خمسمائة فارس وثمانية آلاف راجل، ونعني بذلك رجال الحرب منهم (54).

يقيم بنو سليم قرب نهر درعة ويتنقلون عبر الصحراء. وهم أثرياء يذهبون كل سنة ببضائعهم إلى تنبكتو، ولهم بدرعة ممتلكات عديدة وأرض كثيرة للحرث وعدد وافر من الإبل. ويبلغ عددهم نحو أربعة آلاف فارس.

يقطن بنو حسين بساحل المحيط على تخوم ماسة، وهم نحو خمسمائة فارس تجهيزهم سيّىء جداً. ويقيم بعضهم بأزغار رعايا لملك فاس، بينما يتمتع الأولون بالحرية ولا يخضعون لأحد.

تسكن كنانة مع الخلط وتخضع كذلك لسلطة ملك فاس. وهم أشداء لديهم كل ما يحتاجون إليه، وعددهم ألفا فارس.

وينقسم ذوو حسين إلى دليم، وبرابش، وأوداية، وذوي منصور، وذوي عبيد الله (55).

---

(54) ما يزال أعراب روحة مجتمعين في بعض قصور درعة عارفين أصلهم العربي، لكنهم لا يتميزون اليوم عن سكان القصور الأخرى، فلم تبق لهم خيول ولا أية صفة مما ذكره المؤلف هنا.

(55) كرر المؤلف تقسيم ذوي حسين مخالفاً ما سبق أن ذكره في الفصل السابق عن أصناف الأعراب المتبربرين، فذوو منصور وذوو عبيد الله هنا وضعا موضع الرحامنة وأحمر هناك.

تساكن دليم الصنهاجيين الافريقيين في صحراء ليبيا، وليست لهم قيادة ولا يتقاضون أي أجر، فهم لذلك صعاليك ولصوص، كثيراً ما يأتون إلى درعة ليستبدلوا بمواشيهم التمر، ويرتدون أرذل لباس. يبلغ عددهم عشرة آلاف رجل، أربعمائة منهم فرسان والباقي راجلون.

يسكن البرابش أيضاً صحراء ليبيا في قسمها الموالي لإقليم سوس، وهم كثيرون وضعفاء، لكن لديهم كثير من الإبل، يحكمون تشيت التي لا تكفيهم حتى لتصفيح حوافر خيولهم القليلة.

تقطن الأوداية الصحاري الواقعة بين وادان وولاتة، ويبسطون نفوذهم على السودانيين، ولا يكاد يحصى عددهم. ويقدر المقاتلون منهم بسبعين ألف رجل لكن ليس لهم إلّا عدد قليل من الخيل.

يسيطر الرحامنة[56] على الصحراء المجاورة لأقا، وكذلك على تشيت التي اعتادوا الذهاب إليها كل شتاء، وخيولهم هم أيضاً قليلة.

تسكن أحمر صحراء تكانوت[57] ويتلقون بعض الإعانات المالية من سكان قرية تكاووست، ويتنقلون في الصحراء إلى واد نون، ويبلغ عدد محاربيهم نحو ثمانية آلاف رجل.

ذوي منصور

يقيم العمارنة، وهم فرع من ذوي منصور، في الصحاري المجاورة لسجلماسة، ويتنقلون في صحراء ليبيا إلى ايكيدي[58]، ويتقاضون الخراج من أهل سجلماسة وتدغة وتبلبالت ودرعة. يملكون واحات كثيرة تمكّنهم

(56) نقلوا بعد ذلك إلى شمال مراكش حيث ما يزالون هناك لحد الآن.
(57) لعلها تكاووست.
(58) معناه الرمل، ويقع في جنوب تفيلالت.

من العيش كأمراء، ويتمتعون بصيت كبير. فرسانهم نحو ثلاثة آلاف رجل. ويوجد من بينهم عدد وافر من أجلاف الأعراب، لكنهم يملكون كثيراً من الخيل والماشية، أمثال كرفة وأسجع.

وللعمارنة فرقة خاصة يمتد سلطانها على بعض الأراضي الزراعية الواقعة بنوميديا[59] ويتنقل أفرادها حتى صحراء فجيج، وتمدهم أراضيهم الزراعية وقراهم النوميدية بمداخيل كثيرة مهمة. ويأتي هؤلاء الأعراب في الصيف للمقام بإقليم كـرط على تخوم القسم الشرقي لموريطانيا. وهم نبلاء في غاية الشجاعة، لذلك اعتاد ملوك فاس أن يتخذوا كلهم تقريباً زوجاتهم من بنات هؤلاء الأعراب ويربطوا معهم وشائج القربى.

يسكن المنابهة هم أيضاً صحراء فجيج، وتمتد سيطرتهم على مطغرة والرتب من أقاليم نوميديا. وهم كذلك شجعان يأخذون بعض الإعانات المالية من سكان سجلماسة، ويبلغ عدد فرسانهم نحو ألفي رجل.

تنتمي قبيلة حسين هي أيضاً إلى ذوي منصور، وتساكن الجبليين في الأطلس. وتساهم بتقديم عدد من رجالها كسادة لكثير من الجبال الآهلة بالسكان والمدن والقصور التي أقطعهم إياها مختلف ملوك بني مرين، جزاء لما قدمته لهم هذه القبيلة من عون فائق في بداية دولتهم. وتباشر حسين سلطتها فيما بين مملكة فاس وسجلماسة، ويحكم رئيسهم مدينة تدعى كرسلـوين[60]. وينتقلون أيضاً في صحراء الظهرة[61] وهم أثرياء أقوياء، يبلغ عدد فرسانهم نحو ستة آلاف رجل، وغالباً ما يوجد من بينهم أعراب آخرون، لكنهم يعدون من أتباعهم.

---

(59) لعله يقصد بلاد البربر.

(60) تحمل أنقاضها حالياً اسم دوار، وتقع على ضفة نهر زيز في منطقة كير.

(61) بين دبدو وفجيج.

وتقيم فرقة من حسين في صحراء الظهرة هذه، لا يملكون غير القليل، ويعيشون في فقر مدقع لا يتمكنون معه حتى من المقام تحت خيامهم في هذه الصحراء. صحيح أن يقال انهم تمكنوا من الحصول على ممتلكات صغيرة في صحراء ليبيا، لكنهم يعيشون هنالك متضورين من الجوع، ويؤدون اتاوات لقومهم الآخرين.

ذوي عبيد الله

تكون خراج قسمًا من ذوي عبيد الله، ويسكنون في صحراء بني كومي[62] وفجيج. لهم أراضٍ زراعية كثيرة بنوميديا، وإعانات مالية يتلقونها من ملك تلمسان الذي لا يكاد يفتر في الحرص على حملهم على أن يعيشوا عيشة مسالمة شريفة، لأنهم لصوص يكادون يفتكون بكل من تصل إليه أيديهم. وهم نحو أربعة آلاف فارس، من عادتهم أن يرحلوا إلى نواحي تلمسان في فصل الصيف.

كانت ثعلبة تسكن سهل الجزائر وتتنقل في الصحراء حتى تكديت[63]، ولهم سيطرة على مدينتي الجزائر ودلس، لكن في وقتنا هذا انتزعهما منهم بربروس وبويع ملكاً، فدمّرت ثعلبة وكانت ذات شرف وشجاعة، يبلغ عدد فرسانها ثلاثة آلاف رجل.

تسكن الهدج صحراء مجاورة لتلمسان تدعى أنكاد، ليس لهم ممتلكات ولا إعانات، ولا يعيشون إلا على القتل والنهب، وهم نحو خمسمائة فارس.

تسكن جعوان في فرقتين، إحداهما مع الخراج والأخرى مع الهدج، لكنهم شبه رعايا لهم، وجعوان راضية بذلك.

---

(62) تقع قصور بني كومي على ضفاف نهر زوزفانة، وأهمها تغيت.

(63) لعله يقصد توات البعيدة عن الجزائر، وربما قصد تكدمت القريبة من تاهرت في منطقة سوسو.

والآن ينبغي القول ان الشعبين الأولين، أعني حكيمًا وهلالاً، من عرب نجد وينتسبون إلى اسماعيل بن ابراهيم (عليهما السلام) وأن الشعب الثالث ــ معقل ــ من اليمنْ وينتسب إلى سبأ. ويعتبر المسلمون آل اسماعيل أشرف من السبئيين، لذلك فإنه لما كانت القبائل لا تنقطع عن التنافر، نظم شعراء كل فريق قصائد منافرة يذكرون فيها مفاخر قومهم وفضائلهم وأمجادهم.

ولا بأس أن نعرف أيضاً أن العرب الأقدمين الذين عاشوا قبل ظهور اسماعيل كانوا يعرفون عند المؤرخين الأفارقة بالعرب العاربة، نسبة إلى جزيرة العرب. ويعرف العرب المنتمون إلى اسماعيل بالعرب المستعربة، أي الذين تعرّبوا عرضاً، لأنهم لم يولدوا عرباً. وأما الذين جاؤوا إلى افريقيا فيدعون بالعرب المستعجمة والعرب المتبربرة، لأن لغتهم فسدت مع طول الزمن لمساكنتهم أمة أجنبية فأصبحوا برابرة.

ويحسن الرجوع إلى تاريخ العرب لابن خلدون الذي ألفّ كتاباً ضخماً مخصَّص كله تقريباً لأنساب العرب المتبربرة، ولم يعلق منه بذاكرتي الضعيفة إلا ما يقرأ هنا، لأنني منذ أكثر من عشر سنين خلت، لم يقع بصري على أي كتاب في تاريخ العرب. إلا أنني رأيت تقريباً جميع القبائل العربية الآنفة الذكر، وتحدثت إلى أفرادها، وعلق بذهني بعض خصائصها.

عادات الأفارقة القاطنين بصحراء ليبيا وطرق عيشهم

إن الشعوب الخمسة التي ذكرناها، وهي صنهاجة، وونزكة، وتاركّة، ولمطة وبردوة، تعرف كلها عند اللاتينيين بالنوميدية[64] ويعيش جميع أفرادها بنفس الطريقة، دون أية قاعدة ولا منطق.

---

(64) الواقع أن اللاتينيين كانوا يطلقون اسم النوميديين على سكان شمال تونس والشمال الشرقي لإقليم قسنطينة الحالي. وكان في الجنوب الجتول والكرمانت بمنطقة فزان. ويبدو أن الصحراويين لم يطلق عليهم أي اسم خاص.

يتركّب لباسهم من عباءة ضيقة من الصوف الخشن، ويضع كل واحد منهم على رأسه أو يلف حول وجهه قطعة من النسيج الأسود على شكل عمامة. ويتميز الأعيان والأشراف عن غيرهم بقميص طويل عريض الأكمام من القطن الأزرق يبيعهم إياه تجار يأتون من أرض السودان. ولا يركبون غير الإبل يتخذون لها سروجاً خاصة يضعونها بين أسنمتها وأعناقها. ومنظر هؤلاء القوم على ظهور إبلهم جميل، يضعون أحياناً رجلاً على رجل فوق عنق الجمل، ويجعلون أرجلهم في سير بلا ركاب تارة أخرى، ويتخذون مهمازاً على رأس قضيب طوله ذراع، لكنهم لا يخزون به غير كتفي الدابة. وأنوف الجمال المعدة للركوب كلها مثقوبة على نحو بعض الجواميس بايطاليا، فيدخل في الثقب سير يقاد به الجمل كما يقاد الفرس باللجام.

ينام هؤلاء القوم على حصر من السمار الرقيق جداً، ويصنعون خيامهم من نسيج وبر الإبل وتلك الألياف الخشنة التي تنبت بين جذوع النخل. أما غذاؤهم فإن من لم يرهم لا يصدق مدى صبرهم على الجوع، ليس من عادتهم أن يأكلوا الخبز ولا أي طعام مطبوخ، ويقتاتون بلبن نوقهم. تعودوا أن يشربوا في الصباح ملء إناء كبير من اللبن الساخن فور ما يحلب، وأن يتعشوا في المساء بالقديد المطبوخ في اللبن المدهون بالسمن، فإذا نضج اللحم تناول كل واحد نصيبه بيده وأكله ثم شرب المرق مستعملاً يده كالملعقة. وحسا أخيراً فنجاناً من اللبن وقد تمّ العشاء. وما دام عندهم اللبن فلا حاجة لهم بالماء لا سيما في فصل الربيع، حيث لا يغسل بعضهم أيديهم ولا وجوههم إطلاقاً. وسبب ذلك أنهم لا يقصدون أثناء تلك المدة مواقع الماء، لأن لديهم اللبن أولاً، ولأن الإبل عندما ترعى العشب لا تحتاج إلى الماء ثانياً.

يقضي هؤلاء الرحالة حياتهم كلها حتى الموت في الصيد واختطاف

جمال أعدائهم، ولا يقيمون في أي موطن أكثر من ثلاثة أيام أو أربعة ريثما ترعى إبلهم كلأه.

ورغم ما قلناه من أن هؤلاء القوم لا يخضعون لأي قانون ولا شرع، فإن لهم جميعاً أميراً شبه ملك يعظّمونه ويخضعون له تمام الخضوع. وهم أميون يجهلون كل شيء لا الأدب فحسب، ولكن أيضاً الفنون وجميع المعارف، لا يكاد يوجد في قبيلة بأسرها قاض يستطيع أن يفصل في نازلة، بحيث إن من تورط منهم في خصام أو كان ضحية لجريمة لزمه أن يسافر مسافة خمسة أيام أو ستة على الجمل ليصل إلى خيمة القاضي. وهذا الجهل ناتج عن كون هؤلاء القوم لا يخصصون أي وقت للدراسة، ويمتنعون من مغادرة صحاريهم في طلب العلم. ولا يأتي القضاة إلى هؤلاء الرعاع إلا مكرهين، إذ لا يستطيعون تحمّل عاداتهم وطريقة عيشتهم، غير أن من يأتي منهم يتقاضى أجراً حسناً، فيعطى كل قاضٍ ألفي دينار[65] كل سنة، أو أكثر أو أقل، بحسب مقدرة القاضي المسكين.

يضع أشراف هؤلاء القوم على رؤوسهم كما قلت فيما سلف لثاماً أسود يحجبون بطرف منه وجوههم التي لا يرى منها غير العينين، ولا ينزعون اللثام أبداً، بحيث إنهم كلما أرادوا الأكل وأخذوا لقمة من الطعام كشفوا عن أفواههم ثم غطوها في الحين. ويعللون هذه العادة بقولهم ان المرء يخجل لإدخال الطعام خجله من إخراجه.

ونساؤهم ممتلئات لحمًا وشحمًا، لكنهن غير شديدات البياض، أردافهن غليظة سمينة، ونهودهن بارزة، بيد أن خصورهن في غاية الرقة، يتحدثن بظرف ويمددن أيديهن عن طيب خاطر، وقد يسمحن للرجال بلثمهن، لكن تعدي ذلك الحد خطير يؤدي إلى اقتتال الرجال بضرواة

(65) إذا كان المؤلف قارن الدوكة الايطالية بالدينار العربي أو المثقال، فإن الدوكة الرائجة في عهد البابا كليمان السابع وهو الوقت الذي كان الحسن الوزان يؤلف فيه هذا الكتاب ــ كانت تزن 3,532 غرام ذهباً.

متناهية، فهم في ذلك أعقل من بعضنا، لا يقبلون الخدعة في أعراضهم بأي ثمن.

وهؤلاء القوم في غاية الكرم مع أن الناس لا يمرون بمضارب خيامهم لجفاف أرضهم، ولأنهم هم أنفسهم لا يترددون على الطرق المطروقة. غير أن القوافل التي تقطع صحاريهم تؤدي حتمًا إلى أمرائهم اتاوة هي عبارة عن قطعة قماش تساوي ديناراً عن كل حمل جمل.

وقد مررت من ثم منذ سنوات في قافلة مع مسافرين آخرين(66). ولما وصلنا إلى سهل أروان جاء للقائنا أمير صنهاجة في خمسمائة رجل راكبين على الجمال.

وبعد أن أخذ منا الإتاوة، استدعى جميع من بالقافلة إلى الذهاب معه إلى خيامه، للاستراحة بها يومين أو ثلاثة أيام. ولما كان المخيم بعيداً عن طريقنا بنحو ثمانين ميلاً، وإبلنا محمّلة كثيراً، رفض التجار هذا الاستدعاء تفادياً لإطالة الطريق. عند ذلك قرر الأمير أن يتابع الجمالون السفر مع دوابهم ويصحبه التجار رغبة منه في مقامنا عنده.

وما كدنا نصل إلى الخيام حتى أمر ذلك الرجل الطيب بذبح عدد من الجمال الصغيرة والكبيرة، والغنم، وبعض النعامات التي اصطادوها في الطريق. ولما طلب التجار من الأمير ألا يذبح الجمال لأنهم لم يتعودوا أكل غير لحم الغنم، أجاب بأنه لا يجمل عندهم في الوليمة الاكتفاء بذبح الحيوانات الصغيرة، لا سيما ونحن غرباء ضيوف عنده. فأكلنا ما قدّم لنا، وأهمه لحوم مشوية ومطبوخة. حملوا إلينا اللحم على طاولة شرائح مفوهة متبلة بالأعشاب وبكمية كبيرة من توابل أرض السودان، وكان الخبز معجوناً من خالص دقيق الدخن والذرة. وفي الأخير وضعوا بين أيدينا تمراً كثيراً وصحوناً كبيرة مملوءة لبنا. وقد تفضّل الأمير فشرّف الوليمة بحضوره

(66) لعل ذلك كان حوالي عام 1512/918 أثناء سفر المؤلف إلى تنبكتو للمرة الثانية.

مع بعض نبلاء حاشيته وأقاربه، لكنهم أكلوا منعزلين عنا، وأحضر بعض الفقهاء والأدباء الذين كانوا هناك وأجلسهم بالقرب منه. وأثناء الغداء لم يتناول أي نوميدي خبزاً، وإنما أكلوا اللحم وشربوا اللبن فقط. وعندما لاحظ الأمير تعجبنا قدم لنا توضيحات بأسلوب ظريف مفادها أنه ولد في هذه القفار التي لا تنبت أية حبة، وأن الناس هنا يتغذون بما تنتجه أرضهم. وقال لنا انه يتزود كل عام بالحبوب لإكرام الغرباء الذين يمرون هناك. لكنهم في الواقع تعودوا أن يأكلوا الخبز أيام الأعياد الكبرى كعيدي الفطر(67) والأضحى.

وقد حرص الأمير على أن نقيم عنده يومين وأحاطنا بكل عناية وإكرام، وسمح لنا في اليوم الثالث بالانصراف، وأراد أن يشيعنا إلى أن نلتحق بالقافلة. ولا أخفي أن الأنعام التي أمر بذبحها لإطعامنا تساوي عشرة أضعاف ما قدمناه له من حق المرور. وقد لاحظنا من خلال أفعال الأمير وأقواله نبله وظرفه رغم أنه لا يفهم لغتنا ولا نفهم لغته، وإنما كانت محادثتنا معه بواسطة ترجمان.

وهذه العادات وطريقة المعاش التي ذكرت لكم عن هذا الشعب هي نفس ما يوجد عند الشعوب الأربعة الأخرى المتفرقة في سائر صحاري نوميديا.

عادات العرب القاطنين بإفريقيا وطريقة معاشهم

تختلف عادات العرب وطريقة معاشهم باختلاف المناطق التي يقطنون بها. فعرب نوميديا وليبيا يعيشون عيشة بؤس وفقر مدقع،

(67) عبر المؤلف عن عيد الفطر بعيد الفصح الذي هو آخر أيام الصيام عند المسيحيين تقريباً لأفهامهم.

لا يختلفون في ذلك عن الشعوب الافريقية التي ذكرناها، إلا أنهم أكثر شجاعة منهم. يتجرون بالجمال في أرض السودان، ويملكون كمية وافرة من الخيول التي نسميها في أوربا الخيول المغربية. ويخرج هؤلاء العرب دائمًا لصيد الغزال، وحمار الوحش، والنعام، واللمت، والمها، وغيرها من الوحش.

ولا ينبغي أن يغفل القول بأن لمعظم عرب نوميديا كثيراً من الشعراء ينظمون قصائد مطوّلة تتحدث عن غارات حربهم وصيدهم، وتتطرق إلى الغزل بغاية الرقة والظرف. وأبياتهم مقفاة كأبيات الشعر الايطالي الشعبي. وهم كرماء لكن ليست لهم موارد تؤيد شهرتهم وتبين كرمهم، فهم يفتقدون كل شيء في هذه القفار. يشبه لباسهم لباس النوميديين، إلا أن نساءهم يرتدين حللاً تختلف قليلاً عن حلل النساء النوميديات.

كانت الصحاري التي يقطنها هؤلاء العرب في أيدي شعوب إفريقية. ولما دخلت القبائل العربية إلى افريقيا، أرغمت النوميديين على مغادرتها، واستقرت بالفلوات المجاورة للواحات، بينما تقهقر النوميديون ليسكنوا القفار المجاورة لأرض السودان.

أما العرب القاطنون بافريقيا بين الأطلس والبحر المتوسط[68]، فإنهم أكثر هناء وغنى من العرب المذكورين آنفاً، لا سيما فيما يخص اللباس، وأسراج الخيول، وجمال الخيام وعظمتها. يملكون خيولاً أحسن بكثير من خيول الصحراء، إلا أنها أقل منها سرعة عند السباق. ويحرث هؤلاء العرب أرضهم فيحصلون منها على كمية وافرة من الحبوب ويكسبون عدداً لا يحصى من الغنم والبقر، الأمر الذي جعلهم لا يستقرون في مكان واحد لعدم وجود أرض كافية لرعي هذه الأعداد الوافرة من الماشية. وهم أكثر وحشية وخيانة من عرب الصحراء، إلا أنهم

---

(68) لعله يقصد بلاد البربر كلها.

كرماء. من يسكن منهم مملكة فاس يخضع لملكها ويؤدي له الخراج. وقد عاش عرب نواحي مراكش ودكالة مدة من الزمن محررين من كل الكلف المخزنية إلى أن احتل البرتغاليون أسفي وأزمور [69]، فثارت الفتن بين القبائل وتفرقوا حزبين، دمر ملك فاس[70] أحدهما، وقضى ملك البرتغال[71] على الحزب الآخر، كما نالت المجاعة السائدة في افريقيا تلك السنة منهم كثيراً، إلى أن هاجر العرب المساكين عن طواعية إلى البرتغال يعرضون أنفسهم كعبيد لمن يعولهم، حتى لم يبق منهم أحد بدكالة[72].

لكن العرب المقيمين بالصحاري المجاورة لمملكتي تلمسان وتونس يعيشون جميعاً مثل سادتهم. فكل أمير يتوصل من الملك بإعانات مالية ضخمة يوزعها على قبيلته ليتقي الفتن ويعيش معهم في سلم وعلاقة ودية. ويحب هؤلاء العرب اللباس الجميل، واكتساب الخيل الفارهة المسرجة، والخيام الكبيرة الرائعة. ومن عادتهم أن يذهبوا صيفاً إلى ضواحي تونس ليتزودوا منها، وفي شهر أكتوبر يقتنون كل ما يحتاجون إليه من طعام ولباس وسلاح، ويرجعون إلى الصحراء ليقضوا فيها الشتاء. وفي الربيع يتسلون بالصيد بالكلاب والصقور، يصيدون جميع أنواع الحيوانات ذات الشعر أو الريش.

أقمت عندهم مراراً واقتنيت أشياء كثيرة، ولاحظت أنهم يملكون في خيامهم من الثياب والنحاس أكثر مما يملكه الحضريون، غير أنهم لا يؤتمنون لعدم تورعهم عن النهب والقتل، رغم مجاملتهم البالغة.

(69) كان احتلال آسفي عام 1501/914، واحتلال آزمور في 2 رجب 3/919 شتنبر 1513.

(70) هو أبو عبد الله الوطاسي المعروف بالبرتغالي.

(71) هو عمانويل الأول.

(72) لم تكن الحالة الاقتصادية سيئة حسب الوثائق البرتغالية، ولا شك أن الهجرة كانت محدودة لم تشمل غير جماعة من الفقراء، إذ لا تزال هذه القبائل العربية تقيم في مواطنها المعروفة بدكالة إلى أيامنا هذه.

إنهم يحبون الشعر وينشدون بلهجتهم العامية أبياتاً رائعة جداً، ولو أن هذه اللغة تعتبر اليوم فاسدة. وقد ينال شاعر مشهور إعجاب الأمراء، فيمنحونه صلات هامة. ولا استطيع أن أعرب لكم عن مدى صفاء أشعارهم ورقتها. أما نساء هؤلاء العرب فيرتدين لباساً حسناً حسب عادة البلاد، وهو قميص أسود واسع الأكمام، يجعلن فوقه خماراً أسود أو أزرق يلتحفن به ويجعلن هدبه على أكتافهن من أمام ومن خلف، حيث يمسك بمشبك فضي مصنوع بطريقة فنية. ويضعن أقراطاً عديدة من الفضة كذلك في آذانهن، وخواتم في أصابعهن، وأساور في أيديهن وخلاخل في أرجلهن على عادة الأفارقة.

تضع هؤلاء النساء أمام وجوههن ثوباً صغيراً مثقوباً أمام العيون، فإذا رأين رجلاً ليس من أهلن، احتجبن فوراً بهذا اللثام، وأمسكن عن الكلام، فإذا انفردن بأزواجهن وذويهن رفعن اللثام.

ولما كان العرب يرحلون من مكان إلى آخر، فإنهم يحملون نساءهم على هوادج كالسلال تغطى بزرابي جميلة جداً. وهذه الهوادج صغيرة لا يسع الهودج إلا امرأة واحدة. ويصطحبون نساءهم في حروبهم لتزداد شجاعتهم ويقل خوفهم.

ومن عادة هؤلاء النساء أنهن، قبل الزفاف إلى أزواجهن، يخضبن بالحناء وجوههن وصدورهن وأذرعهن وأيديهن إلى رؤوس الأصابع، لأن ذلك مستحسن عندهن. وقد اتخذ العرب المستعجمة هذه العادة عندما انتقلوا إلى سكنى هذه البلاد الافريقية، ولم تكن معروفة لديهم من قبل، غير أن الحضريين وأشراف البلاد لم يتبعوا هذه العادة، وبقيت نساؤهم محتفظات ببياضهن الطبيعي، وإنما يستعملن في بعض الأحيان خضاباً مصنوعاً من عتن لوز العصفة والزعفران، ويرسمن به في وسط خدودهن زينة مستديرة تشبه الدينار، وبين الحاجبين شكلاً مثلثاً، وعلى الذقن شبه ورقة الزيتون، وتخضب به بعضهن الحواجب كاملة، يمدح الشعراء العرب والأشراف هذه

العادة، وتراها النساء أنيقة وجميلة، غير أنهن لا يحتفظن بهذه الزينة أكثر من يومين أو ثلاثة، لأنهن لا يستطعن البروز إلى أقاربهن بتلك الحال، ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو أبنائهن. ويفعلن ذلك ليكن أكثر جاذبية، متوهمات أن تلك الزينة تزيد كثيراً من جمالهن.

العرب الذين يسكنون الصحاري الواقعة بين بلاد البربر ومصر

يعيش هؤلاء العرب عيشة فقيرة، لأن البلاد التي يسكنونها قاحلة وعرة، ويكسبون الغنم والجمال، لكنها لا تنتج إلا القليل لقلة المرعى. لذلك كلما أوغلت في أرضهم وأبعدت لم تجد بقعة صالحة للزراعة. ومع ذلك فإن في هذه الصحاري مجموعات صغيرة تشبه الضيعات أو القرى بجوار واحات صغيرة جداً. وهناك يزرع القمح لكن بكميات قليلة لا تكاد تذكر. لذلك فإن سكان هذه القرى كثيراً ما يزعجهم العرب ويثقلون كواهلهم بالأعمال، يأتون إليهم مراراً ليستبدلوا القمح بإبلهم وغنمهم، لكن القمح لا يكفي لمثل أعدادهم. لذلك تجد في كل وقت العديد من أولاد هؤلاء العرب عند الصقليين كرهائن للقمح الذي يأخذونه منهم. وفي حالة عدم الوفاء بالدين عند انتهاء الأجل المحدد يحتفظ الدائنون بالأطفال كرقيق لهم. وإذا رغب الآباء في افتدائهم بعد ذلك لزمهم أداء ثلاثة أضعاف مبلغ الدين، فيضطرون إلى تركهم لهم. وهذا ما جعل هؤلاء العرب أقبح الفاتكين على وجه الأرض، يجرِّد كل غريب وقع بين أيديهم من جميع ما عنده ثم يباع للصقليين، حتى إنه منذ مائة سنة لم تمر أية قافلة بالساحل المحاذي للصحراء التي يعيش فيها هؤلاء القوم. وإذا أرادت قافلة أن تخترق البلاد، مرت من الداخل على بعد نحو خمسمائة ميل من البحر.

وقد سلكت سبيل البحر على طول الساحل مع ثلاث سفن تجارية

تفادياً لخطر ملاقاة هؤلاء القوم[73] ولما بصر بنا الأعراب، سارعوا إلى المرسى، مدعين أنهم يرغبون في التعامل معنا بتجارة رابحة، لكن أحداً لم يقبل النزول إلى البر خوفاً منهم قبل أن يسلموا إلينا بعض أولادهم على سبيل الاحتياط. وقد اشترينا قليلاً من غنمهم وسمنهم، ثم ولينا مسرعين آملين ألا يلاحقنا قراصنة صقلية أو رودس.

الشاوية أو رعاة الشاء
شعب إفريقي يعيش عيشة العرب

تشتغل كثير من القبائل الافريقية بتربية الغنم والبقر، ولا تعمل أي عمل آخر طول النهار. يسكن معظمهم في سفح الأطلس وفي الجبل، ويؤدون الخراج أينما وجدوا للملك أو للعرب، باستثناء سكان تامسنا فإنهم أحرار ذوو شوكة يتكلمون اللغة الافريقية، ويتحدث بعضهم باللغة العربية لمجاورتهم للعرب وعلاقاتهم معهم، كسكان بوادي الأربيوس في ضواحي تونس. وهناك جماعة أخرى تقيم في التخوم بين تونس وبلاد الجريد[74]، وكثيراً ما تجرؤوا على ملك تونس وأعلنوا الحرب ضده كما حدث منذ بضع سنوات. وكان إذ ذاك ابن ملك تونس قد خرج من قسنطينة لجباية الخراج منهم، فهجم عليه أميرهم معترضاً طريقه بألفي فارس، فهزم الجند وقتل ابن الملك واستولى على محلته، وكان ذلك عام 915 للهجرة، وأصبح اسم هذه القبيلة مشهوراً منذ هذه الهزيمة وسار بذكرها الركبان، وفر عدد كثير من العرب الذين كانوا يخدمون ملك تونس من المناطق الخاضعة له، وذهبوا ليسكنوا مع المنتصرين، بحيث صار هذا الأمير من أكبر سادة أفريقيا وأشهرهم.

---

(73) لعل ذلك كان أثناء رجوعه الأخير من مصر.

(74) يعني شاوية الأوراس في جنوب شرقي إيالة قسنطينة القديمة.

ديانة قدامى الأفارقة

كان الأفارقة في الزمن القديم وثنيين على غرار الفرس الذين يعبدون النار والشمس، ويتخذون لعبادتها معابد جميلة مزخرفة توقد داخلها نار تحرس ليل نهار حتى لا تنطفىء، كما كان يفعل ذلك في معبد الإلهة «فيستا» عند الرومان. ذلك ما لا تفتأ تواريخ الأفارقة والفرس تتحدث عنه. ومن المعلوم أن أفارقة نوميديا وليبيا كانوا يعبدون الكواكب ويقربون إليها القرابين، وأن بعض الأفارقة السود كانوا يعبدون «كيغيمو» ومعناه في لغتهم رب السماء. وقد أحسوا بهذا الشعور الحسن دون أن يهديهم إليه أي نبي أو عالم. وبعد ذلك اعتنقوا الديانة اليهودية طوال سنين عديدة إلى أن أصبحت بعض الممالك مسيحية فدانوا بالمسيحية وأخلصوا لها إلى أن قامت بعض الفرق الإسلامية عام 268 للهجرة، فجاء بعض المسلمين دعاة في هذه المناطق وأقنعوا هؤلاء الأفارقة باعتناق دينهم حتى أصبحت الممالك السود المتاخمة لليبيا مسلمة(75). غير أنه لا تزال بعض الممالك، بقي فيها السود متمسكين بالمسيحية إلى الآن ما عدا اليهود منهم وحدهم فقد حطمهم جميعاً المسيحيون والافريقيون. أما سائر السودانيين الذين يقطنون بساحل المحيط فما زالوا وثنيين يعبدون الأصنام، وقد رآهم عدد كثير من البرتغاليين وكانت لهم معهم بعض العلاقات الخارجية.

وظل سكان بلاد البربر وثنيين مدة طويلة من الزمن، واعتنقوا المسيحية قبل مولد محمد (عليه السلام) بمائتين وخمسين سنة، ذلك لأن

---

(75) لعل المؤلف يشير هنا إلى حركة الفاطميين بالمغرب الأدنى، وقد صاحبت حركتهم الشيعية دعوة إلى الإسلام في المناطق الجنوبية التي امتد إليها نفوذهم. لكن الدولة الفاطمية تبتدىء عام 296 ولم يكن لها وجود عام 268. ولعل تحريفاً وقع في الأرقام فكان الأصل 68 أو 62 وهو يوافق تاريخ الولاية الثانية لعقبة بن نافع الفهري الذي توغل في الجنوب ونشر الإسلام بين الملثمين وبعض السودان.
انظر: أ. الناصري، **الاستقصا**، 1:72-75؛ حسن ابراهيم حسن، **انتشار الإسلام والعروبة**، ص: 46-49.

المنطقة التي تقع فيها تونس وطرابلس كانت تحت سيطرة بعض أمراء بوي وصقلية، بينما كان ساحل القيصرية وموريطانيا خاضعاً لملوك القوط[76]، وفي نفس الوقت أيضاً هرب عدد كثير من الأمراء المسيحيين أمام هيجان القوط وتركوا بلادهم الجميلة ليسكنوا ضواحي قرطاج حيث كونوا لأنفسهم ممتلكات بعد ذلك. ومن المعلوم أن هؤلاء المسيحيين كانوا على مذهب الأريوسيين الذين ينتسب له سان أوجستان[77]. ولما جاء العرب ليفتحوا بلاد البربر وجدوا المسيحيين يملكون هذه المناطق فحاربوهم مراراً وأبى الله إلا أن يكون النصر حليف العرب، فهرب الآريون بعضهم إلى إيطاليا وبعضهم إلى إسبانيا[78].

وبعد مرور نحو مائتي سنة على وفاة محمد (عليه السلام) أصبح سكان بلاد البربر مسلمين إلا القليل منهم. ومن المعلوم أنهم ثاروا أكثر من مرة وارتدوا وقتلوا أئمتهم وولاتهم، غير أن الخلفاء عجلوا بإرسال الجنود لقتال البربر كلما علموا بهذه الثورات، واستمر ذلك إلى أن جاء الشيعيون الفارون من الخلفاء ودخلوا إلى بلاد البربر، فتمكن الإسلام حينئذٍ في هذه البلاد بصفة نهائية[79].

غير أنه كان عند البربر وما زال عدد كثير من البدع والفرق المختلفة، وآمل بعون الله تعالى أن أدرس مسألة الديانة الإسلامية دراسة

---

(76) لا تعرف بالضبط مراحل انتشار الديانة المسيحية في بلاد البربر، ويعني المؤلف بالقوط الوندال.

(77) غلط المؤلف هنا لعدم اطلاعه على الديانة المسيحية، فقد كان سان أوجستان ضد الآريين بعكس ما ذكر المؤلف.

(78) فرَّ الآريون فعلاً وهم الوندال لكن في أوائل سنة 534 م.

(79) يشير إلى دور الإمامين ادريس الأول وابنه ادريس الثاني في نشر الإسلام بين البربر. وقد جاء ادريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب إلى المغرب فاراً من العباسيين في وقعة فخ الشهيرة عام 788/172 حيث بويع ملكاً بالمغرب في نفس السنة، ثم خلف ابنه ادريس الثاني واستمر ملكه إلى عام 828/213.

شاملة فيما يتعلق بهذه النقط المهمة والاختلافات المشاهدة فيها بين مسلمي افريقيا وآسيا، وذلك في كتاب آخر بعد أن يتم تأليف هذا الكتاب.

الكتابة المستعمَلة عند الأفارقة

يعتقد المؤرخون العرب اعتقاداً جازماً أنه لم تكن للأفارقة كتابة اخرى غير المرسومة بالحروف اللاتينية، ويقولون ان العرب عندما فتحوا افريقيا لم يجدوا فيها غير الكتابة اللاتينية. وهم يعترفون بأن للافارقة لغتهم الخاصة، لكنهم يلاحظون أنهم يستعملون عادة في كتابتها الحروف اللاتينية، كما يستعمل الألمانيون ذلك في أوربا. وجميع ما عند العرب من كتب التاريخ المتعلقة بالأفارقة مترجمة من اللغة اللاتينية، وهي مؤلفات قديمة كتبت ولا شك أيام الآريين وغيرهم من قبل، وأسماء مؤلفيها معروفة عندنا إلا أنها غابت عن ذهني. وأظن أن هذه الكتب طويلة جداً لأن مترجميها تعودوا أن يقولوا: «إن المسألة الفلانية معروضة في ستين جزءاً»، ولم يترجم العرب في الحقيقة هذه الكتب بحسب الترتيب الذي وضعه لها مؤلفوها، وإنما كتبوا قائمة مختصرة للملوك رتبوا عليها الحقب الخاصة بهم وبالأمراء، وقسموها بالموافقة مع تواريخ ملوك الفرس أو الأشوريين أو الكلدانيين أو الاسرائيليين.

وفي الوقت الذي كان حكم افريقيا بيد المبتدعة الفارين من خلفاء بغداد، أمروا بإحراق جميع كتب الأفارقة المتعلقة بالتاريخ والعلوم، متوهمين أن الإبقاء على هذه الكتب من شأنه أن يترك الأفارقة على نخوتهم القديمة ويدعوهم إلى الثورة والارتداد عن الإسلام.

ويذهب فريق آخر من مؤرخينا إلى أنه كانت للأفارقة لغة مكتوبة خاصة بهم، لكنهم افتقدوا هذه الكتابة(80) من جراء احتلال الرومان لبلاد

---

(80) لعله يشير إلى الكتابة الليبية ــ البربرية التي استمرت إلى وقتنا هذا عند الطوارق في شكلها الحديث (تيفيناغ)، أو تكون الإشارة إلى اللغة الفينيقية التي كانت منتشرة حول مدينة قرطاج وانتشرت في سائر جهات شمال افريقيا حتى بعد اضمحلال تلك المدينة.

البربر، وطول مدة حكم المسيحيين الذين فروا من إيطاليا، ثم القوط من بعدهم. والرعايا ملزمون في الواقع باتباع عادات حكامهم إن أرادوا إرضاءهم، وذلك ما حصل للفرس الخاضعين للعرب، فقدوا هم أيضاً كتابتهم وأحرقت جميع كتبهم بأمر من علماء المسلمين الذين ظنوا أن الفرس لن يكونوا مسلمين سنيين مخلصين ما دامت لديهم كتب في العلوم الطبيعية والقانون والديانة الوثنية، فأحرقوا جميع هذه الكتب ومنعوا العلوم(81). وذلك ما فعله أيضاً الرومان والقوط لما حكموا بلاد البربر كما أسلفنا.

ولعل في الدليل الآتي كفاية، ذلك أن بلاد البربر كلها، سواء منها مدن الساحل أو مدن الداخل، أعني المدن المشيدة قديماً، لا تحتوي على أية كتابة في الأضرحة أو في جدران أي بناء إلا وهي بالحروف اللاتينية دون استثناء. ولا أظن أن الأفارقة استعملوا هذه الحروف واتخذوها لكتابة لغتهم الخاصة، إذ لا شك أن الرومان لما انتزعوا هذه الأماكن من أيدي أعدائهم، محوا ــ حسب عادة المنتصرين ــ جميع النقوش الحاملة لآثار المغلوبين بخطهم الأصلي قصد إذلالهم، وجعلوا عوضها كتابتهم (الرومانية). وهكذا كانوا يقضون في آن واحد على كرامة الأفارقة وعلى كل ما يذكر بماضيهم حتى لا يتركوا شيئاً يذكر غير الشعب الروماني. وهذا ما أراد القوط أيضاً أن يفعلوه بالبنايات الرومانية، والعرب بالبنايات الفارسية، وذلك ما يفعله الأتراك اليوم في الأماكن التي يستولون عليها من يد المسيحيين، فهم لا يمتهنون ذكريات جميلة وشهادات طافحة بالشرف فحسب، ولكنهم يمتهنون أيضاً صور القديسين والقديسات في الكنائس(82)

(81) من المعلوم أن العرب أهملوا من الكتب القديمة ما كان ذا روح وثنية فقط كان أدباً أو علماً أو قانوناً، وترجموا كل ما عدا ذلك ودرسوه كما هو معروف.

(82) لم يكن ذلك عاماً، بل لاحظ بعض الكتاب المسيحيين عكس ما ذكره المؤلف، وذلك في كنيسة سان نيكولا بفماكوست التي حول وسطها إلى مسجد، وتركت صور القديسين في حالة جيدة. غير أن فماكوست بجزيرة قبرص لم ينتزعها الأتراك من يد البنادقة إلا في سنة 1571.

ألسنا نشاهد بروما نفسها في وقتنا الحاضر صرحاً عجيباً بدأ تشييده أحد الباباوات وصرف عليه مبالغ ضخمة لكنه مات دون إتمامه؟ فجاء خلفه وأمر بهدمه ليقيم بناء آخر مكانه، أو أمر بإتمامه ونزع شعار البابا الراحل ليوضع شعاره هو مكانه بدعوى أنه أضاف أشياء صغيرة إلى الصرح. وإذا تصرف تصرفاً لائقاً وترك شعار سلفه وضع شعاره هو فوقه بخط عريض وأحلَّه محل الشرف «بدقة متناهية». فليس من الغريب إذن أن تكون الكتابة الافريقية قد ضاعت منذ تسعمائة سنة التي يستعمل فيها الأفارقة الكتابة العربية. وتحدث الكاتب الافريقي ابن الرقيق في تاريخه طويلاً عما إذا كانت للأفارقة كتابة خاصة أم لا، وانتهى إلى القول بأنه كانت لهم كتابة، وأن من أنكر ذلك يمكنه أن ينكر أيضاً وجود لغة خاصة بهم، وأضاف أنه من المستحيل على شعب ذي لغة خاصة أن يستعمل في كتابته حروفاً أجنبية(83).

بقـــاع إفريقيـــا

كما تنقسم افريقيا إلى أربعة أقسام، يتميز كذلك كل قسم منها بطابع خاص. فساحل البحر المتوسط، من مضيق جبل طارق إلى تخوم مصر، كله جبال تمتد شطر الجنوب على مسافة تقرب من مائة ميل، تزيد في بعض النقط وتنقص في أخرى. وتوجد بين هذه الجبال وبين الأطلس سهول وتلال صغيرة، وتنبع في جميع جبال هذا الساحل عيون عديدة تتفرع عنها جداول صافية رائقة بديعة المنظر.

تمتد من وراء هذه السهول والتلال سلسلة الأطلس التي تبتدىء من

---

(83) يدل هذا على أن الكتابات الليبية والفينيقية وحتى الاغريقية لم تكن معروفة أيام المؤلف. ولن نعرف أبداً ما إذا كان بعض كتب خزانة ملك نوميديا هيامبسال في القرن الأول ق. م. كانت مكتوبة بالحروف الليبية، وهو شيء غير محتمل. ومهما كان الأمر فإن هذا الخط انتشر إلى الجزر الخالدات ووسط الصحراء وغربها، وتيفيناغ الطوارق فرع منه.

البحر المحيط غرباً وتنتهي شرقاً إلى قرب مصر. ونجد وراء الأطلس سهول نوميديا التي ينبت فيها النخيل، وهي بلاد تكاد تكون كلها رملية. بعدها تأتي صحاري ليبيا التي هي بدورها رملية وتمتد إلى بلاد السودان وتكثرفيها الجبال، غير أن التجار لا يقطعون هذه الجبال في طريقهم لوجود ممرات كثيرة واسعة مستوية بينها.

ومن وراء صحاري ليبيا بلاد السودان، ومعظمها سهل رملي، باستثناء ضفاف النيجر وسائر المراكز التي يمكن أن يصل إليها الماء ويبلل ثراها.

الأماكن الموحشة والثلجية في إفريقيا

يكون ساحل بلاد البربر كله والجبال الواقعة فيه منطقة باردة قبل كل شيء، وهناك فصل يسقط فيه الثلج، وتنبت في جميع هذه الجبال الحبوب والفواكه، لكن محصول القمح فيها قليل، لذلك يأكل الناس خبز الشعير في معظم السنة. ولماء تلك العيون طعم التراب ويكاد يكون عكراً لا سيما في الجزء الموالي لموريطانيا. وتوجد كذلك في هذه الجبال غابات كثيفة ذات أشجار ضخمة، معظمها مليء بالحيوانات النافعة والضارة.

أما التلال الصغيرة والسهول الواقعة بين هذه الجبال وبين الأطلس فتربتها طيبة تنبت كمية عظيمة من الحبوب والفواكه الجيدة. وتجري بين هذه التلال وخلال هذه السهول جميع الأنهر التي تنحدر من الأطلس لتصب في البحر المتوسط، إلاَّ أن الغابات في هذه المنطقة قليلة. وأجود السهول ما امتد بين الأطلس والمحيط، كناحية مراكش وإقليم دكالة وجميع تادلا وتامسنا مع أزغار إلى مضيق جبل طارق.

والأطلس شديد البرد كثير الجدب، لا ينبت فيه إلاَّ قليل من الحبوب، وتكسوه غابات كثيفة من كل ناحية، وتكاد تتكون فيه جميع أنهار

افريقيا. وعيون الأطلس غاية في البرودة حتى في غمرة الصيف بحيث إذا ترك الإنسان يده فيها مدة أتلفها التبريد. وليست جميع أطراف الجبل مجدبة بنفس الدرجة، إذ هناك أماكن يمكن أن يقال عنها بأنها معتدلة وصالحة ليتخذ فيها الإنسان مساكن حسنة للغاية، وهي بالفعل مسكونة حسبما سنفصل ذلك في القسم الثاني من كتابنا. والمناطق غير المسكونة (في الأطلس) إما قارسة البرد وإما شديدة الوعورة، فالتي تواجه تامسنا وعرة، والتي تواجه موريطانيا باردة. إلاَّ أن أهل الشاوية يعيشون في هذا الجزء من الأطلس أثناء الصيف لترعى فيه ماشيتهم، ويستحيل عليهم تماماً أن يمكثوا هنالك في فصل الشتاء، لأنه عندما يسقط الثلج تهب ريح خطيرة من الشمال تقتل كل الحيوانات التي تصيبها في هذه الناحية، وتقضي على الناس كذلك، إذ تمر من هناك الطريق المؤدية من موريطانيا إلى نوميديا(84) ولما كان التجار قد اعتادوا الذهاب من نوميديا(85) بأحمال التمر في آخر أكتوبر، فإن الثلج يفاجئهم أحياناً ولا يبقي منهم على أحد. ذلك أن الثلج إذا بدأ يسقط ليلاً أصبحت القافلة مدفونة تحته ومخنوقة. وليست القافلة هي التي يكسوها الثلج وحدها، بل يكسو الأشجار المحيطة بها أيضاً بحيث تتعذر رؤية الطريق وتختفي المعالم للعثور على الجثث. وقد نجوت أنا نفسي من خطر الموت بمعجزة مرتين عندما كنت أتردد على هذه الطرق ولن أزعجكم إذا ما قصصت عليكم إحدى هاتين المغامرتين.

كنا جماعة من التجار الفاسيين ذهبنا سوياً ووجدنا أنفسنا في الأطلس مع هذه القافلة (التي تسافر) في شهر أكتوبر. وعند غروب الشمس بدأ يسقط ثلج كثيف بارد، فاجتمع نحو عشرة أو اثني عشر من الأعراب الفرسان وعرضوا علي مغادرة القافلة والذهاب معهم للبحث عن مأوى حسن. لم أستطع رفض عرضهم، لكني خشيت أن يكون في الأمر مكيدة،

(84) هي الطريق المؤدية من فاس إلى تفيلالت.
(85) يعني تفيلالت.

ففكرت في التخلص من كمية مهمة من الدنانير كانت معي. ولما امتطى هؤلاء الرجال خيولهم وطلبوا مني أن أسرع إليهم تظاهرت بأني مستعجل لقضاء حاجة الإنسان واختفيت وراء شجرة، وهناك خبأت بكل ما أمكنني من عناية الدنانير وغطيتها بالتراب والحجر، ثم علمت الشجرة بدقة. سرنا ساكتين حتى قرابة منتصف الليل، فرأى أحد الأعراب أن الوقت قد حان ليفعلوا بي ما دبروه سلفاً، أي تجريدي من المال وتركي أهيم على وجهي. سألني هل عندي دنانير، فأجبته بأني تركتها في القافلة عند أحد أحبابي الأقربين. لم يصدقني الأعراب وألزموني لكي يعرفوا الحقيقة بأن أخلع حتى القميص مع هذا البرد القارس. ولما لم يجدوا شيئاً أخذوا يمازحونني مدعين أنهم قاموا بذلك بقصد التسلية ليعرفوا ما إذا كنت رجلاً قوياً قادراً على تحمل البرد. وتابعنا سيرنا في الظلام، والطقس الرديء والليل لا ينفكان يزعجاننا. وبعد مدة أنعم الله علينا بسماع ثغاء عدد كثير من الغنم، فوجهنا خيلنا نحوها. وكان ذلك الثغاء في وسط الغابة بين صخور عالية، فتعرضنا بذلك للخطر مرة أخرى. وأخيراً اكتشفنا عدداً من الرعاة في كهف كانوا قد أدخلوا نعاجهم فيه بعناء كبير، وأوقدوا ناراً جلسوا حولها، ولما رأونا وعرفوا الأعراب خشوا من أذاهم أولاً، ثم لما أيقنوا باستمرار العاصفة اقتبلونا بكل بشاشة وقدموا لنا ما كان لديهم من طعام خبزاً ولحماً وجبناً. ولما انتهينا من الأكل اضطجعنا حول النار ونحن ما زلنا نرتعد من البرد، لا سيما أنا الذي جردت من ثيابي فضلاً عما أصبت به من خوف. أقمنا يومين وليلتين مع هؤلاء الرعاة دون أن ينقطع نزول الثلج. وفي اليوم الثالث انقطع الثلج فقام الرعاة يزيلون الثلج الذي أغلق مدخل الكهف نهائياً، ثم ذهبوا بنا إلى المكان الذي خبؤوا فيه خيولنا، وهي كهوف أخرى تركوا فيها كثيراً من العلف لدوابنا فوجدناها على أحسن ما يرام. انصرفنا وقد أشرقت في ذلك اليوم شمس مضيئة أزالت برد الأيام السابقة، وشيعنا الرعاة إلى مسافة بضعة أميال ليدلونا على الممرات التي يعرفون أن الثلج فيها غير كثيف، ومع ذلك فإنه كان يصل إلى صدور خيلنا.

ولما وصلنا إلى قرية قريبة من مدينة فاس، أكدوا لنا بأن القافلة قد اختنقت بالثلج، وعند ذلك أيس الأعراب من أن ينالوا أجر أتعابهم، إذ كانوا يرافقون القافلة ليسهروا على أمنها، وأخذوا يهودياً كان معنا وله خمسون حملاً من التمر في القافلة، وذهبوا به إلى مخيمهم عازمين على أن يحتفظوا به إلى أن يؤدي عن الجميع، وسلبوا مني فرسي وتركوني في يد الله. اكتريت بغلاً له بردعة من النوع الذي يستعمله الجبليون، ووصلت في اليوم الثالث إلى مدينة فاس التي كان بلغها نعي رجال القافلة وظن أهلي أنني هلكت مع الهالكين، لكن ذلك أمر لم يقدِّره الله تعالى. والآن أتوقف عن حديث مغامراتي لأستأنف عرضي حيث تركته.

تقع وراء الأطلس بلاد جافة وحارة، توجد بها أنهر قليلة تنبع أيضاً من الأطلس وتجري نحو صحراء ليبيا حيث تختفي في الرمال، ويكون بعضها بحيرات. ليس بهذه البلاد سوى القليل من الأراضي التي يمكن زراعتها، لكن فيها كمية عظيمة من النخيل، وبعض أشجار الفواكه إلا أنها قليلة. وفي أجزاء نوميديا المتاخمة لليبيا جبال جرداء ليس عليها شجر، وفي سفوحها غابات كثيرة من الأشجار الشائكة التي لا تثمر، وليس هناك عين ولا نهر سوى بعض الآبار التي يكاد يجهلها الناس، وتقع كلها بين هذه التلال وتلك الجبال الخالية. وتكثر في جميع أراضي نوميديا الحيات والعقارب، وكثيراً ما يموت الناس من عضها ولسعها في فصل الصيف.

وليبيا هي الأخرى بلاد كلها صحراء ورمال، لا نهر فيها ولا ماء باستثناء بعض الآبار ذات الماء الملح الأجاج، وهي مع ذلك قليلة. وفي بعض النواحي لا يوجد الماء في طول مسافة سفر ستة أيام أو سبعة. ويكون على التجار أن يحملوا الماء في القرب على ظهور جمالهم، وخصوصاً في الطريق الرابطة بين فاس وتنبكتو، وبين تلمسان وأكدز. وأسوأ من هذا خط السفر المفتوح حديثاً بين فاس والقاهرة مروراً بصحاري ليبيا، غير أن

المسافرين يمرون في طريقهم هذه بالقرب من بحيرة عظيمة[86] تعيش حولها شعوب ساوو وكوران.

وفي الطريق المؤدية من فاس إلى تنبكتو توجد بعض الآبار المكسوة في داخلها بجلد الإبل أو المبنية بعظامها. ومن الخطر جداً على التجار أن يقوموا بهذا السفر في غير فصل الشتاء، لأنه تهب في غير هذا الفصل رياح قبلية تحمل معها من الرمال ما يغطي الآبار، حتى أن من يذهب مؤملاً أن يجد الماء في الأماكن المعتادة لا يعثر للآبار التي غطتها الرمال على رسم ولا أثر، ويكون مضطراً إلى أن يموت عطشاً.

وغالباً ما يرى المسافرون عظام هؤلاء الرجال وجمالهم مبيضة في بعض الأماكن. وليس لذلك إلا دواء واحد غريب، وهو أن يقتل جمل ويستخرج الماء من بطنه، فيشرب بعضه ويقسم الآخر إلى أن يقع العثور على بئر أو أن يهلك المسافرون عطشاً.

ويشاهد في صحراء أزواد قبران مبنيان بنوع من الحجر لا أعرفه نقشت عليه كتابة تقول بأن رجلين دفنا ها هنا، كان أحدهما تاجراً غنياً مرَّ بهذه الصحراء فاشتد عطشه واشترى من الآخر، وهو الدليل، قدحاً من الماء بعشرة آلاف مثقال، لكنهما ماتا معاً من العطش، سواء التاجر الذي اشترى الماء، والدليل الذي باعه إياه.

تكثر في هذه الصحراء الحيوانات الضارة وغيرها، وسأتحدث عنها في القسم الرابع من هذا الكتاب عندما أتكلم على ليبيا، أو عندما أتعرض على الخصوص للحيوانات الموجودة بافريقيا[87].

---

(86) هي بحيرة التشاد.

(87) كان في نية المؤلف، بعد تخصيص كتابه الأول للمعلومات الجغرافية العامة، أن يصف بلاد البربر في الكتاب الثاني، ونوميديا في الثالث، وليبيا في الرابع، إلا أنه لم يتبع هذا التصميم.

وللمزيد من المعلومات والتوضيحات، سأشير بكيفية خاصة إلى أخطار تعرضت لها أثناء الرحلات التي قمت بها في ليبيا، لا سيما خلال رحلتي من ولاتة إلى القاهرة. كنا تارة نضل الطريق إلى مكان الماء بسبب خطأ الدليل، وتارة نجد العدو يحتل الممرات المؤدية إلى الماء، فنضطر إلى ادخار الماء لنكتفي منه طوال عشرة أيام باستعمال ما كنا أعددناه لخمسة أيام فقط. وإذا أردنا أن نذكر تفاصيل سفرة واحدة فلا بد من أن نكتب مجلداً من مائة صفحة.

والبلاد الواقعة في أرض السودان شديدة الحرارة، إلَّا أن بها شيئاً من الرطوبة بسبب النيجر، وكل الأقاليم المجاورة لهذا النهر تصلح جداً للزراعة، وتنمو فيها الحبوب بكثرة، وتوجد بها من الماشية أعداد لا تحصى. غير أنها لا فاكهة فيها سوى ثمر شجرة ضخمة شبه القسطل يميل طعمه إلى المرارة. وتبعد هذه الأشجار قليلاً عن النهر لتقع في الأرض اليابسة، وتسمى الفاكهة المذكورة كورو(88) بلغة البلاد.

صحيح أن اليقطين والخيار والبصل ينبت هناك بكثرة، ولا يرى جبل ولا تل على ضفاف نهر النيجر، ولا حتى على تخوم ليبيا. لكن تتكون عند فيضانه بحيرات عظيمة تحيط بها غابات عديدة مملوءة فيلة وحيوانات أخرى حسبما سنفصل ذلك في محله.

الحركة الطبيعية للرياح بإفريقيا والتغيرات الناتجة عنها

يبتدىء فصل الشتاء والبرد في كل بلاد البربر تقريباً بعد منتصف اكتوبر،ويستمر في دجنبر، ثم يشتد البرد في يناير كما هو الشأن في سائر البلدان، لكن هنا في الصباح فقط بحيث لا يحتاج أحد إلى إيقاد النار

---

(88) هو اسم كولا.

للتسخين. ويقل البرد عادة في شهر فبراير، غير أن الجو يتقلب غالباً خمس أو ست مرات في اليوم. وفي شهر مارس تهب رياح قوية من الغرب والشمال فتخصب الأرض وتزهر الأشجار. وفي أبريل تكاد جميع الفواكه تبتدىء في أخذ شكلها بحيث يؤكل حب الملوك في سهول موريطانيا أوائل ماي بل وفي أواخر أبريل. وبعد مرور الأسابيع الثلاثة الأولى من شهر ماي يقتطف تين ناضج نضج تين الصيف. وفي الأسبوع الثالث من شهر يونيه يبدأ العنب ينضج ويؤكل، وينضج في شهري يونيه ويوليوز التفاح والإجاص والمشمش والبرقوق جميعها، كما ينضج في شهر غشت تين الخريف والعناب، غير أنه لا يكثر التين والخوخ إلاّ في شتنبر. ويبدأ تجفيف العنب في الشمس بعد منتصف غشت، فإذا نزل المطر في شتنبر عصر ما بقي من العنب خمراً و(صامتاً)[89] لا سيما في إقليم الريف كما سنذكره عندما نتعرض له.

ويقتطف التفاح والرمان والسفرجل في شهر اكتوبر، والزيتون في نونبر. ولا يكون قطف الزيتون باليد والتسلق في السلاليم كما هو الحال في أوربا، إذ لا يمكن صنع سلاليم طويلة تصل إلى أعلى الأشجار، فأشجار الزيتون هنا ضخمة عالية جداً لا سيما الواقعة منها في موريطانيا والقيصرية، لكن أشجار الزيتون في مملكة تونس شبيهة بأشجار زيتون أوربا. وعندما يريد الناس قطف الزيتون يتسلقون الأشجار وفي أيديهم عصي طويلة جداً يضربون بها الأغصان ليسقط الثمر. وهم يعرفون أن ذلك مضر بالأشجار حيث يتسببون في إتلاف البراعم وعدد كثير من الجذوع الصغيرة وإفسادها. ثم إنه يحدث لزيتون افريقيا أن يكثر في سنة، ويقل في أخرى حتى لا ترى ولو زيتونة واحدة. ويوجد نوع من الزيتون الغليظ لا يصلح لأن يعصر منه الزيت، وإنما يؤكل محفوظاً (مصبراً) حتى في جميع فصول السنة.

(89) عصير خمر مطبوخ.

حدود الفصول ومميزاتها

تكون شهور الربيع الثلاثة معتدلة نسبياً، ويبتدىء فصل الربيع في 15 فبراير لينتهي في 18 ماي، ويبقى الجو صافياً طوال هذا الفصل، غير أنه إذا لم ينزل مطر فيما بين 25 أبريل و 5 ماي تضرر محصول السنة كثيراً. ويسمون ماء المطر الذي ينزل في هذه المدة «ماء نيسان» ويعتبرونه ذا بركة إلهية، فيحتفظ به كثير من الناس في قوارير صغيرة للتبرك به[90].

يستمر الصيف إلى 16 غشت، فيشتد الحر دائمًا لا سيما في شهري يونيه ويوليوز حيث تكون السماء صافية رائقة، إلاَّ أنه في بعض السنين ينزل المطر في شهري يوليوز وغشت فيفسد الجو كثيراً وتنشأ عنه حمى حادة تشتد على أكثر الناس ولا ينجو منها إلا القليل.

يبدأ الخريف عند الأفارقة في 17 غشت ويستمر إلى 16 نونبر، فتقل الحرارة في شهري غشت وشتنبر، ومع ذلك فإن الأيام الواقعة فيما بين 15 غشت و 15 شتنبر سماها الأقدمون «فرن الزمان»، لأن شهر غشت ينضج التين والرمان والسفرجل وينشف العنب. أما فصل الشتاء فيبدأ في 15 نونبر ويستمر إلى 14 فبراير. ويبدأ موسم الزرع في الجبال خلال شهر أكتوبر.

يعتقد الإفريقيون أن في السنة أربعين يوماً شديدة الحر تبتدىء يوم 12 يونيه، وأربعين يوماً شديدة البرد تبتدىء يوم 12 دجنبر[91]، ويعرفون اعتدال (الربيع والخريف) ويحددونه في 16 مارس و 16 شتنبر، ويقولون بانقلاب سير الشمس (صيفاً وشتاء) في 16 يونيه و 16 دجنبر.

تلك هي القواعد الفلكية التي يعتبرها الأفارقة، سواء في كراء أراضيهم وزرعها وحصدها، أو في ركوب البحر ومعرفة مواقع النجوم في

(90) هناك مثل عند الفلاحين المغاربة يقول: (الشتا دنيسان كترفد في الكيسان).

(91) يسمون أيام الحر هذه: السمائم، وأيام البرد: الليالي.

منازل أفلاكها وحساب حركة الكواكب السيارة. ويعلمون الأولاد في المدارس أشياء نافعة جداً مما يتعلق بهذه المسائل.

وهناك عدد وافر من الفلاحين العرب وغيرهم في غاية الأمية يحسنون الكلام بإسهاب في الفلك، ويستنتجون من أقوالهم استنتاجات متناهية في الدقة. والقواعد التي يتبعونها في ذلك وهي عندهم ضرورية أتت من اللاتينية وترجمت منها إلى العربية. ويوجد كتاب ضخم في ثلاثة أجزاء يسمى «**كنز الفلاحة**» ترجم من اللاتينية إلى العربية في قرطبة أيام المنصور ملك الأندلس[92]. ويتعرض هذا الكتاب لجميع المسائل الضرورية للفلاحة، كالفصول وطرق الزرع والغرس وتلقيح الأشجار وتغيير كل ثمر أو حب أو خضرة بواسطة الفلاحة... وإني لأعجب كثيراً من وجود مثل هذا العدد من الكتب المترجمة عن اللاتينية عند الأفارقة في حين افتقدت الآن عند اللاتينيين.

إن التوقيت وأحكامه في جميع المسائل الدينية والشرعية التي يسير عليها الأفارقة وسائر المسلمين مبني على سير القمر، فالسنة 354 يوماً، لأنها تتركب من ستة شهور في كل منها ثلاثون يوماً، وستة شهور أخرى في كل منها تسعة وعشرون يوماً، فيكون مجموع الأيام هو ذلك العدد. وتكون الأعياد والصيام في تواريخ مختلفة، فالسنة العربية إذا أقصر من السنة اللاتينية بأحد عشر يوماً، وهذا العدد من الأيام هو الذي يجعل سنتنا دائمًا متأخرة عن السنة الشمسية.

واعلم أيضاً أنه في آخر الخريف وأثناء الشتاء كله وبعض فصل الصيف تحدث عواصف مصحوبة بالبرد والصواعق والبرق، وينزل الثلج

(92) هذه العبارة مضطربة، إذ المقصود ـ فيما يظهر ـ أنه يعني المنصور بن أبي عامر حاجب الحكم المستنصر الأموي، وكان حاكمًا للأندلس كلها لا لغرناطة فقط، اللهم إلا أن يكون ذلك من تأثر المؤلف بما عرف من اقتصار حكم المسلمين على غرناطة في عهدهم الأخير بالأندلس. انظر **المقدمة**، ص 23.

في أماكن كثيرة من بلاد البربر، والرياح الثلاث التي تهب من الشرق والجنوب الشرقي والجنوب بالغة الضرر، لا سيما في شهري مايو ويونيه، لأنها تفسد جميع الغلات وتمنع الفواكه من النمو والنضج. وكذلك الضباب يضر الحبوب كثيراً لا سيما إذا وقع في وقت الازهار لأنه يستمر أحياناً النهار كله.

وفي الأطلس لم تعد السنة تشتمل إلاّ على فصلين، ستة أشهر للشتاء من أكتوبر إلى أبريل، وستة أشهر للصيف من أبريل إلى شتنبر، غير أنك تجد الثلج دائمًا طوال السنة في أعلى قمم الجبال.

وفي نوميديا يتقدم تسلسل الفصول، إن صح هذا التعبير، فالقمح يحصد في مايو، والتمر يجنى في أكتوبر. ومن منتصف شتنبر وأكتوبر كله إلى يناير يكون الفصل الأكثر برداً في السنة. وإذا هطل المطر في شتنبر فسد معظم التمر، وكانت الغلة مزرية. وتحتاج جميع أراضي نوميديا إلى السقي لكي تزرع. ومن ثم إذا لم يهطل مطر في الأطلس وجفت وديان نوميديا فإنه لا يمكن سقي الأراضي. وإذا لم ينزل مطر كذلك في أكتوبر فإنه لا يرجى أن يكون حصاد في تلك السنة. وإذا لم تمطر السماء في شهر أبريل كانت غلة القمح منعدمة في البوادي. ولكن عندما ينحبس المطر تجود غلة التمر. ويفضل النوميديون كثيراً غلة التمر على غلة القمح، لأن هذه الأخيرة مهما كثرت لا تكفي لنصف السنة. أما إذا جادت غلة التمر فإن القمح لا ينعدم حينئذٍ، إذ أن الاعراب والجمالين الذين يتعاطون تجارة التمر يأتون بكميات ضخمة من القمح لاستبداله بالتمر.

وإذا تغير الجو في صحراء ليبيا عند منتصف غشت، واستمر هطول المطر إلى شهر نونبر وحتى أثناء دجنبر ويناير وطرف من فبراير، نتج عن ذلك وفرة الأعشاب، ووجد حينئذٍ في ليبيا كلها بحيرات عديدة، وكثر اللبن. وهذا هو السبب الذي من أجله يقوم تجار بلادالبربر في هذا الفصل برحلتهم إلى أرض السودان.

وفي هذه البلاد تتقدم الفصول، فتظهر بوادر المطر في نهاية يوليوز غير أنهم لا يمطرون بغزارة. ويمتاز المطر في بلاد السودان بخاصية أنه لا ينفع ولا يضر. فمياه النيجر تكفي حقول القمح، وفيضان النهر يرطب الأرض ويخصبها مثلما يفعل النيل في مصر تماماً. حقاً إنه يحتاج إلى المطر في بعض الجبال. ويقع فيضان النيجر في نفس وقت فيضان النيل، أي أنه يبتدىء في 15 يونيه ويستمر أربعين يوماً. ويمكن في وقت الفيضان أن يقطع المرء كل بلاد السودان تقريباً على ظهر زورق، لأن المنبسطات والشعاب والحفر تصير كلها ودياناً. لكن ركوب بعض الزوارق التي يستعملها أهل البلاد خطير جداً كما سأفصّل ذلك في القسم الخامس من هذا الكتاب(93).

قصر العمر وطوله
عند الأفارقة

يعمِّر الناس في جميع مدن بلاد البربر وقراها من خمسة وستين إلى سبعين عاماً، ويعيش قليل منهم أكثر من ذلك، غير أنه يوجد في الجبال من يبلغ مائة سنة أو يجاوزها. وشيخوختهم قوية مرنة. ولقد رأيت بعض الجبليين بلغوا الثمانين أو جاوزوها يحرثون الأرض وينقشون الكرم ويقومون بسائر الأعمال التي يحتاجون إليها بخفة عجيبة. ورأيت أعجب من ذلك في الأطلس شيوخاً في هذه السن يشاركون في الحروب ويصارعون الشبان بشجاعة وكثيراً ما ينتصرون.

ويعمر الناس طويلاً كذلك في نوميديا، أي بلاد النخيل، لكنهم يفقدون أسنانهم، ويضعف بصرهم كثيراً. ويأتي سقوط الأسنان من كونهم يأكلون التمر على الدوام، وضعف البصر من كون هذه البلاد تعصف بها

---

(93) غيّر المؤلف ترتيب كتابه فتحدث عن هذه الزوارق في القسم السابع عند كلامه على جني.

الريح الشرقية التي تحمل الرمل والغبار فتتأذى منها العيون وتفسد في النهاية. أما أهل ليبيا فيعيشون أقل من سكان المناطق السابقة، غير أنهم يبقون أقوياء سالمين إلى أن يبلغوا الستين سنة أو نحوها، لأنهم ضامرون طوال.

ويعمر الناس في بلاد السودان أقل مما تعمره الأجناس الأخرى، لكنهم يبقون دائمًا أقوياء، وأسنانهم سالمة على حالها لا تتغير. وهم فاسقون فجرة كأهل ليبيا ونوميديا، بينما نجد طبع سكان بلاد البربر أكثر اعتدالاً.

أكثر الأمراض انتشاراً
عند الأفارقة

يتكون القرع عادة في رؤوس الأطفال الصغار والنساء البالغات، فيصعب الاستشفاء منه إلا بمشقة عظيمة. ويصيب صداع الرأس كثيراً من الناس دون حمى في بعض الأحيان، وتكثر أمراض الأسنان التي يظن أنها ناشئة عن كون هؤلاء القوم يشربون الماء البارد فور تناولهم الحساء الحار. ويتألمون كذلك من أمراض المعدة التي يسمونها جهلاً أمراض القلب، ويصاب الكثير منهم يومياً بإسهال وأوجاع حادة في أمعائهم، وذلك أيضاً بسبب الماء البارد الذي يشربون. ويكثر عندهم ألم النسا (بوزلوم) والركب بسبب الجلوس على الأرض وهم لا يلبسون أي نوع من السراويل.

ولا يصاب منهم بالنقرس إلاَّ القليل، ومع ذلك يرى بعض الرؤساء المصابين به ممن اعتادوا شرب الخمر وأكل الدجاج وغيره من الأطعمة الناعمة الشهية.

والإكثار من أكل الزيتون والجوز وغيرهما من الأطعمة الخشنة التي لا تصلح لشيء يورث الجرب الذي يصعب التخلص منه. والجلوس على الأرض في الشتاء يسبب أحياناً لذوي المزاج الدموي سعالاً قوياً وأليمًا. وكثيراً ما يتلهى في المساجد يوم الجمعة في الوقت الذي يجتمع عادة آلاف

الأشخاص، فإذا وصل الخطيب إلى أحسن فقرة في خطبته واتفق أن سعل أحد الحاضرين، سعل آخر (ثم آخر) وهكذا حتى يسعل الجميع في نفس الوقت تقريباً إلى نهاية الخطبة فيفترقون دون أن يستمع أحد إليها.

وداء الإفرنج (الزهري) الفظيع بأوجاعه وبثوره وقروحه منتشر كثيراً في بلاد البربر لا يكاد يسلم منه إلا القليل. حقاً ان هذا الداء لا يكاد يعرف في البوادي وجبال الأطلس، ولا يوجد بتاتاً عند الأعراب ولا في نوميديا، أي بلاد النخيل، ولا في ليبيا، ولا يقع حتى الحديث عن هذا الداء في بلاد السودان. بل بالعكس إذا أصيب به أحد فإنه يشفى منه عاجلاً بمجرد أن يبدل الهواء ويذهب إلى نوميديا أو بلاد السودان.

وهذا الداء لم يشاهد قط ولم يذكر حتى اسمه، لكن عندما طرد الدون فيرديناند ملك إسبانيا اليهود من بلاده(94) جاء كثير منهم إلى بلاد البربر فظهر فيها هذا الداء الذي حمله عدد كثير من يهود إسبانيا، وكان لعدد من أشقياء المغاربة اتصال (جنسي) مع نساء هؤلاء اليهود، وهكذا انتشر قليلاً قليلاً في ظرف عشر سنوات حتى لم تعد تسلم منه أية أسرة.

وقد اعتبر المصابون الأولون بهذا المرض كالبرصان، فطردوا من بيوتهم وألزموا بالسكن مع البرصان، لكن عندما شوهد تكاثر عدد الإصابات به كل يوم، وأصبح عدد المصابين ضخماً في إسبانيا كلها، أخذ المرضى يحيون حياتهم العادية، وعاد المبعدون منهم إلى بيوتهم على الفور. ويؤكدون في بلاد البربر أن أصل هذا المرض من إسبانيا ويطلقون عليه ذلك الاسم في إسبانيا ولا سيما في موريطانيا. ويطلق عليه أهل تونس اسم داء الإفرنج، كما يطلق عليه ذلك الإيطاليون وأهل مصر والشام. وقد فتك هناك (بالناس) فتكاً ذريعاً وخاصة في مملكة تونس.

ويصاب عدد من الناس بذات الجنب.

---

(94) وذلك بمرسوم 3 مارس 1492.

ولا يشكو في بلاد البربر إلا القليل من ذلك المرض أو تلك العاهة المسماة بالفتق عند اللاتينيين، لكن يشكو منه الكثير في الديار المصرية. وقد تنتفخ الخصيتان عند البعض إلى حد أنهما تشكلان منظراً غريباً. ويظن أن مردَّ هذه العاهة إلى أكل الصمغ والإكثار من أكل الجبن المالح.

وكثيراً ما يشاهد مرض الأعصاب في افريقيا عند الأطفال، لكنهم يشفون منه كلما تقدمت سنهم، ويصاب به كثير من النساء، لا سيما في بلاد البربر وأرض السودان. ومن البلاهة اعتبار هؤلاء كمصابين بمس من الجن.

ويظهر الوباء في بلاد البربر على رأس كل عشر سنوات، أو خمس عشرة أو خمس وعشرين سنة. وعندما يأتي يذهب بالعدد العديد من الناس، لأنه لا يهتم به أحد ولا يستعمل أي دواء باستثناء التمسح بالتراب الأرميني حول دمل الطاعون، ولم يظهر الوباء بنوميديا منذ مائة سنة، ولم يظهر قطُّ في أرض السودان.

مزايا الأفارقة
والأشياء المحمودة عندهم

إن الأفارقة الذين يسكنون مدن بلاد البربر، ولا سيما مدن ساحل البحر المتوسط، يهتمون كثيراً بالتعلم ويتعاطون الدراسة بكامل العناية. وفي طليعة ما يدرسون الآداب والكلام والفقه. وكان من عادتهم في القديم أن يدرسوا الرياضيات والفلسفة وحتى علم الفلك. غير أنه منذ أربعمائة سنة خلت، كما أشرت إلى ذلك من قبل، منعهم فقهاؤهم وملوكهم من تعاطي معظم هذه العلوم. وذلك ما حدث للفلسفة والتوقيت الشرعي.

وسكان افريقيا متمسكون أيضاً بالديانة شديد التمسك، يخضعون لفقهائهم وأئمتهم، ويهتمون شديد الاهتمام بمعرفة الأشياء الضرورية في

الدين. يترددون على المساجد لأداء الصلوات، ويتحملون بصبر عجيب مشقة الوضوء قبل كل صلاة، بل ويغسلون أجسادهم أحياناً، حسبما أذكر ذلك في الباب الثاني من كتابي عن العقيدة والديانة الإسلامية.

ثم إن سكان المدن في بلاد البربر أناس ماهرون، حسبما يشاهد من جودة الأعمال المختلفة التي ينجزونها. وهم ذوو تربية فائقة، وكياسة متناهية، وإحسان كثير، حتى لا تكاد تصدر عنهم إساءة. تكن أفئدتهم الحق وتنطق به ألسنتهم، رغم ما كانوا عليه بخلاف ذلك في القرون الخالية حسبما يشهد به التاريخ الذي كتبه المؤلفون اللاتينيون(95). وهم غاية في الإقدام والشجاعة ولا سيما الجبليون منهم، يوفون بالعهد فوق كل شيء ويؤثرون الموت على إخلاف الوعد. ولا حد لغيرتهم على النساء، حتى إنهم ليهبون أرواحهم بدل أن يتحمّلوا العار في حق نسائهم، كما لا حد لحرصهم على المال والشرف، فيذهبون إلى جميع الأقطار للاتجار، فتراهم في كل وقت بمصر وأثيوبيا والجزيرة العربية، وبلاد فارس والهند وتركيا. وحيثما ذهبوا حَسُنَ اقتبالهم وإكرامهم، لأنهم جميعاً خبراء ماهرون في المهن التي يمتهنونها.

أضف إلى هذا أنهم ذوو حشمة وأمانة في حديثهم، لا يجهرون بالسوء من القول البتة، يحترم صغيرهم كبيرهم، سواء في الكلام أو في أية مناسبة أخرى، حتى إن الشاب منهم لا يجرؤ على أن يتحدث عن الحب أو عن الفتاة التي يهواها بمحضر أبيه أو عمه، كما يستحيي أن ينشد أغنية غرامية بمجرد ما يرى من هو أكبر منه. وإذا جاء أطفال إلى أناس يتحدثون عن الغرام انصرفوا حالاً. تلك هي العادات الحسنة وتقاليد التربية المستحسنة التي توجد عند الحضريين ببلاد البربر.

---

(95) الإشارة إلى «فيديس بونيكا» لسالوست.

وسكان الخيام، أعني الاعراب والرعاة، ذوو كرم ورحمة وشجاعة وحلم ولطف وألفة، يعيشون عيشة راضية في طاعة وديانة وبشاشة ومرح.

وسكان الجبال هم بدورهم كرماء شجعان، يحسنون الكلام ويحيون حياة جماعية شريفة.

وسكان نوميديا أكثر معرفة من أولئك، لأنهم متشبثون بالقِيَمِ الأخلاقية ودراسة الشريعة الإسلامية. غير أنهم لا يعرفون شيئاً يذكر من العلوم الطبيعية، يحسنون استعمال السلاح، فهم أشِدَّاء، رحماء (بينهم).

وسكان ليبيا، سواء منهم الأفارقة والعرب، ذوو كرم ولطف، يعملون كل ما في استطاعتهم لخدمة إخوانهم، ويحترمون الغريب غاية الاحترام، وهم على جانب كبير من الطيبوبة والصراحة والإخلاص.

يعيش السودانيون عيشة حسنة أوفياء، ويحسنون استقبال الغرباء، ويقضون أوقاتهم في اللهو والمجون، يرقصون ويولمون بأكثر ما يمكن. ويقبلون على كل أنواع التسلية. وهم في غاية الصراحة، يُعَظِّمون العلماء والفقهاء ويوقِّرونهم، وهم الذين يقضون أحسن الأوقات من بين الأفارقة القاطنين في هذه البلاد.

مساوىء الأفارقة
والأشياء المذمومة عندهم

مما لا شك فيه أن للأفارقة مساوىء بقدر ما لهم من محاسن، فلننظر ما إذا كانت هذه المساوىء أقل أو أكثر أثراً. إن سكان مدن بلاد البربر فقراء متكبرون لا مثيل لحقدهم، فهم كما يقال ينقشون على الرخام أقل إهانة (تلحقهم) ولا يسمحون لها بالخروج من قلوبهم أبداً. وهم كريهون لدرجة أنه قلّما ينال الغريب محبتهم، بالإضافة إلى أن سذاجتهم تجعلهم يصدقون كل شيء مهما كان مستحيلاً. وتجهل العامة نواميس

الطبيعة جهلاً تاماً، حتى إنها تنظر إلى جميع الظواهر الطبيعية كيفما كانت كتصرفات إلهية. وهم غير منتظمين في معاشهم وكذلك في أعمالهم، يتملكهم الغضب، وفي معظم الأوقات عندما يتكلمون يرفعون أصواتهم بكلام متغطرس. وفي الأزقة التي يكثر فيها المرور قلَّ ألَّا ترى رجلين أو ثلاثة يتلاكمون، وهم أنذال لا يعيرهم سادتهم أي اعتبار: ويمكن القول ان السيد منهم يهتم بحيوان أكثر مما يهتم بإنسان مدني، وليس لهم أعيان ولا قضاة يتولون شؤونهم أو ينصحونهم في أية مسألة من سياسة أمورهم، بالإضافة إلى أنهم في غاية التعنت والجهل بالتجارة، ليست لهم مصارف ولا من يتكفل بشحن البضائع من مدينة إلى أخرى، وإنما يلزم كل تاجر ان يبقى بجانب بضاعته ويذهب معها أين ذهبت.

وهم فوق كل ذلك بخلاء يوجد من بينهم عدد لم يقبل قط إيواء غريب، لا مجاملة ولا لوجه الله. كما أن منهم القليل ممن يردون الحسنة بمثلها. وهم في اضطراب وقلق مستمر، لا يصغون إلى الفكاهة بتذوق، وذلك لاهتمامهم المستمر بضرورات الحياة لشدة فقرهم وقلة مكاسبهم.

والرعاة سواء منهم سكان الجبال وسكان السهول يعيشون معيشة ضنكاً ويبقون في بؤس وخصاصة على الدوام. وهم جفاة ولصوص وجهال، لا يردون إطلاقاً ما اقترضوا من مال. والأزواج المخدوعون عندهم أكثر من غيرهم. ويمكن لجميع الفتيات أن يكون لهن قبل الزواج عشاق يذقن معهم حلاوة الحب، ويرحِّب الأب نفسه بعاشق ابنته أجمل ترحيب، وكذلك يفعل الأخ بعاشق أخته، بحيث إنه لا توجد امرأة تزف بكراً إلى زوجها. حقاً إن المرأة بمجرد زواجها ينقطع عنها عشاقها، ولكنهم يذهبون إلى أخرى. وأكثر هؤلاء القوم ليسوا بمسلمين ولا يهود ولا بالأحرى مسيحيين، لا إيمان لهم ولا دين بل ليس لهم حتى ظل الدين. لا يؤدون أي صلاة، وليست لهم مساجد، وإنما يعيشون كالبهائم. وحتى

إذا وجد من بينهم من له ذرة شعور بالدين اضطر إلى أن يعيش كغيره ما دام ليس هناك مبادىء دينية ولا فقهاء ولا أية قاعدة من القواعد.

والنوميديون بعيدون عن معرفة الأشياء جاهلون بطريقة السلوك في حياة طبيعية منتظمة، فهم غدارون فتاكون متلصصون لا يراعون إلاً ولا ذمة، كما انهم لا إيمان لهم ولا قواعد دينية. عاشوا دائمًا ويعيشون وسوف يعيشون في شقاء. وإذا احتاجوا إلى شيء أو طمعوا فيه ارتكبوا كل خيانة مهما عظمت وفظعت. ولا توجد بهائم تحمل قروناً كقرون هؤلاء الأنذال يقضون حياتهم كلها في الاضرار أو الصيد أو القتال فيما بينهم أو رعي ماشيتهم في القفر يمشون دائمًا حفاة عراة.

وسكان بلاد السودان شرسون دون عقل ولا ذكاء ولا خبرة، لا يعرفون أي شيء على الإطلاق، يعيشون أيضاً كالبهائم بدون قواعد ولا قوانين. وتكثر عندهم العاهرات والأزواج المخدوعون، إلا قليلاً من النساء اللواتي يعشن في أمهات القرى فلهن نصيب أوفر قليلاً من الكرامة الإنسانية.

ولا يخفى علي ما يصيبني من خجل عندما أعترف وأكشف عيوب الأفارقة، فافريقيا في الواقع هي التي أرضعتني، وفيها كبرت وقضيت أجمل وأطول قسط من حياتي، لكن عذري عند الجميع هو ما أضطلع به من دور المؤرخ الذي يلزمه قول الحق الواقع دون أي اعتبار، ولا إرضاء رغبات أي كان. ذلك هو السبب الذي اضطررت من أجله اضطراراً إلى أن أكتب ما أكتب قاصداً ألا أبتعد عن الحقيقة في شيء، وأن أترك جانباً محسنات الأسلوب وزخرف القول.

وللدفاع عن نفسي، لا بد من أن أقص حكاية صغيرة تكون مثلاً كافياً للأذهان النيِّرة والشخصيات البارزة التي ستتفضل بقراءة هذا المؤلف الطويل.

يحكى أن شاباً وضيعاً سيىء السلوك من بلادي ألقي عليه القبض من أجل سرقة تافهة وحُكِمَ عليه بالجَلد. ولما حل اليوم الذي ينفذ فيه الحكم ويسلم إلى رجال العدالة لاحظ أن الجلّاد من أصحابه، ووثق من أنه سيوليه من الرفق أكثر مما يوليه لغيره. لكن الجلَّاد بعكس ذلك بادره بضربة قاسية جداً، فتألم الصاحب المسكين وأخذ يصيح: يا أخي إنك تعاملني معاملة في غاية السوء مع أنك صديق! فنزل عليه الجلَّاد بضربة ثانية أعنف من الأولى، وقال له: لا بد يا صاحبي من أن أقوم بعملي كما يجب، ولا موضوع للصداقة هنا! ثم تابع عمله وصبَّ عليه سوطه بعدد الجلدات التي حَكَمَ بها القاضي كاملة.

لهذا كنت أُلَام لو أني أخفيت عيوب الأفارقة. وقد يظن البعض أنني فعلت ذلك لاتصافي بالكثير من هذه النقائص، ولحرماني من تلك الفضائل التي للآخرين. وفي هذه الحالة بما أنني لا أملك وسيلة أخرى أفضل للدفاع عن نفسي، أرى أن أستفيد من طريقة اتّبعها أحد الطيور. ولكي أوضِّح لكم ذلك أقصُّ عليكم حكاية أخرى قصيرة وممتعة:

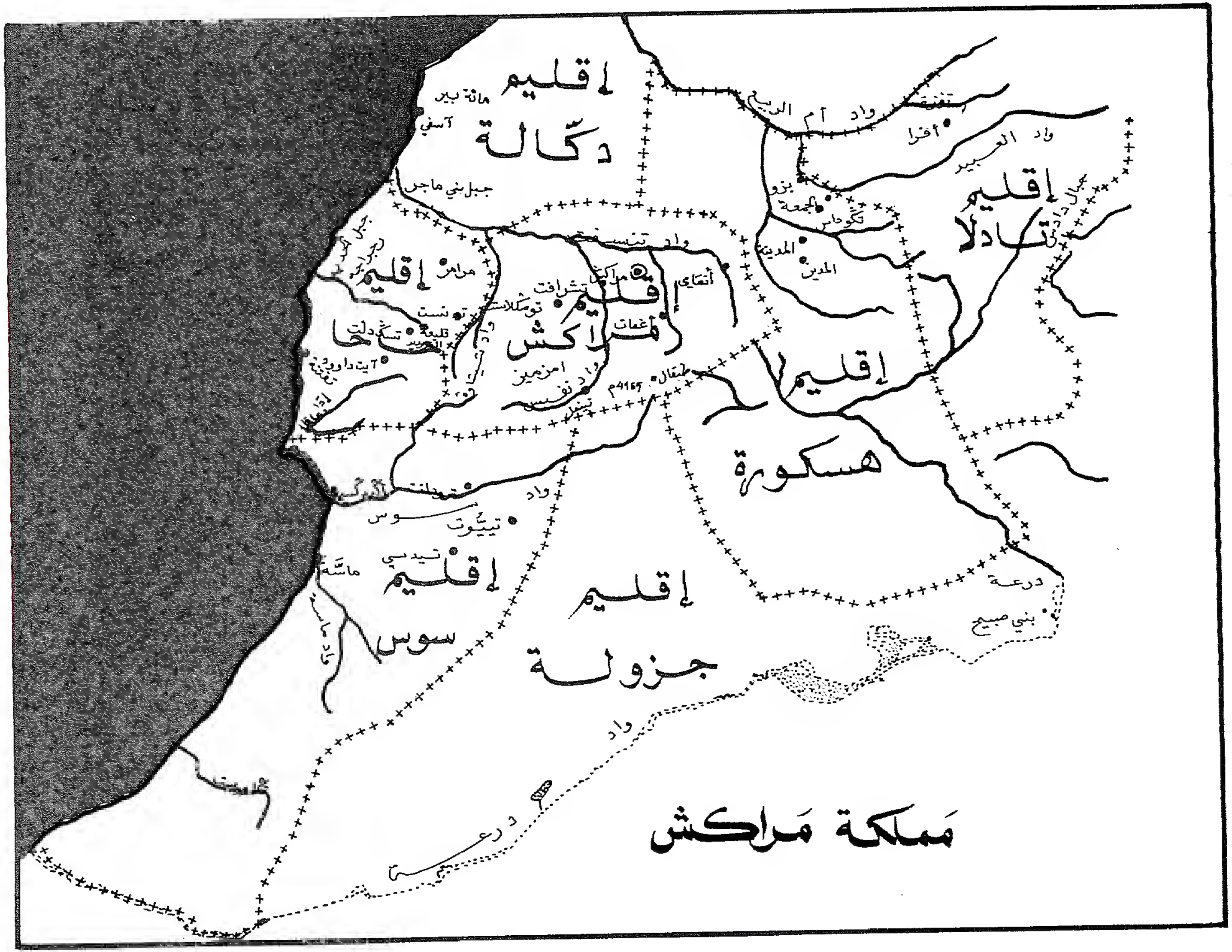
زعموا أنه في العصر الذي كانت فيه الطيور تتكلم، كان طائر صغير ظريف جريء خصَّه الله بذكاء عجيب، وحبته الطبيعة خاصية إمكان العيش بين السمك في الماء، وعلى الأرض مع سائر الطيور. وكان على جميع الطيور آنذاك أن تؤدي إلى ملكها ضريبة سنوية، فقرر هذا الطائر ألا يؤدي شيئاً. ولما بعث إليه الملك أحد موظفيه لاستخلاص الضريبة، قدم إليه الطوير الماكر كلمات بدل المال، ثم ارتفع في الجو ولم يقف حتى نزل في البحر واختفى في مياهه. ولما رأى السمك هذا الشيء الجديد تسارعوا إليه جميعاً وأحاطوا به لمعرفة السبب الذي حمله على المجيء إليهم، فأجابهم بقوله: «يا حسرتاه! ألا تعلمون أيها الكرام أن العالم صار إلى حيث أنه لم يعد بالإمكان العيش في البر؟ وأن ملكنا النذل الحقير زيَّنت له نفسه أن يمزقني حياً رغم صلاحي وكوني أمثل الطيور وأشرفها على الإطلاق. ثم زاد

قائلاً: فاسمحوا لي لوجه الله أن أسكن معكم حتى يمكنني القول بأني وجدت عند الغرباء من الإيناس أكثر مما وجدته عند أهلي وأبناء جنسي. فرضي السمك بذلك، وقضى الطائر الصغير سنة معهم دون أن يؤدي أية ضريبة. ولما انتهت السنة وحان وقت استخلاص الضرائب، بعث ملك السمك أحد خدامه إلى الطائرالصغير ليخبره بما جرت به العادة ويطلب منه أداء المبلغ الذي وجب عليه. فقال له الطائر: هذا معقول تماماً! ثم طار وخرج من الماء تاركاً مخاطبه في غاية الارتباك والدهشة. وهكذا كان كلما طلب من الطائر الصغير أن يؤدي الضريبة لملك الطيور هرب واختفى تحت الماء، وكلما طلب منه أن يؤدي الضريبة لملك السمك عاد إلى البر.

أريد أن أستخلص من هذا، أن الإنسان يسعى إلى حيث يرى منفعته ما استطاع إلى ذلك سبيلاً. ومن ثم فإني إذا ذممت الأفارقة قلت انني ولدت بغرناطة لا بافريقيا، وإذا انتقدت مسقط رأسي تعللت بأني إنما نشأت في افريقيا لا في غرناطة. غير أن عطفي على الأفارقة يجعلني لا أذكر من الأشياء التي يلامون عليها سوى ما كان منها معروفاً عند الناس ظاهراً للعيان.

القسم الثاني

مملكةُ مَرّاكُش


مملكة مراكش
إقليم دكالة
إقليم تادلا
إقليم مراكش
إقليم حاحا
إقليم
إقليم هسكورة
إقليم سوس
إقليم جزولة
آسفي
جبل بني ماجر
واد أم الربيع
واد العبيد
أغمات
أنفاي
امزميز
تيوت
ماسة
درعة
بني صبيح

تَوْطِئَة

ذكرت في القسم الأول من هذا الكتاب اجمالاً وبصفة عامة مدن افريقيا وحدودها وأقسامها، وكذلك الأشياء المتعلقة بالأفارقة مما بدا لي أنه أجدر بالذكر. وستقدم إليكم الأقسام التالية معلومات خاصة عن الأقاليم المختلفة، والمدن، والجبال، والمواقع، والقوانين، والعوائد. ولن أهمل شيئاً مما يستحق أن يعرف. وسأبدأ بالغرب لأنهي عرضي ببلاد مصر، وذلك في سبعة أقسام. وسأزيد قسمًا آخر أنوي بعون الله تعالى ومشيئته أن أصف فيه أهم الأنهار ومختلف الحيوانات والنباتات والفواكه والخضر التي لا تخلو من فائدة وتوجد في افريقيا، لأنه لا يمكن بدون تلك المشيئة الربانية أن يحقق الإنسان شيئاً كاملاً في الحياة الدنيا.

* * *

مملكةُ مَرَّاكُش

حَاحَا، إقليمٌ غربيّ

تنتهي حاحا التي هي أحد أقاليم مملكة مراكش إلى البحر المحيط في جهتي الغرب والشمال، وإلى الأطلس في الجنوب، وتقف في الشرق عند نهر أسيف نوال[1] الذي ينبع من هذا الجبل (الأطلس) ويصب في نهر تنسيفت، وهو الحد الفاصل بين حاحا والاقليم المجاور لها.

---

(1) اسم بربري يعني وادي الاخصاص، وقد تنوسي اليوم هذا الاسم، ويطلقه المؤلف على المجرى الأسفل لوادي شيشارة.

بقاع حاحا وطبيعتها

هذا الاقليم وعر جداً ومليء بالجبال الصخرية العالية والغابات والشعاب والأودية الصغيرة، وهو عامر بالسكان، لا يزال فيه عدد ضخم من الماعز والحمير، وقليل من الغنم، وأقل من ذلك البقر والخيل. ويوجد فيه أيضاً قليل من الفواكه، لا لعدم خصب التربة بل لجهل السكان، لأنني شاهدت أماكن عديدة يكثر فيها التين والخوخ، ولا ينبت في حاحا إلا اليسير من القمح، بينما يكثر فيها الشعير والدخن والذرة. وتنتج كمية باهظة من العسل الذي يعتبر الغذاء العادي لسكان هذه البلاد، غير أنهم لا يعرفون ماذا يصنعون بالشمع فيرمونه. ويوجد هناك عدد وافر من أشجار شائكة تثمر حباً كبيراً يشبه الزيتون الذي يأتينا من اسبانيا. ويسمى هذا الثمر عندهم بالهرجان، وتستخرج منه زيت كريهة الرائحة تستعمل مع ذلك في الطبخ والانارة.

نمط عيش هؤلاء السكان

تعود أهل هذه البلاد أن يأكلوا خبز الشعير الذي هو أشبه بالرغيف منه بالخبز، يعجن بلا خميرة وينضج على مقلاة فخار على صورة غطاء القدر، ولا يخبز في الفرن إلا نادراً. وهناك طعام خشن يدعى العصيدة ويهيأ بالطريقة التالية: يغلى الماء في قدر ثم يوضع فيها دقيق الشعير ويحرك بقضيب حتى ينضج. تصب هذه العصيدة في طبق مجوف، وتجعل في وسطه حفرة تملأ بزيت الهرجان هذه، وتجتمع الأسرة كلها حول هذا الطبق، فيأخذ كل واحد منه بيده دون ملعقة ما يستطيع حتى لا يبقى شيء في الطبق. وفي خلال الربيع والصيف كله يطبخ هذا الدقيق في اللبن ويدهن بالزبد، ذلك هو العشاء العادي، أما الغداء فيتكون في الشتاء من الخبز والعسل، وفي الصيف من اللبن والزبد. ويؤكل أيضاً اللحم مطبوخاً بالبصل والفول، أو مصحوباً بطعام آخر يسمى الكسكسو. وهم

لا يستعملون الموائد ولا السمط، وانما يفرشون على الأرض حصراً مستديرة يأكلون عليها.

لباس هؤلاء السكان وعاداتهم

يلبس معظم الناس ثوباً من الصوف يدعى كساء، يشبه غطاءات الفرش التي تستعمل في إيطاليا، يلفون به أجسامهم لفاً جيداً، ويأتزرون بنوع من فوط الصوف، ويضعون على رؤوسهم قطعة من نسيج الصوف كذلك. طولها عشرة أشبار وعرضها شبران، مصبوغة بلحاء جذور شجرة الجوز، يفتلونها ويديرونها حول رؤوسهم بحيث يبقى أعلى الرأس دائمًا مكشوفاً. ولا يحمل القلنسوة منهم عادة إلّا الشيوخ، والفقهاء إن وجدوا. وهذه القلانس مزدوجة مستديرة في علو القلانس التي يحملها بعض الأطباء في ايطاليا. ولا يلبس القميص منهم الا القليل، لأن الكتان لا يزرع في هذه البلاد أولاً، ثم لأنه لا أحد منهم يعرف نسجه. يجلسون على حصر مفتولة من الوبر ونبات الأسل، وينامون على أغطية مصنوعة من الصوف الطويل أيضاً، يتراوح طولها بين عشرة أذرع وعشرين ذراعاً، يستعملون طرفاً منها كفراش، وطرفاً آخر كازار وغطاء من فوقهم. وفي الشتاء يوضع جانب الغطاء الوبري في الداخل مما يلي الجسد، ويعكس الوضع في الصيف. والمخدات والوسادات أصناف من أكياس الصوف الخشنة الصلبة من نوع بعض أغطية الخيل الواردة من ألبانيا وتركيا.

أغلب نسائهم سافرات الوجوه، ويستعملون كماعون أطباقاً خشبية لا تجوف بالمخرطة بل بالسكين، غير أن القدور والجفنات مصنوعة من الطين.

وليس من عادة العزاب عندهم أن تكون لهم لحى، وانما يعفون لحاهم عندما يتزوجون. وليس لهم سوى القليل من الخيل، لكن هذا القليل تعود على قطع تلك الجبال بخفة ومهارة حتى ليظن أنها قطاط، ولا تصفح سنابكها بالحديد. ولا يحرث الحاحيون إلا بالحمير والخيل. ويوجد في هذه المنطقة عدد وافر من الوعول والغزلان والأرانب إلا أنهم

لم يعتادوا صيدها. وكنت دائمًا أتعجب من قلة الطاحونات مع وجود هذه الكثرة من المياه. وذلك ناتج عن أن لكل بيت أدواته الخاصة لطحن الحبوب، وأن النساء يعملن ذلك بأيديهن.

والتعليم غير معروف في هذه البلاد، فلا تجد فيها من يحسن القراءة، باستثناء بعض الفقهاء الذين لا يعرفون شيئاً آخر غير الفقه. ولا يوجد أي طبيب من أي صنف ولا أي جرّاح أو عقاقيري. وتكاد جميع الأدوية والعلاجات تكون بالكي بالنار كما تعالج الحيوانات. ويوجد حقاً بعض الحلاقين الذين تقتصر عملياتهم الجراحية على ختان الأطفال. ولا يصنع الصابون في هذه البلاد، ويستعمل الرماد مكانه.

وأخيراً فإن السكان في حروب لا تنقطع، لكنها حروب أهلية لا تصيب الأجانب. وإذا أراد أحد الأهالي أن ينتقل من مكان إلى آخر، فعليه أن يصحب معه بعض رجال الدين أو النساء من فريق خصومه. ولا وجود للعدالة في هذه البلاد قليلًا ولا كثيراً، ولا سيما في الجبل حيث لا أمير ولا حاكم. ويكاد الأشراف والأعيان لا يقدرون على الاحتفاظ بشبه سلطة داخل المدن، وهي قليلة. ومع ذلك يوجد كثير من المداشر والقصور والقرى، بعضها متناه في الصغر، وبعضها في غاية الكبر والازدهار، وسأحدثكم عن هذه وتلك.

تَدْنِسْتْ، مدينةٌ في حَاحَا

تدنست مدينة قديمة بناها الأفارقة في سهل على جانب كبير من الرونق والجمال، يحيط بها من كل جانب سور من الآجر والطين، وتوجد في داخله الدور والدكاكين. يوجد فيها خمسمائة كانون فأكثر، ويسيل على مدى طول السور جدول ماء ينبع بالقرب من ذلك المكان. وفي المدينة بعض دكاكين التجار الذين يبيعون القماش المستعمل في تلك الناحية، ونسيج الكتان المستورد من البرتغال. وليس هناك من الصناع غير الاسكافين والحدادين والخياطين وبعض الصاغة اليهود. ولا يوجد في أي

مكان من هذه المدينة فندق ولا حمام ولا دكان حلاق، فإذا جاء أحد التجار الغرباء نزل عند صديق أو شخص يعرفه، وإن لم يعرف أحداً اقترع أعيان المدينة لاضافته. وهكذا يجد جميع الغرباء منازل لهم، وهؤلاء القوم يسرهم أن يكرموا كل غريب. حقاً ان على كل ضيف من الغرباء أن يقدم عند انصرافه بعض الهدايا لمضيفه اعترافاً بالجميل. وإن جاء مسافر من غير التجار كان له حق اختيار مكان نزوله عند من يروقه من الأعيان دون أن يؤدي ثمناً أو يقدم هدية. وإذا اتفق مجيء فقير غريب أسكنوه في ملجأ خاص بايواء الفقراء واطعامهم.

وفي وسط المدينة جامع عظيم مبني بالحجر والجير في غاية الحسن، وهو عتيق شيد في الوقت الذي كانت البلاد خاضعة لسلطة ملوك مراكش. وفي وسط المسجد صهريج كبير. يقوم بخدمة هذا الجامع عدد من الفقهاء والسدنة. ويرى (في المدينة) كذلك بعض الجوامع والمساجد الأخرى، وهي جيدة البناء يعتني المكلفون بخدمتها رغم صغرها.

وفي مدينة تدنست مائة منزل لليهود، لا يؤدون الجزية. لكنهم يقدمون عادة هدايا للأعيان الذين يحمونهم، ومعظم السكان من اليهود، وهم الذين يملكون دار السكة ويضربون لسكان المدينة نقود الفضة: يستخرج من كل أوقية من الفضة (أونس)[2] مائة وستون قطعة نقدية صغيرة تشبه «الهيلير» المجري إلا أنها مربعة. ولا وجود في هذه المدينة لضريبة الأسواق ولا لضريبة الجمرك ولا لأية جباية أخرى. وإذا اتفق أن اضطرت المدينة إلى بعض الاداءات، اجتمع أعيانها واقتسموا المصاريف بحسب ما يستطيعه كل واحد منهم.

وقد خربت تدنست عام 918 للهجرة، وفر سكانها بعضهم إلى الجبال وبعضهم إلى مراكش، لأن جيرانهم من الأعراب تواطؤوا مع قائد

---

(2) الأونس (Once) الايطالي الذي يجعله المؤلف مساوياً للأوقية المغربية يزن 28 غرام وربع غرام بالتقريب.

(جيش) ملك البرتغال المقيم بأسفي وكان هؤلاء الأعراب يريدون تسليم المدينة للنصارى، فاتفق السكان جميعهم وغادروها. وقد شاهد كاتب هذه السطور مدينة تدنست بعد خرابها، وقد تهدم السور كله وكذلك المنازل، ولم يعد يسكنها غير البوم والغربان، وذلك عام 920[3].

تَكُوليتْ، مدينةٌ في حَاحَا

تقع هذه المدينة على منحدر جبل، وفيها نحو ألف كانون. وهي على بعد 18 ميلاً من تدنست إلى جهة الغرب. يجري بالقرب منها نهر صغير تقوم على ضفتيه بساتين وحدائق عامرة بالفواكه. وللمدينة عدة آبار ماؤ ها صاف زلال، وجامع في غاية الحسن، وأربعة ملاجىء للفقراء، وزاوية للأتقياء. وسكان هذه المدينة أغنى من سكان تدنست، لأن مدينتهم مجاورة لمرسى على البحر المحيط يسمى كُوز[4] (أكُوز).

تباع بتكُوليت كمية كثيرة من الحبوب، لوقوعها بجوار سهل فسيح، كما يباع فيها كثير من الشمع للتجار البرتغاليين. لذلك يرتدي الناس في هذه المدينة أجمل الملابس ويمتطون الخيول المسرجة بأحسن السروج. وفي الوقت الذي ذهبت فيه إلى هذه البلاد كان بتكوليت أحد الأعيان كرئيس لمجلسها، يتولى تدبير جميع شؤونها من توزيع الضرائب التي تؤدى للأعراب، وعقد معاهدات السلم والوفاء بالعقود المبرمة بينهم وبين أهل المدينة. وكان يملك ثروة طائلة ينفقها لاكتساب رضى الجميع ومحبتهم، يتصدق كثيراً ويعين الشعب بهباته فيما يحتاج إليه، بحيث إنه لم يكن هناك أحد إلا وهو يحبه كأبيه. ولقد رأيت هذا الرجل الشريف

---

(3) تفيد المصادر البرتغالية أن عامل أسفي نونيو فرنانديس وحليفه يحيى بن تعفوفت قائد الأعراب هزما أحمد الأعرج يوم فاتح محرم 920/26 فبراير 1514 على بعد نحو مائة كيلومتر من آسفي في طريق تدنست.

(4) هي الصويرة القديمة على الضفة الغربية لوادي تنسيفت غير بعيد عن المصب. ولا تقع تماماً على المحيط. ويبقى موقع تكُوليت مع ذلك مجهولاً لحد الآن.

وأقمت عنده نحو ثمانية أيام ونلت من كرمه. ووجدت، عنده كتباً تاريخية عديدة وحوليات تتعلق بافريقيا فقرأتها. وقتل المسكين أخيراً في الحرب ضد البرتغاليين عام 923 من تاريخنا (الهجري) الموافق للسنة المسيحية 1514 (4م) في حين أسرت طائفة من السكان، وفرت طائفة، وقتلت طائفة أخرى كما ذكرنا ذلك في كتابنا **تاريخ افريقيا الحديث**.

أدِيكِيسْ، مدينةٌ في حَاحَا

تقع أديكيس في السهل على بعد ثمانية أميال جنوبي تكوليت، وتشتمل على نحو سبعمائة كانون. والسور المحيط بها من الآجر النيء، وكذلك جامعها ومعظم منازلها. ويمر بداخل المدينة نهر قليل الأهمية ترى على ضفتيه كروم عديدة معروشات في غاية الجمال، ويعيش فيها عدد وافر من الصنّاع اليهود. ويلبس السكان الثياب الأنيقة ويمتلكون الخيل الفارهة، لأنهم يتعاطون التجارة ويتنقلون في الضواحي. يضربون السكة الفضية، ويقيمون كل سنة سوقاً يجتمع فيها جميع سكان الجبال المجاورة الذين هم أشبه بالوحوش منهم بالبشر. وتكثر في هذه السوق البهائم والزبد وزيت الهرجان، وكذلك الحديد والثياب (المنسوجة) في البلد، وتستمر خمسة عشر يوماً.

نساء هؤلاء السكان بارعات الجمال، بيض متوسطات البدانة، في غاية الظرف واللطف. لكن الرجال ذوو عنف وغيرة، يقتلون كل من أفرط في الاقتراب من نسائهم. وليس هناك قاض ولا فقيه يفصل بين الناس في قضاياهم المدنية، وإنما يحكمون أنفسهم كما يحبون، إلا في المسائل الشرعية التي ينظر فيها الفقهاء وأضرابهم، ولا وجود لاتاوة أو أية ضريبة أخرى في هذه المدينة ولا في سائر الأماكن التي تحدثنا عنها.

أقمت في بيت فقيه هذه المدينة، وكان فظاً غليظاً، إلا أنه معجب بالبلاغة العربية، ومن أجل ذلك حبسني عنده شهراً رغم تمنعي، وزعم

(4م) لعل الصواب عام 920 هـ إذ هي الموافقة لعام 1514 م. لا سيما وقد كان المؤلف عام 1517/923 في مصر.

أنه لا يليق بي أن أذهب دون أن يشيعني بنفسه لما كنت أظهره من ود للعرب، لأنه هو وأهله من العرب. وهكذا استبقاني عنده بهذه التعلة إلى أن فرغت من مؤلف صغير في البلاغة قرأته له. ومن ثم رجعت إلى مراكش فلم تلبث أديكيس إلا قليلاً حتى دمرت في الحرب ضد البرتغاليين، وهرب جميع سكانها إلى الجبال. وذلك عام 922، في أول السنة التي شرع المؤلف في القيام برحلته الكبرى، وهي السنة الموافقة لسنة 1505 الميلادية(5).

إدَاوْ إرْكُواغَنْ

هي(6) قرية بنيت كحصن على جبل عظيم، بعيدة عن أديكيس بعشرة أميال إلى جهة الجنوب، وبها نحو أربعمائة كانون، ويجري من تحتها نهر صغير. لا يوجد في داخل المدينة ولا في خارجها أي بستان أو كرم أو شجر مثمر، ولا سبب لذلك غير اهمال السكان وتكاسلهم لدرجة أنهم لا يبحثون عن طعام آخر غير الشعير وزيت الهرجان. يسيرون حفاة إلا قليلاً منهم ينتعلون نعالاً من جلد الجمال أو البقر، ولا يفترون عن محاربة سكان البادية فيتقاتلون كالكلاب. ليس لهم قاض ولا فقيه ولا شخص يحكمونه ليفصل بينهم في خصوماتهم، إذ ليس لهم من الايمان والشريعة إلا ما يجري على ألسنتهم. ولا يوجد في جبالهم كلها أي نتاج آخر غير كمية كثيرة من العسل الذي يدخرونه كطعام ويبيعون منه لجيرانهم، ويلقون بالشمع في المزابل.

في هذه القرية مسجد صغير لا يسع أكثر من مائة شخص، إذ ليس

---

(5) لعل هنا تحريفاً نسخياً في الأرقام أيضاً. فقد تقدم قبيل هذا أن ذكر المؤلف أن العام الهجري 923 يوافق 1514. وربما كان الصواب هنا: 921 = 1515. وربما كانت الجملتان الأخيرتان من زيادة الايطالي راميزيو كما يظهر من السياق.

(6) اندثرت هذه القرية ولم يعرف مكانها، غير أن فرقة من قبيلة آيت بيوض المتفرعة عن قبيلة إدَاوْزمزم ما زالت تحمل إلى اليوم اسم إدوإزكواغن.

لهؤلاء القوم أدنى اهتمام بالديانة أو الاستقامة. يتقلدون دائمًا خناجر أو رماحاً للفتك بالناس، وهم خونة غادرون.

ذهبت مرة إلى هذه المدينة مع الشريف (السعدي) الذي بويع أميراً على بلاد سوس وحاحا، وكنا قد جئنا لتوطيد الأمن بين السكان.

تِيُّوتْ

تيوت قرية صغيرة في سهل تكتنفه الجبال، بعيدة عن ايداوازكواغن بعشرة أميال إلى الغرب، وبها نحو ثلاثمائة كانون، وسورها من الآجر. سكان تيوت كلهم فلاحون، أرضهم صالحة للشعير لا يزرع فيها غيره، وحدائقهم كثيرة مليئة بأشجار العنب والتين والخوخ، ويملكون أعداداً وافرة من الماعز. وتكثر الأسود في هذه المنطقة فتفترس العديد من هذه الماشية وتعطبها.

قضيت ليلة في تيوت فنزلت بمدشر صغير نصفه خرب، وقد أعطينا خيولنا كثيراً من الشعير ثم عقلناها وخبأناها أحسن ما يمكن باغلاق باب المكان بكمية كثيرة من الشوك. كنا في منتصف أبريل والجو حار فصعدنا إلى السطح لننام في الهواء الطلق، وفي منتصف الليل أقبل أسدان عظيمان جلبتهما رائحة الخيل وحاولا إزالة الشوك، فأخذت الخيل تصهل وتضطرب لحد أننا صرنا نرتعد خوفاً من أن ينهار السقف ونصبح فريسة لهذين السبعين. وما كدنا نلمح طلوع الفجر حتى أسرجنا خيلنا وذهبنا إلى حيث ذهب الأمير. وبمجرد ارتحالنا عن هذه المدينة هدمت وقتل بعض سكانها وحمل الآخرون أسرى إلى البرتغال، وذلك سنة 920[7].

(7) سيذكر المؤلف بعد هذا أنه حضر يوم الجمعة 18 صفر 14/920 أبريل 1514 معركة بولعوان وهو متوجه من محلة ملك فاس إلى مراكش ليخبر أميرها أبا علي الناصر بن يوسف الهنتاتي والأمير الشريف أبا العباس الأعرج السعدي بقرب قدوم أخي ملك فاس عندهم، وهو الناصر الوطاسي الذي انهزم في أوائل ربيع الأول 920 ماي 1514، ويبدو أنه بعد ذلك مباشرة توجه حاكم آسفي البرتغالي نونيوفرنانديز دي أطايدي في مائتين وخمسين من الرماة البرتغاليين وبمساعدة أعراب عبدة والغربية لمهاجمة قوات =

تَسَكْدَلْت

تسكدلت مدينة لها شيء من الأهمية، تقع على جبل عال وتحيط بها صخور شاهقة بحيث لا تحتاج إلى سور. وهي شبيهة بأورطي في ايطاليا، وبعيدة عن تييوت بنحو اثني عشر ميلاً إلى الجنوب. يجري تحت المدينة نهر تنتشر حوله حدائق فيها جميع أنواع الأشجار لا سيما الجوز. وسكان تسكدلت أغنياء يملكون عدداً مهمًا من الخيل فلا يؤدون أية ضريبة للأعراب، بل يحاربونهم باستمرار ويقتلون الكثير منهم. والحقيقة أن أهل البادية يحملون جميع حبوبهم إلى هذه المدينة خوفاً من أن يسلبهم اياها الاعراب.

ولسكان تسكدلت عادات حسنة فيما يتعلق بالكرم والمجاملة: فحراس الأبواب مكلفون باستفسار كل غريب جاء إلى المدينة عما إذا كان له من صديق فيها، فإن أجاب بالنفي كان على هؤلاء الحراس أن يضيفوه، بحيث إن كل غريب يلقي هناك استقبالاً حسناً ولطيفاً دون أن يؤدي شيئاً. والرجال معذبون بالغيرة إلا أنهم متمسكون بدينهم تمسكاً تاماً. ولهم في وسط المدينة مسجد في غاية الجمال يتولى تدبيره عدد من الفقهاء، كما أن لهم قاضياً متضلعاً في الفقه يفصل في كل القضايا إلا ما يرجع منها إلى (النفاليس)[8]. وجميع الحقول التي تزرع واقعة في الجبل.

أقمت نحو عشرة أيام في هذه المدينة مع الأمير الشريف (السعدي) سنة 919 هـ.

= الشريف السعدي في بلاد الشياظمة فأخضع البلاد إلى الأطلس، وربما كان هذا الغزو هو الذي سبب خراب تييوت.

(8) النفاليس أو اينفلاس مفرده أنفلوس، وهم الأعيان والضمان أو الشيوخ والعرفاء في سوس وكانوا يتولون الفصل في الجنايات وبعض القضايا المدنية بحسب ما في الألواح. انظر كتابنا الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، 1:298.

تاكُتْسَّة

تاكُتسة مدينة قديمة مشيدة على جبل شامخ كروي الشكل، يخرج الناس منها وهم يدورون حول الجبل كما يدورون في سلم حلزوني. وهي بعيدة عن تسكُدلت بنحو أربعة عشر ميلاً. يجري تحتها نهر يشرب السكان من مائه ويبعد عن المدينة بستة أميال. ومن نظر إلى تاكتسة وهي بجانب الوادي بدت له وكأنها لا تبعد عنه بأكثر من ميل ونصف ميل. وتنزل النساء إلى النهر من ممر ضيق منحوت في الصخر على شكل سلم أيضاً. وسكان هذه المدينة كلهم قتلة في حرب دائمة مع جيرانهم أجمعين، حقولهم وماشيتهم في الجبل، والغابات المحيطة بهذا المكان مليئة بالخنازير البرية، وليس في تاكُتسة ولو فرس واحد، ولا يستطيع الأعراب أن يجتازوا بالمدينة أو ناحيتها إلا بإذن خاص وجواز مرور.

وقد مررت بأسفل هذه المدينة في سنة كثر فيها الجراد جداً في وقت أخرج الزرع سنابله، وكان عدد الجراد ضعف عدد السنابل بحيث أن الأرض كانت لا تكاد تظهر، وذلك عام 919.

آيْتْ داود (9)

هي مدينة عتيقة بناها الأفارقة على جبل شامخ، إلا أن بقمته سهلاً في غاية الجمال. تبعد عن تاكُتسة بنحو خمسة عشر ميلاً إلى جهة الجنوب، وفي وسطها عيون جارية كثيرة ماؤها بارد جداً. وليست ضواحيها سوى صخور وغابات غريبة موحشة، وتنبت بين هذه الصخور كمية وافرة من الأشجار.

في هذه المدينة عدد كثير من الصناع اليهود من حدادين واسكافيين وصباغين وصائغين.

---

(9) اندثرت هذه المدينة الآن، إلا أن آيت داود، وهم فرقة من ايداوبوزية، ما يزالون في نفس المنطقة.

يقال ان السكان الأقدمين لهذه المدينة يهود من سلالة داود، أسلموا بعد أن فتح المسلمون هذه البلاد، يكثر فيهم المتضلعون في الفقه، ويستظهر معظمهم النوازل والأحكام. وقد عرفت منهم شيخاً يحفظ كتاب **المدونة** عن ظهر قلب، يعني مجموع القوانين ويشتمل على ثلاثة أجزاء تتناول بالدرس أصعب المسائل الفقهية وتبين رأي الإمام مالك فيها. وهذه المدينة شبه محكمة ترفع إليها جميع الخصومات، فتسوى فيها المطالبات القضائية والاستدعاءات والاتفاقات والعقود الخ. . . ولذلك يقصدها جميع الناس من الأماكن المجاورة. وان هؤلاء الفقهاء هم الذين يقومون بادارة الشؤون المدنية والدينية، إلا أنهم في الواقع لا يطاعون من قبل السكان حينما يتعلق الأمر بمسائل خطيرة ذات بال، ولا يفيدهم علمهم حينئذ شيئاً.

ولما ذهبت إلى هذه المدينة نزلت بدار وكيل شرعي، وحدث ذات مساء أن اجتمع عنده عدد من الفقهاء، وبعد تناول العشاء بدأت المناقشة حول معرفة ما إذا كان يجوز بيع ملك الخواص إذا احتاجت إليه الأمة واقتضته المصلحة العامة. وكان من بين الحاضرين شيخ كبير حاز شرف الفصل في المسألة وحسم الخلاف فيها، وكان يدعى الجزار. فلما سمعتهم ينادونه بذلك سألته عن معنى هذا الاسم فأجابني: القصاب! ثم قال: ان السبب في ذلك هو أن الجزار متعود كثيراً على التعرف على مفاصل البهائم، وكذلك أَمتاز أنا باصابة مفاصل النوازل الشرعية!

ان عيشة الناس في آيت داود عموماً خشنة جداً، فهم يتغذون بالشعير وزيت الهرجان ولحم الماعز، ولا يعرفون القمح. نساؤهم جميلات زاهيات ورجالهم أشداء يكسو الشعر صدورهم خلقة، كرماء جداً لكنهم مفرطون في الغيرة.

قْلِيعَةْ الْمرِيدين (10)

هي قلعة صغيرة واقعة على قمة جبل شاهق بين جبلين عاليين كذلك، وفي هذه الجبال كلها صخور عظيمة تحيط بها غابات كثيفة. ولا يمكن الصعود إلى هذه القلعة إلا من ممر ضيِّق في حجْر الجبل، إذ تقع هذه الصخور من جهة، وجبل تسكدلت القريب بنحو ميل ونصف من جهة أخرى. وتبعد آيت داود عن القليعة بثمانية عشر ميلاً.

أُسِّسَتْ هذه القلعة في أيامنا هذه من قبل عمرو السياف(11) الثائر رئيس المبتدعة. وكان في بداية أمره شيخاً متصوفاً، ثم لما جمع حوله عدداً كثيراً من المريدين وأطاعوه صار جباراً عنيداً، ودامت سطوته اثني عشر عاماً كانت سبب خراب هذه البلاد. وقد قتلته إحدى نسائه حينما وجدته يضاجع ابنة لها من زوج آخر، فأدرك الناس حينئذٍ أن الرجل فاسق لا إيمان له ولا دين، وثار الشعب بعد موته وقتل كل من كان يتبع طريقته. وخلف عمرو حفيداً تولى الحكم في قليعة المريدين وصمد لحصار المتمردين وجميع سكان حاحا طوال عام إلى أن كلُّوا وتفرَّقوا عنه. وقد قاوم هذا الرجل وما زال يقاوم حتى اليوم العداوة الشديدة من رجال حاحا وجميع جيرانهم تقريباً، لا يعيش إلا من النهب، وله فرسان يغيرون على كل من يمر بهم. وهو في حركة دائمة، يسلب الماشية تارة والناس أخرى، ويستخدم أيضاً بعض الرجال المسلحين بالبندقيات. ولما كانت الطريق الرئيسية لا تبعد عن القلعة إلا بميل واحد، فإن هؤلاء الرجال يطلقون من

---

(10) اندثرت هذه القليعة إلا أن موقعها قد يكون هو قصبة تمولكت الحالية.

(11) هو عمرو بن سليمان الشياظمي المعروف بالسياف وبالمريدي. كان من تلاميذ الشيخ محمد ابن سليمان الجزولي، فلما مات الشيخ عام 870 مسموماً ثار عمرو هذا مظهراً المطالبة بثأر الشيخ، وعظم أمره فسمى أتباعه المريدين ــ ومن ثم سميت قلعته قلعة المريدين ــ وكان قد أخرج شلو الشيخ الجزولي من قبره وجعله في تابوت كتابوت بني اسرائيل، واستمرت فتنته عشرين سنة. انظر: «الاستقصا»، 4:122-123.

بعيد نيران بندقياتهم على المارة المساكين فيجرحونهم وغالباً ما يقتلونهم. غير أن الكل يكرهه لدرجة أنه لا يستطيع أن يزرع أو يحرث بل حتى أن يحكم شبراً من الأرض خارج جبله. وقد أقبر جده في القلعة بكامل العناية، وجعل ضريحه بمثابة مزارة من مزارات الأولياء.

مر كاتب هذه السطور أمام هذه القلعة مع فرسان الأمير الشريف (السعدي)، فأصاب رماة القلعة بعضهم لكنهم لم يختطفوا منهم أحداً. وبعد ذلك تحادث المؤلف مع بعض مريدي عمرو السياف فأخبروه بحياة هذا الزنديق وأطلعوه على مذهبه المخالف للشريعة الإسلامية، وقد ذكر ذلك في كتابه «مختصر تاريخ الإسلام».

إيغِيلينْغِيغيلْ، مدينةٌ في حَاحَا

إيغيلينغيغيل مدينة صغيرة في الجبل من بناء الأفارقة الأقدمين، تبعد عن آيت داود بنحو ستة أميال إلى الجنوب، وفيها زهاء أربعمائة كانون، وصنّاع للأشغال الضرورية للحياة. والأرض المجاورة للمدينة صالحة جداً لزراعة الشعير، ويكثر بها العسل وزيت الهرجان. وليس لمن يريد الصعود إلى المدينة إلا ممر صغير بجنب الجبل، بلغ من الضيق والوعورة بحيث لا يمكن قطعه على الفرس إلا بشق الأنفس. والسكان في غاية الشجاعة عندما يحملون السلاح، وهم في خصام دائم مع الأعراب وينتصرون عليهم دائمًا بسبب موقع مدينتهم الحصين الذي لا يكاد يصل إليه أحد. وهم إلى ذلك في غاية الكرم، يصنعون في مدينتهم كمية عظيمة من أوان تباع في مختلف الجهات، ولا تصنع في غير هذه المدينة على ما أعتقد.

مدينةُ تَفْتنَة وميناؤها في حَاحَا

تفتنة ثغر على البحر المحيط بعيد عن إيغيلينغيغيل بنحو أربعين ميلاً إلى جهة الغرب، من بناء الأفارقة. فيها نحو ستمائة كانون، ومرسى في

غاية الجودة للسفن الصغيرة، اعتاد بعض التجار البرتغاليين أن يجيؤوا إليه ليقايضوا سلعهم بالشمع وجلود الماعز. والبادية المجاورة لهذا الثغر مليئة بالجبال، وينبت فيها الشعير بكثرة. ويمر بالقرب من المدينة نهر صغير تدخل إليه السفن بسهولة عندما تهب العواصف بالبحر. ويوجد في مدينة تفتنة جمرك وضريبة الملح، وتقسم جميع المداخيل بين الرجال القادرين على الدفاع عن المدينة. وفيها شيوخ وفقهاء إلّا أن هؤلاء غير مختصين في النظر في جرائم القتل والجروح. وإذا ارتكب شخص إحدى الجريمتين وظفر به أهل الضحية قتلوه، وإن لم يظفروا به نُفِيَ سبع سنوات، وعند انقضاء مدة النفي يرفع عن المجرم حظر الإقامة إذا أدَّى غرامة (دية) لذوي القتيل.

وسكان تفتنة شديدو بياض البشرة، في غاية الالفة والمجاملة، يعامل الغرباء عندهم بأحسن مما يعامل المواطنون أنفسهم. وعندهم منزل كبير للضيوف الغرباء، ولو أن معظم هؤلاء يضيفهم الخواص من السكان.

ذهبت إلى هذه المدينة مع الأمير الشريف (السعدي)، ومكثنا فيها ثلاثة أيام كانت عندي بمثابة ثلاثة أعوام سواء من كثرة البراغيث التي لا يحصى لها عد، أو من رائحة أبوال الماعز وأبعارها، فلكل واحد من سكان المدينة عدد من الماعز ترعى نهاراً وتؤوي ليلاً إلى داخل المنازل فتنام عند أبواب الحجرات.

إداوْ عاقَلْ،
أوَّلُ قسمٍ من الأطلس

لقد أنهيت الآن وصف أهم مدن حاحا، ويبدو لي من المفيد أن أشرع في الكلام عن الجبال دون أن أهمل شيئاً مما يستحق الذكر فيها، لأن معظم الحاحيين في الواقع يسكنون في الجبال ويقيمون بها على الدوام.

وأول قسم من الأطلس هو جبل قبيلة إداو عاقل الذي يبتدىء عند البحر المحيط ويمتد شرقاً إلى إيغيلينغيغيل فاصلاً بين ناحية حاحا

وناحية سوس. عرضه مسيرة ثلاثة أيام تقريباً، لأن تفتنة تقع على رأس الساحل نحو الشمال، وماسة على رأس الساحل نحو الجنوب، وقد قضيت فعلاً ثلاثة أيام في السفر من تفتنة إلى ماسة(12).

هذا الجبل كثير السكان، يحتوي على عدد من القرى والمداشر، ويعيش الناس فيه على ما لهم من الماعز والشعير والعسل، لا يلبسون قميصاً ولا ثوباً مخيطاً بالإبرة، إذ ليس عندهم من يحسن الخياطة، وإنما يلتفون بقدر الإمكان في قماش. ومن عادة نسائهم أن يحملن في آذانهن أقراطاً ضخمة من الفضة، فتضع بعضهن أربعة أقراط منها في كل أذن، ويستعملن أيضاً أنواعاً من مشابك الثياب الغليظة التي تزن الواحدة منها أوقية يمسكن بها ثيابهن على أكتافهن ويحملن من الفضة كذلك خواتم في أصابعهن وخلاخل في سيقانهن. ولا يفعل ذلك منهن إلا النبيلات والموسرات، أما نساء العامة والفقراء فيتخذن تلك الحُلى من الحديد أو النحاس.

وهناك بعض الخيول إلاَّ أنها قصيرة لا تصفح حوافرها، وهي في غاية الخفة، بحيث تقفز كالقطط من أعلى إلى أسفل. وتكثر الأرانب والغزلان والأيول إلا أن أهل البلاد لا يعيرونها أي اهتمام. والعيون الجارية كثيرة، وكذلك الأشجار لا سيما أشجار الجوز.

ومعظم هؤلاء السكان كالاعراب يرحلون من مكان إلى آخر وفيما يتعلق بالسلاح فإن للرجال منهم خناجر عريضة مقوسة، وسيوفاً من نفس الشكل، ظهرها عريض كظهر المناجل التي تستعمل في إيطاليا لقطع الحشائش. وعندما يذهبون إلى الحرب يحملون في أيديهم ثلاثة رماح أو أربعة. وليس في البلد قاض ولا فقيه ولا من يعرف العقيدة الدينية،

---

(12) يبدو أن ذاكرة الحسن الوزان خانته فنسي أن بعد هذا الجبل واد سوس، ولا بد من قطع هذا الوادي والسهول المحيطة به قبل الوصول إلى ماسة. وذلك ما يفسر الخلط الذي سيرى عند المؤلف بعد هذا بين موقع وادي سوس ووادي ماسة.

وهم على العموم شريرون غادرون. قيل للأمير الشـريف (السعدي) بمحضري ان سكان هذا الجبل يقدمون عشرين ألف مقاتل.

جبل دِمَنْسْرَة

يكون هذا الجبل أيضاً جزءاً من الأطلس مبتدئاً من تخوم الجبل السابق ممتداً شرقاً على مسافة نحو خمسين ميلاً إلى جبل نفيفة في ناحية مراكش(13). فاصلاً بين قسم مهم من حاحا وسوس. وفي أحد أطرافه الممر الجبلي الذي يعبر منه الناس للذهاب إلى ناحية سوس.

هذا الجبل مليء بالسكان، لكنهم غلاظ شداد يملكون عدداً وافراً من الخيل وكثيراً ما يحاربون جيرانهم والاعراب لمنعهم من الدخول إلى بلادهم. وليس هناك مدينة ولا قصر ولا منزل منعزل، بل عدد كثير من القرى والمداشر. ويوجد من بين السكان أشراف كثيرون تخضع لهم العامة جميعاً. والأراضي الزراعية صالحة للشعير والدخن. وهناك عيون كثيرة تكون جداول ماء تنحدر إلى الشعاب لتصب في نهر شيشاوة(14).

يرتدي السكان ملابس أنيقة، ويستخرجون من الأرض كمية وافرة من الحديد تباع في مختلف الجهات، فيحصلون بذلك على نقود فضية. ويسير في هذه الجبال عدد كثير من اليهود ممتطين صهوات الجياد، شاكين السلاح مدافعين عن سادتهم، أعني سكان الجبال، ويعتبرهم سائر يهود افريقيا مارقين من الدين ويدعونهم كرايم.

ينبت في هذا الجبل شجر المصطكي والبقس العظيم والجوز الباسق، ويخلط أهل البلاد الجوز والهرجان فيستخرجون منها زيتاً هو على الأصح مُر يأكلونه ويستصبحون به.

وقد مررت بهذا الجبل لما رجعت من سوس واستقبلت فيه بحفاوة

---

(13) تقع بلاد نفيفة حالياً شمال بلاد دمنسرة بين واد أمجنيف غرباً وواد إيمينتانوت شرقاً.

(14) يكتب في الأصل المترجم (شفشاوة) بدل شيشاوة.

فائقة نظراً لما كنت أحمل من رسائل التوصية من الأمير الشريف(السعدي)، وذلك عام 920.

جبل الحديد

ليس هذا الجبل من الأطلس، إذ يبتدىء من المحيط شمالاً، ويمتد جنوباً إلى نهر تنسيفت[15]، فاصلاً بين أقاليم حاحا ومراكش ودكالة، وتسكنه قبيلة تدعى رجراجة. تكثر الغابات وعيون الماء في هذا الجبل، كما يكثر فيه العسل وزيت الهرجان. أما القمح فقليل، وإنما يستورد من دكالة. والسكان هنا فقراء، فضلاء أتقياء. يسكن عدد كثير من النساك في قمة الجبل ويقتاتون الفواكه والماء. هؤلاء الجبليون أمناء جانحون للسلم، إذا سرق أحدهم أو ارتكب أية جريمة أخرى نفوه لمدة معينة. وهم مغفلون إلى أقصى حد، إذا فعل أحدهؤلاء النساك أي شيء عدوه من الكرامات. ويسبب لهم جيرانهم من الاعراب كثيراً من المتاعب فيؤدّون لهم خراجاً معلوماً يتقون به شرهم. وقد غزا ملك فاس محمد (البرتغالي الوطاسي) هؤلاء الأعراب ففروا إلى الجبل، لكن الجبليين عندما وجدوا أنفسهم أقوياء بمساعدةالملك هاجموا الأعراب في المضايق، وتعاونوا مع جنود الملك في مطاردتهم فمزقوهم كل ممزق. ولما انتهت المعركة قدم الجبليون إلى الملك خيول القتلى من الأعراب، فكانت زهاء ثلاثة آلاف وثمانمائة فرس، ولم يؤدوا بعد ذلك خراجاً.

وقد حضرت هذه الموقعة، وأنا يومئذٍ في المحلة السلطانية، وذلك عام 921، وبلغ عدد المحاربين القادمين من هذا الجبل حوالي اثني عشر ألف مقاتل.

وفي بلاد حاحا عدة جبال أخرى لكنها غير مسكونة، ضربت عنها صفحاً خشية الإطالة والملل.

---

(15) بل بالعكس يتجه جبل الحديد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي ابتداء من الضفة اليسرى لواد تنسيفت.

سُوسْ

سأتعرض الآن لناحية سوس الواقعة وراء الأطلس إلى جهة الجنوب، المقابلة لبلاد حاحا، أي في أقصى إفريقيا[16]. تبتدىء غرباً من المحيط، وتنتهي جنوباً في رمال الصحراء، وشمالاً في الأطلس عند حدود حاحا، وشرقاً عند نهر سوس الذي سميت به هذه الناحية.

سأبتدىء من الغرب وأحدثكم عن كل مدينة وموقع هام بصفة خاصة.

مدينةُ مَاسَّة

تتكوّن ماسة من ثلاث مدن صغيرة تبعد كل منها عن الأخرى بنحو ميل وقد أسسها الأفارقة الأقدمون على شاطىء المحيط عند قدم الجبل الذي يكون بداية الأطلس، تحيط بهذه المدن أسوار من الآجر النّيء، ويمر بينها نهر سوس الكبير[17]، الذي يمكن عبوره بسهولة في الصيف، ويتعذر ذلك في الشتاء إلا بزوارق صغيرة معدّة لهذا الشأن.

تقع هذه المدن الصغيرة وسط غابة ليست كسائر الغابات، وإنما هي نخيل يكون ممتلكات تدر غلاتها على السكان. والواقع أن هذا التمر غير جيد لأنه لا يحتفظ به طول السنة. وسكان ماسة كلهم فلاحون،

(16) لعله يقصد بلاد البربر.

(17) نهر ماسة النابع من الأطلس الصغير هو الذي يمر بين هذه المدن ويصب هنا في المحيط، لا نهر سوس الذي ينبع من الأطلس الكبير ويصب في المحيط قرب أكدير.

يحرثون أرضهم عندما يفيض النهر خلال شتنبر وآخر أبريل، ويحصدون الحبوب في ماي. وإذا لم يحدث فيضان في أحد هذين الشهرين انعدمت الغلة تلك السنة. والماشية هناك قليلة. ويوجد في خارج ماسة على شاطىء البحر مسجد يقدسه الناس كثيراً، ويذكر عدد من المؤرخين أن المهدي المنتظر الذي سيملأ الأرض عدلاً حسبما أخبر به النبي محمد (عليه السلام) سيخرج من هذا المسجد. ويقال أيضاً ان النبي يونس (عليه السلام) لما التقمه الحوت نبذ بالعراء في ساحل ماسة، وجميع العوارض التي تحمل سقف هذا المسجد من عظام سمك (البلين)، وكثيراً ما يحدث عندما يهيج البحر أن يقذف على شاطىء ماسة بعدد من هذه السمكات العظيمة ميتة، وهي مفزعة لضخامتها وبشاعة منظرها. وتحكي العامة أنه ما مرت سمكة من هذا النوع بقرب المسجد إلا ماتت بسبب البركة التي منحها الله لهذا المسجد. وكان يصعب علي أن أصدق ذلك لولا أني رأيت بعيني سمكات منها يقذف بها البحر ميتة كل يوم. وقد تحيَّرت من ذلك، غير أني تحادثت فيما بعد مع شيخ يهودي من نفس المكان فأخبرني بأنه لا عجب في ذلك، إذ يوجد في البحر على بعد نحو ميلين من البر بعض الصخور العظيمة الحادة، فإذا هاج البحر ذهبت هذه السمكات هنا وهناك، وما اصطدم منها بتلك الصخور جرح ومات، ولهذا ينبذه البحر بعد ذلك على الساحل حيث نراه، فظهر لي أن هذا التأويل خير من تأويل العامة.

وقد ذهبت إلى ماسة في عهد الأمير الشريف، فاستدعاني أحد الأعيان أن أتناول معه الطعام في بستان خارج المدينة، ولقينا في الطريق عظمًا من عظام هذا السمك الضخم على شكل قوس مررنا تحته ونحن راكبون على الجمال كأنه باب، دون أن يمس رؤوسنا لشدة ارتفاعه. ويقال ان هذا العظم قائم هناك منذ ما يقرب من مائة سنة، وأنه يحتفظ به لغرابته.

ويوجد في هذه البلاد على شاطىء البحر عنبر من الدرجة الأولى يباع

بـأبخس الأثمان إلى التجـار البرتغـاليين والفـاسيين، يكـاد يقل ثمن الأوقية[18] منه عن مثقال. يقول الكثير من الناس ان هذا السمك الضخم هو الذي ينتج العنبر. فيزعم البعض بأنه برازه، ويزعم آخرون بأنه المذي الذي يسيل من جهاز الذكر عندما يريد أن يدنو من الأنثى فيتجمد في البحر.

تِيِّوتْ، مدينةٌ في سوس

تيوت مدينة قديمة أسسها الأفارقة في سهل بديع، وهي مقسمة ثلاثة أقسام يبتعد كل قسم منها عن الآخر بنحو ميل ويكون مجموعها شكلاً مثلثاً. تشتمل كلها على ألف كانون، ويمر بالقرب منها نهر سوس. وتنتج هذه الأرض كمية عظيمة من القمح والشعير وغير ذلك من الحبوب والخضر، وينبت فيها أيضاً قصب السكر بكثرة، غير أنه سكر أسود لجهلهم بطريقة طبخه وتصفيته. ويقصد تيوت عدد كثير من تجار فاس ومراكش وبلاد النيجر لشراء السكر. وفيها أيضاً كمية عظيمة من التمر.

إن السكة الوحيدة المتعامل بها هنالك هي التبر، ويستعمل أهل البلاد أيضاً كعملة للأداء قطعاً صغيرة من القماش قيمة الواحدة منها مثقال[19]. والفضة قليلة عندهم تتحلى بها النساء. وتروج عندهم مكان (الكطريني)[20] قطع حديدية تزن الواحدة منها نحو أوقية.

والفـواكه قليلة عـدا التين والعنب والخـوخ، ولا ينبت الزيتـون عندهم، لكن يستورد الزيت من بعض جبال مراكش، ويباع في سوس بخمسة عشر مثقالاً للقنطار الذي يزن مائة وخمسين رطلاً إيطالياً. وحيث إنه لا وجود لسكة مضروبة عندهم فإن الأوقية من الذهب تساوي سبعة

(18) وزن الأوقية هو 28 غراماً وربع غرام بالتقريب.
(19) هذه القطع النقدية القماشية كانت تأتيهم من التجار الأوربيين.
(20) عملة نحاسية إيطالية قيمتها نحو 3 سنتيمات ــ ذهب.

مثاقيل وثلث مثقال، فالأوقية هي نفس الأوقية (الأونس) الإيطالية، لكن تساوي ثمان عشرة أوقية ويسمونها الرطل. ومائة رطل تساوي قنطاراً. والثمن العادي لحمل البضائع إن لم يكن مرتفعاً ولا منخفضاً هو مثقال واحد لثلاثة أحمال الجمل، وزن كل حمل سبعمائة رطل إيطالي. وهذا في الشتاء، أما في الصيف فيحملون بمثقال من خمسة إلى ستة أحمال الجمل.

ويصنع في تيبوت الجلد القرطبي الجميل الذي يسمى المغربي في إيطاليا. وتباع هذه الجلود بستة مثاقيل لاثني عشر جلداً، وفي فاس بثمانية مثاقيل. وفي القسم الجنوبي من بلاد تيبوت القريب من الأطلس (الصغير) تكثر القرى والمداشر، لكن القسم الغربي[21] منها غير مسكون، لأنه عبارة عن سهل بيد العرب.

وفي وسط تيبوت جامع واسع يدعى الجامع الكبير، تجري بداخله ساقية من النهر. ورجال هذه البلاد أشداء خلقة يعيشون في حرب دائمة بينهم، وقلما يعرفون السلم. لكل قسم من أقسام المدينة الثلاثة رئيس، ويحكم هؤلاء الرؤساء الثلاثة مجتمعين تيبوت، غير أن حكمهم لا يطول أكثر من ثلاثة أشهر. ولا يختلف لباس معظم السكان عن لباس أهل حاحا، فيرتدي بعضهم قميصاً ويضع على رأسه عمامة من الكتان الأبيض.

و (الكانا)[22] من الثوب الخشن مثل (الفرجية) تساوي مثقالاً ونصفاً، وقطعة الكتان البرتغالية أو الفلاماندية (الهولاندية) إن لم تكن خشنة جداً تساوي أربعة مثاقيل، وطول كل قطعة أربعة وعشرون ذراعاً (توسكانياً).

(21) كرر في الأصل القسم الجنوبي، ولعل الصواب هو القسم الغربي.
(22) الكانا: قياس إيطالي قدره نحو ميترين.

وفي مدينة تييوت قضاة وفقهاء يرجع إليهم في الأمور الدينية، أما المسائل الدنيوية فإن من كان أكثر أهلاً كان أكثر حظاً فيها[23] وإذا حدث أن قتل رجل منهم آخر، فإن تمكن أهل القتيل من الاقتصاص من القاتل انتهى الأمر، وإلاَّ نفي القاتل لمدة سبع سنوات أو بقي في المدينة رغم أنف أهل القتيل. وإذا نُفِيَ القاتل فتلك عقوبته، وعندما تنتهي مدة النفي يستدعي جميع الأعيان إلى وليمة ويتصالح مع خصومه.

وفي تييوت عدد كثير من الصناع اليهود، وهم لا يؤدون أية جزية، وإنما يقدمون بعض الهدايا الصغيرة إلى الأعيان.

تَرُودَانْتْ، مدينةٌ في سوس

ترودانت مدينة عظيمة أسسها الأفارقة الأقدمون، وفيها نحو 3.000 كانون.

تقع جنوب الأطلس (الكبير) بعيدة عنه بما يزيد قليلاً عن أربعة أميال، وشرق تييوت بعيدة عنها بخمسة وثلاثين ميلاً[24] وتشبه ترودانت من حيث مواردها وعاداتها المدن التي ذكرناها آنفاً، إلا أنها أقل سكاناً[25]. وهي أكثر تحضراً، لأن المرينيين عندما كانوا ملوكاً في فاس بسطوا نفوذهم كذلك على سوس، واتخذوا من ترودانت مركزاً لإقامة نائب السلطان في هذا الإقليم. لذلك يوجد فيها حتى اليوم قصبة خربة من بناء أولئك السلاطين. ومنذ أن انقرضت دولة بني مرين رجعت ترودانت إلى حريتها. ويلبس السكان القماش والكتان، وفيها عدد كثير من الصناع.

---

(23) هؤلاء الأعيان.

(24) الواقع أن ترودانت تقع شمال غربي تييوت بعيدة عنها بنحو 12 ميلاً فقط أي نحو 20 كيلومتراً.

(25) يتناقض هذا مع ما ذكر من أن ترودانت تشتمل على 3.000 كانون، وتييوت على 1.000. إلا أن يكون الناسخ زاد صفراً خطأً، فجعل 300 ثلاثة آلاف، أو أن يكون المراد أن بعض أحياء ترودانت خالية كقصبتها السلطانية.

تخضع ترودانت لحكم الأعيان ويتداول أربعة منهم مجتمعين السلطة لمدة لا تزيد عن ستة أشهر. وأهل ترودانت أناس مسالمون لا يسيؤون إلى جيرانهم.

وفي القسم المجاور للأطلس بهذا الإقليم كثير من القرى والمداشر، بينما يحتل الأعراب السهول الجنوبية ويرعون فيها ماشيتهم. ويؤدي سكان ترودانت لهؤلاء الأعراب خراجاً كثيراً عن الأراضي الزراعية حسب العادة وكحقوق لأراضيهم ولقيامهم كذلك بتأمين الطرق. وقد ثارت ترودانت في أيامنا هذه ضد الأعراب ودخلت في طاعة السلطان الشريف (السعدي) عام 920.

أكْدِيرْ كْسِيمَة

هو حصن[26] واقع في أقصى طرف الأطلس الزاحف نحو المحيط، بالقرب من مصب نهر سوس في البحر.

وفي دائرة هذا الحصن أراضٍ زراعية جيدة استولى عليها البرتغاليون منذ عشرين سنة، فاتفق أهل حاحا وسوس على استرجاع هذا الحصن، بمساعدة عدد كثير من المحاربين الذين أتوا من النواحي النائية، واتخذوا قائداً لهم أحد الأعيان الأشراف من آل محمد (عليه السلام)، فأقام الحصار أمام الحصن أياماً عديدة، مات خلالها عدد وافر من المحاربين الغرباء عن البلد، فتخلى هؤلاء عن القتال ورجعوا إلى ديارهم. وبقي البعض مع

(26) هذا الحصن الذي لم يظهر اسمه واضحاً في الأصل المنقول عنه كان قريباً من أكدير الحالية، وليس هو إياها قطعاً لأن أكادير المعروفة التي سميت بالعربية (حصن المنكب) وبالشلحية (أكدير ايغير) لم تؤسس إلا بعد عقود من السنين مرت على خروج الحسن الوزان من المغرب وأسره في إيطاليا، أي عندما تغلب محمد المهدي الشيخ على البرتغاليين وطردهم من شواطىء سوس فحطم حصن فونتي البرتغالي وأسس على أنقاضه أكدير عام 1541/947.

الشريف لمتابعة قتال المسيحيين، واكتفى سكان سوس بأن يدفعوا للشريف المبلغ اللازم لتجهيز خمسمائة فارس. فلما استلم الشريف أموالاً باهظة لاستئجار هذا الجند، واكتسب الخبرة اللازمة للبلاد، أعلن الدعوة لنفسه واستقل بالحكم. ولما غادرت بلاط هذا الشريف كان عنده أكثر من ثلاثة آلاف فارس، وعدد لا يحصى من المشاة وكميات هائلة من الذخيرة الحربية، كما ذكرنا ذلك آنفاً بتفصيل في «**مختصر تاريخ الإسلام**»[27].

تِيدْسِي، مدينةٌ في سوس

تيدسي مدينة كبيرة تحتوي على أربعة آلاف كانون، أسسها الأفارقة على بعد ثلاثين ميلاً من شرق ترودانت، وستين ميلاً من البحر[28]، وعشرين ميلاً من الأطلس. وهذه البلاد منتجة خصبة. تنبت فيها كميات من الحبوب وقصب السكر وأشجار النيلة. وفيها أناس يتجرون مع بلاد السودان. يعيش سكان تيدسي في سلام، وهم مهذبون مستقيمون. لهم نظام جمهوري حيث يحكم البلاد ستة أشخاص يختارون بالقرعة ويعوضون بآخرين كل ستة عشر شهراً.

يمر نهر سوس بقرب المدينة على بعد ثلاثة أميال منها[29]، وفيها عدد كثير من الصناع اليهود كصياغين وحدادين الخ. وبها جامع يشتمل على كل ما يحتاج إليه من أئمة ومستخدمين، وقضاة وفقهاء يؤدي أجورهم سكان المدينة. ويقام يوم السبت سوق يجتمع فيه الأعراب والفلاحون والجبليون. وقد دخلت تيدسي عام 920 في طاعة الشريف الذي اتخذ منها عاصمة له.

(27) يظهر أن هذا المختصر كان محرراً مثبتاً في صدر هذا الكتاب إلا أنه افتقد فيما بعد.

(28) وقع هنا أيضاً اضطراب في بعض الأرقام، فتيدسي تقع على بعد 14 ميلاً جنوبي غربي ترودانت، وعلى بعد 30 ميلاً من البحر.

(29) يبعد مجرى سوس اليوم عن شمال تيدسي بثلاثة عشر ميلاً (نحو21كلم) لكن ربما كان هناك جدول منه يمر بالقرب الذي ذكره الوزان في ذلك العصر ثم اندثر.

تكَاوُوسْت

تكاووست مدينة كبيرة، وهي أهم مدن سوس على الإطلاق، بها ثمانية آلاف كانون، وسورها من التراب المدكوك. تبعد عن المحيط بنحو ستين ميلاً، وعن الأطلس بنحو خمسين ميلاً إلى جهة الجنوب. وهي من بناءالأفارقة، يجري نهر سوس[30] على بُعْدِ عشرة أميال منها. وفي وسط المدينة دكاكين كثيرة للتجار والصناع، وسكانها منقسمون إلى ثلاث فرق يكاد القتال لا ينقطع بينهم، ويستعين كل فريق على الآخر بالاعراب الذين يناصرون هؤلاء تارة، وأولئك أخرى، بحسب ما يتلقون منهم من أموال.

الأراضي الزراعية بهذه المنطقة كثيرة الإنتاج، والمواشي وافرة الأعداد، يباع الصوف فيها بأبخس الأثمان، ويصنع منه الكثير من قطع الثياب الصغيرة. التي يحملها تجار المدينة مرة في السنة إلى تنبكتو وولاتة من بلاد السودان. ويقام السوق مرتين في الأسبوع. يتأنق سكان تكاووست في لباسهم، ونساؤهم جميلات لطيفات. وهناك عدد كثير من الرجال سمر الألوان، لأنهم منحدرون من بيض وسود. وليس ثم حكومة معينة، وإنما الحكم للأقوى.

أقمت بهذه المدينة ثلاثة عشر يوماً مع نائب الشريف، لشراء اماء سود يقمن بخدمة هذا الأمير، وذلك عام 919.

جبل هَنْكِيسَة

يبتدىء هذا الجبل تقريباً عند الأطلس[31] غرباً، ويمتد مرتفعاً شرقاً على مسافة زهاء أربعين ميلاً. وتوجد عند قدمه ماسة والبلاد السوسية

---

(30) ظن بعضهم أن قرية الأقصابي بضواحي كوليمين قائمة مكان تكاووست المندثرة، غير أنها لا تنطبق عليها الحدود والمسافات المبينة هنا، فهي بعيدة عن المحيط بـ 30 كيلومتر، وعن نهر سوس بأكثر من 175 كيلومتر.

(31) لعل الصواب: المحيط.

الأخرى[32]. وسكان هذا الجبل ذوو نجدة فائقة، بحيث إن الواحد من مشاتهم لا يخشى أن يواجه بالرمحين الصغيرين اللذين يحملهما عادة فارسين اثنين. ولا ينبت القمح في هذا الجبل، وإنما يكثر فيه الشعير والعسل، ويسقط الثلج في كل فصل، غير أن السكان لا يخشون البرد، فتراهم شبه عراة طوال فصل الشتاء. حاول الأمير الشريف أن يخضع هؤلاء الجبليين ويلزمهم النائبة[33] لكنهم رفضوا ذلك بتاتاً وحاربوه باستمرار وبقوا منتصرين إلى السنة التي كان المؤلف فيها بهذه البلاد، وهي سنة 919[34]

جبل إيلالَنْ

يبتدىء هذا الجبل غرباً عند تخوم الجبل السابق، وينتهي شرقاً في ناحية جزولة، وجنوباً في سهول سوس. وسكانه نبلاء شجعان عندهم خيول كثيرة، يتحاربون فيما بينهم باستمرار من أجل منجم فضة يوجد في الجبل، ويستغله المنتصرون منهم.

(32) هناك إلى جانب هنكيسة الذي تبلغ قمته 2.376 متر مكان في السهل قرب مصب نهر ماسة يدعى تنكيست.

(33) النائبة هو الاسم الذي أطلقه السعديون على الضريبة التي ضربوها على جميع السكان الخاضعين لهم.

(34) لم تطل مدة عصيان المصامدة للسعديين، فإنهم ما فتئوا أن أطاعوهم وأخلصوا في مناصرتهم طوال قيام الدعوة السعدية.

ناحيةُ مرّاكُش

موقع الناحية

تبتدىء هذه الناحية غرباً من جبل نفيفة وتمتد شرقاً إلى جبل أنماي، ثم تنحدر نحو الشمال إلى قرب وادي تنسيفت لتنتهي في ملتقى هذا النهر مع وادي أسيف أنوال، حيث تبتدىء بلاد حاحا شرقاً. وتشكّل هذه الناحية شبه مثلث، وتنتج القمح وغيره من الحبوب بكثرة كاثرة. وفيها ماشية عديدة، ومياه وأنهار وعيون وفواكه كالتمر والعنب والتين والتفاح والإجاص من كل نوع. وتكاد تكون هذه الناحية كلها سهلاً كسهل اللومباردي بايطاليا، وجبالها في غاية البرد والجدب بحيث لا تنبت غير الشعير.

وسنبدأ بالقسم الغربي واصفين كل ما فيه من جبال ومدن حسب طريقتنا المألوفة.

الجمُعَة، مدينةٌ في هذه الناحية

الجمعة مدينة صغيرة تقع في السهل بالقرب من النهر المدعو شيشاوة على بعد نحو سبعة أميال من الأطلس. أسسها الأفارقة، ثم احتلها الأعراب في العصر الذي انحلت فيه سلطة الموحدين، ولم يبق من هذه المدينة غير آثار قليلة.

ولا يزرع الأعراب من أرضها إلا الجزء الذي ينتج كفاية قوتهم ويتركون سائرها بوراً. وفي العهد الذي كانت فيه هذه المدينة مسكونة كان إنتاجها السنوي مائة ألف مثقال، وعدد كوانينها ستة آلاف. وقد مررت بالقرب منها ونزلت عند أعراب وجدتهم في غاية الكرم، لكنهم غادرون بطبعهم خائنون.

إِيمْجِيَاجَنْ (بلاد إِيمَرْجَانْ)

هو حصن واقع في قمة أحد جبال الأطلس لا سور له، لكنه منيع بموقعه الطبيعي. يبعد عن المدينة السابقة بخمسة وعشرين ميلاً إلى جهة الجنوب. في الزمن الماضي كان يحكم هذا الحصن أحد نبلاء البلد، ثم انتزعه منه البدعي عمرو السياف الذي تحدثنا عنه سابقاً، وتصرف فيه بوحشية فظيعة، حيث قتل حتى الأطفال الصغار، وبقر بطون النساء الحوامل وأخرج الأجنة ومزقها إرباً على صدور الأمهات، بحيث ذاقوا مرارة الموت قبل أن يعرفوا حلاوة الحياة. وذلك عام 900، فخلا الحصن وبقي مهجوراً.

صحيح أنهم بدأوا يعمرون قسمًا من الحصن في عام 920، لكنه ليس هنا غير حدور الجبل التي يمكن حرثها وزرعها للحصول على القوت الضروري، لأنه لا يمكن حتى المرور إلى السهل خوفاً من الأعراب تارة ومن البرتغاليين أخرى.

تِينِيزْا

تينيزا مدينة واقعة في قسم الأطلس المسمى كدميوة. بناها الأفارقة الأقدمون على بعد نحو ثمانية أميال من أسيف أنوال إلى جهة الشرق. وتوجد تحت هذه المدينة سهول واسعة صالحة كلها لزراعة الحبوب، غير أن السكان لا يستطيعون حرثها بسبب إزعاج الأعراب، وإنما يزرعون منحدر

الجبل الواقع بين النهر والمدينة، وحتى عن هذا الجزء يؤدون ثلث المحصول كاتاوة للأعراب.

الجُمْعة الجديدة

هذه المدينة عبارة عن حصن واقع على شاهق. جبل تحيط به عدة جبال أخرى. وتحت هذا الحصن ينبع أسيف نوال، وهذا الاسم يعني باللغة الافريقية: نهر الضوضاء، لأنه في الواقع يسقط من الجبل بصخب شديد مجوفاً تجويفاً عميقاً على شكل جحيم (تيفولي) إحدى مدن مقاطعة روما.

وهذه المدينة حديثة بناها في أيامنا هذه أحد الأمراء، وبها زهاء ألف كانون وبقيت مدة طويلة خاضعة لأحد الطغاة من أسرة ملوك مراكش[35]. ولهذا الحصن حرس قوي من المشاة والفرسان، ويجبي من محصول قرى هذا الجزء من الأطلس ومداشره ما يقل قليلاً عن عشرة آلاف مثقال. ويرتبط السكان برباط الود المتين مع الأعراب، وكثيراً ما يقدمون إليهم هدايا ذات بال، الشيء الذي طالما أهان أمراء مراكش. والناس هنا مهذبون يرتدون أجمل الملابس، والمدينة في غاية العمران مليئة بالصناع، لأنها قريبة من مراكش لا تبعد عنها إلا بخمسين ميلاً. وبين هذه الجبال بساتين بديعة تنمو فيها الفواكه بكثرة، ويزرع هنا الشعير والكتان والقنب. ويملك السكان عدداً ضخمًا من الماعز، ولديهم فقهاء وقضاة، وهم فضلاً عن ذلك خشنون غيورون جداً على نسائهم.

ولما ذهبت إلى هذه المدينة نزلت عند أحد أقربائي، وقد أثقلته الديون عندما كان يتعاطى الكيمياء بمدينة فاس، فانتقل إلى السكنى هنا وأصبح بعد قليل كاتباً لحاكم المدينة.

(35) لعله يشير إلى إدريس الهنتاتي الذي يلقبه البرتغاليون بملك الجبل، وهو من أصل موحدي وابن عم أبي علي الناصر بن يوسف الهنتاتي ملك مراكش.

أمَزْمِيزْ

أمزميز مدينة متوسطة الكبر واقعة على صخر وعر لأحد جبال الأطلس على بعد نحو أربعة عشر ميلاً من المدينة السابقة غرباً. وهي من بناء الأقدمين، يوجد تحتها ممر يقطع به الأطلس للذهاب إلى ناحية جزولة يسمى بوريش، أي ذا الريش، لأن الثلج يسقط فيه باستمرار ويشبه الريش الأبيض الذي نراه يتطاير أحياناً. وتمتد تحت هذه المدينة كذلك سهول كبيرة تتصل بمراكش على مسافة ثلاثين ميلاً، وينبت فيها قمح جيد غليظ الحب لم أر قط أحسن منه، ودقيقه في غاية الجودة. لكن الأعراب يثقلون كاهل هذه المدينة بالاتاوات، وكذلك يفعل بها أمير مراكش، حتى إن معظم البادية غدا غير مأهول. وأخذ السكان أيضاً يغادرون المدينة، وقد فقدوا أموالهم، ولو أنهم يملكون كثيراً من الأراضي والحبوب.

لم أنزل عند أحد داخل المدينة، وإنما بقيت بجانبها في خيمة سيدي كانون، وهو صالح يحظى هنا بثقة عظيمة.

تُومكْلاَسَتْ

تتكون تومكلاست من ثلاثة قصور صغيرة في السهل، على بعد أربعة عشر ميلاً من الأطلس، ونحو ثلاثين ميلاً من مراكش. ويحيط بهذه القصور الثلاثة النخيل والكروم والأشجار المثمرة. والبادية المحيطة بها جميلة وصالحة جداً للحبوب، غير أنه لا يمكن زرعها بسبب تعسف الأعراب، وتكاد تكون هذه القصور الصغيرة غير مسكونة، إذ لم يبق بها سوى اثنتي عشرة أو خمس عشرة أسرة تنتمي إلى الصالح المذكور، ويمكنها بفضل حمايته أن تحرث بعض القطع من الأرض، دون أن تؤدي شيئاً إلى الأعراب. وهؤلاء يقيمون في بيوت تلك الأسر إذا ما جاءوا إلى تومكلاست، وهي بيوت ضيقة غير ملائمة أشبه باصطبلات الحمير منها

بمساكن الناس، لأنها مليئة بالبراغيث والبق وغيرها من الحشرات المؤذية. وماء هذا المكان ملح أجاج.

ذهبت إلى تومكلاست، وأقمت فيها مع سيدي يحيى الذي أوفده ملك البرتغال ليجبي الخراج باسمه، وعيّنه قائداً على بادية آسفي(36).

مدينةُ تَشْرَافْتْ

تشرافت مدينة صغيرة على ضفة أسيف المال، تبعد عن مراكش بأربعة عشر ميلاً وعن الأطلس بنحو عشرين ميلاً، وتحيط بها بساتين كثيرة مغروسة بالنخيل، وأرضها صالحة للقمح. جميع السكان بستانيون، ويفيض النهر فيتلف جميع البساتين، ثم يأتي الأعراب في الصيف فيأكلون كل ما يجدونه من الطيبات.

ذهبت إلى هذا المكان ولم أمكث فيه إلا بمقدار تقديم علف الشعير لخيولنا، وقد نجوت ذلك اليوم بأعجوبة من فتك الأعراب بي لحسن حظي.

مدينة مَرَّاكُش العُظْمَى

تعد مراكش من كبريات عواصم العالم وأشرف مدن إفريقيا. تقع في سهل فسيح بعيدة عن الأطلس بنحو أربعة عشر ميلاً. بناها يوسف بن تاشفين أمير لمتونة حين دخل مع قبيلته إلى هذه الناحية، واتخذها عاصمة لملكه بالقرب من طريق أغمات التي يقطع منه الأطلس للذهاب إلى

(36) كان لقاء المؤلف بأبي زكرياء يحيى بن محمد بن تعفوفت في صيف عام 1514/920، وسينبئنا المؤلف فيما بعد أثناء حديثه عن مدينة آسفي أنه تحدّث مع ابن تعفوفت باسم ملك فاس الوطاسي، والأمير الشريف السعدي، وأنه كان مع يحيى 500 فارس برتغالي وأكثر من 2000 من الفرسان الأعراب.

الصحراء موطن هذه القبيلة. وقد بنيت مراكش بحسب تصاميم لمهندسين ممتازين من طرف صناع ماهرين، في وسط إقليم عظيم. وفي حياة علي بن يوسف بن تاشفين كان بها ما ينيف على مائة ألف كانون، وأربعة وعشرون باباً، وسور في غاية الجمال والقوة مبني بالطين المدكوك بالجير والرمل الغليظ الممزوج بالحصى. ويمر على بعد ستة أميال منها نهر كبير يدعى تنسيفت.

في هذه المدينة مساجد ومدارس وحمامات وفنادق على الشكل الإفريقي. من هذه المساجد ما بناه ملوك لمتونة، ومنها ما بناه من خلفهم من ملوك الموحدين. وفي وسط المدينة جامع في غاية الحسن بناه علي بن يوسف أول ملوك مراكش يسمى جامع علي بن يوسف. وقد هدمه عبد المومن من الملوك الذين جاءوا بعد اللمتونيين وأعاد بناءه لغرض واحد، هو أن يمحو اسم علي ويجعل اسمه هو مكانه، فذهب عمله سدى، لأنه لا يجري على ألسنة الناس إلى الآن إلا الاسم القديم (جامع ابن يوسف).

ويوجد أيضاً قرب القصبة جامع آخر بناه عبد المومن هذا، وهو ثاني ملوك الدولة التي خلفت الدولة (اللمتونية) السابقة بعد أن ثارت عليها. وقد وسّع هذا الجامع بعد ذلك يعقوب المنصور حفيد عبد المومن، وزاد فيه خمسين ذراعاً في كل جهة، وزينه بعدة أعمدة جلبها من اسبانيا، وبنى تحته خزان ماء بأقواس على جميع مساحة الجامع، وأمر بأن يغطى الجامع بسقف من الرصاص تحيط به قنوات ضيقة بحيث تصرف جميع المياه الساقطة عليه إلى الخزان. وشيّد كذلك صومعة بالحجر الضخم المنحوت الشبيه بحجر برج الكوليزي بروما، يبلغ محيط دائرة هذه الصومعة مائة ذراع توسكاني، وهي أعلى من برج أزينيلي في بلونية.

يصعد إلى هذه الصومعة بواسطة مدرج مستوٍ عرضه تسعة أشبار، وسمك جدارها الخارجي عشرة أشبار وسمك الجدار الداخلي خمسة أشبار. وفي

داخل الصومعة سبع غرف واسعة في غاية الجمال، بعضها فوق بعض. وهذا المدرج مضاء جداً من أسفل إلى أعلى بواسطة كوى رائعة في غاية الإحكام والانتظام. هي في الداخل أعرض منها في الخارج. وعندما يصل الإنسان إلى أعلى الصومعة يجد بريجاً هرمي القمة. محيطه خمسة وعشرون ذراعاً بحجم الصومعة تقريباً، وعلوه رمحان كبيران. يشتمل البريج على ثلاث طبقات مقوسة يصعد إليها بواسطة درج من الخشب وقد ركِّز في أعلى هذا الهرم بإحكام تام عمود نضدت فيه ثلاث تفاحات فضية، السفلى أضخم من الوسطى، وهذه أضخم من العليا، وتزن كلها ثلاثة وتسعين رطلاً ايطالياً(36م) وعندما يوجد المرء في الطبقة العليا من البريج عليه أن يدير رأسه إلى جميع الجهات كما لو كان على مرقب صاري السفينة. وإذا نظر إلى أسفل لم ير الرجال مهما طالت قامتهم إلا كأطفال عمرهم سنة واحدة. ويظهر جلياً جبل آسفي البعيد عن مراكش بمائة وثلاثين ميلاً، كما تظهر أيضاً السهول المحيطة بالمدينة على مسافة نحو خمسين ميلاً.

والجامع المذكور غير مزخرف كثيراً من الداخل، ومع ذلك فإن سقفه من الخشب مثل كثير من سقوف الكنائس التي رأيناها في ايطاليا. والواقع أن هذا الجامع من أبهى معابد العالم، لكنه اليوم مهجور لأن سكان مراكش تعودوا ألا يقيموا فيه غير صلاة الجمعة، ولأن المدينة قليلة السكان جداً لا سيما في الحي المجاور لهذا الجامع. وحتى الوصول إليه يتعذر كثيراً بسبب أنقاض الخرائب المتراكمة في الطريق. وكان تحت رواقه قديماً نحو مائة دكان للكتبيين لم يبق منها اليوم ولو دكان واحد.

إن ثلثي هذه المدينة المسكينة غير مسكون، والأراضي الفارغة فيها غرست بالنخيل والكروم والأشجار المثمرة لأن السكان لا يستطيعون أن يملكوا ولو شبراً واحداً من الأرض الصالحة للفلاحة خارج الأسوار لكثرة

(36م) أي نحو 30 كيلو غرام ونصف كيلو، باعتبار أن الرطل الايطالي 330 غرام بالتقريب.

تعسف الأعراب. ويمكن أن نقول حقيقة، إن هذه المدينة شاخت قبل الأوان، ففي الوقت الذي يحرر المؤلف هذا الكتاب لم يمض على تأسيس مراكش سوى خمسمائة سنة، إذ بناها يوسف بن تاشفين عام 424[37]. وخلف يوسف بعد موته ابنه علي، وخلف علياً ابنه ابراهيم، الذي ظهر في عصره إمام يدعى المهدي، وقد ولد ونشأ في هذه الجبال، فثار وجمع جنوداً كثيرين حارب بهم ابراهيم[38].

اضطر الملك ابراهيم إلى الخروج مع جنده لملاقاة جيش المهدي، وجرت معركة انهزم الملك على أثرها لسوء طالعه، وقطعت أمامه الطرق المؤدية إلى مراكش، فعدل عن الرجوع إليها وفرّ نحو الشرق في قليل من الجند الذي بقي معه متبعاً سفوح منحدرات الأطلس. ولم يكتف المهدي بذلك بل كلّف أحد أتباعه المدعو عبد المومن بمطاردة الملك وأعطاه نصف الجيش، وبقي هو مع نصف الجيش الآخر يحاصر مدينة مراكش. ولم يجد الملك وسيلة للنجاة من عدوه ولا لمدافعته إلى أن وصل إلى مدينة وهران. فظنّ أنه سيتحصن بها أحسن ما يكون مع باقي جنده، لكن عبد المومن لم يلبث أن وصل وخيّم أمام المدينة، أشعر السكان الملك حينئذ بأنهم لا يريدون أن يصيبهم ضرر بسببه، وفقد الملك البائس كل أمل في النجاة، فأردف امرأته على فرسه وخرج متنكراً من أحد أبواب المدينة، وقاد فرسه نحو صخرة عالية مشرفة على البحر، ثم همز دابته وارتمى متدحرجاً من صخرة إلى صخرة. وعثر على الثلاثة ميتين مهشمين فوق صخور البحر فدفنوا في حالة مؤسفة.

---

(37) يظهر أنه وقع هنا أيضاً خلط في الأرقام، فتأسيس مراكش كان عام 454هـ / 1062م.

(38) الذي خلف علياً هو ابنه تاشفين الذي حارب الموحدين طوال مدة ولايته سنتين وشهراً ونصف شهر إلى أن هلك في تقالهم خارج وهران في 27 رمضان عام 23/539 مارس 1145م. وكان المهدي قد مات عام 524، فخلفه تلميذه عبد المومن بن علي.

رجع عبد المومن منتصراً إلى مراكش، فشاء حظه السعيد أن يجد المهدي قد مات، وانتخب ملكاً مكانه من طرف المريدين الأربعين والأمناء العشرة[39] وهو عرف جديد في الشريعة المحمدية. شدد عبد المومن الحصار على مراكش سنة كاملة حتى دخلها عنوة. وأخذ الطفل إسحاق بن ابراهيم الوحيد الذي بقي على قيد الحياة وذبحه بيده بكل شراسة، وفتك بمعظم الجند الموجود هناك، وقضى على حياة قسم كبير من سكان مراكش. وتوارثت أسرة عبد المومن الملك من عام 516 إلى عام 668 حيث خلعهم ملوك بني مرين. فاعتبروا بتقلبات الدهر! وقد احتفظت هذه الأسرة بالملك إلى عام 785، فانقرضت بدورها، ودخلت مراكش تحت حكم بعض الأمراء من أبناء جبل دَرَن المجاور للمدينة[40].

ولم يضر بمراكش من هذه التغييرات في الحكم أكثر مما أضرّ بها بنو مرين الذين استقروا بفاس وأقاموا فيها بلاط ملكهم وأرسلوا نائباً عنهم إلى مراكش. فأصبحت فاس عاصمة موريطانيا وجميع المنطقة الغربية. وقد تحدثنا عن المسألة بكيفية أشمل في المختصر الذي وضعناه لتاريخ الإسلام.

وقد ابتعدنا قليلاً عن موضوعنا، وآن الأوان للرجوع إلى وصف مراكش، فهذه المدينة قصبة كبيرة كأنها مدينة، ذات أسوار سميكة متينة فتحت فيها أبواب في غاية الحسن، قوائمها وأعاليها من الحجر المنحوت، ومصاريعها مصفحة بالحديد.

---

(39) المعروف في كتب التاريخ أن أول من بايع عبد المومن بن علي العشرة أصحاب المهدي، ثم الخمسون من أشياخ الموحدين (لا الأربعون كما هنا).
انظر: ترتيب المهدي لقومه، أهل الدار، وأهل الجماعة، وأهل الساقة، وأهل خمسين، الخ. عند ابن الخطيب في رقم الحلل، ص 57. وانظر في موضوع نشأة دولة الموحدين عموماً أ. الناصري، الاستقصا، 2: 71 فما بعدها.

(40) في الترجمة الفرنسية (الجبل القديم) وهو بدون شك تحريف (لجبل درن) الذي هو الأطلس الكبير.

وفي وسط القصبة جامع في غاية البهاء تعلوه صومعة متناهية الجمال كذلك، في أعلاها رُكِّز عمود من حديد فيه ثلاث تفاحات من ذهب تزن مائة وثلاثين ألف مثقال افريقي[41]، أكبرها السفلى وأصغرها العليا. وقد أراد كثير من الملوك أن يزيلوا هذه التفاحات ويسكوها نقوداً عندما اشتدت حاجتهم إلى المال، ولكنهم في كل مرة تحدث لهم حادثة غريبة تلزمهم بتركها في محلها حتى إنهم تطيروا من مسها، وتقول العامة ان التفاحات وضعت هناك تحت تأثير أحد الكواكب، بحيث يستحيل ان ينزعها أحد من مكانها، كما تقول بأن من ركّز تلك التفاحات قرأ عليها عزائم سحرية ألزمت بعض الأرواح برصدها على الدوام.

وفي أيامنا هذه أراد ملك مراكش الذي كان عليه أن يصد هجمات المسيحيين البرتغاليين ولا يبالي بسذاجة العامة، أراد أن ينزع هذه الكرات، لكن السكان منعوه من ذلك بدعوى أنها تمثل أشرف حلية لمراكش. ونقرأ في كتب التاريخ أن امرأة المنصور بعد أن بنى زوجها هذا الجامع، أرادت أن يكون لها أيضاً نصيب في تزيينه، فباعت حليها من الذهب والفضة والجوهر، الخ. الذي كان الملك أعطاها إياه عندما تزوجها، وأمرت بصنع التفاحات الذهبية الثلاث التي تعطي أبهى منظر لرأس هذه الصومعة كما ذكرنا.

وفي القصبة أيضاً مدرسة في غاية الحسن، أو على الأصح مؤسسة معدة للدراسة وسكنى مختلف الطلبة، تحتوي على ثلاثين حجرة، وقاعة في الطبقة الأرضية كانت تعطى فيها الدروس فيما سبق. وكان كل طالب

(41) ظنّ المعلق في النسخة الفرنسية أن صفراً قد أقحم هنا، والصواب أن تقرأ 13,000 مثقال أي ما يساوي 60 كيلوغراماً من الذهب؛ لكن هناك روايات تاريخية أخرى تؤكد أن تفافيح منار جامع أشبيلية موّهت بمائة ألف دينار ذهباً، فيمكن إذاً أن تكون تفافيح جامع المنصور بالقصبة السلطانية بمراكش موهت بمائة وثلاثين ألف دينار أو مثقال ذهباً.

مقبول في هذه المدرسة ينفق عليه ويكسى مرة في السنة، ويتقاضى الأساتذة مرتباً قدره مائة أو مائتا مثقال حسب نوع الدروس المطوقين بإلقائها. ولم يكن يقبل في هذه المدرسة إلا من كان يعرف مبادىء العلوم معرفة تامة. وهذه البناية مزخرفة بالفسيفساء البديعة، وحيث لا توجد فسيفساء تغطى الجدران الداخلية بزليج من الطين المشوي اللماع المقطع على شكل أوراق رقيقة أو بمواد أخرى بدل الفسيفساء، وذلك على الأخص في قاعة الدروس والممرات المسقوفة. وفناء المدرسة المكشوف كله مفروش بالزليج اللماع كالذي يستعمل في اسبانيا. وفي وسط المدرسة فسقية (خصة) منحوتة من المرمر الأبيض في غاية الجمال، لكنها منخفضة على عادة الأفارقة. وكان بالمدرسة قديماً حسبما سمعت عدد كثير من الطلبة، لكنهم اليوم لا يتجاوزون خمسة طلاب مع أستاذ جهله بالفقه فاحش، ليس له سوى معرفة سطحية غامضة بالآداب وأقل من ذلك بعلوم أخرى.

ولما ذهبت إلى مراكش كانت لي علاقات ودية مع قاضٍ غني عارف بتاريخ افريقيا معرفة تامة، إلا أنه قاصر في العلوم الفقهية، حصل على هذا المنصب بفضل التجربة التي اكتسبها مدة أربعين سنة قضاها كعدل مقرب إلى السلطان. أما الأشخاص الآخرون الذين كانوا يشغلون الوظائف العامة فظهر لي ضيق أفق تفكيرهم حسب التجربة التي حصلت عليها أثناء وجودي عند هذا الأمير في البادية لما زرت مراكش للمرة الأولى.

وفي القصبة أيضاً أحد عشر أو اثنا عشر قصراً حصيناً في غاية الجودة، بناء وزخرفة من تشييد المنصور. كان يقيم في القصر الأول المواجه حرس الرماة المسيحيون، وهم في العادة خمسمائة، يسيرون دائمًا أمام الملك عندما ينتقل من مكان إلى آخر. ويسكن في القصر الذي يليه نفس العدد من الرماة. وعلى بعد قليل من هذا القصر يوجد مسكن العمال والكتّاب الذي يسمى بالعربية دار القضايا. ويسمى القصر الثالث قصر النصر، توضع فيه الأسلحة وذخائر المدينة. وفي قصر آخر بعيد قليلاً كان يسكن رئيس

اصطبلات الملك. وبالقرب من هذا القصر ثلاثة اصطبلات مقوسة السقوف يسع كل واحد منها ثلاثمائة فرس. وهناك اصطبلان آخران أحدهما للبغال يضم مائة بغل. والثاني للحجرات والبغلات التي يركبها الملك. وبعد هذه الاصطبلات كان هريان مبنيان كذلك بسقف مقوس، في كل هري طبقة علوية. يوضع العلف في الطبقة الأرضية، ويخزن في إحدى الطبقتين العلويتين الشعير للخيل. ويخزن القمح في الأخرى. وتسع كل من الطبقتين أكثر من ثلاثين ألف كيل (رودجي) من الحبوب.

وقد أعدت طاقات في سقف هاتين البنايتين يرقى إليها بواسطة مدرج من الحجر تصعد فيه الدواب محمّلة إلى هذا السطح حيث يكال الحب ثم يصب من هذه الطاقات. وإذا أريد إخراج الحب اكتفي بفتح الثقب الموجودة في أسفل الهري. وهكذا يمكن أخذ الحب من هذين الهريين ووضعه فيهما دون عناء.

ويوجد أيضاً بعيداً من هناك قصر جميل آخر كان يستعمل مدرسة لأبناء الملك وأبناء أسرته، ترى فيه قاعة مربعة في غاية الحسن، يحيط بها ممر مع نوافذ رائعة ذات زجاج ملّون. وحول القاعة خزانات كثيرة مصنوعة من الخشب المزخرف بنقوش مذهّبة، طليت مختلف أجزائها بطلاء الذهب وباللازوردي الرفيع.

وكان يوجد قصر آخر معد كذلك لحرس من رجال الأسلحة. كما كان الملك يعقد جلساته العامة في قصر آخر كبير جداً، بينما يقيم السفراء عندما كان الملك يستقبلهم في قصر آخر، وكذلك الكتاب. وخصّص قصر آخر لنساء الملك ووصفائهن وإمائهن. وبالقرب من هذا القصر كان قصر آخر مقسّم إلى عدة مساكن يقيم بها الذين شبوا عن الطوق من أبناء الملك.

وعلى مسافة قريبة من هناك كان يوجد على طول سور القصبة المشرف على البادية بستان في غاية الجمال والسعة مليء بجميع أنواع الأشجار

والأزهار، فيه حوض مربع من رخام، عمقه سبعة أشبار، في وسطه عمود يحمل أسداً منحوتاً من رخام بفن عجيب يخرج من فيه ماء غزير ثمير يتدفق في الحوض. وفي كل زاوية من زواياه الأربع ركب فهد من المرمر الأبيض المجزع طبيعياً بنقط خضر مستديرة. ولا يوجد هذا المرمر في أي مكان آخر غير بعض الأماكن في الأطلس على بعد خمسين ومائة ميل من مراكش.

وكان بالقرب من البستان معرض وحوش يحتوي على عدد من الحيوانات الوحشية كالزرافات والفيلة والأسود والأيول المختلفة، إلا أن معرض الأسود مفصول عن معرض الحيوانات الأخرى، ويسمى حتى اليوم معرض الأسود.

ورغم قلة آثار الماضي الباقية بهذه المدينة فإنها تدل على الفخامة والعظمة السائدتين في عهد المنصور. ولم يبق مسكوناً في أيامنا هذه سوى قصر الأسرة الملكية، وقصر حرس الرماة الذي يقيم فيه الحجاب والمكلفون ببغال الأمير الحالي، أما سائر القصور فيعشش فيها الحمام والبوم والغربان وما شابهها. والبستان الذي كان من قبل في غاية البهجة أصبح اليوم مزبلة للمدينة. والقصر الذي كانت فيه خزانة الكتب استعمل جناح منه للدجاج وآخر للحمام. وأصبحت الخزانات التي كانت توضع فيها الكتب أقفاصاً لهذه الطيور.

لقد كان المنصور (الموحدي) حقاً ملكاً عظيًما يشمل نفوذه المنطقة الممتدة من ماسة إلى طرابلس الغرب التي هي أشرف مناطق افريقيا. ولم يكن بالإمكان قطع مملكته في أقل من تسعين يوماً طولاً، وخمسة عشر يوماً عرضاً. وكان يملك أيضاً في أوربا كل إقليم الأندلس المعروف بغرناطة. الممتد من جزيرة طريف إلى إقليم أركون شاملاً قسمًا من قشتالة والبرتغال. ولم يملك المنصور وحده هذه الامبراطورية العظيمة، وإنما ملكها جده عبد المومن وأبوه يوسف، وهو يعقوب المنصور، وابنه محمد الناصر.

وقد هزم الناصر في مملكة بلنسية، وفقد ستين ألف رجل من بين الفرسان والمشاة، واستطاع أن ينجو بنفسه من الكارثة ويدخل إلى مراكش[42] وتشجع المسيحيون بعد هذا الانتصار فتابعوا عملهم واسترجعوا في ظرف ثلاثين سنة بلنسية ودانية ولقنت ومرسية وقرطاجنة وقرطبة وأشبيلية وجيان وعبيدة. وعلى أثر هذه الهزيمة النكراء والمذبحة الشنيعة، أخذت أسرة ملوك مراكش في الانحلال. ولما مات محمد الناصر ترك ولدين كبيرين أراد كل منهما أن يستبد بالملك، فكان ذلك سبب تقاتلهما ودخول بني مرين إلى مملكة فاس ونواحيها، بينما ثارت قبيلة بني عبد الواد أيضاً واستولت على السلطة في تلمسان وطردت الوالي المعين من لدن تونس واختارت الملك الذي أرادته، وهكذا كانت نهاية عقب المنصور، وآلت مملكة مراكش بعد ذلك إلى يعقوب بن عبد الحق أول ملوك بني مرين.

وخلاصة القول ان مدينة مراكش فقدت شهرتها القديمة وغدت مضطربة على الدوام بسبب الأعراب كلما امتنع السكان من إرضاء أقل رغباتهم.

وما قلته الآن عن مراكش رأيت بعضه عياناً في الواقع، وقرأته أيضاً في تاريخ مراكش لابن عبد الملك المراكشي[43]، وهو كتاب يقع في سبع مجلدات، وأثبته أيضاً في **المختصر** الذي كتبته لتاريخ الإسلام.

مدينة أُغْمَاتْ

أغمات مدينة واقعة على بعد نحو أربعة وعشرين ميلاً من مراكش، مبنية على منحدر جبل من جبال الأطلس ومشتملة على ستة آلاف كانون.

---

(42) الإشارة إلى وقعة العقاب المشؤومة عام 1212/609.

(43) يشير إلى كتاب الذيل والتكملة لمحمد بن عبد الملك المراكشي المتوفى عام 1303/703. طبعت بعض أجزائه في بيروت بتحقيق الدكتور إحسان عباس والدكتور محمد بنشريفة.

كانت أيام الموحدين متحضرة جداً وتدعى مراكش الثانية. وهي محاطة بالبساتين البديعة وحقول الكروم، بعضها في الجبل وبعضها في السهل. ويجري تحت المدينة نهر جميل يأتي من الأطلس ويصب بعد ذلك في تنسيفت، والبادية فيما بين هذين النهرين خصيبة جيدة التربة. يقال إنها تعطي أحياناً خمسين ضعف ما يزرع فيها. وماء النهر أبيض على الدوام، وتشبه مدينة أغمات وواديها مدينة نارني ونهر نيرا في أومبري.

ويؤكدون أن ماء نهر أغمات يصل إلى مراكش، يؤخذ بالقرب من أغمات ويتابع جريانه في قنوات تحت الأرض. وقد أمر عدد من الملوك بالبحث لمعرفة من أين يأتي هذا الماء إلى مراكش، فدخل بعض الأشخاص إلى القناة من النقطة التي يصل إليها الماء وفي أيديهم مشاعل يستضيئون بها. ولما قطعوا بعض المسافة في القناة أحسوا بهبوب ريح شديدة أطفأت مشاعلهم ولها من القوة ما خيل إليهم أنه لا عهد لهم بمثلها. وتعرضوا أكثر من مرة لخطر عدم إمكان الرجوع إلى الوراء، لأنه بالإضافة إلى ذلك كان مجرى الماء مسدوداً بكتل حجرية ضخمة ينكسر عليها الماء ليمر من هذه الجهة وتلك، وأخيراً وجدوا حفراً عميقة جداً حتى إنهم اضطروا إلى ترك محاولتهم، ولم يجسر أحد بعد ذلك على استيناف هذا العمل.

ويقول المؤرخون ان الملك الذي أسس مراكش توقّع بفضل معطيات بعض المنجمين أنه سيخوض معارك كثيرة، فأنجز بواسطة الفن السحري جميع هذه العوائق الطارئة في تلك القناة، حتى لا يعرف أي عدو من أين يأتي الماء إلى المدينة فلا يستطيع أن يقطعه عنها.

ويوجد تحت أغمات على طول الوادي ممر يقطع الأطلس إلى إقليم جزولة. غير أن هذه المدينة أصبحت اليوم مأوى للذئاب والثعالب والغربان وما شاكلها من الطيور والوحوش. ولم يعد يسكن الحصن في هذه الأيام سوى ناسك مع مائة من مريديه الذين كانت لهم جميعاً خيول في

غاية البهاء. وقد عملوا على أن يعترف بهم كحاكمين لكنهم لم يجدوا مَنْ يحكمونه.

أقمت في منزل هذا الناسك قرابة ثمانية أيام، وكان أخوه من أقرب أصدقائي لأنه كان طالباً مقيًا بمدرسة مجاورة لمنزلي بفاس فكنا نحضر معاً مجلساً في عقائد النسفي.

أغْمَايْ

أغماي[44] بلدة صغيرة واقعة في منحدرات الجبل نحو السهل، على بعد نحو أربعين ميلاً من مراكش في الطريق الذاهبة إلى فاس المحاذية لسفوح الجبل. ويمر نهر أغمات على بعد نحو خمسة عشر ميلاً من هذه البلدة. والبادية فيها بين النهر وأغماي ممتازة كبادية أغمات تماماً. وأمير مراكش هو الذي يحكم المنطقة الواقعة بين مراكش ونهر أغمات، بينما يحكم أمير أغماي المنطقة الممتدة من مراكش إلى أغماي، وهو شاب شجاع طالما حارب أمير مراكش والأعراب، وحكم أيضاً عدة قبائل في جبال الأطلس، وكان كريماً مقداماً قتل أحد أعمامه وأعلن نفسه حاكمًا لأغماي ولما يبلغ السادسة عشرة من عمره. ثم لم يلبث أن واتته الفرصة لإظهار كفايته، عندما انضم عدد عديد من الأعراب إلى ثلاثمائة فارس برتغالي وقاموا على حين غفلة بغارة حتى وصلوا إلى أبواب المدينة، فدافع هذا الشاب في مائة من الفرسان وعدد من الأعراب بشجاعة فائقة حتى إن عدداً كثيراً من الأعراب المهاجيمن سقطوا صرعى، ولم يعد ولو نصراني واحد إلى البرتغال، وهذه الهزيمة ناتجة عن عدم معرفتهم للبلاد، وكان ذلك عام 920.

(44) تقع أغماي على واد تساوت أحد روافد أم الربيع، وتسمى اليوم: سيدي رحال، باسم الشيخ رحال الكوش (ت. حوالي 1543/950) الذي أسس زاويته بها، وما يزال اسم أغماي يطلق على مكان قريب من هذه الزاوية، والبقعة مقدسة من طرف اليهود أيضاً لارتباط أحد أحبارهم بها.

وقد طلب الملك من حاكم أنماي أن يؤدي له اتاوة فأبى، وأرسل له الملك فرقة من الجيش فيها كثير من الفرسان والرماة، ولما عزم حاكم أنماي على الدفاع عن نفسه وخرج من مدينته لخوض المعركة أصابته رصاصة بندقية في بطنه وخرّ ميتاً لحينه. فخضعت أنماي للملك وسلّمت أرملة الأمير الهالك إلى قائد جيش الملك عدداً من الأعيان فأسرهم وصفدهم بالحديد. وترك القائد وراءه والياً على أنماي وانصرف، وذلك عام 921.

جبل نِفْيفة

الآن وقد تكلمنا على ناحية مراكش بكيفية تبدو لنا كافية، سنتحدث حسب الطريقة المتبعة عن أكثر جبالها شهرة مبتدئين بجبل نفيفة الذي يحدد غرباً بداية هذه الناحية فاصلاً بينها وبين حاحا. وهو آهل بالسكان جداً، ويزرع الشعير في قمته فينمو بكثرة رغم أن الثلج كثيراً ما يتساقط هناك. وسكان هذا الجبل متوحشون لا تربية لهم، إذا رأوا حضرياً عجبوا منه ومن لباسه، وذلك ما فعلوه خلال اليومين اللذين قضيتهما عندهم. وقد وسخوا البرنس الأبيض الذي كنت ألبسه على عادة طلبة هذه البلاد، فكل من تكلمت معه من الأعيان لمس برنسي لينظره حتى أصبح في ظرف يومين كأنه خرقة مطبخ. وألزمني أحد هؤلاء الأعيان أن أبادله السيف الذي كنت أتقلده، وهو يساوي في فاس أكثر من مثقال ونصف. بفرسه الذي يساوي عشرة مثاقيل، وذلك لأن التجار لا يأتون أبداً إلى هذه المنطقة بسبب ما يقع فيها من اغتيالات، ويكثر فيها الماعز والعسل وزيت الهرجان، ومن هنا يبدأ ظهور الهرجان.

جبل سَمِدْ

يبتدىء هذا الجبل من تخوم الجبل السابق مفصولاً عنه بوادي شيشاوة، ويمتد شرقاً على مسافة نحو عشرين ميلاً. وسكانه أنذال خشنون

فقراء. وتوجد بهذا الجبل عيون كثيرة والثلج طوال السنة. وليس هناك من يحكم بين الناس بالعدل ولا من يتقيد به، وربما تقاضوا إلى أحد المسافرين الذين يتوسمون فيه الكفاية.

وقد قضيت ليلة بهذا الجبل في بيت ناسك يجله هؤلاء الجبليون كثيراً، واضطررت إلى أكل طعام البلاد الذي هو عبارة عن دقيق الشعير المنقوع في الماء المغلي مع لحم تيس مسن تدل صلابته على أنه أناف على سبع سنوات، كما اضطررت إلى المبيت على الأرض العارية. ولما أفقت في الصباح الباكر أخذت أتهيأ للانصراف كما لو كنت أجهل عادة البلاد. لكن أحاط بي أكثر من خمسين رجلاً وأخذوا يعرضون علي قضاياهم كأنني قاض أو حاكم. فأجبتهم بأنني لا أعرف شيئاً من قضاياهم. وحينئذ جاءني ثلاثة من أعيانهم وقال لي أحدهم: «لعلك تجهل يا سيدي عادتنا، وهي أنه لا ينفصل غريب عنا قبل أن يدرس قضايانا ويقضي فيها». وما كاد ينطق بهذه الكلمات حتى أخذوا فرسي واضطررت إلى تحمّل تسعة أيام مرّة وتسع ليال لا تقل عنها مرارة، سواء في المأكل أو المبيت. ففضلاً عن كثرة القضايا لم يكن هناك أحد يعرف كتابة كلمة واحدة، وكان علي أن أقوم في آن واحد بوظيف قاض وكاتب عدل. وبعد ثمانية أيام قالوا لي: انهم سيقدمون لي في صباح الغد هدية جميلة، فطالت ليلتي كأنها ألف سنة مؤملاً في نفسي الحصول على عدد مهم من الدنانير. ولما بزغ الفجر أجلسوني تحت رواق مسجد، وبعد أداء الصلاة قدّم إلي كل واحد هدية وقبّل رأسي، حمل إلي أحدهم ديكاً، وآخر جوزاً، وثالث ضفيرتين أو ثلاثاً من البصل، ورابع ضفائر من الثوم، وأعطاني أكرمهم تيساً. ولما لم أجد من يشتري مني كل ذلك لعدم وجود نقود مسكوكة في البلاد تركته لصاحب البيت، لأني لم أرد حمله معي، فكان ذلك ثمن تعبي وغمي تلك الأيام. نعم صحبني خمسون من هؤلاء الرجال الغلاظ طوال قسم من الطريق الذي لم يكن مأموناً.

جبل شِيشَاوَة

يأتي جبل شيشاوة بعد الجبل السابق، وينبع منه نهر يحمل اسمه[45]، سكان هذا الجبل متوحشون جداً ومحاربون لجيرانهم على الدوام. يستعملون كأسلحة أحجاراً يقذفونها بالمقاليع، ويعيشون على أكل الشعير والعسل ولحم الماعز. ويختلط بهم كثير من اليهود الذين يزاولون في هذه الجبال مهنة الحدادة ويصنعون المجارف والمناجل وصفائح الخيل، كما يخدمون في البناء الذي لا يفيدهم فائدة تذكر، لأن الجدران تقام بالآجر النيء والطين، وتغطى المنازل بالقش، إذ لا يوجد جير ولا قرميد ولا آجر. وجميع المنازل مبنية بشكل واحد في الجبال التي تحدثنا عنها آنفاً.

ولسكان هذا الجبل عدد من الفقهاء يفتونهم في بعض أمورهم، عرفت الكثير منهم عندما كانوا يدرسون في فاس، فاستقبلوني أحسن استقبال ووعدوني مراراً بأن يصحبوني.

جبل سَكْسِيوَة

سكسيوة جبل موحش جداً، شديد الارتفاع والبرد، تغطيه غابات كثيرة، ولا يزول منه الثلج أبداً. تعود سكانه أن يضعوا على رؤوسهم قلنسوات بيضاء. وفيه عدد كثير من العيون، ومنه ينبع أسيف نوال[46]، كما أن فيه كثيراً من الكهوف العريضة العميقة التي جرت العادة أن تخبأ فيها الماشية ثلاثة أشهر من كل سنة: نونبر ودجنبر ويناير، فتعلف الحشيش الجاف وأوراق بعض الأشجار العظيمة. تجلب الأقوات من الجبال المجاورة لأنه لا ينبت شيء في هذا المكان، ويكثر الجبن الطري والزبد في فصلي الربيع والصيف.

---

(45) كتب اسم هذا الجبل في الترجمة الفرنسية سوساوة، ويظهر أن المراد شيشاوة ولو أن واد شيشاوة لم يعد يحمل هذا الاسم إلا في مجراه الأدنى.

(46) هو واد إيميتانوت الذي ينبع من جبل سكسيوة.

يعمر الرجال طويلاً فيعيشون عادة ثمانين أو تسعين أو مائة سنة، وشيخوختهم قوية خالية بطبيعتها من العلل التي تحملها معها السنون، فهم يسيرون وراء بهائمهم إلى أن يدركهم الموت. لا يرون الأجانب مطلقاً، ولا ينتعلون وإنما يضعون تحت أقدامهم شبه نعال تقيهم الحجارة، ويلفون سيقانهم بخرق مشدودة بخيوط تحميها من الثلج.

جبل ومدينة تِينْمَلْ

تينمل جبل عال جداً شديد البرودة، يزدحم السكان فيه من كل جهة. وعلى قمته مدينة تحمل اسمه، وهي عامرة كذلك ومزدانة بمسجد جميل، ويخترقها نهار جار[47] وفيها دفن الداعية المهدي، وتلميذه عبد المومن. وسكان البلد من شر الخلق وأرذل النسل، يتبجحون بأنهم علماء، لأنهم درسوا جميعاً عقيدة هذا الداعية الذي يعدّ من أهل البدع، وحينما يرون أجنبياً قادماً عندهم يريدون أن يناقشوه. وهم يرتدون ثياباً رديئة لعدم وجود أي تاجر أجنبي في هذه البلاد، ويعيشون عيشة وحشية فيما يخص طريقتهم في الحكم، إلا أنه يوجد فقيه على رأس مجلسهم. ويأكلون عادة الشعير وزيت الزيتون، وعندهم كمية كبيرة من الجوز وتفاح الصنوبر.

جبل كُدْمِيوَة

يبتدىء جبل كدميوة من قمة جبل سمـد غرباً، ويمتد شرقاً على مسافة نحو خمسة وعشرين ميلاً إلى أن يصل إلى أمزميز. وسكانه قرويون فقراء خاضعون للعرب ولرئيس الجمعة الجديدة، لأن مساكنهم مجاورة للسهل الذي ينظر إلى الجنوب حيث يوجد جبل تينمل. وتكثر على حدود الجبل أشجار الزيتون وحقول الشعير، كما تبدو في أعلى الجبال أيضاً غابات كبيرة وعيون عديدة.

(47) هو واد نفيس.

جبل هَنْتَاتَة

لم تر عيني قط أعلى من هذا الجبل الذي يبتدىء غرباً من تخوم كدميوة، ويمتد على مسافة نحو خمسة وأربعين ميلاً إلى جبل أديمي. يسكن هذا الجبل رجال شجعان أغنياء يملكون كثيراً من الخيل. وهناك حصن يحكمه أمير من أقرباء حاكم مراكش(48)، لكن الحرب بينهما مستمرة بسبب خلاف حول بعض القرى والأراضي الواقعة في الحدود بينهما. وفي هذا الجبل كثير من الصنّاع اليهود يؤدون الجزية لهذا الأمير، وهم جميعاً من نحلة القراء (الذين يعتمدون نصوص التوراة وحدها)، ويقال انهم يبلون البلاء الحسن في الحرب إذا أعطوا السلاح.

قمة جبل هنتاتة مغطاة دائمًا بالثلوج، حسبتها يوم رأيتها لأول مرة سحاباً لشدة علو هذا الجبل(49). وحدوره جرداء لا شجر فيها ولا نبات، وفيه أماكن عديدة يمكن أن يستخرج منها مرمر شديد البياض والصفاء، لكن أهل البلد لا يقدّرون قدره ولا يعرفون طريقة استخراجه ولا صقله. ويوجد هناك أيضاً عدد من الاعمدة والتيجان الرخامية المنقوشة، وفسقيات (خصات) في غاية الضخامة والجمال صنعت أيام الملوك العظماء الذين سبق أن تحدثنا عنهم، لكن الحروب عرقلت مشاريعهم.

ولقد رأيت هنا عدداً من الأشياء العجيبة، لكن ذاكرتي الواهية لم تتمكن من استذكارها لاشتغالها بما هو أهم.

---

(48) يشير إلى (ملك الجبل) ادريس الهنتاتي ابن عم سلطان مراكش الناصر الهنتاتي. ومن المعلوم أن حكم الهنتاتي لمراكش انتهى حوالي عام 1521/927 عندما دخلها الملك السعدي أحمد الأعرج.

(49) يبلغ ارتفاع جبال طبقال 4.165 ميتراً.

جبل أدِيمي

أديمي جبل كبير شاهق يبتدىء من حدود جبال هنتاتة غرباً، ويسير شرقاً الى نهر تساوت. وهناك توجد المدينة التي سبق أن قلنا ان الحاكم قتل بها في حرب بينه وبين ملك فاس.

يسكن هذا الجبل عدد من القبائل، وفيه غابات من شجر اللوز والزيتون والسفرجل. ورجاله أبطال يملكون أعداداً وافرة من الحيوانات المختلفة، لأن الجو هنا معتدل والأرض خصبة. تنبع من هذا الجبل عيون كثيرة ونهران سنتحدث عنهما في القسم الذي خصصناه لهذا الوصف.

* * *

الآن وقد فرغنا من مملكة مراكش التي تنتهي في جنوب الأطلس، سنتحدث عن ناحية جزولة التي توجد وراء الجبل وتحد مملكة مراكش لا يفصلها عنها غير الأطلس.

ناحيَةُ جَزُولَة

جزولة بلاد عامرة بالسكان تتاخم غرباً جبل سوس ايلدا. وشمالاً الأطلس حيث تقع في سفحه تقريباً، وشرقاً اقليم حاحا[50].

سكان هذه الناحية خشنون لا مال لهم، لكنهم يملكون ماشية كثيرة وكمية كبيرة من الشعير. وتكثر معادن النحاس والحديد في هذا الاقليم، لذلك يصنعون عدداً من أنواع ماعون النحاس يحملونه إلى البلاد المختلفة ليأخذوا بدله الثياب والتوابل والخيول وسائر ما يحتاجون إليه من الأشياء الضرورية. ولا يوجد في هذا الجبل كله (الأطلس الصغير) مدينة ولا قصر، وإنما توجد فقط قرى كبيرة تشتمل أحياناً على ألف كانون أو أقل أو أكثر. وسكان هذا الاقليم لا سلطان لهم، فيحكمون أنفسهم بأنفسهم حتى إنهم يكونون منقسمين ومتحاربين في غالب الأحيان. ولا تطول هدنتهم أكثر من ثلاثة أيام في الأسبوع[51]، وفي خلال أيام الهدنة يمكن

(50) ربما كان هذا سبق قلم، إذ الذي يحد هذه المنطقة من الشرق هي بلاد درعة لا حاحا.

(51) تؤكد المصادر العربية هذه الهدنة وتصبغها بصبغة الكرامات الصوفية، فقد ذكر محمد الأفراني في نزهة الحادي (ص: 13) من جملة كرامات الشيخ محمد بن مبارك: «ان جعل لهم ثلاثة أيام في كل أسبوع في كل شهر لا يحمل فيها أحد سلاحاً ولا يتعرض بعض القبائل فيها لبعض. ومن انتهك فيها الحرمة عجلت له العقوبة..».

للخصوم أن يتجروا فيما بينهم وأن يتنقلوا من جهة إلى أخرى. لكنهم في غير هذه الأيام يتقاتلون كالوحوش.

وفي الوقت الذي مررت فيه بهذه البلاد كان الأمر بهذه الهدنة شيخ زاهد مشهور عندهم بالصلاح، وكان المسكين أعور لم أر منه في الواقع غير الصفاء واللطف والاحسان(52).

يلبس سكان الاقليم قمصاناً قصيرة من الصوف دون أكمام ضيقة ملتصقة بأجسامهم، ويتسلحون بخناجر مقوسة عريضة ذات حدين ورأس متناه في الدقة. وسيوفهم هي نفس سيوف أهل حاحا. وتقام في بلادهم سوق تستمر شهرين يقدم فيهما الطعام لجميع الغرباء الذين يوجدون هناك ولو بلغ عددهم عشرة آلاف. وعندما يقترب يوم السوق تعقد هدنة، ويختار رئيس كل جماعة قائداً ومائة من الرجالة للقيام بالحراسة والمحافظة على الأمن في السوق. يقوم هذا الجيش الوقتي بالحراسة ويعاقب الجناة بحسب أهمية جرائمهم. يقتل السارقون على الفور فيطعنون برمح قصير وتترك أشلاؤ هم للكلاب.

تعقد هذه السوق في سهل يكتنفه جبلان، ويضع التجار بضائعهم في خيام أو أكواخ صغيرة من أغصان الأشجار. ويجتمعون بحسب أصناف بضائعهم كل صنف على حدة، بحيث تجد هنا تجار النسيج، وهناك تجار الأقمشة والخردوات وهكذا. أما تجار الماشية فيكونون خارج الخيام. وبجانب كل خيمة كوخ من أغصان الشجر، وفي هذه الأكواخ يقيم الأعيان ويقدم الطعام للغرباء. ورغم النفقات الكثيرة التي ينفقها أهل السوق فان بيع البضائع يدر عليهم مبالغ النفقات مضاعفة مرتين، لأن

---

(52) يشير إلى الشيخ الصوفي محمد بن مبارك الاقاوي تلميذ الشيخ محمد بن سليمان الجزولي. توفي ابن مبارك عام 1518/924. انظر ترجمته عند م. ابن عسكر، دوحة: 113، محمد الأفراني، نزهة: 12-13، م. المختار السوسي المعسول: 18:167-171.

سكان الناحية كلها يأتون إلى هذه السوق، بل وحتى سكان بلاد السودان، فيقومون بأعمال تجارية مهمة.

وأخيراً فإن الجزوليين ذوي العقول البدائية عرفوا بحق كيف ينظمون بطريقة عجيبة سوقهم من ناحية الطمأنينة والأمن. يبتدىء السوق يوم المولد النبوي الذي هو الثاني عشر من شهر ربيع الأول ثالث أشهر السنة العربية في حسابهم.

وقد ذهبت إلى هذا السوق مع الأمير الشريف (السعدي) وأقمت فيه خمسة عشر يوماً للنزهة سنة 920.

ناحيَةُ دُكَّالَةَ

تبتدىء ناحية دكالة من تنسيفت غرباً، وتنتهي على شاطىء المحيط شمالاً، وعند وادي العبيد جنوباً، وأم الربيع غرباً[53]. تمثل هذه الناحية مسيرة نحو أربعة أيام طولاً ويومين عرضاً. وهي آهلة جداً بالسكان، لكنهم قباح جهال. ولا يوجد فيها غير عدد قليل من المدن المسورة سنتحدث عما يستحق الذكر منها واحدة واحدة.

مدينة أسَفِـي

أسفي مدينة بناها الأفارقة الأقدمون على شاطىء البحر المحيط، وفيها نحو أربعة آلاف كانون. يسكنها جمهور غفير من الناس لكن تنقصهم التربية. كان بمدينة أسفي قديماً عدد كثير من الصناع ونحو مائة دار لليهود. والأرض المحيطة بالمدينة خصبة جداً إلا أن الأهالي غير أذكياء لا يعرفون كيف يحرثونها ولا حتى كيف يغرسون فيها الكروم، ومع ذلك فإن لهم بعض الحقول الصغيرة للخضر. ولما أخذت سلطة ملوك مراكش في الانحلال استبد بأمر أسفي أسرة تدعى آل فرحون.

---

(53) هنا خلط بين في حدود بلاد دكالة، فشمالها في الواقع نهر أم الربيع، وجنوبها تنسيفت، وغربها البحر المحيط، لكن الحد الشرقي الفاصل بين دكالة وتادلا آنذاك غير واضح، وربما كان هو ملتقى نهر أم الربيع وواد العبيد.

وفي شبابي[54] كانت أسفي خاضعة لأميرها الشجاع المسمى عبد الرحمان الذي لم يتمكن من الاستيلاء على الحكم إلا بعد أن قضى على أحد أعمامه[55]، وبعد ذلك نشر الأمن في المدينة واحتفظ برئاستها مدة طويلة. وكان لهذا الرجل بنت بارعة الجمال عشقت رجلاً من العامة كان رئيساً لعصابة كثيرة العدد يدعى علي بن وشيمن. وقد تمكن هذا الرجل من أن ينام مع البنت أكثر من مرة بتواطؤ أمها مع احدى الاماء. وأعلمت الأمة سيدها عبد الرحمان فغضب على زوجته وهددها بالقتل، لكنه تظاهر بعد ذلك بعدم اهتمامه بالأمر. ولما كانت المرأة تعرف بطش زوجها فانها أشعرت عشيق بنتها بأن يأخذ حذره. خاف علي حقيقة على حياته وقرر أن يقتل عبد الرحمان، وأفضى بسره إلى شاب شجاع[56] رئيس كذلك لجماعة من المقاتلين الراجلين كان يثق به ثقة تامة. لم ينتظر الرجلان المتفقان إلاالفرصة المؤاتية. وفي يوم عيد (الأضحى) بعث الأمير إلى علي يخبره بأنه يرغب في أن يقوم معه بعد الانتهاء من مراسيم الاحتفال الديني بنزهة على الخيل قصد التسلية، وعين له مكاناً ينتظره فيه، ونيته أن يفتك به هناك. لكن علياً قدر كل شيء واستدعى صاحبه (يحيى بن تعففت) وأخبره بأن الوقت حان لتنفيذ مشروعهما. أخذا معهما عشرين من أصحابهما، وتسلحوا بعناية وهيؤوا سفينة شراعية زعموا أنها سترسل إلى أزمور، وهي في الواقع معدة ليتمكنوا من الفرار فيها عند الاقتضاء. توجه هؤلاء إلى المسجد فوصلوا

---

(54) سيذكر المؤلف فيما بعد أنه ذهب إلى آسفي عام 1500/906 وعمره اثنتا عشرة سنة.

(55) كان هذا العم يدعى أحمد بن علي ويعرف باسم حمادوش بن فرحون. وفي 16 أكتوبر 1488 قلده ملك البرتغال جان الثاني قيادة آسفي، وكانت هذه المدينة خاضعة للحماية البرتغالية قبل سنة 1481. وفي شهر شتنبر 1498 قررت الحكومة البرتغالية أن تعوض القائد أحمد الذي بلغ من الكبر عتيا بابن أخيه عبد الرحمان، وبعثت بذلك رسولاً إلى القائد أحمد. لم تمض الأشياء دون اصطدام قام أثناءه عبد الرحمان بطعن أخيه بالرمح على أثر نزاع حاد ثار بينهما، لكن الشعب هتف بعبد الرحمان، وتصالح القائد العجوز مع ابن أخيه وخطب في الجمهور طالباً منه أن يطيع عبد الرحمان.

(56) هو أبو زكرياء يحيى بن محمد بن تعففت.

بعد أن دخل الأمير إليه بقليل وأحرم بالصلاة، وكان المسجد غاصاً بالناس. دخل الشابان ومن معهما من الرجال إلى المسجد وهم متقدون عزماً واقداماً، واقتربوا من الأمير الذي كان بازاء امام الصلاة دون أن يعترض طريقهم الحراس الذين لم يكن لهم شك فيهم بما يعرفون لهم من مكانة عند الرئيس.

تقدم أحد المتآمرين أمام الملك، وبقي الآخر وهو علي خلفه وطعنه في ظهره بخنجر، في حين أغمد الثاني سيفه في جسمه. حدثت ضجة عظيمة وانقض الحراس على القاتلين، لكنهم عندما رأوا فجأة الرجال العشرين شاهرين سيوفهم ظنوا أن هناك اتفاقاً بين السكان وانقلبوا هاربين، فخرج الناس من المسجد ولم يبق فيه سوى المتآمرين.

وان كاتب هذه السطور سمع علياً يقول بلسانه انهما حينما دخلا المسجد لم يكن الأمير قد دخله بعد، ولذلك مكثا في داخله فترة من الزمن في انتظاره، وأنهما لم يخرجا إلى الساحة إلا بعد أن مات الرئيس، فخطبا في الناس وأقنعاهم بأنهما ان قتلا الرئيس فإنهما على حق لأنه كان يريد قتلهما. سكنت روعة الناس بسهولة ورضوا بأن تكون الامارة في يد هذين الرجلين، لكنهما لم يبقيا على وفاق مدة طويلة، وأصبح أحدهما يجذب من جهة والثاني من أخرى.

وفي هذه الأثناء حدث أن بعض التجار البرتغاليين ـ وهم متوافرون آنذاك بأسفي ـ نصحوا ملك البرتغال أن يأمر بتجهيز أسطول يمكنه أن يستولي بسهولة على المدينة. فلم يقبل أن يقدم على هذه العملية إلا عندما عرفه التجار أن سكان أسفي منقسمون طوائف، وأن البرتغاليين تمكنوا بسبب تقديم بعض الهدايا إلى أحد رؤساء هذه الطوائف[57] من أن يربطوا معه أمتن الصلات، ويتفقوا على شبه عقد بأن أخذ المدينة ممكن

(57) هو يحيى بن تعفقت.

دون أية صعوبة ولا نفقات كثيرة. وقد كانوا في الواقع أقنعوا هذا الرئيس بأن يتركهم يبنون داراً حصينة على شاطىء البحر تكون فيها بضائعهم في أمان. متعللين بأنهم عندما مات الحاكم نهبوا تقريباً وأخذ منهم قسط مهم من مالهم. وقد بنوا داراً حصينة جداً نقلوا إليها سراً أنواعاً من البندقيات داخل براميل الزيت وحزمات البضائع، وما داموا يؤدون الاتاوات المفروضة فان سكان المدينة لم يكونوا يطالبونهم بأكثر من ذلك.

لما تزود البرتغاليون بما يكفي من أسلحة الهجوم والدفاع بدؤ وا يبحثون عن مختلف المناسبات لخلق الاضطراب والخصام مع المغاربة. وهكذا فان غلام أحد التجار البرتغاليين كان يشتري لحمًا فأخذ يثير غضب الجزار إلى أن لطمه، فأخرج الغلام خنجره وأغمده في صدر الجزار المسكين الذي سقط جثة هامدة. هرب القاتل ولجأ إلى الدار البرتغالية، فهاج السكان لهذا القتل وحملوا السلاح وذهبوا إلى الدار البرتغالية لنهبها وتمزيق من بها ارباً ارباً. لكن البرتغاليين عندما رأوا الجمهور يقترب منهم أخذوا يطلقون عيارات بنادقهم المختلفة. ولا حاجة إلى التساؤ ل هل فر المغاربة مذعورين، فقد قتل منهم أكثر من مائة رجل في هذا الهجوم المفاجىء، ولم يمنعهم ذلك من محاصرة الدار أياماً عديدة.

عندئذ ظهر بغتة أسطول قادم من لشبونة كان الملك جهزه بجميع أنواع الأسلحة وقطع المدفعية الثقيلة، علاوة على كميات وافرة من المؤ ن. كان على ظهر هذا الأسطول خمسة آلاف من الجنود المشاة ومائتان من الفرسان[58]، لذلك فان المغاربة تملكهم الرعب وتركوا المدينة ملتجئين إلى جبال بني ماجر، ولم يبق فيها غير أسرة الرئيس الذي وافق على بناء الدار البرتغالية، وأنصاره. استولى قائد الأسطول على مدينة أسفي وأمر بأن يحضر

---

(58) وصل قسم من هذا الأسطول أمام آسفي يوم 24 ديسمبر 1507 ثم وصلت سفن أخرى في أول يناير 1508 شعبان 913 وربما بقي الأسطول أمام آسفي نحو ثلاثة أشهر.

أمامه الرئيس المذكور المسمى يحيى (بن تعففت)، فبعث به إلى ملك البرتغال الذي جعل له ايراداً حسناً وأعطاه عشرين خادماً. وبعد ذلك أعاده الملك إلى افريقيا ليحكم البادية التابعة لآسفي، لأن القائد البرتغالي لا يعرف عادات هذا الشعب الجاهل ولا الطريقة التي ينبغي أن يساس بها. وبقيت أسفي منذ ذلك العهد خالية، وخربت البلاد(59).

وانما أفضت القول في هذا الموضوع قليلاً لأبين أن الأحزاب السياسية بالاضافة إلى امرأة، كانت سبب الخراب لا لمدينة أسفي وحدها ولكن لمجموع سكان دكالة. ولما ذهبت إلى أسفي كنت غلاماً في الثانية عشرة من عمري، لكن بعد مرور نحو أربع عشرة سنة أخرى قابلت حاكم هذه البادية موفداً إليه من قبل ملك فاس والشريف أمير بلاد سوس وحاحا. وكان الحاكم آنذاك بالقرب من مراكش مع جيش مكون من خمسمائة فارس برتغالي وأكثر من ألفين من فرسان الأعراب. وكان يأخذ جميع الصرائب في تلك البلاد لحساب ملك البرتغال. وذلك عام 920 حسبما ذكرته بتفصيل أكثر في **مختصر تاريخ الإسلام**(60).

(59) تقول الرواية البرتغالية إنه بعد مقتل القائد عبد الرحمان في أبريل 1507/ ذي الحجة 911 اختلف علي بن وشيمن ويحيى بن تعففت. وكان قائد موكادور (الصويرة) البرتغالي قد كلف بأمر آسفي فانحاز إلى علي وبعث بيحيى بن تعففت إلى لشبونة في غشت 1507 / ربيع الثاني 912، ثم رجع يحيى منها في خلال سنة 917/1511. أما علي بن وشيمن فذهب بعد احتلال آسفي ليقيم مع أهله في تاركا على ضفاف أم الربيع فسجن في ماي 1514 / ربيع الأول 920 من قبل الناصر أخي ملك فاس ونقل إلى فاس ثم رجع، واستقر به المقام أخيراً في مملكة فاس. ويظهر أن الحسن الوزان استقى قصة أحداث آسفي من علي بن وشيمن نفسه.

(60) سبق أن ذكر المؤلف أن هذا اللقاء تم في تومكلاست بناحية مراكش خلال صيف 1514/920 بينما كان سفره الأول إلى آسفي قبل ذلك بأربع عشرة سنة، أي عام 906 وعمره أربع عشرة سنة، فيكون تاريخ ميلاد الحسن الوزان حوالي عام 1489-88/894.

قَنْطْ، مدينةٌ في دُكّالَة

قنط[60م] مدينة صغيرة على بعد نحو عشرين ميلاً من أسفي، بناها القوط في العهد الذي كانوا يسيطرون فيه على هذا الساحل. وهي الآن خراب تخضع أراضيها لبعض أعراب دكالة.

تِيطْ، مدينةٌ في دُكَّالَة

تيط[61] مدينة قديمة تبعد عن آزمور بنحو أربعة وعشرين ميلاً، بناها الأفارقة على شاطىء المحيط، تحيط بها بادية واسعة حيث ينبت الزرع الجيد بكثرة كاثرة، ويسكنها قوم ذوو ذكاء محدود لا يعرفون انشاء حديقة ولا أي شيء آخر يلفت النظر.

وفي الحقيقة يرتدون لباساً لائقاً بسبب تجارتهم وعلاقاتهم مع البرتغاليين. ولما احتل البرتغاليون آزمور خضعت تيط إلى ملك البرتغال باتفاق مع قائده وأدت له بعض الاتاوات. وفي عهد شبابي جاء ملك فاس بنفسه إلى تيط لينجد سكان دكالة. ولما لم يتمكن من الحصول على أية نتيجة، أمر بشنق نصراني كان أمين خزانة المال ويهودي كان وسيطاً، ونقل سكان تيط إلى فاس وعين لإقامتهم قرية صغيرة مهجورة منذ مدة، تبعد عن فاس باثني عشر ميلاً.

المَدِينَة، حاضِرَةُ دُكَّالَة

المدينة من قرى دكالة وهي بالتقريب حاضرة هذه الناحية، يحيط بها سور مبني على الطريقة المتبعة في البلاد، أي بمواد غير متقنة على الأصح،

(60م) حرف اسم هذه المدينة في الأصل المنقول عنه فكتب «كونتي». وهذه مدينة معروفة مندثرة يحمل اسمها اليوم رأس قنط (كاب كانتان) الذي كانت تقع بجواره.

(61) ما تزال آثار تيط ظاهرة عند زاوية مولاي عبد الله أمغار على شاطىء البحر، بعيدة عن مدينة آزمور بخمسة وعشرين كيلومتراً جنوباً. ومعنى تيط بالبربرية: عين جارية.

ومنظره كئيب. ويمكن التأكيد حقيقة بأن سكان المدينة جهال يرتدون بعض الملابس الصوفية المصنوعة في عين المكان. تتحلى نساؤهم بكثير من حلى الفضة والعقيق الأحمر، ورجالهم شجعان يملكون عدداً من الخيل. وقد نقلهم ملك فاس إلى مملكته حذراً من البرتغاليين، إذ بلغه أن شيخاً[62] رئيساً لفريق من المدينة كان ينصح السكان بأن يؤدوا الخراج إلى ملك البرتغال. وقد رأيت هذا الشيخ يقاد مقيداً حافي القدمين، فأشفقت عليه كثيراً، لأن المسكين كان مضطراً إلى أن يفعل ما فعل، إذا اعتبرنا أن أداء الخراج خير من خسران المال والتضحية بحياة الناس. وتدخل عدد من الناس لدى الملك طالبين تحرير هذا الرجل، فحصلوا على ذلك وأطلق سراحه مقابل أداء ذعيرة. وظلت المدينة فيها بعد خالية، وقد جرى ذلك عام 921.

مدينةُ مِائة بِيرْ[63] في دُكَّالة

هي قرية صغيرة واقعة على ربوة كلسية، في خارجها عدة مطامير تعود السكان أن يخزنوا فيها حبوبهم. ويقول سكان هذه البلاد بأن القمح يحفظ في هذه المطامير مائة سنة دون أن يفسد أو تتغير رائحته.

ولكثرة هذه المطامير التي تشبه الأبيار سميت هذه المدينة مدينة مائة بير. والسكان فيها قليلون جداً، لأنه لا يوجد فيها أي صانع باستثناء بعض

---

(62) تسمي المصادر البرتغالية هذا الشيخ المتعاون بيمون. ويشكك بعضهم في كون الملك الوطاسي نقل جميع سكان تيط إلى ناحية فاس، لأن الحسن الوزان غادر المغرب بالقرب من هذا التاريخ فلم يكن يعرف ما إذا عمرت المدينة بعد حركة الوطاسي أو خلت.

(63) يوجد في هذه الناحية بالفعل مكان يدعى مائة بير، لكن هناك من يرى أن المقصود مدينة صيرنو الصغيرة التي تبعد عن ذلك المكان بـ 11 كلم جنوباً حيث كان يسكن يحيى بن تعففت، وقد وهبها له ولأولاده ملك البرتغال عمانويل الأول برسالة مؤرخة في 25 غشت 1514.

الحدادين اليهود. وفي الوقت الذي نقل ملك فاس سكان المدينة إلى الاقامة بأرضه أراد أن ينقل أيضاً سكان مدينة مائة بير لكنهم رفضوا هذا الانتقال وفروا إلى أسفي حتى لا يتركوا أرضهم. ولما رأى الملك ذلك نهب مدينة مائة بير فلم يجد فيها غير الحبوب والعسل والأشياء الثقيلة التي لا قيمة لها[64].

السّبِيتْ

السبيت مدينة صغيرة على الضفة الجنوبية لنهر أم الربيع، تبعد عن المدينة بنحو أربعين ميلاً، وتخضع لأعراب دكالة. وهي تنتج كثيراً من القمح والعسل، لكن لا ترى بها بساتين ولا حقول كروم لجهل سكانها. ولما خربت بولعوان نقل ملك فاس سكان مدينة السبيت إلى مملكته وأعطاهم مدينة صغيرة كانت مهجورة في اقليم فاس، وبقيت مدينة السبيت منذ ذلك الحين خالية.

تَـمَرّاكْشْتْ

تمراكشت[65] مدينة صغيرة بدكالة على ضفة نهر أم الربيع، بناها الملك الذي أسس مدينة مراكش، ولذلك سميت بهذا الاسم. كانت تمراكشت آهلة بالسكان، محتوية على أربعمائة كانون وخاضعة لآزمور. وفي السنة التي احتل البرتغاليون مدينة آزمور، خربت تمراكشت وانتقل سكانها إلى المدينة.

ترْكَا

تركا[66] مدينة صغيرة على ضفة نهر أم الربيع بعيدة عن آزمور بنحو

(64) تقول المصادر البرتغالية انه بقي من الحبوب بمدينة صيرنو أكثر مما نهبه ملك فاس.
(65) تمراكشت صيغة تصغير بالبربرية لمراكش.
(66) تركا كانت تقع على بعد 35 كلم في ملتقى نهري تركا وأم الربيع، على الضفة اليمنى لهذا النهر. وقبل أن يستقر علي بن وشيمن في تركا، أسره الناصر الوطاسي وحمله إلى =

ثلاثين ميلاً، كانت آهلة بالسكان محتوية على ثلاثمائة كانون خاضعة لأعراب دكالة. ولما احتلت آسفي انتقل عليٌّ رئيس الطائفة المعادية للبرتغاليين إلى تركا وسكنها فترة من الزمن مع بعض أنصاره الأبطال. وبعد ذلك استقدمه ملك فاس إلى مملكته مع أسرته، فغدت تركا خالية تأوي إليها البوم.

بُولَعْوَانْ

بولعوان مدينة صغيرة مبنية على ضفة نهر أم الربيع، بها نحو خمسمائة كانون، كان يسكنها عدد من النبلاء الكرماء، وتقع في منتصف الطريق بين فاس ومراكش. وقد شيد سكان هذه المدينة بناية من عدة غرف على شكل اصطبل عظيم. وكل الذين يمرون بهذه المدينة يستضافون باكرام في هذه الدار على نفقة السكان، لأنهم أغنياء جداً بحبوبهم وماشيتهم. لكل واحد من السكان مائة زوج من الثيران أو أقل أو أكثر، ومحصولات تبلغ حوالي ألف حمل دابة من القمح[67]، ومنهم من تبلغ محصولاتهم الزراعية ثلاثة آلاف حمل، والأعراب هم الذين يشترون هذا القمح ويتزودون منه للعام كله.

وفي عام 919 أرسل ملك فاس أخاه[68] ليدافع عن بلاد دكالة ويحكمها، ولما قرب من بولعوان علم أن حاكم آزمور البرتغالي قادم إلى هذه المدينة ليفسدها ويأسر سكانها، لذلك عجّل بإرسال قائدين مع ألفين من الفرسان، وقائد ثالث مع ثمانمائة من الرماة لإنجاد بولعوان. وقد

= أخيه الملك بفاس عام 1514 ثم رجع وترأس قبيلة بني ماجر عند حركة الملك محمد الوطاسي سنة 1515، ثم انتقلت هذه القبيلة كلها إلى اقليم فاس.

(67) سبق أن ذكر المؤلف أن حمل الجمل في سوس هو سبعمائة رطل ايطالي، أي 237 كيلوغرام، ولعل ذلك هو نفس وزن الحمل في دكالة.

(68) هو الناصر الحلو حاكم مكناس ونائب أخيه فيها وفي بلاد الشاوية.

وصلت هذه القوات في نفس الوقت الذي وصل فيه الجيش البرتغالي. ولما كان مع البرتغاليين ألفان من الأعراب(69)، فإنه كان لهم التفوق المطلق. وقد طوّق رماة ملك فاس في وسط السهل وضُربت أعناقهم بالسيف إلا عشرة أو اثني عشر رجلاً فرّوا مع بقية الجيش إلى الجبال. حقاً ان المغاربة أعادوا تنظيم قواتهم وكروا على البرتغاليين في حملة مضادة وطاردوهم وقتلوا خمسين من فرسانهم(70).

جاء أخو الملك إلى دكالة وجبى الخراج ووعد بأنه سيساعد هذه الناحية على الدوام، لكنه عندما خذله الأعراب اضطر إلى العودة إلى فاس. وهكذا فإن سكان بولعوان لما رأوا قدوم أخي الملك لم يكن له من نتيجة غير جبي الخراج دون أن يقدّم لهم أية مساعدة تذكر، تملّكهم الفزع وغادروا مدينتهم ملتجئين إلى جبال تادلا خوفاً من أن يعود إليهم البرتغاليون ويفرضوا عليهم اتاوات أقوى لا يستطيعون أداءها، فيخضعوهم للأسر ويستعبدوهم.

حضرت هذه الهزيمة وشاهدت مذبحة الرماة، لكنني كنت بعيداً عنهم بنحو ميل راكباً على حجر تضيق افريقيا كلها عن قفزه عند الفرار.

---

(69) أتى بهؤلاء الأعراب الفرسان من حوز مراكش يحيى بن تعففت.

(70) هناك رواية مفصلة لهذه المعركة التي جرت يوم الجمعة 18 صفر 14/920 أبريل 1514، رواها حاكم أزمور دون جاووديمينيس الذي قاد الحملة مع نينو فرنانديز حاكم آسفي، وذلك في تقرير قدّمه للملك عمانويل الأول، زعم أنه لم يهلك من البرتغاليين سوى 32 فارساً، بينما تؤكد رواية برتغالية أخرى أنه لم تمض ثلاث ساعات على بداية المعركة حتى سقط فيه أكثر من 50 فارساً برتغالياً زيادة على قتلى المشاة والمجروحين الذين فاق عددهم مائة. وقد هوّل التقرير وبالغ في أعداد قتلى المسلمين وأسراهم.

انظر: مصادر غير منشورة لتاريخ المغرب، السلسلة الأولى، البرتغال، 1:504-541.

وقد كنت عندئذ مسافراً فتوجّهت إلى مراكش قادماً من ساحة المعركة التي خاضها جيش ملك فاس لأخبر حاكم مراكش والأمير الشريف بالقدوم القريب لأخي الملك عندهم ليأخذوا الأهبة ويستعدوا بكل ما يستطيعونه لمواجهة البرتغاليين.

مدينة آزَمُّور

أزمور مدينة في دكالة من بناء الأفارقة على مصب نهر أم الربيع في البحر المحيط، بعيدة عن المدينة (الغربية) بثلاثين ميلاً إلى الجنوب[71]. وهي كبيرة وآهلة بالسكان، تحتوي على نحو خمسة آلاف كانون، لا ينقطع عنها التجار البرتغاليون، ولذلك فإن سكانها متحضرون حسنو الهندام، وهم منقسمون طائفتين إلا أنهم يعيشون دائمًا في سلام. وتنتج هذه المدينة أي باديتها كثيراً من القمح، ولا يُرى فيها في الحقيقة بستان ولا حديقة إلا قليلاً من شجر التين. ويدرّ النهر على هذه المدينة سنوياً كرسوم على صيد سمك الشابل، من ستة آلاف إلى سبعة آلاف مثقال. يبتدىء موسم الصيد في أكتوبر وينتهي في آخر أبريل. والشابل هناك كثير جداً، وهو يحوي من الشحم أكثر مما يحويه من اللحم، حتى إنه يكفي لقليه اليسير جداً من الزيت، لأن السمكة لا تكاد تحس بحرارة النار حتى يخرج منها أكثر من رطل ونصف رطل من الدهن الذي يشبه الزيت، وهم يستصبحون به لأنه لا يوجد زيت في هذه البلاد.

يأتي التجار البرتغاليون مرة في السنة ليشتروا كمية عظيمة من هذا السمك وهم الذين يؤدون رسوم الصيد المذكورة، حتى إنهم تمكّنوا في النهاية من إقناع ملك البرتغال بالاستيلاء على المدينة، فأرسل أسطولاً

---

(71) وقع هنا خلط في البعد والجهة، فمدينة أزمور تبعد عن المدينة الغربية بأكثر من 56 ميلاً (90 كلم) شمالاً.

يتركّب من سفن عديدة، لكنه انهزم بسبب قلة خبرة القائد، وغرقت معظم السفن[72].

وقد أعاد ملك البرتغال الكرّة على آزمور فأرسل إليها بعد سنتين أسطولاً آخر متركّباً من مائتي سفينة[73] فلم يكد يراه السكان حتى خارت قواهم وأخذوا يفرون مذعورين حتى إنه هلك منهم أكثر من ثمانين نفساً اختناقاً عند الأبواب من شدة الازدحام. أما الأمير البائس الذي جاء لينجد المدينة، فلم يعرف سبيلاً للخلاص سوى أن يتدلى من أعلى السور بحبل، والناس يجرون داخل المدينة في كل اتجاه، بعضهم حفاة، وبعضهم على الخيل. إنه لمنظر كئيب أن ترى الأطفال والشيوخ والنساء والفتيات حفاة شعثاً يركضون في كل مكان ولا يعرفون أين يختبئون. غير أنه قبل أن تبدأ المعركة مع المسيحيين بقليل، كان اليهود قد اتفقوا مع ملك البرتغال على أن يسلموا له مدينة آزمور شريطة أن لا يلحقهم منه أي أذى، ففتحوا الأبواب بموافقة الجميع. وهكذا استولى المسيحيون على آزمور[74]، وانتقل

(72) تقول المصادر البرتغالية ان آزمور اعترفت بالحماية البرتغالية منذ 1486/891 لكن الاتفاقيات نقضت عام 1502/907، واقتضت الأحداث المتوالية بعد ذلك تدخلاً عسكرياً برتغالياً، فظهر أمام آزمور أسطول من 75 سفينة يوم 12 غشت 1508/ 14 ربيع الثاني 914. ونزل منها أكثر من ألفي رجل اصطدموا بقوة أرغمتهم على الإسراع بالرجوع إلى سفنهم، ولم تجنح إلا بعض السفن وأحرقت إحداها في النهر. وكان هذا الأسطول بقيادة الدون جو أوودِيمِينيسيس الذي مات وهو حاكم لآزمور في ماي 20/1514 ربيع الأول 920.

(73) كانت هذه الغزوة بقيادة دوق ديبراكانس، تتركب من 500 سفينة أنزلت حمولتها في البريجة التي لم تكن يومئذ غير مرفأ، يوم الاثنين 26 جمادى الثانية 29/919 غشت 1513 وقد نزل منها ألفا فارس وثلاثة عشر ألف راجل.

(74) تقول المصادر البرتغالية ان الجنود البرتغالية خيّمت أمام آزمور يوم الخميس فاتح شتنبر 1513، في حين كان قسم من الأسطول يدخل النهر، وفي الغد الجمعة قنبلت المدينة من طرف المدفعية، وذلك سبّب فزع السكان الذين أخلوا المدينة ليلاً، والأمير المشار إليه هو زيان ابن عم ملك فاس الوطاسي الذي كان فيها سبق حاكمًا لمكناس والشاوية، ثم ثار على الملك والتجأ إلى البرتغال أولاً ثم إلى آزمور، حيث لعب على =

بعض أهلها إلى السكنى بسلا، وبعضهم إلى السكنى بفاس، وقد عوقب الآزموريون بهذا الشكل على إغراقهم في اللواط وشيوعه فيهم حتى إنهم كانوا لا يجدون غضاضة في أن يبحث الأب لولده عن صديق مداعب لطيف.

وأخيراً سقطت هذه المدينة عام 918 وأنا يومئذ في بلاد السودان(75).

مُرَامِرْ

مرامر مدينة بناها القوط في الداخل على بعد نحو أربعة عشر(76) ميلاً من أسفي، بها نحو أربعمائة كانون. وتنتج البلاد الكثير من القمح والزيت. وكانت هذه المدينة فيما سبق خاضعة لحاكم أسفي، فلما احتل البرتغاليون أسفي هرب سكان مرامر وبقيت مدينتهم خالية زهاء سنة. ثم اتفقوا بعد ذلك مع البرتغاليين ورجعوا إلى ديارهم، وهم يؤدون حتى الآن جزية لملك البرتغال(77).

جبل بنِي ماجَرْ

هو جبل يبعد عن أسفي باثني عشر ميلاً(78)، كان يسكنه عدد وافر من الصنّاع الذين يملكون جميعاً دوراً بآسفي. وهو جبل كثير الإنتاج

= الجبلين، وقد صالح ابن عمه الملك أخيراً بكيفية رسمية عام 1514، وسيتحدث عنه المؤلف فيما بعد. وتقول تلك المصادر أيضاً ان اليهود لم يسلموا آزمور إلى البرتغاليين، وإنما جاء أحد اليهود إلى البرتغاليين في منتصف الليل يخبرهم بإخلاء المدينة، فاحتلها البرتغاليون دون حادث صباح السبت ثالث شتنبر 1513/ثاني رجب 919.

(75) يظهر أن المؤلف سافر عام 1512/918 إلى بلاد السودان للمرة الثانية، ولم تحتل آزمور في الواقع إلا في السنة التالية.

(76) يظهر أن الأصل 44 ميلاً، لأنها تبعد عنها بسبعين كلم على الأقل.

(77) تحمل أنقاض هذه المدينة الصغيرة اسم صويرة ميرامر، وتقع على الضفة اليسرى لنهر تنسيفت الذي كان آنذاك ملحقاً بدكالة، وقد ذكرها البكري على الطريق الرابطة بين نفيس والمدينة الداخلية التي كانت لها أهمية عند الفتح الإسلامي في مرفأ أكوز.

(78) بل 22 ميلاً.

لا سيما من القمح والزيت. وكان فيما سبق خاضعاً لحاكم أسفي، فلما أخذت المدينة المذكورة لم يجد هؤلاء القوم ملجأ غير جبلهم، وغدا منذ ذلك الحين تابعاً لملك البرتغال. ولما قدم ملك فاس إلى هذه البلاد عاد بعض الماجريين إلى أسفي. وأخذ الملك الآخرين معه إلى فاس، لأنهم لم يرضوا بالعيش تحت سلطة المسيحيين[79].

الجبل الأخضر

الجبل الأخضر شاهق يبتدىء بجوار نهر أم الربيع ويمتد غرباً إلى تلال هسرة[80] فاصلاً بين دكالة وجزء من ناحية تادلا. وهذا الجبل مكسو كثيراً بالأشجار ووعر جداً، ينتج كمية كبيرة من البلـــوط، وينبت فيه الكثير من هذه الأشجار التي تحمل فاكهة حمراء قد تسمى باللغة الأفريقية الأربوز (القطلب)، كما ينبت فيه شجر الصنوبر.

ويعيش في هذا الجبل نساك كثيرون لا يقتاتون إلا بثمـاره، إذ يبعدون عن كل مكان مسكون بخمسة وعشرين ميلاً. وهناك عدد كثير من العيون الجارية والمساجد المبنية على الطراز الإسلامي، وبعض البنايات الافريقية القديمة. وتوجد بالقرب من الجبل بحيرة في غاية الجمال، كبيرة كبحيرة بولصينا في الأرض البابوية، فيها كمية عظيمة من الأسماك كالنون (الأنقليس) والبرعان الأحمر، والبوري (الزنجور) وغيرها من الأسماك التي لم أرها قط في ايطاليا، وكلها في تمام الجودة، غير أنه لا أحد يصطاد في هذه البحيرة.

ولما ذهب ملك فاس محمد (الشيخ الوطاسي) إلى دكالة أقام بجوار هذه البحيرة ثمانية أيام، وكلّف بعض الناس بالصيد، فشاهدت الطريقة

---

(79) الماجريون المهاجرون إلى فاس ذهبوا مع حاكمهم السابق علي بن وشيمن.
(80) الصواب: ويمتد شرقاً... أما هسرة فلا تعرف إلا أن تكون تحريفاً لهسكورة.

التي استعملوها في ذلك، وهي أنهم خاطوا أعناق وأكمام بعض القمصان ووتروا أسفلها بقضبان ثم أنزلوها إلى أسفل البحيرة، وبهذه الطريقة أخذوا كثيراً من السمك. ولا تسأل عما يحصل عليه ذوو الشباك من كميات عظيمة من الحيتان. وذلك لأن السمك كان كالمدوخ الثمل بسبب دخول الخيل والجمال إلى البحيرة على مسافة نحو ميل، وكان عدد الخيل كثيراً يبلغ نحو أربعة عشر ألف فرس، معظمها ملك للأعراب الذين جاءوا ليكونوا رهن إشارة الملك، وبعضها لاتباعه من العرب أو لجنوده. وجميع الأعراب أتوا معهم بعدد من الجمال يبلغ ثلاثة أضعاف عدد الخيل. وكان في محلة الملك وإخوته نحو خمسة آلاف فرس، لأن الملك كان في الواقع يوفر حاجات جميع جنوده النظاميين، وهم نحو سبعة آلاف فارس، ومثلهم من الراجلين ما بين خدم وبغّالين وجمّالين وسقّائين وحطّابين وغلمان المائدة ومحاسبي النفقات. أضف إلى هذا العلاّف ومساعديه في الحسابات ومن استصحبه من المستخدمين، كل هؤلاء القوم كانوا على نفقة الملك، باستثناء قواد المشاة وقواد الفرسان الذين كان لهم تموينهم الخاص من خيام وجمال ورجال الخدمة.

وقد ذكرت كل تلك الأخبار في *مختصر التواريخ* المذكـور آنفاً فلا أطيل فيها أكثر ليلا نخرج عن موضوعنا الذي هو البحيرة.

يوجد على ضفاف هذه البحيرة كمية كبيرة من أشجار تشبه أوراقها أوراق شجر الصنوبر(81)، يعشش بين أغصـانها عدد لا يحصى من الحمام، حتى إنه في ذلك الوقت، وهو شهر ماي، كانت تباع ست حمامات منها بأبخس الأثمان.

استراح الملك ثمانية أيام ثم أراد أن يذهب إلى الجبل الأخضر، وكنا نحن الذين نرافقه من الفقهاء والجلساء كثيرين، فكان كلما صادف في

---

(81) لعلها أشجار العرعار.

طريقه مسجداً أوقف الجميع وصلى ودعا بخشوع قائلاً: «اللهم إنك تعلم أني ما جئت إلى هذا البلد المهجور إلا لمساعدة سكان دكالة وتحريرهم من الأعراب الزنادقة المتمردين، ومن أعدائنا الألداء المسيحيين. فإن كانت مشيئتك تعلقت بذلك فصب سوط عذابك علي أنا، لأن الذين يتبعونني لا يستحقون العقاب».

دخلنا إلى المحلة مساء بعد أن قضينا النهار في الجبل. وفي غداة الغد قرّر الملك أن يصطاد في الغابة المحيطة بالبحيرة، فاستعمل في ذلك الكلاب والصقور التي يملك عدداً كبيراً منها. وقد اصطيد الأوز الوحشي والبط وطير الماء والحمام. وفي اليوم التالي كان صيد آخر بالكلاب السلوقية والصقور والبيزان، فاصطيدت كميات هائلة من الأرانب والأيول والضربان واليحمور والذئاب والحجل، لأنه لم يصد أحد في هذا الجبل منذ مائة سنة.

وبعد هذا الصيد استراح الملك قليلاً ثم ارتحل مع جيشه قاصداً المدينة (الغربية) بدكالة، بعد أن أذن لمن كان معه من الصلحاء والفقهاء بأن يرجعوا إلى فاس، وبعث بعضهم إلى مراكش، وكنت من بينهم، وذلك عام 921 للهجرة.

ناحيَةُ هَسْكُورَة

تبتدىء ناحية هسكورة من التلال المتاخمة لدكالة غرباً لتنتهي شرقاً عند نهر تنسيفت في سفح جبل أدماي، وتتاخم شمالاً وادي العبيد الفاصل بين هسكورة وتادلا، كما تفصل دكالة وتلالها هذه الناحية عن البحر المحيط(82).

وأهل هسكورة أكثر تمدناً من أهل دكالة، لأن في هذه البلاد موارد ناتجة عن كمية وافرة من الزيت ومن تلك الجلود المدبوغة التي يكاد يشتغل جميع السكان في إعدادها. ويملك الهسكوريون عدداً لا يحصى من المعز، وتدبغ في ناحيتهم جميع الجلود الواردة من الجبال المجاورة. وتكثر عندهم الأغنام جداً فيصنعون من أصوافها ثياباً رفيعة لسد الحاجات المحلية، كما يصنعون سروجاً بديعة للخيل.

يقوم التجار الفاسيون بتجارة رابحة في هذه الناحية، فيستبدلون نسيجهم بهذه الجلود والسروج. وعملة هذه الناحية هي نفس العملة الجارية بدكالة، ويشتري الأعراب عادة من هسكورة الزيت وغيره من الحاجات.

وسأتكلم الآن عن كل مدينة، الواحدة تلو الأخرى.

---

(82) وقع هنا خلط عند المؤلف في ذكر الجهات عند الحدود وقد صححناها بحسب الواقع.

المَدِينَة، حاضرةُ هَسْكُورة

تقع المدينة(83) على حدود الأطلس، وهي من بناء أهل هسكورة تشتمل على نحو ألفي كانون وتبعد عن مراكش شرقاً بنحو تسعين ميلاً وعن المدينة (الغربية) بدكالة بنحو ستين ميلاً(83م). تضم هذه المدينة عدداً كثيراً من الدبّاغين والسّراجين وغيرهم من الصنّاع، وفيها الكثير من اليهود، بعضهم تجار وبعضهم صنّاع كذلك.

تقوم المدينة وسط غابة من الزيتون والكروم المعروشات البديعة وأشجار الجوز العظيمة، ويفترق سكانها فرقاً عديدة تختصم باستمرار داخل المدينة، ويعادون في الخارج أهل مدينة أخرى بعيدة عنهم بنحو أربعة أميال. ولا يستطيع أحد أن يسير في البادية إلى حقله ما عدا العبيد والنساء، وإذا أراد أحد التجار الغرباء أن يذهب من مدينة إلى أخرى فعليه أن يستصحب حرساً قوياً، لذلك فإن كل واحد منهم يستأجر عادة مسلحاً ببندقية أو قذّافة بأجرة شهرية تتراوح ما بين عشرة واثني عشر مثقالاً بالعملة المحلية، وهي تساوي ست عشرة (دوكة) إيطالية.

يوجد في هذه المدينة بعض الرجال المتضلعين من علم الفقه يؤخذ منهم القضاة والأئمة. وتؤدى الضرائب المفروضة على الغرباء إلى بعض الرؤساء الذين يحفظونها ليصرفوها في حاجيات الجماعة. ويؤدي أهل المدينة للأعراب عن أملاكهم في السهل ما لا أدري قدره من الخراج. لكنهم يربحون مع هؤلاء الأعراب عشرة أضعاف ما يؤدون لهم.

---

(83) لعلها دمنات، إذ تنطبق صفات الموقع المذكورة هنا عليها. وقد سألت أحد شيوخ هذه الناحية فأكد بأنه وقومه يعرفون بأن دمنات كانت تُعرف بالمدينة قديماً، حتى قبل تأسيس مدينة مراكش فيما يتناقلون.

(83م) لعل الصواب 160 ميلاً. إذ أن المسافة بينها تبلغ نحو 220 كلم.

ذهبت إلى هذه المدينة عند عودتي من مراكش ونزلت بدار أحد الغرناطيين الأثرياء الذي أقام هناك زهاء ثمانية عشر عاماً يعمل في صنع القذافات، فكنا تسعة نفر فضلاً عن الخدم، قام بنفقتنا جميعاً بلطف وسخاء إلى أن انصرفنا في اليوم الثالث. وكان السكان أرادوا أن ينزلونا بدار الضيافة المعدّة لجميع الغرباء، لكنه لم يتحمّل أن يرانا ننزل في مكان آخر غير منزله لأني كنت بلديه. وطوال المدة التي قضيناها عنده كانت الجماعة تهدي لنا عجولاً أو خرفاناً أو دجاجاً. ولما رأيت كثرة الخيل بهذه المدينة سألت مضيفي لماذا لا يهدون إلينا منها، فأجابني بأن الفرس يعتبر أحقر الدواب في هذه الناحية وأنهم يهدون بالأحرى ماعزة أو تيساً. ونساء المدينة في غاية الجمال والبياض، يقدمن أنفسهن عن طيب خاطر للغرباء متى أمكنهن ذلك في تستر كامل.

الْمِدِينْ، مدينةٌ بنفس الإقليم

تقع المدين[84] بجوار المدينة السابقة على بعد أربعة أميال منها إلى جهة الغرب، وتوجد في شعب بين أربعة جبال عالية، فهي لذلك شديدة البرودة، يسكنها الصنّاع والتجار والأعيان، وتحتوي على نحو ألف كانون، وأهلها في حرب دائمة مع سكان المدينة (المجاورة).

وفي عهد شبابي استولى ملك فاس على هاتين المدينتين بواسطة أحد التجار الفاسيين بالطريقة التالية: كان هناك تاجر فاسي ــ كما قلنا ــ مولهاً بحب فتاة جميلة وعده أبوها بالزواج بها، لكن اختطفها في يوم العرس شخص كان قائد المدينة. غضب التاجر وعرف كيف يكظم غيظه طالباً من القائد أن يأذن له بالخروج، فرجع إلى فاس وقدّم لملكها هدية مشتملة على نوادر تلك البلدة ونفائسها، ثم طلب منه أن يُنعم عليه بإعارة مائة من الرماة وثلاثمائة من الفرسان وأربعمائة من الراجلين يتكفّل بالإنفاق عليهم

---

(84) اندثرت هذه المدينة ولا يعرف الآن اسمها ولا موقعها.

جميعاً، ووعده بالاستيلاء على المدينة في ظرف وجيز وحكمها باسم الملك، وبأداء سبعة آلاف مثقال، كخراج سنوي لتلك البلاد. قَبِل الملك هذا الاقتراح وأظهر كرمه فلم يحمّله غير نفقة الرماة، ثم أعطاه رسالة إلى عامل تادلا يأمره بأن يقدّم للتاجر مقدار كذا من الفرسان وكذا من الراجلين مع قائدَين. وبعد أن رتّب التاجر الأمور كلها نزل أمام المدينة وحاصرها ستة أيام، وبعد هذه المدة ذهب سكان المدينة إلى رئيسهم وأخبروه بأنهم لا يريدون جلب عداوة ملك فاس ولا التعرض أكثر من ذلك إلى أية خسارة، فخرج هذا القائد حينئذ من المدينة متنكّراً في زي سائل، لكنه عرف وأحضر أمام التاجر الذي أمر بأن يُقيّد بالسلاسل. وفي تلك الأثناء فتحت المدينة أبوابها وسلّمت نفسها للتاجر الذي كان يتصرف باسم ملك فاس، واعتذر له أهل الفتاة التي كان أحبها بأن القائد أخذها منهم قهراً، وأنها في الواقع زوجة التاجر لأنهم زوّجوه إياها أولاً. وكانت المرأة حاملاً من ثمانية أشهر، فانتظر التاجر حتى وضعت ثم تزوّجها. وحكم الفقهاء على القائد بالموت لأنه محصن زان، ورُجم في نفس اليوم. وقد احتفظ التاجر بحكم المدينة، ووطّد الأمن بين المدينتين المتعاديتين، وأوفى للملك بما وعد.

ذهبت إلى هذه المدينة وتعرّفت فيها على التاجر الذي كان يحكمها، ثم رجعت إلى فاس في نفس تلك السنة، حيث ذهبت لبيتي استعداداً للانطلاق إلى القسطنطينية.

تَكُودَاسْتْ، مدينة في هَسْكُورة

تقع مدينة تكوداست(85) على قمة جبل شاهق تحيط به أربعة جبال عالية، وتجاورها حدائق عجيبة مغروسة بجميع أنواع الأشجار المثمرة.

---

(85) لا تُعرف اليوم مدينة بهذا الاسم، وربما كان محرفاً عن تكندافت المدينة المعروفة حتى الآن على نهر تساوت غير بعيدة عن دمنات إلا بنحو 30 كلم.

رأيت فيها مشمشاً ضخمًا في حجم الليمون، والكروم فيها معروشة مسندة إلى جذوع الأشجار، تعطي عنباً أحمر يسمى بِلُغَة البلاد بيض الدجاج، وهو اسم يطابق المسمّى في الواقع لضخامة حبه. ويكثر فيها الزيت والعسل، ومنه نوع أبيض كاللبن ممتاز، وآخر أصفر فاتح كالذهب، وكذلك الزيت جيد مذاقاً ونوعاً.

في داخل المدينة عيون ثرّة تكوّن جدولاً، يجري فيُدير بعض الطاحونات الصغيرة المقامة على ضفّتيه، وصنّاع كثيرون ينتجون الأدوات العادية. والسكان متحضّرون نسبياً، نساؤهم في غاية الجمال، يتحلّين بحلي جميل من الفضة، لأن الرجال يحصلون من بيع زيتهم على ربح وفير، يحملونه إلى مدن الصحراء المجاورة، أي إلى جهات الأطلس الواقعة في جنوب الجبل، كما يحملون الجلود ليبيعوها في فاس ومكناسة.

طول السهل بضاحية تكوداست نحو ستة أميال، وحقوله المزروعة بالقمح جميلة، والفلاحون يؤدّون الخراج للأعراب عن ممتلكاتهم.

في هذه المدينة أئمّة وفقهاء وعدد من الأشراف. وفي الوقت الذي ذهبتُ إليها كان أميرها شيخاً نبيلاً أعمى يُطيعه السكان وينقادون له، وكان في شبابه على ما قيل لي، رجلاً مقداماً ذا عزمة قوية، قتل بيده في جملة من قتل أربعة من رؤساء الأحزاب كانوا يضطهدون الرعية، وبعد موتهم سلك سبيل الرأفة تجاه السكان وأحسن معاملتهم حتى إن الأحزاب المتفرقة اتّحدت، وحلّ الوئام بين أفرادها بدرجة أن هؤلاء وأولئك لم يعقدوا بينهم أواصر المحبة فحسب، وإنما عقدوا أواصر القرابة. وفيما يخص حكمه، عاش الناس في حرية مطلقة، إلا أنه لم يكن بالإمكان البت في أمر دون أخذ رأي الحاكم وإذنه.

نزلتُ عند هذا الشيخ مع نحو ثمانية من الفرسان، فبرهن عن كرم عظيم، وقدّم لنا ولخيلنا كل ما نحتاج إليه من أنواع الأقوات. قضينا عنده ثلاث ليال نتحدث معه دون انقطاع، فحكى لنا ما فعله لإخماد الفتن في

المدينة، وشرح ذلك دون أن يخفي عني شيئاً، تماماً كما لو كنت أخاه. وعند انصرافي أردتُ أن أُعوّضه عمّا أنفق علينا وأكرمنا به، لكنه رفض وقال لنا انه كان صديقاً لملك فاس وخادماً وفياً له، ومع ذلك فإنه لم يعاملنا هذه المعاملة لكوننا من بطانة الملك المقرّبين إليه، وإنما لما ورث عن أجداده من عادة إيواء كل شخص يمر بالبلاد وإكرامه، معروفاً لديهم كان أم غريباً، وذلك لوجه الله وحسب التقاليد النبيلة، ثم قال ان الله الذي يعطي كل شيء قدّر له أن يحصد في تلك السنة نفسها نحو سبعة آلاف مد من القمح والشعير، بحيث إن عدد الناس الذين كان يعولهم أقل بكثير مما لديه من المؤ ن الضرورية لهم، وله كذلك أكثر من مائة ألف رأس من الغنم والماعز لا يأخذ من نتاجها سوى الصوف والشعر، لأنه يترك اللبن والجبن للرعاء الذين يعطونه مع ذلك شيئاً من السمن. وقال ان هذه الأشياء لا تباع في البلاد، لأن الناس كلهم يملكون الماشية الصغيرة بكثرة، لكن الجلود والصوف والزيت تباع في أماكن تبعد بمسيرة سبعة أيام أو ثمانية. وقال لنا أخيراً ان ملكنا إذا سلك لدى عودته من دكالة الطريق المحاذي لسفح الجبل، فإنه سيستقبله ويقدّم له ما يلزم من الخدمة كصديق وخديم له. وقد ودّعنا هذا الشيخ الكريم،وظللنا نلهج بشكره ومدحه في بقية سفرنا.

الجُمُعَــــة

تبعد مدينة الجمعة(86) عن تكوداست بنحو خمسة أميال، وقد بُنيت في أيامنا هذه على جبل عال تكتنفه جبال أخرى شامخة، محتوية على نحو خمسمائة كانون، ويوجد نفس هذا العدد في القرى الواقعة في هذه الجبال. وفيها عيون عديدة وحدائق كثيرة مليئة بكل أنواع الأشجار المثمرة، لاسيما

(86) مازالت معروفة إلى اليوم، ويدعوها الأهالي «فم الجمعة» بالقرب من سوق اتنين نتيفة.

بعدد وافر من أشجار الجوز الضخمة. وجميع التلال المحدقة بهذه الجبال مكسوّة بحقول الشعير والكثير من أشجار الزيتون.

يسكن هذه المدينة عدد وافر من الصنّاع، لاسيما الدبّاغين والسرّاجين والحدّادين، لأن هناك منجمًا للحديد على عمق كبير، ويصنع هؤلاء الحدّادون كثيراً من صفائح الخيل. يُصدّر أهل هذه البلدة جميع الأدوات التي يصنعونها مع بضائعهم إلى البلاد التي لا توجد فيها هذه المصنوعات والبضائع، ويستبدلونها بالعبيد والنيلة وجلود بعض الحيوانات التي تعيش في الصحراء، فيصنعون منها دروعاً جميلة في غاية المناعة. ثم يحملون هذه الأشياء إلى فاس، فيستبدلونها بالأغطية والمنسوجات وغيرها من الأشياء التي يستعملونها.

تبعد مدينة الجمعة كثيراً عن الطريق الرئيسية حتى إن من جاءها من الغرباء، هبّ جميع السكان لرؤيته حتى الأطفال، إذا كان مرتدياً لباساً غير اللباس المعتاد عندهم. ويحكم أهلها مجلس بلدي. وقد بنى هذه المدينة عامة أهل تكوداست على أثر خلاف نشب بين أعيانها، فلم يرد العامة أن ينحازوا إلى أي فريق، غادروا مدينتهم وأتوا يبنون الجمعة تاركين تكوداست للأعيان. وهكذا نجد الآن إحدى المدينتين عامرة بالأعيان فقط، وليس في الأخرى سوى عامة الناس.

بْزُو، مدينةٌ في هَسْكورة

بزو مدينة قديمة مبنية على جبل عال، بعيدة عن المدينة السابقة بنحو عشرين ميلاً إلى جهة الغرب، يجري تحتها وادي العبيد على بعد نحو ثلاثة أميال. وسكان بزو كلهم تجار أمناء حسنو الهندام، يُصدّرون الزيت والجلود والأغطية إلى بلاد السودان. ويُنتج جبلهم كثيراً من الزيت والحبوب ومختلف أنواع الفواكه الطيبة. ومن عادتهم تجفيف عنب ذي لون ومذاق عجيبين، كما يملكون عدداً هائلاً من أشجار التين، وهي أشجار

عظيمة ضخمة، وتبلغ أشجار الجوز حداً متناهياً في الارتفاع لدرجة أن الحدأ تعشش فيها بأمان، لأنه لا يوجد إنسان يجرؤ على أن يتسلق في مثل ذلك الارتفاع. ومنحدر الجبل المؤدّي إلى الوادي محروث تماماً، بينما تمتد الحدائق الغنّاء إلى ضفة النهر.

ذهبتُ إلى بزو في نهاية شهر ماي، حيث كانت فاكهة المشمش والتين ناضجة، وأقمتُ عند إمام المدينة بجوار مسجد في غاية الجمال، تمر بالقرب منه ساقية تخترق سوق المدينة.

جبل آيْتْ وَاوْزْكِيتْ

هذا الجبل (87) يقابل ناحية هسكورة على منحدر الأطلس المتجه إلى الجنوب. سكانه كثيرون، وهم رجال في غاية الشجاعة عندما يحملون السلاح، سواء منهم الراجلون والفرسان. يملكون خيولاً كثيرة قصيرة القامة، وتنبت في جبلهم كمية كبيرة من النيلة والشعير، غير أنه لا ينبت ولو حبة قمح، بحيث لا يقتاتون إلا الشعير، ويُرى فيه الثلج طوال السنة. والأعيان والفرسان في السكان عديدون، ولهم أمير يحكمهم بصفته رئيساً لهم، يأخذ جبايات الجبل ليصرفها في الحروب التي تنشب بين قومه وسكان جبل تنزيتة، ويعمل تحت إمرته نحو عشرة آلاف فارس، بينما يمثّل الأعيان والفرسان مثل هذا العدد بالتقريب، ويعمل تحت إمرته مائة من رماة البنادق المختلفة.

وفي الوقت الذي ذهبتُ إلى هذا البلد كان الرئيس فيه رجلاً في غاية الكرم، يحب قبل كل شيء جميع ما يُقدَّم إليه من هدايا ويكال له من مديح، ولم يكن له نظير في اللطف، إذ يعطي كل ما يملك وينشرح

(87) يدل الموقع على أن المقصود جبل آيت واوزكيت. وقد حرف هذا الاسم في النسخ أو الترجمة إلى تينواوز.

لاستماع اللغة العربية الفصحى ولو أنه لا يفهمها، ويستخفّه الطرب عندما ينشده الشعراء ما نظموه في مدحه، ولما أرسل ملك فاس عمي سفيراً إلى ملك تنبكتو(88) أخذني معه ووصلنا إلى ناحية درعة التي تبعد عن مقر هذا الرئيس بنحو مائة ميل، فبلغه صيت عمي الذي كان في الواقع خطيباً مصقعاً وشاعراً ظريفاً. أرسل ذلك الرئيس خطاباً إلى حاكم درعة يرجو منه أن يبعث إليه بعمي لرغبته في رؤيته والتعرّف عليه، فاعتذر عمي قائلاً إنه لا يمكن لرسول ملك أن يذهب لزيارة الرؤساء الموجودين خارج طريقه ويؤخّر خدمة الملك، إلا أنه تفادياً للظهور بمظهر الكبرياء سيبعث إليه بابن أخيه يسلّم عليه، وأرسلني ببعض الهدايا اللطيفة المشتملة على ركابين مزخرفين بنقوش مغربية قيمتها خمسة وعشرون مثقالاً، ومهمازين مزخرفين كذلك قيمتها خمسة عشر مثقالاً، ونطاقين من الحرير مفتولين بخيوط ذهبية أحدهما بنفسجي والآخر لازوردي، وكتاب في غاية الجمال جديد الجلد عن حياة صلحاء افريقيا، وأخيراً قصيدة في مدح هذا الرئيس. توجّهتُ إليه في رفقة فارسين، ودام السفر أربعة أيام نظمتُ خلالها قصيدة أخرى في مدح الرئيس المذكور.

ولما وصلتُ إلى المدينة كان الرئيس يتهيأ للخروج إلى الصيد في موكب فخم، وما كاد يعلم بقدومي حتى أمر بإحضاري إليه فوراً. وبعد أن سلّمتُ عليه وقبّلتُ يده سألني كيف حال عمي، فأجبته بأنه بخير وأنه في خدمة جنابه. أمر لي حينئذ بمنزل أقيمُ فيه، وطلب مني أن أستريح ريثما يعود من الصيد، وقد رجع قبل الوقت المنتظر ليلاً، وأرسل في طلبي للالتحاق بقصره، فتقدّمتُ إليه وقبّلتُ يده مرة أخرى، ثم أطريته كثيراً وقدّمتُ إليه الهدايا التي سُرّ بها غاية السرور على ما ظهر لي، وناولته أخيراً قصيدة عمي التي أمر أحد كتّابه بقراءتها. وبينما كان هذا الكاتب يشرح له

(88) هو بلا شك الأسكيا محمد الكبير رأس أسرة الأسكيين ملوك سنغاي، وقد حكم بلاد السودان قرابة نصف قرن (898 - 934 هـ/ 1493 - 1528).

محتوى القصيدة نقطة نقطة، أخذت تظهر على وجهه أَمارات الغبـطة والارتياح. ولما انتهت القراءة والترجمة جلس الرئيس لتنـاول الطعـام وأجلسني على مقربة منه، وكان هذا الطعام متركّباً من لحم الغنم شواء وطبيخاً ملفوفاً في مرقّقات من العجين المتناهي في الدقة تشبه شريطيات (لازانيا) قليلاً إلا أنها أمتن منها وعجينها أغلظ. ثم أحضروا الكسكسو والفتات وألواناً أخرى من الأطعمة لم أعد أتذكّرها الآن.

ولما انتهينا من الأكل قمتُ وقلت: مولاي! لقد بعث عمي إلى جنابكم بهدية صغيرة هي جهد فقيه فقير، ليعبّر لكم عن حسن نيّته وتحتفظوا له بحيّز صغير في ذاكرتكم. أما أنا ابن أخيه وتلميذه فإني لما كنت لا أملك وسيلة أخرى للتعبير عن ولائي لكم، سوف لا أهدي لكم غير كلمات، ومهما كانت ضآلتي في الـواقع فإنني أرغب في أن أُعدّ من خدّام جنابكم. وبعد ذلك أخذت أنشد قصيدتي. والرئيس أثناء ذلك يطلب تارة أن يُشرح له ماندّ عن فهمه، وينظر أخرى إلي أنا الذي لم أكن آنذاك سوى غلام ابن ست عشرة سنة(88م) ولما انتهيت من الإنشاد ودّعني لأنه كان متعباً بالصيد، وساعة النوم قد حانت. وفي صباح الغد الباكـر استدعاني لتناول الفطور معه، وبعد الأكل أعطاني مائة مثقال أُقدّمها لعمي وغلامين يخدمانه أثناء سفره، وأهدى إلي شخصياً خمسين مثقالاً وفرَساً، وأعطى كُلاً من الرجلين اللذين يرافقاني عشرة مثاقيل. وكلّفني أن أقول لعمي إن هذه الهدايا القليلة إنما هي لشكره على قصيدته، وليست في مقابل الهدايا التي تسلّمها منه، لأنه يؤجّل التعبير له عن امتنانه العظيم إلى ما بعد رجوعه من تنبكتو. وأمر أحد كتّابه أن يدلّني على الطريق، ثم صافحني وأذن لي بالانصراف في نفس ذلك الصباح، إذ كان عليه أن يشنّ غارة على أحد خصومه. فودّعت مضيفي حاملاً أطيب ذكرى عنه وعدتُ

(88م) في الترجمة الفرنسية لطمبورال (طبعة ليون، سنة 1566، ص 99): لم تكن سنه تتجاوز السابعة عشرة.

إلى عمي. وقد أبيت إلا أن أروي هذه القصة لأبرهن لكم على أنه يوجد بإفريقيا كذلك نبلاء ورؤساء في غاية اللطف مثل رئيس هذا الجبل.

جبل تَنْزِيتَة

تنزيتة[89] من جبال الأطلس، يبتدىء غرباً عند نهاية الجبل السابق ويمتد شرقاً إلى جبل دادس. وهو جبل يعجّ بالسكان ويشتمل على خمسين قصراً كلها مسوّرة بالصلصال والآجر النيء، ولا ينزل فيه المطر إلا نادراً لموقعه في الجنوب. وجميع هذه القصور مبنية على طول نهر درعة، لكنها تبعد عنه بمسافات متفاوتة، بعضها على بعد أربعة أميال وبعضها على ثلاثة.

ويحكم هذه الناحية رئيس كبير يعمل تحت إمرته نحو خمسمائة وألف فارس ومثلهم عدداً من الراجلين، كالرئيس الذي ذكرناه آنفاً[90]. وبين هذين الرئيسين قرابة رحم، إلا أنهما عدوّان لدودان متحاربان على الدوام. وينبت النخيل في معظم هذا الجبل، وسكانه فلاحون أو تجار، كما ينبت فيه الشعير بكثرة كاثرة، لكن نقص القمح واللحم عندهم عظيم لقلة الماشية. ويجبي الرئيس من جبله عشرين ألف مثقال ذهباً؛ غير أن مثقال هذه الناحية لا يزن غير ثلثي (الدوكا) الإيطالية، أي اثني عشر قيراطاً[91].

هذا الرئيس صديق حميم لملك فاس يبعث إليه دائماً بهدايا عظيمة، كما أن ملك فاس يكافئه على مجاملته ويرسل إليه خيلاً بسروج فخمة

---

(89) تانزيتة الحالية مقاطعة صغيرة شمال زاكورة.

(90) هو رئيس جبل آيت واوزكيت.

(91) يزن القيراط 0,1962 كرام، فيكون وزن مثقال أو دينار جبل تانزيتة هو: 0,1962 × 12 = 2,35 كرام بالتقريب.

وأغطية قرمزية وثياباً حريرية وخيمة جميلة. وإني لأتذكر أن هذا الرئيس أرسل (مرة) إلى ملك فاس هدية سنية مشتملة على خمسين عبداً أسود، وخمسين أمة كذلك، وعشرة خصيان، واثني عشر من جمال الركوب، وزرافة وعشر نعامات وستة عشر من سنانير الزباد (قطاط الغالية) ورطل من المسك الخالص، وآخر من الزباد (الغالية) ورطل ثالث من العنبر الأشهب، ونحو ستمائة جلد حيوان يدعى اللمط (المها) تُصنع منه دروع خفيفة جداً، قيمة كل جلد منها بفاس ثمانية مثاقيل. وتُقدّر قيمة العبيد السود بعشرين مثقالاً للرأس، والإماء بخمسة عشر مثقالاً للواحدة، والخصيان بأربعين مثقالاً للواحد. وتبلغ قيمة الجمال في بلاد هذا الرئيس خمسين مثقالاً للجمل، وسنانير الزباد مائتي مثقال للسنور، والمسك والزباد والعنبر الأشهب ستين مثقالاً للرطل من كل واحد منها. وكان في هذه الهدية أشياء أخرى لم أُسجّل عددها، كالتمور السكرية وبعض توابل أتيوبيا.

كنت حاضراً عندما حُملت هذه الهدايا الفخمة، وكان الذي قدّمها له زنجياً قصيراً غليظاً، بربري اللسان والعادات فعلاً، حاملاً رسالة من سيده خاطها في إحدى ثنايا ردائه، وطلب من الملك أن يحلّ الخياطة بنفسه ليبرهن عن الاحترام الذي يكنّه لسيده، لأنه لم يرد أن يضع يده على رسالة أقسم ألاّ يمسّها. ضحك الملك كثيراً من سلوك هذا الرجل، وحلّ أحد كتّابه خياطة الثنية التي فيها الرسالة، وكانت محررة بأسلوب معقّد غامض على طريقة الخطباء القدماء، وزاد في الطين بلة الكلمة التي ألقاها السفير الزنجي بصوت جهوري، فلم يتمالك الملك والحاضرون من الضحك، لكنهم ستروا وجوههم بأيديهم أو بأطراف ثيابهم. ومع ذلك أمر الملك بأن يُكرم هذا الرسول غاية الإكرام خلال الأيام القليلة التي قضاها عنده، وأنزله عند إمام الجامع الكبير وأجرى النفقة عليه وعلى الأربعة والعشرين شخصاً من أصحابه وغلمانه، إلى أن أعاده إلى بلاده.

جبل غُجْدَامَة

غجدامة جبل متاخم للجبل المتقدم، لكنه غير مسكون إلا في منحدره الشمالي، أما المنحدر المطلّ على الجنوب فخال تماماً. وسبب ذلك أن ملك مراكش ابرهيم، هزمه تلميذ المهدي(92) أشنع هزيمة وفرّ إلى هذا الجبل، فرقّ السكان له وأرادوا أن يعينوه، لكن الحظ خانهم وصبّ تلميذ المهدي جام غضبه عليه فأحرق البيوت والقرى، وقتل بعض الناس وطرد الآخرين من الجبل.

يُقيم بالقسم المسكون من الجبل قوم من أرذل الناس يرتدون جميعاً الأسمال ويتجرون في الزيت، ومن هذه التجارة يعيشون. ولا ينبت هناك شيء غير الشعير وشجر الزيتون. ويملك هؤلاء القوم كثيراً من الماعز والبغال المتناهية في القصر، لأن الخيول قصيرة القامة جداً. وتحمي طبيعة الجبل حرية هؤلاء السكان.

تِسَاوِينْ

تتكوّن تساوين من جبلين أحدهما بجوار الآخر، يبتدئان من تخوم الجبل السابق غرباً، وينتهيان عند جبل تكوداست. يسكنهما قوم فقراء جداً، لأنه لا ينبت هناك غير الشعير والدخن. وينبع في هذين الجبلين نهر يجري في سهل بديع، لكن أهل البلاد لا يستطيعون أن يعملوا شيئاً في هذا السهل لأنه في قبضة الأعراب. وقد آن الأوان للحديث عن تادلا.

---

(92) يقصد ابراهيم بن تاشفين بن علي بن يوسف بن تاشفين المرابطي، وعبد المؤمن بن علي الموحدي تلميذ محمد بن تومرت. والإشارة إلى الحروب التي وقعت في نهاية دولة المرابطين وانتهت بزوال ملكهم عام 540/1145م.

ناحيةُ تَادْلا

تادلا إقليم غير شاسع، يبتدىء من نهر العبيد وينتهي عند نهر أم الربيع عند منبعه، كما ينتهي جنوباً بين جبال الأطلس، وشمالاً في المكان الذي يلتقي فيه وادي العبيد ونهر أم الربيع. وتمثّل هذه الناحية تقريباً شكل مثلث، لأن النهرين اللذين ينبعان من الأطلس يجريان نحـو الشمال ويقترب أحدهما من الآخر إلى أن يلتقيا(93).

تَفْزة، حاضرةُ تادلا

تفزة هي حاضرة تادلا، بناها الأفارقة في منحدر الأطلس على بعد نحو خمسة أميال من السهل، ولها سور مبني بنوع من الحجر الكلسي المدعو عند أهل البلدة بتفزة، ومن ثم جاءت تسمية المدينة.

سكانِ تفزة كثيرون أثرياء، وفيها نحو مائتي دار لليهود، كلهـم تجار أو صنّاع، يَقْصد تفزة عدد وافر من التجّار الغرباء ليشتروا منها بعض المعاطف السود التي تنسج قطعة واحدة بغطاء الرأس، ويسمى هذا اللباس

(93) الواقع أن أم الربيع يجري من الشمال إلى الجنوب الغربي، ووادي العبيد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الغربي. وتدل الأماكن التي سيتحدث عنها المؤلف هنا أنه كان يدخل في تادلا الكتلة الجبلية غرب دادس العليا، وكتلة مكونة أيضاً التي يجاوز ارتفاعها 4000 متر، والتي يسكن الأمكرانيون في سفوحها الجبلية.

البرنس، يباع عدد منه في إيطاليا وإسبانيا حيث يوجد بكثرة. ويباع بتفزة على الخصوص أدوات مصنوعة بفاس، كالأقمشة والسكاكين والسيوف والسروج والشكائم (اللجم) والقلنسوات والابر وأدوات الخياطة. فإذا أراد التجار بيع هذه الأشياء عن طريق المبادلة سَهُل عليهم ذلك، لأن لأهل البلاد بضائع محلية مختلفة، كالرقيق والخيل والبرانس والنيلة والجلد والقرطبي إلخ، وإذا أرادوا بيعها نقداً كان عليهم أن يخفّضوا الثمن كثيراً وتؤدّى لهم القيمة حينئذ ذهباً بقطع شبيهة بالمثاقيل لكنها غير مسكوكة. ولا تروج نقود الفضة في هذه الناحية.

يرتدي رجال تفزة لباساً حسناً، وكذلك نساؤهم، وهن جميعاً ظريفات. وفي المدينة عدد وافر من المساجد والأئمة والقضاة.

وكانت تفزة في القديم تُحكم على شكل جمهورية، وبعد ذلك حدثت فيها خلافات وانقسامات، وراح الناس يقتتلون فيما بينهم حتى إنه في أيام شبابي قَدِم رؤساء فريق منهم إلى فاس وطلبوا من الملك التفضّل بمساعدتهم على العودة إلى مدينتهم، وفي مقابل ذلك تكفّلوا له بالعمل على نشر نفوذه هنالك. اهتبل الملك تلك الفرصة وأصحبهم ألفي فارس خفيف وسبعمائة من رماة البنادق المختلفة، كلهم راكبون على الخيل. وكتب فضلاً عن ذلك إلى أعراب من رعاياه يقالٍ لهم زعير[94] يستطيعون تهييء نحو أربعة آلاف فارس، يأمرهم بمساندة رؤساء هذا الفريق متى احتاجوا إليهم. وعين الملك لهذه الحملة فارساً مغواراً يدعى الزرانكي.

بعد أن حشد هذا القائد جيشه أخذ يهاجم تفزة، لأنه وجد الفريق المعادي قد تحصّن في المدينة، واستغاث بجيرانه من أعراب بني جابر، وهم نحو خمسة آلاف فارس. ولما رأى القائد ذلك، ترك في الحال حصار المدينة

(94) هكذا في الأصل بالهاء: زهير، ولعل الصواب زعير لأنهم القبيلة القوية الشهيرة بالقرب من بلاد تادلا.

وأخذ يحارب الأعراب، فهزمهم جميعاً بعد ثلاثة أيام وبقي سيد المعركة. وحينما رأى أهل تفزة ألّا أمل لهم في مساعدة خارجية بادروا بإرسال مفاوضين لاقتراح السلم، ووعدوا بأن يعوّضوا الملك مصاريف الحملة ويؤدّوا له زيادة على ذلك عشرة آلاف مثقال كل سنة، وقبلوا أن يعود الفريق الذي غادر المدينة إليها شريطة ألّا يتدخّلوا في أي نشاط إداري أو أية مصلحة.

أعلم القائد من كانوا معه في الخارج بفحوى المفاوضات فأجابوه: «نحن نعرف يا سيدي قيمة الفرصة التي أتيحت لنا، أَدْخِلنا إلى المدينة ونحن نتعهّد لك بدفع مائة ألف مثقال على الفور، وحتى أكثر من ذلك. وسوف لا نرتكب أي تعسّف ولا ننهب أي منزل، وإنما سنلزم خصومنا بأداء مداخيل ممتلكاتنا التي استغلّوها خلال ثلاث سنوات، والتي نريد أن ندفعها لك تعويضاً عن كل النفقات التي بذلت لصالحنا. وتبلغ هذه المداخيل ثلاثين ألف أوقية على الأقل. ثم اننا سنمكّنك من محصول المدينة الذي يبلغ نحو عشرين ألف مثقال. وبعد ذلك نستخلص من اليهود جزية سنة أو سنتين إلى حدود عشرة آلاف مثقال».

ما كاد القائد يسمع هذه المقترحات حتى أرسل إلى أهل المدينة يقول لهم:

«لقد وعد الملك النبلاء المنفيين بأن يساعدهم بكل ما يمكن، لذلك فهو يفضل أن يكون حكم المدينة بأيديهم لا بأيديكم على أي حال. غير أنني أعلمكم أنكم إذا أردتم تسليم مدينتكم إلى الملك فلن يلحقكم أي أذى، وإذا تشبثتم بعنادكم فإن لدي بعون الله ورعاية الملك من الوسائل ما يكفي لإرغامكم على أداء كل ما يجب أداؤه».

لما أعلن هذا الخبر حدث شقاق في صفوف السكان، منهم من أراد الخضوع للملك، ومنهم من أراد الحرب، حتى إنهم شهروا السلاح ليقاتل بعضهم بعضاً. جاء الجواسيس إلى القائد يخبرونه بما حدث، فعبأ على

الفور نصف جيشه وأمر رماة البنادق المختلفة بمهاجمة المدينة، ودخلها بعد ثلاث ساعات دون إراقة قطرة دم من رجاله. ذلك أن الجماعة التي اختارت الخضوع للملك تجمعت وقصدت أحد أبواب المدينة الذي كان مسدوداً بجدار من الطين، وأخذت تحطمه من الداخل في حين كان القائد يفعل مثل ذلك من الخارج، لأنه لم يكن أحد فوق الأسوار يمنعهم من ذلك، ولأن الناس في داخل المدينة كانوا يواصلون القتال إلى أن فتح الباب. ولما دخل القائد إلى المدينة رفع راية الملك على السور وفي وسط الساحة، وأرسل فرسانه يقومون بدورية حول المدينة ليمنعوا من أراد الفرار منها، ونشر في الحين قراراً باسم ملك فاس يمنع تحت طائلة الاعدام أي واحد مهما كان مدنياً أو عسكرياً من ارتكاب أية عملية نهب أو قتل، فعاد الهدوء فوراً إلى المدينة، وسقط جميع رؤساء الفريق المعادي في الأسر. أخبر القائد هؤلاء الرؤساء أنهم سيبقون في الأسر إلى أن يتم تعويض الملك عن جميع ما أنفقه طوال شهر على هذه الفرقة من الفرسان، وتبلغ النفقة اثني عشر ألف مثقال. دفع نساء الأسرى وأقاربهم هذا المبلغ وكاد يطلق سراحهم، فإذا رجال الفريق الموالي للملك يأتون للمطالبة بتعويضهم عن مداخيل أملاكهم مدة ثلاث سنوات. أجابهم القائد أنه لا دخل له في هذه المسألة، وأن عليهم أن يعرضوا خلافهم على الفقهاء ليثبتوا حقهم، غير أنه من الممكن أن يحتفظ بخصومهم في السجن تلك الليلة. وقال الأسرى للقائد هل تخلف وعدك يا سيدي؟ فقد وعدتنا أن تطلق سراحنا بعد أن نعوض الملك! فأجابهم القائد: اني لا أخلف وعدي، فلست أحتفظ بكم الآن في السجن لحساب الملك، ولكن لحساب من يطالبونكم بأموالهم، وستتصرف حسب مايقضي به القضاة والفقهاء، وربما كان ذلك في صالحكم.

اجتمع في صبيحة اليوم التالي مجلس الفقهاء والقضاة بمحضر القائد، وتناول المدافعون عن السجناء الكلام فقالوا: أيها السادة، لقد احتفظ أقرباؤنا بأموال خصومهم حقاً، لكن ذلك وقع بسبب أن أجداد هؤلاء

الخصوم احتفظوا بأموال أجداد سجنائنا مدة تزيد على عشرين سنة. فأجاب ممثل الفريق الخصم: أيها السادة! لقد مر أكثر من مائة وخمسين سنة على الأحداث التي أشاروا إليها، ولم تبق في شأنها شهادة ولا بينة، وعقب على ذلك ممثل السجناء بقوله: الحجة ممكنة أيها السادة، لأن القضية معلومة لكافة الناس. فأجاب الآخر: لا يمكن اعتبار الشهرة العامة حجة، فمن يعرف مدة الزمن الذي احتفظ فيه أجداد الذين أمثلهم بالأموال المذكورة؟ وربما كان لذلك التصرف ما يبرره، إذ يقال ويشتهر أيضاً أن أجداد السجناء ثاروا ضد ملك فاس، وأن تلك الأموال كانت تخص الخزينة الملكية.

تظاهر القائد حينئذ بالشفقة على السجناء خدعة وقال لوكيل خصومهم: لا ترهقوا هؤلاء السجناء المساكين! فأجابه: قد يبدو لكم أنهم مساكين يا سيدي القائد، ولكن لا يوجد من بين هؤلاء المساكين من لا يستطيع أن يجد خمسين ألف مثقال. وعندما تزاح عنهم الأغلال سترونهم يطاردونكم. لقد أخذتموهم على حين غرة، لذلك لم تجدوا عندهم نقوداً. ولما سمع القائد هذا الكلام أخذه الجزع فجأة وفض المجلس متظاهراً بالرغبة في تناول وجبة الغداء، وأمر باحضار السجناء أمامه وقال لهم: أريد أن ترضوا خصومكم، والا أرسلتكم إلى فاس حيث ستلزمون بأداء ضعف ذلك. عند ذلك أرسل الأسرى في طلب نسائهم وأمهاتهم وقالوا لهن: حاولن أن تتخلصن من هذه الورطة، فقد زعموا أننا في غاية الغنى وليس لنا ثمن ما أخبروا به القائد. وهكذا لم تمض ثمانية أيام حتى حمل لخصوم الأسرى بمحضر القائد ثمانية وعشرون ألف مثقال على شكل خواتم وأساور وغيرها من حلي النساء، لأن النساء أردن أن يظهرن خدعة أنهن لا يملكن غير ذلك. ولما تم الأداء قال القائد للسجناء: «أيها النبلاء، لقد كتبت إلى الملك في هذه المسألة وآسف لأني كتبت، إذ لا أستطيع اطلاق سراحكم قبل أن يأتيني جوابه، وسوف تحررون على أي حال لأنكم سددتم ما وجب عليكم للجميع. فاصبروا اذن على ما أصابكم».

استدعى القائد مستشاريه تلك الليلة وقال لهم: كيف يمكننا أن نستخلص مالاً آخر من هؤلاء الخونة دون أن يتهمنا السكان بالخداع واخلاف الوعد؟ فدبر كاتب هذه السطور مكيدة وقال: سيدي القائد! تظاهر غداة غد بأنك تلقيت رسالة من الملك يأمرك بقطع رؤوس هؤلاء القوم، وتظاهر في نفس الوقت بالشفقة عليهم، وعدم الرغبة في ارتكاب حماقة قتلهم، وقل بأنه يبدو لك من الأفضل والحالة هذه أن ترسلهم إلى فاس!

وكتبنا في الصباح رسالة زعمنا أنها بخط الملك، وأمر القائد باحضار جميع السجناء، وعددهم اثنان وأربعون رجلاً، وقال لهم مبدياً تأثـراً عميقاً: أيها السادة النبلاء! وصلني خطاب الملك حاملاً خبراً سيئاً. أرى أن جنابه لا يعرف حقيقة ما قمتم به ويعتبركم ثواراً ضد التاج، وهذا هو السبب الذي من أجله أمرني بأن أضرب أعناقكم. واني لآسف على ذلك، لأن الجميع سيظن أنني أخلفت وعدي، لكنني لست سوى خادم ولا يسعني إلا أن أمتثل لما أمرت به. أخذ البؤساء يبكون ويطلبون العفو من القائد، فتظاهر هو أيضاً بالبكاء وقال لهم: «لا أرى أفضل لكم ولي لأتخلص من جميع المسؤوليات المتعلقة بأعمالكم من ارسالكم إلى فاس، فقد يعفو عنكم الملك أو يرى رأيه فيكم وسأرسلكم بعد حين مع مائة فارس».

زاد حينئذ انتحاب الأسرى وتضرعهم إلى الله والقائد. وإذاك تقدم شخص ثالث إلى القائد وقال له: «مولاي، ان صاحب الجلالة الملك أوفدك هنا نيابة عنه بحيث يمكنك القيام بما تراه أنسب فتريث قليلاً لترى ما هي امكانيات هؤلاء النبلاء، وهل يستطيعون أن يدفعوا شيئاً من المال لإنقاذ أرواحهم، ثم أخبر الملك بأنك وعدتهم ألا تقتص منهم، وتوسل إلى جلالته أن يعفو عنهم كرامة لمنزلتك عنده، فربما مال الملك لصالح المال».

أخذ السجناء التعساء يتوسلون إلى القائد أن يعمل بهذه النصيحة،

ويقولون انهم سيدفعون عن طيب خاطر إلى الملك ما يشاء، ويزيدون على ذلك هدايا عظيمة للقائد. تظاهر هذا الأخير بأنه قبل ذلك عن كره، ثم فاجأهم بقوله: ماذا يمكنكم أن تدفعوا إلى الملك؟ فقال أحدهم: ألف مثقال، وقال آخر: خمسمائة، وثالث: ثمانمائة. فأجاب القائد بأنه لا يريد أن يكتب إلى الملك بمثل هذه المبالغ الضئيلة، ومن الأفضل أن تذهبوا إلى فاس فربما قبل الملك اقتراحاتكم! تضرعوا إلى القائد وما زالوا يستعطفونه إلى أن قال لهم: أنتم اثنان وأربعون نبيلاً في غاية الثروة، فإذا قبلتم أن تؤدوا ألفي مثقال عن كل فرد كتبت بذلك إلى الملك ورجوت خلاصكم، وإلا أرسلتكم إلى فاس! قبل السجناء عن طيب خاطر أن يجمعوا المبلغ كاملاً شريطة أن يشارك كل واحد بحسب مقدرته، فأجابهم القائد: «افعلوا ما شئتم» وطلبوا مهلة خمسة عشر يوماً، وتظاهر القائد بالكتابة إلى الملك من جديد. وبعد مرور اثني عشر يوماً صرح القائد بأن الملك عطف عليه وقبل الصفح عنهم وأطلعهم على خطاب مزور. وفي الأيام الثلاثة التالية حمل أهل السجناء المبلغ ذهباً، وقدره أربعة وثمانون ألف مثقال، فأمر القائد بوزن هذا الذهب وعجب كثيراً من وجود مثل ذلك العدد في مدينة صغيرة كهذه عند اثنين وأربعين شخصاً. وأطلق سراح السجناء في الحال، وكتب إلى الملك بتفاصيل كل ما جرى طالباً منه أن يأمره بما عليه أن يفعل.

بعث الملك في الحين اثنين من كتابه مع مائة فارس لاستلام هذا المبلغ، فحازاه ورجعا تواً إلى فاس. وبعد ذلك قدم النبلاء المذكورون إلى القائد هدية قدرها نحو ألفي مثقال خيلاً وعبيداً ومسكاً معتذرين بأنهم لم يبق لديهم مال نقداً، شاكرين اياه جزيل الشكر على أن أنقذ حياتهم. وهكذا بقيت هذه الناحية خاضعة لملك فاس، تحت حكم القائد الزرانكي الذي سيقتله الأعراب بعد ذلك غدراً، ويحصل ملك فاس من هذه الناحية على خراج سنوي يبلغ عشرين ألف مثقال.

لقد أسهبت قليلاً في هذه القصة الطويلة لأنها وقعت بمحضري وشاركت فيها، ولأنني ربحت فيها أيضاً دريهمات بما دبرت من حيلة، ورأيت فيها لأول مرة مثل ذلك المبلغ من الذهب. وأعلم أن ملك فاس لم يرقط مثل هذا المبلغ، لأن هذا الملك المسكين الذي يجبى إليه كل عام نحو ثلاثمائة ألف مثقال لم تتوفر لديه قط في الخزينة مائة ألف ولا كانت أيضاً لأبيه. وترون من خلال هذه الحكاية أية خدعة وأية مناورة يلجأون إليها لابتزاز الأموال، وكان هذا الحادث عام 915. وأغرب من هذا حالة شخص آخر يهودي أدى وحده من المال أكثر مما أداه النبلاء مجتمعين، لأنه أعلن عن استغراق ذمته. وكان ذلك سبباً في الحكم على اليهودي شرعاً بغرامة تبلغ خمسين ألف مثقال لأنهم حابوا الفريق المناوىء للملك. وكنت مع الأمين المنتدب حينما استلم هذه الغرامة.

أفزَا، مدينةٌ في تَادْلاَ

أفزا[95] مدينة صغيرة على بعد نحو ميلين من تفزا، تشتمل على قرابة خمسمائة كانون، وقد بنيت على تل في سفح الأطلس. يسكنها عدد كثير من المسلمين واليهود، وتصنع فيها البرانس بكثرة، وأهلها جميعاً تجار أو فلاحون يحكمهم أهل تفزة. نساء هذه البلدة ماهرات جداً في خدمة الصوف: يصنعن منه البرانس والأكسية الفاخرة، فيكسبن هكذا من المال أكثر مما يكسبه الرجال. يمر بين أفزا وتفزا نهر يدعى درنة، ينبع من الأطلس ويمر بين تلال قبل أن يسيل في السهل إلى أن يصب في نهر أم الربيع. ويوجد في هذه التلال على ضفة النهر حدائق في غاية الجمال مليئة بجميع أنواع الأشجار المثمرة التي تشتهيها الأنفس. وأصحاب هذه الحدائق في غاية الكرم والظرف، بحيث يدخل كل تاجر غريب إلى حدائقهم فيأكل من ثمارها ما يشاء.

---

(95) يدعو مارمول هذه المدينة (تبزة)، ويقول انها في عصره (1543) عانت كثيراً من ويلات الحرب، ويفترض وجودها في موقع تغزيت عند خروج نهر درنة إلى السهل.

يبطىء أهل أفزة كثيراً في انجاز ما يعدون بتقديمه من بضاعة، وهكذا تعود التجار أن يؤدوا ثمن البرانس المطلوبة مسبقاً، على أن يتوصلوا بها بعد ثلاثة أشهر، لكن عليهم أن ينتظروها سنة.

ذهبت إلى هذه المدينة في الوقت الذي جاء جيش ملكنا إلى تادلا فخضعت له في الحين. وفي المرة الثانية التي جاء إليها القائد، أهدوا إليه خمسة عشر فرساً وخمسة عشر عبداً، كل عبد يمسك بزمام حصان، كما أهدوا إليه مائتي رأس من الغنم وخمس عشرة بقرة، فاعتبر القائد أهل أفزة مخلصين للملك.

آيْتْ عْتَابْ، مدينةٌ في تَادْلاَ

آيت عتاب مدينة أسسها الأفارقة في منحدر جبل شاهق على بعد عشرة أميال غربي المدينة السابقة(96)، وهي كثيرة السكان، عامرة بالنبلاء والفرسان. ولما كانت تصنع بها كمية عظيمة من البرانس فإن التجار الغرباء يكثرون فيها على الدوام. يرى الثلج باستمرار في قمة الجبل المشرف على المدينة، وجميع الشعاب المجاورة مليئة بالكروم والبساتين الجميلة، ولا يباع أي ثمر لكثرة ما هنالك من ثمار. والنساء شديدات البياض والسمن والظرف، متحليات بحلي الفضة، سود العيون والشعر. والسكان ذوو نخوة فائقة، لم يخضعوا قط لملك فاس لما استولى على تادلا ولم يدينوا له بالطاعة، وإنما انتخبوا نبيلاً منهم قائداً لهم، وبعد أن جهزوا ألف فارس تجرأوا على الوقوف في وجه قائد الملك الزرانكي وحاربوه بعنف إلى أن كاد عدة مرات يفقد كل ما حصل عليه، فأرسل الملك أخاه على رأس جيش لمساعدة قائده لكن دون جدوى. واستمرت الحرب ثلاثة أعوام إلى أن سم يهودي رئيس الثوار بايعاز من الملك، فاستسلمت المدينة حينئذ عام 921.

(96) الصواب: أنها على بعد 40 ميلاً من مدينة أفزا، في الجنوب الغربي منها.

آيْتْ عِيَاضْ، مدينةٌ بنفس الاقليم

آيت عياض(97) مدينة واقعة على جبل صغير في الأطلس من تأسيس الأفارقة، فيها نحو ثلثمائة كانون. وهي مسورة من ناحية واحدة هي التي تتجه إلى الجبل، وليس لها سور من الجهة التي تشرف على السهل، لأن الصخور كافية لحمايتها. وتبعد عن المدينة السابقة بنحو اثني عشر ميلاً. وفي داخل المدينة مسجد صغير لكنه في غاية الجمال، حفرت حوله قناة تشبه ساقية ماء. يسكن هذه المدينة نبلاء وفرسان، ويرى فيها أيضاً عدد كثير من التجار الغرباء والقاطنين، وكذلك من اليهود الذين يشتغل بعضهم بالتجارة وبعضهم بالصناعة. وتنبع في المدينة عدة عيون تجتمع مياهها لتكون جدولاً يسيل تحتها، وتقوم على ضفتيه بساتين عديدة للخضر والفواكه تنتج أصنافاً جيدة من العنب والتين، وفيها كذلك أشجار جوز باسقة، بينما تمثل حدور الجبل أرضاً مغروسة بأجمل أشجار الزيتون.

نساء هذه المدينة لطيفات أكثر منهن جميلات، يلبسن لباساً أنيقاً ويتزين برشاقة بحلى الفضة خواتم وأساور وغيرها من أنواع الزينة.

أرض السهل خصبة كذلك تنتج كل أصناف الحبوب، وأرض الجبل جيدة لإنبات الشعير ورعي الماعز. وكانت مدينة آيت عياض في أيامنا هذه ملجأ للثائر رحمون بن كيحزان إلى أن مات. وذهبت إليها عام 921 فأقمت بمنزل إمام المدينة.

---

(97) يوجد اليوم فعلاً سوق الخميس لأولاد عياض على بعد نحو عشرين كيلوميتراً شمال غربي آيت عتاب.
انظر ما علاقة القاضي عياض المؤلف الشهير بأولاد عياض هؤلاء، فقد ولي القضاء فعلاً بمدينة داي الواقعة في موقع مدينة بني ملال الحالية بتادلا!

سْكِيمْ، جبلٌ بنفس الإقليم

جبل سكيم، ولو أنه ينظر إلى الجنوب، يعتبر مع ذلك من جبال تادلا، يبتدىء غرباً من تخوم جبل تساون ويمتد شرقاً إلى جبل مغران حيث ينبع نهر أم الربيع(98)، ويتاخم جنوباً جبال دادس. سكان هذا الجبل فرع من شعب زناكة خفيفو الحركات أقوياء أبطال في الحرب، سلاحهم حراب صغيرة وسيوف مقوسة وخناجر، ويستخدمون أيضاً الحجارة فيقذفونها بحذق كبير وقوة عظيمة. وهم في حرب دائمة مع أهل تادلا، بحيث إن تجار الناحية لا يستطيعون قطع الجبل بدون اذن مرور وأداء مبالغ باهظة. والأماكن المسكونة فقيرة وبعيدة بعضها عن بعض حتى إنك قلما تجد ثلاثة بيوت أو أربعة مجتمعة. يملك الأهالي العدد العديد من الماعز والبغال القصيرة في حجم الحمير. تذهب هذه الحيوانات لترعى في غابات الجبل، لكن الأسد تفترس بعضها وتبتر أعضاء الكثير منها. ولا يخضع أهل هذه البلاد لأي رئيس، لأن جبلهم في غاية الصعوبة والوعورة بحيث أصبح منيعاً لا يرقى إليه أحد. وفي أيامنا هذه أراد القائد الذي فتح تادلا أن يشن غارة على هذه البلاد، فعلم أهلها بذلك وكونوا جماعة من الشجعان كمنوا بهدوء قرب صخرة تحاذي مسلكاً صغيراً كان على العدو أن يمر منه، ولما رأوا أن الفرسان توغلوا كثيراً في منحدر الجبل خرجوا من كل جانب من جوانب مكمنهم وقذفوهم بالحراب والحجارة الضخمة. كانت المعركة قصيرة لأن القائد لم يستطع الصمود أمام الهجوم ولا الفرار إلى الامام أو الخلف، واصطدم الفرسان ببعضهم بطبيعة الحال في هذا الممر الضيِّق، حتى إن الكثير منهم تردَّوا بخيولهم من أعلى الصخرة فاندقت أعناقهم، وقتل آخرون بحيث لم ينج منهم أحد من القتل إلا وقع في الأسر فلقي

(98) يبدو أن الأمر اختلط على المؤلف هنا، فمنبع نهر أم الربيع يقع في الأطلس المتوسط بالقرب من عين اللوح بين خنيفرة وآزرو. وربما قصد الحسن الوزان أحد روافد نهر أم الربيع، وهي كثيرة.

أسوأ مصير، إذ أخذهم المنتصرون مغلولين إلى منازلهم، فمثلت بهم نساؤهم كعلامة على الاذلال الشنيع، وذلك لأن الرجال يترفعون عن قتل الأسرى ويضعونهم بين أيدي النساء.

حقاً ان أهل هذه البلاد لم يجرؤوا على الذهاب إلى تادلا منذ هذا الحادث، لكنهم ليست لهم كبير حاجة بها، لأن جبلهم ينتج كمية كبيرة من الشعير، والماشية كثيرة جداً، وعيون الماء أكثر من الدور عدداً، فلا ينقصهم سوى مواد التجارة العادية.

جبل مَغْرَانْ

يبعد مغران قليلاً عن الجبل السابق الذي ينظر نحو الجنوب إلى بلاد فركلة[99] في تخوم الصحراء، يبتدىء تقريباً عند هذا الجبل غرباً وينتهي في الشرق عند سفوح جبال دادس، ويوجد الثلج دائمًا في قمته. يملك سكانه عدداً وافراً من الماشية بحيث لا يمكنهم الاستقرار في أي مكان، فيتخذون لذلك أكواخاً من لحاء الشجر مثبتة على عصي طويلة رقيقة، وسقوفها من قضبان مقوسة على شكل نصف دائرة، تشبه مقابض السلال التي تعودت النساء في ايطاليا على حملها فوق ظهور البغال عندما يسافرن. وكذلك ينقل هؤلاء الجبليون أكواخهم على البغال، فيذهبون بدوابهم وعائلاتهم تارة هنا وتارة هناك. وحيثما وجدوا العشب أقاموا إلى أن ترعى الدواب كل ذلك النبات. والواقع أنهم يستقرون في جهة ما خلال فصل الشتاء ويبنون شبه اصطبلات منخفضة مغطاة بأغصان الشجر يخبئون فيها حيواناتهم بالليل. ومن عادتهم أن يوقدوا ناراً شديدة لا سيما قرب الزرائب لتدفئة البهائم. وتهب الريح أحياناً فتحمل النار إلى الزرائب فتحرقها، لكن البهائم سرعان ما تخرج منها، لأنهم لا يحيطون الاصطبلات بأي سور

---

(99) بل تدغة.

توقعاً لمثل هذا الحدث. وليس بناء الزرائب في الواقع بـأحسن من بناء الأكواخ التي تحدثنا عنها آنفاً. وتحدث الأسود والذئـاب أضراراً فاحشة. أما عادات هؤلاء الجبليين ولباسهم فإنها لا تختلف عن عادات ولباس الجبليـين السابقين، والفرق الوحيد هو أن هؤلاء القوم يسكنون أخصاصاً، وأولئك يسكنون دوراً مسورة.

وقد مررت بهذه البلاد عام 917 أثناء رجوعي من درعة إلى فاس.

جبل دَادَسْ

دادس هو الآخر شاهق بارد مكسو بالغابات، يبتدىء غرباً عند جبل مغران وينتهي في تخوم جبل أدخسان، كما يتاخم جنوباً سهل تدغة. طول جبل دادس نحو ثمانين ميلاً، وعلى قمته أطلال مدينة قديمة ما زال يظهر آثارها على شكل جدران سميكة مبنية بحجر يحمل بعضه كتابات لا يفهمها أحد. يعتقد السكان أن هذه المدينة من بناء الرومان، لكنني لم أجد في تواريخ افريقيا مؤلفاً يقول ذلك أو يذكر هذه المدينة. غير أن الشريف الصقلي[100]، تحدث في كتابه عن مدينة تدعى تيدسي في تخوم سجلماسة ودرعة، ولكنه لم يذكر أنها بنيت في جبل دادس، ومع ذلك نعتقد أنها هي هذه، إذ لا توجد مدينة غيرها في هذه المنطقة.

سكان هذا الجبل بصراحة لا قيمة لهم، يسكن معظمهم في كهوف رطبة ويقتاتون بالشعير وبالعصيد المصنوع كذلك من دقيق الشعير المطبوخ في الماء المملح، كما قلناه عند حديثنا على حاحا. ولهم عدد غير قليل من الماعز والحمير. وفي الكهوف التي تأوي إليها هذه الدواب كثير من ملح

(100) يقصد الشريف الادريسي مؤلف نزهة المشتاق في اختراق الآفاق. ومعلوم أن الادريسي ألف هذا الكتاب للملك صقلية روجر النورماندي. انظر عن تيدسي درعة وتيدسي سوس كتاب الاستقصا، 5:8 (هامش).

البارود. وأعتقد أنه لو كان هذا الجبل مجاوراً لايطاليا لأغل سنوياً خمسة وعشرين ألف مثقال فأكثر، لكن هؤلاء الدهماء لا يعرفون قيمة ملح البارود. لباسهم رديء لدرجة أن معظم أجسامهم عار، ومنازلهم كريهة منتنة برائحة الماعز القذرة التي تحشر فيها. ولا يوجد بهذا الجبل كله قصر ولا مدينة مسورة، وإنما يتجمع الناس في قرى مكونة من دور مبنية بحجر دون طين ومغطاة بصفائح رقيقة سوداء شبيهة بالصفائح المستعملة في بعض جهات ايطاليا بكونتي أسيز وفبريانو. وباقي السكان يقيمون بالكهوف كما ذكرنا. ولم أر قط مثل ما في هذا الجبل من براغيث!

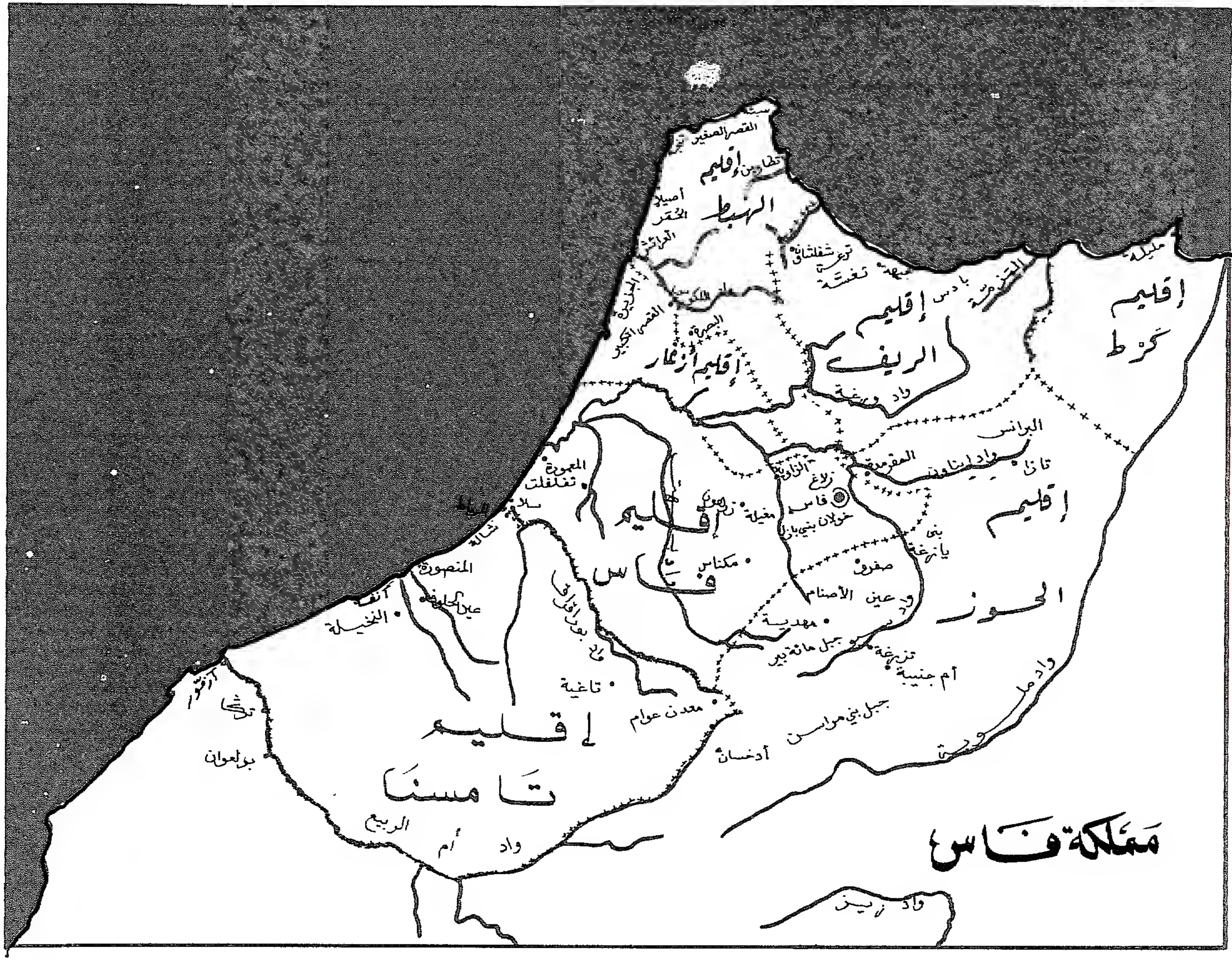
الرجال غادرون متلصصون سفاكون يقتلون الرجل من أجل بصلة، فتنشب بينهم خصومات عنيفة لأدنى سبب. وليس لهم قاض ولا امام ولا من له أية كفاية في أي شيء. والتجار لا يقصدون هذا البلد لأن أهله يعيشون في بطالة، ولا يمارسون أية صناعة، وينهبون المسافرين. وإذا ما جاء بعض التجار معززين بجواز مرور من بعض الرؤساء المحليين يحملون بضاعة تافهة لهؤلاء الجبليين، ألزموهم بأداء ربع ثمن البضاعة كحق للمرور.

والنساء كريهات المنظر كالشياطين، لباسهن أسوأ من لباس الرجال، وحالتهن أقبح من حالة الحمير، لأنهن يحملن على ظهورهن الماء الذي يستقينه من العيون، والحطب الذي يحتطبنه من الغابة دون أن يسترحن ولو ساعة من نهار.

والخلاصة أنني لم أندم على ذهابي إلى أي مكان بافريقيا غير هذا المكان! وقد كنت مضطراً إلى المرور بهذا الجبل للذهاب من مراكش إلى سجلماسة، امتثالاً لما أمرت به وذلك في سنة 918.

القسم الثالث

مملكةُ فَاس


مملكة فاس
إقليم الهبط
إقليم أزغار
إقليم الريف
إقليم كرط
إقليم فاس
إقليم الحوز
إقليم تامسنا
القصر الصغير
تطاوين
أصيلا
العرائش
المعمورة
سلا
الرباط
شالة
المنصورة
أنفا
مكناس
فاس
زلاغ
مغيلة
مهدية
صفروق
عين الأصنام
تازا
البرانس
المقرمدة
بادس
مليلة
تاغية
معدن عوام
جبل بني مراسن
أم جنينة
أدخسان
بولعوان
آزمور
واد أم الربيع
واد زيز
واد ملوية
واد ورغة

توطئة

تبتدىء مملكة فاس من نهر أم الربيع غرباً لتنتهي إلى نهر ملوية شرقاً. وفي الشمال يحد قسم منها بالبحر المحيط وسائرها بـالبحر المتوسط.

تنقسم هذه المملكة إلى سبعة أقاليم، هي تامسنا، ومنطقة فاس، وأزغار، والهبط، والريف، وكـرط، والحوز. وكان لكل اقليم منها في القديم إمارته الخاصة، وحتى اقليم فاس لم يكن في الأول قاعدة حكومة ملكية. وقد أسس مدينة فاس ثائر شيعي[1]، وظلت السلطة في يد أسرته مدة تقرب من مائة وخمسين سنة[2] ولم يظهر اسم مملكة فاس إلا عندما سيطرت أسرة بني مرين واتخذوا من فـاس قاعـدة لملكهم وحصن دفاعهم[3] لأسباب تذكرها تواريخ المسلمين.

وسأصف لكم الآن هذه المملكة اقليماً اقليماً ومدينة مدينة كما عملته فيما أعتقد أنه أقرب إلى الكمال حتى الآن.

---

(1) يشير إلى إدريس بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب الذي فر من العباسيين في وقعة فخ الشهيرة، وجاء إلى المغرب فبايعته قبيلة أوربـة وغيرها بمدينة وليلي في جبل زرهون عام 172 هـ / 788 واختلف المؤرخون في مؤسس مدينة فاس، هل هو ادريس الأول هذا، أم ابنه ادريس الثاني؟ والمشهور أن هذا الأخير هو الذي أسس مدينة فاس عام 192 هـ / 808.

(2) يمكن اعتبار هذا الرقم صحيحاً لأن الفترة الأخيرة في دولة الادارسة كانت مضطربة، يحتلط فيها نفوذهم بنفوذ المتغلبين عليهم من الرؤساء المحليين أنصار الفاطميين أو المروانيين الأندلسيين. ولم تنته دولة الادارسة نهائياً إلا بمقتل الحسن بن كنون عام 985/375، فتكون مدة دولتهم 203 سنة.

(3) كان ذلك عام 1248/646.

مملكة فاس

تَامَسْنَا

تامسنا اقليم تابع لمملكة فاس، يبتدىء غرباً عند أم الربيع وينتهي إلى أبي رقراق شرقاً، والأطلس جنوباً وشواطيء البحر المحيط شمالاً[4]. طول هذا الإقليم من الغرب إلى الشرق ثمانون ميلاً، ومن الأطلس إلى المحيط نحو ستين ميلاً. وهو في الحقيقة زهرة هذه الناحية كلها، كان فيه نحو أربعين مدينة وثلثمائة قصر يسكنها عدد من قبائل البربر. وثار هذا الإقليم عام 323 للهجرة بتحريض داعية مبتدع يدعى حاميم بن من الله[5]، أقنع الشعب بألا يؤدي إلى ملوك فاس خراجاً ولا طاعة لجورهم، ولكونه أيضاً نبياً، بحيث لم يمض وقت قصير حتى أصبحت في يده السلطتان الروحية والزمنية في هذا الإقليم، فقام بحرب ضد هؤلاء الملوك الذين كانوا آنذاك منهمكين في حرب زناتة، واضطروا إلى التفاوض

(4) لا تخلو هذه الحدود من انحرافات، والحدود الحقيقية واضحة على الخريطة.

(5) اختلط الأمر هنا على المؤلف. فحاميم المتنبىء الكذاب ظهر بجبال غمارة قرب تطوان عام 925/313 واستمرت فتنته هناك سنتين إلى أن قتل بقصر مصمودة جوار طنجة عام 927/315.

انظر: **العبر** لابن خلدون 6:428-435؛ **والاستقصا** للناصري 1:175.

أما تامسنا فثارت بها قبائل برغواطة بزعامة المتنبى الكذاب صالح بن طريف عام 743/125.

انظر أيضاً: **العبر**، 6:428-435؛ **والاستقصا**، 2:14-18.

معه على أن يتركوا له التصرف في تامسنا ويحتفظوا هم بملك فاس، وتعهد كل فريق بألا يزعج الآخر. فحكم حاميم خمساً وثلاثين سنة واحتفظ خلفاؤه بأمر الإقليم زهاء مائة سنة. لكن بعد أن أسس الملك يوسف بن تاشفين مع قبيلة لمتونة مدينة مراكش، عمل فوراً على أن يستولي على بلاد تامسنا، فبعث إليها عدداً من العلماء السنيين يعظون أهلها ويحاولون انقاذهم مما هم فيه من زندقة وإرجاعهم إليه دون حرب، فتجمعوا في مدينة آنفا مع أميرهم حفيد الداعية (البرغواطي) المذكور آنفا، وقرروا قتل العلماء الوافدين عليهم ونفذوا قرارهم. وبعد ذلك جندوا جيشاً من خمسين ألف مقاتل عازمين على طرد قبيلة لمتونة من مراكش وناحيتها. ولما علم بذلك يوسف غضب غضباً لم يغضب مثله قط، وجمع جيشاً عظيًما دون أن ينتظر مجيء العدو إلى مراكش، ولم تمض ثلاثة أيام حتى قطع نهر أم الربيع ووصل إلى تامسنا. ولما رأى البرغواطيون هذا الجيش زاحفاً إليهم بذلك القدر من الحماسة، أخذهم الفزع وعدلوا عن القتال، وعبروا نهر أبي رقراق في اتجاه مدينة فاس تاركين إقليمهم. أباح الملك يوسف حينئذ هذا الإقليم وسكانه لجيشه، فأصبح طعمة للنار والدم والنهب وتقتيل للكبار والصغار حتى الأطفال الرضع، وقد خرب هذه البلاد طوال الشهور الثمانية التي قضاها فيها، حتى لم يبق ظاهراً من المدن التي كانت قائمة غير بعض الأطلال. وزيادة على ذلك فإن ملك فاس حين علم بتأهب أهل تامسنا لعبور نهر أبي رقراق والسير إلى جهة فاس، عقد هدنة مع الزناتيين وقصد النهر على رأس جيش عرمرم، حيث واجه ملك تامسنا الشقي الذي كانت جنوده منهوكة جوعاً وبؤساً، وهو يريد عبور النهر، لكن الممر قطع عنه من قبل ملك فاس، فاضطر الأشقياء المطاردون اليائسون أن يتفرقوا في الغابات بين صخور يصعب اجتيازها. وقد أحاطت بهم جنود الملك وحاصرتهم إلى أن هلكوا بإحدى الطرق الثلاث: منهم من غرقوا في النهر، ومنهم من ترددوا من أعالي الصخور فدقت أعناقهم، ومنهم من تمكنوا من الخروج من الماء فوقعوا بين أيدي رجال الملك وضربت أعناقهم بالسيف،

وهكذا أخذ عدد سكان تامسنا يتناقص إلى أن قضي عليهم نهائياً في ظرف عشرة أشهر. ويقدر عدد الهالكين بمليون نسمة رجالاً ونساءً وأطفالاً. ورجع الملك يوسف اللمتوني إلى مراكش ليصلح من أمر جيشه ويهيئه لمهاجمة ملك فاس، بعد أن ترك تامسنا مأوى للأسد والذئاب والبوم[6].

ظلت تامسنا مهجورة مائة وثمانين سنة إلى الوقت الذي رجع فيه المنصور من مملكة تونس وصحب معه بعض الفرق من قبائل الأعراب مع رؤسائهم وأسكنهم تامسنا، فمكثوا فيها خمسين عاماً إلى أن ذهب الملك عن آل المنصور. وكان سقوط هذه الأسرة كارثة عظمى على الأعراب الذين وقعوا في فقر مدقع، وطردهم ملوك بني مرين من هذا الإقليم، وأعطوه لقبائل زناتة وهوارة جزاء لما لقوه منهم من مناصرة، لأنهم كانوا جميعاً يؤازرونهم ضد ملوك مراكش الموحدين. وهكذا أصبح الزناتيون والهواريون يتصرفون في هذا الإقليم، وتكاثروا فيه حتى إنهم اليوم، وربما كان ذلك منذ مائة سنة، يخيفون ملوك فاس ويرعدون فرائصهم، إذ يقدر أن عددهم يصل إلى ستين ألف فارس ومائتي ألف راجل.

لقد ترددت كثيراً على هذا الإقليم، وسوف أحدثكم عنه بتفصيل.

أنْفَا، مدينةٌ في تَامَسْنَا

أنفا مدينة عظيمة أسسها الرومان في شاطىء البحر المحيط على بعد نحو ستين ميلاً شمال الأطلس، ونحو ستين ميلاً شرق أزمور[7]. وكانت

(6) هذه المعلومات عن تخريب تامسنا خاطئة كسابقاتها عن حاميم المتنبيء. والمعروف أن المرابطين اللمتونيين الذين حاربوا برغواطة بتامسنا إلى أن قضوا تماماً على بدعتهم كانوا بقيادة عبد الله بن ياسين الذي قتل في المعركة يوم 24 جمادى الأولى 451/8يوليوز 1059، ثم بقيادة خلفه أبي بكر بن عمر اللمتوني الذي استأصل شافة برغواطة ومحا أثر دعوتهم من المغرب قبل أن يرجع إلى الصحراء في السنة التالية ويستخلف على المغرب ابن عمه يوسف بن تاشفين. انظر: **العبر**، 6:428-434، **والاستقصا**، 2:17-20.

(7) تقع أنفا (الدار البيضاء الحالية) غربي القسم القريب إليها من الأطلس، وشمال شرقي مدينة أزمور.

هذه المدينة في غاية الحضارة والازدهار، لأن أرضها خصبة تصلح لجميع أنواع الحبوب، وتمثل في الواقع أجمل منظر في افريقيا كلها: يحيط بها من جميع الجهات، ما عدا الشمال على شاطىء البحر، سهل فسيح يمتد على مسافة نحو ثمانين ميلاً. وكم كان في داخل أنفا من مساجد ودكاكين في غاية الحسن، وقصور شامخة يمكن رؤيتها والتأكد منها الآن من خلال الآثار الباقية فيها! وكم كان فيها أيضاً من بساتين وكروم! وما زالت لحد الآن تجنى منها كميات عظيمة من الثمار، لا سيما البطيخ والخيار التي يبدأ نضجها في منتصف أبريل. وقد اعتاد الناس أن يحملوا هذه الثمار إلى فاس، لأن نضجها فيه يتأخر.

وكان سكان أنفا يتأنقون جداً في لباسهم بسبب العلاقات الوثيقة التي تربطهم بالتجار البرتغاليين والانجليز، كما كان من بينهم رجال مثقفون ماهرون، لكن سببين اثنين عملا على تعاسة السكان ودمارهم. أولهما أنهم أرادوا العيش أحراراً دون أن تتوفر لهم الوسائل اللازمة، والثاني أنهم كانوا يسلحون في مينائهم الصغير زوارق خفيفة يقومون على متنها بالإتلاف والتخريب في شبه جزيرة قادس، وعلى طول الشواطىء البرتغالية، لدرجة أن ملك البرتغال قرر تدمير أنفا، فأرسل إليها لهذا الغرض أسطولاً مكوناً من خمسين سفينة محملة بالجنود والمدفعية العظيمة. ولما رأى السكان الأسطول قادماً إليهم أخذوا أنفس ما يملكون من متاع، واجتمعوا كلهم وفروا إلى الرباط وسلا تاركين مدينتهم خالية. وقد تأهب رئيس الأسطول للحرب وهو لا يعلم شيئاً مما جرى، لكنه عندما لم ير أحداً خرج لمدافعته، أدرك ما حدث وأمر جنوده بالنزول إلى البر، فتسارعوا في الدخول إلى أنفا ولم يمض يوم واحد حتى نهبوها وخربوها تخريباً تاماً، ثم أحرقوا المنازل وهدموا الأسوار في نقط متعددة[8]. وبقيت أنفا مهجورة خربة إلى الآن. ولما ذهبت إليها لم أستطع امساك العبرات، لأن معظم

---

(8) كان هذا عام 1468/872.

البيوت والدكاكين والمساجد ما زالت قائمة، تقدم أطلالها للأنظار مشهداً جديراً بالرثاء. فهناك بساتين خالية استحالت إلى غابات، وما زالت مع ذلك تنتج بعض الفواكه. وهكذا أدى عجز ملوك فاس وعيوبهم إلى أن تصل أنفا إلى مثل هذه الحالة التي لا أمل معها في أن تسكن من جديد أبداً.

مدينةُ الـمَنْصُورَة

المنصورة[9] مدينة صغيرة بناها المنصور الموحدي ملك مراكش في سهل جميل جداً على بعد ميلين من البحر المحيط، ونحو خمسة وعشرين ميلاً من الرباط ونحو هذه المسافة تقريباً من أنفا. كان فيها نحو أربعمائة كانون، ويمر بالقرب منها نهر صغير يدعى كير. تقوم على ضفاف هذا النهر بساتين عديدة وكروم كثيرة، لكنها اليوم خالية مهجورة. ذلك لأنه لما خربت أنفا غادر السكان المنصورة مسرعين كذلك، ملتجئين إلى الرباط خوفاً من البرتغاليين، تاركين مدينتهم خالية. وما تزال جدرانها قائمة سالمة إلا في بعض النقط التي هدمها أعراب تامسنا.

مررت بهذه المدينة فرق قلبي لها، إذ بالإمكان إعادة إعمارها بسهولة، ويكفي إعادة بناء المنازل، لكن هؤلاء المتوحشين من أعراب تامسنا لا يريدون أن تعود إليها الحياة لشدة خبثهم وتعسفهم.

مدينةُ النّخِيلَة

النخيلة[10] مدينة صغيرة مبنية في وسط تامسنا، كانت في القديم آهلة بالسكان أيام المبتدعين (البرغواطيين)، وتقام بها كل سنة سوق يشد إليها

---

(9) ما تزال القصبة المنصورية معروفة حتى اليوم بين الرباط والدار البيضاء، إلا أن المنصورة التي تحدث عنها الوزان هنا قد يكون موقعها أبعد من ذلك قليلاً إلى الداخل على ضفاف نهر نفيفيخ الذي يدعى في مجراه الأعلى (دير)، ويمكن أن يكون محرفاً عن (كير).

(10) ما يزال مكان النخيلة معروفاً بهذا الاسم حتى اليوم، جنوبي مدينة الرباط على نحو 40 كيلومتراً منها في الطريق المؤدية إلى الرماني فوادي زم.

الرحال جميع أهل تامسنا. وكان سكان النخيلة في غاية الغنى لاتساع أرضهم التي تشتمل من كل جانب على خمسين ميلاً من السهول. تذكر كتب التاريخ أنه في عهد أولئك المبتدعين بلغت وفرة القمح درجة جعلت الناس يستبدلون أحياناً نعلين بحِمل جمل كبير من قمح. وقد خربت هذه المدينة كغيرها من مدن تامسنا عند مجيء يوسف (بن تاشفين). ومع ذلك ما تزال بادية للعيان آثار منها، كبقايا بعض الأسوار، وصومعة كانت في وسط مسجد، وبساتين وأماكن كروم، وأشجار قديمة لم تعد تحمل تمراً.

يترك أعراب تامسنا أدواتهم الفلاحية بالقرب من هذه الصومعة عندما ينتهون من حرثهم، ويقولون ان ولياً دفن هناك، فلا يأخذ أحد أدوات غيره خوفاً من نقمة هذا الولي.

وقد مررت بالنخيلة مراراً لا عدد لها ولا حصر، لوقوعها في الطريق المؤدية من الرباط إلى مراكش.

مدينة أَدَنْدُون

أدندون مدينة صغيرة مبنية بين تلال على بعد نحو خمسة عشر ميلاً من الأطلس وخمسة وعشرين ميلاً من المدينة السابقة. كل هذه التلال صالحة لزراعة القمح، وتنبع بالقرب من سور المدينة عين ماء في غاية الجودة، يحيط بها عدد كثير من النخل القصيرْ الذي لا يثمر. ويمر ماء العين بين صخور ليجري في واد يقال ان فيه مناجم كان يستخرج منها الحديد بكثرة، ويظهر ذلك أيضاً في طعم الماء. ولم يبق من هذه المدينة غير آثار قليلة، كأسس الجدران، وبعض السواري المنهارة. وقد دمرت فعلاً كغيرها من المدن في حرب البدعيين (البرغواطيين).

تَكِّيت

تكّيت مدينة صغيرة من بناء الأفارقة على ضفة نهر أم الربيع في مجاز الطريق المؤدية من تادلا إلى فاس. كانت كثيرة السكان وافرة الحظ من

الحضارة والثروة لأنه يوجد بالقرب منها طريق تخترق الأطلس وتنفذ إلى الصحراء.

وكان جميع أهل تخوم هذا القسم من الصحراء يأتون إلى تكيت لشراء القمح، وخربت هذه المدينة أيضاً في حروب المبتدعين (البرغواطيين)، ثم عاد إليها العمران بعد مدة طويلة، غير أنها لم تعد سوى شبه قرية يخزن فيها الأعراب حبوبهم ويكلون حراستها إلى السكان. ليس فيها دكاكين ولا صناع، باستثناء بعض الحدادين الذين يصلحون الأدوات ويحذون الخيل، وقد تلقى هؤلاء الناس من سادتهم الأعراب أمراً بحسن استقبال جميع الغرباء الذين يمرون بمدينتهم. ويؤدي التجار رسم مرور مقداره «غيوليو»[11] عن كل حمل كتان أو قماش ينقلونه معهم، ولا يؤدون شيئاً عن الماشية والخيل.

مررت بهذه المدينة مراراً فلم تعجبني، ولكن أرضها في الواقع جيدة تكثر فيها الحبوب والماشية.

عَيْن الحَلُّوف

هي مدينة صغيرة لا تبعد عن المنصورة إلا قليلاً، مبنية في سهل ترى فيه بعض أشجار الغبيراء وبعض الأشجار الشوكية الأخرى التي تعطي ثماراً مستديرة تشبه العناب، إلا أنها صفراء اللون، نواتها أكبر من نواة الزيتون، ومذاق لبها غير جيد[12]، وتحيط بهذه المدينة مستنقعات تكثر فيها السلاحف البرية والمائية والضفادع الضخمة، وهي حسبما سمعت من بعضهم غير سامة.

---

(11) عمله إيطالية صغيرة كالدرهم.

(12) لعله يقصد العناب البري المعروف بالنبق.

لم يذكر أحد من المؤرخين الأفارقة هذه المدينة، لقلة أهميتها ولا شك، أو لأنها دمرت منذ عهد سحيق. وما أظن أن الأفارقة هم الذين أسسوها، بل الذي يظهر عليها أنها من بناء الرومان أو شعب آخر غريب عن افريقيا(13).

الرِّبَاط

الرباط مدينة كبيرة أسسها في الأزمنه الحديثة المنصور ملك مراكش وخليفتها، ويمر على طولها من جهة الشرق نهر أبي رقراق حيث يصب في البحر. وقد بنيت قصبة المدينة عند مصبه. فهي على النهر من جهة وعلى البحر من جهة أخرى(14).

تشبه هذه المدينة مراكش في أسوارها وأبنيتها، لأنها بنيت من قبل المنصور لنفس الغرض، إلا أنها أصغر بكثير من مراكش إذا ما قورنت بها. وإليكم سبب تأسيس الرباط: لقد كان المنصور آنذاك يحكم كل اقليم غرناطة وقسماً من أسبانيا، ونظراً لبعد هذه البلاد عن مراكش، خطر ببال الملك أنه لن يتمكن من نجدتها بسهولة إذا هاجمها النصارى، لذلك رأى أن يبني مدينة على شاطىء البحر بالذات حيث يمكنه المقام مع جنوده طوال الصيف. وأشار عليه بعضهم بالإقامة في سبتة، وهي مدينة واقعة في مضيق جبل طارق، لكن الملك لاحظ أنها ليست بالمدينة التي تستطيع أن تكفي لتخييم جيش مدة ثلاثة شهور أو أربعة، بسبب عقم الأرض في هذه المنطقة، كما أنه فكر في أن سكان سبتة، قد ينزعجون كثيراً من إقامة الجنود ورجال الحاشية بين أظهرهم، فبنى مدينة الرباط في بضعة أشهر،

(13) لم يبق اليوم أي أثر لمدينة بضاية الحلوف الواقعة على بعد 15 كلم جنوب المنصورية.

(14) المشهور أن رباط الفتح أو رباط سلا من تأسيس يعقوب المنصور الموحدي عام 1198/594، وهناك روايات مختلفة عن أصل الرباط وتأسيسها، انظرها عند عبد الله السويسي، **تاريخ رباط الفتح** ص.6و 49 و 51.

وزودها بالمساجد والمدارس وكل أنواع القصور والدور والدكاكين والحمامات ومخازن الأدوية. وشيد خارج الباب المشرف على الجنوب صومعة مماثلة لصومعة مراكش، لكن بمطلع أكثر عرضاً بكثير إذ يمكن لثلاثة فرسان أن يصعدوا إليها جنباً إلى جنب. ويقال انه يمكن من أعلاها رؤ ية سفينة في عرض البحر على مسافة كبيرة جداً، ولا شك عندي أنها بسبب ارتفاعها من أجمل ما يمكن مشاهدته من أبنية الدنيا.

أراد الملك أن يستوطن المدينة عدد كثير من الصناع والعلماء والتجار، فأمر بأن يمنح كل ساكن فيها تعويضاً علاوة على ما تدر عليه مهنته من ربح. وقد أدى انتشار هذا الخبر إلى اجتذاب أناس كثيرين من كل الأصناف ومختلف المهن، بحيث أصبحت الرباط بعد قليل من أشرف المدن واغناها في افريقيا كلها. إذ كان لسكانها دخل مزدوج: التعويض المقرر، وما يربحونه في معاملاتهم مع العسكريين ورجال الحاشية الملكية. وكان المنصور يقيم بهذه المدينة من بداية شهر ابريل إلى شهر شتنبر. ولما كانت الرباط مشيدة في مكان يفتقر للماء الجيد، لأن ماء البحر يدخل إلى النهر ويحمله المد إلى مسافة اثني عشر ميلاً فيه، ولأن مياه الآبار مالحة، جلب المنصور الماء من عين تبعد عن المدينة بنحو اثني عشر ميلاً بواسطة قناة محكمة البناء على أقواس شبيهة بتلك التي ترى في ايطاليا كلها، لا سيا قرب روما، وتنقسم هذه القناة إلى فروع عديدة، يحمل بعضها الماء إلى المساجد، وبعضها الآخر إلى المدارس والقصور الملكية والسقايات العمومية المقامة في جميع الأحياء.

وبعد وفاة المنصور أخذت هذه المدينة في التدهور حتى إنه لم يبق منها سوى العشر، فالقناة البديعة قطعت ودمرت أثناء الحروب التي شنها الملوك المرينيون ضد أسرة المنصور. والرباط اليوم في أسوأ حال لم يصل إليها قط. وأعتقد أنه من المتعذر جداً العثور فيها على أربعمائة دار مسكونة قرب القصبة وبعض الدكاكين الصغيرة، وفضلاً عن ذلك فهي مهددة

باستيلاء البرتغاليين عليها. وفعلاً فإن جميع ملوك البرتغال السابقين صمموا العزم على غزوها علمًا بأنهم إذا ملكوها سهل عليهم احتلال المملكة. غير أن ملك فاس زود هذه المدينة بالأقوات الوافرة وساندها بكل ما في مستطاعه.

وقد ذهبت إلى الرباط فأخذتني الشفقة عليها، لما كانت عليه في القديم وما آل إليه أمرها الآن.

شَالَّة

شالة مدينة صغيرة بناها الرومان بالقرب من نهر أبي رقراق، على بعد نحو ميلين من البحر وميل واحد من الرباط، بحيث أن من يريد الذهاب من شالة إلى البحر لا بد له من أن يمر بالرباط. لكن هذه المدينة خربت في حروب مجوس (برغواطة). وقد أعاد المنصور بعد ذلك بناء أسوارها، وشيد فيها زاوية فاخرة، وقصراً لسكنى جنوده، وجامعاً في منتهى الجمال مع قاعة بديعة الزخرف بالرخام المنحوت والفسيفساء والنوافذ ذات الزجاج الملون. ولما دنا أجل المنصور عبر في وصيته عن رغبته في أن يقبر بتلك القاعة، وبعد وفاته نقل جثمانه من مراكش ودفن فيها، ووضع على قبره رخامتان، واحدة عند رأسه وأخرى عند رجليه، نقشت عليهما أبيات رائقة لمختلف الشعراء تعبر عما خلفه موت هذا الملك من لواعج الأسى. ثم احتفظ ملوك هذه الدولة بعادة إقبارهم في هذه القاعة، وسار على ذلك ملوك بني مرين في عهد ازدهار دولتهم.

وقد ذهبت إلى هذه القاعة فرأيت فيها ثلاثين قبراً لهؤلاء الملوك، انتسخت كل ما كتب عليها، وذلك عام 915 للهجرة.

مَعْدَنْ عَوَّامْ

هذه المدينة بناها في أيامنا أحد أمناء الخليفة عبد المومن على ضفة نهر أبي رقراق، وذلك لأنه لاحظ وجود منجم حديد هناك يتردد الناس عليه

كثيراً[15]. وتقع على بعد عشرة أميال من الأطلس، بينها وبين الجبل غابة كثيفة جداً تكثر فيها الأسود الضخمة والفهود. وقد ظلت هذه المدينة في غاية التحضر والعمران طوال حكم أبناء مؤسسها (الموحدين)، مزدانة بمنازل جميلة ومساجد وفنادق، غير أن ذلك لم يدم إلاّ وقتاً قصيراً، لأن حروب بني مرين أدت إلى خرابها، فقتل بعض السكان وأسر البعض، وفر آخرون منهم إلى شالة. وإنما وقع ذلك لأن السكان استسلموا لأحد ملوك بني مرين دون أن ينتظروا إغاثة ملك مراكش، في نفس الوقت الذي وصل فيه أحد قواد جيش الملك الموحدي لنصرة هؤلاء القوم الذين ثاروا حينئذ على الأمير حاكم المدينة حتى اضطر إلى الفرار. وبعد بضعة أشهر قدم ملك بني مرين نفسه على رأس جيش جرار في طريق زحفه إلى مراكش فهرب ذلك القائد في الحين واستسلمت المدينة بدون قيد ولا شرط، فخرّبها الملك وقتل سكانها[16]. ومن ثم إلى الآن لم تسكن مدينة معدن عوام، لكن أسوارها وصوامع مساجدها ما زالت قائمة. رأيتها في الوقت الذي تصالح فيه ملك فاس مع ابن عمه وذهبا معاً إلى تاغية لأداء القسم على ضريح أحد صلحائهم المدعو مولاي بوعزة، وذلك عام 920.

تَاغْيَة

تاغية مدينة قديمة بناها الأفارقة بين جبال الأطلس، بردها قارس، وأراضيها الزراعية هزيلة وعرة، والغابات الرائعة المحيطة بها عرين لأسود كاشرة. لا ينبت القمح في هذه البلاد إلا قليلاً، لكن يكثر فيها الماعز

(15) يعرف حتى اليوم هذا المعدن في الجانب الشمالي لجبل عوام الواقع على بعد 25 كيلومتر شمال خنيفرة، قريباً من فرع برأس وادي بهت بعيداً عن أبي رقراق. وتبدو كذلك عبارة «في أيامنا هذه» غير مناسبة للخليفة عبد المومن الذي سبق عصره عصر المؤلف بقرون.

(16) زحف يعقوب بن عبد الحق المريني إلى مراكش سنة 1262/660.

والعسل. وهذه المدينة بسيطة جداً، دورها مبنية بناء رديئاً دون جير، وفيها ضريح ولي عاش في عصر الخليفة عبد المومن، يقال ان له كرامات عديدة ضد السباع، ومكاشفات عجيبة. وقد ترجم له ترجمة حافلة عالم يدعى التادلي[17] وذكر كراماته واحدة واحدة واعتقد شخصياً بعدما قرأت قصة تلك الكرامات أن الرجل كان يتصرف بفن سحري أو باستعمال بعض الأسرار التي كانت له ضد الأسود. وشهرة هذه التصرفات وتقديس العامة لهذا الولي الصالح هما السببان اللذان جعلا الناس يشدون الرحال إلى هذه المدينة بكثرة، فيخرج أهل فاس لزيارة هذا الضريح بعد عيد الفطر من كل سنة، في جموع كثيرة رجالاً ونساء وأطفالاً وكأنهم جيش زاحف، يحمل كل واحد خيمته على ظهر دابته، بحيث تكون جميع البهائم محملة بالخيام والأشياء الأخرى الضرورية للمعاش. تتألف كل مجموعة من مائة وخمسين خيمة، وتستغرق الرحلة خمسة عشر يوماً ذهاباً وإياباً، لأن تاغية تقع على مسافة مائة وعشرين ميلاً من فاس. وقد كان أبي يأخذني معه لزيارة هذا الضريح، ولما بلغت مبلغ الرجال ذهبت إليه مرات للوفاء بنذور نذرتها عندما تعرضت لخطر الموت بسبب الأسود.

زَرْفَة

كانت زرفة[18] إحدى مدن تامسنا التي أسسها الأفارقة في سهل فسيح وجميل جداً، حيث يوجد الكثير من الجداول والعيون. ويحيط

(17) هو أبو يعقوب يوسف بن يحيى التادلي المعروف بابن الزيات المتوفى عام 1229/627 مؤلف كتاب التشوف إلى رجال التصوف المطبوع بالرباط سنة 1958 . وتحمل ترجمة الشيخ أبي يعزى (= مولاي بوعزة) يلنور بن ميمون رقم 77 ، ص. 195-205 .
وقد جاء عالم تادلي آخر بعد عصر الحسن الوزان هو أحمد بن قاسم الصومعي التادلي المتوفى عام 1604/1013 فألف كتاباً ضخماً خاصاً بترجمة مولاي بوعزة سماه المعزى في مناقب الشيخ أبي يعزى. مخطوط م. ع. بالرباط 591 د.

(18) لا يعرف لهذه المدينة اسم ولا أثر.

بأطلال هذه المدينة العدد العديد من أشجار التين فتتراءى من بعيد وكأنها غابة. وتكثر الأشجار في كل الضواحي، كالقرانية وأشجار تدعى ثمارها في رومة «الكرز البحري»[19]، كما تكثر أيضاً تلك النباتات الشوكية التي تعطي ثمراً يسمى بالعربية «النبق» وهو أصغر من الكرز وطعمه يشبه طعم العناب (الزفزوف). وتظهر كذلك في جميع هذه السهول شجيرات الدوم التي تعطي ثمراً غليظاً بحجم زيتون اسبانيا لكن مع نواة كبيرة ومذاق غير لذيذ، بل يشبه تقريباً مذاق الزعرور قبل نضجه.

تهدمت هذه المدينة في حروب الزنادقة (البرغواطيين). ويزرع الآن أعراب تامسنا أرضها فيحصلون على غلات طيبة تبلغ أحياناً خمسين ضعف ما زرعوا.

---

(19) هو ما يسمى في المغرب حب الملوك.

إقْلِيم فَاس

يبدأ إقليم فاس من غرب نهر أبي رقراق، ويمتد شرقاً إلى نهر إيناون، وينتهي بينهما شمالاً عند نهر سبو، وجنوباً عند سفح الأطلس. هذا الإقليم عجيب حقاً بوفرة حبوبه وثماره ومواشيه. وتقوم فوق جميع رباه قرى كثيرة وكبيرة جداً، لأن السهول قليلة السكان بسبب الحروب الماضية، غير أن بعض الأعراب الفقراء يعيشون بها في مداشر، ولا سلطة لهم هنا إطلاقاً، وانما يزرعون الأرض مناصفة مع أهل فاس أو مع الملك ورجال حاشيته. لكن أرياف سلا ومكناس يزرعها أعراب من الأشراف والنبلاء الذين هم مع ذلك من خدام الملك.

وسأحدثكم الآن عما يستحق الذكر في هذا الإقليم:

سَلا

سلا مدينة أزلية بناها الرومان وتغلب عليها القوط. ولما دخلت الجيوش الإسلامية إلى هذه المنطقة سلمها القوط إلى طارق (بن زياد) قائد هذه الجيوش. وبعد تأسيس مدينة فاس انضوت سلا تحت سلطة ملوكها. وقد بنيت هذه المدينة على شاطىء المحيط في موقع جميل، غير بعيدة عن الرباط بأكثر من ميل ونصف، ويفصل نهر أبي رقراق بين المدينتين. بيوت سلا مبنية على طريقة القدماء، مزينة كثيراً بالفسيفساء وأعمدة الرخام،

ومساجدها كلها في منتهى الجمال والزخرفة. وتنطبق هذه الأوصاف أيضاً على الدكاكين الواقعة تحت أروقة كبيرة جميلة. وعندما يمر المرء أمام عدة دكاكين، يجد قوساً مبنياً على ما يقال ليفصل بين حرفة وأخرى.

أستنتج من ذلك أن سلا تملك من الترف والبذخ ما يضفي عليها طابع مدينة عريقة في الحضارة، بالإضافة إلى أن ميناءها الجيد مهبط التجار المسيحيين من مختلف الجنسيات، من جنويين وبندقيين وانجليزيين وفلاماندين، لأنه كان يستعمل كميناء لكل مملكة فاس. وقد تعرضت هذه المدينة لهجوم أسطول ملك قشتالة عام 670 للهجرة[20] فهرب السكان ودخلها النصارى غير أن مقامهم بها لم يدم أكثر من عشرة أيام، إذ هاجمهم بغتة يعقوب (بن عبد الحق) أول ملوك بني مرين، ولم يكونوا متأهبين لذلك ولا ظانين أن الملك سيتخلى عن الحملة التي يخوضها آنذاك ضد تلمسان وبذلك تم استرداد المدينة وقتل كل من وجد بها من المسيحيين، ولجأ الباقون إلى سفنهم وفروا بها. وهذا هو السبب الذي جعل الملك يعقوب وجميع من أتى بعده من بني مرين يتمتعون بالحظوة عند سكان هذه المناطق.

وعلى الرغم من سرعة استرجاع سلا، فإنها بقيت منذئذ أقل سكاناً وأهمية. وتوجد في المدينة كلها، لا سيما قرب السور المحيط بها، دور عديدة خالية تحتوي على أعمدة جميلة جداً ونوافذ من الرخام مختلفة الألوان، لكن الأهالي اليوم لا يقدرونها حق قدرها.

وضواحي سلا كلها رملية إلا بعض الأراضي الزراعية التي ينبت فيها القليل من القمح، غير أن البساتين كثيرة، وكذلك الحقول التي تنتج كمية عظيمة من القطن. ومعظم سكان المدينة حائكون يصنعون ثياباً من القطن في غاية الرقة والجمال. وتصنع كذلك بسلا كمية وافرة من المشط

(20) بل عام 658 حسب المصادر العربية الأخرى. انظر أ. الناصري، **الاستقصا**، 1:3 .

تباع في جميع مدن مملكة فاس، إذ توجد بجوار هذه المدينة غابة معمورة بأشجار البقس وغيرها من الأنواع الأخرى العديدة الصالحة لهذا العمل.

يعيش الناس الآن في سلا عيشة طيبة جداً، إذ يوجد فيها حاكم وقاض وعدد من الموظفين الآخرين أمثال موظفي الجمارك وضرائب المعاملات التجارية، لأن عدداً كثيراً من التجار الجنويين يأتون إليها ويعقدون فيها صفقات هامة، ويلقون من الملك عناية خاصة لأن تجارتهم تحقق له أرباحاً ضخمة. ولهؤلاء التجار مخازن سواء في فاس أو في سلا، ويتعاونون عند شحن بضائعهم فيعمل الواحد منهم لحساب الآخر. ولقد رأيتهم في معاملاتهم مخلصين ومهذبين جداً، ينفقون أموالاً عظيمة لاكتساب صداقة الأمراء ورجال الحاشية، ولا يفعلون ذلك جشعاً واستغلالاً لهم، بل ليتمكنوا من العيش اللائق في تلك البلاد الغريبة. وكان بسلا في عهد شبابي وجيه جنوي معظم بصفة خاصة يدعى مسير طوماسو دي مرينو، وهو رجل عاقل خير حقاً، وغنيّ جداً، يقدره الملك ويحبه كثيراً. عاش في فاس ثلاثين سنة، ولما وافته المنية أمر الملك بنقل جثته إلى جنوة تنفيذاً لوصيته. وقد خلف هذا الرجل عدداً من الأولاد كلهم أغنياء متمتعون بالحظوة عند الملك وحاشيته كافة.

فنزارة

ليست فنزارة بالمدينة الكبيرة. ولكنها بنيت في سهل جميل جداً من طرف أحد الملوك الموحدين على بعد نحو عشرة أميال من سلا. والسهل كله خصيب تجود فيه الحنطة وغيرها من الحبوب... وتوجد في خارج المدينة بقرب الأسوار سقايات في منتهى الجمال من بناء أبي الحسن (المريني) ملك فاس. وفي أيام أبي سعيد آخر ملوك بني مرين[21] كان أحد أعمامه

(21) ليس أبو سعيد آخر ملوك بني مرين، وانما آخرهم ابنه عبد الحق الذي ثار عليه الشعب وقتله عام 869/1465. انظر أ. الناصري، الاستقصا، 4:99-101.

المدعو سعيداً أسيراً عند ملك غرناطة عبد الله، فتوسل الأسير إلى ابن أخيه أن يلبي طلباً تقدم به هذا الملك، لكن أبا سعيد رفض. عمد الملك عبد الله إلى إطلاق سراح سعيد وأرسله مع جيش كثيف ونفقات حربية عظيمة ليحارب ملك فاس ويقضي عليه، فحاصر سعيد مدينة فاس بمساعدة بعض الجبليين من الأعراب، ودام الحصار سبعة أعوام خرب أثناءها قرى ومدناً وقصوراً في جميع أنحاء المملكة، ثم تفشى الطاعون في جيشه فهلك هو وفريق من جنده. وذلك عام 918 للهجرة[22] والمدن التي خربت في هذه الفترة لم تعمر بعد ذلك، ولا سيما فنزارة التي اقطعت لشيوخ الأعراب الذين ساعدوا سعيداً ليسكنوها.

المَعْمُورَة

المعمورة مدينة صغيرة أسسها أحد ملوك الموحدين على مصب نهر سبو، لكن على بعد ميل ونصف من المكان الذي يصب فيه النهر في البحر، وعلى بعد اثني عشر ميلاً من سلا[23] وليست ضواحي المعمورة إلاّ سهلاً رملياً.

وقد أسست المدينة تحمي المصب وتحول دون دخول سفن الأعداء إلى النهر. وفي جوار المدينة غابة بها أشجار باسقة تثمر بلوطا طويلاً غليظاً بحجم برقوق دمشق. هذا البلوط أرق قليلاً من الكستناء وأحلى منه مذاقاً وأكثر نعومة. وقد اعتاد الأعراب المجاورون لهذه الغابة أن يحملوا منه كميات عظيمة على جمالهم إلى فاس ويحققوا بذلك الربح الوفير. لكن خطر الأسود فيها عظيم، وكثيراً ما تفترس الدواب والناس الذين لم يعتادوها،

(22) انقلب ترتيب الأرقام بدون شك عند النسخ أو الترجمة، إذ مدة حكم أبي سعيد هي 800-823 . وتسمي مصادر أخرى الثائر عبد الله بن أحمد الوطاسي، أخا السلطان أبي سعيد. انظر أ. الناصري، **الاستقصا**، 4:93-94 .

(23) بل تبعد مدينة المعمورة عن سلا باثنين وعشرين ميلاً.

لأنها أكثر أسود افريقيا ضراوة. وقد دمرت مدينة المعمورة منذ مائة وعشرين سنة على أثر محاربة سعيد لملك فاس[24].

وفي سنة 921 أرسل ملك البرتغال اسطولاً ضخمًا لبناء حصن عند مصب النهر[25] وشرعوا في البناء بمجرد وصولهم، وأقاموا جميع الأسس وبدءوا في تشييد الجدران والأبراج، في حين كان معظم الأسطول راسياً في الميناء. وعلى حين غرة داهمهم أخو ملك فاس فقتل منهم ثلاثة آلاف ومزقهم كل ممزق، لا لعدم مقدرتهم ولكن لاضطراب صفوفهم، وإليكم ما حدث: في إحدى الليالي قبل طلوع الفجر نزل ثلاثة آلاف برتغالي من سفنهم بقصد الاستيلاء على مدفعية ملك فاس. وقد أخطأوا خطأ فاحشاً حين قدروا أن هذا العدد القليل من المشاة يستطيع أن يقوم بمثل هذه العملية الحربية، في حين كان خصمهم يتوفر على خمسين ألفاً من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان. لكن البرتغاليين ظنوا أنه قبل أن يتنبه أحد من مخيم عدوهم إلى ما يجب عمله للرد على هجومهم الخاطف يمكنهم أن يسحبوا المدفعية إلى الحصن الذي كان على مسافة نحو ميلين من مكان المدفعية. وكان يقوم على حراسة هذه المدفعية ما بين ستة آلاف وسبعة آلاف رجل، إلا أنهم كانوا جميعاً نائمين عند الفجر. وقد نجحت العملية لدرجة أن البرتغاليين سحبوا قطع المدفعية إلى مسافة ميل تقريباً ففطنوا بهم، وحدثت جلبة أيقظت كل المحلة، فأخذوا السلاح بسرعة وانقضوا على البرتغاليين الذين تحلقوا على الفور في شكل دائرة، وتابعوا سيرهم دون أن يفقدوا شجاعتهم وهم يدافعون عن أنفسهم، ولم يصبهم أي ذعر عندما وجدوا أنفسهم مطوقين من جميع الجهات، بعدما رأوا الطريق تقطع

(24) يؤكد هذا ملاحظتنا في الهامش السابق 22 من اختلاط ترتيب الأرقام على الناسخ أو المترجم.

(25) نزلت القوات البرتغالية بساحل المعمورة يوم الأحد 12 جمادى الأولى 921 هـ/24 يونيه 1515. وسمِّي الحصن الذي بنوه (سان جان دي معمورة).

عليهم، بل ان الإقدام والحمية اتاح لمقدمة جيشهم أن تشق لنفسها ثغرة بالقوة، وكادوا ينجون رغم جيش عدوهم لولا أن بعض الموالي العلوج الذين كانوا يعرفون اللغة البرتغانية صاحوا بهم أن يلقوا السلاح، وان أخا الملك يؤمنهم على حياتهم، ففعلوا ما أمروا به، لكن المغاربة الحانقين لم يريدوا أن يأسروا منهم واحداً وقتلوهم جميعاً ولم ينج منهم إلاّ ثلاثة أو أربعة بفضل حماية بعض قواد جيش أخي الملك.

أصبح القائد حاكم الحصن حينئذ في حالة يأس قصوى لأن زهرة جنده كانت من بين القتلى، فطلب النجدة من القائد العام الذي كان يرابط خارج مصب النهر في سفن تحمل على ظهرها عدداً من النبلاء والفرسان البرتغاليين. لكن السفن لم تستطع الدخول إلى النهر الذي كان الحرس الملكي يقوم على حمايته ويقصف بمدفعيته القوية السفن البرتغالية فيغرق بعضها. وفي هذه الأثناء وصل خبر موت ملك اسبانيا إلى البرتغاليين، فأرادت أعداد كثيرة من السفن التي كان الملك الهالك قد بعث بها أن ترجع إلى بلادها. وفضلاً عن ذلك فان قائد الحصن أخلاه حين يئس من الحصول على أية نجدة، والسفن الراسية بالنهر لم ترد البقاء في مكانها، فهلك ثلثاها تقريباً عند الخروج، إذ حاولت أن تبتعد عن الضفة التي تقذف منها المدفعية محاذية الضفة الأخرى فغاصت في الرمل، لأن ذلك الجانب من النهر كان قليل العمق، فانهال عليهم المغاربة وقتلوا الكثير منهم، وارتمى الآخرون في النهر آملين أن يلتحقوا بالسفن سباحة، لكنهم غرقوا أو قتلوا كما قتل الأولون. واحرقت السفن وقذف بمدفعيتها في الماء، فصار لون النهر أحمر بالدم في منطقة المعركة مدة ثلاثة أيام. ويقال إنه قتل في هذه الحملة عشرة آلاف من النصارى. وبعد ذلك أمر ملك فاس بالبحث في النهر فوجدوا فيه أربعمائة قطعة مدفعية من البرونز[26]. وقد

---

(26) تؤيد المستندات البرتغالية رواية هذه الكارثة ضدهم، مع اختلاف بسيط في التفصيلات ولكنها لا تشير إلى وجود سفن إسبانية.

حدثت هذه الهزيمة النكراء لسببين راجعين إلى عدم الانضباط، يعود الأول إلى البرتغاليين الذين أرادوا الاستيلاء على مدفعية عدوهم بعدد قليل من الرجال ودون تقدير قوات الخصم. والثاني أن ملك البرتغال الذي كان بإمكانه أن يرسل اسطولاً كاملاً على نفقته التامة وتحت قيادة ضباطه الخاصين به، أراد أن يضيف إليه أسطول القشتاليين. ويحدث دائمًا في مثل هذه الحال ــ وهذه قاعدة مطردة ــ انه إذا تحرك جنود أميرين ضد جنود أمير واحد، كان الهوان والهزيمة من نصيب جنود الأميرين بسبب اختلاف الأوامر وتضارب الآراء التي لا تتفق أبداً. ويرى ملوكنا الأفارقة أن من بوادر النصر أن يرى جيش أمير واحد يخوض المعركة ضد جيشين لأميرين مختلفين.

وقد حضرت في هذه الحرب كلها وشاهدتها عن كثب، ثم قمت على أثرها برحلة إلى القسطنطينية.

تَفَلْفَلْت

تفلفلت[27] مدينة صغيرة مبنية في سهل رملي على بعد نحو خمسة عشر ميلاً شرقي المعمورة، واثني عشر ميلاً من المحيط. ويمر بالقرب من هذه المدينة نهر قليل الأهمية، على ضفافه غابة تؤوي أسوداً شرسة جداً أكثر من التي تحدثنا عنها من قبل، تضر كثيراً بالمارة لا سيما الذين يقضون الليل هناك. لكن يوجد خارج المدينة على الطريق الكبيرة المؤدية إلى فاس مدشر صغير مهجور به بناء تعلوه قبة، يقال ان البغالين والمسافرين يذهبون ويبيتون فيه بعد أن يحموا الباب بسياج من الأشـواك والأغصان التي يجمعونها من هنا وهناك. وقد كان هذا المكان فندقاً يوم كانت تفلفلت مأهولة. وقد هجرت المدينة أيضاً أثناء حرب سعيد.

(27) يقترب هذا الاسم من «تيفلت» القرية القائمة اليوم بين سلا والخميسات، إلا أن تفلفلت، على ما يظهر من كلام مرمول، كانت تقع غرب تيفلت عند ملتقى واد زيلي بواد تيفلت، غير بعيدة عن ديار بني مالك من قبيلة سفيان الشهيرة بالغرب.

مَكْنَاس

مكناس مدينة كبيرة أسستها قبيلة مكناسة فسميت باسمها. وتبعد عن فاس بنحو ستة وثلاثين ميلاً، وعن سلا بخمسين ميلاً[28] وعن الأطلس بخمسة عشر ميلاً. وتضم حوالي ستة آلاف كانون، وسكانها متكاثفون جداً، وقد عاش هؤلاء السكان مدة مديدة آمنين متحدين طوال عهد بداوتهم، لكن بعد ذلك حدثت فتن وتكونت أحزاب، فتغلب بعضهم على بعض وفقد المغلوبون مواشيهم ولم يستطيعوا المقام في البادية فاجتمعوا وبنوا هذه المدينة.

تقع مكناس في سهل بديع جداً، ويمر بالقرب منها نهر صغير، وتحيط بها على مسافة ثلاثة أميال حدائق عديدة تنتج ثماراً ممتازة، لا سيما السفرجل، وهو غليظ جداً طيب الرائحة، والرمان الغريب حجمًا وجودة إذ لا نواة له ويباع بثمن بخس. ويكثر بها البرقوق الأبيض والدمشقي، حتى إن الحمل منه يباع بخمسة أو ستة (بيوتشيات)[28م] ويجنى العناب (الزفزوف) بكثرة كل عام، فيؤكل يابساً في الشتاء وتحمل منه كمية طيبة إلى فاس لبيعها. ويوجد بكثرة كذلك التين وعنب الكرم المعروش إلاّ أنه يؤكل طرياً، ويفرز التين نوعاً من الدقيق عندما يراد تجفيفه لادخاره، وكذلك العنب لا يكون لذيذ الطعم إذا أكل يابساً. وتنتج هذه المنطقة مقادير وافرة من المشمش والخوخ لدرجة أنهم يكادون يرمونها، والحق أن هذا الخوخ ليس بجيد، فهو كثير الماء ويكاد يكون أخضر. أما الزيتون فتجنى منه مقادير لا حد لها ولا نهاية، ويباع القنطار منه بمثقال ونصف، أي ما يعادل مائة رطل ايطالي. والحاصل أن الأراضي المحيطة بمكناس خصيبة جداً، تجبى منها كميات وافرة من الكتان يباع معظمها في فاس وسلا.

---

(28) بل تبعد عنها بثمانين ميلاً.

(28م) لم يرد هنا في الطبعة الأولى تحديد لقيمة هذه الفئة من العملة الايطالية ــ ولكن ورد في الحاشية 27 من مملكة تلمسان (ج ٢) أن قيمة هذه الفئة نحو 7 سنتيم ذهب ــ المشرف.

والمدينة في داخلها حسنة الترتيب والتنسيق، فيها مساجد جميلة، وثلاث مدارس للطلبة، ونحو عشر حمامات في غاية السعة. ويعقد السوق خارج المدينة قرب الأسوار كل يوم اثنين، فيحج إليه عدد كثير من أعراب المناطق المجاورة، يأتون بأبقارهم وأغنامهم وسائر أصناف الماشية، ويحملون كذلك السمن والصوف، ويباع كل ذلك بأبخس الأثمان.

وفي أيامنا هذه أعطى الملك مدينة مكناس للأمير[29] ليكون قسم منها من اقطاعه، ويقدر ما يجبى منها ومن ناحيتها بما يشكل تقريباً ثلث كل ما تنتجه مملكة فاس. ولكن مكناس تضررت كثيراً في الماضي من الحروب التي نشبت بين أمراء هذه النواحي، وقد كلفتها كل حرب خسارة تتراوح ما بين ثلاثين وأربعين ألف مثقال، وحوصرت المدينة مزاراً عديدة، ودام الحصار في كل مرة ست أو سبع سنوات.

وفي أيام شبابي عندما بويع ملك فاس الحالي[30]، ثار ضده أحد أبناء عمه وأيده سكان مكناس التي كان عاملاً عليها في عهد الملك السابق، فزحف الملك إلى مكناس بجيشه وحاصرها نحو شهرين، ولما امتنع السكان من الاستسلام عمد الملك إلى إتلاف ممتلكاتهم، وبلغت الخسائر خمسة وعشرين ألف مثقال. فتصوروا مبلغ الضرر الذي سببته ست سنوات أو سبع من الحصار. وأخيراً قام بعض المؤيدين للملك بفتح أحد أبواب المدينة، وصمد بشجاعة أمام هجوم المتمردين ومكن الملك من الدخول إلى مكناس، فاسترجعت المدينة وحمل الثائر[31] سجيناً إلى فاس لكنه تمكن بعد ذلك من الفرار.

---

(29) لعله يقصد السلطان محمد الوطاسي المعروف بالبرتغالي، وأخاه الأمير الناصر.

(30) بويع محمد الوطاسي المعروف بالبرتغالي بعد وفاة أبيه محمد الشيخ الوطاسي سنة 1504/910.

(31) لعله زيان الوطاسي الذي سيتصالح بعد ذلك مع ابن عمه السلطان، وسيدافع البرتغاليين عن مدينة آزمور 1508/914.

والحاصل أن مكناس مدينة جميلة ذات موارد عظيمة وأسوار جيدة، حصينة جداً، تتمتع بماء طيب يجلب إليها بواسطة قناة من مسافة ثلاثة أميال خارج المدينة، وتوزع القناة المياه على القصبة والمساجد والحمامات، والطواحين كلها خارج المدينة على مسافة نحو ميلين. وأهل مكناس شجعان كجنود، مهذبون لكن ذكاءهم غير صاف. وكلهم تجار أو نبلاء أو صناع. وليس من أهل المدينة من لا يستنكف عن أن يحمل البذور بنفسه على دابته لينقلها إلى من يفلح أرضه. وهم يكرهون كثيراً أهل فاس دون أن يعرف سبب واضح لذلك.

لا تخرج نساء النبلاء من بيوتهن إلا ليلاً، فيسترن وجوههن ولا يرغبن في أن يراهن أحد محجّبات أو سافرات، لأن أزواجهن شديدو الغيرة لدرجة خطيرة حين يتعلّق الأمر بنسائهم، ولا تعجبني هذه المدينة لأن أرضها تكون مبلّلة وموحلة في فصل الشتاء.

جَامِعُ الحَمَّام

هي مدينة قديمة مبنية في السهل قرب حمام، على بعد نحو خمسة عشر ميلاً جنوبي مكناس، وثلاثين ميلاً غربي فاس، وعشرة أميال من الأطلس، وتقع على طريق المسافرين من فاس إلى تادلا. وقد احتل الأعراب أراضيها الزراعية لأنها دمرّت بدورها في حروب سعيد. ولا يزال قائمًا من أطلالها جميع السور المحيط بها تقريباً، وجدران كل الأبراج والمساجد ولو أن سقوفها قد سقطت.

خميس مْطَغْرَة

خميس مطغرة[32] مدينة صغيرة أسّسها الأفارقة في بادية زواغة، على

(32) لا يُعرف موقع هذه المدينة اليوم، إلا أن مارمول ذكر أن خميس مطغرة واقع على الطريق بين فاس ومراكش على بعد نصف المسافة بين فاس وجامع الحمام ـــ أي 15

بعد خمسة عشر ميلاً غربي فاس. تربتها خصبة جداً، وتقوم حول المدينة على مسافة نحو ميلين أغراس جميلة من الكروم والتين، لكنها أعيدت كلها لحالتها الطبيعية، لأن هذه المدينة خرّبت أثناء حرب سعيد وأصبحت جميع أراضيها مهجورة طوال نحو مائة وعشرين سنة. ومنذ أن قَدِم قسم من أهل غرناطة إلى موريطانيا، أخذت المدينة تعمّر من جديد، وغرس (حولها) كثير من أشجار التوت الأبيض، لأن الغرناطيين من كبار تجّار الحرير. كما غرس قصب السكر، إلا أنه لم تستخلص منه فوائد كبيرة مثل ما كان يستخلص منه عادة في الأندلس. وقد كانت هذه المدينة قديماً متحضّرة جداً، خلافاً لما هي عليه الآن، لأن معظم سكانها أصبحوا فلاحين.

بْني بَازِيل

بني بازيل مدينة صغيرة بناها الأفارقة أيضاً على نهر صغير، في وسط الطريق الذاهب من فاس إلى مكناس، على بعد نحو ثمانية عشر ميلاً غربي فاس(33). ولهذه المدينة بادية شاسعة تجري فيها جداول كثيرة وينابيع غزيرة، ولا يكاد يسكنها غير الأعراب الذين يزرعون فيها الشعير والكتّان. أما المزروعات الأخرى فلا يمكن أن تنجح لأن الأرض محصبة مغمورة دائمًا بالماء. وقد كان بضواحي بني بازيل حدائق كثيرة حسبما يظهر من آثارها الباقية. لكن المدينة خُرّبت كغيرها من المدن في حروب سعيد، وظلت مهجورة مدة تناهز مائة وعشرة أعوام، إلى أن رجع الملك (محمد الوطاسي البرتغالي) من دكالة، فأرسل طائفة من السكان الذين أجلاهم عن تلك البلاد إلى مدينة بني بازيل ليعمّروها وهم قوم خشنون لا يقيمون فيها إلا على مضض.

ميلاً ــ وأنها كانت آهلة بالموريسكيين الذين غادروا غرناطة بعد سقوطها في يد الإسبان، كما ذكر الوزان هنا.

(33) يحدد مرمول موقع بني بازيل على وادي النجا بالقرب من منبعه.

فاس، المدينةُ العُظمي
عاصمةُ مُوريطَانْيا كُلِّها

أسّس مدينة فاس أحد الشيعة أيام الخليفة هارون الرشيد عام 185 للهجرة[34]. وسُمّيت هذه المدينة فاساً لأنه عُثر في أول يوم شرع في حفر الأرض لإرساء الأسس على كمية من الذهب تحمل بالعربية اسم فاس[35]. وهذا في نظري هو السبب الحقيقي لهذه التسمية. ومع ذلك يرى البعض أن المكان الذي أُسّست فيه المدينة كان يحمل اسم فاس

(34) المعروف أن المدينتين المتميزتين اللتين تكوّنت منهما فاس أسّسهما ادريس بن ادريس: الأولى على الضفة اليمنى الشرقية للنهر في يوم الخميس 3 ربيع الأول عام 192/ 6 يناير 808، والثانية على الضفة اليسرى الغربية أوائل ربيع الثاني عام 193/ آخر يناير 809.

وقد عثر على درهم ضرب بفاس عام 185/ 801، أي في نفس التاريخ الذي ذكره الوزان. ودلّت أبحاث جديدة على أن فاساً الأصلية على الضفة اليمنى للنهر أسّسها ادريس بن عبد الله بعد أن بايعه برابرة زرهون بثلاثة أشهر، عام 172/ 789. وبعد عشرين عاماً أسّس ادريس بن ادريس المدينة المقابلة لها على الضفة اليسرى للنهر وسمّاها «العليا»، ثم جاء العرب من الأندلس فسكنوا المدينة القديمة وسمّيت باسمهم، وجاء عرب القيروان فسكنوا المدينة الجديدة وسمّيت باسمهم.

(35) كلام غير معقول، وربما اختلط الأمر على راميزيو أو غيره من نساخ **وصف إفريقيا** فحرفوا «فاس من ذهب» إلى «كمية من ذهب».

وصنع فاس ذهبي لادريس بن ادريس أو عثوره على فاس أثناء حفر أسس المدينة وتسميتها فاساً لذلك مشهور عند المؤرخين، انظر مثلاً ابن أبي زرع، **القرطاس**، ص 45؛ الجزنائي، **زهرة الآس**، ص 18.

بسبب النهر الذي يخترقها، إذ النهر بالبربرية يقال له «ساف»[36] فقلب هذا اللفظ.

ومهما يكن من أمر، فإن مؤسس فاس كان يدعى ادريس، وهو من أقرباء الخليفة هارون (الرشيد)، لأن ادريس من أحفاد علي ابن عم محمد (عليه السلام) وزوج (ابنته) فاطمة. فهو يتّصل إذن بالرسول من جهة الأب والأم معا، بخلاف هارون الذي لا يتّصل بمحمد (عليه السلام) إلا من جهة واحدة هي جهة جدّه العباس عم محمد (عليه السلام). وعلينا أن نعرف أن هاتين الأسرتين حرمتا من السلطة لأسباب مذكورة في التواريخ القديمة، ولم تأت الخلافة إلى هارون إلا عن طريق الاغتصاب والاحتيال. ذلك أن أحد أجداده، وكان داهية خارق الذكاء، تظاهر بمساندة آل علي والدعوة لرجوع الخلافة إليهم، وأرسل الدعاة تحت هذا الستار إلى العالم كله، فكان ذلك سبب انتقال الخلافة من بني أمية إلى أبي عبد الله السفّاح أول خليفة (عباسي)، الذي رأى ألّا يترك هذا الشرف لغيره، ودخل حالاً في نزاع ضد العلويين وراح يمتحنهم علانية، ففرّ أعيانهم، بعضهم إلى آسيا، وبعضهم إلى الهند، وبقي أحدهم بالمدينة لم يهتم به السفّاح لكونه شيخاً متديّناً. ولكن نشأ اثنان من أبناء هذا الرجل وازدادت مكانتهما وحظوتهما عند أهل المدينة، فأراد الخليفة أن يقبض عليهما، واضطر البائسان إلى الفرار.

وقد تمكّن الخليفة من أخذ أحدهما وخنقه، ووصل الثاني المسمّى ادريس إلى موريطانيا[37]، فحظي فيها حظوة كبيرة حتى إنه حصل في

(36) بل «أسيف» ويمكن أن يكون قد حرف إلى فاس بالعربية.

(37) اختلط الأمر على المؤلف هنا. فالأخوان العلويان اللذان اختفيا في المدينة عن أعين السفاح وأخيه أبي جعفر المنصور، هما: محمد النفس الزكية وابراهيم ابنا عبد الله، وقد أعلنا الثورة عام 145 فقُتل أحدهما في المدينة، والآخر بظاهر الكوفة. أما ادريس بن عبد الله فإنه فرّ من العباسيين بعد معركة فخ التي جرت بضواحي مكة عام 169، فلجأ إلى مصر، ومنها إلى المغرب، حيث تمكّن من تأسيس الدولة الإدريسية المستقلة عن خلافة العباسيين.

قليل من الوقت لا على السلطة الزمنيـة فحسب، ولكن على السلطة الروحية أيضاً، واستقر في جبل زرهون على بعد نحو ثلاثين ميلاً من فاس، وغدت موريطانيا كلها تدفع له الخراج، ومات دون أن يترك ولداً، وإنما ترك زوجته حاملاً، وهي قوطية اعتنقت الإسلام فوضعت ولداً سمّي باسم أبيه ادريس. وأراد السكان أن يكون لهم ملكاً فتربّى تربية حسنة، ونال عناية فائقة، ولما كَبُر تعلّم تحت رعاية مولى أبيه الشجاع راشد، وأخذ منذ بلغ الخامسة عشرة من عمره يحقق انتصارات مجيدة، ففتح عدة بلدان حتى تكاثر عدد الأسر والجنود التابعين له تكاثراً عظيمًا، وتبين له أن دار مقام أبيه لم تعد تكفيه، وعزم على أن يغادر الجبل ويؤسس مدينة يستقر فيها. وقد جمع لهذه الغاية عدداً من المعماريين والمهندسين فحصوا بدقة كل السهول المجاورة للجبل ونصحوه ببناء المدينة في الموقع الذي بُنيت فيه، كانت هناك عيون عديدة ونهر كبير ينبع من سهل لا يبعد كثيراً عن تلك العيون، ويمر بين تلال صغيرة لينحدر إلى شعاب في غاية الجمال، بعد أن يقطع السهل ويسيل بهدوء وسكينة على مسافة ثمانية أميال، كما كانت هناك غابة كبيرة في الجنوب تنفع المدينة كثيراً وتسد حـاجاتهـا. هذا هو السبب الذي من أجله بُنيت على الضفة الشرقية للوادي مدينة صغيرة تضم حوالي ثلاثة آلاف كانـون. وتحتوي عـلى ما هـو ضروري نـظراً لأهميتها.

ولما مات ادريس بنى أحد أبنائه مدينة أخرى في الجهة الغربية، وهي أقل ضخامة من الأولى واقعة أيضاً على مجرى النهر[(38)]. ونمت المدينتان مع مرور الزمن حتى لم يعد يفصل بينهما سوى ممر صغير، لأن الأمراء العديدين

---

(38) اختلط الأمر هنا أيضاً على المؤلف، فالمؤسسان لمدينة فاس هما ادريس الأول (على مـا يؤخذ من كـلام الـوزان وأثبتـه البحث الحـديث)، وادريس الثـاني المتـوفى عام 213/828. وليس هناك من يزعم أن أحد أبناء ادريس الثاني الاثني عشر بنى إحدى عدوتي فاس، إلا أن يكون ترميًا أو توسيعاً. انظر **القرطاس**، ص 29 - 60.

الذين حكموا كل واحدة منها بذلوا ما في مستطاعهم لتوسيع مدينتهم. لكن لم تمرّ مائة سنة على تأسيس فاس حتى تكوّنت أحزاب متباينة وظهرت خلافات بين سكان المدينتين، فأصبح لكل واحدة منها أمير، وقامت بينهم حروب كثيرة استمرت مائة عام.

وبعد ذلك حمل يوسف (بن تاشفين) ملك لمتونة على الأميرين بجيش عظيم، فتمكّن منها وقتلها شر قتلة، وهلك معظم سكان المدينتين حينئذ ونهبت العدوتان، وبلغ عدد القتلى ثلاثين ألفاً. وقرر الملك يوسف جمع السكان في مدينة واحدة، وهدم الأسوار التي كانت تفصل المدينتين إحداهما عن الأخرى. وبنى جسوراً على النهر ليسهل العبور من ضفة إلى أخرى. وهكذا أصبحت المدينتان مدينة واحدة قُسّمت إلى عشرة أحياء، أو بتعبير أدق إلى عشر نواح.

والآن، وقد شرحت لكم أسباب تأسيس فاس وكيفية بنائها، سأصف لكم بتفصيل الحالة التي توجد عليها اليوم.

وصف دقيق وسريع لفاس

إن فاساً مدينة كبيرة جداً، تحيط بها أسوار متينة عالية، وتكاد تكون كلها مشيّدة على تلال، بحيث إن وسطها وحده هو المستوي، وليس على الجوانب الأربعة إلا المنحدرات كما قلت. ويدخل الماء إلى المدينة من نقطتين، يمر أحد فروع النهر بالقرب من فاس الجديد جنوباً، ويدخل الفرع الآخر إليها من جهة الغرب، وبعد دخول الماء إلى المدينة يوزّع بواسطة عدد من القنوات، تسوق معظمه لدور السكان ورجال الحاشية الملكية وسائر الأبنية الأخرى. فلكل جامع أو مسجد حقه في هذا الماء، وكذلك الفنادق والملاجىء والمدارس. وتوجد قرب المساجد ميضآت عامة، وهي أبنية مربعة الشكل تحيط بها كنائف ذات أبواب قصيرة، وفي كل كنيف مغسلة يخرج الماء إليها من الجدار ويسيل في ساقية من رخام. وحيث

إن التيار قوي فإن الماء ينظّف الميضأة ويدفع هكذا جميع قاذورات المدينة إلى النهر. وفي وسط بناية الميضأة صهريج عمقه نحو ثلاثة أذرع وعرضه أربعة، وطوله اثنا عشر ذراعاً. وقد صنعت حول الصهريج مجار تصرف الماء الجاري لأسفل المراحيض. وفي فاس نحو مائة وخمسين ميضأة من هذا النوع.

والدور مبنية بالآجر والحجر المنحوت بدقة، ومعظم هذا الحجر جميل ومزدان بفسيفساء بهيجة. وكذلك الأفنية والأروقة (المباحات) مبلّطة بزليج مربّع قديم مختلف الألوان على شكل أواني مايورقة الخزفية. وقد اعتاد الناس أن يصبغوا السقوف بألوان زاهية مثل اللازورد والذهب. وهذه السقوف مصنوعة من خشب ومستوية، ليسهل نشر الغسيل على سطح الدار والنوم فيه صيفاً. وتتألف الدور كلها تقريباً من طابقين، وفي كثير منها ثلاث طبقات، في كل طبقة شرفات كثيرة الزخرفة تسمح بالمرور تحت السقف من حجرة لأخرى، لأن ساحة الدار مكشوفة والحجرات قائمة في كل جوانبها، وهي ذات أبواب واسعة وعالية جداً، ويصنع الأثرياء لهذه الأبواب مصاريع من خشب في غاية الحسن والدقة في النقش، ويجمّلون بيوتهم بخزانات في غاية الظرف مصبوغة على امتداد عـرض البيت، يحفظون فيها أثمن الأشياء. على أن بعضهم يفضّل ألّا يزيد علو هذه الخزانات على ستة أشبار حتى يتمكّنوا من بسط فراشهم فوقها. وجميع الأروقة في هذه الدور قائمة على أعمدة من الآجر مكسوّة بالزليج إلى ارتفاع يزيد قليلاً عن نصف القامة، ونرى في بعض البيوت أعمدة من رخام. ويُبنى عادة بين كل عمود وآخر قوس يغطّى بالزليج، والقناطر الموضوعة بين الأعمدة لتحمل الطبقات العليا مصنوعة من خشب، ومزدانة بنقوش جميلة وأصباغ مختلفة الألوان. ويوجد في كثير من المنازل صهاريج مستطيلة يتراوح عرضها بين ستة أذرع وسبعة، وطولها بين عشرة واثني عشر ذراعاً؛ ويبلغ عمقها ستة أشبار أو سبعـة تقريباً. وكلها مكسوّة

بمربّعات الزليج الميورقي. ويبنون في كل جانب من جوانب الصهريج على طوله، سقايات منخفضة مزخرفة بنفس الزليج. وتُزيّن بعض هذه النافورات المائية بخصات من المرمر على ارتفاع نصف قامة مثلما يشاهد ذلك في نافورات أوربا، وعندما يمتلىء حوض كل سقاية يفيض منه الماء إلى صهاريج كبيرة بواسطة قنوات مغطّاة مبلّطة أيضاً بطريقة جميلة. وعندما تمتلىء الصهاريج الكبرى بدورها يخرج منها الماء بواسطة مجار معدّة حولها، ثم ينصبّ في بالوعات صغيرة. وهكذا يجري الماء تحت المراحيض ويذهب إلى النهر. ويُعتنى بالصهاريج دائماً لتبقى في غاية الصفاء والنقاء، ولا تُستعمل إلا في الصيف، حيث يستحمّون فيها رجالاً ونساء وأطفالاً. ومن عادتهم أيضاً أن يبنوا على سطوح المنازل متنزّهاً يشتمل على عدة حجيرات فسيحة ومزخرفة جداً، تتسلى فيه النساء عندما يُتعبهن العمل، إذ يستطعن من هناك أن يشرفن على المدينة كلها تقريباً.

وفي فاس حوالى سبعمائة جامع ومسجد، والمساجد أماكن صغيرة للصلاة. ويوجد من بين هذه الجوامع خمسون كبيرة حسنة البناء، مزدانة بأعمدة من الرخام أو غيره من الحجر الذي لا يُرى مثله في إيطاليا. وتدعم جميع الأعمدة عوارض مكسوّة بالزليج أو الخشب المنقوش بدقة. وسقوف الجوانب مصنوعة على الطريقة الأوربية، أي من ألواح، والأرض مفروشة بالزليج ومغطّاة بحصر في غاية الجمال، مخيط بعضها إلى بعض بمهارة، بحيث لا يرى شيء من الزليج، والجدران مغطّاة كذلك بحصر، لكن بقدر قامة الإنسان فقط. ولكل جامع صومعة يصعد إليها المكلّفون بالأذان لإعلان أوقات الصلوات العادية، وليس لكل جامع أكثر من إمام واحد يقيم فيه الصلاة، ويتكفّل كذلك بالنظر في مداخيل الجامع، إذ عليه أن يمسك الحساب بدقة، ويوزّع الدخل على الذين يخدمون الجامع، كالمكلّفين بتعهّد المصابيح الموقدة ليلاً، والقائمين بحراسة الأبواب، والمؤذنين الذين يؤذنون للصلاة ليلاً من أعلى الصومعة. وأما الذين

يؤذنون بالنهار فلا يتقاضون أي أجر، إلا أنهم يعفون من كل ضريبة وكلفة كيفما كانت.

وفي المدينة جامع عظيم يدعى جامع القرويين، وهو في غاية الكبر، يبلغ محيط دائرته نحو ميل ونصف ميل، وله واحد وثلاثون باباً كلها كبيرة عالية، وتبلغ المساحة المغطّاة فيه نحو مائة وخمسين ذراعاً طوسكانياً طولاً، وأقل بقليل من ثمانين ذراعاً عرضاً. والصومعة التي يؤذن عليها عالية جداً كذلك. ويحمل السقف ثمانية وثلاثون قوساً طولاً، وعشرون عرضاً. وحول بناية الجامع في الواجهات الشرقية والغربية والشمالية أروقة، عرض كل واحد منها ثلاثون ذراعاً وطوله أربعون ذراعاً. وتوجد تحتها مخازن فيها الزيت وسائر الأشياء الأخرى التي يحتاج إليها الجامع، ويوقد فيه كل ليلة تسعمائة سراج، إذ لكل قوس سراجه. وفي الصف المكوّن من أقواس الوسط، وبالأخص التي تؤدّي إلى المحراب، فيه وحده مائة وخمسون مصباحاً. وهناك ثريات عديدة من البرونز في كل واحدة منها ألف وخمسمائة مصباح، صُنعت من نواقيس بعض المدن المسيحية التي فتحها ملوك فاس. وفي داخل الجامع على طول الجدران يشاهد المرء كراسي مختلفة الأشكال يدرس عليها العديد من العلماء الأساتذة، حيث يلقون على الشعب دروساً تتعلّق بأمور دينه وشريعته. تبتدىء هذه الدروس بعد الفجر بقليل، وتنتهي بعد ساعة من شروق الشمس. ولا تلقى الدروس صيفاً إلا من منتصف الليل إلى الساعة الواحدة والنصف صباحاً، ويتعلّق التعليم (حينئذ) بالعلوم الأخلاقية والروحية المتصلة بالشريعة المحمدية، ولا يتولّ إلقاءها إلا بعض الناس الخصوصيين، أما الدروس الأخرى فلا تُسند إلا إلى رجال متضلّعين من هذه المواد، يتقاضون عن دروسهم أجوراً عالية حسنة وتقدّم لهم الكتب والإنارة. وليس لإمام الجامع وظيف آخر غير إقامة الصلاة إلا أنه يمسك حساباً مدقّقاً للهبات والأموال التي تقدّم للجامع لفائدة الأطفال الصغار، ويوزّع الإيرادات الموقوفة على

الفقراء، سواء كانت نقوداً أو حبوباً، فتُفرّق على مساكين المدينة بمناسبة كل عيد بمقادير متفاوتة حسب تكاليفهم العائلية.

يتقاضى القابض الذي يجمع إيرادات الجامع مثقالاً في اليوم عن هذا الوظيف الخاص، ويعمل معه ثمانية كتّاب أجر كل واحد منهم ستة مثاقيل في الشهر، وستة مساعدين يستخلصون أثمان كراء الدور والدكاكين وغير ذلك من الإيرادات، وينال كل واحد منهم خمسة بالمائة من المبلغ الذي يحصّله لقاء أتعابه. وللقابض فضلاً عن ذلك نحو عشرين من الأعوان المكلفين بالذهاب إلى الضواحي لكي يقدّموا للفلاحين وللبستانيين وأصحاب الكروم ما يحتاجون إليه، وأجر كل واحد من هؤلاء الأعوان ثلاثة مثاقيل في الشهر.

ويوجد خارج فاس على بعد ميل تقريباً نحو عشرين فرناً للجير، ومثل هذا العدد لأفران الآجر لسد حاجيات بناء الجامع والأملاك التابعة له. ولجامع القرويين دخل يومي يقدّر بمائتي مثقال، يُصرف أكثر من نصفها فيما ذكرت، على أن كل جامع أو مسجد لا مورد له، يستمد من القرويين الكثير من الأشياء التي يحتاج إليها. وفضلاً عن ذلك يقدّم ما هو ضروري للصالح العام في المدينة، لأن الجماعة ليس لها دخل من أي نوع كان. وقد اعتاد ملوك فاس في وقتنا الحاضر أن يقترضوا مبالغ ضخمة من إمام الجامع دون أن يردّوها إطلاقاً.

وفي فاس إحدى عشرة مدرسة للطلاب جيدة البناء كثيرة الزخرف بالزليج والخشب المنقوش، بعضها مبلّط بالرخام، وبعضها بالخزف المايورقي. وتحتوي كل مدرسة على عدة حجر، في هذه مائة حجرة أو أكثر، وفي تلك أقل من هذا العدد، وكلها من تأسيس مختلف ملوك بني مرين. وتمتاز إحدى هذه المدارس (البوعنانية) بروعة فائقة سعة وجمالاً، وهي من بناء السلطان أبي عنان (المريني)، يرى الناظر فيها بركة فاخرة من رخام، سعة خصّتها بطتان من الماء (نحو 1.850 ليتر). ويخترق هذه المدرسة

جدول ماء يسيل في قناة صغيرة مغطّاة أرضها وحواشيها بالرخام والزليج، وهناك ثلاثة أروقة مغطّاة عجيبة المنظر تحيط بها أعمدة مثمنة الأضلاع مثبتة في الجدران، مزدانة بمختلف الألوان. والأقواس الواقعة بين الأعمدة مكسوّة بالزليج والذهب الرفيع واللازورد، والسقف من خشب منقوش بصنع دقيق منتظم. وقد أقيم بين هذه الأروقة والصحن شبه شبابيك من خشب على شكل ستائر، بحيث إنّ من يوجد بالصحن لا يرى من هو داخل الحجرات المطلة على هذه الأروقة. وجميع الجدران مكسوّة كذلك بالزليج على الارتفاع الذي يمكن للإنسان أن يصله بيده. وفي المدرسة كلها على طول هذه الجدران كتابات شعرية منقوشة تسجّل تاريخ تأسيس المدرسة، وأمداحاً كثيرة لهذه البناية ومؤسسها السلطان أبي عنان. كتبت في زليجات بحروف كبيرة سوداء، على أرضية بيضاء بحيث يمكن قراءتها من مسافة بعيدة جداً. وأبواب المدرسة كلها من البرونز المصنوع بدقة وتزويق كثير، وأبواب الحجرات من الخشب المنقوش. وفي القاعة الكبرى المخصصة للصلاة منبر ذو تسع درجات، مصنوع كله من خشب الأبنوس والعاج، وهو في الواقع تحفة عجيبة.

سمعت من عدد من أساتذة هذه المدرسة الذين يؤكّدون ما سمعوه من شيوخهم، أنه عندما تم بناء هذه المدرسة، أراد أبو عنان أن يطّلع على سجل نفقات هذه المؤسسة، ولم يتصفّح بضع صفحات حتى وجد مجموعاً يقارب أربعين ألف مثقال، فأخذته الدهشة ولم يتابع قراءة السجل ثم مزّقه وألقى به في القناة التي تخترق المدرسة، وأنشد لأحد شعرائنا العرب بيتين يعبّران عن هذا المغزى:

لا بأس بالغالي إذا قيل حسن ليس لما قرّت به العين ثمن[39]

(39) يظهر أن الأمر هنا اختلط على المؤلف أيضاً، فالذي تمثّل بهذا البيت هو والد أبي عنان، أبو الحسن المريني، بعد أن تم بناء المدرسة الجديدة بمدينة مكناس، وكان قدم للنظر على بنائها قاضيه على هذه المدينة، فجاء من فاس ليقف عليها ويرى عملها

غير أنه كان هناك ناظر يدعى ابن الحاج، ضبط هذه المصاريف ووجد أن مجموعها بلغ أربعمائة وثمانين ألف مثقال. وتشبه سائر مدارس فاس قليلاً هذه المدرسة.

في كل مدرسة أساتذة لمختلف العلوم، فهذا يلقي درسه في الصباح، وذاك في المساء، ويتقاضون جميعاً مرتّبات حسنة أوصى بها مؤسس المدرسة. وكان كل طالب من طلبة هذه المدرسة في الزمن الماضي معفى من مصاريفه ولباسه مدة سبع سنوات، أما الآن فلم يبق له غير السكن، إذ خرب عدد كثير من الأملاك والبساتين التي كانت محصولاتها مخصصة لهذا الغرض أثناء حروب سعيد. ولم يبق اليوم سوى دخل بسيط يمكّن من الاحتفاظ بالأساتذة الذين يتقاضى بعضهم مائتي مثقال، وبعضهم مائة، وبعضهم أقل من ذلك. ولعل هذا أحد الأسباب التي أدّت إلى انخفاض القيمة الفكرية، ليس في فاس وحدها ولكن في جميع مدن افريقيا.

لا يسكن في هذه المدارس سوى بعض الطلبة الغرباء عن المدينة، الذين تتكفّل بمعاشهم صدقات أهل فاس ونواحيها. وإذا اتّفق أن قُبِل فيها طالب فاسي كان وحيداً. وعندما يريد أستاذ أن يلقي درسه، يبدأ أحد الطلبة بقراءة النص، ثم يشرحه الأستاذ ويضيف إليه بعض تأويلاته الشخصية، منبهاً إلى ما فيه من صعوبات. ويتناقش الطلبة أحياناً فيما بينهم أمام الأستاذ حسب موضوع الدرس.

البيمارستانات والحمامات الموجودة بمدينة فاس

يوجد بفاس بيمارستانات عديدة لا تقل حسناً عن المدارس التي سبق ذكرها. وكان الغرباء قديماً يُعطون السكن بها لمدة ثلاثة أيام، ويوجد

وصنعها، فقعد على كرسي من كراسي الوضوء حول صهريجها، وجيء بالرسوم المتضمّنة للتنفيذات اللازمة لها، فغرّقها في الصهريج قبل أن يطالع ما فيها وأنشد البيت المذكور هنا. انظر أ. الناصري، **الاستقصا**، 3 :177.

عدد كبير من البيمارستانات خارج أبواب المدينة، تقل جمالاً عن التي في داخلها. وكانت هذه البيمارستانات غنية جداً إلا أنه في أيام حرب سعيد عندما كان السلطان في أشد الحاجة إلى المال، أشاروا عليه ببيع إيراداتها وأملاكها. ولما رفض السكان بيعها تقدم أحد وكلاء الملك وأفتاه بأن هذه البيمارستانات إنما أسست بفضل الصدقات التي قدّمها أسلاف الملك الحالي الذي يوشك أن يفقد مملكته، فيستحسن والحالة هذه بيع تلك الأملاك لصد العدو المشترك، حتى إذا وضعت الحرب أوزارها سهُل شراؤ ها من جديد. وهكذا بيعت هذه الأملاك. وتوفي الملك قبل أن يحصل شراء أي عقار جديد، وبقيت البيمارستانات فقيرة محرومة تقريباً من وسائل العمل. ومع ذلك فإنها تستضيف اليوم بعض الفقهاء الغرباء وأشراف المدينة، حفاظاً على الغرف لتبقى في حالة جيدة. وليس لمرضى الغرباء في أيامنا هذه غير بيمارستان واحد لا طبيب فيه ولا علاج. ولا يجد المريض المسكين فيه غير حجرته وطعامه ومن يخدمه إلى أن يموت أو يشفى من مرضه. وفي هذا البيمارستان حجرات مخصصة للحمقى، أي أولئك المجانين الذين يقذفون بالحجر أو يرتكبون أنواعاً أخرى من الأذى، يقيّدون فيها بالأغلال والسلاسل. وحواجز هذه الحجرات من جهة الممر وداخل البناية مسوّرة بعوارض خشبية متينة جداً. وإذا رأى المكلّف بتقديم الطعام للحمقى هياج أحدهم انهال عليه بضربات متوالية من عصا يحملها معه دائمًا لهذا الغرض. وقد يقترب بعض الغرباء من هذه الحجرات فيناديه الحمقى ويشكون إليه استمرار حجزهم في السجن رغم شفائهم من حمقهم، وما يتعرضون له من كثرة سوء معاملة حرّاسهم كل يوم. وإذا صدّق المار كلام أحدهم واتّكأ على جانب نافذة حجرته، مدّ الأحمق إليه يده وأمسك بتلابيبه ولطخ بيده الأخرى وجهه بالغائط، لأن هؤلاء الحمقى، وإن كانت لهم ميضآت، يتغوّطون غالباً في وسط الحجرة، وعلى الحراس أن ينظّفوا هذه الأقذار باستمرار. ولذلك فإنهم ينبّهون الغرباء أن يأخذوا حذرهم ولا يقتربوا كثيراً من هذه الحجرات. وأخيراً فإن هذا

البيمارستان[40] يتوفر على كل ما يحتاج إليه من كتّاب وممرضين وحرّاس وطبّاخين وغيرهم ممن يهتمون بالمرضى، ويتقاضى كل واحد من هؤلاء المستخدمين أجراً حسناً، ولقد عملتُ وأنا شاب كاتباً في هذا البيمارستان مدة عامين، حسبما هو معتاد عند صغار الطلبة، وكانت هذه الوظيفة تدرّ علي مبلغ ثلاثة مثاقيل في الشهر.

في فاس مائة حمام جيدة البناء حسنة الصيانة، بعضها صغير وبعضها كبير، وكلها على شكل واحد، أي أن في كل واحد منها ثلاث حجرات أو بالأحرى ثلاث قاعات. وفي خارج هذه القاعات غرف صغيرة مرتفعة قليلاً يصعد إليها بخمس درجات أو ست، حيث يخلع الناس ثيابهم ويتركونها هناك. وفي وسط القاعات صهاريج على شكل أحواض، إلا أنها كبيرة جداً. وإذا أراد أحدهم أن يستحم في أحد هذه الحمامات، دخل من أول باب إلى قاعة باردة فيها صهريج لتبريد الماء إذا كان ساخناً جداً، ومن ثم نفذ من باب ثان إلى قاعة ثانية أشد حرارة بقليل، حيث يقوم الخدم بغسل جسمه وتنظيفه. ومن هنا يدخل إلى قاعة ثالثة شديدة الحرارة ليعرق بعض الوقت، حيث يوجد مرجل محكم البناء يسخن فيه الماء، ويغترف منه بحذق في دلاء من خشب. ولكل مستحم الحق في أخذ دلوين من الماء الساخن، ومن رغب في أكثر من ذلك أو أراد أن يغسل أعطى الخادم (بيوتشين) أو (بيوتشو)[41] واحداً على الأقل، وأعطى أيضاً صاحب الحمام (كواطرينين)[42] اثنين لا أكثر.

يسخن الحمام بالزبل، ويعمل عند الحمامين غلمان وبغالون يجوبون أرجاء المدينة ليشتروا الزبل من الاصطبلات وينقلوه إلى خارج المدينة، ثم يجعلوه أكداساً ويتركوه ليجف شهرين أو ثلاثة أشهر، وبعد ذلك يُستعمل

---

(40) يظهر أن المقصود بيمارستان سيدي فرج المعروف بهذا الاسم حتى أيامنا هذه.

(41) انظر قيمة هذه العملة الإيطالية في الهامش رقم 28م المتقدم.

(42) كواطريني (Quattrini): عملة إيطالية قيمتها نحو 8 سنتيم ذهب.

كالحطب في تسخين القاعات وماء الحمامات. وللنساء كذلك حماماتهن الخاصة، إلا أن الكثير منها يُستعمل للرجال والنساء؛ للرجال أوقات معيّنة بين الساعة الثالثة والرابعة عشرة، أو أكثر أو أقل بحسب الفصول، ويُخصص باقي اليوم للنساء. فإذا دخلن إلى الحمام مدّ حبل على عرض الباب للإشعار بذلك حتى لا يدخله رجل. وإذا أراد أحدهم أن يقول شيئاً لزوجته فعليه أن ينادي إحدى مستخدمات الحمام، وهن زنجيات، لتقوم بمهمة التبليغ.

ومن عادة سكان المدينة أيضاً رجالاً ونساء أن يأكلوا في الحمامات ويتسلّوا فيها غالباً بمختلف ضروب التسلية، ويغنّوا بأعلى أصـواتهم. ويدخل إليها معظم الشبان عراة دون أن يستحيي بعضهم من بعض، لكن الرجال المحترمين وذوي الحيثيات منهم يأتزرون بمئزر ولا يجلسون في القاعات المشتركة، بل ينفردون في حجر خاصة مزخرفة يحتفظ بها في حالة نظافة جيدة لاستقبال الشخصيات السامية.

نسيت أن أذكر أن غلمان الحمام عندما يغسلون أحداً يطلبون منه أن يضطجع ثم يقومون بتدليكه، تارة بأدهان منشّطة، وتارة بأدوات خاصة تزيل كل الأوساخ، وإذا غسلوا أميراً أضجعوه على بساط من لبد وأسندوا رأسه على شبه وسادة من خشب مغطّى باللبد أيضاً. ويوجد في كل حمام حلاقون عديدون يؤدّون للحمّامي مبلغاً معيناً ليحتفظ لهم بآلاتهم ويسمح لهم بممارسة حرفتهم.

ومعظم هذه الحمامات ملك للمساجد والمدارس تؤدّي لها كراء مرتفعاً يبلغ المائة والمائة والخمسين مثقالاً، أو أقل أو أكثر بحسب حجم المكان.

ويجب ألاّ نغفل ذكر عادة الغلمان المستخدمين في هذه الحمامات بإقامة حفل سنوي على الشكل التالي: يستدعون جميع أصحابهم ويذهبون إلى خارج المدينة، مصحوبين بموسيقيين ينفخون في النفير والمزمار، وبعد

ذلك يقتلعون بصلة زنبق يضعونها في إناء جميل من نحاس، يغطّونه بسماط صغير حديث العهد بالغسل، ثم يعودون إلى المدينة قاصدين باب الحمام على أصوات العزف، حيث يضعون البصلة في سلة يعلّقونها على الباب قائلين: «سيكون هذا سبب ازدهار الحمام إذ سيقصده الكثير من الناس». وفي نظري يبدو أن هذا ينبغي أن يسمّى قرباناً على شاكلة ما كان يفعله الأفارقة القدامى يوم كانوا وثنيين، واستمرت هذه العادة حتى وقتنا هذا.

ونجد كذلك بعض أسماء الأعياد التي كان النصارى يحتفلون بها، وما زال الناس يستعملونها اليوم، غير أنه لم يعد أحد يعرف لأي سبب لا يقع الاحتفال بأي عيد منها. وفي كل مدينة يلاحظ بعض الاحتفالات والعادات التي خلّفها النصارى منذ كانوا يحكمون افريقيا. وإذا سنحت الفرصة فسأشير إليها.

الفنــــادق

يوجد بفاس مائتا فندق، بنيانها في غاية الاتقان، بعضها فسيح جداً، كالتي تقع بجوار الجامع الكبير. وتتألف كلها من ثلاث طبقات، منها ما يشتمل على مائة وعشرين غرفة، ومنها ما يشتمل على أكثر من ذلك. وفي كل فندق صهريج وميضأة ببالوعاتها لاستفراغ القاذورات، ولم أر قط في إيطاليا أبنية مثلها، إلا مدرسة الإسبانيين الموجودة في بولونية[43]، وقصر الكردينال سان جورج في روما، وتفتح كل أبواب الغرف على ممر.

لكن على الرغم من حسن هذه الفنادق وسعتها فإنها تمثل سكناً كريهاً، لخلوها من الأسرة والفرش. فصاحب الفندق يقدم للمكتري غطاء

(43) مدينة في شمالي إيطاليا سبق للحسن الوزان أن درس في معاهدها اللغة العربية.
ملاحظة: أرقام الهوامش 44-45-46-47 أسقطت من الأصل، لذلك فإن الهامش رقم 43 يتبعه الهامش 48 ولا بتر.

وحصيراً ينام عليه، وإذا أراد هذا أن يأكل فعليه أن يشتري طعاماً ويقدمه للطبخ. ولا يسكن الغرباء وحدهم هذه الفنادق، بل جميع الرجال الأرامل من أهل المدينة الذين لا منزل لهم ولا أهل، يسكن الغرفة واحد منهم أو اثنان، ويعتنون بفراشهم بأنفسهم ويطبخون طعامهم. وأسوأ ما في هذا الأمر مساكنة رهط يقال لهم «الهيوى»، وهم رجال يرتدون ثياب النساء ويتحلون بحليهن. يحلقون لحاهم ويقلدون النساء حتى في طريقة كلامهن. وماذا عساي أقول في أسلوب كلامهم؟ إنهم يتغنجون أيضاً. ولكل واحد من هؤلاء الأنذال صاحب يتسراه ويعاشره كما تعاشر المرأة زوجها. ولهؤلاء الناس أيضاً في الفنادق زوجات أخلاقهن كأخلاق المومسات في مواخير أوربا، ولهم كذلك ترخيص بشراء الخمر وبيعه دون أن يزعجهم موظفو الحاشية.

يختلف إلى هذه الفنادق دائماً أولئك الذين يعيشون أشنع عيشة، يغشاها بعضهم للسكر، وبعضهم لاتيان شهوتهم مع باغيات مرتزقات، وبعضهم الآخر يكون بمنجاة من الحاشية بسبب تصرفات غير شرعية ووضيعة يحسن أن نضرب صفحاً عن ذكرها.

لأرباب الفنادق أمين، ويؤدون بعض الاتاوات للنقيب، بالإضافة إلى أنهم ملزمون عند الاقتضاء بأن يقدموا إلى جيش الملك أو الأمراء عدداً كثيراً من مستخدميهم لطبخ الطعام للجنود، لقلة المختصين في مثل هذه الخدمة.

ولولا ما يلزم المؤرخ من قول الحق لأغفلت بكل سرور هذا القسم من وصفي وفضلت السكوت عن اللوم الذي تستحقه هذه المدينة التي نشأت فيها وترعرعت. والواقع أن مملكة فاس، إذا استثنينا هذا العيب، تضم أناساً هم أشرف خلق الله بافريقيا كلها، ولا علاقة لهم إطلاقاً مع أمثال أرباب الفنادق الذين سبق ذكرهم، فهؤلاء لا يخالطون إلا الأراذل من أسفل الأسافل، ولا يكلمهم أي فقيه أو تاجر أو صانع محتشم،

ويمنعون من الدخول إلى الفنادق القريبة من الجامع، وإلى الأسواق والحمامات والبيوت الخاصة. ويمنعون بالأحرى من الاشراف على الفنادق المجاورة للجامع التي يسكنها تجار من درجة سامية، ويتمنى لهم الموت جميع الناس، لكن لما كان الأمراء يستخدمونهم لحاجات الجيش كما ذكرت، فإنهم يتركونهم يعيشون تلك العيشة الكريهة.

الطواحين

يوجد بداخل فاس قرابة أربعمائة طاحونة، أعني أبنية مشتملة على أرحاء يمكن أن يبلغ عددها ألف رحى، إذ تتكون كل طاحونة من قاعة كبيرة ذات أعمدة تضم أحياناً أربع أو خمس أو ست أرحاء. ويطحن قسم من سكان الضواحي قمحهم في المدينة، ويوجد بعض الباعة يدعون الدقاقين، لهم طواحين يستأجرونها، يشترون الحب ويطحنونه، ثم يبيعون الدقيق في دكاكين مستأجرة كذلك، فيحصلون من هذه المهنة على ربح وفير، لأن جميع الصناع الذين لا تكفيهم وسائلهم لامتيار الحبوب يشترون القمح ويطحنونه في بعض الطواحين الخاصة بأبناء المدينة مقابل (بايوتشي) لكل كيل (رودجيو). وجل هذه الطواحين في ملك الجوامع والمدارس، والقليل منها في ملك الخواص، وكراؤ ها مرتفع يبلغ مثقالين لكل رحى.

صناع مختلفون، ودكاكين، وأسواق

نقابات الحرفيين بفاس مفصول بعضها عن بعض، وأشرفها يوجد حول الجامع (القرويين) وبالقرب منه. وهكذا يشغل العدول حوالي ثمانين دكاناً، بعضها ملتصق بالجامع، وبعضها مقابل له، وفي كل دكان عدلان.

وإلى الغرب من ذلك نحو ثلاثين دكاناً للكتبيين، وإلى الجنوب بائعو الأحذية الذين يشغلون قرابة مائة وخمسين دكاناً، يشترون الأحذية والخفاف بالجملة من الخرازين، ثم يبيعونها بالتقسيط. ولا يبعد

عنهم كثيراً الخرازون الذين يصنعون أحذية الأطفال، ويبلغ عدد دكاكينهم نحو خمسين دكاناً. وفي شرقي الجامع مكان باعة أواني النحاس والصفر، وأمام الباب الرئيسي للجامع في الجهة الغربية يوجد باعة الفواكه الذين يشغلون نحو خمسين دكاناً يبيعون فيها فواكههم. وبعدهم الشماعون الذين يصنعون من الشمع أجمل أشكال رأيتها في حياتي، ثم العقادون، إلا أن دكاكينهم قليلة.

وبعد ذلك تجد بائعي الأزهار يبيعون الليمون والحامض أيضاً، وعندما ترى كل هذه الأزهار الكثيرة الأنواع تخالك تشاهد أجمل المروج وأكثرها نضرة في العالم، أو تنظر حقيقة إلى لوحة مزخرفة بمختلف الألوان. ويبلغ عدد دكاكينهم نحو العشرين، لأن الذين تعودوا شرب النبيذ يحبون دائماً أن تكون الأزهار بقربهم.

ويأتي بعد الأزهار بائعو اللبن الذين تزادن دكاكينهم بآنية الميورقي المزخرفة، يشترون اللبن من البقارين الذين يعلفون الأبقار لهذه التجارة ويرسلون كل صباح اللبن في أوعية من خشب مطوقة بالحديد، ضيقة جداً في فمها وعريضة في قعرها، فيبيعه اللبانون في دكاكينهم، وما بقي لهم منه في المساء والصباح، اشتراه منهم تجار ليصنعوا الزبد من بعضه، ويتركوا البعض الآخر يتحمض ليبيعوه للزبائن لبناً حامضاً ورائباً. واعتقد أنه يباع يومياً في فاس خمسة وعشرون بطة من اللبن الطري والحامض.

يأتي بعد اللبانين بائعو القطن الذين يبلغ عدد دكاكينهم ثلاثين. وإلى الشمال منهم بائعو مصنوعات القنب كالحبال وأزمة الخيل والخيوط والشرائط الرفيعة. يأتي بعد ذلك صانعو النطق الجلدية والخفاف والأزمة الجلدية المطرزة بالحرير للخيل أيضاً. وتجد بعدهم صانعي المشدات الذين يصنعون أغمدة السيوف والمواسي وأغطية صدور الخيل، فبائعي الملح والجبص يشترونها بالجملة ويبيعونها بالتقسيط، ثم بائعي الأواني الخزفية ذات الصنعة المتقنة والألوان الزاهية، لبعضها لون واحد، ولبعضها الآخر

لونان، ويبلغ عدد دكاكينهم مائة. وبعد ذلك يأتي بائعو الشكم واللجم والأحزمة والسروج والركابات. ولهم نحو ثمانين دكاناً. ثم نصل إلى مجمع الحمالين، ويبلغ عددهم ثلاثمائة حمال، ولهم أمين أي رئيس، يختار كل أسبوع من يجب عليهم أن يشتغلوا ويكونوا رهن إشارة الجمهور طوال الأسبوع. يجمع هؤلاء الرجال ما ربحوه من مال في صندوق له عدة مفاتيح محفوظة عند كل رئيس مجموعة. ويقسم المال بين الذين اشتغلوا عندما ينتهي الأسبوع. ويحب هؤلاء الحمالون بعضهم بعضاً كالاخوة، فإذا مات أحدهم وترك طفلاً صغيراً، تكفلوا جميعاً بالمرأة إلى أن تتزوج مرة ثانية إذا رغبت في ذلك، واهتموا بعطف وحنان بالأولاد إلى أن يبلغوا السن الذي يمكنهم من القيام ببعض الأعمال. وإذا تزوج أحد الحمالين أو ولد له دعا جميع أصحابه إلى وليمة، وأعطاه كل واحد منهم هدية مقابل ذلك. ولا يمكن لأحد أن يمارس مهنة حمال قبل أن يدعو جميع أصحابه إلى وليمة وإذا لم يفعل فلن يتقاضى ـ عندما يشتغل ـ أكثر من نصف حصة الآخرين. وقد حصل هؤلاء الحمالون من الملوك على امتياز اعفائهم من أية ضريبة أو تكليف، ولا يؤدون شيئاً لاصحاب الأفران مقابل خبز عجينهم. وإذا ارتكب أحدهم جريمة يعاقب عليها بالإعدام فإنه لا ينفذ عليه الحكم أمام الجمهور. ويشتغل هؤلاء الناس وهم لابسون ثياباً قصيرة ذات لون واحد، ويلبسون خارج أوقات عملهم ما يشاؤون. وبالجملة فإنهم أناس يتحلون بالاستقامة والأخلاق الحسنة.

وبعد مجمع الحمالين يوجد مكان أمين الأمناء والقضاة الذين لهم سلطة على جميع المواد الغذائية. ويقوم في وسط هذه الساحة سياج من قصب مربع الشكل يباع فيه الجزر واللفت اللذان يستحسنهما الناس في فاس كثيراً لدرجة أنه لا يمكن شراؤهما مباشرة من الزراع باستثناء بعض الأشخاص المعينين الذين يؤدون ضريبة خاصة للجمرك. وتجد هناك في كل يوم خمسمائة حمل من الجزر واللفت، وأكثر من ذلك

أحيـانـاً، يبـاع منهـا كمية هـائلة. ومـع أن هـذين النـوعـين من الخضـر مرغـوب فيهـما كثيـراً كـما قلت، فـإنهما يبـاعـان عـادة بثمن بخس، أي ثلاثون أو على الأقل عشرون رطلاً بـ(بيوتشو) واحد. ويباع الفول الأخضر في موسمه بثمن رخيص جداً. وتقوم حول الساحة دكاكين تباع فيها الشعيرية، وأخرى تصنع فيها كرات صغيرة من اللحم المفروم تقلى في الزيت مع كثير من التوابل، حجم كل كرة حجم تينة عادية، ويباع الرطل منها بستة (كواطرينيات)، وتصنع من لحم البقر بدون شحم.

ويأتي بعد هذه الساحة إلى جهة الشمال سوق الخضـر، حيث يباع الكرنب ونوع من اللفت وسائر الخضر التي تؤكل مع اللحم، ويضم هذا السوق نحو أربعين دكاناً. ثم يأتي سوق الدخان حيث تباع الفطائر المقلية في الزيت (الاسفنج) التي تشبه ذلك الخبـز المعسول الذي يباع في روما. ولبائعي الفطائر في دكاكينهم عدة آلات وغلمان، لأنهم يصنعونها بعناية فائقة، ويبيعون منها يومياً كمية كبيرة، فتؤكل عند الفطور، لا سيما أيام الأعياد وقبل أيام الصيام. وتؤكل مع اللحم المشوي أو العسل، أو مع حساء قبيح يصنع هكذا: يدق اللحم ويطبخ ثم يدق من جديد ويصنع منه حساء سائل يصبغ بتراب أحمر.

ولا يصنع في فاس الشواء بالسفود، بل يبنى فرنان أحدهما فوق الآخر، وتوقد النار في الفرن الأسفل حتى إذا سخن الفرن الأعلى أدخلت فيه الخرفان كاملة من فتحة في أعلاه لئلا تحترق الأيدي. وهكذا ينضج اللحم بكيفية جيدة مكتسباً لوناً جميلاً وطعماً لذيذاً، إذ لا يصيبه دخان ولا لهيب مشتعل. ويستمر هذا الطهي بنار معتدلة الليل كله، ويشرع في الصباح في بيع هذا اللحم المشوي. ويباع كل يوم من الفطائر والخرفان المشوية أكثر من مائتي مثقال، لأن هناك خمسة عشر دكاناً لا تشتغل طوال اليوم إلا بذلك.

ويباع كذلك اللحم والسمك المقليان ونوع آخر من خبز خفيف مصنوع من أشرطة أغلظ من (لازاني الايطالية) ومعجون بالسمن، ويؤكل كذلك بالزبد والعسل. وتباع الأكارع عادة مطبوخة. ومن عادة الفلاحين أن يتناولوا في نفس الدكاكين هذه الأطعمة الغليظة في الصباح الباكر قبل أن ينصرفوا إلى أشغالهم في الحقول.

ويأتي بعد هؤلاء باعة الزيت والسمن المالح والعسل والجبن الطري والزيتون والليمون (الحامض) والجزر والكبر المصبر، ودكاكينهم مليئة بأواني الخزف المايورقي، تفوق قيمتها قيمة ما تحويه من بضاعة. وتباع جرار الزبد والعسل بالمزاد، والدلالون حمالون مختصون يكيلون الزيت عندما يباع بالجملة. وتسع هذه الجرار مائة وخمسين رطلاً، والخزافون ملزمون بصنعها في حجم هذه السعة تماماً، فيشتريها منهم رعاة المدينة ويملأونها ثم يبيعونها من جديد بفاس.

وعلى مسافة قريبة يوجد الجزارون في نحو أربعين دكاناً مرتفعة على شكل دكاكين الحرف الأخرى، يفصلون اللحم ويزنونه في الموازين. ولا تذبح البهائم في دكاكين الجزارين، بل في مجزرة بجوار النهر حيث تسلخ وتحمل إلى الدكاكين بواسطة حمالين تابعين للمجزرة. ولكن قبل أن تحمل الذبائح لا بد من عرضها على المحتسب الذي يأمر بفحصها ويسلم بطاقة مكتوباً عليها السعر الذي يجب أن يباع به اللحم. ويلزم الجزار أن يلصق هذه البطاقة على اللحم بحيث يتمكن الجميع من رؤيتها وقراءتها.

ونجد بعد الجزارين سوق الأقمشة الصوفية الغليظة البلدية محتوياً على نحو مائة دكان. وإذا أتى أحدهم بقطعة قماش لبيعها، فعليه أن يسلمها لدلال يضعها على كتفه ويذهب من دكان إلى آخر منادياً على الثمن. وعدد هؤلاء الدلالين ستون. تبتدىء الدلالة في منتصف النهار وتنتهي في وقت متأخر من المساء. يتقاضى الدلال (بيوتشين) اثنين عن كل مثقال، ويحقق تجار هذا الصنف أرباحاً طيبة.

ويأتي بعد ذلك صقالو الأسلحة من سيوف وخناجر ورماح الخ، ويقوم بعضهم بصقلها وبيعها، ثم الصيادون الذين يصطادون السمك من نهر فاس والنهر الذي يمر بضواحيها (سبو)، ويبيعون أسماكاً كبيرة في غاية الجودة بثمن بخس، أي بثلاثة (كواطرينيات) للرطل. ومن المعتاد أن يصطاد هنا سمك ممتاز (الشابل) يدعى (لاتشيا) في روما، يبتدىء صيده في أوائل أكتوبر، وينتهي في أبريل، كما سنذكر ذلك بالخصوص في معرض كلامنا عن الأنهار.

ثم تجد بعد الصيادين صانعي أقفاص الدجاج، يصنعونها من القصب ولهم أربعون دكاناً، لأن كل واحد من سكان المدينة يقتني عدداً كبيراً من الدجاج يسمنه، وحرصاً على النظافة لا يترك هذا الدجاج طليقاً في البيت، بل يسجن في هذه الأقفاص الكبيرة.

ويوجد بعيداً من هناك بائعو الصابون السائل، ودكاكينهم المجتمعة قليلة، لأنها توجد في كل الأحياء، ولا يصنع هذا الصابون في المدينة، بل في الجبال المجاورة، وينقله الجبليون والبغالون ثم يبيعونه لاصحاب هذه الدكاكين.

وعلى مسافة أبعد من ذلك نجد باعة الدقيق، ودكاكينهم المجتمعة كذلك قليلة لأنها متفرقة في كل الأحياء؛ ثم جماعة بذور الحبوب والخضر، وقد يبيعون قدراً يسيراً منها للأكل، إذ لا يبيع أحد من أهل المدينة حبوبه. وفي هذا السوق عدد كثير من الحمالين لهم بغال وخيول بالبرادع، يحملون عادة على كل دابة (رودجيو) ونصفاً، لكن في ثلاثة أكياس بعضها فوق بعض، وعليهم أن يزنوا هذه الحبوب.

وبعدهم باعة التبن في نحو عشرة دكاكين، ثم السوق الذي يباع فيه خيط الكتان وتحلج أليافه. يقوم هذا السوق في بناء كبير تحيط به أربعة أروقة، في أحدها باعة نسيج الكتان، والمستخدمون الذين يزنون الخيط، وفي الرواقين الآخرين النساء اللواتي يبعن هذا الخيط، وهو هنا كثير جداً.

ويقوم ببيع الخيط أيضاً دلالون يعرضونه في السوق. يبتدىء البيع ظهراً وينتهي عصراً، فتباع منه كميات ضخمة. وقد غرس في وسط ساحة السوق عدد من أشجار التوت لنشر الظل، ويذهب الناس إليه أحياناً بقصد التسلية، ولا يمكن الخروج منه إلا بجهد جهيد لكثرة ما به من نساء يختصمن في غالب الأحيان، ويتحول سبابهن إلى عراك وقذف بأشنع ما يمكن من الشتائم فيضحكن الحاضرين.

ولنرجع الآن إلى الجزء الغربي الممتد من جوار الجامع إلى الباب المؤدي إلى طريق مكناس. فإذا سرت من سوق الدخان على خط مستقيم، وجدت صانعي الدلاء الجلدية التي تستعمل في المنازل التي بها آبار، ويشغلون نحو أربعة عشر دكاناً. ثم صانعي الظروف التي يخزن فيها الدقيق والقمح، ولهم نحو ثلاثين دكاناً، ثم الإسكافيين وبعض الخرازين الذين يصنعون نعالاً خشنة للفلاحين وعامة الشعب، ويشغلون نحو مائة وخمسين دكاناً. وبعدهم صناع التروس والدرقات الجلدية على الطريقة الافريقية، التي نرى بعضها في أوربا، ثم الذين يغسلون الثياب، وهم من فقراء القوم، لهم معامل ثبتت فيها أوان كالأحواض في الكبر، يقصدهم الذين ليس لهم خادمات في بيوتهم ويسلمون إليهم القمصان والأغطية وغيرها من الثياب لغسلها، فيقوم هؤلاء الرجال بتنظيفها بعناية كاملة، وينشرونها على الحبال لتجف كما هي العادة في ايطاليا، ثم يطوونها بمهارة، ويجعلون هذا الغسيل في غاية النقاء والبياض لدرجة أن صاحبه لا يتعرف عليه إلا بصعوبة. ولهم نحو عشرين دكاناً هنا، لكن دكاكينهم المتفرقة في كل الأزقة وبعض الأسواق الصغيرة تنيف على المائتين.

ويأتي بعد ذلك صانعو قرابيس سروج الخيل، ولهم عدة دكاكين في الحي الشرقي (بل الغربي) في اتجاه مدرسة السلطان أبي عنان؛ ثم الحرفيون الذين يزخرفون الركابات والمهاميز واللجم، ويشغلون نحو أربعين دكاناً، وينجزون أعمالاً عجيبة. ولعل أحدكم رأى بعض هذه الأشياء في ايطاليا

أو في غيرها من البلدان المسيحية. وبعدهم الحدادون الذين لا يصنعون سوى الركابات والشكائم والقطع الحديدية المزخرفة لطقوم الخيل؛ ثم صانعو جلود السروج الذين يجعلون لكل سرج ثلاث زوائد بعضها فوق بعض، أوسطها هو الأرق، وأسفلها أقل زينة، وكلها من جلد الماعز القرطبي. ومصنوعات هؤلاء السراجين عجيبة هي أيضاً، كما يمكن أن يدرك ذلك فيما يشاهد منها بايطاليا. ولهم نحو مائة دكان. تليها دكاكين صانعي الرماح، وهي مستطيلة يمكن أن تصنع داخلها رماح طويلة.

وبعد ذلك توجد القصبة المتميزة بشارع في غاية الجمال، يمتد من الباب الغربي إلى قصر مشيد تسكنه أخت الملك أو غيرها من أقاربه.

ونشير إلى أن هذا الوصف للأسواق يبتدىء من الجامع الكبير، وقد تحدثت عما يتصل به منها، مرجئاً الكلام عن سوق التجار إلى الأخير حتى لا ينقطع سياق هذا الوصف.

سوق التجار

هذا السوق شبه مدينة صغيرة مسورة بجدران ينفتح فيها اثنا عشر باباً، يعترض مدخل كل باب منها سلسلة تمنع الخيل وسائر الدواب من الدخول إليه. وينقسم هذا السوق إلى خمسة عشر حياً، اثنان مخصصان للخرازين الذين يصنعون أحذية للأعيان لا يمكن للصناع ولا للجنود ولا لرجال الحاشية أن ينتعلوا مثلها وفي هذا المستوى من جمال الصنعة. وهناك حيان آخران مخصصان لتجار الأقمشة الحريرية، ويبيع بعضهم الجدائل والطرر الخاصة بطقوم الخيل وغيرها من أنواع الزينة، ويشغلون نحو خمسين دكاناً، بينما يبيع الآخرون الحرير الملون لتطريز القمصان والوسائد الخ. ولهم نفس عدد الدكاكين بالتقريب.

وتجد بعد هؤلاء التجار صانعي نطاقات النساء، وهي صوفية ضخمة قبيحة، ويعمل بعض الصناع نطاقات من حرير، إلا أنها قبيحة

كذلك، لأنها مصنوعة من ضفائر غليظة بحجم أصبعي رجل، ويمكن استخدامها بسهولة لربط سفينة.

يأتي بعد ذلك حيان آخران يشغلهما تجار الأقمشة الصوفية، أي المستوردة من أوربا، وكلهم أندلسيون. وتباع هنا أيضاً أقمشة حريرية وقلنسوات وحرير خام. ويوجد بعيداً من هنا صانعو الفرش والوسائد الصيفية وبعض البسط الجلدية الصغيرة.

ثم يأتي مكتب محصلي الضرائب، لأن هذه الأقمشة تباع هي أيضاً بالمزاد، ويحملها المكلفون ببيعها إلى مستخدمي الضريبة لختمها، ثم ينادي الدلالون عليها أمام دكاكين التجار. وعدد الدلالين نحو الستين، ومبلغ الضريبة (بايوتشو) عن كل قطعة قماش.

وبعد ذلك يحتل الخياطون ثلاثة أحياء، بعدها حي خاص بالعمال الذين يكفون بضفائر حواشي الثياب التي تتخذ منها عمائم الرؤوس، ثم حيان لتجار الكتان وتجار القمصان والأقمشة النسائية، وهؤلاء أغنى تجار فاس لأن مبيعاتهم وأرباحهم تفوق ما يحققه غيرهم من التجار مجتمعين. وبعيداً من هنا في حي آخر تصنع جميع ما تُزيَّن به البرانس من بلوطات (حريرية) وغيرها؛ ثم في حي آخر تباع ملابس من القماش الأوربي وينادي عليها الدلالون عادة كل مساء، وأقصد هنا الملابس المستعملة التي يأتي بها أهل المدينة ليبيعوها عندما تصبح بالية أو لأي سبب آخر.

وأخيراً هناك حي آخر يعاد فيه بيع القمصان القديمة المصنوعة من الكتان، والأغطية والفوط الخ. وبالقرب من هذا المكان بعض الدكاكين الصغيرة يباع فيها بالمزاد الزرابي وأغطية الفرش.

لمحة عن الأزقة
المسماة قيصرية باسم قيصر

تسمى كل هذه الأزقة قيصاريات، وهو اسم قديم مشتق من قيصر أكبر ملوك عصره بأوربا، وجميع ساحل موريطانيا كان خاضعاً أولاً للرومان، ثم للقوط، وكل واحدة من هذه المدن كانت تحتوي على سوق يحمل هذا الاسم، ويؤول ذلك المؤرخون الأفارقة بالكيفية التالية: كان للموظفين الرومانيين والقوطيين فنادق ومخازن مبعثرة هنا وهناك في المدينة، يخزنون فيها ما يجبونه من المدينة من ضريبة واتاوات، وغالباً ما كان السكان ينهبون هذه المستودعات. لذلك فكر أحد الأباطرة في إحداث شبه مدينة صغيرة داخل كل مدينة يجتمع فيه التجار المتميزون بقدر من الأهمية إلى جانب بضائعهم ويخزن فيها الموظفون المكلفون بالضرائب كل ما حصلوا عليه، حتى يكونوا على يقين بأن أهل المدينة إذا أرادوا الذود عن ثرواتهم الخاصة فإن عليهم أيضاً أن يدافعوا عن ثروة الامبراطورية ويصونوها، إذ لن يغضوا الطرف عن النهب دون أن تلحقهم مضرته. وقد شوهد ذاك مراراً في ايطاليا، حيث كان الجنود الذين يحاربون لمصلحة فريق يبدؤ ون بنهب أموال الخصم عندما يدخلون المدينة، ثم ينهبون دور أصدقائهم عندما لا تكفيهم الغنيمة الماخوذة من العدو.

العطارون وغيرهم من الحرفيين

يقوم إلى جانب هذه القيصرية بجهة الشمال منها سوق العطارين في زقاق ضيق يشتمل على نحو مائة وخمسين دكاناً. والزقاق مغلق من طرفيه ببابين جميلين لا تقل متانتهما عن ضخامتهما. ويتكفل العطارون بنفقات حراس يتجولون ليلاً بالفوانيس والكلاب والأسلحة. وهناك تباع المواد المتعلقة بالعطارة والطب، ولكن لا تهيأ فيه الأشربة ولا المراهم ولا المعاجين، وذلك لأن الأطباء يعدون الأدوية في منازلهم، ثم يرسلونها إلى

دكاكينهم، حيث يسلمها مستخدموهم مقابل وصفة طبية، ومعظم دكاكين الأطباء مجاورة لدكاكين العطارين. وغالبية السكان الشعبيين لا يعرفون الأطباء ولا الطب. وللعطارين دكاكين كثيرة الزخرف ذات سقوف جميلة وخزائن، ما أظن أن في العالم كله سوقاً للعطارين مثله. حقاً لقد رأيت سوقاً عظيمة جداً للعطارين في طوريس إحدى مدن فارس، غير أن الدكاكين فيها عبارة عن أروقة شبه مظلمة مع أنها مبنية بأناقة وبأعمدة من رخام. إني أفضل كثيراً سوق فاس الملائم بضيائه على سوق طوريس المظلم. ويأتي بعد العطارين صانعو الأمشاط من البقس وغيره من الخشب الذي ذكرناه آنفاً.

ونجد إلى جانب العطارين من جهة الشرق صانعي الابر في نحو خمسين دكاناً؛ ثم دكاكين الخراطين، وهي قليلة، لانتشار عدد منهم بين مختلف المهن؛ ثم بعض دكاكين الدقاقين وباعة الصابون والمكانس المتاخمة لسوق الخيط، ولا يزيد عددها على عشرين، لأن بعضها الآخر متفرق في أماكن أخرى حسبما سنذكره.

ويقع بين باعة القطن وباعة الخضر الصانعون لأغطية الفرش والشبكات أي التي تزين بها الخيام. وبالقرب منهم تجار آخرون يبيعون الطيور التي تؤكل، والعصافير التي تغني، وليس لهم إلا القليل من الدكاكين، ويطلق على هذا المكان سوق الطيريين. ويباع الآن في أغلب هذه الدكاكين حبال من القنب وخيوط.

ويأتي بعد ذلك صانعو القباقب التي ينتعلها الأعيان عندما تكون الأزقة موحلة، وهي جيدة الصنع مزخرفة مصفحة بالحديد موشاة بغطاء من جلد مطرز بالحرير، ولا يستطيع أفقر الناس من الأعيان أن ينتعل منها ما يقل ثمنه عن مثقال، ومنها ما يساوي مثقالين، ويبلغ ثمن بعضها عشرة وحتى خمسة وعشرين مثقالاً. وتصنع هذه القباقب عادة من خشب التوت الأسود أو الأبيض، وقد تصنع من خشب الجوز والليمون والعناب.

والقباقب المصنوعة من هذين النوعين الأخيرين من الخشب أكثر جمالاً وأناقة، لكن التي تصنع من التوت تدوم مدة أطول.

ثم تجد صانعي الأسلحة، وهم بعض مسلمي اسبانيا، ولا يتعدى عدد دكاكينهم العشرة، وبعدهم خمسون دكاناً لصناع المكانس، يصنعونها من سعف الدوم، كالتي تصدر من صقلية إلى روما. ويحمل هؤلاء الصناع مكانسهم إلى المدينة في قفاف كبيرة، ويبادلون بها النخالة أو الرماد أو بعض الأحذية المثقوبة. فالنخالة تباع للبقارين، والرماد لقصاري الخيوط، والأحذية المثقوبة عادة للإسكافيين. وبعيداً من هناك يوجد الحدادون الذين لا يصنعون سوى المسامير، ثم العمال الذين يصنعون أواني كبيرة من خشب لها شكل الدلاء، لكن سعتها تساوي برميلاً (نحو 58 ليتر). ويصنعون أيضاً مكاييل للحب يراقبها الأمين مقابل (كارينو) لكل كيل.

وبعد ذلك تجد باعة الصوف الذين يشترون جلود الغنم من الجزارين، وعملهم أنهم يغسلونها وينزعون منها الصوف ثم يدبغونها، لكنهم لا يعالجون إلا جلود الغنم، أما جلود الماعز والبقر فتدبغ في مكان آخر، وتشكل حرفة خاصة. ثم تجد صانعي القفاف والعقل لربط الخيل حسب عادة افريقيا، وتتاخم دكاكينهم دكاكين الصفارين. وبجوار صناع المكاييل يوجد صناع آلات حلج الكتان والصوف. وفيما وراء ذلك يقام سوق كبير فيه أناس من مختلف الحرف، من بينهم من يبردون الأدوات الحديدية، كالركابات والمهاميز، لأنه ليس من عادة الحدادين أن يبردوا مصنوعاتهم. ويتلوهم المعلمون الصناع الذين يخدمون الخشب، فلا يصنعون منه إلا الأشياء الكبيرة، كعرائس العجلات والمحاريث ودواليب الطواحين وغير ذلك من الأدوات المعتادة.

ويأتي بعد ذلك الصباغون الذين يوجدون جميعاً قرب النهر، وفي سوقهم صهريج جميل جداً، تغسل فيه ربطات خيوط الحرير، فالبياطرة

الذين يصفحون بالحديد سنابك الخيل وغيرها من الدواب؛ فالصناع الذين يثبتون أقواس الفولاذ على قاذفات السهام. وأخيراً نجد العمال الذين يلمعون نسيج الكتان، وبهم تنتهي أسواق قسم من المدينة، أي القسم الواقع في الجهة الغربية. وكان هذا القسم في القديم مدينة مستقلة كما أسلفنا، أنشئت بعد المدينة الأولى الواقعة على الضفة الأخرى من النهر إلى جهة الشرق.

القسم الثاني
من مدينة فاس

القسم الشرقي من المدينة متحضر جداً كذلك، يشتمل على أبنية في غاية الجمال، وعلى جوامع ومدارس، إلاّ أنه في الحقيقة غير مزود كالقسم الآخر بأناس من مختلف طوائف الحرف، فلا تجد فيه مثلاً تجاراً ولا خياطين ولا خرازين، باستثناء بعض باعة القماش والأشياء الخشنة. وفيه سوق صغير للعطارين لا يزيد عدد دكاكينه على الثلاثين. وبقرب أسوار المدينة يعمل صانعو الآجر وتقوم أفران الفخارين. وتجد تحت ذلك سوقاً كبيراً يباع فيه الفخار الأبيض، أي غير المطلي، كالقصعات والقدور المختلفة إلخ؛ وساحة فيها دكاكين لخزن الحبوب؛ وسوقاً آخر واقعاً تماماً أمام باب الجامع الكبير (جامع الأندلس) ومبلطاً كله بالآجر، وهناك دكاكين لمختلف الفنون والمهن. تلك هي الأسواق المختلفة المخصصة للحرف التي تكلمنا عنها، لكن هناك أيضاً دكاكين متفرقة في هذا القسم من المدينة ومنفصل بعضها عن بعض، ما عدا دكاكين البزازين والعطارين التي لا توجد إلاّ مجتمعة في أماكن خاصة.

يوجد بفاس خمسمائة وعشرون داراً للنساجين، وهي أبنية كبيرة ذات طبقات عديدة وقاعات فسيحة كقاعات القصور، تضم كل قاعة عدداً كثيراً من عمال نسج الكتان. وليس لأصحاب هذه المعامل أية آلة، بل هي ملك للمعلمين النساجين الذين لا يدفعون سوى كراء القاعات. هذه

هي الصناعة الرئيسية بفاس، يقال انها تكفل العمل لعشرين ألف عامل، ويشتغل مثل هذا العدد في الطواحين.

وهناك أيضاً مائة وخمسون معملاً لقصاري الخيوط، يقوم معظمها بجوار النهر، وتحتوي على عدد كثير من المراجل والجفان المبنية لغلي الخيط ولأغراض عرضية أخرى.

وفي المدينة مستودعات كبيرة ينشر فيها الخشب من مختلف الأنواع، ويقوم بهذا العمل عبيد مسيحيون يعطيهم أسيادهم ما يقتاتون به بدلاً من المال الذي يربحونه، ولا يمنحونهم وقتاً للراحة غير نصف يوم الجمعة من الظهر حتى المساء، فضلاً عن نحو ثمانية أيام موزعة على السنة بمناسبة أعياد المسلمين.

وفيها أيضاً دور عمومية تمارس فيها البغايا مهنتهن بثمن بخس، تحت حماية رئيس الشرطة أو حاكم المدينة. كما يتعاطى بعض الرجال دون أن يثير غيظ البلاط مهنة «البغاء»(48)، فيتخذون في بيوتهم نساء عاهرات وخموراً يبيعونها، بحيث يستطيع كل واحد أن يتناول من ذلك ما شاء بكل طمأنينة.

تحتوي فاس على ستمائة عين، وهي صهاريج طبيعية محاطة بجدران وأبواب تكون مغلقة، ويوزع ماؤها لمختلف الحاجات على الدور والجوامع والمدارس والفنادق. وهذا الماء مرغوب فيه أكثر من ماء النهر الذي يجف أحياناً لا سيما في الصيف. أضف إلى ذلك أنه عندما يراد تنظيف

---

(48) وردت في النص الفرنسي بصيغة «التبغي» وكأنها من التبغ، وذلك مخالف لما يعرف تاريخياً من تأخر دخول التبغ إلى المغرب إلى ما بعد أكثر من قرن، ومخالف أيضاً للسياق، لذلك نظن أن الكلمة قد حرفت في إحدى الترجمات عن «الديوثي» أو شبه ذلك مما يفيد عمل هؤلاء الأدنياء الذين يتحدث عنهم المؤلف، ولذلك جعلنا «البغاء» مكانها، (انظر عن تاريخ دخول الدخان إلى المغرب كتابنا الحركة الفكرية 1. 266-246).

القنوات، يجب تحويل مجرى النهر خارج المدينة، وبذلك تعود الناس جميعاً استعمال ماء العين. وعلى الرغم من وجود ماء النهر في منازل الأعيان، فإنهم يبعثون في الصيف من يستقي لهم ماء العين، لأنه أكثر برودة وعذوبة، وهم يفعلون عكس ذلك في الشتاء. ومعظم هذه العيون في غرب المدينة وجنوبها، لأن القسم الشمالي كله واقع في جبل من حجر كلسي، حيث توجد حفر عميقة (مطامير) تحفظ فيها الحبوب سنين عديدة وتبلغ سعة بعضها أكثر من مائتي مد من الحبوب. ويعيش سكان هذا المكان، وهم فقراء، من كراء هذه المطامير، وقدره السنوي مد واحد عن كل مائة مد.

والقسم الجنوبي للمدينة يكاد يكون غير مسكون، ويحتوي على كثير من البساتين المليئة بمختلف الأشجار المثمرة الممتازة، كالبرتقال والليمون الحامض والأترج، وبالأزهار الجميلة كالياسمين والورد الدمشقي والوزال المجلوب من أوربا الذي يستحسنه المغاربة كثيراً. وتزدان هذه البساتين بأروقة جميلة وصهاريج وأحواض يحيط بها الياسمين والورد وزهر الليمون. وعندما يمر المرء في فصل الربيع بجوار هذه الرياض يشم نفحات عبقة منبعثة من كل جانب لا تقل أثراً في نفسه عما تمتلىء به عينه من جمالها وبهجتها. كأن كل روض منها جنة من جنان الدنيا، وقد اعتاد الأعيان أن يقيموا بها من أوائل إبريل إلى نهاية شتنبر.

وفي القسم الغربي للمدينة المجاور للقصر الملكي تشاهد القصبة التي أسست أيام ملوك لمتونة، ويمكن أن تقارن مساحتها الكبيرة بمساحة مدينة. وقد كانت قديماً مقر إقامة عمال فاس وأمرائها قبل أن تصبح المدينة عاصمة المملكة. ومنذ أن أسس ملوك بني مرين فاس الجديد(49) لم تعد

---

(49) أسس أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المدينة البيضاء (فاسا الجديد) عام 1276/674.

القصبة سوى دار مقام للعامل. وفيها جامع جميل[50] بني أيام كانت كثيرة السكان. وقد اندثرت معالم القصور التي كانت بها في أيامنا هذه وصار مكانها بساتين، ولم يبق منها سوى قصر واحد يسكنه العامل، وأبنية أخرى لأسرته. وهناك أماكن خاصة مجهزة بمقاعد يعقد فيها العامل جلساته للنظر في القضايا والحكم بين الناس. وتضم القصبة كذلك سجناً مبنياً على شكل كهف، سقفه معقود على أعمدة عديدة، وهو فسيح جداً يمكن أن يسع ثلاثة آلاف شخص، ليس فيه أية حجرة مفصولة أو سرية، لأنه ليس من العادة بفاس أن يوضع أحد في زنزانة. ويخترق القصبة جدول ماء لحاجات العامل والترفيه عليه.

القضاة وكيفية الحكم والتسيير

ليس بمدينة فاس غير قليل من صغار الضباط الوزاريين، وبعض القضاة المكلفين بشؤون العدالة. والعامل هو صاحب السلطة المشرف على القضايا المدنية والجنائية. وهناك قاض مكلف بالأحكام الشرعية، أي بتطبيق القوانين المستخرجة من كتب الفقه الإسلامي، وقاض آخر يعتبر كنائب للقاضي السابق، مكلف بمسائل الزواج والطلاق والنظر في الشهادات، ومؤهل كذلك للاطلاع على جميع الأسباب المتعلقة بهذا القضاء. ثم يأتي المفتي الذي يستفتى في المسائل الفقهية، ويرجع إليه في الأحكام التي أخطأ القضاة فيها، أو استندوا على قول مرجوح لبعض الفقهاء.

ويستفيد العامل أموالاً طائلة من الغرامات التي تفرض في كل وقت. وربما كانت أشد عقوبة تطبق على المجرم هي جلده بمحضر العامل مائة جلدة أو مائتين أو أكثر. وبعد الجلد يقوم الجلاد بوضع سلسلة من

(50) هو جامع أبي الجنود الحالي.

الحديد في عنق المحكوم عليه ثم يطوف به في المدينة كلها عارياً تماماً إلاّ من سروال قصير يستر عورته. يحضر عملية التطويف هذه قائد الشرطة، ولا ينقطع صوت الجلاد أثناءها عن إعلان نوع الجريمة المقترفة ثم يلبس المجرم ثيابه ويعود إلى السجن. وقد يقع التطويف بعدد من المحكوم عليهم مطوقين جميعاً بسلسلة واحدة، ويأخذ العامل مثقالاً وربع مثقال عن كل محكوم عليه، بالإضافة إلى بعض المغارم المعينة عن كل سجين يؤديها له بصفة خاصة طائفة من التجار والصناع المعينين لهذا الغرض. ومن بين الموارد التي يتمتع بها العامل دخل جبل يستفيد منه ألف مثقال في السنة. ومن المعلوم أنه مطالب بأن يقدم إلى الملك أيام الحرب ثلاثمائة فارس يقوم بالانفاق عليهم ما دامت الحرب قائمة.

ولا يتقاضى القضاة الشرعيون أي أجر أو تعويض، لأن ذلك محظور في الشريعة الإسلامية، فلا يجوز للقاضي أن يأخذ أي مرتب عن عمله، غير أنهم يتعَيشون من موارد أخرى، إذ هم مدرسون وأئمة في بعض المساجد، وكذلك الحال بالنسبة للمفتين، وللوكلاء الذين هم جهال وعاميون. وللقضاة مكان يسجنون فيه الناس الذين عليهم دين أو ارتكبوا جنحاً خفيفة غير مهمة.

وفي فاس أربعة رؤساء للشرطة لا أكثر، يقومون بدوريات من منتصف الليل إلى الساعة الثانية صباحاً، ولا يتقاضون هم أيضاً أي أجر غير حصيلة المغارم المفروضة على من يلقون عليه القبض. وتقدر قيمتها بحسب مدة السجن ونوع العقوبة التي يعاقب بها المقبوض عليهم. لكن هؤلاء الرؤساء للشرط، يستطيعون أن يتخذوا حانات ويمارسوا مهنة (البغاء) والتدييث. وليس للعامل قاض ولا كاتب، وانما ينطق بالاحكام بصوت عالٍ كما يشاء.

ولا يدير شؤون الجمرك والضريبة التجارية سوى موظف واحد، يؤدي يومياً ثلاثين مثقالاً للخزينة الملكية، ويضع أمام كل باب من أبواب

المدينة حراساً وكتاباً يتقاضون المكوس عن كل البضائع القليلة الأهمية في الأبواب، ويصحب البضائع الأخرى حرس من الباب إلى مكتب الجمرك. ويتقاضى الحراس والكتاب بعض التعويضات بحسب كمية البضائع، ويذهب هؤلاء الحراس أحياناً إلى خارج المدينة لملاقاة البغالين حتى لا يخفوا شيئاً من البضاعة، وإذا أخفوا شيئاً أدوا عنه أضعاف الرسوم مضاعفة. والسعر العادي لهذه الرسوم هو مثقالان عن كل مائة مثقال، لكن فيما يخص ثمار الغبيراء التي تجلب منها كميات كبيرة، يؤدى عنها ربع قيمتها. ولا يؤدى شيء عن الخشب والقمح والبقر والدجاج، كما لا يؤدي في الأبواب شيء عن الأغنام المجلوبة إلى فاس، لكن يدفع في المجزرة عن كل خروف (بايوتشيان) اثنان، وثالث للمحتسب الذي هو رئيس الأمناء. وكثيراً ما يتجول هذا الموظف في المدينة على ظهر جواده مخفوراً باثني عشر رامياً لمراقبة الخبز، وتفقد أوزان الجزارين وما يبيعون من بضاعة، فيأمر بوزن الخبز، وإذا لم يجد فيه الوزن المطلوب قام بتفتيته قطعاً صغيرة ونزل على عنق بائعه بلكمة تتركه متورماً متوجعاً. وإذا تكررت المخالفة أمر بجلد البائع أمام الجمهور.

ويسند الملك وظيفة المحتسب إلى الأعيان الذين يطلبونها منه، ولم تكن تسند في القديم إلاّ لذوي الكفاءة والسمعة الطيبة، أما الآن فأصبح الملوك يكلونها إلى أناس عاميين وجهال.

طريقة اللباس

وأهل فاس، أعني الأعيان منهم، أناس محترمون حقاً، يرتدون في الشتاء ملابس من قماش الصوف المستورد من الخارج، تتكون من سترة ضيقة جداً لها نصف أكمام توضع فوق القميص، وفوقها عباءة واسعة مخيطة من أمام، ويغطون كل ذلك ببرنس، ويجعلون على رؤوسهم قلنسوة تشبه ما يضعه بعض الناس على رؤوسهم في ايطاليا ليلاً، لكن بدون

ما يغطي الأذنين. ويلفون حول القلنسوة عمامة من كتان تدور مرتين حول الرأس وتمر تحت الذقن. ولا يلبسون الجوارب في أقدامهم، ولا يغطون سيقانهم بشيء فوق الحذاء، اللهم إلا ما كان من سراويل الكتان. وإذا أرادوا ركوب الخيل في الشتاء انتعلوا أحذية كبيرة. وأما عامة الناس فيلبسون السترة والبرنس، لكن بدون العباءة المذكورة، ولا يضعون على رؤوسهم سوى تلك الطاقيات التي لا قيمة لها.

ومن عادة العلماء والأعيان المتقدمين في السن أن يلبسوا سترات عريضة الأكمام مثل ما يلبسه نبلاء البندقة من ذوي المناصب السامية. وأخيراً فان الفقراء من العامة يرتدون ثوباً أبيض من نسيج صوف البلاد الخشن، وبرانسهم من نفس النسيج.

ولباس النساء جميل جداً، إلّا أنهن لا يرتدين في أيام الحر سوى قميص يحزمنه بنطاق لا يخلو من قبح؛ ويلبسن في الشتاء ثياباً عريضة الأكمام ومخيطة من أمام كثياب الرجال. وعندما يخرجن يلبسن سراويل طويلة تستر كل سيقانهن، وخماراً على عادة نساء الشام يغطي الرأس وسائر الجسم، ويحجبن الوجه كذلك بقطعة من قماش لا تظهر منها إلّا عيونهن. ويضعن في آذانهن أقراطاً كبيرة من ذهب مرصع بحجارة كريمة بديعة، وفي معاصمهن أساور من ذهب كذلك، سوار في كل ساعد، قد تبلغ زنته مائة مثقال (نحو 350 غرام). وتتحلى نساء غير الأعيان بأساور من فضة، ويضعن (خلاخل) مثلها في أرجلهن.

العادات المتعلقة بالطعام

من عادة السكان في التغذية أن يتناولوا اللحم الطري مرتين في الأسبوع، لكن الأعيان يأكلونه مرتين في اليوم حسب شهيتهم. يتناولون ثلاث وجبات في اليوم، وجبة خفيفة جداً في الصباح مركبة من خبز وفواكه

وحساء سائل من دقيق القمح، ويأخذون في الشتاء بدل الحساء رغيفاً من حنطة محشواً بلحم مملح ينضج معه. ويتناولون عند الظهر أيضاً أكلاً خفيفاً كالخبز والسلطة والجبن أو الزيتون، لكن هذه الوجبة تكون في الصيف أكثر تغذية. ويتناولون في المساء أشياء خفيفة كذلك، كالخبز مع البطيخ أو العنب أو اللبن، لكنهم في الشتاء يأكلون اللحم المطبوخ مع طعام يسمى الكسكسو، يصنعونه من دقيق مبلل يحول إلى حبيبات في حجم حبات الكزبرة، تنضج في قدر ذات ثقوب (= كسكاس) تسمح بطلوع بخار من قدر أخرى ثم يخلط هذا الدقيق المتبخر بعد نضجه بالسمن ويسقى بالمرق. وليس من عادتهم أن يأكلوا اللحم المشوي. تلك طريقة معيشة عامة الناس. أما علية القوم كشيوخ الأعيان والتجار ورجال الحاشية فان معيشتهم أفضل من ذلك وأكثر لطفاً. لكن بالمقارنة مع طريقة العيش التي يسلكها نبلاء أوربا تبدو عيشة الأفارقة بئيسة حقيرة، لا من قلة كمية الأغذية فحسب، ولكن أيضاً من العادات الخشنة المضطربة. إنهم يأكلون على الأرض فوق موائد منخفضة، بدون فوط ولا أغطية من أي نوع، ولا يستعملون أية أدوات غير أيديهم. وإذا أكلوا الكسكسو تناوله جميع المدعويين في صحن واحد بدون ملاعق، ويكون المرق واللحم معاً في قدر من فخار يتناول كل واحد منها قطعة اللحم التي تروقه ويضعها أمامه دون تقطيع. ولا يستعمل السكين، وانما تمسك قطعة اللحم باليد وينهش منها بالأسنان بقدر المستطاع. انهم يسرعون في الأكل، ولا يشرب أحد منهم قبل أن يشبع؛ فإذا شرب عب طست ماء سعتها «بوكال»(51) تلك هي العادة الشائعة، ولو أن هناك في الواقع بعض العلماء الذين يتمتعون بمستوى معيشة أفضل. وبالجملة فان أحط نبيل في ايطاليا يعيش في بذخ يفوق ما عليه أكبر أمير افريقي.

---

(51) ليتران إلّا ربعاً بالتقريب.

العادات المتبعة في الزواج

تراعى في الأعراس العادات التالية: إذا أراد رجل أن يتزوج، فبمجرد ما يعده أب بتزويجه بنته، يستدعي أبوه، ان كان على قيد الحياة، أصحابه للاجتماع في المسجد، ويحضر معه عدلان يكتبان العقد ويحددان شروط الصداق بحضور الخاطب والمخطوبة. ويقدم في العادة المدنيون من متوسطي الحال ثلاثين مثقالاً نقداً وجارية سوداء قيمتها خمسة عشر مثقالاً، وقطعة قماش من نسيج الحرير والكتان ذات ألوان مختلفة متقاطعة، ومناديل صغيرة من حرير يغطى بها الرأس. وتقضي العادة أيضاً بأن يقدم زوج أحذية مطرزاً بطريقة جميلة جداً، وزوجين من القباقب المطرزة كذلك بصنع عجيب، وعدداً من حلي الفضة، وأشياء أخرى كالأمشاط والعطور والمراوح الأنيقة. وإذا تم العقد برضا الطرفين، استدعى الخاطب جميع الحاضرين لتناول طعام الغداء معه، وقدم لهم الفطائر والمشوي والعسل. ويستدعي أبو المخطوبة من جهته أصحابه لتناول الطعام. وإذا أراد الأب أن يهدي لابنته بعض الثياب الجميلة فعل ذلك مكارمة منه، إذ لا يلزمه صرف شيء غير النقود التي يدفعها للزوج[52]، إلاّ أنه يستحيى ألاّ يضيف شيئاً إلى هذا المبلغ. واليوم يصرف الأب أو الولي زيادة على الثلاثين مثقالاً التي هي قدر الصداق، مبلغاً من مائتين إلى ثلاثمائة مثقال لتجهيز الزوجة بما يلزم من ملابس وأثاث البيت، لكن لا يعطى عقار ولا كروم ولا أرض مزروعة. وتقضي العادة أن تقدم هدية مركبة من ثلاثة أثواب من جوخ رقيق، وثلاثة أخرى من حرير أو «تفتة» أو مخمل أو دمقس، وعدد من القمصان وأغطية الفراش المطرزة والموشاة حواشيها بالحرير، ومخدات مطرزة ووسائد. وتهدى كذلك ثمانية فرش، أربعة منها

---

(52) هكذا في النص الفرنسي، وهو تحريف ولا شك بزيادة اللام قبل الزوج، ولعل الأصل: «. . . النقود التي يدفعها الزوج». وهذا هو مشهور مذهب مالك الجاري به العمل في المغرب والأندلس.

للزينة توضع فوق الخزائن في كل طرف من الغرفة، وأربعة مغطاة بنسيج صوفي خشن تستعمل للنوم، بالإضافة إلى فراشين مبطنين بجلد يستعملان كذلك لتزيين الغرفة، وزربية صوف طويل من نحو عشرين ذراعاً، وثلاثة أغطية وجهها من جوخ وظهرها من كتان، وما بينهما محشو بالصوف. وعند النوم يطوى هذا الغطاء شطرين بحيث يكون أحدهما فوق الآخر، لأن طوله يقل قليلاً عن ثمانية أذرع. وعلاوة على ذلك تقدم ثلاثة أغطية للسرر غلافهـا من حرير جميل التطريز من الجهتين، وبداخلها كتان محشو قطناً، وغطاء آخر أبيض الغلاف محشو بالقطن، لكنه خفيف للصيف. وأخيراً يقدم سجف (حائطي) من صوف رفيع مقسم إلى مستطيلات صغيرة مطرزة على نموذج علم سفينة أو غير ذلك من النماذج. ولهذا «الحائطي» شرائط ملسنة من جلد مذهب علقت عليها خصل من حرير مختلفة الألوان. وقد ثبت على كل خصلة منها زر حريري ليمكن تعليق هذا السجف على الحائط. هذا ما يضاف إلى المهر، وربما أضيف إليه أكثر من ذلك. وقد افتقر كثير من الأعيان على أثر هذه الأعراس. ويعتقد بعض الايطاليين أن الرجال في افريقيا هم الذين يقدمون المهر للنساء، ولكنهم لا يعرفون شيئاً كثيراً في هذا المجال.

وعندما يذهب الزوج ليأخذ زوجته إلى منزله، يدخلها أولاً في صندوق من خشب مثمّن الأضلاع ومغطى بثياب جميلة من الحرير والديباج، ويحمل الحمالون هذا الصندوق على رؤوسهم. ويتكون الموكب من أصدقاء أبوي الزوجة والزوج، مع المزامير والأبواق والطبول وحملة المشاعل العديدة، يتقدم الموكب أصدقاء العروس حاملين مشاعلهم ويتبع الزوجة أصدقاء والدها.

يمر الموكب بالسوق الكبير قرب الجامع، وعندما يصلون يودع الزوج والد الزوجة وأهلها، ويدخل تواً إلى بيته لينتظر زوجته في غرفته. ويرافق العروس أبوها وأخوها وخالها إلى باب تلك الغرفة، ويسلمونها جميعاً إلى أم

الزوج. وما ان تدخل الزوجة إلى الغرفة حتى يضع الزوج قدمه على قدمها، ثم يخلو بها في الغرفة. وفي هذه الأثناء يشتغل أهل المنزل بتهييء طعام العرس، بينما تقف امرأة بباب الغرفة حتى تفتض العروس ويسلم لها الزوج ثوباً ملطخاً بالدم، فتذهب المرأة، والثوب في يدها، إلى المدعوين تعلن لهم بأعلى صوتها أن العروس كانت بكراً. وبعد أن يقدم أهل الزوج الطعام إلى هذه المرأة تذهب مع نساء أخريات لمقابلة أم العروس، فتستقبل بحفاوة ويقدم لها الطعام مرة أخرى.

وإذا اتفق أن العروس لم تكن بكراً ردها الزوج إلى أبيها وأمها، وفي ذلك عار كبير عليهما، لا سيما وأن جميع المدعوين ينصرفون دون أكل.

وهناك ثلاث ولائم في العرس، الأولى ليلة الزفاف والثانية في الليلة التالية ولا يستدعى لها غير النساء، والثالثة بعد أسبوع، ويحضرها أبو الزوجة وأمها وجميع أقاربها. ومن العادة أن يبعث أبو الزوجة في ذلك اليوم بهدايا هامة إلى دار الزوج تتكون من حلويات وخرفان كاملة. ويخرج العريس من بيته بعد سبعة أيام، فيذهب تواً لشراء كمية من السمك يحملها إلى بيته، ويسلمها إلى أمه أو إلى امرأة أخرى لترميها على قدمي العروس، ويعتبرون ذلك من أسباب اليمن، وهي عادة قديمة.

وفضلاً عن هذه الولائم الثلاث التي تكون في بيت الزوج، تقام وليمتان أخريان في بيت الزوجة، الأولى في الليلة السابعة ليوم رواح الزوجة إلى زوجها، يدعو إليها الأب أصدقاء الأسرة، ويعمل أن يستمر الفرح والرقص طوال الليل. وفي اليوم التالي تأتي النساء المتخصصات في تجميل العرائس، فيمشطن شعرهن ويزين خدودهن بالحمرة، ويخضبن أيديهن وأرجلهن بالسواد مع رسوم جميلة، لكن هذه الأصباغ لا تدوم طويلاً. وفي هذا اليوم تكون الوليمة الثانية، فتوضع العروس فوق منصة ليشاهدها الجميع، ويقدم الطعام للسيدات اللواتي قمن بتجميلها.

وعندما تصل العروس إلى بيت زوجها، يرسل إليه أصدقاؤه الحميمون أوعية كبيرة مملوءة فطائر، وأخرى مثلها عسلاً، وخرفاناً كاملة مشوية، فيدعو العريس عدداً من الناس يوزع عليهم الهدايا، ويستمر الرقص طوال الليل على أنغام الموسيقيين والمنشدين، ويتناوب الغناء والعزف في نحو مائة من الألحان العذبة اللطيفة. وفي كل مرة يرقص راقص واحد، فإذا انتهى من رقصه أخرج من فمه قطعة نقود ورمى بها على بساط المغنين. وإذا أراد أحد الأصدقاء أن يكرم الراقص دعاه لأن يجثو على ركبتيه أمامه وألصق على وجهه قطعاً من نقود ينزعها المغنون بعد ذلك فوراً. وترقص النساء بمعزل عن الرجال، ولهن حفلاتهن الراقصة ومغنياتهن وعازفاتهن.

كل شيء يجري هكذا إذا كانت العروس عذراء، فإذا سبق لها الزواج كانت حفلة العرس أقل أبهة. وتقضي العادة في مثل هذه الحال أن يأكلوا لحوم البقر والغنم، والدجاج المطبوخ المضاف إليه مختلف الخضر. توضع أمام المدعوين اثنتا عشرة قصعة كبيرة فوق مائدة مستديرة من خشب، يكفي طعامها عشرة أو اثني عشر شخصاً.

تلك هي عادات الأعيان والتجار. أما وجبة الطعام لعامة الناس فيقدم فيها ثريد مصنوع من خبز خفيف يشبه الشرائط ويغمس في مرق لحم مقطّع قطعاً كبيرة. يقدّم الثريد في إناء كبير تسبح فيه قطع اللحم، ويأكل المدعوون بأيديهم دون ملاعق، بمعدل عشرة أشخاص حول كل إناء.

ومن عادتهم أيضاً أن تقام وليمة عند ختان الولد، ويكون ذلك في سابع يوم بعد ولادته، يستدعي الأب في ذلك اليوم أصدقاءه والحلاق فيطعمهم. وعندما ينتهي الأكل يقدم كل واحد من المدعوين هدية للحلاق، مثقالاً أو مثقالين أو أكثر أو أقل حسب مستواه، فيلصقها على وجه غلام الحلاق الذي يذكر اسم المتبرّع ويشكره. وبعد ذلك يقوم

الحلاق بختان الطفل، وتقام في الأخير حفلة يرقصون فيها على نحو ما ذكر آنفاً. وإذا كان المولود أنثى قلَّ استشارهم بها.

عادات أخرى متّبعة في الأعياد وطريقة البكاء على الموتى

لا تزال بفاس بقايا من بعض الأعياد التي خلّفها المسيحيون، ينطق فيها الناس بكلام لا يعرفون له معنى. ففي ليلة ميلاد المسيح يأكلون نوعاً من ثريد مصنوع من خضر متنوعة كالكرمب واللفت والجزر وغيرها، ويطبخون عدة أنواع من الخضر مجتمعة على حالها دون تقطيع، كالفول والحمص وحبوب القمح، ويأكلون هذا الطعام في تلك الليلة كما لو كان حلوى لذيذة. ويضع الأطفال في اليوم الأول من السنة أقنعة على وجوههم ويتوجهون إلى الأعيان يطلبون منهم الفواكه وهم ينشدون أغانيهم الصبيانية. وفي يوم القديس يوحنا توقد نيران كثيرة من التبن في جميع الأحياء. وعندما تأخذ أسنان الطفل في الظهور، يستدعي أبواه أطفالاً آخرين لوليمة، ويسمّون هذا الحفل «دانتسيا» وهو الاسم اللاتيني بالذات. وهناك عدد عديد من عادات أخرى وطرق التكهن بالغيب شاهدت مثلها في روما وغيرها من مدن ايطاليا.

أما الأعياد المشروعة المقررة في الشريعة المحمدية، فلينظر القارىء فيما يلي بهذا الكتيب ما ذكرناه عن الشريعة والعقيدة في الديانة الإسلامية.

تجتمع النساء إذاماتت لهن زوج أو أب أو أم أو أخ، مرتديات لباساً خشناً، ويلطّخن وجوههن بسواد دخان القدور ثم يستدعين أولئك الأنذال الذين يتجولون وهم لابسون ثياب النساء، ليضربوا على دفوف مربعة ويرتجلوا أنظاماً حزينة مبكية في رثاء الميت. وفي آخر كل بيت تصيح النساء ويخدشن صدورهن وخدودهن حتى يسيل منها الدم بغزارة، وينتفن شعورهن نائحات مولولات. يدوم ذلك سبعة أيام، وبعد أربعين يوماً يستأنفن نحيبهنّ لمدة ثلاثة أيام. تلك هي عادة العامة، أما الأعيان فحزنهم

أخف، يبكون موتاهم دون ندب ولا خدش، ويحضر أصدقاؤهم لتقديم التعازي، ويأتيهم الطعام من جميع الأقارب كهدية، لأنهم لا يطبخون أي طعام ما دام الميت في الدار. ولا تسير النساء في موكب الجنازة ولو كان الميت أباً لهنّ أو أخاً. أما طريقة غسل الميت ودفنه والصلاة عليه فمذكورة في الكتيب المذكور آنفاً.

الحمَام

يهتم كثير من الناس في فاس بالحمَام، ويجدون في العناية به متعة كبيرة، فيقتنون منه أعداداً كثيرة جميلة الشكل مختلفة الألوان. يعيش هذا الحمام في سطوح المنازل داخل أقفاص تشبه خزائن العطّارين، ويفتح هواة الحمام هذه الأقفاص مرتين في اليوم، مرة في الصباح وأخرى في المساء، ويشعرون بسرور لا حدّ له وهم ينظرون إلى الحمام يطير، والذي يستمر طيرانه مدة أطول تكون قيمته عندهم أكثر. وقد يحدث اختلاط حمام قفص مع حمام قفص آخر فيؤدي ذلك أحياناً كثيرة إلى خصام بين الهواة وعراك بالأيدي. ومن الناس من يثبتون شركاً صغيراً في رأس عصا طويلة يمسكونها بأيديهم على سطوحهم، فيتصيدون بشركهم كل ما مرّ بهم من حمام. وهناك في وسط سوق الفحامين سبعة دكاكين أو ثمانية يباع فيها هذا الحمام.

طرق اللعب

لا يوجد بين الناس المهذبين من ذوي البيئات الحسنة غير لعبة واحدة هي لعبة الشطرنج تبعاً لعادة أسلافهم. وهناك لعب أخرى، لكنها مستهجنة لا يمارسها إلا رعاع القوم.

يجتمع الشبان في أوقات معينة من السنة، فيحمل أهل زقاق منهم العصي ليحاربوا أهل زقاق آخر. وقد يشتد الخصام بينهم فيأخذون

السلاح ويموت عدد من كل فئة، لا سيما في أيام الأعياد، حيث يجتمع الشبان في ظاهر المدينة. وبعد انتهاء الاشتباك يأخذون في التراشق بالأحجار حتى لقد يعجز رئيس الشرطة عن تفريقهم والحجز بينهم، إلا أنه يلقي القبض على البعض منهم ويدخلهم إلى السجن، ثم يجلدون ويطوفون في المدينة. وفي الليل يخرج كثير من المتنطعين مجتمعين مسلحين إلى ظاهر المدينة، فيتجولون في البساتين والحقول، حتى إذا لقوا متنطعين من زقاق معاد لهم، وقع شجار عنيف بينهم، لأنهم يكنون بعضهم لبعض عداوة قاتلة بصفة دائمة، وكثيراً ما يتعرضون للعقاب الصارم.

شعراء الملحون

يوجد بفاس أيضاً كثير من الشعراء الذين ينظمون الشعر باللغة العامية في مختلف الموضوعات، ولا سيما في الحب. يصف بعضهم حبه للنساء، وبعضهم حبه للغلمان، فيذكر دون حياء ولا خجل اسم الغلام الذي يهواه.

ينظم هؤلاء الشعراء كل سنة بمناسبة عيد مولد محمد ـ عليه السلام ـ قصائد في مدحه، فيجتمعون في الصباح الباكر من يوم العيد في ساحة المحتسب ويصعدون إلى المنصة التي يجلس عليها، ثم يأخذ كل واحد منهم في إنشاد قصيدته أمام جمهور غفير من الناس. ومن قُضي له منهم بالتفوق في النظم والإنشاد، بويع أميراً للشعراء تلك السنة واعترف له بذلك. وفي عصر ازدهار الدولة المرينية، كان الملك يدعو علماء المدينة وأدباءها إلى قصره، للاحتفال بفحول الشعراء، ويأمر كل واحد منهم بإنشاد قصيدته المولدية بين يديه أمام الجميع. (فيتبارون) ويصعد المنشد على منصة عالية، وحسب ما يقضي به رجال أكفاء يعطي الملك الفائز من الشعراء مائة مثقال وفرساً وجارية، ويخلع عليه الكسوة التي يكون لابساً لها. كما يأمر لكل واحد من الآخرين بخمسين مثقالاً، بحيث ينصرفون جميعاً

بهدايا غير أن هذه العادة انقرضت منذ مائة وثلاثين عاماً بسبب انحطاط الدولة.

مدارس الأطفال

توجد قرابة مائتي مدرسة (كتّاب) للأطفال الراغبين في تعلّم القراءة، في كل مدرسة قاعة كبيرة بمدرَّجات تستعمل كمقاعد للأطفال، ولا يعلّمهم المعلم القراءة والكتابة في كتاب، بل في ألواح كبيرة يكتب عليها التلاميذ. ودرس كل يوم عبارة عن آية من القرآن، فيختمون القرآن في سنتين أو ثلاث، ثم يستأنفون ذلك عدة مرات، إلى أن يحذقه الطفل جيداً ويحفظه عن ظهر قلب. يحصل على ذلك بعد سبع سنوات على أبعد تقدير. وبعد ذلك يقوم المعلم بتعليم الأطفال شيئاً من قواعد الكتابة، ولو أن هذه المادة مثل النحو وسائر العلوم تدرس في مدارس كبرى.

يتقاضى المعلمون أجراً زهيداً، لكن عندما يصل الطفل إلى بعض السور القرآنية يكون على أبيه أن يقدّم للمعلم هدية من الهدايا. حتى إذا ختم الطفل القرآن وحفظه كله، أقام الأب وليمة كبيرة دعا إليها جميع التلاميذ، وألبس الطفل لباساً فخماً وكأنه ابن أمير، وأركبه متن جواد أصيل ثمين يعيره إياه أمير المدينة الملكية (فاس الجديد)، كما يعيره اللباس أيضاً. ويركب الأطفال الآخرون متون الخيل ويصحبونه إلى قاعة الاحتفال، وهم ينشدون أناشيد في تمجيد الله (تعالى) ورسوله محمد ـ عليه السلام ـ ثم تكون الوليمة التي يحضرها أصدقاء الوالد، ويقدم كل واحد منهم هدية للمعلم، كما يقدم له الطفل المحتفل به كسوة جديدة، تلك هي العادة المتبعة.

ويحتفل هؤلاء الأطفال أيضاً بعيد المولد النبوي، ويلزم آباءهم أن يرسلوا شمعة إلى المدرسة، فيأتي كل طفل بشمعته، ويحمل بعض الأطفال شمعة تزن ثلاثين رطلاً أو أكثر أو أقل. وهي شموع جميلة مزخرفة جداً، مزدانة أطرافها بفواكه عديدة من شمع، توقد في مطلع الفجر وتطفأ عند

بزوغ الشمس. ومن عادة المعلم أن يدعو بعض المسمعين لينشدواأمداحاً نبوية، وينتهي الحفل بمجرد طلوع الشمس. وهذا أحسن مورد لمعلمي المدارس، لأنهم قد يبيعون من الشمع ما قيمته مائة مثقال أو أكثر من ذلك بحسب عدد تلاميذهم. ولا يؤدي أحد منهم كراء عن هذه المدارس، لأنها أوقاف وصدقات جارية على أرواح الواقفين. أما فواكه تلك الشموع وأزهارها فتعطى هدايا للأطفال والمنشدين.

ولأطفال هذه المدارس، كتلاميذ المدارس الكبرى، عطلة يومين في الأسبوع، لا يكون فيهما تعليم ولا دراسة

العرافون

لن أقول شيئاً عن بعض الصناع، كالدباغين الذين لهم مكانهم الخاص بالقرب من مجرى ماء كبير تقع معاملهم على طوله، وعددها كثير. يؤدون عن كل جلد دبغوه ضريبة قدرها (بايوتشان) اثنان، ويجتمع من هذه الضريبة ألفا مثقال[53]. ولن أتكلم أيضاً عن الحلاقين وغيرهم من الصناع، لأنني أشرت إليهم في وصف القسم الأول من فاس، مع أن عددهم أقل مما ذكرته في تلك المناسبة.

وسأحدثكم عن العرّافين الكثيرين، وهم أصناف ثلاثة:

يتألف الصنف الأول من الذين يتعاطون خط الرمل، فيرسمون عليه أشكالاً ويؤدى لهم عن كل رسم بحسب الموارد المتوفرة للشخص ووفقاً للعادة.

ويضم الصنف الثاني العرافين الذين يجعلون الماء في قدر لماع، ويرمون فيه قطرة زيت فيصير شفافاً، ويزعم العرافون أنهم يرون فيه كما

(53) أي أن عدد الجلود المدبوغة نحو 120,000.

يرون في المرآة جماعة من الشياطين القادمين بعضهم خلف بعض، كأنهم كتائب جيش تعسكر وتضرب الخيام، ويسلك بعض هؤلاء الشياطين طريق البحر وبعضهم طريق البر. وعندما يرى العرّاف أنهم قد استراحوا يطلب منهم ما يود معرفته، فيجيبونه بإشارات باليد أو العين. فانظروا إلى حماقة من يثقون بمثل هذه الأشياء! ويضع هؤلاء العرافون أحياناً القدر بين يدي طفل عمره ثمانية أعوام أو تسعة، ويسألونه هل رأى الجني الفلاني أو غيره، فيجيبهم الطفل الساذج بنعم، لكنهم لا يدعونه يتكلم وحده. ويثق الكثير من البلهاء بهؤلاء العرافين لدرجة أنهم ينفقون عندهم أموالاً طائلة.

ويشتمل الصنف الثالث من العرافين على نساء يوهمن العامة أنهن يرتبطن بصداقة مع شياطين من أنواع مختلفة، يسمين بعضهم بالشياطين الحمر، وبعضهم بالشياطين البيض أو السود. وعندما يطلب منهن أن يتنبأن بشيء من الأشياء يتطيبن بعطور مختلفة الروائح، فيدخل فيهن الشيطان الذي دعونه حسب زعمهن، ويغيرن حينئذ أصواتهن ليوهمن أنه المتكلم بفمهن. والشخص الذي أتى لشيء يريد أن يعرفه، سواء كان رجلاً أو امرأة، يطلب ذلك من الروحاني بكثير من الاعتبار والضراعة. فإذا حصل على الجواب ترك هدية للشيطان وذهب إلى حال سبيله. لكن الناس الذين يتمتعون بالاستقامة فضلاً عن العلم والخبرة يسمون هؤلاء النساء مساحقات، وهو معنى «فريكاتريس» باللاتينية لأنهن في الواقع يمارسن تلك العادة الشنيعة وتساحق إحداهن الأخرى، الأمر الذي لا استطيع التعبير عنه بعبارة أكثر حشمة. فإذا كانت امرأة جميلة من بين اللواتي أتين لاستشارتهن عشقنها كما يعشق شاب فتاة، وطلبن منها، وكأن الشيطان نفسه هو الذي يتكلم، قبلات غرامية في مقابل الثمن. وتقبل المرأة في أغلب الأحيان ظناً منها أنها ترضي الروحاني بذلك. وتطلب كثير من النساء اللواتي ينشرحن لهذه اللعبة من العرّافات الدخول في طائفتهن،

فيتظاهرن بالمرض ويستدعين إحداهن، وكثيراً ما يقوم الزوج الأبله بهذه المهمة. هنالك يعبرّن عن رغبتهن للعرافة، فتخبر الزوج بأن شيطاناً دخل إلى جسم امرأته، وإذا كان حريصاً على صحتها فلا بد له من أن يسمح لها بالانتساب إلى طائفة العرافات والعمل معهن بحرية، فيصدق الزوج الغبيّ ذلك ويقبل. ويزيد في غباوته أنه يصنع وليمة فخمة لجميع العرافات. وبعد تناول الطعام تقوم كل واحدة منهن إلى الرقص، ويحتفلن على أنغام جوق من الزنوج (كناوة)، ثم يترك الرجل زوجته تذهب إلى المغامرة. لكن هناك من الأزواج من يخرجون الأرواح من أجسام نسائهم بضربات عصي قوية، ومن يتظاهرون بأنهم أيضاً أصابهم مس من الشيطان فيخدعون العرافات مثلما خدعن نساءهم.

السحرة

هناك صنف آخر من العرافين يدعون المعزمين، أي السحرة، يعتبرون قادرين تماماً على إنقاذ من اعتراهم مس من الشيطان، لسبب واحد هو أنهم يوفقون أحياناً في ذلك، وإذا لم يوفقوا زعموا أن الشيطان كافر أو أن الأمر يتعلق بروح سماوية، ويكون التعزيم بالطريقة التالية: يكتبون بعض الحروف، ثم يرسمون دوائر فوق تنور أو غيره، ويخطون على يد المجنون أو جبينه بعض الإشارات، ويعطّرونه بمختلف العطور وبعد ذلك يشرع الساحر في الرقية، ويسأل الروحاني كيف دخل الجسم، من أين أتى، ومن هو، وما اسمه، ويأمره في الأخير بالذهاب.

وهناك أيضاً صنف آخر من الناس يعمل وفق قاعدة تدعى الزايرجة(54) أي مخاطبة الأرواح، لا يربطون عملياتهم بنصوص، بل يعتبرونها جزئاً من العلوم الطبيعية. والحقيقة أن هؤلاء القوم يعرفون كيف

(54) في النص الفرنسي «زيرجية»، وصححه المعلق في الهامش رقم 224 بأنه «زيرجة» ويسميها ابن خلدون في **المقدمة** (ص 950) زايرجة العالم.

يجيبون جواباً صائباً عن كل سؤال يطرح عليهم، غير أن القواعد الزايرجية متناهية الصعوبة، ويجب أن يكون المرء منجمًا ممتازاً ورياضياً ليعرف طريقة استعمالها. وقد شاهدت في بعض الأحيان أشكالاً من الزايرجية تطلب إنجازها اليوم كله من الصباح إلى المساء في فصل الصيف. وإليكم طريقة الاستعمال: ترسم عدة دوائر متحدة المركز، ويرسم في الأولى صليب تسجل في أطرافه الأربعة الجهات الأصلية الأربع: الشرق والغرب والشمال والجنوب، ويكتب القطبان في المركز عند تقاطع الخطوط، والعناصر الأربعة في داخل الدائرة. ثم تقسم هذه الدائرة الأولى إلى أربعة أرباع، وتقسم كذلك الدائرة التالية إلى أربعة، وبعد ذلك يقسم ربع كل دائرة إلى سبعة أقسام، تكتب في كل واحد منها حروف عربية كبيرة. أي ثمانية وعشرون أو سبعة وعشرون حرفاً في كل عنصر. وتثبت الكواكب السبعة في الدائرة الأخرى، وصور البروج الاثني عشر في الدائرة التالية، وشهور السنة اللاتينية الاثنا عشر في الدائرة بعدها، ومنازل القمر الثمانية والعشرون (نعني المنازل الفلكية) في الدائرة التالية، وأيام السنة الثلاثمائة والخمسة والستون في الدائرة الأخيرة.

وحينئذ يؤخذ حرف واحد من السؤال المطروح، وتضرب قيمته العددية في كل ما ذكر آنفاً، إلى أن يحدد العدد المناسب لهذا الحرف. ثم يقسم هذا العدد بطريقة خاصة، ويوضع الحرف بعد ذلك في مكان من الجدول الزيجي حسب طبيعة هذا الحرف وحسب العنصر الذي يوافقه، مع التثبت في ذلك بواسطة عمليات ضرب وقسمة وقياس لمعرفة ما إذا كان الحرف مناسباً للعدد المتوصل إليه. ويصنع بهذا الحرف بحسب الطريقة السابقة، ويستمر العمل هكذا إلى أن تحدد ثمان وعشرون منزلة، أي ثمانية وعشرون حرفاً. عنئذ تركب الكلمات التي تتألف منها جملة الجواب عن السؤال المطروح. وتصاغ الجملة دائمًا في قالب بيت من البحر الأول من أبحر الشعر العربي المسمى بالطويل، والمتّركب من ثمانية أوتاد واثني

عشر سبباً، حسب العروض العربي الذي تحدثنا عنه في قواعد اللغة العربية بالجزء الأخير من هذا الكتيب. وهذا البيت المكون من الحروف المجموعة بهذه الطريقة يعطي جواباً صحيحاً لا شك فيه، فهو يعبر أولاً عن السؤال المطروح، ثم عن جواب المنجّم. ولا يحدث أي خطأ في هاتين النقطتين. والواقع أن هذه العملية السحرية عجيبة حقاً. أما بالنسبة لي شخصياً فإني لم أر قط ما يعتبر كشيء طبيعي وتبين لي أنه خارق للعادة وإلهي كهذا العمل الزايرجي[55].

ولقد شاهدت عملية زايرجة في صحن المدرسة البوعنانية بفاس، وهذا الصحن مبلط بالرخام الأبيض الرقيق الناعم، طوله من كل جانب خمسون ذراعاً. وقد استعمل ثلثا الصحن في كل ماتطلبته الكتابة على رسم الزايرجة، وقام بتخطيطها ثلاثة أشخاص، عمل كل واحد منهم في جزء منها، ومع ذلك تطلّب العمل يوماً كاملاً لإنجازه. وشاهدت زايرجة أخرى في تونس قام بها أستاذ ماهر شِرح أبوه قواعد هذه العملية في ثلاث مجلدات. وقليل جداً من يعرف هذه القواعد. ولم أر منهم في حياتي كلها سوى ثلاثة، اثنين بفاس وواحد بتونس. وقرأت أيضاً شرحين في هذا الموضوع، أحدهما من تأليف المرجاني والد المعلم الذي رأيته في تونس، والثاني للمؤرخ ابن خلدون.

ومن أراد معرفة هذه القاعدة وشرحها، كلفه ذلك أقل من خمسين مثقالاً، لأنه إذا ذهب إلى تونس القريبة من ايطاليا وجد فيها هذا الكتاب. وقد رغبت عن تعلم القاعدة الزيجية كسلاً مني، مع أن ذلك كان متيسراً لدي، إذ كان عندي متسع من الوقت، والشيخ راغب في تعليمي إياها بالمجان. ولكن الذي منعني من ذلك بالخصوص هو أن هذه القاعدة وسواها من علم التنجيم حرام في نظر فقهاء الشريعة الإسلامية، وتكاد

---

(55) انظر: جدول زايرجة العالم في مقدمة ابن خلدون، بين صفحتي 960 و961.

تعتبر مروقاً من الدين. حقاً إن كل كتب الحديث النبوي عامرة بنصوص تبيِّـن عدم جدوى التكهن بالغيب، وأنه لا يعلم أمور المستقبل وأسراره إلا الله وحده. لذلك فإن الساهرين على شؤون المسلمين يلجؤون أحياناً إلى سجن من يتعاطون مثل هذه الأعمال، ولا ينقطعون عن التضييق عليهم.

القواعد والخصائص المتبعة عند بعضهم في شأن الشريعة المحمدية

يوجد بفاس بعض الأشخاص الذين يحملون اسم الصوفية، أي علماء الأخلاق وشيوخها، يسيرون على قوانين خارجة عما شرّعه محمد ـ عليه السلام ـ يعتبرهم البعض سنيين، ولا يعتبرهم كذلك آخرون. غير أن العامة تعتقد أنهم أولياء صالحون. وعلى سبيل المثال، تمنع الشريعة الإسلامية الغناء أو تلحين أية قصيدة غرامية، بينما يبيحها هؤلاء. ويشتمل مذهبهم على عدة طرق، لكل طريقة قواعدها الخاصة، ورئيسها المدافع عنها، وفقهاؤها الذين يؤيدون مبادئها، وكتبها العديدة المتعلقة بالحياة الروحية.

نشأ التصوف بعد ثمانين عاماً من وفاة محمد ـ عليه السلام ـ، على يد مؤسسه الأشهر حسن بن أبي الحسن البصري (56) الذي بدأ يلقّن بعض مبادىء التصوف لتلاميذه دون أن يكتب شيئاً. وبعد مرور مائة سنة ظهر رجل آخر عظيم الشأن في هذا المضمار، هو الحارث بن أسد البغدادي (57)، فألّف كتاباً لطيفاً شرح فيه لجميع مريديه تفاصيل مذهبه. وبعد ذلك أخذ الفقهاء الذين يوجهون أعمال الخلفاء ينكرون على هذه

(56) هو الحسن بن يسار (لا ابن أبي الحسن) تابعي، ولد بالمدينة وعاش في كنف علي بن أبي طالب ثم انتقل إلى البصرة، وبها مات عام 110 هـ.

(57) هو الحارث بن أسد المحاسبي من أكابر الصوفية في القرن الثالث الهجري، ولد ونشأ بالبصرة ومات ببغداد عام 243 هـ. ألّف كتباً كثيرة في التصوف، أشهرها آداب النفوس، وشرح المعرفة.

الطائفة ويدينون كل من يسلك هذا السبيل. وبعد ثمانين عاماً أعيد تكوين التصوف من جديد على يد رجل عظيم تبعه كثير من المريدين وأخذ يدعو لمذهبه علناً، فاتفق الفقهاء كلهم مع الخليفة على قتله هو وأتباعه، وأن تقطع رؤوسهم جميعاً. ولما علم الشيخ بهذ النبأ كتب إلى الخليفة يطلب منه التكرم بالإذن لعقد مناظرة مع الفقهاء، فإذا خرج منها مغلوباً قبل الموت راضياً، وإذا استطاع أن يبرهن على أن طريقته أفضل من طريقتهم، فليس من الإنصاف أن يهلك عدد كثير من الأبرياء المساكين بسبب تهمة مفتراة لا أساس لها. رأى الخليفة هذا الكلام حقاً فقبل الطلب، وذهب العالم إلى المناظرة، وانتصر على جميع الفقهاء بدون عناء، حتى إن الخليفة غيّر رأيه وبكى، وانتسب إلى هذه الطريقة وظل يؤيدها طوال حياته. وأسّس للصوفيين زوايا ومدارس، وازدهرت الحركة الصوفية مائة سنة أخرى، إلى أن جاء من آسيا الكبرى ملك شاه أمبراطور السلاجقة، وهو من أصل تركي. فاضطهد هذه الطريقة، وفرّ الصوفيون من وجهه، بعضهم إلى القاهرة، وبعضهم إلى الجزيرة العربية، وظلوا مشردين عشرين سنة إلى أن تولى الملك شاهلشاه[58] حفيد ملك شاه، وكان مستشاره على درجة عالية من الذكاء يدعى نظام الملك[59] من أتباع هذه الطريقة الصوفية، فجددها وساندها وأرسى قواعدها حتى تمكّن من إقامة مصالحة بين الفقهاء والصوفية، بفضل عالم كبير جداً يدعى الغزالي، ألّف في هذه العلوم (الشرعية والصوفية) كتاباً ممتازاً في سبعة أجزاء. ونتج عن هذا الوفاق أن حمل الفقهاء اسم العلماء وحفظة شريعة الرسول ـ عليه السلام ـ بينما سمي الصوفية رجال الحقيقة الباحثين عن أسرار الشريعة.

---

(58) بعد وفاة ملك شاه بن ألب أرسلان عام 485 هـ. اضطربت الأحوال فولي الملك بعده أبناؤه محمود وبركيارق ومحمد، وحفيده ملك شاه الذي يمكن أن يكون المقصود هنا ولو أن ملكه لم يدم إلا شهوراً قليلة، 498 هـ.

(59) اختلط الأمر هنا على الحسن الوزان، فنظام الملك الحسن بن علي كان وزيراً لملك شاه واغتيل في نفس السنة التي مات فيها الملك 485 هـ.

وقد قضى التتر على هذه الوحدة عام 656 للهجرة ،غير أن الانفصام الناتج عن ذلك لم يكن له أثر سيىء على التصوف، لأن آسيا وافريقيا كانتا مليئتين بالمريدين الصوفيين، ولم يدخل في هذه الطريقة آنذاك إلا رجال مشاركون في جميع العلوم، فتضلعوا بصفة خاصة من القرآن الكريم ليستطيعوا الدفاع عن المذهب الصوفي والرد على المذاهب المعادية له.

ومنذ مائة عام أصبح كل جاهل يريد أن يكون صوفياً بدعوى أنه لا حاجة إلى تعلم مذهب ما دامت العناية الإلهية تنير كل قلب طاهر بمعرفة الحقيقة، وبدعاوي أخرى لا قيمة لها كذلك.

لهذا أعرض الصوفية عن جميع أوامر الدين، سواء منها المستحبة والواجبة، ولم يعودوا يتقيدون من الشعائر إلاّ(60) بما يمارسه العلماء، بل راحوا بعكس ذلك يتمتعون بكل الملذات التي تعتبر مباحة في مذهبهم. وهكذا يقيمون مآدب كثيرة ينشدون فيها أناشيد غرامية ويرقصون رقصاً طويلاً. ويحدث أحياناً في هذه اللقاءات أن يمزق أحد الحاضرين ثيابه تأثراً بما ينشده المنشدون أو بسبب الأفكار الطائشة التي قد تخطر ببال أناس فقدوا كل اتزان. ويقول هؤلاء القوم حينئذ انهم مكتوون بلهب الحب الإلهي، وما أظن شخصياً إلا أنهم مكتوون بالإسراف في الطعام، لأن الواحد منهم يأكل ثلاثة أضعاف ما يكفي لشخص واحد: أو أنهم على ما يبدو لي أكثر احتمالاً، عندما يطلقون تلك الصرخات المصحوبة بالآهات، إنما يفعلون ذلك من أجل الهوى الذي يكنون لبعض الغلمان المرد. وليس من النادر أن يدعو بعض الأعيان إلى أعراسهم أحد الشيوخ البارزين لهؤلاء المتصوفة مع جميع مريديه. فإذا أتوا الوليمة بدؤ وا بتلاوة الأذكار وترتيل الأناشيد، وبعد تناول الطعام يأخذ المسنون منهم في تمزيق ثيابهم، وإذا سقط أحدهم

(60) هكذا بالترجمة الفرنسية، ولا يستقيم معنى هذه الجملة مع ما بعدها إلا بحذف أداة الاستثناء.

أثناء الرقص أوقفه حالاً على رجليه أحد الشبان المتصوفين فقبله العجوز في الغالب قبلة شهوانية. ومن ثم جاء المثل السائر على جميع الألسنة بفاس: «مثل مأدبة النساك التي حولتنا من عشرين إلى عشرة». ومعنى ذلك أن كل مريد حدث يعرف ما ينتظره ليلاً بعد الرقص.

ويسمى هؤلاء الصوفيون نساكاً، لأنهم لا يتزوجون ولا يعملون ولا يمارسون أية مهنة، بل يعيشون كما اتفق، وفي شرح **مقامات الحريري** الكثير من خصائص هذا الموضوع، ليس من اللائق ذكرها هنا لأسباب عديدة.

قواعد وفرق أخرى مختلفة
سذاجة الجمهور وخرافيته

هناك من بين هذه الفرق ما تعتبر قواعده بدعا عند الفقهاء والمتصوفة، لأنها تختلف عن غيرها، لا من حيث وجهة نظر الشريعة الدينية فحسب، ولكن من حيث العقيدة أيضاً.

فمن الناس من يعتقدون اعتقاداً جازماً أن بإمكان الإنسان أن يكتسب طبيعة الملائكة بالأعمال الصالحة والصيام والورع، ويزعمون أنهم يطهرون الروح والقلب لدرجة تمنعهم من اقتراف الذنوب، حتى ولو أرادوا ذلك. ولكن للوصول إلى تلك الغاية يجب سلوك خمسين درجة في طريق القوم، ويغفر الله لهم ما تقدم من ذنوبهم. يبدأ هؤلاء القوم بصيام عجيب يستحيل عد أيامه، ثم ينغمسون في كل ملذات الحياة متبعين قاعدة صارمة شرحها مؤلف عالم لامع اسمه السهروردي(61)، من سهرورد إحدى مدن خراسان، ويقع كتابه في أربعة أجزاء. وهناك مؤلف آخر يدعى ابن

(61) هو عبد القادر بن عبد الله السهروردي الصوفي الشهير، مؤلف كتاب آداب المريدين. توفي عام 562 هـ.

الفارض[62] شرح هذا المذهب كله في قصائد رائقة، لكنها مليئة بالألغاز، حتى ليظن أنها لا تتحدث إلا عن الحب. وقد شرحها الفرغاني[63] واستخرج منها القاعدة التي يجب اتباعها مشيراً إلى الدرجات التي ينبغي اجتيازها. وقصائد ابن الفارض رائقة إلى حد أن مريدي الطرق الصوفية لا ينشدون غيرها في حفلاتهم. ومنذ ثلثمائة سنة لم تستعمل لغة أكثر صفاء من التي استعملها ابن الفارض.

ويؤمن أصحاب هذه المعتقدات بأن الأفلاك العلوية والسماوات والعناصر والكواكب السيارة وسائر النجوم إله واحد، وأن أية عقيدة أو شريعة دينية لا يمكن أن تكون على ضلال، لأن جميع الخلق في نفوسهم على فطرة تحملهم على عبادة من يستحق أن يعبد ويعتقدون أن معرفة الله تعالى تتركز في شخص واحد يسمونه القطب، اختاره الله فشاركه ماهية وشبهه معرفة. ويميزون من بينهم أربعين رجلاً آخرين يدعونهم أوتاداً، وهم أحط من القطب درجة وأقل منه معرفة. وعندما يموت القطب يعين هؤلاء الأربعون قطباً آخر يختارونه من بين سبعين رجلاً. وهناك أيضاً سبعمائة وخمسة وستون من ذوي المقامات لم أعد أذكر ألقابهم، غير أنه إذا مات أحد الرجال السبعين خلفه واحد من هؤلاء. وتقضي قاعدة هذه الطريق أن يسيح كل واحد من هؤلاء القوم في الأرض متستراً عن الناس متظاهراً بأنه مجنون أو عاص مغرق في الآثام أو قرنان. وبهذه الدعوى يهيم الكثير من الدجالين على وجوههم في افريقيا عراة مكشوفي العورة، وهم على درجة منحطة من عدم الاعتدال والاحترام الانساني بحيث يضاجعون النساء أحياناً في الساحات العمومية كما تفعل البهائم. ومع هذا يعتبرهم

---

(62) عمر ابن الفارض الحموي ثم المصري المتوفى عام 632 هـ. أشعر المتصوفين، وسلطان العاشقين. له ديوان شعر مطبوع، جمعه سبطه علي، وشرحه كثيرون متأخرون عن عصر الحسن الوزان.

(63) هو سعد الدين محمد بن أحمد الفرغاني المتوفى في حدود عام 700 هـ. إلا أن المعروف أنه لم يشرح ديوان ابن الفارض كله، وإنما شرح تائيته الشهيرة.

العامة من أولياء الله الصالحين. ويوجد هؤلاء الأنذال بكثرة في تونس، وينتشرون أكثر من ذلك في مصر ولا سيما في القاهرة. ولقد شاهدت بعيني رأسي في ساحة بين القصرين بالقاهرة أحد هؤلاء الأشخاص يستحوذ على امرأة شابة في غاية الجمال كانت قد خرجت من الحمام، فأضجعها في وسط الساحة وواقعها. ولم يكد يقوم عنها حتى أسرع الناس إليها يتمسحون بثيابها وكأنها أداة نسك وعبادة لما لامسها رجل صالح، ويسر الناس بعضهم إلى بعض بأن الصالح إنما تظاهر بمضاجعتها ولكنه لم يقع شيء من ذلك. ولما بلغ الخبر إلى الزوج اعتبره نعمة عظيمة، وحمد الله على ذلك وأقام وليمة وأفراحاً كثيرة على ما أصابه من خير. ولقد هم القضاة والفقهاء بمعاقبة هذا الدنيء بكل الوسائل، لكن العامة كادت أن تفتك بهم، لأنه، كما قلت سابقاً، يتمتع كل واحد من هؤلاء القوم بإجلال كبير عند الجمهور، وينال منه هبات وهدايا ثمينة جداً.

ولقد رأيت أشياء أخرى عديدة من هذا القبيل أستحي من ذكرها.

أصحاب أسرار الحروف، وطوائف أخرى

وهناك مذهب آخر يتبعه بعض من يمكن تسميتهم بأصحاب أسرار الحروف، وهم قوم يصومون صوماً غريباً ولا يأكلون لحم أي حيوان. يتناولون أطعمة خاصة ويلبسون ألبسة متميزة في كل ساعة من ساعات النهار والليل، ويدعون دعوات معينة بحسب الأيام والشهور مبنية على ترتيب عددي. ومن عادتهم أن يحملوا معهم تمائم ملونة نقشت بداخلها حروف وأرقام، يزعمون أنهم بعد ذلك تتجلى لهم أرواح مساعدة تخاطبهم وتمدهم بمعرفة شمولية لأمور هذا الكون. وقد كان من بين هؤلاء المشتغلين بأسرار الحروف فقيه ممتاز يدعى البوني[64] الذي وضع

(64) هو أحمد بن علي البوني المغربي المتوفى بالقاهرة عام 622 هـ. من أشهر تآليفه غير ما ذكره الحسن الوزان: مفاتيح أسرار الحروف، ومصابيح أنوار الظروف؛ وإظهار الرموز، وإبداء الكنوز.

قواعدهم. وحدد أدعيتهم، وبين طريقة تركيب تمائمهم. وقد قرأت كتبه، وأظن أن هذا العلم أقرب إلى السحر من أسرار الحروف. وأشهر كتب هذا الفن ثمانية، أكثرها انتشاراً **اللمعة النورانية** للبوني، يبين أنواع الصلاة والصيام، وكتاب آخر يدعى **شمس المعارف**، يشرح فيه طريقة صنع التمائم والفائدة التي تجنى منها. ويسمى الكتاب الثالث **سر الأسماء الحسنى**، يعني سر أسماء الله التسعة والتسعين. وقد رأيت هذا الكتاب بروما بين يدي أحد يهود البندقية.

ويوجد في هذه الطائفة نموذج آخر يدعى طريقة السواح يتبعها بعض النساك الذين يعيشون في عزلة، ولا يقتاتون غير الأعشاب والفواكة البرية ولا يعرف أحد العيشة التي يعيشونها بالضبط لأنهم يعزفون عن كل علاقة بشرية. وسأبتعد كثيراً عن الهدف الذي رسمته لكتابي هذا لو أردت متابعة دراسة مختلف الفرق الاسلامية بتفصيل. وعلى من أراد المزيد من الاطلاع أن يقرأ كتاب الأكفاني[65] الذي يتعرض بإسهاب لمختلف الفرق المنبثقة عن الديانة الاسلامية، وعددها اثنتان وسبعون فرقة، تدعي كل واحدة منها أن مبادئها هي المثلى التي تضمن لمتبعها النجاة.

والواقع أنه لا يوجد في عصرنا الحاضر غير مذهبين لهذه الديانة، أحدهما مذهب الأشعري المنتشر في كل افريقيا ومصر والشام والجزيرة العربية وتركيا كلها، والثاني مذهب الامامية المنتشر في جميع بلاد فارس وبعض مدن خراسان، وهو الذي يتبعه (الملك) الصوفي[66]. وقد تسبب هذا المذهب في تخريب آسيا كلها تقريباً، إذ كان سكان تلك الأقطار قبل

(65) لعله يقصد هبة الله الأكفاني الدمشقي المتوفى عام 524 هـ. وهو محدث مؤرخ، وربما كان ذلك في كتابه جامع الوفيات.

(66) الملك الصوفي هو لقب الشاه اسماعيل بن حيدر مؤسس الدولة الصفوية في ايران (905-930) ومدخل المذهب الشيعي إلى تلك البلاد بالقوة.

ذلك على مذهب الأشعري، فأراد ملك الفرس مراراً عديدة حملهم على مذهبه (الشيعي) بالقوة.

وليس في الحقيقة هناك غير مذهب واحد في الامبراطورية الاسلامية كلها.

الباحثون عن الكنوز

يوجد بفاس أيضاً رجال يدعون الكنزيين، يبحثون عن الكنوز المدفونة في أسس الأبنية الأثرية القديمة. يذهب هؤلاء الحمقى إلى خارج المدينة منقبين في عدد من الكهوف والأطلال لعلهم يجدون فيها هذه الكنوز، لأنهم مقتنعون تماماً بأن الرومان عندما أخذت منهم امبراطورية افريقيا وفروا إلى بلاد بيتيك في اسبانيا، دفنوا في ضواحي فاس عدداً وافراً من الأشياء الثمينة النفيسة التي لم يتمكنوا من أخذها معهم، وسحروها. ولذلك يبحث هؤلاء الكنزيون عن سحرة يكتشفون لهم تلك الكنوز. ولا يخلو الأمر من أناس يزعمون أنهم رأوا في سرداب ذهباً أو فضة لم يستطيعوا أخذه لكونهم لا يعرفون التعزيم اللازم، ولم يكن لديهم البخور الملائم. وبناء على هذا الاعتقاد الباطل ينبش الكنزيون الأرض ويتلفون الأبنية والأضرحة في أغلب الأحيان، وقد ينتقلون لمسافة عشرة أيام أو اثني عشر يوماً من فاس، وبلغ بهم الحال ان أصبحت لديهم كتب تذكر فيها الجبال والمواقع التي دفنت فيها كنوز كثيرة، ويحتفظون بهذه الوثائق وكأنها وحي إلهي.

وقبل خروجي من فاس، أقام هؤلاء الكنزيون لحماقتهم أميناً لهم، وعرضوا على أصحاب الأراضي أن يصلحوا لهم الضرر الناجم عن جميع الحفريات التي يرغبون في القيام بها.

الكيميائيون

لا تظنوا أن عدد الكيميائيين قليل! بل بالعكس، فإن عدد الذين يتعاطون دراسة هذا الفن الجنوني التافه كثير جداً. وهم أكثر الناس قذارة وأنتنهم رائحة بسبب الكبريت وغيره من المواد الكريهة الرائحة التي يعالجونها بأيديهم. يجتمعون مساء كل يوم تقريباً في الجامع الكبير، ويتناقشون في الكشوفات المزعومة. ولهم في هذا الفن كتب عديدة وضعها مؤلفون ممتازون، أهمها كتاب جابر[67] الذي عاش بعد وفاة محمد (عليه السلام) بمائة سنة، وهو على ما قيل يوناني اعتنق الإسلام، وكتابه كله رموز حتى الوصفات التي يقدمها. وهناك مؤلف آخر يدعى الطغرائي[68] الذي عمل كاتباً لأحد سلاطين بغداد، وقد تحدثنا عنه أكثر في **حياة الفلاسفة العرب**[69] وقد ألف في الكيمياء أيضاً شيخ يدعى المغيربي[70] من أصل أندلسي، في شكل قصائد مطولة تشتمل على جميع تفاصيل هذا الفن، شرحها مملوك دمشقي بارع جداً في هذا الفن، لكن الشرح أصعب فهمًا من النص.

---

(67) جابر بن حيان الكوفي المعروف بالصوفي، فيلسوف كيميائي، ألف كتباً كثيرة بلغ عددها على ما قيل 500، ترجم بعضها إلى اللاتينية، وطبع عدد منها بالعربية، مثل أسرار الكيمياء وأصول الكيمياء. توفي بطوس عام 200 هـ.

(68) مؤيد الدين الحسين بن علي الطغرائي الشهير بقصيدته **لامية العجم**. وزر للسلطان مسعود السلجوقي صاحب الموصل، وقتل في فتنة عام 513. ألف كتباً عديدة في الكيمياء، منها **جامع الأسرار**، و**حقائق الاستشهاد**.

(69) يظهر أن هذا العرض كان معداً ليكون جزءاً من كتاب شامل للمؤلف، إلا أنه وصلنا مستقلاً في نصه اللاتيني، ويترجم لثلاثين شخصية من بينهم الطغرائي.

(70) ذكره ابن خلدون في الفصل الثلاثين من الباب 6 من الكتاب الأول الخاص بعلم الكيمياء من المقدمة (ص 977 من طبعة بيروت) فقال: «ولابن المغيربي من أئمة هذا الشأن كلمات شعرية على حروف المعجم من أبدع ما يجيء في الشعر، ملغوزة كلها لغز الأحاجي والمعاياة. فلا تكاد تفهم». ولا ندري إن كان هو علي بن عبد العزيز الشهير بابن المغربي المتوفى ببغداد عام 684 هـ.

والكيميائيون صنفان، بعضهم يتابعون البحث عن الإكسير، أي المادة التي تعطي صبغتها لكل معدن أو ركاز، وبعضهم يشتغلون بتجارب لاكثار عدد المعـادن بواسطة السبائك. ولكنني لاحظت أن الغرض الذي يجري وراءه هؤلاء القوم كثيراً ما يؤدي بهم إلى تزييف العملة، ولذلك فإن أكثر الموجودين منهم بفاس تنقصهم يد (قطعت قصاصاً).

المشعوذون وآسرو الحيات

وأخيراً يوجد بفاس العديد من هؤلاء السوقة الذين لا خير فيهم ممن يدعون في ايطاليا «تشيور ماطوري» أو المشعوذين. وهم أناس لا قيمة لهم، ينشدون في الساحات قصائد وأغنيات وترهات أخرى لاعبين بالدف والرباب والقيثار وغيرها من الآلات، ويبيعون للأغمار أوراقاً صغيرة كتبت عليها كلمات وعبارات ناجعة في زعمهم للشفاء من كل داء.

يضاف إلى هؤلاء المشعوذين صنف آخر من أحط أصناف البشر، وكلهم من فصيلة واحدة، يجوبون المدينة وهم يرقصون القردة ويحملون الأفاعي في أيديهم وحول أعناقهم، يقومون أيضاً بأشكال من خط الرمل ويخبرون النساء بما سيكون في المستقبل، كما يصحبون معهم بعض فحول الخيل لنزو ما يساق إليهم من الحجور في مقابل أجر.

ويمكنني الآن أن أتابع هذا العرض المفصل لخصائص أهل فاس، إلا أنني أكتفي بأن أقول ان أكثرهم بغيضون لا يحبون الغرباء، مع أن عدد الغرباء قليل بفاس، لأنها تقع على بعد مائة ميل من البحر المتوسط، والطريق بينهما رديئة يعسر سلوكها على الغرباء. وأضيف إلى ذلك أن الأعيان متكبرون جداً لدرجة أن عدداً قليلاً من الناس يستطيعون معاشرتهم. ويصدق نفس الشيء على العلماء والقضاة الذين يأبون حفاظاً على سمعتهم أن يتعاملوا إلا مع بعض الأشخاص فقط.

وخلاصة القول انه مهما كان الأمر فإن فاساً مدينة جميلة مريحة جيدة التنسيق. ويكثر الوحل بفاس خلال فصل الشتاء، بحيث يضطر الناس إلى لبس القباقب المستعملة في البلاد للمرور في الأزقة، مع أنه توجد فوق قنوات الماء أنابيب تمكن من غسل كل الأزقة. وحيث لا توجد قنوات يجمع الوحل ويحمل على الحمير ثم يرمى به في النهر.

أرباض المدينة

يقوم في خارج فاس من جهة الغرب ربض يضم نحو خمسمائة كانون، لكن دوره كلها قبيحة. وهنالك يقطن فقراء القوم كسائقي الجمال والسقائين وحطابي القصر الملكي، إلا أنه توجد به دكاكين عديدة وكل فئات الصناع. كما يقطن فيه جميع المشعوذين والموسيقيين من الدرجة السفلى، وتكثر فيه البغايا، وهن قبيحات خسيسات.

يشاهد في الزقاق الرئيسي لهذا الربض عدد من الحفر المنحوتة بالأزميل، لأن أرضه من الصخر الكلسي، كانت تخزن فيها حبوب أعيان فاس في القديم. ولم يكونوا يسكنون في الربض آنذاك، وإنما كان لهم به حراس يحفظون حبوبهم. ومنذ أن بدأت الحروب وأخذ العدو يستولي على الحبوب، بنيت مخازن بفاس الجديد وأهملت المخازن التي كانت خارج البلد. بعض هذه المخازن في غاية الكبر يسع أصغرها ألف «رودجي» من الحبوب. وتوجد مائة وخمسون مطمورة، كلها مفتوحة الآن. وبما أنه يحدث أحياناً أن يقع بعض الأشخاص في هذه الحفر، فقد أحيطت فوهاتها بجدار صغير. وإذا أراد حاكم فاس أن ينفذ حكم الإعدام على أحد بطريقة سرية أمر بقذفه في هذه المطامير؛ وفي القصبة (السلطانية) باب خاص بهذا الغرض يفضي إلى هذا المكان. وتقوم في هذا الربض قاعات اللعب، إلا أنهم لا يلعبون فيها غير النرد. وهناك أيضاً يمكن بيع الخمر واتخاذ حانة أو ماخور، بحيث يمكن القول ان هذا الربض هو ظرف لجميع أقذار

المدينة، ولا يرى به أحد في الدكاكين بعد الساعة الثامنة مساء[71].

وهناك ربض آخر يسكنه المجذومون يحتوي على مائتي دار تقريباً، ولهم رئيسهم الديني الذي يجمع دخل الأملاك العديدة الموقوفة عليهم لوجه الله من طرف الأعيان وغيرهم من المحسنين. ويقدم إلى هؤلاء المرضى كل ما هو ضروري لهم بحيث لا يحتاجون إلى شيء، ويقوم رؤساؤهم بتخليص المدينة من كل مجذوم، ولهم السلطة لإخراج كل من رأوه مصاباً بهذا الداء من فاس وإسكانه بهذا الربض. وإذا هلك مجذوم ولم يترك وارثاً آل نصف تركته إلى جماعة الربض، والنصف الآخر للشخص الذي دل عليه. وإذا كان للهالك المجذوم أبناء اختصوا بتركة أبيهم. واعلم أنه يعد من المجذومين البرصان الذين تظهر على أجسامهم بقع بيض وغيرهم من ذوي الأمراض المزمنة[72].

ويوجد بعيداً عن هذا المكان ربض آخر[73] يسكنه العديد من البغالين والخزفيين والبنائين والحطابين، وهو صغير يضم نحو مائة وخمسين كانوناً.

وهناك أيضاً ربض آخر كبير[74] على الطريق الواقع إلى الغرب من فاس، يضم نحو أربعمائة كانون، إلا أنه ليس فيه غير أكواخ يقيم بها الفقراء والفلاحون الذين لا يريدون البقاء في البادية أو لا يستطيعون ذلك.

---

(71) كان هذا الربض ــ حسب مرمول ــ يحمل اسم المرس، أي أرض المطامير.

(72) عبر مرمول عن هذا الربض بالمارستان. ويسمى في الاصطلاح المغربي: الحارة، أي حارة المجذومين.

(73) سماه مرمول: الكيفان، أي الكهوف، وبين أن الفقراء يسكنون هناك فعلاً في الكهوف. وما زالت تلك الكهوف معروفة حتى اليوم غربي قبور المرينيين بظاهر فاس.

(74) سماه مرمول سوق الخميس، وحدد موقعه في غرب الربض السابق، على طريق مكناس والقصر الكبير.

ويقع بالقرب من هذا الربض سهل كبير يمتد منه إلى النهر على مسافة نحو ميلين، كما يمتد في اتجاه الغرب على طول ثلاثة أميال، ويقام فيه كل يوم خميس سوق يحج إليه الناس بكثرة سائقين ماشيتهم، ويحمل إليه التجار بضائع مجلوبة من الخارج، فينصب كل واحد منهم خيمته. وتقضي العادة أن يجتمع الأعيان فيه جماعات صغيرة، ويعهدوا لجزار بذبح خروف يقتسمون لحمه تاركين الرأس والأكارع للجزار أجراً له، ويبيعون الجلد لتاجر الصوف. ولا يدفعون إلا ضريبة يسيرة عن البضائع التي تباع بهذا السوق لا حاجة إلى تفصيلها. غير أن الشيء الذي لا أريد أن أغفله هو أنني لم أر في أي مكان آخر، سواء في افريقيا كلها أو آسيا أو ايطاليا سوقاً توجد فيه بضائع بهذا القدر، وذلك شيء يستحيل تقديره.

وفي ظاهر المدينة صخور عالية محيطة بخندق طوله ميلان، يستخرج منه الحجر الذي يصنع منه الجير. وفي الخندق أفران كبيرة يسع بعضها ستة آلاف مد من الجير. ويضطلع بهذا العمل أعيان متواضعون.

وفي ظاهر المدينة أيضاً إلى جهة الغرب يقع نحو مائة كوخ على ضفاف النهر يسكنها القصارون، وتجري عملية غسل الثياب بالطريقة التالية: في فصل الربيع من كل سنة يعمد كل قصار إلى كتانه فيبلله ثم ينشره في مرج مجاور لكوخه، فإذا رأى أنه قد جف، أخذ يستقي من ماء النهر أو السواقي بدلو من جلد له قبضة من خشب ويرش القماس. وفي المساء يجمع كل قصار أقمشته ويحملها إلى بيته أو إلى مكان معد لذلك، وهكذا تحتفظ المروج التي تنشر عليها الأقمشة بغطائها الأخضر الغض طول السنة. ويبهج العين من بعيد منظر بياض تلك الأقمشة على خضرة المروج، بينما يبدو ماء النهر الصافي أزرق بلون السماء، وقد وصف الشعراء ذلك بقصائد رائعة.

مقابر خارج المدينة

يوجد بظاهر فاس ساحات كثيرة معدة لدفن الموتى، وهبها بعض المحسنين ابتغاء مرضاة الله لتكون مقابر. يوضع على جثة الميت، أو بالأحرى على المكان الذي يرقد فيه حجر طويل رقيق ذو ظهر مثلث الشكل. أما الاشراف وذوو الحيثيات، فتقضي العادة أن توضع على قبورهم لوحة من رخام عند الرأس وأخرى عند القدمين، تنقش عليهما أبيات شعرية تسلي عن هذا الانتقال الصعب المرير من الحياة إلى الممات، ويذكر تحتها اسم الهالك وأسلافه ويوم الوفاة وسنتها. وقد عنيت كثيراً بنسخ كل كتابات القبور التي رأيتها، لا في فاس وحدها، ولكن في كل بلاد البربر، وجمعتها في مجلد صغير أهديته إلى أخي الملك الحالي عندما توفي والدهما الملك الشيخ(75). ومن بين هذه الأبيات كلها ما من شأنه أن يقوي عزائم الناس ويسليهم عن حزنهم، وبعضها بعكس ذلك يزيد في الكآبة والحسرة، لكن لابد من التذرع بالصبر لتحمل هذه وتلك.

مقابر الملوك

يشاهد في خارج فاس أيضاً إلى جهة الشمال قصر فوق تل مرتفع، وهناك توجد أضرحة بعض ملوك بني مرين، وهي في غاية الزينة، شواهدها من مرمر مزخرف بنقوش ومنمق بألوان زاهية، حتى إن هذه الأضرحة لتملأ نفوس المتأملين فيها بالإعجاب(76).

---

(75) توفي محمد الشيخ الوطاسي عام 910/1504، وولي الملك بعده ابنه محمد البرتغالي إلى عام 931/1525. أما الأخ الذي أهدى إليه المؤلف كتابه فلعله أبو حسون الوطاسي الذي سيخلف أخاه بعد وفاته.

(76) ما تزال أطلال قبور بني مرين ماثلة فيها يسميه أهل فاس «القلة» أي قمة «كدية بني مرين».

حدائق وبساتين

تقوم في شمالي فاس وشرقيها وجنوبيها حدائق في غاية الجمال، مليئة بالأشجار المثمرة المختلفة الأصناف. وتشق هذه الحدائق فروع صغيرة من النهر، والأشجار فيها كثيرة حتى ليخيل للناظر إليها من بعيد أنها غابة. أرضها غير محروثة، ومع ذلك تسقى في شهر مايو فتنتج الثمار بوفرة. هذه الثمار جيدة جداً، إلا الخوخ فإن طعمه غير لذيذ. ويقدر ما يباع يومياً في الموسم من الفواكه بخمسمائة حمل، عدا العنب الذي لم أدخله في هذا العدد. وتنقل جميع أحمال هذه الفواكه إلى مكان معين في المدينة، فتؤدى عنها الضريبة وتباع بالمزاد لتجار الثمار الذين يأتون لشرائها. ويباع في نفس هذا السوق العبيد السود، وتؤدي الضريبة عمن يباع منهم.

وتقع في غربي فاس أرض (زواغة) عرضها نحو خمسة عشر ميلاً وطولها نحو ثلاثين ميلاً، تكثر فيها العيون والجداول وتعد من أملاك الجامع الكبير (القرويين). يكتري هذه الأرض بستانيون يزرعون فيها كمية وافرة من الكتان والبطيخ والقرع والخيار والجزر واللفت والكرمب والخس وغيرها من الخضر، حتى إنه ليقدر ما تنتجه هذه الأرض من غلات بخمسة عشر ألف حمل في الصيف، ومثل هذا العدد في الشتاء. غير أن هواء هذه الناحية وخيم، ومعظم سكانها صفر الوجوه، يعانون من حميات شديدة يموت بسببها عدد كثير منهم.

فاس الجديد

يحيط بفاس الجديد من جميع الجهات سوران في غاية الجمال والعلو والمتانة. وقد شيدت هذه المدينة في سهل جميل بجوار النهر، على بعد نحو ميل غربي المدينة القديمة بانحراف يسير نحو الجنوب. يمر بين السورين شعبة من النهر تتجه نحو الشمال وتقع عليها الطواحين. وتنقسم شعبة النهر الأخرى إلى فرعين، يمر أحدهما بين المدينة القديمة وفاس الجديد قريباً

من القصبة، ويتابع الآخر مجراه في الشعب بين الحدائق المجاورة للمدينة القديمة حتى ينفذ إليها من جهة الجنوب. وتمر شعبة النهر الداخلة إلى القصبة بمدرسة أبي عنان.

مؤسس فاس الجديد هو يعقوب بن عبد الحق أول ملوك بني مرين (عام 674/1276)، وكان ملك تلمسان قد تسبب له في كثير من المشاكل سواء بمد يد المعونة لملوك مراكش، أو بالعمل على منع امتداد النفوذ المريني. ولما فرغ يعقوب من حرب مراكش راودته الرغبة في الانتقام من ملك تلمسان، وعزم على محاربته، فوجد أن معاقل مملكته نائية جداً عن تلمسان، وصمم على تشييد هذه المدينة الجديدة وجعلها حاضرة لملكه بدلاً من مراكش العاصمة آنذاك، فتم له ذلك وأطلق على المدينة اسم المدينة البيضاء، إلا أن السكان سموها منذ ذلك الحين فاس الجديد.

أمر الملك بتقسيم هذه المدينة إلى ثلاثة أقسام منفصلة، الأول للقصور المخصصة للملك وأبنائه واخوته، وأراد يعقوب أن يكون لكل هذه القصور بساتينها الخاصة، وبنى بالقرب من قصره جامعاً في غاية الجمال، حسن الزخرف عجيب الهندسة، وأمر أن تبنى في القسم الثاني اصطبلات كبيرة للخيول التي كان يمتطيها بين الباب الغربي والباب المتجه نحو الشرق، ويقارب طول هذا الشارع بقليل ميلاً ونصف ميل[77]، وفيه دكاكين مختلف أصناف التجار والصناع. وبنى بجوار الباب الغربي عند السور الثاني رواقاً كبيراً جداً وحجرات صغيرة عديدة تكون مقراً دائمًا لحارس المدينة مع جنوده ومستخدميه، وأراد أن يُبنى بالقرب من هذا الرواق اصطبلان متناهيان في الكبر يسعان بسهولة ثلاثمائة فرس لحراس قصره.

---

(77) بل نصف ميل فقط.

أما القسم الثالث من المدينة فقد أعد لسكنى الحرس الخاص بالملك، وكان يومئذ مؤلفاً من بعض المشارقة (الأتراك) المسلحين بالقسي. لأن استعمال قاذفات (البارود) لم يشع بعد في البلاد، وكانوا يتقاضون مرتباً عالياً من الملك. ويوجد الآن في هذا المكان عدد من الجوامع، وحمامات جميلة جداً كلف تشييدها نفقات باهظة.

ويوجد بقرب القصر الملكي معمل ضرب النقود المسمى (دار) السكة. ويتركب من بناية تحيط بساحة مربعة، تشتمل على حجرات صغيرة يشتغل فيها العمال المعلمون، وفي وسط الساحة مكتب يعمل فيه مدير السكة مع محاسبيه وكتبته، لأن السكة في فاس وغيرها مؤسسة تعمل لصالح الملك الذي يختص بفوائدها.

ويقع بقرب دار السكة سوق فيه دكاكين الصاغة، وأمينهم هو الذي يحتفظ بقالب المعادن وأختام النقود، فلا يمكن أن يصنع بفاس خاتم أو أي شيء من الفضة والذهب إذا لم يكن المعدن مختوماً بقالبه. ومن حاول بيع شيء غير مختوم عرض نفسه لخسارة كبرى، الا أن كل شيء مختوم يباع بالسعر العادي ويمكن استعماله للأدوات مثل العملة. ومعظم الصاغة من اليهود الذين ينجزون أعمالهم بفاس الجديد ثم يحملونها إلى المدينة القديمة لبيعها في سوق معد لهم قرب سوق العطارين. ولا يمكن صياغة الذهب ولا الفضة في المدينة القديمة، كما لا يمكن لأي مسلم أن يمارس مهنة صائغ، إذ يقال ان بيع المصوغات الذهبية والفضية بثمن أعلى مما يساويه وزنها يعتبر ربا؛ ولكن الملوك يسمحون لليهود بالقيام بهذا العمل. ويوجد مع ذلك في المدينة القديمة بعض الصاغة الذين يصنعون الحلي لأهل المدينة فقط، ولا يربحون إلا مقدار أجر عملهم.

ويشغل اليهود في أيامنا هذه جزء المدينة الذي كان مقاماً قديماً لحرس الرماة. وكانت مساكن اليهود قبل ذلك في المدينة القديمة، فكان المسلمون

ينهبون أمتعتهم كلما مات ملك، فلما ولي الملك أبو سعيد[78] نقلهم من المدينة القديمة إلى المدينة الجديدة بعد أن ضاعف عليهم الجزية، وبها يقيمون اليوم، ويشغلون شارعاً طويلاً وعريضاً جداً، فيه دكاكينهم ومعابدهم. وقد تكاثر السكان اليهود حتى إنه لم يعد بالامكان معرفة عددهم، لا سيما بعد أن طردهم ملوك اسبانيا، وهم محتقرون من طرف الجميع، لا يحق لأي واحد منهم أن ينتعل أحذية، وانما يلبسون نعالاً من قش، ويتعممون بعمائم سود. ومن أراد منهم أن يضع قلنسوة فعليه أن يخيط عليها قطعة من ثوب أحمر. وتبلغ الجزية المضروبة على يهود فاس أربعمائة مثقال في الشهر تؤدى للخزينة الملكية.

وأخيراً فإن فاساً الجديد تزود خلال مائة وأربعين سنة[79] بأسوار متينة وقصور وجوامع ومدارس، وبجميع التحسينات التي يمكن أن تنالها مدينة ما. وأظن أنه أنفق على هذه التجميلات أكثر مما كلفه بناء الأسوار المحيطة بها.

وقد أقيم على النهر بظاهر المدينة نواعير كبيرة جداً تنقل الماء منه إلى أعلى سور أعدت فيه قنوات تحمل الماء إلى القصور والبساتين والجوامع. وقد صنعت هذه النواعير في عصرنا أي منذ نحو مائة سنة، إذ كان الماء قبل ذلك يصل إلى المدينة بواسطة قناة تنطلق من مسافة عشرة أميال[80]، وكانت القناة تمر على أقواس متقنة البناء، يقال انها بنيت حسب تصميمات معلم جنوي، كان تاجراً مقرباً كثيراً إلى الملك في ذلك العهد. وصنع النواعير اسباني، وهي والله شيء عجيب، لا سيما تلك الخاصية المتمثلة في

(78) أبو سعيد عثمان المريني ولي الملك من عام 800 إلى 823هـ.

(79) ظن المعلق في الترجمة الفرنسية أن المؤلف أخطأ بذكر 140 سنة، وصححه في الهامش بـ240 سنة اعتباراً للمدة الفاصلة بين تاريخ تأسيس فاس الجديد وعصر الحسن الوزان. وليس الأمر كذلك، لأن القرن التاسع هـ كان عصر فراغ بالنسبة للعمران.

(80) يعني عين عمير الواقعة جنوبي فاس.

أنه مهما كانت قوة تيار الماء فانها لا تدور أكثر من أربع وعشرين دورة في اليوم والليلة.

بقي أن أقول انه لا يسكن في فاس الجديد إلا قليل من الأعيان، بقطع النظر عن أقارب الملك وبعض أفراد حاشيته. وباقي السكان من الرعاع الذين يحترفون الحرف الوضيعة، ذلك أن ذوي السمعة الطيبة والمنزلة الرفيعة يأنفون من العمل في البلاط ولا يرضون حتى بتزويج بناتهم لرجال الحاشية.

الحياة العادية في بلاط ملك فاس

لا يوجد من بين كافة ملوك افريقيا من ولي الملك أو الامارة بانتخاب من الشعب، أو باستدعائه لذلك من اقليم أو مدينة. ولا يستطيع أي حاكم زمني ــ باستثناء الخليفة ــ أن يدعي المشروعية طبقاً للشريعة الإسلامية. لكن بعد أن ضعفت سلطة الخلفاء، أخذ جميع رؤساء القبائل الذين كانوا يعيشون في الصحاري يهاجمون البلاد المأهولة، ثم فرض مختلف الملوك سلطتهم ضداً على شريعة محمد (عليه السلام) وعلى رغم الخلفاء. ذلك ما حدث في المشرق، حيث جاء الأتراك والأكراد والتتر والغز من الشرق ونصبوا منهم ملوكاً، وكذلك بالنسبة للمغرب حيث أسس شعب زناتة مملكة، وتبعه شعب لمتونة فالموحدون فالمرينيون، ملكوا بالتعاقب. حقاً ان لمتونة جاءت لنجدة شعوب المغرب وانتشالها من أيدي المارقين (البرغواطيين). وبذلك أصبح هؤلاء الملوك أصدقاء الشعب، لكنهم أخذوا يمارسون سلطة جبارة كما رأينا.

كل هذا يوضح كيف أن الملوك في أيامنا لم يعينوا لا بموجب وراثة حقيقية ولا بحسب انتخاب من طرف الشعب أو كبار الشخصيات أو قائد الجيش. وإنما يعمد كل أمير قبل موته إلى إرغام أهل الحل والعقد وأقوى أفراد الحاشية على مبايعة ابنه أو أخيه خلفاً له بأداء القسم على ذلك، وفي

كثير من الأحيان لا يبر هؤلاء بقسمهم، ويحدث دائمًا تقريباً أن يعينوا ملكاً من يعجبهم أكثر من غيره. وهذه هي الطريقة التي يعين بها ملك فاس. وما إن يتم الاعتراف به ملكاً حتى يعين مستشاره الكبير من بين أعيان حاشيته وأكثرهم نبلاً، ويخصص له ثلث ايراد مملكته، ثم يختار كاتباً لا يقتصر عمله على الكتابة، بل يكون خازن ماله وكبير خدمه. وبعد ذلك يعين رؤساء الخيالة المكلفين بحراسة المملكة، وكثيراً ما يقيم هؤلاء في البادية مع فرسانهم. ثم ينصب في كل مدينة عاملاً يستغل ايرادها مقابل التزامه بالانفاق على عدد معين من الفرسان يكونون تحت أوامر الملك، أي على أهبة التجنيد كلما احتاج الملك إلى حشد الجيوش، ثم يعين قواداً وأمناء للقبائل التي تسكن الجبال والأعراب الخاضعين له، فالقواد يحكمون وفق الأعراف المختلفة لهذه القبائل، والأمناء يجبون الضرائب، وعليهم أن يتخذوا حساباً دقيقاً للمدفوعات العادية والغير العادية. ويسمي الملك بعد ذلك قواد الرحى الذين يدعون بلغة البلاد (البابوية) «كوسطوديس»، لكل واحد منهم قصر أو قرية أو قريتان يستمد منها مورداً لمعاشه الخاص، وليكون دائمًا على استعداد لمرافقة الملك إلى الحرب. ويتعهد الملك أيضاً فرساناً خفافاً يعيشون على نفقته في الحملات العسكرية، لكنه لا يمدهم في حالة السلم بغير القمح والسمن واللحم من بيته، وهي المواد الضرورية لهم طوال السنة، مع قليل من المال. ولكن يكسوهم مرة في العام. ولا يكلف هؤلاء الفرسان بخيلهم لا في البادية ولا في الحاضرة، لأن الملك يؤدي كل ما هو ضروري. وسواس الخيل من العبيد النصارى الذين يحملون قيوداً ثقيلة في أرجلهم ويركبون جمال الأحمال عند مسيرة الجيش.

وللملك أيضاً مندوب مكلف بالجمال على الخصوص، يشرف على الرجال الذين يرعون الابل ويقسم المراعي بينهم، ويقدر عدد ما يحتاج إليه الملك من هذه الدواب وعلى كل جمال أن يكون له دائمًا جملان معدان للحمل عندما يصدر إليه الأمر بذلك.

ويأتي بعد ذلك العلاف المكلف بجمع المؤن اللازمة للملك

والجيش، وصيانتها، وتوزيعها، ولديه من الخيام الكبيرة عشر أو اثنتا عشرة لخزن الأقوات، ويستبدل الجمال باستمرار لنقل التموين الضروري حتى لا يشكو الجيش. ويعمل مستخدمو المطابخ تحت امرته.

وهناك أيضاً قائد للاصطبلات يعتني بجميع خيول الملك وبغاله وجماله، ويأخذ من العلاف ما يلزمه للدواب ولجميع المستخدمين المكلفين بشؤونها؛ ومندوب للحبوب مكلف بنقل الشعير وكل ما هو ضروري لعلف الدواب، يساعده كتاب ومحاسبون لضبط حساب توزيعاته، ويقدم تقريراً بذلك لكاتب الملك.

وللملك خمسون فارساً تحت امرة قائد، مكلفون بالاشعار بالضرائب من قبل كاتب الملك وباسم الملك؛ وقائد آخر ذو مكانة متميزة هو رئيس الحرس الخاص بالملك، له صلاحية اصدار الأمر باسم الملك للموظفين المكلفين بمهمات القتل ومصادرة الأموال وتطبيق قرارات العدالة. ويستطيع أن يلقي القبض على الشخصيات المهمة ويدخلهم السجن، ويطبق العقوبات الشرعية عليهم إذا أمره الملك بذلك.

وبجانب الملك مستشار، وهو خادم وفي، يحتفظ بالخاتم الملكي، ويكتب الرسائل الضرورية ويختمها بيده بهذا الخاتم.

ويوجد رهن اشارة الملك عدد كبير من الخدم، لهم قائد خاص مكلف بتعيينهم وطردهم، وتحديد أجور مختلفة لهم بحسب أعمالهم. يحضر هذا القائد دائمًا عندما يستقبل الملك أحداً، ويقوم تقريباً مقام الحاجب.

وتحت اشراف الملك أيضاً قائد للقوافل، مهمته الاشراف على نقل الخيام التي تؤوي فرسان الملك الخفاف. ولا بد من الاشارة إلى أن أخبية الملك تحملها البغال وخيام الجنود تحملها الجمال.

وهناك فرقة حملة الاعلام، يحملونها ملفوفة أثناء السير إلا واحداً منهم يحمل علمًا منشوراً مرفوعاً في مقدمة الجيش. ويقوم جميع حملة الاعلام كرواد بالتأكد من خط السير ومشارع الأنهار ومسالك الغابات.

وللملك طبالون كثيرون مزودون بطبول من نحاس على شكل جفان كبار عريضة من أعلى ضيقة من أسفل مع جلد ممدود على أعلاها. يحمل كل طبل حصان رحل، ويعادل بثقل موازن لأنه ثقيل جداً. وخيول الطبالين أجود الخيول وأكثرها سرعة، إذ يعتبر فقدان طبل من هذه الطبول عاراً كبيراً. تدوي هذه الطبول دوياً مفزعاً، ويسمع دويها من مسافة بعيدة، فترتجف الخيول والرجال منها، وتقرع بعصب الثور.

لا يتعهد الملك النافخين في الأبواق بالنفقة، لأن أهل المدن ملزمون بتقديم عدد منهم، كلهم على نفقتهم. ويستعملون لعزف الألحان وتستعمل ألحان الأبواق عند بسط موائد الملك، وعند الهجوم في الحرب.

وهناك رئيس للتشريفات يقف دائمًا عند قدمي الملك عند ما يعقد مجلساً أو يستقبل أحداً، ليحدد للناس مجالسهم ويجعلهم ينطقون واحداً بعد آخر حسب مراتبهم وشرفهم. ويتكون معظم حشم الملك من الاماء السود، ومثل هذا العدد من الوصائف والجواري. وهناك أيضاً بعض الاماء المسيحيات، منهن اسبانيات وبرتغاليات. وكل النساء تحت اشراف الخصيان الذين هم أيضاً عبيد سود.

ان لملك فاس مملكة كبيرة، ولكن ليس له سوى دخل صغير، لا يكاد يبلغ ثلاثمائة ألف مثقال، ولا يصل إلى يده حتى خمس هذا المبلغ، لأن الباقي ينفق في الأوجه التي ذكرناها. وفضلاً عن ذلك فان نصف هذا الدخل يتكون من حب وماشية وزيت وسمن. وتجبى هذه الضرائب على وجوه شتى، ففي بعض الأماكن يؤدى عن كل مساحة أرض يمكن أن يحرثها زوج من الثيران في اليوم مثقال وربع مثقال، وفي أماكن أخرى يؤدى نفس المبلغ عن كل كانون، وفي جهات غيرها يؤدى نفس المبلغ عن رأس كل رجل جاوز الخامسة عشرة من عمره، وفي بعض الأماكن يؤدون عن هذا وذاك. وليس هناك أعباء مالية أخرى غير الضريبة التجارية التي هي مرتفعة في المدن.

واعلم أنه يحرم في الشريعة المحمدية على الأمراء أن يجبوا ضريبة غير الزكاة المفروضة. فكل من ملك مائة مثقال نقداً، وجب عليه ما دامت في ملكه أن يؤدي عنها للملك مثقالين ونصف مثقال. وكل من حصد من أرضه عشرة مكاييل (موتشيل) من الحبوب وجب عليه أن يخرج عشرها زكاة(81). وتنص الشريعة على أن هذه الزكاة تدفع للخليفة ليستعملها في حاجاته الخاصة وللصالح العام، وليستفيد منها في اغاثة المساكين والمرضى والأرامل، وفي الجهاد ضد العدو.

لكن منذ اختفاء شيوخ الاسلام، اتخذ الملوك، كما قلنا، تدابير جبرية. ولم يكفهم اغتصاب تلك الايرادات جملة وانفاقها بحسب هواهم، بل أضافوا إليها ضرائب جديدة، بحيث لا يوجد في افريقيا كلها سوى القليل من الفلاحين الذين يستطيعون توفير ما يلزمهم ضرورة من لباس وطعام. ونتج عن هذه الحال أنه لم يعد هناك رجل عالم وشريف يقبل أن يقيم علاقات عائلية مع الملوك الزمنيين، أو يأكل معهم على نفس المائدة، وبالأحرى أن يقبل منهم عطية أو هدية. وتعتبر أموال أولئك الحكام أحقر مما لو كانت أموالاً مسروقة.

ويتصرف ملك فاس أخيراً بكيفية مستمرة في ستة آلاف من الفرسان الراتبين، وخمسمائة من القذافين، وخمسمائة من حملة البنادق، كلهم راكبون في تشكيلة منتظمة دائماً، متأهبون لتنفيذ جميع الأوامر الملكية. وإذا خيم الملك بظاهر المدينة في أيام السلم خيموا على بعد ميل من معسكر الملك، وإذا كان الملك بفاس لم يحتج إلى حرسه. وإذا اقتضى الأمر تجريدهم لحرب أعدائه الأعراب، لم يكتف بفرسانه الستة الآلاف، بل استخدم الطائعين له من الأعراب كأعوان، يجمع منهم العدد الكثير على نفقتهم الخاصة. ولهؤلاء الأعراب في الحرب حنكة تفوق حنكة فرسانه بكثير.

(81) يخرج عشر الحبوب والثمار إن سقيت بماء المطر، ونصف العشر فقط ان سقيت بما فيه مشقة كالدلاء والآلات.

حفلات البلاط الملكي وأبهته نادرة، لا يقبل الملك اقامتها عن طيب خاطر، لكنها ضرورة يجب أن يخضع لها في الأعياد وفي مناسبات أخرى، هذا بيانها:

عند ما يرغب الملك في الركوب، يخبر رئيس التشريفات باسم الملك سعاة البريد، فينقلون الخبر إلى أهل الملك والقواد وقواد الرحى وسائر الفرسان، فيجتمعون كلهم في الساحة أمام القصر وفي الأزقة المجاورة، وعندما يخرج الملك من القصر يقوم سعاة البريد بتنظيم الموكب. يتقدم حملة الاعلام ويتبعهم أصحاب الطبول، ثم يأتي رئيس الاصطبلات مع مرؤوسيه وخواصه، فالعلاف وأصحابه، فقواد الرحى، فرئيس التشريفات، فكتاب الملك وخازن ماله والقاضي وقائد الجيش. ويأتي الملك بعد ذلك مرفوقاً بالمستشار الكبير وبعض الأمراء. يتقدم بين يدي الملك بعض القواد الراكبين على الخيل، يحمل أحدهم سيفه، والثاني ترسه، والثالث قاذفته. ويسير حول الملك خدامه المسلحون، يحمل أحدهم حربته، وآخر غطاء سرج جواده وزمامه. وعندما يترجل الملك يغطى السرج بهذا الغطاء، ويوضع الزمام فوق اللجام ليقاد الجواد باليد. ويحمل خادم آخر قباقب الملك، وهي أحذية من خشب مزدانة بتطريزات متناهية الجمال، تعد من مظاهر الأبهة والفخامة. ويجيء رئيس الخدم المسلحين وراء الملك متبوعاً بالخصيان. ويشتمل الموكب بعد ذلك على أسرة الملك يتبعها الفرسان الخفاف. ثم القذافون ورماة البنادق.

يرتدي الملك في هذه المناسبة لباساً متواضعاً لائقاً، فالذي لا يعرف الملك لا يصدق أنه هو نفسه، لأن خدامه المسلحين يرتدون لباساً أفخر من لباسه مصنوعاً من أقمشة ثمينة مزخرفة. ولا يضع أي ملك أو أمير مسلم على رأسه تاجاً أو ما يشبهه، لأن الشريعة المحمدية تمنع ذلك.

وعندما يعسكر الملك في البادية، يشرع في اقامة سور الفسطاط الملكي وسط المعسكر، وهو سور من كتان على صورة أسوار قصر بشرفاته،

مربع الشكل، طول كل جهة خمسون ذراعاً. يقام في كل زاوية برج صغير بشرفاته وسقفه، ويعلو سقف كل برج كرة جميلة تبدو كأنها من ذهب. وفي السور أربعة أبواب، يقف عند كل واحد منها حرس من الخصيان. تضرب الأخبية داخل السور، وقد صنع الخباء الذي ينام فيه الملك بكيفية تجعل نصبه وطيه سهلاً يسيراً. وتقام حول السور خيام القواد ويقرب رجال الحاشية إلى الملك، وتضرب حولها عادة خيام قواد الرحى المصنوعة من جلود الماعز كخيام الأعراب. ويوجد في وسط المعسكر تقريباً بيت المؤنة والمطبخ وقاعة الطعام الخاصة بخدم الملك في خيام عظيمة. وتقع غير بعيد منها خيام الفرسان الخفاف الذين يأكلون في مطعم الملك، لكن بطريقة خشنة جداً. ويقع الاصطبل بعيداً قليلاً من هناك، مركباً من مخابىء تصطف فيها الخيل بنظام، بعضها بجوار بعض.

ويخيم بغالو الموكب الملكي خارج المعسكر، حيث تقام دكاكين الجزارين والبزازين وبائعي القديد. أما التجار والصناع الذين يتبعون الجيش فينصبون خيامهم بجانب خيام البغّالين.

ويصير مقام المعسكر الملكي كأنه مدينة حقيقية، تقوم فيها أخبية قواد الرحى مقام الأسوار، لأنها متصلة بعضها ببعض، بحيث لا يمكن الدخول إلى قلب المعسكر إلا من ممرات معينة، وتقوم الحراسة طوال الليل حول السور الملكي. والواقع أن الحراس أناس حقيرون ليس فيهم من يحمل سلاحاً. وتقام الحراسة كذلك حول الاصطبل. غير أنه نظراً لتكاسل الحراس لم يحدث أن سرقت خيول مرات عديدة فحسب، وإنما عثر في داخل السور على أعداء تسللوا إليه للفتك بالملك. ويقضي الملك العام كله تقريباً في البادية، لحراسة مملكته والحفاظ على السلم والمودة بين رعاياه الأعراب. وكثيراً ما يتسلى بالصيد أو لعب الشطرنج.

لا شك في أنني كنت مملاً بعض الشيء في هذا الوصف الطويل الغزير لمدينة فاس، إلا أنه كان من الضروري بالنسبة إلي أن أطنب في الحديث عنها سواء لأن كل الحضارة والاشعاع لبلاد البربر، أو بالأحرى

لإفريقيا كلها مركز في هذه المدينة، أو لأطلعكم تمام الاطلاع بأدق تفصيل على وضعية فاس وقيمتها.

الْمَقَرْمْدَة

المقرمدة مدينة تقع على بعد نحو عشرين ميلاً شرقي فاس، أسسها ملوك زناتة على ضفة نهر صغير في سهل بهيج جداً، وكانت في الماضي مركزاً رئيسياً لمقاطعة كبيرة متحضرة جداً. تكثر البساتين والكروم على طول النهر، وقد اعتاد ملوك فاس أن يمنحوا محصول هذه المدينة لمراقب نظارهم على الابل، لكنها خربت وهجرت في حروب الأمير سعيد، ولا يظهر منها اليوم غير الجدران، ومقاطعتها مكراة لأعيان من فاس وبعض المزارعين.

قصرُ العُبَّاد

هو قصر مشيد على جبل شاهق، يبعد عن فاس بنحو ستة أميال، ويمكن منه مشاهدة فاس والبادية المحيطة بها. وكان في الأصل مقاماً لناسك يعتبره سكان فاس من الصالحين(82)، لكن ليس حول القصر إلا القليل من الأراضي الصالحة للزراعة، ولذلك فإنه غير مأهول، ودوره خربة، لم يبق منه غير السور والمسجد، مع أن الأرض الزراعية القليلة فيه ملك للجامع الكبير بفاس. أقمت في هذا القصر صيفاً أربع مرات، لأن هواءه جيد معتدل، والمكان المنعزل أصلح لمن يريد الدراسة، ولأن والدي اكترى هذه الأرض من امام الجامع لعدة سنوات.

الزَّاوِيَة

الزاوية بلدة صغيرة بناها يوسف ثاني ملوك بني مرين على بعد نحو أربعة وعشرين ميلاً من فاس، وأسس بها زاوية كبرى أوصى أن يدفن

---

(82) هو سيدي أحمد البرنوسي، وضريحه معروف في شمال غربي جبل زلاغ على ارتفاع 759 ميتر.

فيها، لكن القدر لم يشأ ذلك، فقد قتل أمام أسوار تلمسان أثناء حصاره لها. وانهارت الزاوية منذ ذلك الحين وتهدمت، ولم يبق قائمًا بها غير جدران الزاوية، ويحرث أرضها أعراب تكاد زراعتهم تصل إلى أراضي فاس.

خوْلاَن

خولان[83] قصر قديم بني على نهر سبو بعيداً عن فاس بنحو ثمانية أميال إلى الجنوب. ويوجد خارج القصر حمام ماؤه ساخن جداً، وشيد أبو الحسن رابع ملوك بني مرين بناء جميلاً على هذه الحامة. فاعتاد أعيان فاس المجيء إليه مرة في السنة خلال شهر أبريل، لقضاء أربعة أيام أو خمسة في التسلية، غير أنه لا يوجد في القصر من السكان إلا أجلاف من أرذل الناس وأبخلهم.

جبل زَلاَغْ

زلاغ جبل يبتدىء من سبو شرقاً. وينتهي غرباً على بعد نحو أربعة عشر ميلاً منه. وتقع قمته، أي أعلى نقطة فيه، في جهة الشمال على مسافة سبعة أميال من فاس، ومنحدره الجنوبي خال تماماً من السكان، لكن المنحدر المطل على الشمال مليء بتلال ممتازة يقوم عليها عدد لا يحصى من القرى والقصور. وتكاد تكون كل الأراضي الصالحة للزراعة مغروسة بكروم تنتج أجود العنب وأحلى ما ذقت منه في حياتي. وللزيتون وسائر الفواكه التي ينتجها هذا الاقليم نفس الجودة، لأن أرضه جافة. وسكان هذه المنطقة من كبار الأغنياء، ليس فيهم من لا يملك داراً بمدينة فاس. ويكاد يكون لجميع أعيان فاس كروم في زلاغ. وفي سفح الجبل بجهة الشمال كذلك سهول بهيجة وبساتين للخضر والفواكه، لأن نهر سبو

(83) يقصد سيدي حرزام.

يسقيها من الجنوب. ويصنع البستانيون بما لديهم من وسائل نواعير ترفع ماء النهر لتسقي به الأراضي الفلاحية. ومساحة هذه الناحية المحروثة تساوي ما يستطيع أن يحرثه مائتا زوج من الثيران. منحت اقطاعاً لرئيس التشريفات الملكية، غير أنه لا يجني منها أكثر من خمسمائة مثقال في السنة، لأن الزكاة التي تدخل بيت المال تبلغ نحو ثلاثة آلاف كيل من الحبوب.

جبل زَرْهُونْ

يبتدىء جبل زرهون من سهل السايس على بعد عشرة أميال من فاس، ويمتد غرباً على مسافة ثلاثين ميلاً تقريباً، ويبلغ عرضه عشرة أميال. يبدو هذا الجبل من بعيد مغطى بغابة خالياً من السكان، لكن جميع هذه الأشجار أشجار زيتون، ويعد فيه ما يقرب من خمسين قرية وقصراً، وسكانه أغنياء جداً، لأن هذا الجبل واقع بين مدينتين كبيرتين، فاس في الشرق، ومكناس في الغرب.

تنسج النساء في زرهون أقمشة صوفية على طريقة أهل البلاد، ويتجولن في أبهى زينة بخواتم وأساور من فضة. والرجال في غاية القوة والجرأة، يعهد إليهم باقتناص الأسود في الغابات واهدائها الى ملك فاس. وينظم الملك مشهد صيد الأسد داخل القصبة السلطانية في ساحة واسعة. يرتب في هذه الساحة عدد من صناديق كبيرة يسع كل واحد منها رجلاً يقف داخلها ويتحرك بسهولة. لكل صندوق باب صغير، ويجلس فيه رجل مسلح. وحينئذ يطلق الأسد حراً في الساحة، فيفتح الرجال المسلحون أبواب صناديقهم بالتناوب، مرة هذا ومرة ذاك، ويجري الأسد فوراً نحو الذي يراه، وعندما يقترب منه يغلق الرجل بابه، ويستمر العمل هكذا إلى أن يهيج الأسد هيجاناً شديداً، فيطلق ثور داخل الساحة وتنشب معركة دامية بين الحيوانين. فإذا قتل الثور الأسد انتهى المشهد ذلك اليوم، وإذا قتل الأسد الثور كان على الرجال المسلحين أن يخرجوا من صناديقهم

ويحاربوه، وهم اثنا عشر رجلاً يحملون بأيديهم حراباً في طرف كل منها نصل حديد طوله ذراع ونصف ذراع. وإذا أظهر الرجال تفوقاً على الأسد أمر الملك بنقص عددهم، وإذا تفوق الأسد على الرجال، سدد إليه الملك وأفراد حاشيته قاذفاتهم، ورموه من أعلى الشرفات التي يشاهدون منها ذلك المنظر. وكثيراً ما يحدث أن الأسد، قبل أن يموت، يقتل أحد المحاربين ويجرح الآخرين. وتبلغ الجائزة التي يمنحها الملك لكل محارب عشرة مثاقيل وكسوة جديدة. وهؤلاء الرجال من أهل جبل زلاغ خاصة، وهم ذوو شجاعة عظيمة، والذين يصطادون الأسد في البادية من جبل زرهون.

وَلِيلي مدينةُ جبلِ زَرْهُونْ

وليلي مدينة أسسها الرومان على قمة هذا الجبل عندما كانوا يحكمون بلاد الأندلس، وهي كلها محاطة بسور من حجر كبير منحوت، تخترقه أبواب عالية عريضة. ويحيط بنحو ستة أميال من الأرض. وقد خرب الأفارقة هذه المدينة كلها تقريباً في زمن قديم، إلا أن ادريس الشيعي لما قدم إلى هذه المنطقة، سارع إلى ترميم المدينة واستقر فيها، فأصبحت في زمن قليل مدينة متحضرة يقصدها الناس بكثرة. لكن بعد موت ادريس هجرها ابنه وراح يبني مدينة فاس كما ذكرناه. ومع ذلك دفن فيها ادريس(84)، وتقدس ضريحه جميع قبائل موريطانيا تقريباً وتحج إليه، لأن هذا الرجل لم يكن أقل من خليفة، وهو من آل محمد (عليه السلام). ولم يبق في المدينة الآن إلا داران أو ثلاث يسكنها أولئك الذين يخدمون الضريح ويحافظون على اقامة الشعائر فيه. والأرض حول المدينة مزروعة بكيفية جيدة، فيها بساتين جميلة وممتلكات مزدهرة، لأن هناك جدولين من

(84) يظهر أنه يقصد ادريس بن عبد الله (الأول). وتختلف الروايات القديمة في مدفن ادريس بن ادريس (الثاني) هل هو في وليلي أو في فاس. وسكوت الحسن الوزان عن ضريح ادريس الثاني بفاس قد يشعر بميله إلى أنه غير مدفون بها.

الماء ينبعان من المدينة وينحدران بين تلال صغيرة في شعاب تقع فيها هذه الممتلكات.

قصرُ فِرْعَوْن

قصر فرعون مدينة صغيرة قديمة أسسها الرومان على مسافة تقل قليلاً عن ثمانية أميال من وليلي. ويعتقد سكان زرهون وعدد من المؤرخين اعتقاداً جازماً أن فرعون عزيز مصر في عصر موسى (عليه السلام) هو الذي بنى هذه المدينة وأطلق عليها اسمه. ولا يبدو هذا صحيحاً، لأنه لا يقرأ في أي مكان أن فرعون والمصريين حكموا هذه المنطقة اطلاقاً. لكن هذا الاعتقاد الغبي نتج عن كتاب عنوانه بلغة البلاد **أعلام نبوة محمد**، ألفه المدعو الكلبي[85]. يزعم هذا الكتاب أنه روي عن محمد (عليه السلام) أن أربعة ملوك حكموا العالم كله. اثنان مؤمنان. وآخران كافران. فالمؤمنان: الاسكندر الكبير وسليمان بن داوود، والكافران: النمرود وفرعون موسى. أما بالنسبة إلي فإن بعض الحروف اللاتينية التي تقرأ على الجدران أكدت لي يقينا بأن مؤسسيها هم الرومان. ويمر حول المدينة نهران صغيران، أحدهما من جهة، والثاني من الجهة الأخرى للمدينة. وكل الشعاب والتلال المحيطة بها مغروسة بالزيتون. ويوجد غير بعيد عنها غابة كبيرة تكثر فيها الأسود والفهود.

الحَجَرُ الأحْمَر

الحجر الأحمر[86] مدينة في سفح هذا الجبل من بناء الرومان، وهي قرية صغيرة قريبة جداً من الغابة، حتى إن الأسود تأتيها وتأكل العظام التي

---

(85) لعله يقصد أبا المنذر هشام ابن الكلبي النسابة الكوفي الشيعي الشهير المتوفى عام 204 هـ تزيد مؤلفاته على 150 منها كثير في السيرة النبوية، لكن لم نقف على كتاب منها بالعنوان المذكور هنا.

(86) يسميها مرمول الدار الحمراء ويعين موقعها في سوق أربعاء خيير، ولم يبق أثر لذلك كله.

تعثر عليها فيها. وقد اعتاد السكان وجود هذه الأسود وألفوها لدرجة أن النساء والأطفال لا يخشونها. أسوار المدينة عالية مبنية بحجارة ضخمة، إلا أنها متهدمة في معظمها، وأصبحت هذه المدينة اليوم شبه دشرة أو قرية. وتكثر في الأرض المحروثة أشجار الزيتون، وكذلك الحبوب، لأنها بجوار سهل أزغار.

مْغِيلَة

مغيلة مدينة صغيرة قديمة، أسسها الرومان كذلك على قمة هذا الجبل من الجانب الذي يطل على فاس. ولهذه المدينة أرض طيبة في الجبل مغروسة كلها بأشجار الزيتون، وأرض أخرى جميلة في السهل، بها عيون جارية عديدة، تغل كمية كبيرة من القنب والكتان.

قصرُ بْلاَحْيَا

هذا القصر قديم جداً مشيد في سفح الجبل على المحجة الرابطة بين فاس ومكناس. وقد سمي بهذا الاسم لأن سكانه كانوا في غاية البخل، كما هو الشأن في جميع المدن الواقعة في طريق المسافرين. يروى أن ملكاً مر من هناك فاستدعاه أهل القصر لتناول الغداء، قبل الملك الدعوة فذبحوا له بعض الخرفان، وملؤوا الأوعية والقرب لبناً حسب عادة البلاد ليفطر الملك بها في الصباح. ولما كانت القرب كبيرة ظن كل واحد منهم أنه إذا ملىء نصفها ماء لا يفطن به أحد، ففعلوا ذلك. ولما أراد الملك أن ينصرف في الصباح لم تكن له رغبة في الافطار، لكن حاشيته ألحوا عليه في ذلك. وعدما أفرغوا القرب وجدوا أن اللبن ممزوج بالماء. ولما علم الملك بذلك أخذ يضحك وقال: «اعلموا يا أصحابي أن الغرائز الطبيعية لا تزول»، ثم انصرف. ويحرث أراضي هذا المكان أعراب فقراء.

بنِي وَارْثِين

هي ناحية واقعة على بعد نحو ثمانية عشر ميلاً شرقي فاس[87]، كلها تلال مع أراضٍ جيدة للفلاحة تنتج كميات عظيمة من القمح، والبادية فيها جميلة جداً، والمراعي صالحة تماماً للماشية. في هذه الناحية نحو مائة قرية، لكنها مؤلفة من دور فقيرة والسكان ضعفاء لا يغرسون كرماً ولا يتخذون بساتين ولا أشجاراً مثمرة. وكان من عادة الملك أن يوزع محصولات هذه الناحية على اخوته الذين لا يزالون صغاراً. ولنرجع إلى السكان فنذكر أن لديهم الكثير من القمح والصوف، لكن لباسهم رديء. ولا يركبون غير الحمير، حتى إن جيرانهم أنفسهم يسخرون منهم ويزدرونهم.

(87) اختفى اسم بني وارثين من هذه الناحية، ويظن أنها نجد بني سادن الحالي بين سبو وايناون.

ناحيَةُ السَّايَسْ

السايس ناحية مجاورة لفاس كذلك، تقع على بعد عشرين ميلاً إلى جهة الغرب، كلها سهول. يقال إنه كان بها العديد من القصور والقرى، ولم يبق منها الآن أي أثر، ولا حتى بقية من بناء، لكن أسماء المواقع المندثرة ما تزال حية.

يمتد هذا السهل على مسافة ثمانية عشر ميلاً نحو الغرب، وعشرين ميلاً نحو الجنوب. وأراضيه ممتازة، لكنها تنتج قمحاً أسود صغيراً. ولا يوجد إلاّ القليل من الآبار والعيون في هذه الناحية، وكانت دائمًا في أيدي أعراب يعيشون كقرويين، أي أصبحوا فلاحين مقيمين. وقد اقتطع الملك هذه الناحية إلى سيد قصر فاس وعاملها.

جبلُ تَغَاتّ

يقع جبل تغات على بعد نحو سبعة أميال غربي فاس، وينطق به عادة تغات[88] وهو جبل شاهق لكنه قليل العرض، يمتد شرقاً إلى نهر أبي نصر الصغير، أي على مسافة خمسة أميال. والجانب المطل على فاس كله مغروس بالكروم، وكذلك القمة. والجانب المقابل للسيخ كله أراض محروثة بالقمح.

وتوجد في قمة الجبل عدة كهوف وسراديب يعتبرها الباحثون عن الكنوز أماكن سرية أخفى فيها الرومان عند جلائهم عن هذه الناحية، كما

(88) هي الماعز بالبربرية.

يقال، أشياءهم النفيسة. وفي فصل الشتاء عندما لا يشتغل أحد بالكروم، فإن هؤلاء البلهاء المدفوعين بفضولهم ينهكون أنفسهم بالحفر وتكليف آخرين بحفر الأرض الصلبة الصخرية، ومع ذلك يؤكدون أنه لم يعثر فيها أحد على شيء. وثمار هذا الجبل سيئة المظهر بقدر ما لعنبها من منظر منفر. وتنضج هذه الثمار والأعناب مبكرة قبل المناطق الأخرى.

كْرِيكْرَة

كريكرة[89] جبل مجاور للأطلس على بعد نحو أربعين ميلاً، ينبع منه نهر يسيل نحو الغرب ويصب في نهر بهت. وجبل كريكرة واقع بين سهلين كبيرين، أحدهما من جهة فاس، أي الناحية التي تكلمنا عنها قبل قليل المدعوة السايس، والآخر من جهة الجنوب ويدعى سهل آدخسان[90]. وهناك أراض صالحة جداً للقمح والرعي. هذه السهول في أيدي أعراب يسمون زعير من أتباع الملك. ويخصص الملك في أغلب الأحيان إيراد أحد هذين السهلين لهذا أو ذاك من اخوته. ويغل كل سهل في المتوسط من السنين عشرة آلاف مثقال.

حقاً إن أعراب زعير كثيراً ما يضايقهم أعراب آخرون اسمهم حسين، يسكنون الصحراء وينتجعون في هذه المنطقة صيفاً. وقد تدارك الملك هذا الخطر فأرسل فرساناً ورماة إلى هذه البلاد. وتوجد في هذين السهلين عيون رائقة، وجداول صافية، وغابات تعيش فيها الأسد آمنة وديعة، لدرجة أن أي شخص، رجلاً كان أو امرأة، يستطيع أن يبعدها بالعصا، ولا تؤذي أحداً.

ونتابع الآن وصفنا بذكر ناحية أزغار.

---

(89) وينطق بها الآن تيكريكرة.

(90) آدخسان قصبة مرابطية تبعد عن خنيفرة بـ 8 كيلومتر في جنوبها الشرقي.

أَزَغَارْ، ناحيةٌ من مملكة فاس

تنتهي ناحية أزغار عند المحيط شمالاً، ونهر أبي رقراق غرباً، وبعض جبال غمارة شرقاً، وبعضها عند زرهون وسفح جبل زلاغ؛ وتنتهي جنوباً بجوار نهر بونصر[91].

هذا الإقليم عبارة عن سهل أرضه جيدة، ولذلك سكنته أقوام كثيرة، وقامت فيه مدن وقصور، إلّا أن هذه الأمكنة قد خربت بسبب حرب نشبت في الزمن القديم، ولا يرى لها اليوم أثر، باستثناء مدن صغيرة قليلة ما تزال قائمة مأهولة. يمتد سهل أزغار على طول ثمانين ميلاً وعرض ستين ميلاً تقريباً، ويخترقه نهر سبو في وسطه. وجميع سكانه من أعراب الخلط المنتمين إلى المنتفق، خاضعون لملك فاس ويؤدون خراجاً مرتفعاً، لكنهم أغنياء مجهزون أحسن تجهيز، يكونون زهرة جيش الملك، وهو لا يستخدمهم إلّا في الغارات الجدية البالغة الأهمية.

وأخيراً فان هذا الإقليم هو الذي يمد جبال غمارة ومدينة فاس بالطعام والماشية والخيل، وقد اعتاد الملك أن يقيم به طوال فصل الشتاء والربيع، لأن البلد جميل وصحي، وتوجد فيه دوماً كمية كثيرة من الغزلان والأرانب، إلّا أن الغابات فيه قليلة.

الجُمُعَة، مدينةٌ في أَزَغَارْ

الجمعة مدينة صغيرة أسسها الأفارقة في وقتنا هذا على نهر صغير، في سهل يقع في نهاية هذه الناحية أو الإقليم، يمر بها الذاهبون من فاس إلى

(91) واد مكس الحالي.

العرائش، وهي على مسافة نحو ثلاثين ميلاً من فاس. وكانت هذه المدينة كثيرة السكان متحضرة، لكن حرب سعيد التي تحدثنا عنها كثيراً خربتها، ولا يوجد فيها اليوم سوى مطامير يخزن فيها الأعراب المجاورون حبوبهم تاركين بالقرب منها بعض الخيام لحراستها. وتظهر في خارجها طواحن لطحن تلك الحبوب.

مدينةُ الْعَرَائِش

العرائش مدينة أسسها الأفارقة القدامى على شاطىء المحيط، في المكان الذي يصب فيه نهر اللكوس في البحر. وهي واقعة من جهة على ضفة النهر، ومن جهة أخرى على المحيط. وفي الزمن الذي كانت فيه مدينتا أصيلا وطنجة خاضعتين للمغاربة، كانت العرائش كثيرة السكان، لكن بعد ما سقطت هاتان المدينتان في يد النصارى غدت العرائش مهجورة إلى ما يقرب من عشرين سنة من أيامنا هذه، حيث عزم أحد أبناء ملك فاس الحالي على إعادة تعميرها، فحصنها تحصيناً قوياً، وأقام بها حامية دائمة مزودة بالأقوات اللازمة، لأنه كان شديد الحذر من البرتغاليين. ولهذه المدينة ميناء يصعب اجتيازه جداً لمن يريد الدخول إلى مصب النهر. وبنى ابن الملك أيضاً قصبة يقيم فيها على الدوام قائد ومائتان من القاذفين ومائة من رماة البنادق وثلاثمائة من الفرسان الخفاف.

وفي ضواحي العرائش غيضات ومروج عديدة، يصطاد فيها كثير من سمك الأنقليس (النون) والطيور المائية. وعلى ضفاف النهر غابات كثيفة يعيش فيها الكثير من الأسد والحيوانات المفترسة الأخرى. ومن عادة سكان هذه المدينة منذ الأزل أن يصنعوا الفحم ويرسلوه بحراً إلى أصيلا وطنجة، حتى إن المثل الدارج عند أهـل موريطانيا يقول عندما يكون مظهر شيء أحسن من مخبره: «هذا كسفينة العرائش، شراعها من قطن وحمولتها من فحم». ويجنى القطن فعلاً بكثرة من بادية هذه المدينة.

القصرُ الكبير

مـدينة كبيـرة أسست في عهد المنصـور ملك مراكش وخليفتهـا بأمره[92]. وتروى الواقعة التالية كحدث تاريخي صحيح. فوجىء هذا الملك ذات يوم وهو يصطاد في البادية بمطر شديد وريح عاتية وظلام حالك، حتى افتقد حرسه وتوقف في مكان لا يدري أين هو واضطر إلى أن يقضي الليل بالعراء. وبينما هو كذلك لا يتحرك خوفاً من أن يغوص في المستنقعات، رأى نوراً ووجد أمامه لحسن حظه صياداً تعود أن يذهب لاصطياد سمك الانقليس (النون) من هذه المستنقعات، فقال له المنصور: هل تستطيع أن تدلني على مخيم الملك؟. فأجابه الصياد بأن المخيم يبعد بعشرة أميال من هناك. ولما طلب منه الملك أن يصحبه إليه قال له: «لو كنت أنت المنصور نفسه لما قدتك إليه، لأنني أخشى أن تغرق في المستنقع». فقال الملك: «وماذا يهمك من حياة المنصور؟» فأجاب الصياد: «أوه! يبدو لي أن الملك جدير بالمحبة». فقال الملك: «لقد وصلك منه إذن إحسان كبير» فرد الصياد: «أي إحسان أكبر يمكن أن يناله إنسان من ملك أكثر من العدل والرفق الكامل والعطف الذي يبرهن عنه في حكمه للرعية؟! وبفضل هذا أستطيع أنا الصياد المسكين أن أتمتع بفقري في سلام مع زوجتي وأسرتي الصغيرة. أخرج من كوخي في منتصف الليل، وأعود إليه متى شئت، فلا أجد أحداً يسيء إلي أقل إساءة في هذا الوادي وهذه الأمكنة الخالية، وأنت أيها النبيل، أرجوك أن تقضي هذه الليلة في منزلي، وغداً في الصباح سأكون في خدمتك لأصحبك إلى حيث تريد».

قبل الملك الدعوة وذهب مع الرجل الطيب إلى كوخه. ولما وصلا، رفع الصياد السرج عن فرس الملك وقدم له علفاً كثيراً، ثم طبخ سمك

(92) تدل الكتابات والآثار العتيقة على أن مدينة القصر الكبير قديمة جداً، لكنها قد تكون خربت وبنى يعقوب المنصور الموحدي مدينة على أنقاضها، وهو المعروف بجوازاته العديدة إلى الأندلس بقصد الجهاد، وبمآثره العمرانية العظيمة في العدوتين.

أنقليس (نونا) وقدمه للملك الذي كان في هذه الأثناء قد جفف ثيابه بقدر الإمكان قرب نار طيبة متوهجة. ولما كان الملك لا يستطيع أكل السمك فانه طلب من الصياد إن كان عنده قليل من لحم، فأجابه الرجل الفقير: «إن ثروتي يا سيدي تتكون من عنزة وجديها الذي ما يزال رضيعاً، إلّا أنني أعتقد أن من حسن حظ الحيوان أن يقدم لحمه تشريفاً لمثلك. وإذا لم يخدعني ظاهرك، فيبدو أنك أمير كبير». ولم يلبث أن ذبح الجدي وطلب من زوجته أن تعده شواء، فتعشى الملك وأخذ قسطاً من الراحة إلى الصباح، ثم انطلق من الكوخ مبكراً مع مضيفه اللطيف كدليل. وما كادا يخرجان من المستنقع حتى لقيا جماعة من الفرسان والصيادين مذعورين وهم يبحثون عن الملك ويطلقون صرخات النداء. وقد فرحوا جميعاً برؤية الملك، والتفت المنصور إلى الصياد وعرفه بنفسه وقال له بأنه سيتذكر لطفه دائمًا. وفي أثناء توقف الملك بتلك الناحية أمر ببناء قصور مهمة جميلة وعدد من المنازل، ثم أهداها عند انصرافه إلى الصياد مكافأة له، فالتمس منه الصياد أن يسور هذه القصور والدور، الشيء الذي سيدل أكثر على حلمه وكرمه، فكان ذلك، وأصبح الصياد أميراً على المدينة الجديدة الصغيرة التي أخذت تكبر يوماً عن يوم حتى أصبحت في وقت قصير تسع أربعمائة كانون بسبب خصوبة البلاد. وقد تعود الملك أن يقضي الصيف كله في هذه الناحية، فكان ذلك أيضاً سبباً في ازدهار المدينة.

يمر بجوار سور القصر نهر اللكوس الذي يفيض أحياناً حتى يدخل الماء من باب المدينة. وفي القصر كثير من الصناع والتجار، وعدد من الجوامع، ومدرسة أومارستان؛ لكن ليس فيه عين ولا بئر، وانما يستعملون الخزانات (النطفيات). وأهل القصر كرماء أو على الأصح ضعاف العقول، لباسهم حسن، إذ يرتدون قطعاً كبيرة من قماش القطن على صورة غطاء الفرش يلفونها حول أجسامهم.

وتوجد خارج القصر حدائق كثيرة وأراض بها ثمار جيدة. غير أن

العنب غالباً ما يكون رديء الطعم بسبب رطوبة الأرض. ويعقد يوم الاثنين في البادية سوق يقصده أعراب النواحي المجاورة. ومن عادة أهل المدينة أن يذهبوا خلال شهر ماي لاصطياد الطيور بالفخاخ في الضاحية، فيصطادوا كميات كبيرة من اليمام. والأراضي خصبة جداً، تنتج في الغالب ثلاثين ضعف ما زرع فيها، غير أن الناس لا يستطيعون أن يزرعوا سوى منطقة تقارب مساحتها ستة أميال لأن البرتغاليين المحتلين لأصيلا يزعجونهم، إذ أن المدينتين لا تبعد إحداهما عن الأخرى بأكثر من ثمانية عشر ميلاً. ويضايق قائد القصر البرتغاليين كثيراً، إذ تحت تصرفه ثلاثمائة فارس يغير بهم ويتوغل كثيراً إلى أن يصل أحياناً إلى أبواب أصيلا.

ناحيةُ الهَبْط

تبتدىء هذه الناحية جنوباً عند نهر ورغة لتنتهي شمالاً على المحيط، وتتاخم غرباً مستنقعات أزغار، وشرقاً الجبال المشرفة على أعمدة هرقل. ويبلغ عرضها نحو ثمانين ميلاً، وطولها نحو مائة ميل.

هذه الناحية عجيبة حقاً بسبب خصوبتها ووفرة انتاجها، معظمها سهل تخترقه مجاري مياه عديدة. وكانت في قديم الزمان أكثر نبلاً وشهرة منها في أيامنا هذه، ففيها مدن أزلية، أسس بعضها الرومان، وبعضها القوط. وأظن أن هذه الناحية هي التي أطلق عليها بطليموس اسم موريطانيا، غير أنها أخذت تتدهور منذ تأسيس مدينة فاس. أضف إلى ذلك أنه بعد موت إدريس مؤسس فاس، آلت المملكة إلى عشرة من أبنائه اقتسموها مناطق بحسب عددهم، فكانت ناحية الهبط من نصيب أكبر الاخوة. وبعد ذلك ثار عدد من الشيعيين والأمراء المحليين، استعان بعضهم بملوك غرناطة في اسبانيا وبعضهم بملوك القيروان. وقد تغلب عليهم جميعاً وطردهم أحد خلفاء القيروان كان شيعياً أيضاً[93]، وترك في المنطقة بعض قواده وعماله ورجع إلى بلاده. وحينئذ أرسل حاجب قرطبة الكبير[94] إلى موريطانيا جيشاً عرمرماً استولى على الناحية كلها ووصل إلى الزاب، وأخيراً بقيت ناحية الهبط تحت سلطة ملوك فاس.

---

(93) المنتصر هو القائد جوهر الصقلي باسم الخليفة المعز الفاطمي، عام 346 هـ.

(94) هو المنصور بن أبي عامر حاجب خليفة قرطبة الأموي هشام المؤيد.

أَزْجَنْ

أزجن مدينة بناها قدماء الأفارقة على جبل بعيد عن نهر ورغة[95] بنحو عشرة أميال. وهذه الأميال العشرة في سهل توجد به الحقول المحروثة وبساتين هذه البلدة، إلّا أن معظم الأراضي الفلاحية في الجبل. وتبعد هذه المدينة عن فاس بنحو سبعين ميلاً، وتشتمل على خمسمائة كانون تقريباً. ويمكن أن يعطي هذا الإقليم إيراداً يبلغ عشرة آلاف مثقال، لكن على المستفيد منه أن يجهز لملك فاس أربعمائة فارس للدفاع عن البلاد، لأن البرتغاليين كثيراً ما يشنون الغارات عليها، ويتوغلون في الداخل مسافة أربعين أو خمسين ميلاً.

أزجن مدينة متحضرة جداً، لها صناع يقومون بجميع الأعمال الضرورية. وهي جميلة تكثر فيها صهاريج الماء، وسكانها أغنياء، لكن القليل منهم هم الذين يلبسون لباس المدنيين، ويتمتعون بالامتياز الذي منحهم إياه الملوك القدامى، وهو السماح لهم جميعاً بشرب الخمر، لأن الخمر حرام في الشريعة الإسلامية، وليس منهم من لا يشربه.

بني تَوْدَة

بني تودة[96] مدينة قديمة جداً أسسها الأفارقة في سهل غاية في الجمال على نهر ورغة، بعيدة عن فاس بنحو خمسة وأربعين ميلاً. كان بها قديماً ثمانية آلاف كانون، لكنها كلها خربت باستثناء الأسوار في حرب خلفاء القيروان. ذهبت إليها ورأيت كثيراً من قبور الأشراف وبعض صهاريج الماء المبنية بالحجر، وهي حقاً عجيبة. وتوجد هذه المدينة قريبة من جبال غمارة لا يفصل بينها غير مسافة أربعة أميال تقريباً، وأراضيها خصبة جداً وانتاجها عظيم.

---

(95) بل اللكوس.

(96) هي فاس البالي حالياً.

أَمَرْكُو

أمركو مدينة على قمة جبل بعيدة عن البلدة السابقة بنحو عشرة أميال. يقال ان مؤسسيها هم الرومان، وتوجد هناك فعلاً بعض الأسوار القديمة تقرأ عليها بعض الكتابات اللاتينية. وهذه المدينة مهجورة اليوم، لكن توجد في منحدر الجبل مدينة صغيرة أخرى مسكونة بكيفية ملائمة، وبها كثير من نساجي الكتان العادي.

أراضي البادية المحيطة بأمركو صالحة للفلاحة، ويشاهد من أعلى المدينة في اتجاه الشمال نهران كبيران هما سبو وورغة، ويبعد كل منهما بخمسة أميال. ويزعم سكان أمركو أنهم من الأشراف، ولكنهم بخلاء جهال لا قيمة لهم.

تَنْصُر

تنصر[97] مدينة واقعة على بعد نحو عشرة أميال من أمركو فوق أحد التلال، ومشتملة على ثلاثمائة دار وعدد قليل من الصناع. سكانها ذوو طبيعة خشنة، لا يملكون كروماً ولا حدائق، ولا يزرعون غير الحبوب، إلا أنهم يملكون عدداً غير قليل من الماشية. وتقع هذه المدينة في منتصف الطريق بين فاس وجبال غمارة، وذلك ما يجعل أهلها بخلاء بغضاء إلى أقصى حد.

أَكَلاَ

أكلا مدينة قديمة أسسها الأفارقة على نهر ورغة، تحيط بها أراض جيدة يحرثها الأعراب. وقد سبق أن تخربت هذه المدينـة في الحروب السابقة، لكن أسوارها ما زالت قائمة على حالها، ويوجد بداخلها بعض الآبار، ويقام في باديتها كل أسبوع سوق حسن جداً يقصده العديد من الأعراب وفلاحي هذه الناحية، كما يقصده كثير من تجار فاس ليشتروا

---

(97) يسميها مرمول «تنزرت» ولا تعرف الآن.

جلود البقر والصوف والشمع، لأن هذه المواد وافرة جداً في هذا الإقليم.

تكثر الأسد في هذا المكان، لكنها جبانة إلى حد أن الأطفال يخيفونها بصراخهم ويطاردونها. ومن هنا جاء المثل الذي يطلقه أهل فاس على كل من يتبجح ويتعاظم وهو جبان: «أنت شجاع كأسد أكلا التي تأكل العجول أذنابها».

نَارَنْجَة

نارنجة[98] قصر بناه الأفارقة على جبل صغير يمر بقربه نهر اللكوس. ويبعد عن أزجن بنحو عشرة أميال. والأراضي المجاورة ممتازة، لكنها ليست في السهل. وعلى ضفاف النهر غابات كثيفة فيها ثمار برية بكميات وافرة، لا سيما الكرز البحري أو الافريقي. وقد سقط هذا القصر بيد البرتغاليين فخربوه، وأصبح حتى الآن مهجوراً قفراً منذ عام 895 للهجرة.

جَزِيرَة

هذه جزيرة[99] واقعة في مصب نهر اللكوس على نحو عشرة أميال من المحيط ومائة ميل من فاس[100]. وكان بهذه الجزيرة مدينة صغيرة قديمة هجرت في بداية الحروب مع البرتغاليين. وليس على ضفاف النهر سوى غابة وقليل من الأراضي الفلاحية. وفي عام 894 للهجرة أرسل إليها ملك البرتغال أسطولاً عظيماً دخل في النهر، وأخذ القائد البرتغالي في بناء قلعة في الجزيرة ظناً منه أنه يستطيع الدفاع عنها والاستيلاء على جميع البلاد المجاورة. ثم ان ملك فاس، وهو والد الملك الحالي، توقع الخطر الذي

---

(98) مكان غير معروف، سماه مرمول «فريكسة».

(99) هكذا تسمى «جزيرة» بالعربية إلى الآن، ويدعوها البرتغال «كراسيوزا»، ويقول عنها المؤرخ الروماني القديم «بلين» بأن الأسطورة تزعم أن بها حدائق «هيسبريس» ذات التفاح الذهبي.

(100) بل 140 ميل.

سيتعرض له بسهولة إذا ترك ذلك القائد يُتمم البناء، فأرسل قوات كبيرة لمنع البرتغاليين من اتمام عملهم، لكن هذه القوات لم تتمكن من الاقتراب بأكثر من ميلين بسبب الرمي المستمر للمدفعية البرتغالية الكثيفة المرعبة. كادت حركة الملك أن تفشل، لكن بعضهم نصحه بأن يأمر بصنع تحصينات من الخشب في وسط النهر، على مسافة نحو ميلين من سافلة الجزيرة. وقطعت الأشجار المجاورة تحت حماية هذه التحصينات. وبعد قليل من الوقت وجد البرتغاليون أن مدخل النهر قد سد في وجودهم بجذوع أشجار ضخمة، بحيث لم يعد باستطاعتهم الخروج بأسطولهم. وثق الملك بالنصر، فعزم على القتال، ثم فكر في أنه سيعرض للخطر أرواح كثير من رعاياه، وسيكون ثمن هذا الانتصار خسائر جسيمة، فدخل في مفاوضات مع قائد الأسطول وتم الاتفاق على أن يدفع هذا الأخير غرامة حربية ضخمة، ويتدخل لدى ملك البرتغال ليرد إليه بنات قائد ملك فاس اللواتي كن أسيرات في عاصمته، وبهذه الشروط يمكن للقائد البرتغالي أن ينسحب مع جنوده دون أدنى إزعاج، فكان ذلك وعاد الأسطول إلى البرتغال[101].

البَصْرَة

البصرة[102] مدينة تمتد على رقعة صغيرة وتحتوي على نحو ألفي كانون. أسسها محمد بن إدريس باني فاس في سهل بين نجدين على مسافة نحو ثمانين ميلاً من فاس وعشرين ميلاً جنوبي القصر. وسميت بالبصرة تذكيراً ببصرة بلاد العرب التي قتل فيها علي رابع الخلفاء (الراشدين) وجد

(101) عقدت هذه المعاهدة يوم الخميس 30 رمضان 894 هـ/ 27 غشت 1489 بمدينة تشميش، وربما كانت هي المدينة القديمة المهجورة التي تحدث عنها المؤلف آنفا، والتي ما تزال أطلالها باقية على مقربة من الجزيرة على الضفة اليمنى لنهر اللكوس.

(102) ما تزال أطلال البصرة ظاهرة شمال طريق وزان، على بعد نحو 20 كلم جنوبي القصر الكبير. وقد يكون تأسيسها تم عام 218 هـ/ 833.

إدريس الأعلى[103]. كان لهذه المدينة أسوار جميلة عالية، وكانت متحضرة جداً طوال حكم الأدارسة، فكانوا يتخذونها مقاماً لهم في الصيف لشدة جمال ضواحيها، سواء في السهل أو الجبل. وكان بها قديماً حدائق كثيرة وحقول ممتازة لزراعة القمح قريبة من المدينة، ويخترق نهر اللكوس هذه السهول.

كانت البصرة كثيرة السكان والمساجد، وأهلها كرماء مشهورون، لكن عندما زال حكم الأدارسة نهب أعداؤهم المدينة وخربوها، فلم يبق منها قائماً غير الأسوار، وكذلك بعض الحدائق التي أمست أشجارها برية لا تثمر بسبب إهمال الأرض.

الحُمَر

الحمر[104] مدينة بناها المدعو علي، ولد محمد الذي تكلمنا عنه آنفاً[105]، على نهر صغير، بعيدة بنحو أربعة عشر ميلاً عن العرائش وستة عشر ميلاً عن جنوبي أصيلا. لم تكن الحمر مدينة كبيرة، لكنها كانت جميلة حصينة، والبادية حولها بهيجة، كلها أراض جيدة واقعة في السهل. وكانت المدينة محاطة بحدائق عديدة وكروم ذات أعناب شهية، ومعظم سكانها ينسجون الأقمشة لأنهم كانوا يجنون كثيراً من الكتان، ثم خلت بعد أن سقطت أصيلا في يد البرتغاليين[106].

أصِيلاَ

كانت أصيلا التي يسميها الأفارقة أزيلا مدينة كبيرة، أسسها الرومان

---

(103) هنا بعض الخلط، إذ البصرة في العراق، ولم يقتل فيها علي، بل قتل في الكوفة المجاورة لها.

(104) الحمر ــ بتخفيف الميم المفتوحة وتشديدها ــ: نوع من الطير. وواد الحمر الحالي بالقرب من واد الريحان.

(105) يريد الأمير علي بن محمد بن إدريس بن إدريس الملقب بحيدرة الذي حكم من عام 221 إلى 234 هـ.

(106) في 7 ربيع الأول 24/876 غشت 1471.

على شاطىء المحيط بعيدة عن مضيق أعمدة هرقل بنحو سبعين ميلاً، وعن فاس بنحو مائة وأربعين ميلاً وكانت هذه المدينة خاضعة لأمير سبتة الذي كان تابعاً للرومان، ثم استولى عليها القوط وأقروا مع ذلك هذا الأمير في الحكم، إلى أن أخذها منهم المسلمون عام 94 للهجرة، واحتفظوا بها طوال عشرين ومائتي سنة، فهاجمها الانجليز بأسطول ضخم، بإيعاز من القوط. وكانت بين الانجليز والقوط عداوة، لأن القوط كانوا مسيحيين والانجليز وثنيين، غير أن القوط تصرفوا بهذه الطريقة ليطردوا المسلمين من أوربا. وقد نجحت عملية الانجليز، فاحتلوا المدينة وأضرموا فيها النار وحكموا السيف في رقاب أهلها. بقيت أصيلا مخربة مهجورة زهاء ثلاثين سنة، إلاّ أنه عندما حكم ملوك قرطبة وخلفاؤ ها بلاد موريطانيا بعد ذلك، أعادوا بناءها وجعلوها في أحسن حال وأقوى مما كانت عليه في السابق، وأصبح سكانها واسعي الثراء ومثقفين ورجال حرب.

تنتج ناحية أصيلا كثيراً من الحبوب والثمار، لكن المدينة تفتقر كثيراً للحطب بسبب بعدها عن الجبل بعشرة أميال، ولذلك اعتاد الناس أن يستعملوا الفحم المستورد بكثرة من العرائش كما ذكرنا آنفاً. وفي عام 882 للهجرة(107) هاجم البرتغاليون أصيلا على غرة واستولوا عليها وأخذوا كل من وجدوا بها من السكان أسرى إلى البرتغال، ومن بينهم محمد (الوطاسي) ملك فاس اليوم، وكان حينئذ طفلاً في السابعة من عمره، وأسرت معه أخت له في نفس السن، لأن أباهما الذي ثار بإقليم الهبط كان يسكن آنذاك بأصيلا. وبعدما قتل عبد الحق آخر ملوك بني مرين على يد أحد الأشراف من كبار وأعيان فاس، وذلك بمساعدة الشعب الذي اختاره ملكاً، قام المدعو شيخ العبرة(108) محاولاً الدخول إلى فاس والمناداة بنفسه

(107) بل في ربيع الأول 24/876 غشت 1471.

(108) هكذا في الترجمة الفرنسية، وهو تحريف في الرسم بدون شك، والمقصود هو محمد الشيخ بن أبي زكرياء الوطاسي الذي حاصر فاسا إلى أن دخلها في أوائل شوال 876 / مارس 1472 وخرج منها الشريف الحفيد الإدريسي المبايع.

ملكاً، فطرده الشريف بكيفية مخزية من فاس، وذلك تحت تأثير رأي مستشاره الأول وحججه، وكان هذا المستشار ابن عم لحا للشيخ (الوطاسي). وبعد ذلك بعث الشريف هذا المستشار إلى تامسنا لتهدئة سكان ذلك الإقليم، فرجع الشيخ في هذه الأثناء بمدد يقدر بثمانية آلاف فارس من الأعراب، وضرب الحصار على فاس الجديد، وتمكن بعد عام من اقتحامه بسبب خيانة جماعة من السكان ظنوا أنهم لن يتمكنوا بعد من الحصول على حاجاتهم الضرورية، وفر الشريف إلى مملكة تونس مع جميع أفراد أسرته. وفي الوقت الذي كان الشيخ يحاصر مدينة فاس، أرسل ملك البرتغال أسطولاً استولى على أصيلا، كما ذكرنا ذلك من قبل.

أخذ الملك الحالي وأخته إذا أسيرين إلى البرتغال، ومكث فيه سبعة أعوام تعلم أثناءها اللغة البرتغالية واتقنها، ثم افتداه أبوه بمال كثير. ومن أجل ذلك لقبوه عندما آلت إليه السلطة بالملك محمد البرتغالي، وحاول مراراً أن يثار من البرتغاليين ويسترجع منهم أصيلا.

هاجم المدينة على حين غفلة في المرة الأولى بجميع جيشه، فحطم قسمًا كبيراً من أسوارها ودخلها وأطلق سراح جميع من كان بها من أسرى المسلمين. غير أن المسيحيين التجأوا إلى الحصن ومكثوا فيه يومين، أنجدهم بعدها بيير نافارو بسفن حربية كثيرة أرغمت مدفعية الملك (الوطاسي) لا على الخروج من المدينة مكرهاً فحسب، بل على أن يرجع مع جيشه من حيث أتوا، وحصن البرتغاليون أصيلا.

وبعد ذلك أعاد ملك فاس الكرة على أصيلا مع جيشه مرتين أو ثلاثاً، لكنه اعتبر أحمق لتماديه في هذا المشروع، لأنه لم يعد ولن يعود ممكناً الاستيلاء على هذه المدينة بقوة السلاح. وقد حضرت في كل مرة قام ملك فاس بمحاولة مهاجمة أصيلا، وعددت أننا تركنا كل مرة خمسمائة قتيل أو أكثر؛ وجرت هذه الحروب فيها بين عام 914 و 921 للهجرة.

طَنْجَة

تدعى طنجة عند البرتغاليين طنجيرة، وهي مدينة عظيمة أزلية،

يزعم بعض المؤرخين ــ خطأ ــ أن بانيها ملك اسمه شداد بن عاد، حكم العالم كله وأراد أن يبني مدينة تشبه أن تكون فردوس الأرض، فبنى السور من البرونز، وجعل سقوف البيوت من الذهب والفضة. وكان يرسل إلى أنحاء العالم كله سعاة يجبون الضرائب، فكانت طنجة من المدن التي تدفع له الضرائب في ذلك العصر. غير أن الثقات من المؤرخين يقولون ان الرومان هم الذين أسسوا طنجة على شاطىء المحيط في الوقت الذي كانوا يحكمون فيه اسبانيا، على بعد ثلاثين ميلاً من أعمدة هرقل (= سبتة)، ومائة وخمسين ميلاً من فاس. ولما حكم القوط اسبانيا ضمت طنجة إلى سبتة، إلى أن سقطت بيد المسلمين، وتم ذلك عندما استولوا على أصيلا.

وما زالت طنجة مدينة متحضرة شريفة مأهولة بأحسن العناصر من السكان، مشتملة على قصور جميلة قديمة وحديثة، غير أن الأرض المحيطة بها لا تصلح لزراعة الحبوب، وانما يوجد بالقرب منها شعب تسقيه مياه عين جارية، وتكثر فيه الحدائق التي تنتج البرتقال والليمون وغيرهما من الثمار. وتشاهد بعض الكروم أيضاً بظاهر المدينة إلا أن الأرض هناك رملية.

عاش سكان طنجة عيشة راضية إلى أن سقطت أصيلا. وعندما بلغهم الخبر أخذ كل واحد منهم أثمن ما يملك وغادر المدينة ملتجئاً إلى فاس، فأرسل قائد ملك البرتغال حينئذ ضابطاً احتلها باسم هذا الملك إلى أن أرسل إليها الملك أحد أقربائه[109]، وهي فعلاً في موقع هام بسبب قربها من جبال غمارة أعداء النصارى.

وقبل سقوط طنجة في يد البرتغاليين بخمس وعشرين سنة، أرسل ملكهم إليها أسطولاً عظيمًا، مؤملاً ألا تتوصل المدينة بأية نجدة، لأن ملك فاس كان آنذاك منهمكاً في حرب ضد متمرد سلبه مكناس، غير أن ظن

---

(109) الواقع أن الملك الفونسو الخامس شارك بنفسه في الحملة وأرسل إلى طنجة الدون جواوو فاستولى عليها يوم الأربعاء 11 ربيع الأول عام 28/876 غشت 1471.

البرتغاليين خاب، وعقد ملك فاس هدنة مع ذلك المتمرد، وأرسل أحد مستشاريه على رأس جنود كثيرة للذود عن طنجة، فهزموا البرتغاليين وقتلوا عدداً كبيراً منهم، وكان قائد الجيش البرتغالي من بين القتلى، فنقلت جثته في تابوت إلى فاس، وعرضت في مكان مرتفع ليراها الجميع[110].

اغتاظ ملك البرتغال من هذه الهزيمة، وجمع بعد فترة وجيزة أسطولاً آخر لقي نفس الهزيمة وتكبد خسائر جسيمة وأضراراً فادحة، بالرغم عن كون البرتغاليين هاجموا المدينة ليلاً وعلى حين غرة[111]. لكن الذي عجز عنه ملك البرتغال بالقوة حصل عليه أخيراً عندما ساعده الحظ بقليل من الجند ودون إراقة دماء، كما ذكرنا ذلك آنفاً.

حقاً إن ملك فاس محمد (البرتغالي) صمم على استرداد هذه المدينة، لكنه لم يفلح، لأن البرتغاليين دافعوا عنها دائمًا بكل حدة وقوة. وقد ذهبت مع الحملة إلى طنجة عام 917 للهجرة[112].

---

(110) في شهر صفر عام 841 / غشت 1437 أرسل ملك البرتغال ايدوارد الأول الدون فيرناندو على رأس حملة ضد طنجة، وكان أبوزكريا يحيى الوطاسي الوصي على العرش والمستبد بالأمر في بداية ملك عبد الحق (بن أبي سعيد المريني) يقود جيشاً عرمرما إلى تفيلالت، فلوى العنان إلى طنجة وألحق بالبرتغاليين هزيمة نكراء، وأسر قائدهم فيرناندو وأبى أن يسلمه إلا في مقابل تحرير سبتة. ولما رفض ايدوارد ذلك سيق ابنه أسيراً إلى فاس، ووضع في قفص من خشب وعرض من أعلى سور فاس الجديد إلى أن مات ووضعت جثته داخل جدار المدينة القديمة. وبعد احتلال البرتغاليين لأصيلا وأسرهم أميرها الوطاسي، افتدى هذا الأمير منهم بعض أهله بجثمان فيرناندو. وقد ساق أحمد الناصري هذا الخبر في **الاستقصا**، (4:95-96) نقلاً عن تاريخ عمانويل بشيء من التغيير.

(111) في أحد الربيعين من عام 868 / دجنبر 1463 قام الملك الفونسو الخامس نفسه بحملة ضد طنجة فكانت كارثة عليه، إذ هاجمه الطنجيون وثارت عاصفة في البحر فتكبد بذلك خسائر جسيمة. ولم يكن حظ حملة ثانية خرجت من سبتة بأحسن من الأولى، فانقلب الفونسو إلى البرتغال مهزوماً مدحوراً.

(112) لم يشر المؤرخون المغاربة إلى هذه الحملة، وذكرها مرمول بتفصيل (2:230).

القصرُ الصَّغِير

أسست هذه المدينة الصغيرة على يد المنصور ملك مراكش وخليفتها، على شاطىء البحر، بعيدة عن طنجة بنحو اثني عشر ميلاً، وعن سبتة بنحو ثمانية عشر ميلاً. أسسها لحاجته إلى العبور إلى الأندلس مع جيشه كل سنة، وكان من الصعب عليه أن يخترق بعض الجبال المجاورة لسبتة والتي تمر منها الطريق المؤدية إلى البحر.

تقع هذه المدينة في سهل جميل يرى منه ساحل الأندلس الذي يواجه هذا الجزء من أفريقيا. وكان القصر الصغير متحضراً جداً، يكاد يكون جميع سكانه بحارة يؤمنون العبور بين بلاد البربر وأوربا، وفيهم كذلك نساجون وتجار أغنياء ومحاربون أقوياء.

وقد قام ملك البرتغال بمهاجمة المدينة على حين غفلة من أهلها واستولى عليها، فأرسل عبد الله(113) ملك فاس جيشاً قوياً انضم إليه كافة أهل فاس تقريباً. وحاصر المدينة نحو شهرين دون جدوى، لأن الفصل كان شتاء والثلج يسقط فوق معسكر الجند، بحيث لم يستطيعوا القيام بأي شيء، ورفع الحصار يوم الثلاثاء (16 صفر عام 863) 2 يناير 1459.

سَبْتَـــة

سبتة مدينة عظيمة دعاها الرومان سيفيطاس، وسماها البرتغاليون سوبتة. أسسها الرومان، على أصح الروايات، في مدخل مضيق أعمدة هرقل، فكانت حاضرة موريطانيا كلها لإقامة الحكومة الرومانية بهـا، ولذلك اعتنى بها الرومان فأصبحت مدينة متحضرة جداً وافرة السكان.

وقد احتلها القوط بعد ذلك وأقاموا بها أميراً، وظل حكمها بين أيديهم إلى أن جاء المسلمون إلى موريطانيا واستولوا عليها، لأن يوليان أمير سبتة أهين إهانة كبرى من لدن لذريق ملك القوط واسبانيا كلها، فاتفق يوليان مع المسلمين وأدخلهم إلى الأندلس، وكان ذلك سبباً في هلاك

---

(113) ملك فاس آنذاك هو عبد الحق بن أبي سعيد المريني.

لذريق وضياع ملكه. احتل المسلمون سبتة، وحكموها باسم خليفتهم الوليد بن عبد الملك المقيم آنذاك بدمشق. ومنذ ذلك العهد حتى السنين الأخيرة، ظلت سبتة تنمو باستمرار، سواء فيما يتعلق بعدد السكان أو بشرف أرومتهم، إلى أن صارت أجمل مدن موريطانيا وأكثرها سكاناً. وكان فيها عدد من المساجد والمدارس، وكثير من الصناع والأدباء والعلماء، وعمال مهرة في المصنوعات النحاسية، كالشمعدانات والجفان والمحابر وغيرها، فكانت هذه الأشياء تباع كما لو كانت من فضة. وقد رأيت بعضها في ايطاليا وكثير من الناس يظنون أنها من صنع دمشق، لكن مصنوعات دمشق في الحقيقة أكثر جمالاً وأحسن صنعاً.

وفي ظاهر المدينة أملاك فخمة وديار في غاية الحسن، لا سيما في مكان يدعى بنيونس(114) لكثرة ما غرس فيه من كروم، لكن البادية هزيلة وعرة، ولهذا السبب كانت المدينة تشكو دائمًا من قلة الحبوب. ويرى ساحل الأندلس المطل على المضيق من داخل سبتة وخارجها، ويتعرف على ما فيه من حيوانات، لأنه لا يفصل بين ساحلي المضيق سوى مسافة اثني عشر ميلاً.

لكن المدينة البائسة تضررت كثيراً منذ زمن طويل بسبب عبد المومن الملك الخليفة، لأنها انحازت ضده فاستولى عليها وخربها وقضى على كثير من أشرافها بالنفي الدائم إلى مختلف الجهات(115) ثم لاقت سبتة نفس المصير من لدن ملك غرناطة(116) الذي استولى عليها، ولم يكتف بتخريبها

---

(114) يسميه السكان اليوم «بليونش» كما كان يسميه بذلك القاضي عياض وغيره من المؤلفين السبتيين القدامى. وهو عبارة عن واد خصيب عجيب خلف سبتة، تنبع فيه عيون ثرة، وتشرف بيوته الضائعة بين الأجنة على مياه المضيق، ويرى بالعين المجردة الساحل الاسباني ومرتفعات جبل طارق وحدوره.

(115) كان ذلك عام 1147/542. انظر ع. ابن خلدون، **العبر**، 484:6؛ أ. الناصري، **الاستقصا**، 102:2.

(116) هو محمد ابن الأحمر (الثالث) المعروف بالمخلوع، والذي دخل سبتة بخيانة من بعض أهلها، هو ابن عمه أبو سعيد صاحب مالقة عام 1303/703.

حتى أجلى أعيانها وأغنياءها إلى غرناطة. وبعد ذلك استحوذ أسطول البرتغال على سبتة عام 818، وفر من كان بها، فدخلها النصارى دون عناء، ومكثوا فيها نحو ثلاثة أسابيع متوجسين خيفة من ملك فاس أن يأتي لنجدتها، لكن أبا سعيد (المريني) الذي كان ملكاً على فاس آنذاك تخاذل ولم ينهض لاستردادها، بل بالعكس أتاه الخبر وهو في وليمة والناس يرقصون فلم يوقف الاحتفال. وقد قضت مشيئة الله أن يقتل هذا الملك بعد ذلك شر قتلة بيد أحد كتابه السابقين الذين كان يثق به كل الثقة، وهلك معه سبعة من أبنائه، لأنه راود زوجة هذا الكاتب عن نفسها، وذلك عام 824 للهجرة، وبقيت مملكة فاس ثماني سنوات بدون سلطان، إلى أن عثر على ابن صغير لأبي سعيد من أم نصرانية فرت إلى تونس ليلة المذبحة، وكان ذلك الطفل هو عبد الحق آخر ملوك بني مرين الذي قتله الشعب أيضاً كما سلف القول.

تِطّاوينْ

تطاوين مدينة صغيرة بناها الأفارقة القدامى على بعد نحو ثمانية عشر ميلاً من المضيق، وستة أميال من البحر. وقد فتحها المسلمون عندما أخذوا سبتة من يد القوط. ويقال ان هؤلاء لما ملكوا تطاوين سلموا حكمها إلى أميرة عوراء كانت تأتي كل أسبوع إلى المدينة لاستلام موردها، ولما لم تكن لها غير عين واحدة فقد سموا مدينتهم تطاوين، ومعناها عين واحدة باللغة الافريقية(117).

ومنذ فترة من الزمان، هاجم البرتغاليون تطاوين وخربوها(118)، وبقيت خربة زهاء ثمانين سنة، ثم جدد بناءها قائد أندلسي جاء إلى فاس

---

(117) بل تطاوين جمع لكلمة تيط التي هي عين الماء الجارية.

(118) حوالي عام 803/1399-1400. غير أن المسيحيين المهاجمين هم القشتاليون رعايا الملك هنري الثالث. انظر م. داود، **تاريخ تطوان**، 1:82-83.

مع ملك غرناطة عندما سقطت هذه المدينة بيد فيرناندو ملك اسبانيا. وكان هذا القائد محارباً مقداماً حقق أعمالاً بطولية خلال حروب غرناطة، فدعاه البرتغاليون المنظري(119). وقد أذن له بأن يعيد الحكم إلى المدينة ويتولاه هو بنفسه، فأعاد بناء جميع أسوار تطاوين، وشيد فيها حصناً حصيناً أحاطه بخنادق، وفعل مثل ذلك بأسوار المدينة. وكانت له بعد ذلك حروب لا تنقطع مع البرتغاليين، وكثيراً ما ضيق الخناق على سبتة والقصر وطنجة. وكان معه دائماً ثلاثمائة فارس، كلهم غرناطيون من نخبة أهل غرناطة، فجعل يجوب أنحاء البلاد بهذا الجيش ويأخذ العديد من المسيحيين يحتفظ بهم كأسرى ويستخدمهم في أعمال التحصين. ولقد شاهدت في إحدى المرات التي ذهبت فيها إلى هذه المدينة ثلاثة آلاف أسير مسيحي لابسين جميعاً سترات من الصوف، ينامون ليلاً مقيدين في الأصفاد داخل سراديب تحت الأرض. وكان هذا الرجل في غاية الكرم، حتى إنه كان يضيف كل غريب يمر بالمدينة، وتوفي منذ أمد قريب كفيفاً، لأنه فقد إحدى عينيه بطعنة خنجر، وذهب بصر العين الأخرى أثناء شيخوخته. وآل أمر المدينة إلى أحد حفدته، وهو الآن رجل ذو اقدام ونجدة.

* * *

---

(119) المنظري منسوب إلى المنظر الذي هو أحد الحصون بضاحية غرناطة. انظر ترجمته مفصلة في المصدر السابق، 1:107 وما بعدها.

جِبَالُ الـهَبْط

في الهبط ثمانية جبال أشهر من سواها، تسكنها (قبائل) غمارة. ولهم جميعاً تقريباً نفس النمط في المعاش والأخلاق، لأنهم ينتسبون للإسلام كافة، غير أنهم يشربون الخمر خلافاً لتعاليم هذا الدين. وهم رجال شداء، صبورون على تحمل التعب والشقاء، لكن لباسهم رديء. يخضعون لملك فاس، ويدفعون له ضرائب ثقيلة لا يستطيعون معها أن يرتدوا لباساً لائقاً، باستثناء البعض منهم، كما سنذكره على الخصوص.

جبلُ رَهُونَة

جبل رهونة مجاور لأزجن، طوله ثلاثون ميلاً وعرضه نحو عشرة أميال. يكثر فيه الزيت والعسل والعنب، ولا يشتغل أهل البلاد بغير صنع الصابون وتصفية الشمع، ويعصرون أيضاً الخمر الأحمر والأبيض لاستهلاكهم الشخصي، ويغل هذا الجبل ثلاثة آلاف مثقال لملك فاس تخصص لعامل أزجن لينفق على أربعمائة فارس يعملون في خدمة الملك.

جبلُ بَنِي فَنْزَكَّارْ

هو جبل(120) يتاخم الجبل المتقدم، طوله نحو خمسة وعشرين ميلاً، وعرضه ثمانية أميال. وهو أكثر سكاناً من السابق. يكثر فيه دباغو جلود البقر والعاملون في حياكة القماش الخشن، ويجنى منه الكثير من الشمع. ويقام يوم السبت سوق كبير تجد فيه كل أصناف التجار وأنواع البضاعة، ويقصده الناس حتى الجنويون لشراء الشمع وجلود البقر وإرسالها إلى جنوة

---

(120) ينطق بها اليوم بني زكار. ويقيمون على الضفة اليمنى لنهر اللكوس، الذي يفصلهم عن رهونة.

والبرتغال. ويغل هذا الجبل سنوياً ستة آلاف مثقال، يخصص نصفها لعامل أزجن، ونصفها الآخر لبيت مال ملك فاس.

جبلُ بَنِي غَرُوس

يجاور هذا الجبل القصر الكبير، ويمتد على مسافة ثمانية أميال شمالاً، وعشرين ميلاً غرباً. عرضه ستة أميال، وسكانه أشراف وفرسان. كان هذا الجبل كثيف السكان كثير الانتاج، لكن هؤلاء الأشراف طغوا على السكان حتى غادروا الجبل منذ أن استولى البرتغاليون على أصيلا، ولم يبق فيه غير بعض المداشر على المرتفعات، أما الباقي فغير مأهول. وكان دخل الجبل فيماسبق يبلغ عادة ثلاثة آلاف مثقال تدفع لقائد القصر الكبير.

جبلُ حَبِيب

في هذا الجبل ستة قصور أو سبعة، يسكنها أناس كرام محترمون. وذلك أنه بعد سقوط طنجة في يد البرتغاليين جاء عدد كبير من أهلها إلى هذا الجبل واستقروا فيه، لأنه على مسافة خمسة وعشرين ميلاً من مدينتهم. لكن الوضع في هذه البلاد معرض للخطر في جملته، وسائر من سيِّىء إلى أسوأ بدون انقطاع، نظراً لكون القائد الذي يحرس هذه الناحية يقيم على بعد ثلاثين ميلاً من هناك، بحيث لا يستطيع أن ينجدهم في الوقت المناسب كلما قام البرتغاليون بإغارة وعاثوا في الأرض فساداً.

بَنِي حَسَّان

جبل بني حسان شاهق عسير المنال على العدو، إذ فضلاً عن طبيعة الأرض، يتميز رجاله بشدة البأس وعظيم الشجاعة، لم يتحملوا القمع من بعض مواطنيهم فنزعوا من أذهانهم كل كبرياء بقوة السلاح، وغيروا أحوال كثير منهم إلى وضعية حقيرة. ثم إن شاباً من بين هؤلاء الأشراف غضب لكونه أصبح محكوماً من أتباعه القدامى، وامتلأ صدره حقداً عليهم، فذهب إلى اسبانيا وعمل فترة من الزمن أجيراً في خدمة النصارى

إلى أن أصبح محارباً محنكاً. وبعد ذلك رجع وسكن أحد هذه الجبال الذي التجأ إليه أتباعه، فجمع عدداً لا يستهان به من الفرسان ودافع عن الجبل ضد تحرشات البرتغاليين. ولما رأى الملك نشاط هذا الرجل الشجاع أمده بمائة وخمسين من الجنود القاذفين، فحارب بهم أهل الجبل وطرد منه خصومه، لكنه استبد بدخل الجبل الذي هوللملك. غضب الملك وزحف إليه في جيش عرمرم، فندم الرجل في الحين على خطئه، وعفا عنه الملك وأقره على حكم شفشاون وناحيتها. وهكذا أصبح حاكمها الشرعي. وهو من آل بيت محمد (عليه السلام) وحفدة ادريس مؤسس مدينة فاس يعرفه البرتغاليون جيداً ويقدرونه أكبر تقدير، ويدعونه باسمه واسم أسرته علي بن راشد[121].

جبل أَنْجَرَة

يبعد هذا الجبل عن القصر الصغير بنحو ثمانية أميال، ويمتد على مسافة نحو عشرة أميال طولاً، وثلاثة أميال عرضاً. فيه أراض صالحة للزراعة، لأن أهل البلاد جردوا الأرض من أشجارها ليصنعوا بها سفناً في القصر الذي كانت توجد فيه دار صناعة السفن. وكان من عادتهم أيضاً أن يزرعوا الكتان، وأن يشتغلوا حاكين أو بحريين. لكن لما استولى البرتغاليون على القصر غادر هؤلاء القوم جبلهم. ومع ذلك لا زالت هناك منازلهم وممتلكاتهم على نفس الحالة التي هي عليها كما لو كانت مسكونة ومزروعة.

وَادْرَاسْ

وادراس جبل شاهق بين سبتة وتطاوين[122] يسكنه رجال ذوو شجاعة فائقة برهنوا عنها بجلاء في الحروب التي دارت بين ملوك غرناطة وملوك اسبانيا، فكان هؤلاء الجبليون يذهبون متطوعين إلى غرناطة ويقومون بما لا يقوم به كل جنود أولئك الملوك مجتمعين. وإلى هذا الجبل يعود أصل

(121) يحرف البرتغاليون هذا الاسم ويكتبونه (براشا) وكذلك في الترجمة الفرنسية مفككاً بن رشا.

(122) تبلغ أعلى قمة في مرتفعات وادراس نحو 690 ميتر.

المدعو هلولي[123] الذي شارك في معارك ضارية ضد الاسبانيين، ويتداول الناس في بلاد افريقية والأندلس قصصاً شعبية نثرية وشعرية تشيد بانتصارات هذا البطل، مثلما يوجد في ايطاليا من قصص بطولات رولاند. وقد قتل هلولي في حرب اسبانيا لما انهزم يوسف الناصر (الموحدي) قرب قصر في قطلونيا يسميه المسلمون قصر العقاب، حيث قتل عشرة آلاف محارب من المسلمين، ولم ينج إلا الملك في قلة من أتباعه، وذلك عام 609 للهجرة، الموافق لعام 1160 للميلاد[124]. وبعد هذه الهزيمة للمسلمين أخذ النصارى يحققون انتصارات في اسبانيا، إلى أن استردوا كل المدن التي كانت بيد المسلمين. وقد مرت على هذه الهزيمة 285 سنة هجرية قبل أن تسقط غرناطة بيد ملك اسبانيا.

جبلُ بْني كُرْفَطْ

يقع هذا الجبل[125] قريباً من تطاوين، كثير السكان، لكنه قليل الامتداد. أهله ذوو نجدة وخصال حميدة، يخضعون لحكم قائد تطاوين ويطيعونه طاعة عمياء، ويذهبون معه للإغارة على اقليم هذه المدينة الخاضع للمسيحيين، ولذلك لا يؤدون لملك فاس أية اتاوة باستثناء مساهمة صغيرة من أراضيهم الزراعية، وهم بعكس ذلك ينتفعون أكبر انتفاع من جبلهم الذي ينتج من خشب البقس المستعمل من طرف صانعي الأمشاط بفاس، فيستورد منه هؤلاء الصناع كل سنة كمية كبيرة من هذا الجبل.

---

(123) لا نعرف هذا الاسم في عصر الناصر الموحدي. وربما اختلط الأمر على المؤلف، إذ المشهور بالصفات التي ذكرها هو محمد بن يحيى البهلولي الشيخ المتصوف الذي قضى حياته كلها في الجهاد، ونظم فيه قصائد وأزجالاً شهيرة أورد نتفاً منها معاصره ابن عسكر في الترجمة الحافلة التي عقدها للبهلولي في دوحة الناشر، صفحة 59-61. وكانت وفاة البهلولي في العقد الثاني من القرن الهجري العاشر.

(124) وقع ذلك يوم الاثنين 12 صفر 16/609 يوليوز 1212، عندما هاجم جيش الروم بقيادة ملوك قشتالة وأركون ونافار في نجد «لاس نافاس دوطولازا» بإقليم جيان، جيش المسلمين المعسكر أمام قصر العقاب بقيادة الناصر الموحدي، فأبيد جيش المسلمين بسوء تدبير الملك ووزيره ابن جامع.

(125) كتب في الترجمة الفرنسية «بني كدافرط» وقبيلة بني كرفط شهيرة اليوم بين مدينتي تطوان والعرائس.

الرِّيف
أحد أقاليم مملكةِ فاس

الريف أحد أقاليم مملكة فاس، يبتدىء من تخوم مضيق أعمدة هرقل، ويمتد شرقاً إلى نهر النكور، أي على مسافة مائة وأربعين ميلاً، وينتهي شمالاً عند البحر المتوسط في القسم الأول منه، ليمتد من هناك جنوباً على نحو أربعين ميلاً حتى الجبال المحاذية لنهر ورغة الواقعة بمنطقة فاس. وهذا الإقليم أرض وعرة مليئة بجبال شديدة البرودة ومغطاة بغابات كثيرة فيها أشجار باسقة مستقيمة تماماً. لا ينبت القمح فيها بكثرة، لكن فيها الكثير من أشجار التين والبرتقال.

سكان الريف شجعان، لكنهم تعودوا السكر والملابس الرديئة. وتقل الحيوانات في هذه البلاد، ما عدا الماعز، والحمير، والقرود التي تعيش في مجموعات كبيرة بهذه الجبال، كما تقل فيها المدن، وكل التكتل السكني المهم في قصور وقرى ذات بيوت حقيرة مكونة من طابق أرضي ومبنية بشكل الاصطبلات التي نراها في أرياف أوربا، سقوفها من قش أو لحا الشجر. وجميع نساء هذه الجبال ورجالها مصابون بتضخم الغدة الدرقية، وليسوا سوى غلاظ جهلة.

تَرْغَة

ترغة مدينة صغيرة من بناء القوط حسب قول بعض المؤلفين. تقع على

ساحل البحر المتوسط بعيدة عن المضيق بنحو ثمانين ميلاً[126]، وتحتوي على مائة وخمسين كانوناً تقريباً. أسوارها ضعيفة في الجملة، وسكانها صيادون يملحون ما يصطادونه من سمك ويبيعونه لتجار الجبل، ويحمل إلى مسافة تناهز مائة وعشرين ميلاً في داخل البلاد. وقد انضبطت هذه المدينة وكثر سكانها، لكن منذ وطئتها أقدام البرتغاليين[127] أخذت تنحط سواء في مظهرها أو في عدد سكانها. وتوجد في ضواحيها غابات تغطي جبالاً وعرة باردة، ينبت فيها الشعير بكمية قليلة لا تكفي حاجات نصف السنة. وأهل هذه البلاد شجعان حقاً، لكنهم خشنون جهال سكيرون، ولباسهم في العادة رديء جداً.

بَادِسْ

بادس مدينة مبنية على ساحل البحر المتوسط يسميها الاسبانيون «فيليس دولاكوميرا»، وتضم زهاء ستمائة كانون. يقول بعض مؤرخينا ان الأفارقة هم مؤسسوها، ويقول آخرون ان القوط هم بناتها. ومهما يكن من أمر فإنها واقعة بين جبلين شاهقين. قرب واد سحيق يتكون فيه نهر عندما ينزل المطر[128]. وفي داخل المدينة سوق يضم العديد من الدكاكين وجامع متوسط الكبر، لكن لا وجود للماء الصالح للشرب. وفي خارج المدينة بئر قريب من ضريح أحد الأولياء[129]، إلا أن شرب مائه ليلاً خطير لكثرة العلق به.

ينقسم السكان قسمين، صيادون، وقراصنة يذهبون في زوارقهم لنهب السواحل النصرانية. والجبال حول بادس شاهقة وعرة فيها خشب

(126) بل 50 ميلاً.
(127) حاول البرتغاليون النزول في ترغة عام 907/1502.
(128) هو تلمبادس.
(129) هو أبو يعقوب البادسي المغراوي المتوفى عام 734/1333.

جيد صالح لبناء الزوارق والسفن الشراعية الحربية. لا يعيش الجبليون إلا من هذا الخشب يحملونه إلى مختلف الجهات، ولا ينبت في بلادهم سوى القليل من القمح، ولذلك يأكلون خبز الشعير في هذه المدينة، ويقتاتون على الخصوص بالسردين وغيره من السمك، لأن الصيادين يصطادون منه كميات وافرة بحيث يحتاجون دائمًا إلى بعض الناس يساعدونهم على جر شباكهم. ولذلك تعود بعض الفقراء أن يذهبوا تقريباً كل صباح إلى ساحل البحر لمساعدة الصيادين الذين يكافئونهم باعطائهم كمية مهمة من السمك الذي يصطادونه، ويعطون منه لجميع الحاضرين هناك. أما السردين فإنهم يملحونه ويرسلونه إلى الجبال. وما زال بالمدينة زقاق طويل يسكنه اليهود وتباع فيه الخمر التي يعدها جميع السكان شراباً رائعاً جداً. ويذهب هؤلاء الناس تقريباً كل مساء يكون الجو صحواً في زوارق صغيرة للتنزه على عرض البحر والتسلي بالشراب والغناء.

ولبادس قصبة جميلة، لكنها ليست متينة جداً، يسكنها الأمير الذي يملك أيضاً خارج القصبة قصراً وحديقة بديعة. وفي خارج القصبة أيضاً بجوار البحر دار صغيرة تصنع فيها الزوارق والسفن الشراعية وبعض المراكب. وقد اعتاد الأمير والمدنيون أن يسلحوا زوارق ويرسلوها إلى بلاد النصارى فيلحقوا بها الكثير من الأضرار. ولذلك قام الدون فرناندو ملك اسبانيا المذكور آنفاً بإرسال أسطول بقيادة بدرو نافارو، فاحتل جزيرة قبالة بادس على بعد ميل من المدينة، وبنى فيها قلعة على صخرة (حجرة بادس) شحنها جنوداً ومؤناً ومدفعية قوية، حتى كان رمي الاسبانيين يقتل الناس في أزقة المدينة وفي الجامع، فاستغاث أمير بادس بملك فاس الذي أرسل عدداً من الجنود المشاة لمهاجمة الجزيرة، لكنهم أرهقوا كثيراً، فهلك بعضهم، وسقط آخرون في الأسر، ورجع البعض إلى فاس مصابين بجراح. وقد احتفظ النصارى بالجزيرة إلى أن أرسل ملك فاس من جديد جيشاً بعد مرور أحد عشر عاماً، فسقطت الجزيرة في أيدي المسلمين بسبب

خيانة جندي اسباني قتل القائد الذي زنى بزوجته، وقتلوا جميع من وجدوا فيها من النصارى ماعدا الجندي الخائن وزوجته، فأكرمهما أمير بادس وملك فاس وكافآهما. وكان ذلك عام 1520 للميلاد. وقد سمعت هذه القصة في نابولي من أناس حضروا احتلال الجزيرة، لكنني كنت بفاس عندما استولى عليها المسيحيون. ويحرس اليوم أمير بادس هذه الجزيرة بكل عناية، يساعده في ذلك ملك فاس، إذ يقع هناك أقرب ميناء على البحر المتوسط إلى فاس، بالرغم من مسافة نحو مائة وعشرين ميلاً الفاصلة بين بادس وفاس.

ومن عادة سفن البندقية أن تأتي إلى بادس مرة أو مرتين في السنة حاملة بضائعها، فتتجر فيها بالمبادلة والبيع نقداً، بالإضافة إلى أنها تنقل البضائع وحتى الركاب المسلمين أنفسهم من هذا الميناء إلى تونس، وأحياناً إلى البندقية أو حتى الاسكندرية وبيروت.

يِلِّيشْ

يليش مدينة صغيرة على ساحل البحر المتوسط، بعيدة عن بادس بنحو ستة أميال. ميناؤها جيد إلا أنه صغير، تلتجىء إليه السفن الكبيرة الذاهبة إلى بادس عندما يهيج البحر. وبجوار المدينة عدة جبال مغطاة بغابات كبيرة من الصنوبر. والمدينة في أيامنا هذه مهجورة بسبب القراصنة الاسبان. لا يرى فيها غير بعض أكواخ للصيادين الذين يوجدون في حالة استنفار باستمرار، فلا يكادون يلمحون زورقاً قادماً حتى يخفوا إلى الجبل، وسرعان ما يعودون مع عدد كبير من الجبليين للدفاع عن أنفسهم.

تَغَسّة

تغسة مدينة صغيرة كثيرة السكان، تقع على نهر صغير على بعد ميلين عن البحر، وتشتمل على أقل من خمسمائة كانون، لكن ليس بها

سوى مساكن رديئة. وسكانها كلهم صيادون، وملاحون يحملون الميرة إلى المدينة، لأن الأراضي كلها جبال وغابات. وهناك جملة حسنة من الكروم والأشجار المثمرة، وما سوى ذلك تافه. لا يأكل أعيان تغسة غير خبز الشعير والسردين والبصل. وقد أقمت مرة في هذه المدينة ثلاثة أيام، فلاحظت أن رائحة السردين تفوح من الجدران والأزقة، وبدت لي هذه الأيام الثلاثة كأنها ثلاثة أشهر بسبب ما كانت عليه المدينة وأهلها من شناعة وقذارة.

جبهة

جبهة مدينة صغيرة ذات أسوار جيدة، أسسها الأفارقة على ساحل البحر المتوسط على بعد نحو خمسة وعشرين ميلاً من بادس. يسكنها الناس تارة ويهجرونها أخرى بحسب الموارد المتوفرة لدى المكلفين بحكمها وحراستها، ويحيط بها إقليم وعر تكثر فيه العيون والغابات. وفي الضواحي بعض الكروم والأشجار المثمرة. وليس في هذه البلدة بناء ولا مسكن لائق باستثناء السور المتقن البناء.

المَزَمَّة

كانت المزمة[130] مدينة كبيرة واقعة فوق جبل صغير على ساحل البحر المتوسط بالقرب من حدود اقليم كرط. يقع في أسفلها سهل كبير، عرضه نحو عشرة أميال، وطوله ثمانية وعشرون ميلاً من الشمال إلى الجنوب، ويمر نهر نكور في وسطه فاصلاً بين الريف وكرط. يسكن هذا السهل أعراب يحرثون أرضه ويحصدون منه كميات عظيمة من القمح، يبلغ نصيب أمير بادس منها زهاء خمسة آلاف مكيال (موكجيا).

وكانت هذه المدينة قديماً في غاية الحضارة كثيرة السكان، دار مقام لأمير هذا الإقليم، لكنها دمرت ثلاث مرات. خربها أول مرة خليفة

(130) يرى الأستاذ محمد الفاسي أن المزمة هي مدينة الحسيمة الحالية.

القيروان الذي غضب على أمير المزمة حين امتنع من أداء الخراج المعتاد، فسقطت المدينة في يده ونهبها وأحرقها وقطع رأس أميرها وأرسله إلى القيروان على رأس رمح، عام 318 للهجرة. وظلت المدينة مهجورة خمسة عشر عاماً قبل أن يقوم بعض الأمراء بإعادة تعميرها تحت رعاية خليفة القيروان، لكن ملك قرطبة حسده على ذلك، لأن المدينة لم تكن تبعد بأكثر من ثمانين ميلاً عن حدوده البحرية، وهي مسافة عرض البحر الفاصل بين مالقة الواقعة في مملكة الأندلس، وهذه المدينة الواقعة بموريطانيا. بدأ ملك الأندلس يحاول أخذ الخراج فقوبل بالرفض، وأرسل أسطولاً احتل المدينة في فترة وجيزة، لأنه لم يكن هناك أي مدد ينتظر من الخليفة بسبب بعد القيروان عن المزمة بألفين وثلاثمائة ميل، حتى إنه قبل أن يصل طلب المدد إلى القيروان كانت المدينة قد سقطت ودمرت وحمل أميرها أسيراً إلى قرطبة، حيث بقي هناك إلى أن مات. والمزمة الآن خربة، لكن أسوارها قائمة سالمة، ويرجع تاريخ تدميرها الأخير إلى عام 872 للهجرة.

جبل بني كْرِيرْ

سنتحدث الآن عن بعض جبال الريف، فجبل بني كرير يسكنه فرع من غمارة، وهو مجاور لترغة. يمتد على طول عشرة أميال تقريباً. فيه غابات وكروم وبساتين الزيتون، وسكانه فقراء مدقعون، يلبسون الثياب الحقيرة، ولا يملكون من الماشية إلا القليل، ويصنعون كثيراً من الخمر والدبس. ولا ينبت الشعير إلا بقلة في البلاد.

جبل بني مَنْصُور

يمتد هذا الجبل على مسافة خمسة عشر ميلاً طولاً وأربعة أميال عرضاً، وتكثر فيه الغابات والعيون. سكانه أولو بأس شديد، إلا أنهم فقراء، لأن جبلهم لا ينتج غير العنب، لكنهم يملكون شيئاً من الماعز،

ويقيمون مرة في الأسبوع سوقاً لم أر فيه غير البصل والثوم والزبيب والسردين المملح، وقليل من الشعير والدخن يصنعون منه الخبز. وهم على ساحل البحر تحت سلطة أمير بادس.

جبلُ بَقُّويَة

يمتد هذا الجبل على طول أربعة عشر ميلاً وعرض ثمانية أميال تقريباً، ويسكنه قوم أغنى قليلاً من الجبليين الآخرين، ومنظّمون تنظيماً محكمًا. يملكون بعض الخيول لأن جبلهم يضم حوله أراضي جيدة، ولا يؤدّون كثيراً من الخراج لأن ولياً مدفوناً في بادس أصله من بلاد بقوية.

جبل بني خالد

تمر الطريق المؤدية من بادس إلى فاس بهذا الجبل، وهو بارد جداً مليء بالغابات، فيه عيون مياه شديدة البرودة، وسكانه خاضعون لأمير بادس، وهم لصوص سفاكون بسبب فقرهم والضرائب التي تثقل كواهلهم (131).

بني منصور

يمتد هذا الجبل على مسافة ثمانية أميال تقريباً، ويبعد عن الساحل كالجبلين السابقين. سكانه شجعان أشدّاء، لكنهم دائمًا سكارى، يجنون كثيراً من العنب وقليلاً من الحبوب. تذهب نساؤ هم خلف قطعان ماعزهم ليرعينها، ويقمن بالغزل في أثناء ذلك. وليس فيهن واحدة وفيّة لزوجها.

بني يوسف

طول هذا الجبل اثنا عشر ميلاً تقريباً، وسكانه فقراء يرتدون أحقر لباس من كل الآخرين، لأنه لا ينبت أي شيء حسن في جبلهم، عدا

(131) موطن بني خالد اليوم في الشمال الغربي لبني زروال، بعيد جداً عن الطريق المباشر بين بادس وفاس، وقد يكون المؤلف سها أو أخطأ.

القليل من الدخن الذي يخلطونه مع بزور العنب ويستخرجون منه دقيقاً يصنعون منه خبزاً أسود كريهاً شنيعاً حقاً. يأكلون عادة البصل كثيراً، ومياه عيونهم كدرة، إلا أنهم يملكون كمية كبيرة من الماعز يُعتبر لبنها بالنسبة لهم غذاء ثميناً.

جبلُ بْني زَرْوِيلْ

لهذا الجبل الذي غُرس فيه الكثيرمن الكروم(132) أرض طيبة صالحة للزيتون وغيره من الأشجار المثمرة، وسكانه فقراء خاضعون لأمير شفشاون الذي يفرض عليهم اتاوات ثقيلة، بحيث لا يستطيع هؤلاء أن يوفّروا شيئاً مما يدرّه عليهم نبيذهم. يقيمون مرة في الأسبوع سوقاً لا يُعرض فيه غير التين المجفّف والزبيب والزيت، ويذبحون عادة كثيراً من التيوس والعنزات المسنّة التي لم تعد صالحة للنتاج.

جبلُ بني رْزينْ

يكاد يكون هذا الجبل ملاصقاً للبحر المتوسط في ضواحي ترغة، ويعيش سكانه في سعة وأمن، لأن جبلهم حصين وخصيب. لا يؤدّون أي خراج، ويجنون القمح والزيتون ويملكون كروماً كثيرة. أرضهم جيدة لاسيما منحدرات الجبل، ونساؤهم يرعين الماعز ويحرثن الأرض.

جبلُ شَفْشَاوَنْ

هذا الجبل(133) أحسن جبال افريقيا كلها، فيه مدينة صغيرة مليئة بالصنّاع والتجّار، يقيم بها أمير يحكم العديد من قبائل هذه الجبال، وفي

(132) لعله يقصد أحد جبال بني زروال المعروفة شمال فاس، والتي ألّف فيها محمد البشير الفاسي كتاباً مفيداً طُبع بالرباط عام 1962. انظر فيما يأتي «جبل» بني وزروال والهامش رقم 140.

(133) كتب في الترجمة الفرنسية «شَشاون» وهو تحريف بدون شك. وإنما هو شفشاون منذ عهد تأسيس المدينة به في القرن العاشر إلى اليوم. كما ينطق به أيضاً الشاون.

عهده بدأ ازدهار هذه البلاد. ثار هذا الأمير المدعو سيدي ابن راشد على ملك فاس، وشنّ كذلك حرباً لا هوادة فيها على البرتغاليين. لا يؤدّي سكان هذه المدينة وهذا الجبل أي خراج للأمير، لأن معظمهم جنود مشاة أو فرسان؛ ولا ينبت هناك غير القمح مع كثير من الكتان؛ وتوجد غابات كثيرة وعدد لا يحصى من العيون. ولباس سكان البلاد حسن جداً.

بني جْبَارَة

هذا الجبل وعر جداً شديد الارتفاع[134]، تمر بعض الجداول الصغيرة في سفحه المغطّى بالكروم وأشجار التين، ولا ينبت فيه القمح. يرتدي السكان لباساً رديئاً، ويملكون عدداً وافراً من الماعز وبعض الثيران القصيرة التي تشبه بقامتها عجولاً عمرها ستة أشهر. ويقام هناك سوق كل أسبوع، لكنه يكاد يكون خلواً من البضائع مع أنه يأتي إليه تجار فاسيون وبغّالون يحملون الثمار إلى فاس. وكان الجبل إقطاعاً لأحد أقارب الملك، يغلّ نحو ألفي مثقال في السنة.

جبلُ بْني يَرْزُو

كان هذا الجبل كثير السكان، فيه مدرسة لطلبة علم الكلام أُعْفِيَ السكان بسببها من الضرائب، إلى أن جاء أحد الطغاة معاناً من قِبَل ملك فاس، فخرّبه واستحوذ عليه وعلى المدرسة التي وجد فيها كتباً تبلغ قيمتها أربعة آلاف مثقال، وقتل رجالاً محترمين معظّمين، وذلك عام 918 للهجرة.

تيزرن

تيزرن[135] جبل مجاور للجبل السابق، فيه عيون عديدة وغابات وكروم. وتظهر فيه على الخصوص آثار بناء قديم اخالهُ من صنع الرومان،

(134) يبلغ ارتفاع جبل سوكنا في بني جبارة 1.614 ميتر.

(135) عند مرمول: «تيزيران» وهو الاسم المعروف حتى اليوم.

ولذلك ترى الباحثين عن الكنوز الذين تحدّثنا عنهم آنفاً يقومون بالتنقيب فيه. وسكان الجبل جهلة، والضرائب تفقرهم.

بَنْي بُوشِيبَتْ

هذا الجبل في غاية البرودة والوعورة، لا تنبت فيه حبوب ولا يمكن اقتناء الماشية بسبب البرد والجفاف. أشجاره في حالة لا تتمكّن الماعز معها من أن تقتات بها. وتُجنى منه كمية كبيرة من الجوز تتموّن منه فاس والمدن المجاورة. وكل العنب الذي يجُنى هنا أسود، يُصنع منه زبيب جميل غليظ شديد الحلاوة، كما يُصنع منه الكثير من الدبس المطبوخ وتُعصر كمية عظيمة من الخمر. يلبس الناس كلهم عباءة قصيرة من الصوف. من نوع الأغطية الرديئة التي يستعملها التجّار في إيطاليا للف الأقمشة التي يحملونها من مدينة إلى أخرى. ولهذا اللباس المخطط بالأسود والأبيض قلنسوة يضعها هؤلاء القوم على رؤوسهم، فيكونون في أعين من يراهم أشبه بالبهائم منهم بالناس.

ولا يجد تجّار الجوز والزبيب الذين يأتون من فاس إلى هذا الجبل في الشتاء ما يقتاتون به خبزاً ولا لحمًا، ما عدا البصل والسردين المملّح فقط، وثمنها مرتفع جداً في هذه البلاد. ويقتات الناس بالدبس المطبوخ وحساء الفول ويعتبرونها أحسن قوت، ويأكلون هذا الدبس مع الخبز.

جبل بَنْي وَلْيدْ

هذا الجبل شاهق[136] صعب المسالك، سكانه أغنياء لأن لهم كروماً كثيرة ذات عنب أسود يصنعون منه الزبيب، وأراضي مغروسة بكميات ضخمة من اللوز والزيتون. أضف إلى هذا أنهم لا يؤدّون أي

(136) يبلغ ارتفاع جبل درنكل في بني وليد 1.602 ميتر.

خراج لملك فاس، ما عدا ربع مثقال تقريباً عن كل مدشر، الأمر الذي يسمح لهم بالذهاب إلى فاس بأمان للبيع والشراء. وإن أساء أحد إليهم ومرّ أحد أقربائه بجبلهم منعوه من الرجوع إلى بيته ما لم يقع التكفير عن تلك الإساءة.

يرتدي الرجال لباساً حسناً ويتزيّنون بالحلي. وكل مذنب نُفي من فاس يلقى الأمان عندهم، بل ويُعفى من النفقات ما دام مقيـماً بين أظهرهم. ولو كان هذا الجبل يعترف بسلطة ملك فاس، لأمكنه أن يجبى منه ستة آلاف مثقال، لأنه يضم ستين قرية كلها غنية.

جبلُ مَرْنِيسَة

يُتاخم هذا الجبل الجبل السابق، ويرجع أصل سكانه إلى نفس أصل بني وليد(137)، ويضاهونهم غنى وحرية وشرفاً؛ لكنهم يختلفون عنهم من حيث العادات في أن كل امرأة أصابتها إهانة من زوجها مهما كانت ضئيلة، فرّت إلى الجبال الأخرى تاركة أولادها وتزوجت من رجل آخر. وهذا هو السبب الذي يجعل الرجال في الغالب يحملون السلاح وتكون بينهم مشاجرات دائمة. وإن جنحوا للصلح فلا بد أن يدفع من تبقى المرأة عنده للزوج الأول ما أنفقه في زواجه، وهم متشدّدون في هذا الأمر، ولهم قضاة مختصّون منهم، بحيث إنهم لا يكتفون بسلخ الخصوم المساكين، ولكن ينتزعون قلوبهم.

آيَشْتُــــومْ

آيشتوم(138) جبل شاهق بارد جداً، فيه عيون عديدة وكروم ذات عنب أسود، وتين ممتاز وسفرجل فريد في كبر حجمه وبهائه ورائحته،

---

(137) يرى ابن خلدون أن مرنيسة من نفزاوة، والقبائل المجاورة لها من جهة الغرب صنهاجية.

(138) ما يزال هذا الاسم يطلق اليوم على إحدى القرى في شمال المغرب عند قبيلة متيووا على الضفة اليمنى لنهر ورغة بالقرب من واد كزار.

وكذلك الليمون الحامض، لكن أشجار الليمون توجد بالسهل عند قدم الجبل. وهناك أيضاً عدد كثير من أشجار الزيتون تعطي كميات وافرة من الزيت. والسكان معفون من كل الاتاوات، غير أنهم يقدّمون كل سنة على سبيل الملاطفة لملك فاس هدايا حسنة وافرة، ويمكنهم بذلك أن يذهبوا إلى فاس في أمان تام لشراء القمح والصوف والقماش. وهم يلبسون في الواقع لباس الأشراف، لاسيما أهل القرية الرئيسية حيث يقيم معظم الصنّاع والتجّار والأعيان.

جبل بَني يَدَّرْ

هذا الجبل كبير جداً كثير السكان، لكنه لا يُنتج سوى العنب الأسود الذي يصنع منه الزبيب والخمر. وكان سكانه في القديم معفين من الضرائب، لكنهم كانوا بسبب فقرهم يقتلون الغرباء ويسلبونهم، ولذلك أخضعهم أمير بادس معاناً بقوات ملك فاس وسلبهم حريتهم. وفي هذا الجبل قرابة خمسين قرية لائقة جداً، إلا أنه لا يُستخرج من مجموعها أربعمائة مثقال في السنة.

جبل لُوكَايْ

هو جبل صعب المسالك شديد الارتفاع(139)، سكانه أثرياء جداً لأنه يُنتج كثيراً من العنب الذي يُصنع منه الزبيب، والتين واللوز والزيتون والسفرجل والليمون. وحيث إن هذا الجبل يقع على بعد خمسة وثلاثين ميلاً من فاس، فإن أهله يبيعون جميع فواكههم في هذه المدينة.

يوجد في جبل لوكاي أعيان وفرسان متكبّرون إلى أقصى حد، بحيث لم يقبلوا قط أداء أية إتاوة، فالطبيعة والجبل يحميانهم حماية تامة.

---

(139) تدعى صنهاجة لوكاي اليوم صنهاجة مصباح، ولم يبق محتفظاً باسم لوكاي غير قمة الجبل التي يبلغ ارتفاعها 1629 ميتر.

يقبلون جميع المنفيين من فاس ويُرحّبون بهم ما عدا الزناة، لأن هؤلاء القوم غيورون لا يرغبون في وجودهم بينهم، ويسمح لهم الملك بذلك بسبب الربح الوفير الذي يقدّمه هذا الجبل لمدينة فاس.

بْني وَرَزْوَالْ

يمتد هذا الجبل(140) ثلاثين ميلاً طولاً وخمسة عشر ميلاً عرضاً تقريباً، وينقسم إلى ثلاثة جبال أخرى، تجري بينها وبين الجبلين السابقين أنهار صغيرة. وأهل هذه البلاد شجعان مقدامون، لكن قائد ملك فاس يثقل كاهلهم بالضرائب، فيؤدّون عشرة آلاف مثقال في السنة.

هذا الجبل خصيب حقاً، يُنتج العنب والزيتون والتين والكتّان، وتُصنع فيه كميات عظيمة من الخمر والدبس المطبوخ والزيت ونسيج الكتان الخشن، فيُستخرج من كل ذلك المال اللازم لأداء هذا المبلغ إلى القائد الذي يقوم نوابه ومستخدموه في عين المكان باستمرار، لسمل عيون هؤلاء الجبليين.

عدد القرى والمداشر (في هذا الجبل) لا يُحصى، يضم بعضها مائة كانون، وبعضها مائتين. ويمكن تقدير عدد التجمعات السكنية بنحو مائة وعشرين ما بين قرية ومدشر. وهؤلاء القوم في حرب دائمة مع جيرانهم، فيكثر القتلى بينهم، ويفرض الملك غرامة على الطرفين، بحيث تكون هذه الحروب دخلاً للملك. وفي هذا الجبل مدينة صغيرة متحضّرة جداً تحتوي على كثير من الصنّاع، وتحيط بها أغراس كثيرة من الكروم وأشجار السفرجل والليمون تحمل ثمارها إلى فاس. وتُصنع في هذه المدينة كمية

(140) ينطق بها اليوم «بني زروال»، لكن كتب التراجم القديمة تتحدث عن الوزرواليين، كما تتحدث عن الزرويليين، الأمر الذي يؤكد ما ذهب إليه الحسن الوزان من وجود جبلين لبني زرويل ولبني وزروال.

صالحة من الثياب، وفيها قضاة ومحامون، لأنه عندما يقام السوق يجتمع فيه أناس كثيرون من الجبال المجاورة.

وتوجد بهذا الجبل، في بطن واد، فرجة تشبه باب كهف يخرج منها لهب عظيم باستمرار، لاحظتُ أن كثيراً من الغرباء يقصدون هذا الوادي لمشاهدة هذه النار، ويلقون فيها أغصاناً وقطعاً من الخشب فتحترق على الفور. وهذا أعجب شيء شاهدته من بين الظواهر الطبيعية، ويعتقد بعض الناس أن هذه الفرجة هي فم جهنم.

جبلُ بْني وَرْيَاكُلْ

يُتاخم هذا الجبل(141) سابقه، لكن سكانها يعيشـون في عداء مستمر. وعند قدم الجبل سهل جميل جداً، يحاذي إقليم فاس ويخترقه نهر ورغة. وتُستخرج من هذا الجبل كمية كبيرة من الزيت والقمح والكتان، ويُصنع فيه الكثير من القماش، غير أن الملك الصالح يضع يده دائمًا على أموال الأفراد الخصوصيين، بحيث إن الذين يُفترض فيهم أن يكونوا أغنى الناس هم في الحقيقة أفقر الناس بسبب جـور الملك. وهؤلاء القوم بطبيعتهم أشدّاء شجعان، يكونون نحو اثني عشر ألف مقاتل، وقراهم عظيمة يقل عددها قليلاً عن ستين.

بْني احْـمَد

يمتد هذا الجبل على طول ثمانية عشر ميلاً، ويبلغ عرضه سبعة أميال. وهو وعر جداً، تظهر فيه بعض الغابات وكثير من الكروم والزيتون

---

(141) يفرّق النسابون بين بني ورياكل هؤلاء (بالكاف المعقودة) المستقرين على ضفاف نهر ورغة وبين بني ورياكل (بالكاف العادية) فريق من قبيلة بطوية على ساحل البحر المتوسط، وكلاهما من صنهاجة.

والتين، لكن ليس فيه من الأرض الصالحة للزراعة إلا القليل. يثقل ملك فاس كاهل هؤلاء السكان بالمغارم، ويوجد حول الجبل وعلى منحدراته جداول صغيرة وعيون، لكن ماءها مرٌّ عكر تكاد تكون رواسبه كلها كلسية. وجميع الناس هنا تقريباً مصابون بتضخّم الغدة الدرقية كما ذكرنا ذلك عند غيرهم، وكلهم يشربون خمراً صرفاً تعتّق مدة خمسة عشر عاماً، لكنها تُصنع بعد تخمير قليل، ويصنعون أيضاً نبيذاً غير مخمّر، كما يصنعون كمية وافرة من الدبس المطبوخ ويضعونه في جرار ضيّقة القعر عريضة الفوهة. ويُعقد السوق مرة في الأسبوع، حيث تباع كميات عظيمة من الخمر والزيت والزبيب الأحمر. ويعيش هؤلاء الجبليون في فقر مدقع يتجلّ في لباسهم، وتوجد بينهم عداوات قديمة، وهم مسلّحون باستمرار.

جبلُ بَنْي جَنْفَنْ

يُتاخم هذا الجبل الجبل السابق ممتداً على نحو عشرة أميال، ويجري بينهما نهر صغير، لكن سكانه كلهم سكّيرون يعبدون الخمر، ولا يُجنى من هذا الجبل أي نوع من الحبوب، وإنما يُنتج كميات ضخمة من العنب. وفيه الكثير من الماعز الذي يُحتفظ به دائمًا في الغابات، ولا يؤكل غير لحم التيس أو العنز. وأستطيع أن أتحدّث عن هذا الجبل لأنني كنت على اتصال بهؤلاء الجبليين خلال فترة طويلة من حياتي، إذ كان لأبي أملاك في هذا الجبل، إلا أنه كان يعاني الشدائد لاستخلاص محصول أراضيه الزراعية وكرومه، لأن هؤلاء القوم يماطلون كثيراً عند الأداء.

جبل بَنْي مَسْكَلْدة

يجاور هذا الجبل الجبل السابق ونهر ورغة، ويصنع جميع سكانه الصابون، لأنهم يستخرجون من جبلهم كمية كبيرة من الزيت، لكنهم لا يعرفون كيفية صنع الصابون الصلب. وتمتد سهول كبيرة عند سفح

الجبل هي في أيدي بعض الأعراب الذين هم في حرب مع سكان الجبل في أغلب الأحيان. ويفرض ملك فاس على هؤلاء الجبليين ضرائب جسيمة يجد الذرائع دائمًا للزيادة فيها.

يوجد من بينهم عدد من علماء الشريعة الإسلامية لهم طلاب كثيرون، يُلحقون أكبر الضرر بهذه الجبال، لاسيما في الأماكن التي يستقبلون فيها بالترحاب، فهم يعاقرون الخمر سراً وينهون الناس عن شربها لأنها حرام فلا يثق بهم أحد. ولا تُفرض على أهل البلاد ضرائب ثقيلة، لأنهم ينفقون على الفقهاء والطلبة.

جبل بَنِي وَمُودْ

يُتاخم هذا الجبل إقليم فاس إلا أن النهر فاصل بينهما، ويصنع أيضاً جميع سكان الجبل الصابون، ويستخلص الملك من هذا الصنع ستة آلاف مثقال. وليس بهذه البلاد أكثر من خمس وعشرين قرية، والأراضي الزراعية في كل منحدرات الجبل جيدة. والماشية كثيرة، إلا أن الماء قليل. والحاصل أن جميع السكان أغنياء، يذهبون كل مرة إلى فاس يوم انعقاد السوق، فيبيعون فيه جميع منتجاتهم بربح وفير. ولا ينبت بهذا الجبل أي شيء غير ضروري للحياة البشرية، ويبعد عن فاس بعشرة أميال[142].

(142) لم يبق بنو ومود معروفين بهذا الاسم اليوم. وقد أكّد مرمول وجودهم بضاحية فاس على بعد ثلاثة مراحل اسبانية منها، أي أقل من 17 كيلومتر، وذكر أنهم يقدّمون أربعة آلاف مقاتل. وربما كان النهر المقصود هنا هو ايناون، والحياينة هم الذين حلّوا محل بني ومود.

كَــرْطْ
سادس إقليم في مملكة فاس

لقد وصفنا منطقة الريف ومدنها وأشهر جبالها، وسنتابع الكلام عن كرط سادس إقليم في مملكة فاس.

يبتدىء كرط(143) غرباً عند نهر ملولو(144) وينتهي شرقاً لدى نهر ملوية، وجنوباً في جبال واقعة على تخوم بعض صحراء نوميديا، بينما يحاذي البحر المتوسط شمالاً من نهر نكور إلى ملوية. ويمتد في الجنوب من نهر ملولو(145) إلى جوار جبال الحوز(146)، حيث ينحدر حدّه نحو البحر بمحاذاة وادي نكور.

يبلغ طول هذا الإقليم نحو خمسين ميلاً، وعرضه نحو أربعين ميلاً. وهو شديد الوعورة شديد الجفاف، شبه صحراء نوميديا، ويقل فيه السكان، لاسيما منذ أن استولى الإسبان على أهم مدنه كما سأذكره لكم.

---

(143) كرط: أحد مراسي نكور، على ما عند البكري في **المسالك والممالك** ــ ص 91 ــ ونكور هو صالح بن منصور الحميري فاتح هذا الإقليم الشمالي من المغرب أيام الوليد بن عبد الملك الأموي، فسمي باسمه، ونزل بتلمسان وعلى يده أسلم بربرها من صنهاجة وغمارة ثم ارتدّ أكثرهم. ولا نعرف متى حل اسم كرط محل نكور في الإطلاق على هذا الإقليم.

(144) بل نهر نكور.

(145) أحد روافد ملوية.

(146) يعني المرتفعات الجبلية شرق تازا.

مْلِيلَـــة

مليلة[147] مدينة كبيرة قديمة، أسّسها الأفارقة على رأس خليج بالبحر المتوسط، وفيها نحو ألفي كانون. وقد كانت مزدهرة جداً لأنها كانت عاصمة المنطقة، ولها إقليم كبير يُنتج كمية هامة من الحديد والعسل، ومنه اشتقّ اسمها مليلة الذي يعني العسل في لغة الأفارقة[148].

وفي القديم كان يصاد في المرسى نفسه صدف اللؤلؤ، وكانت مليلة حيناً من الدهر خاضعة للقوط، لكن المسلمين فتحوها بعد ذلك وهرب القوط إلى الأندلس التي تبعد عن المدينة بمائة ميل، وهو عرض البحر في هذا المكان.

وقد أرسل ملك اسبانيا في هذه الأزمنة الحديثة أسطولاً لحصار مليلة، لكن السكان أُعلموا به قبل وصوله، فطلبوا النجدة من ملك فاس الذي كان مشغولاً بحرب ضد قبائل تامسنا، فأرسل إليهم كتيبة خفيفة. أما أهل مليلة الذين كانوا على معرفة تامة بأهمية الأسطول الاسباني، فانهم خافوا ألّا يقدروا على التصدّي للهجوم، فأخلوا المدينة فارّين بأمتعتهم إلى جبال بطوية. ولما رأى ملك فاس ذلك أضرم النار في جميع المنازل وأحرق المدينة عقاباً لأهلها ونكاية في المسيحيين. وكان ذلك عام 896 هجرية. ولما وصل الأسطول بعد الحريق ورأى النصارى المدينة خالية دمّرتها النيران، سقط في أيديهم، لكنهم أبوا أن يتركوها من أجل ذلك، فبنوا فيها حصناً. ورمّموا شيئاً فشيئاً كل أسوارها، وهم اليوم مالكوها.

---

(147) هكذا ورد عند الوزان، وهو الأصل في تسمية هذه المدينة المغربية: مليلة (على وزن سفينة) على ما عند الصديق بن العربي في كتاب المغرب (ص 106) ثم حرفت بالاستعمال فصارت تدعى مليلية.

(148) العسل بالبربرية «تامنت» ومليلة تحريف عربي لكلمة تامليلت بمعنى موقع مدرج، وكذلك كانت مليلة مبنية على منحدر صخري.

غِسَـــاسَة

تبعد هذه المدينة عن السابقة بنحو عشرين ميلاً، وقد كانت محصّنة جداً ومحاطة بأسوار متينة، لها ميناء حسن. كان من عادة سفن البندقية أن تقصده قديماً، وتبرم صفقات تجارية هامة مع أهل فاس تدرّ عليهم أرباحاً وافرة. لكن سوء الطالع أراد أن يكون لملك فاس في بداية حكمه مشاكل خطيرة مع أحد أبناء عمه، فاضطر إلى أن يمكث في مواجهته مع جميع جنده. وابتكر فرناندو ملك اسبانيا مخططاً لاحتلال غساسة فأخذها بدون عناء، لأن ملك فاس لم يتمكن من إنجاد المدينة، وفرّ أهلها عنها قبل سقوطها.

تَزُوطَـــة

تزوطة بلدة من بلاد كرط، واقعة على بعد نحو خمسة عشر ميلاً من غساسة إلى الداخل، وهي مبنية على ربوة عالية جداً، لها درب صغير يؤدّي إليها ويدور حول الهضبة. وليس بداخل المدينة ماء غير ماء الخزّان. وكان مؤسسو تزوطة من أسرة بني مرين قبل أن يُصبحوا ملوك البلاد، يحفظون فيها حبوبهم وأمتعتهم، وبذلك كانوا يستطيعون الانتجاع في الصحاري بكل طمأنينة، إذ لم يكن في ذلك العصر أعراب في كرط. لكن ما إن استلم بنو مرين مقاليد الحكم حتى تركوا إقليم كرط لبعض جيرانهم مهتمين بأقاليم أكثر أهمية، إلى أن زحف يوسف بن يعقوب بجيشه على ملك تلمسان، فقيّده حصارها، وثار عليه أمير تزوطة في جميع جنده لاستلاب بعض ممتلكات الملك. استنفر الملك جيشاً أرسله بقيادة أحد اخوته لمحاربة الثائر، فاتجّه الجيش نحو تزوطة وحاصرها طوال شهرين تقريباً، إلى أن سقطت وخرّبت بأمر من ملك فاس، وظلت خربة إلى أن استولى الاسبانيون على غساسة، فطلب أحد قوّاد ملك فاس، وهو من أصل أندلسي وعلى جانب كبير من الشجاعة، أن يُؤذن له بإعادة بناء

تزوطة، وأذن الملك بذلك فأعيد بناء المدينة. وتقوم اليوم بين نصارى غساسة ومسلمي تزوطة حرب دائمة وغارات متوالية، تكون الدائرة يوماً فيها على هؤلاء ويوماً على أولئك.

مدينة أمَـجَّاوْ

أمجاو مدينة صغيرة جاثمة فوق جبل عال على بعد نحو عشرة أميال غربي تزوطة، بناها الأفارقة على مسافة نحو ستة أميال من الساحل، وسكانها نبلاء كرماء، وعند قدم الجبل الذي بنيت عليه المدينة سهل يُنتج القمح، وفي جميع الجبال المجاورة مناجم حديد يعمر العمال المشتغلون فيها العديد من المداشر والقرى.

آلت إمارة هذه المدينة إلى فارس شاب مقدام ينتمي إلى أسرة الموحّدين الملكية، وكان أبوه فقيراً جداً ينسج الكتّان فعلّم ابنه هذه المهنة. أحسّ هذا الشاب بسمو نفسه وعرف نبل محتده، فترك أقمشته وذهب إلى بادس، حيث التحق بجيش أميرها كفارس عادي ليتعلم المهنة العسكرية. ولما كان أيضاً يحسن العزف على العود، فإن الأمير استخدمه كذلك موسيقياً في بلاطه. وفي هذه الأثناء أراد أمير تزوطة أن يشنّ غارة على النصارى، وطلب من أمير بادس أن يُنجده ببعض الفرسان، فبعث إليه بثلاثمائة فارس، من بينهم هذا الشاب النبيل. وقد برهن صاحبنا في هذه الموقعة وفي غيرها على شجاعة عظيمة وعزيمة قوية، لكن الأمير لم يقدّره قدره ولم يعترف إلا بقيمته كموسيقي. تألّم الشاب من ذلك وترك الأمير، واستدعى بعض أصحابه من فرسان كرط فساعدوه على الاستيلاء على قلعة أمجاو. وبقي معه خمسون فارساً كان ينفق عليهم عدد من أصدقائهم الجبليين معتمدين على مواردهم الشخصية. وحينئذ أرسل أمير بادس ثلاثمائة فارس وألف راجل لإخراجهم من القلعة، لكن هذا الشاب النبيل مع بعض رجاله تمكّن من هزيمتهم، فطارت شهرته لدرجة أن ملك فاس أقرّه

في الحكم وصرف إليه المعونة التي كان بيت المال يقدّمها لأمراء بادس لحماية المملكة ضد الاسبان. وقد تعلّم الغاربة من هذا الرجل كيف يدافعون عن أنفسهم، الأمر الذي جعل ملك فاس يضاعف له الأجر. ويسوس هذا القائد مائتي رجل يعادلون أكثر من ألفين من فرسان قواد الأمراء المجاورين له.

جبل كَبْدَانَة

يمتد هذا الجبل من غساسة إلى نهر ملوية شرقاً، ومن البحر المتوسط إلى صحراء كرط جنوباً، وكان معموراً بكثير من الرجال الأغنياء الأبطال، منتجاً لكميات عظيمة من العسل والشعير والماشية، لجودة أرضه، ولكون جميع المناطق المجاورة له هي عبارة عن مراع فسيحة، غير أنه لما سقطت غساسة بيد الاسبان، لم يستطع هؤلاء الجبليون أن يستقرّوا في بلادهم، لأن قراهم كانت متباعدة جداً بعضها عن بعض ومنقسمة على نفسها، فتركوها وأحرقوا بيوتهم بأيديهم وذهبوا بأمتعتهم إلى جبال أخرى فسكنوها.

جبل بني سعيد

يمتد هذا الجبل من غساسة إلى نهر النكور غرباً، أي على مسافة نحو أربعة وعشرين ميلاً، وتتقاسمه عدة قبائل، كلها غنية ومكوّنة من رجال شجعان وكرماء جداً، حتى إن التجار والمسافرين الذين يقصدون هذا الجبل لا ينفقون شيئاً من أموالهم. وتستخرج من الأرض كمية كبيرة من الحديد، وينبت فيها كثير من الشعير. والماشية وفيرة بسبب السهل الكبير الذي يستغلّه أهل البلاد والذي لا يشكو أبداً من قلة الماء. ولا يدفع السكان أية ضريبة، ولكل عامل في المعدن داره قرب المنجم مع ماشيته ومعمله الذي يصفي فيه الحديد، وينقل التجار هذا الحديد إلى فاس في

شكل سبائك، لأن عمال المعادن لا يعرفون كيف يحوّلونه إلى قضبان. وما لا يباع منه يُستخدم آلات كالمجارف والفؤوس والمناجل، وكذلك لصنع أسلحة لهؤلاء الفلاحين، إذ لا يمكن استخلاص الفولاذ من هذا الحديد.

جبل أَزْكَنْكَنْ

يُتاخم هذا الجبل[149] بلاد غساسة من ناحية الجنوب، ويحتوي على عدد كثير من الرجال الشجعان الأثرياء، لأن إنتاجه لا يقل عن إنتاج الجبال السابقة، وله مزية أخرى هي أن صحراء كرط تقع في سفحه، بحيث إن سكان هذه الصحراء يقومون بتجارة كبيرة مع هؤلاء الجبليين. وقد ظلّ جبل أزكنكن هو الآخر مهجوراً من سكانه على أثر سقوط غساسة.

جبل بَنِي تُوزِينْ

يتاخم هذا الجبل الجبل السابق من جهة الجنوب، ويمتد على مسافة نحو عشرة أميال بين صحراء كرط ونهر النكور. ولهذه الكتلة الجبلية نحو ستة عشر ميلاً، تحيط بها السهول من جهة، والسكان أحرار يزرعون أرضهم دون أداء أية إتاوة، لا لقائد تزوطة، ولا لأمير أمجاو، ولا لأمير بادس؛ لأن عندهم من الفرسان ضعف ما عند هؤلاء الثلاثة جميعاً، فضلاً على ما لهم من دالة على أمير أمجاو بسبب مساعدتهم إياه في تقلّد إمارته. ويجاملهم أيضاً ملك فاس لأنهم أصدقاء أسرته منذ القديم قبل أن تصبح أسرة مالكة.

لذلك فإن أحد هؤلاء الجبليين، وهو رجل عالم ذو مكانة كبيرة كان

(149) يقع جبل أزكنكن مباشرة جنوبي تزوطة، على بعد 27 كلم من مليلة.

يشتغل بمهمة وكيل بفاس، استطاع أن يصون حرية مواطنيه، إذ كثيراً ما كان يذكّر الملك بفضائل أجداده. وكانت هذه الصداقة مع بني مرين أكبر من ذلك أيضاً في الزمن القديم لأن أم أبي سعيد، ثالث ملوك هذه الدولة، كانت بنت وجيه كبير من هذا الجبل(150).

جبل وَرْدَانْ

يتاخم هذا الجبل الجبل السابق من الشمال، ويمتد على طول نحو اثني عشر ميلاً باتجاه البحر المتوسط، وعلى عرض ثمانية أميال حتى نهر النكور، وسكانه شجعان أثرياء كالسابقين، يقيمون يوم السبت سوقاً كبيراً على ضفة نهر صغير، يلتقي فيه معظم فلاحي كرط، ويأتي إليه كذلك عدد مهم من تجّار الحديد. وتتم المبادلات التجارية بأجهزة الخيل وبالزيت في مقابل الحديد، إذ لا تنتج بلاد كرط الكثير من الزيتون، ولا يفكر أحد هنا في صنع الخمر، لأنهم لا يشربونها ولو أنهم مجاورون للريف الذي يعاقر سكانه الخمر. وقد ظلّ سكان الجبال حيناً من الدهر أتباعاً لأمير بادس، لكنهم حصلوا من ملك فاس، بفضل عالم خطيب منهم، على أن تكون ضريبتهم حسب تقديرهم، ولذلك تراهم يقدّمون للملك كل عام عدداً من النقود والخيل والخدم، لكنهم لم يعودوا يقبلون الخضوع لأمير بادس.

صحراء كَرْطْ

تنقسم منطقة كرط إلى ثلاثة أقسام، يشمل الأول المدن وإقليمها، والثاني الجبال التي تحدّثنا عنها ويحمل سكانها إجمالاً اسم بطوية، والثالث صحراء تبتدىء شمالاً عند البحر المتوسط، وتمتد جنوباً إلى صحراء منطقة

(150) يبدو أن أم أبي سعيد المريني المولود عام 675/1276، هي عائشة بنت أحد رؤساء أعراب الخلط (؟).

الحوز، وتتاخم غرباً الجبال المذكورة آنفاً، وتنتهي شرقاً على نهر ملوية. يبلغ طولها نحو ستين ميلاً، وعرضها ثلاثين. وكلها جافة وعرة لا يوجد فيها ماء إلا في ملوية. ويعيش في هذه الصحراء عدد وافر من الحيوانات التي لا يوجد مثلها إلا في صحراء ليبيا المتاخمة لنوميديا. ومن عادة الكثير من الأعراب أن يقيموا بها في الصيف قرب ملوية، وكذلك القبيلة التي تدعى البطالسة(151)، وهي شرسة تملك عدداً عظيماً من الخيل والغنم والإبل. وكثيراً ما يكون هؤلاء الرعاة في حرب مع من يجاورهم من الأعراب.

(151) المطالسة حالياً.

الحَـوْزْ
سابعُ إقليم في مملكة فاس

يعتبر اقليم الحوز ثلث مملكة فاس، ويمتد من نهر زاع شرقاً إلى نهاية نهر تيكريكرة غرباً، أي على مسافة نحو مائة وتسعين ميلاً. كما يمتد عرضاً على مائة وأربعين ميلاً أو أكثر، لأن جميع عرض جزء الأطلس المقابل لموريطانيا واقع في هذا الاقليم. ويشتمل الحوز أيضاً على قسم كبير من السهول المتاخمة لليبيا. وفي الزمن الذي احتل فيه عبد الحق، أول ملوك بني مرين، موريطانيا والمناطق المجاورة لها، وزع هذه الأراضي بين أفخاذ قبيلته وبين أبنائه الأربعة؛ وكان أولهم يدعى أبا بكر، والثاني أبا يحيى، والثالث أبا سعيد، والرابع يعقوب بويع ملكاً لأنه هو الذي طرد الموحدين ملوك مراكش وقضى عليهم. وقد مات أسلافه الثلاثة قبل أن يحتلوا مراكش فلم يتلقبوا بلقب الملوك(152).

وهكذا خصصت أربعة أقاليم لأبناء عبد الحق، والأقاليم الثلاثة التي لم تقسم بعد قسمت إلى سبعة أقسام خصصت لفروع قبيلة بني مرين الأربعة، ولقبيلتين أخريين من أقاربهم المجاورين لهم، فنتج عن ذلك أن

---

(152) بعد مقتل رأس الاسرة المرينية الأمير عبد الحق بن محيو خلفه أربعة من أبنائه بالتتابع: أبو سعيد عثمان، فأبو معرف محمد، فأبو يحيى أبو بكر، فأبو يوسف يعقوب المنصور. ويذكرون أن عدد أبناء عبد الحق تسعة، وبنت هي العاشرة، انظر أ. الناصري، **الاستقصا**، 3 :5-20.

اعتبر اقليم الحوز مقابلاً لثلاثة أقاليم، إذ كان عدد المشاركين في هذا التوزيع عشرة، والأقاليم الموزعة سبعة. وكان الأمير عبد الحق أول من قسم هذه الأقاليم إلى نفس العدد من الأقسام، وهو الذي اعتبر أن الحوز هو القسم الرئيسي، كما سنرى ذلك عندما نصفه مدينة مدينة وجبلاً جبلاً، وموقعاً موقعاً.

تَـوْرِيـرْتْ

هي مدينة قديمة بناها الأفارقة على تلٍ مرتفع قرب نهر زاع. تحيط بها أراض زراعية جيدة، لكنها لا تمتد بعيداً لمحاذاتها صحراء وعرة جافة، وتتاخم هذه الصحراء من الشمال صحراء كرط، ومن الجنوب صحراء الظهرة، ومن الشرق صحراء أنكاد حيث تبتدىء مملكة تلمسان؛ ومن الغرب صحراء تفراطة المتاخمة لمدينة تازا.

كانت توريرت مدينة متحضرة آهلة بالسكان، تحتوي على نحو ثلاثة آلاف كانون، وعلى قصور جميلة ومساجد مبنية بالحجر الكلسي، غير أنه لما استولى بنو مرين على مملكة الغرب أصبحت هذه المدينة موضع نزاع وميدان حروب عديدة. فقد رغب المرينيون في أن تتبع توريرت مملكة فاس، بينما أراد بنو زيان ملوك تلمسان أن يضموها إلى مملكتهم، فأدى ذلك إلى أن احتلها بنو مرين ودمروا قسمًا كبيراً منها كان يسكنه أعداؤ هم. ولما اشتغلوا بعد ذلك بحروب مراكش واستأثرت بهم حوادثها الخطيرة حتى لم يعودوا يولون أمر توريرت كبير اهتمام، وثب عليها ملك تلمسان فاستردها وخربها ونهب الجانب الذي كان يسكنه أعداؤه منها. وما كاد يعقوب المريني يستولي على مراكش حتى أسرع إلى توريرت واستردها، وهكذا استبدلت توريرت رؤساءها عشر مرات في ظرف خمسين سنة، تارة تخضع لملك فاس، وتارة لملك تلمسان، إلى أن دمرت أخيراً وهجرت في الحرب الأخيرة التي شنها أحمد حادي عشر ملوك بني مرين بفاس، عام 780

للهجرة. وبعد ذلك أقطعوها لأحد رؤساء الأعراب، ورأى سكانها القليلون أنهم بعد أن هدتهم تلك الحروب أصبحوا تحت رحمة هؤلاء الأعراب، فغلبهم اليأس وعزموا على الهجرة وترك المدينة، وذات ليلة فروا إلى ندرومة، وهي مدينة تابعة لملك تلمسان. وبقيت تورريت خالية موحشة كما نراها اليوم. وما زالت لحد الآن أسوارها وأبراجها وبيوتها قائمة سليمة لم تتهدم منها غير السقوف.

هَـدَّاجِيَة

كانت هداجية مدينة صغيرة من بناء الأفارقة في موقع يشبه الجزيرة، إذ يصب بالقرب منها نهر ملول في نهر ملوية. وكانت قديماً مدينة كثيرة السكان متحضرة، لكنها أخذت في الانحطاط منذ أن فتح العرب المغرب، لمجاورتها صحراء الظهرة، حيث تعيش قبائل من الأعراب الأشرار. وقد دمرت هداجية تماماً بعد تدمير تورريت، ولم يبق منها سوى الجدران التي ما تزال ماثلة حتى اليوم.

كَـرْسِيف

هو قصر قديم جداً مشيد فوق صخرة قرب نهر ملوية، على بعد نحو خمسة عشر ميلاً[153] من تورريت. وكان هذا القصر قصبة قبيلة بني مرين، تخزن فيه حبوبها عندما كانت تسكن الصحراء، ثم تحول إلى مقر إمارة على يد أبي عنان خامس ملوك بني مرين[154]. ولا يوجد في السهل الذي يحيط بهذا القصر سوى القليل من الأراضي الزراعية، ليس فيها غير بعض البساتين الصغيرة المغروسة بالكروم وأشجار الخوخ والتين. ونظراً لوقوع

---

(153) بل 25 ميلاً.

(154) بل هو سابع ملوك بني مرين، ولي الملك من عام 1348/749إلى عام 1358/759.

هذا القصر في قلب الصحراء، فإن هذه البساتين في مثل هذا المكان، تبدو وكأنها جنة آدم.

وسكان كرسيف خشنون ليس لهم أدنى تربية، عملهم الوحيد هو حراسة الحبوب المخزونة في القصر لحساب سادتهم الأعراب. ومنظر هذا القصر بشع من الخارج كأنه خربة محروقة، جدرانه متهدمة سوداء، وكذلك جميع المنازل المكسوة بحجارة سوداء.

مدينة دَبْدُو

دبدو مدينة قديمة أسسها الأفارقة على منحدر جبل شاهق منيع جداً باستحكاماته الطبيعية. ويسكن المدينة فرع من شعب زنانة. وينزل من حدور الجبل عدد كثير من مجاري المياه تمر بداخل دبدو. وتقع المدينة على بعد خمسة أميال من السهل، غير أنه لا يظن أنها على بعد أكثر من ميل ونصف عندما ينظر المرء إليها من سفح الجبل، ويمتد الدرب المؤدي إليها في منعرجات لابد من تتبعها في جانب الجبل. وجميع الممتلكات المزروعة واقعة على المرتفعات، لأن السهل المحيط بها قاحل تماماً. وهناك بعض الحدائق الصغيرة على ضفاف جدول يجري في سفح الجبل. ولا تسد المزروعات القائمة على المرتفعات حتى نصف حاجات سكان المدينة، ولذلك يجلب إليها القمح من بلاد تازا.

وقد بنيت دبدو لتكون معقلاً لفرع من قبيلة بني مرين على أثر تقسيم مناطق الغرب على يد عبد الحق. وآلت المنطقة التي تقع فيها دبدو إلى قبيلة تدعى بني ورتاجن، وما تزال تملكها حتى الآن. ولما فقد بنو مرين مملكة فاس، حاول الاعراب المجاورون انتزاع إمارة دبدو من بني ورتاجن، لكن هؤلاء دافعوا عن أنفسهم ببسالة بفضل معونة المسمى موسى بن حمو أحد رجال هذه القبيلة، فاضطر الأعراب إلى عقد معاهدة معه، وبقي موسى أميراً على المدينة بقية حياته. وخلفه من بعده ابن له يدعى أحمد كان يشبه

أباه من جميع الوجوه. وخلف أحمد هذا ابنه محمد الذي كان حقاً من رجال الحرب البارزين، وغزا قبل توليه الحكم عدة مدن وقصور في سفح الأطلس نحو الجنوب على تخوم نوميديا. ولما آل إليه حكم مدينة دبدو زينها بعدد من البنايات، ووصل بها إلى مستوى عال من الازدهار. وقد أبدى كثيراً من الأريحية والبشاشة تجاه الغرباء وأبناء السبيل الذين يمرون بهذه المدينة، وعامل كل واحد منهم معاملة شريفة، وغمرهم بإحسانه، وقام بنفقاتهم أحسن قيام، إلى أن طار صيته بين العديد من القبائل.

ولم يعدم أناساً نصحوه بانتزاع تازا من يد ملك فاس، ووعدوه بأن يمدوه بكل ما يحتاج إليه من معونة لتحقيق ذلك، وتم حبك المؤامرة التالية: يذهب محمد في يوم من أيام السوق إلى تازا، في زي رجل جبلي، متظاهراً بشراء ما يحتاج إليه كسائر الناس، فينقض المتآمرون حينئذ على قائد تازا ويسهل الأمر، لأن السكان سيساعدونهم. غير أن المؤامرة افتضحت، وبادر ملك فاس، وهو (محمد) الشيخ أبو الملك الحالي، بالزحف إلى دبدو لاحتلالها، ومعه أكثر ما أمكنه أن يجمع من الجند. ولما وصل إلى سفح الجبل رتب جيشه للقتال، لكن الجبليين الذين كان عددهم ستة آلاف تراجعوا مكراً وخديعة، وتركوا قسماً من جنود الملك يتوغلون في منعرجات الجبل الضيقة التي يعسر الخروج منها. ولما وصلوا إلى حيث أراد الجبليون، انقض هؤلاء بحماسة وقوة على جنود الملك المرهقين بالتعب. ولما كانت الطريق ضيقة وعرة فإن جنود الملك عجزوا عن صد الهجوم ولجأوا إلى الفرار فكان بعضهم يمنع البعض من التقهقر، وأخذوا يسقطون من أعلى الصخور فدقت أعناق أكثر من ألف رجل، وأناف عدد قتلاهم على ثلاثة آلاف.

لم يتخل الملك عن مشروعه على أثر الفشل، وقرر القيام بهجوم عام على المدينة بما كان لديه من خمسمائة من قاذفي السهام، وثمانمائة من أصحاب البندقيات الخفيفة. وقد أدرك محمد أنه لن يستطيع الدفاع عن

نفسه، وفكر في أن يستسلم للملك، فتزيًا بزي رسول وتقدم إلى خباء الملك ليسلمه خطاباً كتبه بيده باسم أمير دبدو، وهو الأمير نفسه، ولم يكن أحدهما يعرف الآخر. أمر الملك بأن يقرأ الخطاب وطلب من الرسول رأيه في أميره، فأجابه: «أعتقد أن أميري مجنون حقاً، لكن الشيطان يستطيع أن يضل الكبار والصغار!» فصاح الملك قائلاً: «والله لو سقط في يدي كما أتمنى ذلك لسلخت جلد ظهره ومزقته حياً اربا اربا!» فأجاب الرسول: «لو ارتمى بين قدمي جنابك ملتمساً العفو والصفح عن خطيئته فكيف تعامله؟» فرد الملك قائلاً: «في مثل هذه الحالة، وحياتي لو أنه برهن هكذا عن اعترافه بالإساءة إلي، فإني لن أصفح عنه فحسب، ولكنني سأربطه معي بروابط القرابة، وأزوج اثنتين من بناتي بـاثنين من بنيه، وأقره في حكمه، وأضيف إلى ذلك ما أراه أهلاً له من صلات، لكنني لا اخاله فاعلاً ما دام مجنوناً». فقال الرسول: «انه سيفعل ذلك إذا أكد جنابكم وعـده بمحضر من أعيان الحاشية!» قال الملك: «أظن أن الكفاية حاصلة في الأشخاص الأربعة هنا، فهذا كاتبي الأول، والثاني قائدي العام، والثالث صهري، وذلك الشيخ الكريم هو قاضي قضاة فاس وشيخ الجماعة بها. فلما سمع محمد هذا الكلام ارتمى بين قدمي الملك قائلاً: «هذا هو المذنب الذي لا ملجأ له إلا عفوك!» ذهل الملك والحاضرون وعجبوا مما حدث. وقال له الملك: «لست والله مجنوناً كما كنت أحسب!» ثم ضمه إليه وقبله ليشعره بأنه قبل مصاهرته، وأمر فوراً باحضار اثنتين من بناته فزوجهما من ابني محمد، ثم تناولا طعام العشاء معاً. وفي الغد رحل الملك بمحلته راجعاً إلى فاس، ومعه صهراه ولدا أمير دبدو.

وقد عانت جيوش فاس الأمرين في هذه الحركة، لأنها وقعت في شهري يونيه ويوليه، ولأن البادية شديدة الحر والجفاف على مسافة ثمانين ميلاً الفاصلة بين دبدو وتازا، بحيث لا يوجد الماء إلا في ثلاثة معسكرات، فاضطر الجنود إلى الاسراع لقطع هذه المناطق الحارة، ومات

الكثير منهم من شدة الحر في الذهاب والاياب، وذلك عام 904 للهجرة. وكان هذا الشيخ الأمير بقيد الحياة عام 921 حينما خرجت من فاس ونزلت عنده في دبدو، فأحاطني بعناية فائقة بسبب رسائل التوصية التي كنت أحملها من الملك ومن أحد اخوته زوج احدى بنات هذا الأمير. وأقمت هنالك يومين فسألني خصوصاً عن حاشية ملك فاس واخوته.

مدينة تَازَا

تازا مدينة كبيرة لا يقل نبلها عن قوتها، وتعيش في رخاء على أرض خصبة. أسسها الأفارقة القدماء على بعد نحو خمسة أميال من الأطلس، وتبعد تقريباً عن فاس بنحو 50 ميلاً، وعن البحر المحيط بـ 130 ميلاً، وعن البحر المتوسط بـ 7 أميال[155] مروراً بصحراء كرط عندما يتجه المرء إلى غساسة. تشتمل هذه المدينة على ما يقرب من خمسة آلاف كانون، لكن دورها غير جميلة، باستثناء قصور الأشراف والمدارس والمساجد المبنية بجدران في غاية الاتقان. وينحدر من الأطلس نهر صغير يمر بالمدينة ويخترق الجامع الكبير، ويغير الجبليون أحياناً مجراه عندما يختصمون مع سكان المدينة، ويصرفونه إلى مكان آخر فتتأذى المدينة كثيراً، إذ لا يمكن حينئذ طحن الحبوب ولا الحصول على ماء صالح للشرب، ويضطر السكان إلى الاكتفاء بماء الخزانات العكر. ثم يرد الجبليون الماء إلى المدينة عندما يعود السلام.

تحتل هذه المدينة الدرجة الثالثة في المملكة من حيث المكانة والحضارة، ففيها جامع أكبر من جامع فاس، وثلاث مدارس، وحمامات وفنادق كثيرة، وأسواق منتظمة كأسواق فاس. وسكانها شجعان كرماء

(155) يظهر أن خلطاً في الأرقام وقع هنا أيضاً، والصواب أن تقرأ مرتبة هكذا: 80 و 250 و 75 ميلاً.

بالقياس إلى أهل فاس، من بينهم عدد كثير من العلماء والأخيار والأثرياء، لأن أراضيها تنتج أحياناً ثلاثين ضعف مايبذر فيها. وحول المدينة شعب تسقيه جداول ماء في غاية الجمال، وتكثر فيه بساتين تنتج كميات وافرة من ألذ الثمار، وكروم تعطي محصولاً طيباً من العنب الأبيض والأحمر والأسود، يعصر منه اليهود الذين لهم نحو خمسمائة دار في المدينة خمراً في غاية الجودة، يقال انها أجود خمور هذه النواحي كلها. وما زالت تشاهد بتازا قصبة جميلة كبيرة يسكنها عامل المدينة.

ومن عادة ملوك فاس لهذا العهد أنهم يقطعون هذه المدينة لثاني أبنائهم. ومن الواجب ــ والحق يقال ــ أن تكون حاضرة المملكة لطيب هوائها شتاء وصيفا. وكان ملوك بني مرين يقيمون بها الصيف كله، لا لهذا السبب فحسب، ولكن أيضاً لحراسة البلاد وحمايتها من أعراب الصحراء الذين يأتون كل سنة ليمتاروا حاملين تمور سجلماسة قصد استبدالها بالحبوب. ويكسب أهل المدينة ربحاً وافراً من الحبوب التي يبيعونها للأعراب بثمن مرتفع.

وباختصار، فإن تازا محظوظة جداً، سواء فيما يخص المدينة ذاتها أو السكان. وليس فيها شيء مزعج غير الوحل الذي تمتلىء به شتاء.

ذهبت إلى تازا واتصلت بشيخ مشهور عند العامة بالصلاح، وكان واسع الثراء من محصول أملاكه ومن الهبات التي يقدمها له أهل تازا وأهل فاس، ويشد الفاسيون الرحال لزيارته من مسافة خمسين ميلاً(156). وكنت من الذين يرتابون فيما يفعله هذا الشخص قبل أن أراه، فلما رأيته تبين لي أنه كسائر الناس، لا يعمل إلا أشياء (عادية) تخدع العامة.

ولتازا أراض شاسعة تضم جبالاً كثيرة تسكنها قبائل شتى، حسبما سنفصله.

---

(156) تقدم أن المسافة بين تازا وفاس 80 ميلاً، لا 50.

جبل مْطَغْرَة

هذا الجبل[157] شامخ جداً صعب المرتقى، لأنه مغطى بغابة كثيفة ذات منعرجات في غاية الضيق، يبعد عن تازا بنحو خمسة أميال. وفي أعلاه أراض زراعية جيدة وبعض العيون، ولا يدفع سكانه خراجاً، يحصدون القمح والكتان ويصنعون الزيت. لهم كمية كثيرة من الماشية لاسيما الماعز، وقلما يحترمون ملوكهم. فبعد أن هزموا مرة جنود ملك فاس اختطفوا القائد وطلعوا به إلى جبلهم حيث مزقوه ارباً ارباً تحت أنظار الملك، ولذلك لم يمنحهم الملك قط صداقته التي لم يعتدوا بها شيئاً. وفيهم نحو سبعة آلاف محارب، لأن لهم ما يقرب من خمسين قرية.

جبل غِيَاثَة

يشبه هذا الجبل الجبل السابق في أنه عسير المرتقى، ويقع على بعد نحو خمسة أميال من تازا، مشتملاً على أراض زراعية جيدة في القمة والمنحدرات، تنبت فيها كمية عظيمة من الشعير والكتان. يمتد من الشرق إلى الغرب على مسافة قرابة ثمانية أميال طولاً وخمسة أميال عرضاً. وهناك عدة شعاب مكسوة بغابات تكثر فيها القرود والفهود، ويشتغل السكان بالحياكة، وهم شجعان كرماء، لا يقدرون على الاتجار في السهل لأنهم لا يخضعون لملك فاس ولا يقدمون له أية ضريبة، بسبب كبريائهم وطبيعة جبلهم الذي يمكنهم من الصمود أمام حصار يدوم عشر سنوات، لأنهم يجدون في نفس المكان كل ما يحتاجون إليه، فضلاً عن عينين نضاختين تكونان نهرين.

---

(157) مطغرة اسم قبيلة كبرى من قبائل البربر، انتشر أفرادها في أقطار المغرب الثلاثة، انظر كتابنا الحركة الفكرية، 2 :580.

جبل مْكَّاصَّة

جبل مكاصة[158] صعب موحش مغطى بالغابات، لا ينبت فيه سوى القليل من القمح، لكن يكثر فيه الزيت، وينسج جميع السكان الأقمشة، لأنهم يجنون كمية لا بأس بها من الكتان. وهم شجعان كانوا راجلين أو راكبين، شديدو البياض لأن جبلهم عال وبارد. ولا يؤدون أية ضريبة، ويمكنهم ايواء المنفيين من فاس. يملكون العديد من الحدائق والكروم، ولا يشرب أحد منهم الخمر، ويعطي هذا الجبل حوالي ستة آلاف محارب، لأنه يضم أربعين قرية كبيرة ومزدهرة.

جبل البْرَانِس

يقع هذا الجبل على بعد خمسة عشر ميلاً شمال تازا، وتسكنه قبيلة غنية قوية تملك الكثير من الخيول ولا تؤدي أية ضريبة. ينبت كثير من القمح في هذا الجبل، وتنتشر فيه حدائق وكروم العنب الأسود، لكن لا تعصر فيه خمر. نساء هذا الجبل بيضاوات بدينات يتزين بكثير من حلى الفضة، لأن القوم أثرياء. والرجال غضوبون حقاً وذوو جرأة كبيرة، فالويل لمن يغامر مع نسائهم، وكل إساءة أخرى تتضاءل عندهم أمام هذه الاساءة.

بني وَرْطْنَاجْ (تْسُولْ)

هذا الجبل شاهق صعب المرتقى لما يوجد فيه من غابات وصخور، ويبعد عن تازا بنحو ثلاثين ميلاً، ينبت فيه القمح والكتان والزيتون والليمون الحامض والسفرجل الجميل المعطر، وتكثر فيه البهائم. ما عدا

(158) لم تعد مكاصة اليوم سوى قبيلة صغيرة على الضفة اليمنى لواد بوهلو الرافد الجنوبي لنهر ايناون.

الخيل والبقر فإن عددها قليل، والسكان شجعان كرماء، يرتدون لباساً لائقاً كلباس الحضريين، وعدد القرى نحو خمس وثلاثين تعطي ثلاثة آلاف محارب من الشجعان المجهزين أحسن تجهيز.

جبلُ وَبْلاَنْ (بُويَبْلاَنْ)

وبلان[159] جبل شاهق شديد البرودة كثير الاتساع، يقارب طوله ستين ميلاً وعرضه خمسة عشر ميلاً، ويجاور شرقاً جبال دبدو، وغرباً جبل بني يازغة، ويبعد عن تازا بنحو خمسين ميلاً، ويظهر الثلج بقمته في جميع فصول السنة.

وكانت تسكنه في القديم قبيلة كبيرة غنية شجاعة تعيش في حرية دائمة، الى أن طغت فاجتمعت قبائل الجبال المجاورة وتحالفت ضدها، واستولوا على الجبل وقتلوا جميع الرجال، ثم أحرقوا كل القرى، ولذلك فهو الآن خال من السكان.

وحدث أن اعتزلت في قمة هذا الجبل أسرة من أهله عندما رأت طغيان أقربائها الذين انضموا إلى الآخرين ليعيثوا في الأرض فساداً، فاستقرت هناك مع أولادها وقليل من المال الذي كانت تملكه، وعاشت عيشة بسيطة زاهدة، فتركوها وشأنها. وما زال أحفاد هؤلاء القوم يسكنون في نفس المكان. ونظراً لكونهم متأدبين يعيشون مستقيمين، فان لهم مكانة كبيرة عند ملك فاس. وكان هنالك في أيام شبابي شيخ عالم جداً على جانب من الشهرة جعلت ملك فاس يستعمله كوسيط في جميع معاهدات الصلح والاتفاقيات التي يبرمها مع قبائل الأعراب. وكانت الخلافات تعرض عليه كرجل صالح، ولذلك كرهته حاشية الملك أشد كراهة.

---

(159) يعني «بويبلان» باللهجة البربرية «ذا الأبيض» لظهور الثلج في قمته طوال السنة، ويبلغ ارتفاعه عن سطح البحر 3.910 ميتر.

بني يَسْتِيتَنْ

يخضع هذا الجبل لحكم أمير دبدو، وتسكنه قبيلة من الرعاع، يمشون حفاة ويلبسون اسمالاً حقيرة ويسكنون أكواخاً من قصب. وإذا أراد أحدهم أن يتجول في هذه المنطقة فتل لنفسه نعلاً من أسل (حلفاء)، وقبل أن يتم فتل الزوج الثاني يكون الزوج الأول قد بلي. ومن هنا نتصور كيف يحيا هؤلاء السكان. فهم ذوو متربة، لا ينبت في جبلهم سوى الدخن الذي يصنعون منه الخبز، كما يصلح أيضاً لإعداد أطعمة أخرى. وفي سفح الجبل بساتين تنتج كثيراً من العنب والتمر والخوخ، تنزع النواة من الخوخ ويقسم إلى أربعة أجزاء ويجفف في الشمس، وبذلك يحتفظ به طوال السنة ويعتبر طعاماً شهياً جداً.

وفي منحدرات الجبل مناجم حديد، يعالج فتصنع منه صفائح تحذى بها الخيل، وتستعمل نفس الصفائح كعملة، إذ لا نقود في البلد أو هي نادرة جداً. ومع ذلك فإن هؤلاء الجبليين يحصلون من حديدهم على دخل لا بأس به، لأنهم يبيعون منه كمية كبيرة. ويصنعون منه الخناجر كذلك إلا أنها لا تقطع شيئاً. وتتحلى النساء بخواتم واقراط من حديد، ولباسهن أسوأ من لباس الرجال، يذهبن دائماً إلى الغابة للاحتطاب ورعي الماشية. والتعليم منعدم، فلا أحد يعرف القراءة، وهم يسرحون كالأغنام بدون تفكير ولا ذكاء.

وقد حكى لي قاضي القضاة لدى أمير دبدو حكاية مضحكة تصفهم تماماً، قال: أرسل أمير دبدو إلى هذا الجبل نائباً، وهو رجل ذكي جداً، فعشق فلاحة ولم يدر كيف يقوم بمغامرته الغرامية، لأن المرأة كانت متزوجة ولا يتركها زوجها وحدها أبداً. وذات يوم رآهما ذاهبين إلى الغابة يسوقان دابة لحمل الحطب. ولما وصلا إلى الغابة، ربط الزوج الدابة إلى غصن شجرة، وافترق هو وزوجته يقطعان الحطب. ظل الرجل يرقبهما، ولما ابتعدا ذهب

إلى الشجرة وأطلق الحمار الذي أخذ يبتعد شيئاً فشيئاً بحثاً عن الكلأ. ولما اعتقد الزوج أنه جمع ما يكفي من الحطب، رجع إلى المكان الذي ترك فيه الدابة وأوصى زوجته أن تنتظره هناك. ولما لم يجد الحمار في المكان الذي ربطه فيه، فانه ذهب يبحث عنه وصرف في العثور عليه وقتاً طويلاً. وفي هذه الأثناء حضر السيد النائب، وكان قد اختفى في أحد الأدغال منتظراً نتيجة خدعته، ونال من المرأة ما أراد دون كبير مناقشة. وما كاد ينتهي من عمليته الغرامية حتى أقبل الزوج بالدابة التي وجدها، وقد أضر به الحر والتعب حتى صار يلهث، فلم يبصر العاشق الذي تملص بسرعة، وحمل الحطب على الدابة. ثم انه أراد النوم، فاضطجع في ظل شجرة بجانب امرأته. ولما داعبها كعادته وقعت يده على المكان فوجده نادياً وسألها: «لماذا أنت مبتلة؟» فأجابته المحتالة الصغيرة: «بكيت إذ لم أرك راجعاً، وظننت أن الدابة قد ضلت، فشعرت أختي الصغيرة بذلك وجعلت هي الأخرى تبكي شفقة علي». وثق بها الزوج الغبي وطلب منها أن تطمئن وتكف عن البكاء.

جبل سْلِيلْݣُو (سْلِيلْيُو)

هو جبل مكسو بغابة من أشجار الصنوبر الكبيرة، وفيه عيون كثيرة. وليس لسكانه أي بيت من حجر، وإنما كل أكواخه من قصب يستطيعون نقلها من مكان إلى آخر، إذ يضطرون إلى مغادرة الجبل في الشتاء ليعيشوا في السهل. وفي آخر شهر ماي يغادر الأعراب بدورهم الصحراء، وهكذا فإن لأهل هذه البلاد مزيتين في الصعود من جديد إلى جبلهم، الأولى الفرار من وجه الأعراب، والثانية الذهاب إلى طقس بارد يعيشون فيه ويعود بالنفع عليهم وعلى دوابهم، لأن لهم الكثير من الغنم والماعز، وعندما يقترب فصل الشتاء يرجع الأعراب إلى الصحراء لأنها أكثر دفئاً، ولأن إبلهم لا تعيش في المناطق الباردة. وفي هذا الجبل كثير من الأسود والفهود، والقردة التي تشبه عند رؤيتها جيشاً شاكي السلاح لكثرة أعدادها.

وهناك عين عظيمة يتفجر منها الماء بقوة حتى إني رأيت في الفتحة التي يخرج منها حجرة تزن مائة رطل قذف بها التيار إلى الخارج. وهذا هو منبع نهر سبو أكبر أنهار موريطانيا.

جبل بني يَازْغَة

تسكن هذا الجبل قبيلة غنية محترمة جداً لأدبها وطريقة عيشها، ويجاور الجبل السابق حيث ينبع نهر سبو ويجري قريباً من هناك بين صخور عالية. وقد بنى أهل البلد عبارة عجيبة للمرور من ضفة إلى أخرى. فغرسوا في كل جانب من جانبي النهر عموداً عظيمًا قوياً، وثبتوا بكرة في كل واحد من العمودين، ثم مدوا من جانب لآخر حبالاً غليظة من الأسل تنزلق في هاتين البكرتين، وشدت إلى هذه الحبال سلة عميقة متسعة متينة، تتسع بسهولة لعشرة أشخاص. ومن أراد أن يعبر النهر لا يسعه إلا أن يدخل في السلة، ويجر الحبلين من الطرفين المثبتين بها فينزلقان في البكرتين بسهولة، وهكذا تنطلق السلة نحو الضفة المقابلة. ولما كنت أعبر مرة في هذه السلة حكى لي بعضهم أنه حدث منذ زمن طويل أن أراد أشخاص أن يركبوا في السلة وعددهم أكثر من طاقتها، فأمال فائض الحمل السلة وسقط بعض الناس في النهر بينما تشبث آخرون بالحبال ونجوا بمشقة عظيمة، ولم يظهر بعد ذلك أثر للذين سقطوا في النهر. أرعبتني هذه الحكاية، وقد نصبت العبارة بين قمتي جبلين، بحيث ترتفع عن مستوى النهر بنحو مائة وخمسين ذراعاً، ويبدو الرجل الواقف بجانب الماء لمن ينظر إليه من السلة، وكأن قامته شبر واحد.

ولسكان جبل بني يازغة عدد كثير من الماشية، لأن البلاد قليلة الأشجار، وصوف أغنامهم شديد النعومة، تصنع منه نساؤهم أقمشة كأنها من حرير، يتخذن منها لباساً لهن وأغطية للأسرة. ويباع الواحد من هذه الأغطية في فاس بثلاثة مثاقيل أو أربعة. ويستخرج هؤلاء الناس كذلك

زيتاً كثيراً من زيتون جبلهم، لكنهم خاضعون لملك فاس، ويدفع خراجهم الذي يؤدونه إلى عامل فاس القديم، وقد يصل هذا الخراج إلى ثمانية آلاف مثقال تقريباً.

أزْگَانْ

يجاور هذا الجبل جبل سليليو شرقاً، وجبل صفرو غرباً، ويمتد جنوباً إلى الجبال التي تحاذي نهر ملوية، وينتهي شمالاً في سهول إقليم فاس. يقارب طوله أربعين ميلاً، وعرضه خمسة عشر ميلاً. وهذا الجبل شاهق بارد جداً بحيث لا يمكن السكن إلا في المنحدر المواجه لفاس، المغروس كله بالزيتون وأشجار مثمرة أخرى. وتنبع فيه عيون عديدة تسيل في سهل أرضه صالحة لزراعة الشعير والكتّان والقنب الذي ينمو بكمية كبيرة في هذه البقعة. وقد غرست في هذا السهل، في الأزمنة الحديثة، الكثيرمن أشجار التوت لتربية دودة القز. ويسكن الناس في الشتاء أكواخاً في السهل. ويكون الماء في الصيف بارداً جداً لا يجرؤ أحد أن يترك يده فيه وقتاً للعد من واحد إلى عشرة. وقد رأيت رجلاً حلف أن يشرب كأساً من هذا الماء، فلما شربه أصابه وجع وظل مريضاً مدة ثلاثة أشهر.

مدينةُ صَفْرُو

مدينة صفرو صغيرة واقعة في سفح الأطلس على بعد نحو خمسة عشر ميلاً إلى الجنوب من فاس، ويقع وبقربها ممر جبلي يفضي إلى نوميديا. وقد أسسها الأفارقة بين نهرين صغيرين حولهما أراض كثيرة مغروسة بالكروم وغيرها من الأشجار المثمرة. وليس هناك إلا غابات الزيتون، على مسافة خمسة أميال حول المدينة، لأن الأرض هزيلة في كل مكان. لا يزرع فيها غير الكتان والقنب والشعير. ان أهل صفرو أثرياء، لكنهم يرتدون لباساً رديئاً ملطخاً بالزيت دائماً، لأنهم يصنعون الزيت طوال السنة ويحملونه إلى فاس لبيعه. ولا شيء جميل في المدينة سوى جامع يخترقه

جدول ماء، وسقاية لطيفة قريبة من بابه. وتكاد تكون هذه المدينة خربة بسبب تعسف أميرها الذي هو أحد اخوة الملك الحالي.

مَزْدَغَة

مزدغة مدينة صغيرة في سفح الأطلس على بعد ثمانية أميال غربي صفرو، وهي محاطة بأسوار جميلة، إلا أنها لا تضم سوى ديار شنيعة في كل واحدة منها سقاية. وجميع سكانها تقريباً فخارون لأن لهم أرضاً صلصالية جيدة، يصنعون عدداً وافراً من الأواني الخزفية ويبيعونها في فاس، لأنهم لا يبعدون عنها بأكثر من اثني عشر ميلاً[160]. والبادية المحيطة بمزدغة صالحة للشعير والكتان والقنب، وتنتج كذلك الكثير من الزيتون وغيره من الفواكه. والأسود كثيرة في الأدغال المجاورة، وكذلك في الأدغال القريبة من المدينة السابقة، لكنها غير مخيفة تفر إذا اعترضها الإنسان بأي سلاح كان.

البَهَالِيلْ

هي مدينة صغيرة على منحدر الأطلس المواجه لفاس، على بعد نحو اثنين وسبعين ميلاً منها. ويوجد بالقرب منها ممر جبلي تشقه طريق نوميديا. وفي الجبل عدد من الجداول يخترق أحدها مدينة البهاليل. وتشبه المناظر المحيطة بها الأماكن التي تحدثنا عنها، غير أنه لا يوجد شيء آخر غير الغابة. والسكان حطابون، بعضهم يقطع الخشب وبعضهم يحمله إلى فاس، والأمراء يعاملونهم دائماً معاملة سيئة ويثقلون كاهلهم بالضرائب، لأنهم ليسوا سوى أجلاف.

---

(160) بل المسافة بين مزدغة وفاس 22 ميلاً.

عَيْنُ الأصْنَام

كانت مدينة أسسها الأفارقة قديماً في سهل بين جبال عديدة على ممر الطريق المؤدية من صفرو إلى نوميديا، ويعني اسمها منبع الأوثان، يحكى أن الأفارقة عندما كانوا وثنيين، كان لهم قرب هذه المدينة معبد يجتمع فيه الرجال والنساء عند غروب الشمس في فصل معين من السنة، وبعد أن ينتهوا من تقديم القرابين كانوا يطفئون الأنوار ويستمتع كل واحد بالمرأة التي توجد صدفة على مقربة منه. وإذا أتى الصباح منعت كل امرأة قضت تلك الليلة في المعبد من أن تقترب من زوجها لمدة سنة، والأطفال الذين تلدهم أولئك النساء في تلك الفترة يربيهم كهان المعبد. وكان في هذا المعبد عين ما زالت موجودة لحد الآن. لكن المسلمين دمّروا المعبد والمدينة ولم يبق لهما أثر. وتكون العين بحيرة صغيرة يسيل ماؤها في سواق عديدة بحيث تجعل الأراضي في ضواحيها مستنقعات[161].

مَهْدِيَّة

هي مدينة مبنية على الأطلس وسط غابات وبجوار عيون حتى لكأنها في السهل. تبعد عن المدينة السابقة بنحو عشرة أميال، وقد أسسها داعية ولد في هذه الجبال أيام كانت قبائل زناتة تسيطر على مدينة فاس، لكن لما دخلت قبائل لمتونة هذه المنطقة بقيادة الملك يوسف (بن تاشفين) نهبت مهدية ودمرت، ولم يبق منها سوى جامع في غاية الجمال وما تبقى من السور، ذلك أن سكان هذا الجبل غلبوا على أمرهم وأصبحوا من رعايا ملك فاس، وذلك عام 515 للهجرة.

سَهْب المَرْجَة

يقارب عرض هذا السهل ثلاثين ميلاً وطوله أربعين ميلاً بين جبال الأطلس. وهذه الجبال مكسوة بغابات من أشجار ضخمة (الأرز)، يسكنها

---

(161) ما تزال عين الأصنام معروفة حتى الآن على بعد 20 كلم جنوبي صفرو.

الفحامون في أكواخ متباعد بعضها عن بعض، ولهم عدد من الأفران يمكنهم أن يستخرجوا منها مائة حمل من الفحم. ويقيم كثير من الناس في هذه الغابات لشراء الفحم منها وبيعه في فاس. وتوجد هناك أسود كثيرة تفترس بعض الفحامين في غالب الأحيان. ويحمل من الجبل إلى فاس قناطر في غاية الجمال وألواح متنوعة، لكن السهل جدب تماماً ومغطى بحجارة سوداء رقيقة تشبه حجر الأردواز، فلا ينبت فيه شيء.

أزَغَارْ إيكْمَارَنْ

هذا سهل آخر محاط بجبال مكسوة بالغابات، يشبه مرجاً ينمو فيه العشب طوال السنة، ولهذا يقصده الكثير من الرعاة بأغنامهم في فصل الصيف، فيحيطون قطعانهم بسياجات عالية جداً من الأشواك، ويسهرون الليل كله في حراستها من الأسود.

جبل مائة بير

هذا الجبل أعلى من الجبال الأخرى، وفي قمته أطلال عتيقة، بجوارها بئر عميقة جداً لا يستطيع أحد أن يرى قعرها، وذلك ما يؤدي بالمجانين الباحثين عن الكنوز أن ينزلوا إليها مراراً عديدة رجالاً مزودين بفوانيس. يقال ان لهذه البئر عدة طبقات، في الطابق الأسفل منها قاعة كبيرة منحوتة بالمعول، تحيط بها جدران فيها أربع فتحات منحنية تؤدي إلى أربع قاعات صغيرة فيها آبار ماء جار. ولا يرجع الكثير من الناس أحياء من هذا الاستكشاف إذ تهب أحياناً في الأعماق ريح رهيبة تطفىء الأنوار، فلا يستطيعون الاهتداء إلى طريق العودة إلى الخارج ويموتون جوعاً في قعر البير. وقد حكى لي أحد أعيان فاس، وكان معجباً بهذه الحماقة، أنه اتفق ذات يوم مع عشرة من أصحابه على القيام بمحاولة هذا الاستكشاف، ولما وصلوا إلى فوهة البئر اقترعوا على ثلاثة منهم سينزلون، وكان صاحبي من بينهم، فأنزلوا اذن بواسطة حبال حاملين بأيديهم فوانيس كما ذكرنا ذلك.

ولما وصل الرجال الثلاثة أمام الفتحات الأربع بالقاعة الكبرى، اتفقوا على أن يذهب كل واحد إلى جهة، لكن لما ذهب الأول، سار صاحبي والرجل الآخر معاً، ولم يقطعا مسافة ربع ميل حتى أحاطت بهما خفاشات عديدة تحوم حول الفانوسين وتصدمهما بأجنحتها حتى أطفأت أحدهما، وتابع الرجلان طريقهما إلى أن وصلا إلى بئر الماء الجاري، ووجدا قربه عظاماً بشرية قد ابيض لونها، وخمسة فوانيس أو ستة، بعضها قديم وبعضها جديد. ولما لم يبصرا في هذه الآبار شيئاً آخر غير الماء فانهما عادا أدراجهما. وما إن وصلا إلى منتصف الطريق حتى هبت ريح شديدة فجأة وأطفأت فانوسهما، فمشيا بعض الوقت دون أن يريا شيئاً وهما يتلمسان الطريق على غير هدى في الظلام، فلم يعثرا على طريق العودة. وأخيراً أنهكهما التعب واليأس فارتميا على الأرض يبكيان وينذران لله تعالى أنهما لن يعودا أبداً إلى هذا المكان ان خرجا منه حيين.

ولما رأى الذين كانوا ينتظرونهم في الخارج أن أحداً منهم لم يرجع وقد مضت ساعات عديدة، ظنوا أن كارثة نزلت بهم، فنزل خمسة منهم بفوانيس جيدة وقداحات واخترقوا الأروقة وهم يصرخون منادين أصحابهم. وأخيراً وجدوا الرجلين في الحالة التي وصفناها، ولم يتمكنوا من معرفة مصير الثالث، فقد ضل السبيل كما حدث لصاحبيه، ولم يدر إلى أين يتجه فسمع نباحاً يشبه صياح جراء الكلاب، فتوجه نحوها ورأى أربعة حيوانات صغيرة يبدو أنها ولدت منذ قليل. وبينما هو هناك جاءت الأم. وهي تشبه الذئبة لكنها أكبر منها. وهذا حيوان يلد في الكهوف أو الجحور ويسمى الضبع. جمد الشاب المسكين في مكانه خوفاً أن يلحقه سوء من ذلك الحيوان، لكنها أخذت تلعق صغارها ثم انصرفت يتبعها صغارها خطوة خطوة، ففعل مثلها مقتفياً أثرها إلى أن وصل إلى مخرج الدهليز عند قدم الجبل. وإذا سألني أحد كيف أمكن لهذا الرجل أن يبصر هناك؟ أجبته بأن الوقت المستمر الذي قضاه في الظلام ساعده على أن يسترجع بعض الرؤية، كما يحدث ذلك لمن يمضون بعض الوقت في الأماكن المظلمة.

والآن مع توالي السنين، ملئت هذه البئر ماء لأن الأرض حفرت كثيراً حتى سويت[162].

جبلُ ومَـمَرُّ الغِربان (خَنْكْ الْغُرْبان)

هذا الجبل[163] مجاور لسابقه، مكسو بغابة تعيش فيها أسود كثيرة. ليس فيه مدينة ولا قرية، ولا يسكنه أحد لشدة البرد فيه، وينبع فيه نهر صغير. صخور هذا الجبل عالية جداً، يعيش فيها عدد لا يحصى من الغربان، ومن ذلك اشتق اسمه. وتهب فيه أحياناً ريح شمالية تكدس أكوام الثلج، فيدفن فيها المسافرون الذاهبون من نوميديا إلى فاس، كما سبق أن ذكرت قصة في هذا الموضوع.

ويقصد هذا الجبل في الصيف أعراب يدعون بني حسين لبرودة مائه ولطافة ظله، بالرغم على تكاثر الأسود والفهود المرعبة فيه.

تَزَرْغة

تزرغة بلدة صغيرة على شكل حصن، بناها الأفارقة على نهر صغير يمر في شعب عند قدم جبل الغربان. ولا تقل بشاعة سكان هذه البلدة عن بيوتها. يجهلون كل شيء عن الحضارة، وليس لهم لباس لائق ولا أية زينة، والأرض الزراعية ضيقة لا ينبت فيها إلا القليل من الشعير وبعض أشجار الخوخ. ويخضع السكان لأعراب دوى حسين.

أم جْنِيبَة

هي مدينة قديمة خربها العرب، تبعد عن المدينة السابقة بنحو اثني عشر ميلاً قرب ممر في الأطلس على منحدره الجنوبي. ويزعج الأعراب هذا

---

(162) ما زالت مائة بير معروفة حتى الآن بعيدة بنحو 10 كلم غربي خنك أبخنانس الذي تمر به الطريق الذاهبة من فاس إلى تفيلالت، وبعيدة بنحو 6 كلم جنوبي ضاية ايفراح.

(163) يظهر أن خنك الغربان هذا هو ما يسمى اليوم خنك أبخنانس على ارتفاع 1.700 ميتر.

المر باستمرار، لأنه يوجد بالقرب من المدينة سهل كبير في أيدي الأعراب الذين لا يخشون الملك. ويظهر بجانب المدينة مرتفع يلزم كل من صعده ليقطعه مع قافلة أن يرقص، ذلك أن شيوخ المنطقة يزعمون أن من مر به ولم يرقص أصيب بالحمى الربعية. ورأيت بعيني كل الذين يمرون هنا يمرون وهم يرقصون خشية الحمى.

جبل بني مْرَاسَنْ

هذا الجبل شاهق بارد، لكن يسكنه قوم لا يأبهون بالبرد، يملكون عدداً وافراً من الخيل والحمير يتوالد عنها كثير من البغال التي تستخدم هنا دون سروج ولا بردعات كدواب للركوب، وإنما تجهز بشبه بريدعة خفيفة. وليس لأهل البلاد بيوت ذات جدران، فهم يعيشون في أكواخ من قصب، لأنهم يرحلون باستمرار لرعي خيولهم وبغالهم، ولا يؤدون أية ضريبة لملك فاس، لأن جبلهم منيع، ولكونهم أغنياء يدافعون عن أنفسهم.

جبل مَسْطَاسَة

يمتد هذا الجبل من الشرق إلى الغرب على مسافة تقرب من ثلاثين ميلاً، في عرض قد يبلغ عشرة أميال، ويتاخم غرباً سهل أدخسان المتاخم بدوره لتامسنا. وهو مثل الجبل السابق في البرودة وكثرة السكان وثرائهم ونبلهم وتوفرهم على عدد عظيم من الخيل والبغال. وينتمي كثير من أدباء فاس إلى هذه المنطقة، ويحسن الكثير من أهل هذا الجبل الكتابة بخط في غاية الاتقان، ولذلك ينسخون عدداً كثيراً من الكتب ويبيعون مخطوطاتهم في فاس. ولا يؤدون للملك أية ضريبة وإنما يقدمون له بعض الهدايا البسيطة.

جبال زيز

سميت هذه الجبال جبال زيز باسم نهر يوجد منبعه فيها. تبتدىء شرقاً من جبل مسطاسة، وتتاخم غرباً تادلا وجبال دادس، وتواجه جنوباً قسماً من نوميديا يدعى سجلماسة، كما تشرف شمالاً على سهول أدخسان وتيكريكرة؛ وتمتد طولاً قرابة مائة ميل، وعرضاً أربعين ميلاً. تشتمل جبال

زيز على خمسة عشر جبلاً، كلها باردة وعرة، تنبع منها أنهار كثيرة، ويسكنها قوم من قبيلة زناكة، مرعبون أقوياء، لا يبالون بالبرد والثلج. يرتدون رداء من صوف يجعلونه على جلدهم مباشرة، ويضعون فوقه معطفاً، كما يلفون سيقانهم بخرق مفتولة يستعملونها كنعال، ويبقى رأسهم عارياً في جميع الفصول.

يملك هؤلاء القوم عدداً وافراً من الخيل والبغال والحمير، لأن الغابات قليلة في جبالهم، وهم أكبر اللصوص وشر القتلة في العالم. عداوتهم للأعراب عميقة متأصلة، ينهبونهم ليلاً، وان لم يقدروا على شيء آخر أخذوا جمالهم ورموا بها من أعلى الصخور وهم ينظرون نكاية فيهم. ويرى في هذه البلاد شيء يكاد يكون من الخوارق، ألا وهو كثرة عدد الأفاعي التي هي في غاية الوداعة والالفة حتى إنها تزحف في البيوت تماماً كصغار الكلاب والقطط. وعندما يذهب أحدهم لتناول الطعام تتجمع حوله الثعابين الموجودة في البيت وتأكل أكلاً عادياً قطع الخبز وغيره من المأكولات التي تقدم لها، ولا تؤذي أحداً أبداً إذا لم يؤذها.

وسكان هذه البلاد رعاع أنذال، يعيشون في دور مبنية بأعمدة طويلة مطلية بالصلصال ومغطاة بسقف من قش، والذين يملكون منهم دواب أكثر من غيرهم يسكنون أكواخاً صغيرة مغطاة بالقصب. ويذهب هؤلاء الناس أحياناً إلى سجلماسة التي هي قسم من نوميديا كما قلنا، يحملون إليها صوفهم وسمنهم، لكنهم لا يذهبون إليها إلا عندما يكون الأعراب في الصحراء.

وبالرغم على أن الأعراب يهاجمونهم في غالب الأحيان بعدد كثير من الفرسان ويسلبونهم بضائعهم ويقتلونهم، فإن هؤلاء الجبليين لا يقلون عنهم إقداماً وشجاعة، وعندما يحاربون فإنهم لا يرضون أبداً بالاستسلام وهم أحياء، يحمل الواحد منهم ثلاثة رماح أو أربعة، ولا يخطىء هدفه اطلاقاً. يقتلون الفارس تارة والفرس أخرى، لأنهم يحاربون راجلين. وهم لا يغلبون إلا اذا واجهوا جيشاً جراراً من الفرسان. وقد يحملون سيوفاً

وخناجر. وقد اعتاد الجبليون في أيامنا هذه أن يطلبوا من الأعراب رخصة مرور، ويعطوا هم الأعراب رخصة مرور كذلك. وهكذا يمكنهم الاتجار في أمان، ويعطون رخص المرور كذلك لقوافل التجار الذين يؤدون لكل قبيلة من قبائل هذه الجبال حق مرور خاص، والا تعرضوا للنهب.

مدينة كَرْسَلْوِينْ

كرسلوين مدينة قديمة أسسها الأفارقة في سفح هذه الجبال على واد زيز، لها أسوار جميلة قوية من بناء ملوك بني مرين. وتبدو هذه المدينة عندما يراها المرء من بعيد شيئاً جميلاً جداً، لكنها بئيسة تماماً في الداخل، ليس بها غير أكواخ حقيرة وسكان قليلين، وذلك بسبب الأعراب. ولما سقطت دولة بني مرين انضوت هذه المدينة بمحض ارادتها تحت سلطة أعراب بني حسين الذين أساؤوا معاملة السكان. ولا يمكن استخراج أي دخل من هذه المدينة لأن جميع سكانها في فقر مدقع، وليس هناك إلا القليل من الأراضي الصالحة للزراعة. والحق أننا إذا استثنينا القسم الشمالي فإن جميع ضواحيها مجدبة حجرية، وتظهر على ضفاف النهر بعض الطاحونات وعدد عظيم من البساتين المزروعة بالكروم وأشجار الخوخ، وتجفف هذه الثمار لتستعمل طول السنة خاصة الخوخ، وتجعل هذه الفواكه المجففة مع أطعمة أخرى لتصنع منها وجبات يأكلونها.

والحيوانات قليلة جداً بحيث يعيش الناس في بؤس وشقاء. ولم يبن الزناتيون في الحقيقة هذه المدينة إلا لتكون حصناً، لا لشيء إلا للسيطرة على ممر نوميديا، إذ كانوا يخشون أن تتسرب قبيلة لمتونة منه إلى بلادهم. ومع ذلك جاء اللمتونيون من طريق آخر وخربوا المدينة وحطموها. ويوجد كذلك عدد كثير من الثعابين الأليفة المدجنة كالتي تحدثنا عنها من قبل (164).

---

(164) ما تزال أسوار كرسلوين ماثلة للعيان على الضفة اليمنى لواد زيز، إلا أنها فقدت اسمها وصارت تدعى الدوار، واختفت البساتين والطاحونات.

فهرس محتويات الجزء الأول
من كتاب «وصف إِفريقيا»

القسمُ الأول
وصفُ إفريقيا وما فيها من أشياء تستحقّ الذكر

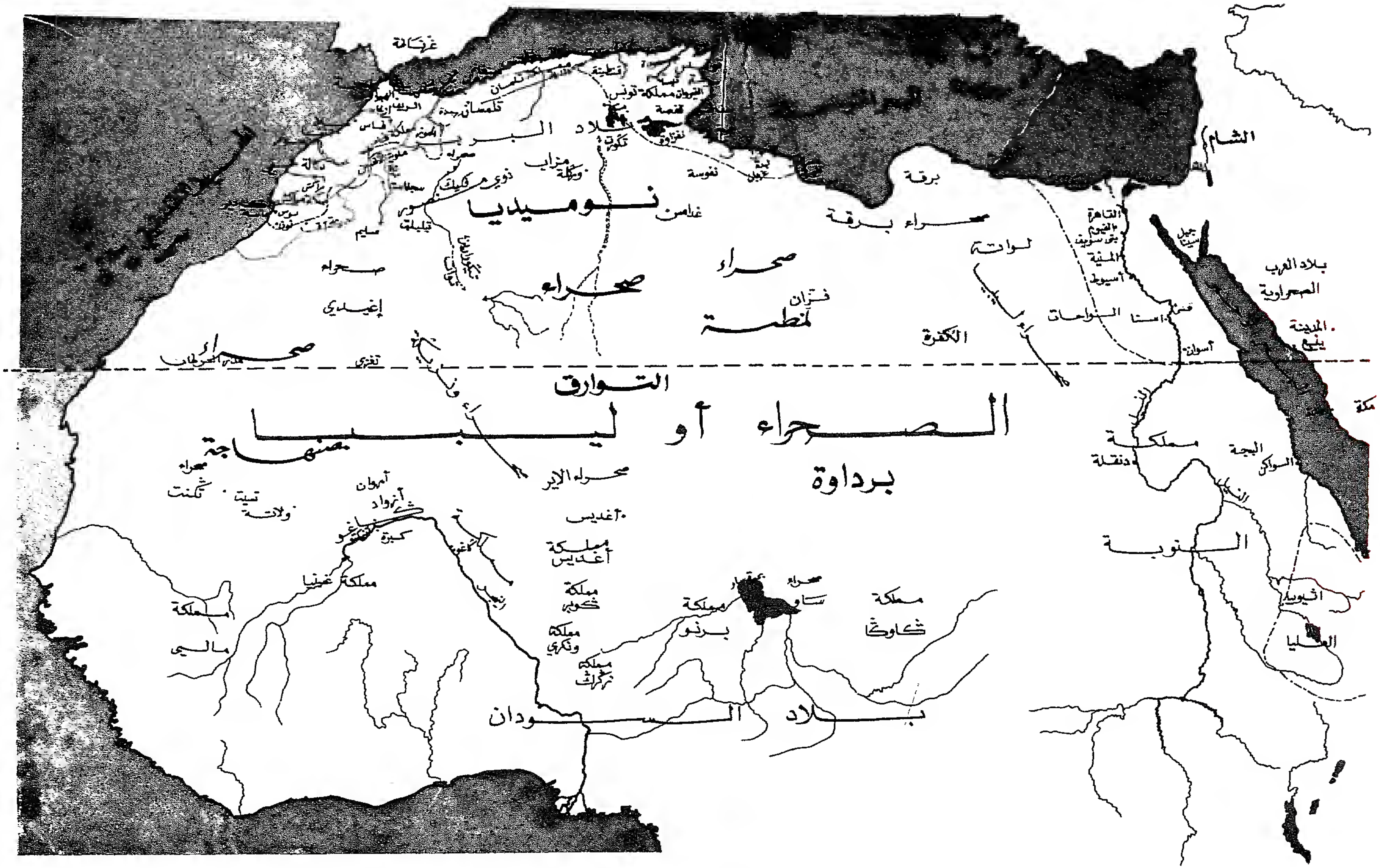
القسمُ الثاني
مملكةُ مَرّاكُش

* * *

القسم الثالث
مملكةُ فَاس

* * *

* * *


الصحراء أو ليبيا
التوارق
نوميديا
بلاد البربر
صحراء
صحراء
صحراء برقة
لطة
فزان
برقة
الكفرة
لواتة
الشام
بلاد العرب الصحراوية
المدينة
ينبع
مكة
القاهرة
الفيوم
بني سويف
المنية
أسيوط
إسنا
الواحات
أسوان
مملكة دنقلة
البجة
السواكن
النوبة
إثيوبيا
الحبشة
برداوة
صحراء الأير
أغديس
مملكة أغديس
مملكة كوبر
مملكة ونكري
مملكة زكزك
مملكة برنو
صحراء ساو
مملكة شاوكا
بلاد السودان
مملكة غينيا
مملكة مالي
صنهاجة
صحراء
تكنت
تيبة
ولاتة
أروان
أزواد
تنبكتو
كبرة
غاو
صحراء
إغيدي
تغزى
تيكورارين
توات
تبلبلت
سجلماسة
ذوي منيع
مزاب
ورقلة
غدامس
نفوسة
جبل غريان
نفزاوة
تقرت
قفصة
مملكة تونس
القيروان
قسنطينة
تلمسان
وجدة
الريف
فاس
غرناطة
سليم

وصف افريقيا

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر

وَصْف إفريقيا

للحسن بن مُحمد الوزان الفاسي

المعروف بليون الإفريقي

الجزء الثاني

ترجمه عن الفرنسية

محمد حجي
دكتور دولة من جامعة السربون

محمد الأخضر
دكتور دولة من جامعة السربون

الطبعة الثانية

دار الغرب الإسلامي

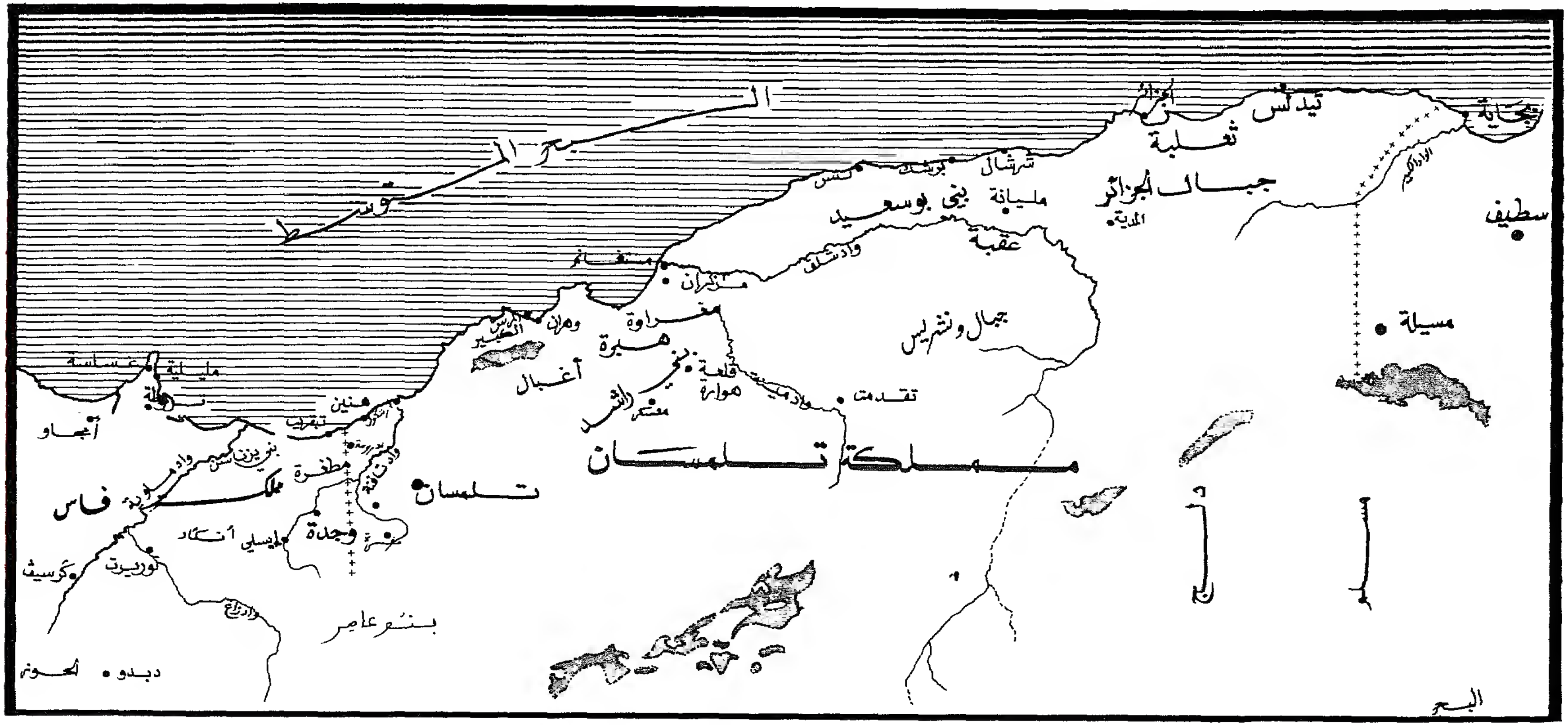
طبعة ثانية 1983

دار الغرب الإسلامي

ص. ب: 5787 - 113
بيروت - لبنان

القسم الرابع

مملكة تلمسان



مملكة تلمسان

مملكة تلمسان

يحد مملكة تلمسان واد زا ونهر ملوية غرباً، والواد الكبير (الصّمّام) وصحراء نوميديا جنوباً. وكانت هذه المملكة تحمل في القديم اسم قيصرية، عندما كانت خاضعة لسيطرة الرومان. ثم آلت إلى ملوكها الأقدمين ــ وهم بنو عبد الواد المنتمون إلى مغراوة ــ بعد أن أجلي الرومان عن إفريقيا. وقد احتفظوا بالملك مدة ثلاثمائة سنة، إلى أن انتزعه منهم أمير ذو شأن كبير يسمى يغمرا سن بن زيان وورثه عنه أحفاده. بحيث إن هؤلاء الملوك بدلوا اسمهم ودعوا بني زيان ــ أي أولاد زيان ــ لأن زيان هذا كان والداً ليغمرا سن[1].

---

(1) يبدو أن القبائل المقيمة بناحية تلمسان كانت خاضعة ــ إبان الفتح العربي في أوائل القرن السابع م ــ لفرع من بني يفرن، إحدى قبائل زناتة الرئيسية، وكانوا رعاة رُحّلاً. كما كان يحتل تلك الناحية إلى الشرق فرع هام من أعظم شعوب زناتة وهم مغراوة. وكان بنو عبد الواد إذ ذاك ــ وهم ينتسبون إلى بني واسين الذين يعدون من زناتة ــ يخيمون بالزاب والأوراس. ومن المحتمل أن يكون بنو عبد الواد من جملة الجيوش التي قادها عقبة بن نافع في زحفه نحو الغرب عام 62هـ/682م، وأن يكونوا أبلوا بلاء حسناً. أما بنو يفرن، فقد انهارت سلطتهم لدى الفتح الفاطمي في القرن العاشر، لصالح مغراوة الذين لم يفقدوا الملك بتلمسان إلا عند سقوط هذه المدينة في أيدي المرابطين عام 472هـ/1079م. وفي ذلك العهد تقريباً، استقرّ بنو عبد الواد جنوبيّ وهران الحالي، بعد أن طردهم العرب بنو هلال من زاب قسنطينة. ولم يظهروا على مسرح الأحداث بناحية تلمسان إلا في منتصف القرن الثالث عشر م. كمقاومين أولاً =

وقد استقر الملك في بني زيان ثلاثمائة سنة، غير أنهم اضطهدوا من قبل ملوك فاس، ـ أي بني مرين ـ الذين احتلوا مملكة تلمسان نحو عشر مرات، حسبما جاء في التاريخ. وكان مصير ملوك بني زيان حينئذ إما القتل أو الأسر أو الفرار إلى المفازات عند جيرانهم الأعراب، وتعرضوا أحياناً أخرى إلى الطرد من قبل ملوك تونس(2) إلا أنهم كانوا يسترجعون ملكهم كل مرة، واستطاعوا أن يتمتعوا في أمن وسلام قُرابة مائة وثلاثين عاماً، دون أن يتعرضوا إلى أذى أي عاهل غريب، ما خلا أبا فارس، ملك تونس، وابنه عثمان الذي أخضع تلمسان إلى تونس فترة من الزمان طالت إلى موته(3).

تمتد مملكة تلمسان على مسافة ثلاثمائة وثمانين ميلاً من الشرق إلى الغرب(4)، لكنها تضيق جداً من الشمال إلى الجنوب، إذ لا تتعدى المسافة خمسة وعشرين ميلاً في بعض النقط، من البحر المتوسط إلى تخوم صحراء نوميديا. ذلك هو السبب الذي من أجله لم تفتأ هذه المملكة تتضرر من تعسفات الأعراب القاطنين بالجزء المجاور للصحراء. وكان ملوك تلمسان دائمًا مضطرين إلى أن يهدئوهم بأداء إتاوات جسيمة وتقديم الهدايا لهم،

= ثم كحلفاء لعبد المومن الموحدي. وأخيرا فإن أميرهم يغمراسن بن زيان الدي اشتهر بالشجاعة والاقدام، اتخذ عام 633هـ/1236م. شعار الملكية تحت سلطة الخليفة الموحدي بمراكش، وذلك للوقوف في وجه بني مرين الذين أخضعوا شمال المغرب إلى نفوذهم، وهم أيضاً من زناتة بني واسين.

(2) يعني الحفصيين.

(3) احتل أبو فارس عبد العزيز الحفصي ملك تونس تلمسان في شهر ماي 1424، مكتفياً بخضوع بني زيان لسلطته. وقد وصل حفيده أبو عمرو عثمان إلى أسوار تلمسان عام 866هـ/1462م. ثم عام 870هـ/ 1466م. ليوطد الأمن فيها، ومات عام 893هـ/1488م.

(4) صحح المعلقون في الترجمة الفرنسية المسافة بأنها 580 ميلاً وقدروها ب 930 كيلومتر. وهذا التقدير كغيره عندهم لا يساير ما حددناه للميل في التنبيه المثبت في ص 24 من الجزء الأول، ولا ما اتفق عليه حديثاً من أن الميل هو 1.852 ميتر.

لكن لم يستطيعوا قط إرضاءهم جميعاً، وقلما توجد في البلاد سبل آمنة، ومع ذلك فالسلع تروج بكثرة في مملكة تلمسان لقربها من نوميديا، ولأنها تشكل مرحلة في الطريق المؤدية إلى بلاد السودان.

ولهذه المملكة ميناءان مشهوران: ميناء وهران، وميناء المرسى الكبير، وكان يختلف إليهما كثيراً عدد وافر من تجار جنوة والبندقية حيث يتعاطون تجارة نافقة عن طريق المقايضة؛ غير أن هذين الميناءين سقطا في يدي الملك الكاثوليكي فرناندو[5] فكان ذلك خسارة عظمى لمملكة تلمسان، حتى إن الشعب طرد الملك أبا حمو وعوَّضه بأحد أعمامه وأعمام أبيه أبي عبد الله، وهو المدعو أبا زيان. فأخرج من السجن ورُفع على العرش، لكن ذلك لم يدم طويلاً، حيث إن (عروج) بربروس التركي طمح إلى الملك فقتل أبا زيان غيلة ونصب نفسه ملكاً. ولما طرد الشعب أبا حمو توجه فوراً إلى وهران وقطع البحر إلى اسبانيا قاصداً جلالة الامبراطور شارل كارلوس متضرعاً إليه أن ينجده ويعينه على أهل تلمسان والتركي بربروس. فأظهر الامبراطور الكبير رحمة وشفقة مثلما أظهرها أسلافه، بحيث إنه لبى دعوة الملك وأرسل معه جيشاً قوياً هائلاً استطاع أبو حمو بواسطته أن يرجع إلى مملكته ويقتل بربروس وعدداً من أتباعه [6].

(5) ذكر المعلقون في الترجمة الفرنسية أن احتلال المرسى الكبير تم سنة 1506، وهو خلاف الواقع إذ كان احتلال المرسى الكبير يوم الخميس 24 جمادى الثانية عام 23/911 أكتوبر 1505. أما وهران فقد سقطت يوم الجمعة 28 محرم عام 915-18 ماي 1509.
انظر أحمد توفيق المدني، **حرب الثلاثمائة سنة**، ص 102 و 110.

(6) وقع اضطراب هنا عند المؤلف الحسن الوزان بسبب تشابه أسماء الملوك الزيانيين المتأخرين واضطراب أحوالهم، بحيث إن معظمهم تولى الملك أكثر من مرة بعد أن عزل أو سجن. وقد حاول المعلقون في الترجمة الفرنسية أن يصححوا ذلك، إلا أننا آثرنا الرجوع إلى المصادر الجزائرية، وفيها: أن الملوك المتعاقبين على عرش تلمسان في عهد الاضطراب الاسباني التركي هم: =

وبعد هذه الأحداث أرضى أبو حمو جنود الاسبان، وتمسك رغبة منه في السلم بالعهود التي قطعها على نفسه مع الامبراطور، مؤدياً له سنوياً الاتاوة المحددة(7) وظل ملتزماً بذلك طوال حياته. ولما مات(8) آل الملك إلى أخيه عبد الله، فامتنع هذا الأخير من طاعة الامبراطور والامتثال إلى شروط العهد الذي أمضاه أخوه، وذلك ثقة منه في مساندة سليمان أمبراطور الأتراك، لكن هذا لم يمدده إلا بالقليل من العون. وما زال عبد الله حياً في الوقت الراهن عاملاً على توطيد حكمه.

ويُكوِّن معظم مملكة تلمسان أقاليم جافة قاحلة، لا سيما في جزئها الجنوبي، لكن السهول القريبة من الساحل منتجة جداً نظراً لخصبها. والجهة المجاورة لتلمسان كلها سهل مع بعض المفازات. حقاً إنه توجد غرباً عدة جبال قرب الشاطىء، وكذلك في إقليم تَنَس وفوق بلاد الجزائر عدد لا يحصى من الجبال غير أنها كلها منتجة.

ولا يوجد بهذه المملكة إلا القليل من المدن والقصور، غير أن الأماكن زاهرة والبقعة خصبة، كما سنبينه لكم بالنسبة لكل منها على الخصوص.

= تاريخ التولية

- أبو حمو موسى (الثالث) 909هـ/ 1503
- أبو زيان أحمد (الثاني) 1517/923
- أبو محمد عبد الله (الثاني) 1518/924
- أبو عبد الله محمد (السابع) 1524/930

انظر تفاصيل الأحداث المشار إليها في صلب الكتاب عند عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، 2:204و221 وما بعدها + 270.

(7) وكانت قيمتها 12.000 مثقال من الذهب و12 فرساً و6 صقور إناث.

(8) في تاريخ الجزائر العام (2:223) أن السلطان أبا حمو قاتل عروج التركي مات في نفس السنة 1518/924 .

صحراء أَنْكَادْ(9)

تبتدىء مملكة تلمسان غرباً في سهل قفر وعر يابس لا ماء فيه ولا شجر، وتمتد على مسافة نحو ثمانين ميلاً طولاً وما يقرب من خمسين ميلاً عرضاً، ويعيش فيها عدد كثير من الغزلان والوعول والنعام. وهي مأوى لعصابة لصوص من الأعراب على استعداد دائم للفتك بالمارين من هناك، حيث الطريق المؤدية من فاس إلى تلمسان. وقلما ينجو التجار من شرهم، لا سيما في فصل الشتاء، لأن الأعراب المستأجرين للحفاظ على الأمن في البلاد يكونون قد رحلوا عنها آنذاك إلى نوميديا، ويبقى منهم الغير المستأجرين وحدهم ليتعيشوا من اللصوصية. ويقضي أيضاً الشتاء في هذا القفر عدد كبير من الرعاء، لكن السباع تفترس أو تعطب كمية وافرة من الغنم وحتى الناس إن استطاعت.

قصر تمزيزدكْت(10)

هو قصر واقع في الحدّ بين هذا القفر وبلاد تلمسان، شيد قديماً على صخرة. وكان ملوك تلمسان يجعلونه في حالة تأهب دفاعي لحراسة

---

(9) من المعلوم أنه لم تكن هناك في عصر المؤلف حدود محدودة بين المملكات أو الأقاليم، وإنما هو تقدير وتخمين، ولا سيما بين المملكات التي تختلف دولها كما هو الحال بين مملكات فاس وتلمسان وبجاية وتونس. فهناك وراء ملوية شرقاً وشمالاً مدن وقرى وصحارى مغربية مثل وجدة وإيسلي وأنكاد وفگيك وبني يزناسن الخ، لذلك فإننا سنكتفي بهذه الاشارة العابرة ولن نعود للتعليق في هذا الموضوع استقبالاً.

(10) ما يزال برابر القبائل بالجزائر يطلقون اسم تمزيزدكت ــ ومعناه المصفاة في لغتهم ــ على تِكْلَت، وهي عبارة عن أنقاض المستعمرة الرومانية القديمة تبسكتو قرب بجاية.. وقد أعطي هذا الاسم لتكلت عام 1326 م. عندما شيدت قلعة تذكر بقلعة قديمة غرباً كانت قد دمرت ولم تسفر الأبحاث لاكتشاف موقع هذه الأخيرة عن أية نتيجة. ويفترض أن يكون في قمة تل المحصر المتحكم في ممر تفنة المستعمل الآن للسكة الحديدية الرابطة بين فاس وتلمسان تماماً كما تتحكم تكلت في ممر الصّمّام بواسطة السكة الحديدية المؤدية من بجاية إلى بني منصور وربما أخطأ البعض فظن أن الأطلال التي تتوج هذا التل رومانية.

أماكن للمرور لجنود ملك فاس. ويسيل في سفحه نهرُ التافنة، وتحيط به أراضٍ جيدة كانت تزرع فيها حاجيات السكان. وما دام هذا القصر خاضعاً لحكم ملك تلمسان فإنه كان موضع صيانة تامة. أما الآن، وقد سقط في أيدي الأعراب، فإنه أصبح شبه إصطبل، لا يدخرون فيه سوى قمحهم وبراذع جمالهم. وقد هرب السكان من جراء تعسفاتهم.

قصر إيسْلِي

هو قصر قديم(11) شيده الأفارقة في سهل يحاذي القفر السابق، وتحيط به بعض الأراضي التي يزرع فيها الشعير والدخن. وكان في القديم كثير السكان محاطاً بأسوار متينة دمرت أثناء الحروب، فأمسى خالياً بعض الوقت، ثم سكنه من جديد رجال يعيشون على طريقة الزهاد المنقطعين، ويتمتعون باحترام كبير من ملك تلمسان ومن الأعراب، وهم يقدمون الطعام والشراب في غالب الأحيان مجاناً وبسماحة إلى كل مَنْ مرَّ من هناك، ولا يشتمل القصر إلا على أكواخ سيئة ذات جدران من الطين وسقوف من القش، ويمر بقربه جدول ماء يسقي المزروعات، إذ لا ينبت أي شيء في هذه البلاد دون سقي لشدة الجفاف.

مدينة وَجْدَة

وجدة مدينة قديمة بناها الأفارقة في سهل فسيح جداً، على بعد نحو 40 ميلاً جنوب البحر المتوسط، وعلى نفس البعد تقريباً من تلمسان(12)

---

(11) لم يبق حاملاً اسم إيسلي غير النهر، وربما كان موقع مدينة إيسلي المندثرة عند الأنقاض المعروفة الآن باسم قصر العاجة في زكارة جنوب غربي مدينة وجدة على بعد نحو 18 كلم منها. واشتهرت في كتب التاريخ معركتان باسم إيسلي،أولاهما بين يعقوب بن عبد الحق المريني ويغمراسن بن زيان صاحب تلمسان سنة 670هـ. والثانية بين المغاربة والفرنسيين سنة 1260هـ/1844، انظر **الاستقصا**، 3:32-33، و9:49-54.

(12) أسس مدينة وجدة زيري بن عطية المغراوي عام 384هـ/994م ونقل كرسي إمارته من فاس إليها. انظر **الاستقصا**، 1:195.

محاذية غرباً مفازة أنكاد. وأراضيها الزراعية كلها غزيرة الانتاج، تحيط بها عدة حدائق غرست فيها على الخصوص الكروم وأشجار التين، ويخترقها جدول يشرب السكان من مائه، ويستعملونه لاغراض أخرى. وكانت أسوارها في القديم متينة عالية جداً، ودورها ودكاكينها متقنة البناء، وسكانها أثرياء ومتحضرين وشجعاناً، لكنها نهبت ودمرت أثناء الحروب المتوالية بين ملوك فاس وملوك تلمسان، حيث كانت منحازة لهؤلاء[13]. وبعد أن وضعت الحرب أوزارها، أخذت وجدة تعمر بالسكان وشيدت فيها من جديد دور كثيرة[14]، إلا أنها لم تسترجع حالتها الأولى. وليس فيها اليوم أكثر من خمسمائة دار آهلة. وسكانها فقراء لأنهم يؤدون الخراج إلى ملك تلمسان وإلى الأعراب المجاورين لهم بمفازة أنكاد. ويرتدون لباساً قصيراً خشناً شبيهاً بلباس الفلاحين، ويربون عدداً من الحمير الجميلة الكبيرة القامة التي تنتج لهم بغالاً جميلة عالية تباع في تلمسان بأغلى الأثمان، ويتكلمون باللغة الافريقية القديمة، وقليل منهم يحسن العربية الدارجة التي يتحدث بها أهل المدن.

مدينة نَدْرومَة

أسس هذه المدينة الرومان قديماً عندما كانوا يحكمون المنطقة، وبنوها على بقعة واسعة في سهل، بعيدة بنحو ميلين من الجبل واثني عشر ميلاً من البحر المتوسط، ويمر قربها نهر قليل الأهمية.

يقول مؤرخونا إن الرومان اختاروا لها نفس الموقع ونفس التصميم

---

(13) دمرت وجدة في شهر رجب 670هـ / فبراير 1272 على يد السلطان المريني يعقوب المنصور.

(14) وذلك سنة 696هـ /1297م. على يد السلطان المريني يوسف بن يعقوب.

لمدينة روما، وإن اسمها مشتق من كلمة «نِدّ» في لغة الأفارقة التي لها نفس المدلول في كلمة سيميليس (Similis) اللاتينية (مَثِيل)(15).

ما تزال أسوار ندرومة كاملة، لكن دورها دمرت، ثم أعيد بناؤ ها بكيفية غير لائقة تماماً، وبقيت في ضواحي المدينة بعض أنقاض بناءات قديمة(16) والبادية منتجة إلى أقصى حد: فتشاهد حول ندرومة بساتين عديدة وأراض مغروسة بأشجار الخروب التي يأكل السكان ثمارها بكثرة، سواء في المدن أو في باقي المنطقة، كما يتغذون بالعسل الموجود بها بوفرة. وندرومة اليوم مزدهرة لكثرة الصناع فيها، وينتجون على الخصوص أقمشة القطن لأنه ينبت بكثرة في الناحية.

يمكن أن يعتبر السكان أنفسهم تقريباً أحراراً، لكونهم تحت حماية جيرانهم الجبليين(17): فالملك لا يستطيع أن يحصل على أي خراج من هذه المدينة لأن العمال الذين يوفدهم إليها إنما يقبلهم السكان إذا رضوا عنهم، وإلا رفضوهم وردوهم على أعقابهم. ومع ذلك فإنهم يرسلون أحياناً إلى الملك هدية بسيطة ليتمكنوا من إدخال سلعهم إلى تلمسان.

مدينة تَبَحْرِيتْ

مدينة صغيرة بناها الأفارقة على ساحل البحر المتوسط في رأس صخرة بعيدة بنحو اثني عشر ميلاً عن ندرومة(18)، وبقربها جبال عالية

---

(15) لم يعثر على أي أثر روماني بندرومة، ولا يذكر موقعها أدنى تذكير بروما، بل الاسم الذي تحمله هو اسم قبيلة كومية القديمة القاطنة في الناحية. وقد استعمل المؤلف هنا لغة الأفارقة قاصداً بها اللغة العربية.

(16) وقد اضمحلت في أيامنا هذه.

(17) يعني قبيلة مطغرة.

(18) اضمحلت تبحريت، لكن بقي اسمها على بعد نحو 30 كلم شمال غرب ندرومة. ومن المحتمل أن المدينة كانت مشيدة على رأس قلعة تشرف على البحر بارتفاع 125 متراً.

وعرة[19]، لكنها كثيرة السكان. وأهل تبحريت نساجون إلا القليل منهم، ولهم عدة ممتلكات مغروسة بأشجار الخروب، وينتجون العسل بكثرة، غير أنهم يعيشون في خوف دائم من هجوم النصارى عليهم ليلاً، ولذلك يقيمون حرساً يقظاً في كل ليلة، لأن فقرهم لا يسمح لهم بأن يستأجروا جنوداً. والأراضي المجاورة حجرية هزيلة لا ينبت فيها سوى القليل من الشعير والدخن، ويرتدي السكان لباساً مزرياً وهم خشنون لا تربية لهم.

مدينة هُنَيْن

هنين مدينة صغيرة قديمة بناها الأفارقة، وهي أنيقة صينة للغاية. لها ميناء صغير محروس ببرجين، كل واحد منهما في جهة. وتحيط بها أسوار عالية متينة، لا سيما من جهة البحر. وتأتي إلى هذا الميناء سنوياً سفن شراعية من البندقية تحقق أرباحاً جسيمة مع تجار تلمسان، إذ لا يفصل بين هذه المدينة وهنين سوى أربعة عشر ميلاً[20]. ولما احتل المسيحيون وهران لم يعد البنادقة يقصدونها لكونها مليئة بالجنود الاسبان، فطلب منهم أهل تلمسان أن يأتوا إلى هنين. وكان سكان هنين في القديم نبلاء شرفاء يعملون كلهم تقريباً في القطن والمنسوجات. ودورهم في غاية الجمال والزخرفة، لكل دار بئر من الماء العذب، وفناء مغروس بكرم معروش، أرضها مبلطة بالزليج الملون، وسطوح الحجرات مزينة بنفس الزليج، والجدران مكسوة كلها بالفسيفساء الفنية. لكن عندما بلغ السكان خبر احتلال وهران تركوا جميعاً المدينة فأصبحت خاوية على عروشها، إلا ما كان من ملك تلمسان الذي يرسل إليها أمير قصر يقيم بالقلعة مع المشاة لا لغرض إلا ليخبر الملك بوصول السفن التجارية.

وتنتج الممتلكات المجاورة لهنين حتى الآن كميات وافرة من الثمار،

(19) جبل زندل لا يتعدى ارتفاعه 613 متراً.
(20) بل 34 ميلاً.

كالكرز والمشمش والتفاح والاجاص والخوخ وما لا يحصى من التين والزيتون. لكن لا يوجد من يقطفها في البساتين الواقعة على ضفة النهر القريب من المدينة حيث أقيمت الطاحونات. ولما مررت من هناك تألمت جداً للحالة البائسة التي صارت إليها المدينة. كنت مع أحد كتاب ملك تلمسان جاء لاستلام ضرائب من سفينة جنوية حملت من البضائع ما يمَوِّن تلمسان لمدة خمس سنوات. وبلغت قيمة الرسوم التي قبضها الملك خمسة عشر ألف مثقال ذهباً مسكوكاً أرانيها الكاتب.

أَرْشْكُول

أرشكول مدينة كبيرة قديمة بناها الأفارقة على صخرة يحيط بها البحر من كل جانب، ما عدا الجنوب حيث يوجد طريق ينزل من الصخر إلى اليابسة. وهي واقعة على بعد نحو أربعة عشر[21] ميلاً من تلمسان. كانت مدينة في غاية العمران والحضارة، دار إمارة إدريس[22] عم إدريس مؤسس مدينة فاس فبايعه الشعب واحتفظ أبناؤه بالحكم فيها مدة مائة سنة، إلى أن جاء أحد ملوك القيروان وخلفائها فدمر المدينة، وبقيت خالية من السكان زهاء مائة وعشرين عاماً. إلى أن أعاد بناءها قوم جاؤوا من مملكة الأندلس مع جيش المنصور (بن أبي عامر) حاجب ملك قرطبة. وقد أصلحها المنصور لما عسى أن يستفيد منها إذا أرسل جنوده إلى إفريقيا، لكن قبائل صنهاجة ومغراوة بعد أن مات المنصور وابنه المظفر، طردوا جميع جنود الأندلس أو قتلوهم ثم خربت المدينة مرات أخرى كما حدث في عام 410 للهجرة[23].

(21) بل 34 ميلاً.

(22) بل سليمان بن عبد الله بن حسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب.

(23) كانت أرشكول في القرن الثالث هـ / القرن التاسع م. أهمّ مدن الساحل بين نكور وتنس، في حين لم تكن وهران قد رأت النور بعد. وكانت واقعة في أحد منعرجات وادي تفنة، ربما قرب أنقاض سيكّة المعروفة اليوم باسم تكمبريت والتي كانت إحدى =

تلمسان المدينة الكبرى

تلمسان مدينة كبيرة، وهي عاصمة المملكة. لم يذكر التاريخ مؤسسها[24] وكل ما يقال انها كانت مدينة صغيرة بدأت تمتد إثر تخريب أرشكول، وخصوصاً بعد طرد جنود المنصور (بن أبي عامر) من المنطقة. وقد توسعت أيام بني عبد الواد حتى أصبح فيها ستة عشر ألف كانون على عهد الملك أبي تاشفين[25] وبلغت حقاً درجة عالية من الازدهار.

لكن تلمسان تضررت كثيراً من جراء الحصار المضروب عليها من طرف (أبي يعقوب) يوسف ثاني ملوك بني مرين، الذي بنى مدينة أخرى

= حواضر المملكة الكبيرة لبربر مسيسيل. ولم يكن يستطيع الوصول إليها سوى السفن الصغيرة، وكان ميناؤها في أحد جوينات الجزيرة المعروفة اليوم باسم رشكون. وهناك التقى عرضاً، عام 206ق.م. قائد جيش الرومان بوبلوس سيبيون مع خصمه القائد القرطاجني أسدروبال، وأقاما معاً ضيفين عند الملك سيفاكس (سوفاك). وبعد أن أسس إدريس بن عبد الله بقليل أول إمارة علوية مغربية في وليلي أواخر القرن الثامن م. استقر أخوه سليمان بتلمسان «فملكها كلها وأذعنت له زناتة وسائر قبائل البربر هناك، وورث ملكه ابنه محمد بن سليمان على سننه، ثم افترق بنوه على ثغور المغرب الأوسط... وكانت أرشكول لعيسى بن محمد بن سليمان ثم لابنه عيسى المكنى أبا العيش»، وبقي أحفاد سليمان يتوارثون إمارة أرشكول وغيرها من ثغور وحواضر المغرب الأوسط إلى أواسط القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي، حيث تغلب عليهم عملاء الفاطميين والمروانيين من المغراويين وبني يفرن، مثلما حدث لابناء عمومتهم الأدارسة ملوك المغرب الأقصى. انظر ابن خلدون **تاريخ العبر**، 4:34-36.

(24) تلمسان صيغة جمع بالبربرية لكلمة تلمسي التي تعني المكان الذي يستقر فيه الماء. وذكر المعلقون في الترجمة الفرنسية أن تلمسان كانت تدعى أيام الرومان «بوماريا» أي الحدائق. وعند أحمد توفيق المدني في كتاب **الجزائر** (ص 201-205) أن أصل تلمسان قريتان «أدغادير» التي أسسها المولى إدريس الأكبر على أنقاض معسكر روماني «وتاقرارت» التي أسسها ملك مراكش يوسف بن تاشفين، ثم انضمت القريتان فأصبحتا تلمسان.

(25) أبو تاشفين عبد الرحمان تولى الملك من عام 1318/718 إلى أن قتل عام 1337/737

شرق مدينة تلمسان، ودام الحصار سبع سنوات[26] واستفحل الغلاء إلى أن بلغ ثمن كيل (روجيو) من القمح ثلاثين مثقالاً، و«سكورزو» من الملح ثلاثة مثاقيل، ورطل اللحم ربع مثقال، فلم يطق السكان تحمل مثل هذه المجاعة واشتكوا إلى الملك، فأجابهم بأنه قابل أن يطعمهم لحمه لو كان يكفي لاعالتهم جميعاً، إذ يعده بخساً بالنسبة لولائهم. فأحضر خمسة أو ستة من أعيان الشعب وأرسلهم إلى مطبخه ليشاهدوا غداءه لذلك اليوم، فكان عبارة عن مزيج من لحم حصان وحبوب شعير كاملة، وورق ليمون وأشجار أخرى ليزداد حجمه.

وهكذا علم الشعب أن ضيق عيش الملك أقوى من ضيق عيش أي مواطن. وأحضر الملك أبناءه واخوته وأحفاده وخاطبهم بكلمات مؤثرة، ثم ختم بقوله إنه مستعد أن يموت شجاعاً أمام العدو بدلاً من أن يستمر في حياة دنيئة بائسة كهذه، فما على من يأنس من نفسه مثل الشجاعة التي يأنسُها هو إلا أن يتبعه غداً، فعبر الكل عن موافقته، إلا أنه، لحسن الحظ، قتل يوسفَ المريني أحدُ خصيانه في حالة جنون، وذلك في نفس الصباح الذي تقرر فيه ذلك الخروج. فتّ الخبر في عضد المحاصرين، وعندما انتشر في تلمسان زاد السكان جرأة وقوة وعزيمة، فخرجوا مع الملك من المدينة وأحرزوا على انتصار لم يكن من قبل في الحسبان، وقتلوا عدداً كبيراً من عدوهم الذي فر شذر مذر، وغنموا أقواتاً وكمية وافرة من الماشية اضطر العدو إلى تركها. وهكذا تحولت مجاعة الأمس إلى رخاء عظيم، حتى إن كيل «السكورسو» من القمح الذي كان يساوي صباحاً ثلاثة مثاقيل

(26) نزل أبويعقوب في جيوشه لحصار تلمسان يوم ثاني شعبان عام 5/698 ماي 1299 وأقام في حصارها مائة شهر.

ولما دخلت سنة 1302/702 اختط قصراً لسكناه ومسجداً للصلاة، وأمر الناس بالبناء حول ذلك، فبنوا الدور والقصور إلخ، وسمى هذه المدينة المنصورة. انظر وصفها وتفاصيل حصار تلمسان عند أحمد الناصري، **الاستقصا**، 3:79-80.

انخفض زوالاً إلى «بيوتشيين»[27]، ورغم ذلك فقد تألم كثيراً كل واحد من طول الحصار الذي فُرِضَ عليه.

وبعد مرور أربعين عاماً، جاء أبو الحسن، رابع الملوك المرينيين بمدينة فاس، فشيد مدينة على ميلين غربي تلمسان وحاصر تلمسان بجيش كثير، ودام الحصار ثلاثين شهراً، وكانت الهجومات تحدث يومياً ويقام كل ليلة معقل يُؤَمِّنُ زحف المقاتلين حتى أسفل الأسوار. ودخل ملك فاس إلى تلمسان عنوة ونهبها، ثم حمل ملكها أسيراً إلى فاس فضرب عنقه وأمر برمي جثته في مزبلة المدينة[28]. غير أنه أصلح ما أصيب به أهل تلمسان، وتوجه إلى مملكة تونس بعد أن ترك ابنه أبا عنان خليفة له على مملكة تلمسان فكانت هذه ثانية كارثة حاقت بمدينة تلمسان[29].

ولما ضعفت شوكة بني مرين، تكاثر سكان تلمسان من جديد، حتى بلغ عدد دورها المسكونة ثلاثة عشر ألف دار.

وجميع الصنائع والتجارات بتلمسان موزعة على مختلف الساحات والأزقة ـ كما ذكرنا ذلك بالنسبة لفاس ـ لكن دور تلمسان أقل قيمة بكثير من دور فاس. وتوجد بتلمسان مساجد عديدة جميلة صينة، لها أئمة وخطباء، وخمس مدارس حسنة، جيدة البناء مزدانة بالفسيفساء وغيرها من الأعمال الفنية، شيد بعضها ملوك تلمسان وبعضها ملوك فاس. وبها

---

(27) بيوتشي (Baiocchi) عملة إيطالية قيمتها نحو 7 سنتيمات ذهب.

(28) خرج أبو الحسن من فاس في أواسط عام 735 هـ يجر الشوك والمدر لحصار تلمسان، فأحيامعالم المنصورة التي اختطها عمه يوسف، فكان أبو الحسن يصبح المقاتلة كل يوم ويطوف على البلد من جميع جهاته للتفقد، واتصل حصار تلمسان ثلاث سنوات إلى أن اقتحمها عنوة أبوالحسن في 27 رمضان 737 هـ ـ 29 أبريل 1337 م. وأسر أبوتاشفين وقتل في الحين انظر الاستقصا، 3:123-126.

(29) أراد فعلاً أبو الحسن بعد فتح تلمسان، أن يقوم بزيارة لصهره أبي يحيى الحفصي ملك تونس، مخترقاً الأقاليم التي خضعت لسلطته لكنه أصيب بمرض في معسكره بسهل متيجة فاضطر إلى الرجوع إلى فاس.

كذلك عدة حمامات متفاوتة القيمة لكنها ناقصة الماء بالنسبة لحمامات فاس، وفيها فنادق على النمط الافريقي، منها اثنان لمقام تجار جنوة والبندقية، وحارة تضم نحو خمسمائة دار لليهود، كلهم تقريباً أغنياء، يضعونْ على رأسهم عمامات صفراء، لكنهم لم يبقوا أغنياء إلّا فترة من الزمان، إذ نهبت أموالهم بعد موت الملك أبي عبد الله عام 923 هـ، فأصبحوا اليوم يكادون يتكففون الناس.

وفي المدينة عدة سقايات، لكن العيون توجد خارج المدينة، بحيث إن العدو يمكنه أن يقطع الماء عنها بدون صعوبة. والأسوار في غاية الارتفاع والقوة، فتحت فيها خمسة أبواب واسعة جداً، مصاريعها مصفحة بالحديد، وقد أقيمت في جوفها حجيرات يقيم فيها موظفون وحراس ومكاسون. والقصر الملكي الواقع جنوب المدينة محاط بأسوار مرتفعة إلى حد كبير، على شكل قلعة، ويضم قصوراً أخرى صغيرة ببساتينها وسقاياتها، وكلها مبنية بكامل العناية وبأسلوب فني رائع. للقصر الملكي بابان، يفضي أحدهما إلى البادية تجاه الجبل، والآخر إلى قلب المدينة حيث يقيم رئيس الحرس. وفي خارج تلمسان ممتلكات هائلة فيها دور جميلة للغاية ينعم المدنيون بسكناها في الصيف، حيث الكروم المعروشة الممتازة تنتج أعناباً من كل لون، طيبة المذاق جداً، وأنواع الكرز الكثيرة التي لم أر لها مثيلاً في جهة أخرى، والتين الشديد الحلاوة، وهو أسود غليظ طويل جداً، يجُفف ليؤكل في الشتاء والخوخ والجوز واللوز والبطيخ والخيار وغيرها من الفواكه المختلفة. وعلى بعد نحو ثلاثة أميال شرق المدينة ترى عدة أرحية لطحن القمح على نهر يدعى سفسف، وترى أخرى قرب المدينة على منحدرات رأس القلعة إلى جهة الجنوب.

ولنرجع إلى المدينة، حيث يوجد بها قضاة ومحامون وعدد كبير من العدول يتدخلون في الدعاوي، وكثير من الطلبة والأساتذة في مختلف

المواد، سواء في الشريعة أو العلوم الطبيعية، وتتكفل المدارس الخمس بمعاشهم بكيفية منتظمة.

وينقسم جميع أهل تلمسان إلى أربع طبقات: الصناع والتجار والطلبة والجنود. فالتجار أناس منصفون مخلصون جداً وأمناء في تجارتهم، يحرصون على أن تكون مدينتهم مزودة بالمؤن على أحسن وجه. أهم أسفارهم التجارية هو الذي يقومون به إلى بلاد السودان، وهم وافرو الغنى أملاكاً ونقوداً. والصناع أناس أقوياء يعيشون في هناء ومتعة، ويحبون التمتع بالحياة. أما جنود الملك فكلهم أناس ممتازون يتقاضون أجرة ملائمة للغاية إلى حد أن أقلهم رتبة ينال شهرياً ثلاثة مثاقيل بسكتهم، تعادل ثلاث «دوكات» ونصف «دوكة» ايطالية؛ وهذه الأجرة للرجل وللفرس، كأن كل جندي افريقي مفروض أن يكون فارساً محارباً. والطلبة أفقر الناس لأنهم يعيشون عيشة بئيسة في مدارسهم، لكن عندما يرتقون إلى درجة فقهاء يعين كل واحد منهم أستاذاً أو عدلاً أو إماماً. ويرتدي التجار الحضريون لباساً جميلاً يكون أحسن أحياناً من لباس أهل فاس، لأنهم حقاً أكثر أناقة وسخاء، وكذلك الصناع، إلّا أنهم يرتدون لباساً قصيراً، والقليل منهم يتعمم، ويكتفون بوضع قلنسوة بدون ثنايا على رأسهم، وينتعلون نعالاً تعلو حتى نصف الساق. وأسوأ لباس هو الذي يتخذه الجنود، إذ يضعون على ظهرهم قميصاً واسعاً عريض الكمين يغطونه بكساء كبير جداً من قماش القطن يلتفون فيه شتاء وصيفاً. حقاً إنهم يرتدون في الشتاء سترة من الجلد مصنوعة على نمط ذلك القميص من الكتان غير محشوة، ويضع العسكريون الأرقى درجة فوق القميص كساء آخر من الجوخ، وفوقه معطف على نمط المعاطف التي كانت تستعمل قديماً في ايطاليا للأسفار، يغطون به رأسهم عند نزول المطر. ويلبس الطلبة ثياباً مناسبة لوضعيتهم: فالجبلي يلبس لباس أهل الجبل، والأعرابي لباس الأعراب. أما الأساتذة والقضاة والأئمة وغيرهم من الموظفين فلباسهم أحسن.

عادات حاشية الملك ومصالحها

يتّبع ملك تلمسان مراسم شديدة، فلا يظهر إلاّ للعظماء ولكبار الشخصيات من رجال حاشيته، ولا يستقبل إلاّ هؤلاء وحدهم. وهم الذين ينجزون القضايا حسب النظام المقرر. وفي هذا البلاط مناصب ومهام عديدة، فالشخصية الأولى هو نائب الملك المزوار الذي يحدد الأجور حسب قدر كل واحد واستحقاقه، ويرأس الجيوش ويقودها أحياناً ضد العدو فتخضع له مثلما تخضع للملك.

والشخصية الثانية هو كبير الكتاب الذي يحرر الرسائل والأجوبة باسم الملك.

والشخصية الثالثة هو أمين بيت المال الذي يقبض مبلغ المداخيل الملكية ويحفظها.

والشخصية الرابعة هو صاحب النفقات الذي يوقع الحوالات على بيت المال حتى يتمكن موظفو القصر الملكي من مجابهة حاجيات القصر والاصطبلات.

والشخصية الخامسة هو قائد الباب المكلف بحراسة القصر والملك عندما يستقبل الناس.

وهناك وظائف أخرى أقل أهمية، مثل قائد الاصطبلات، وقائد السيافين، والحاجب الأعظم الذي لا عمل له إلاّ عندما يستقبل الملك أحداً. ويخدم الملك داخل القصر جاريات مسيحيات وعدد كبير من الخصيان الساهرين على الحريم.

ولباس الملك جميل لائق، والجواد الذي يركبه رائع مسروج بفخامة. واذا امتطى الملك صهوة جواده لم يكن هناك عادةً كبير احتفال لأنه لا يملك سوى ألف فارس. لكن في وقت الحرب عندما يزحف ضد العدو فإنه

يجمع الأعراب والفلاحين من مختلف القبائل ويؤجرهم مدة العمليات العسكرية. ولا يصحب معه عندما يتجول في البلاد، كبير موكب ولا معدات فخمة لإقامة المعسكر، وانما يلبس ويقيم كمجرد قائد، ولا ينفق إلّا القليل بالرغم من العدد الكثير من الجنود في حرسه.

ويسك الملك نقوداً من الذهب الرديء كالدنانير التي تسمى في ايطاليا بسلاتشي[30] غير أن القطعة الواحدة منها تساوي ديناراً وربعاً ايطالياً لكونها كبيرة جداً. ويسك أيضاً نقوداً فضية غير خالصة، وأخرى نحاسية متفاوتة القيمة والنوع.

تنتج البلاد قليلاً، ولا يسكنها إلّا القليل من الناس، لكن لما كانت تشكل مرحلة بين أوربا وبلاد السود فإن الملك يستفيد أموالاً كثيرة من دخول البضائع وخروجها، لا سيما منذ أن احتل المسيحيون وهران. وفي ذلك العهد ارتأى الملك أن يفرض ضرائب ورسوماً تجارية على تلمسان، وكانت معفاة منها أيام الملوك السابقين، الشيء الذي أثار كراهة السكان له. ولما أَصَرَّ ابنُه الذي خلفه على الإبقاء على هذه الضرائب طردوه من تلمسان، وباء بالخذلان. واضطر لاسترجاع ملكه إلى التذلّل للامبراطور شارل الذي أعاده ـ كما ذكرنا ـ إلى عرشه. وكانت هذه المملكة تحقق مردوداً يبلغ ثلاثمائة ألف وحتى أربعمائة ألف دينار طوال العديد من السنين عندما كانت وهران تابعة لها، لكن نحو نصف هذا المبلغ كان ينفق على الأعراب وحراس المملكة، والباقي لأجور الجند والقادة وكبار موظفي الحاشية. وكان الملك هو أيضاً ينفق على قصره وعلى ما يتطلبه تمثيله، لأنه كان كريماً مضيافاً إلى حد كبير. وقد أقمت بحاشيته شهوراً أثناء إقاماتي

(30) أي الخفيفة.

المختلفة بتلمسان، وأترك جانباً عدة تفاصيل متعلقة بعادات هذه الحاشية ومراسمها، لأنها شبيهة بما وصفته في حاشية فاس، حتى لا يملّ القارئ من طول الوصف.

مدينة العُبَّاد

العُبَّاد[31] مدينة صغيرة شبه ربض، تقع في الجبل على بُعد نحو ميل جنوب تلمسان. وهي كثيرة الازدهار وافرة السكان والصناع، ومعظمهم من الصباغين، وبها دفن ولي كبير، ذو صيت شهير، يوجد ضريحه في مسجد يصل الزائر إليه بعد نزول سلّم من عدة درجات، ويعظم أهل تلمسان والبلاد المجاورة لها هذا الولي كثيراً ويستغيثون به ويتصدقون عنده كثيراً لوجه الله، ويسمى سيدي مدين[32]. وهناك أيضاً مدرسة جميلة جداً، وفندق لايواء الغرباء أَسَّسهما بعض ملوك فاس من بني مرين، حسبما يقرأ ذلك في الرخامتين المنقوش عليهما أسماؤهم.

تِفَسْرَة

مدينة صغيرة تقع في سهل على بعد نحو خمسة عشر ميلاً من تلمسان، فيها حدادون كثيرون لأنه توجد بقربها عدة مناجم للحديد، والأراضي المجاورة لها جيدة لزراعة القمح. وأهل تفسرة قليلو المجاملة، إذ لا يشتغلون بغير خدمة الحديد ونقله إلى تلمسان.

---

(31) يطلق عليها اليوم إسم دفينها الشيخ «أبي مدين».

(32) أبو مدين شعيب بن الحسن الغوث، ولد بأشبيلية، وعاش في فاس، ثم انتقل إلى بجاية فتلمسان حيث توفي عام 1198/594.

تِسَّلَة

تِسَّلَة مدينة عريقة في القدم، بناها الأفارقة في سهل كبير يمتد على مسافة نحو عشرين ميلاً[33] وينبت قمحاً جيداً جميل اللون غليظ الحب، يمكنه وحده أن يزود تلمسان بما تحتاجه من حبوب. ويعيش أهل تسلة تحت الخيام، لأن المدينة خربت، لكن ما زال السهل يحمل اسمها، ويؤدون هم أيضاً خراجاً مرتفعاً إلى الملك.

---

(33) هو سهل سيدي بلعباس. لكن يبدو أن قرية تسلة الحالية الواقعة شمال شرق سيدي بلعباس في سفح جبل تسلة ليست في موقع المدينة القديمة، وآثار الرومان متعددة في المنطقة.

إقليم بني راشد

يمتد هذا الإقليم على طول نحو خمسين ميلاً من الشرق إلى الغرب، وعلى عرض يقرب من خمسة وعشرين ميلاً، جهته الواقعة جنوباً كلها سهول، والواقعة شمالاً كلها تقريباً مرتفعات، لكن أراضيهما معاً صالحة للزراعة. وينقسم السكان كذلك قسمين، فأهل هذه المرتفعات يسكنون دوراً لائقة جداً مبنية بجدران، ويزرعون الحقول والكروم، ويشتغلون بسائر ضروريات المعيشة؛ وسكان السهول، وهم أشرف بكثير، يقيمون في البادية ويعيشون تحت الخيام معتنين بماشيتهم، ولهم عدد وافر من الجمال والخيل، وهم أثرياء جداً يؤدون بعض الإتاوات إلى ملك تلمسان.

لأهل المرتفعات قرى عديدة، أهمها اثنتان:

الأولى تدعى قلعة هَوَّارة[34] وتشتمل على نحو أربعين داراً للصناع والتجار، وهي مبنية على شكل قلعة في منحدر جبل بين الشعاب.

وتسمى الثانية الْمَعَسْكَر، وبها يقيم خليفة الملك مع فرسانه، يُعقد فيها سوق كل يوم خميس يباع فيه عدد وافر من الماشية والحبوب والزيت والعسل، وكثير من منسوجات البلاد وأشياء أخرى أقل قيمة، كالحبال

(34) هي قلعة بني راشد في أيامنا هذه الواقعة على بعد 20 كلم جنوب محطة السكة الحديدية لهلليل.

والسروج والأعنة وحاجيات الخيل. ولما كنت في هذه الناحية اتفق أن ذهبت إلى هذا السوق لشراء بعض ضروريات السفر الذي كنت أقوم به إذ ذاك إلى تونس. وصلت إليه ممتطياً فرسي وأول ما اشتريته حبال خيام. وبعد أن فرغت من شرائي وضعت رجلي اليسرى على عنق الفرس حتى أستطيع تعداد مالي على ركبتي وأطلقت العنان والتفت لأؤدي ثمن ما اشتريت، ثم استقمت ووضعت الرجل في الركاب. لكنني لم أجد العنان عندما أردت إمساكه، فنظرت هنا وهناك ثم ناديت الخادم ليقود مطيتي إلى المنزل، واذا بسيافين من خدام الملك أتيا وقالا لي: يا سيدي، لقد سَرَقَ عنانَك بغّالان للخليفة لم يدريا أنك ضيفنا، فرأيناه وأخذناه منهما بالقوة فانظر هل سرقا لك شيئاً آخر! وبعد ذلك اشتريت كل ما كنت محتاجاً إليه وعدت إلى المنزل، وقد حكيت هذه القصة لنائب الملك أثناء تناولنا الغداء، فقهقه ضاحكاً وقال: لا تستغرب إذا ما قلت لك إننا نعاني كثيراً لنجد أناساً يعملون كبغالين، لأنها مهنة وضيعة وشاقة، بالإضافة إلى الأجرة التافهة التي ندفعها لهم والتي لا تكفيهم قطعاً. فسواء ربحوا كثيراً أو قليلاً جداً، وسواء استأجرتهم أنا أو استأجرهم غيري، فانهم يسرقون دائماً، لأن كافة البغالين ببلادنا تعودوا على ذلك منذ طفولتهم. فنتركهم يسرقون وتعساً لمن لا يحترس منهم!

يقدم هذا الإقليم لملك تلمسان زهاء خمسة وعشرين ألف مثقال، ويمده بنفس العدد من المقاتلين بين راجلين وراكبين.

مدينة البطحاء

كانت البطحاء مدينة كبيرة متحضرة جداً وآهلة بالسكان، بناها الأفارقة في عصر قريب[35] في سهل فسيح ينبت فيه القمح بكثرة، وكانت

(35) كانت البطحاء قائمة عام 1119/513 عندما نزل بها محمد بن تومرت في طريق عودته من المشرق، واستضافه أحد كرمائها هو وطائفة من أتباعه، ومنهم عبد المؤمن بن علي. وأقام ابن تومرت وصحبه في البطحاء ثلاثة أيام قبل أن يتابعوا سفرهم إلى فاس =

تحقق لملك تلمسان دخلاً يقدر بعشرين ألف مثقال، لكنها خربت أثناء الحروب التي استعرت بين ملوك تلمسان وبعض أقاربهم من سكان جبل ونشريس[36] ولما كان هؤلاء معززين من طرف ملك فاس فإنهم احتلوا رقعة كبيرة من مدينة تلمسان ودمروا البلدان التي لم يتمكنوا من أخذها وأحرقوها ونتج عن ذلك أنه لا يرى اليوم من البطحاء سوى أسس جدران. ويجري قرب موقعها القديم نهر صغير[37] قليل الأهمية كانت على ضفافه بساتين وحقول في غاية الخصب.

وظل السهل خالياً تماماً من السكان إلى أن جاء أحد النساك على طريقة أهل البلاد، فأقام به مع عدد من أتباعه الذين يرون فيه ولياً صالحاً. فأمر هذا الرجل بحرث الأراضي، وتكاثر بقره وخيله وغنمه إلى حد أن أصبح هو نفسه لا يعرف عدد رؤوس تلك الماشية، إذ لا يؤدي هو ولا ذووه أية إتاوة للملك ولا للأعراب، لأنه كما قلت يعد من الأولياء. وقد أخبرني كثير من أتباعه أن عشر أراضيه يصل إلى 8.000 كيل (رودجي) من القمح في السنة، وان له زهاء خمسمائة من الخيل ذكوراً وإناثاً، وعشرة

= فمراكش. ولما آل ملك الموحدين إلى عبد المومن وسع البطحاء وعمرها عند عودته من غزو افريقية. ويجهل الآن موقع البطحاء، لكن أغلب الظن أنها كانت تقع على الطريق الكبرى المؤدية من تلمسان إلى عاصمة الجزائر على الضفة اليسرى لواد منى قرب إغيلْ إزَّان (ربوة الذئاب) التي أخذ منها اسم مدينة غليزان المشيدة في سفح هذه الربوة. وهناك قرب الطريق والسكة الحديدية آثار كانت تعتبر رومانية، لكنها قد تكون من أطلال البطحاء.

(36) كان بنو توجين الزناتيون يحتلون مرتفعات ونشريس والجبل حتى المدينة، وبعد أن وقفوا بجانب بني عبد الواد عند قيام دولة الموحدين، قلبوا لهم ظهر المجن وأصبحوا خصوماً لهم، بل وحلفاء لبني مرين ملوك المغرب. وربما كان خراب البطحاء في أوائل القرن الهجري الثامن / 14 م بعد استيلاء أبي الحسن المريني على مملكة تلمسان، وانقراض الدولة الأولى لبني زيان. وظل مع ذلك اسم البطحاء يذكر إلى أواخر هذا القرن. انظر أحمد الناصري، **الاستقصا**، 94:2، و124:3 وما بعدها.

(37) هو واد مينى.

آلاف من الغنم، وألفين من البقر، وانه يتوصل سنوياً من مختلف الجهات بمبلغ يتراوح بين أربعة آلاف وخمسة آلاف مثقال نذوراً وصدقات من أناس مختلفين، لأنَّ صيته انتشر في آسيا وافريقيا بأكملها. وتزايد عدد مريديه إلى حد أن الذين يعيشون منهم معه يبلغ عددهم حوالي خمسمائة مريد، وبذلك أخذ يتقاطر عليه جمهور غفير من الناس، يطعمهم جميعاً، ولكنهم يساعدونه في أشغال الزاوية. وينتشر أتباعه في العالم الإسلامي كله، لا يفرض عليهم أية فريضة غير الصلوات العادية، لكنه يعلمهم بعض أسماء الله الحسنى ويوصيهم بذكرها في أورادهم عدة مرات في اليوم، وإذا ما تم تعليمهم عادوا إلى مواطنهم. يملك هذا الشيخ مائة خيمة، بعضها مخصص لإيواء الغرباء، وبعضها لرعاته، والبعض الآخر لعائلته. ولهذا الناسك الطيب الفقيه أربع زوجات وعدة إماء أنجبن له أولاداً ذكوراً وإناثاً، يرتدون جميعاً لباساً أنيقاً جداً. وقد تزوج الأبناء وأنجبوا كذلك أطفالاً، فأصبح بيت الشيخ وبيوت أبنائه تضمّ أكثر من مائة وخمسين نسمة يعولهم جميعاً.

يعظم الأعراب هذا الرجل ويقدرونه إلى حد أن الملك أصبح يخشاه، ورغبت في التعرف عليه فأقمت عنده ثلاثة أيام كاملة، كنت أخلو به كل ليلة وأتناول معه طعام العشاء في حجرة خاصة. ومن الأشياء التي أطلعني عليها بعض الكتب الخاصة بالسحر والكيمياء، محاولاً أن يبرهن لي على أن السحر علم لدرجة أني جعلت أتهمه بأنه ساحر، وذلك لأني رأيت الناس يبالغون في تقديسه وتعظيمه دون أن يفعل أو يقول أو يخترع شيئاً آخر غير ما وصفته من دعاء الله بأسمائه الحسنى[38].

(38) ذكر مارمول أن اسم هذا الشيخ سيدي سينا، وأن أراضيه كانت تسمى سهول سينا، وأن المجرى الأسفل لواد مينى كان يسمى واد سينا. ولم يبق اليوم أثر لهذا الشيخ ولا لطريقته.

مدينة وهران

وهران مدينة كبيرة فيها ستة آلاف كانون، بناها الأفارقة الأقدمون[39] على شاطىء البحر المتوسط، بعيدة بنحو مائة وأربعين ميلاً من تلمسان. وبها من البنايات والمؤسسات ما تتميز به كل مدينة متحضرة، من مساجد ومدارس وملاجىء وحمامات وفنادق، محاطة بأسوار عالية جميلة. يقع جزء من المدينة في السهل، والجزء الآخر في جبل شديد الارتفاع، وكان معظم سكانها من الصناع والحاكة، ويعيش الكثير من أهلها من مدخولهم، لكنها لم يسد فيها الرخاء، إذ لم يكن يؤكل فيها سوى خبز الشعير. ومهما يكن من أمر فان أهلها ظرفاء كرماء يحبون الغرباء.

كانت وهران مهبط التجار القطلونيين والجنويين، وما زالت بها الآن دار تسمى دار الجنويين لأنهم كانوا يقيمون بها. وكان الوهرانيون دائمًا أعداء لملك تلمسان، لم يقبلوا قط أي والٍ من ولاته، ما عدا أميناً للمال وقابضاً يستلم مداخيل الميناء. وكانوا ينتخبون رئيس مجلس ينظر في القضايا المدنية والجنائية، كما كان التجار فيما مضى يجهزون على الدوام سفناً شراعية وأخرى مسلحة يمارسون بها القرصنة، ويجتاحون سواحل قطلونية وجزر يابسة ومنورقة وميورقة، حتى أصبحت المدينة تزخر بالأسرى المسيحيين.

وقد أرسل فرناند ملك اسبانيا أسطولاً كبيراً إلى وهران لمحاربة أهلها وتخليص المسيحيين من مصيبة عظيمة تتكرر بدون انقطاع. فانهزم الأسطول بسبب أخطاء في العمل. ثم أعاد الملك الكرة بعد شهور، فجمع بمساعدة بعض الأساقفة وكردينال اسبانيا[40] اسطولاً أهمّ من الأول،

---

(39) كانت وهران قرية بربرية ضعيفة اسمها إيفري، أي الكهف، ثم وسعها الأندلسيون عام 902. انظر أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص 245 وما بعدها.

(40) هو فرنسيسكو خيمينيس.

تمكن في يوم واحد من الاستيلاء على المدينة، لأن السكان خرجوا يقاتلون بغير نظام وتركوا المدينة خالية، فعلم الاسبان بذلك وأرسلوا قسماً من جنودهم إلى الجانب الآخر من وهران، فلم يجدوا من خصومهم غير النساء وقد صعدن على الأسوار، فدخلوا المدينة بسهولة، بينما كانت المعركة على أشدها في الخارج، ثم غادروها فجأة وركبوا ظهور عدوهم. ولما أخذ المغاربة يتراجعون نحو المدينة لصدّ العدو عنها، أبصروا الرايات المسيحية ترفرف على الأسوار، ووقعوا بين الفريقين الاسبانيين، فضيقوا عليهم الخناق حتى لم ينج منهم إلاّ القليل.

وهكذا استولى الاسبانيون على وهران عام 916 للهجرة[41].

المرسى الكبير

مدينة صغيرة أسسها في عصرنا ملوك تلمسان على ساحل البحر المتوسط، بعيدة ببضعة أميال عن وهران. ومعناها الميناء الكبير، لأن هناك ميناء ما أظن أن في الدنيا أكبر منه، يمكن أن ترسو فيه بسهولة مئات المراكب والسفن الحربية، في مأمن من كل عاصفة وإعصار. وكان من عادة سفن البندقية أن تلجأ إلى المرسى الكبير عند اكفهرار الجو، وترسل بضائعها في قوارب إلى وهران، وإذا كان الجو صحواً قصدت ساحل وهران مباشرة. وقد استولى الاسبان عنوة على المرسى الكبير قبل سقوط وهران ببضعة أشهر[42].

---

(41) كان احتلال الاسبانيين لوهران يوم الجمعة 28 محرم 8/915 ماي 1509 بخيانة يهودي من المهاجرين الأندلسيين. لا كما ذكر الوزان. انظر أحمد توفيق المدني **حرب الثلاثمائة سنة**، ص 110 وما بعدها.

(42) احتُل المرسى الكبير بقيادة الدون دييگُودي قرطبة يوم 24 جمادى الأولى عام 911 هـ 23 أكتوبر 1505. انظر **حرب الثلاثمائة سنة**، ص 96-102.

مَزَكْران

مدينة صغيرة بناها الأفارقة على شاطىء البحر المتوسط، قريباً من مصب نهر الشلف في البحر(43) وهي كثيرة السكان مصونة، لكنها متعرضة كثيراً لتعسفات الأعراب، وليس لواليها إلّا قليل سلطة في الداخل، وأقل من ذلك في خارج المدينة.

مَسْتَغَانَم

مدينة بناها الأفارقة على ساحل البحر المتوسط، على بعد نحو ثلاثة أميال شرقي المدينة السابقة في الضفة الأخرى(44) وكان لها في القديم حضارة كبيرة وسكان كثيرون، لكن الأعراب يكثرون من مضايقتها منذ أن بدأت سلطة ملوك تلمسان تضعف، حتى إنها فقدت ثلثي أهلها في وقتنا الحاضر، ومع ذلك فإنها ما تزال تضم قرابة ألف وخمسمائة كانون. وفيها مسجد في غاية الحسن وصناع كثيرون ينسجون الأقمشة، ودورها جميلة، وسقاياتها عديدة، يخترقها جدول ماء(45) يحرك الطاحونات. وفي خارجها عدة بساتين جميلة، لكن معظمها مهجور. وجميع الأراضي المحيطة بها جيدة للفلاحة وخصبة. لها ميناء صغير كثيراً ما تقصده السفن الأوربية، لكن أصحابها لا يحققون أرباحاً مهمة لشدة فقر السكان.

بِرِيشْك

بريشك مدينة قديمة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط، بعيدة عن المدينة السابقة بعدة أميال(46) يسكنها أناس كثيرون خشنون، ويشتغل

---

(43) الواقع أن مزكران توجد على بعد كيلومترين شرق الساحل، و18 كلم جنوب مصب شلف.

(44) بل على بعد 4 كلم شمال مزكران، و14 كلم جنوب مصب الشلف.

(45) هو جدول العين الصفراء.

(46) لم يبق لبريشك أثر، وهدم سورها زلزال عام 1531. وكان عدد سكانها حتى 1533 يبلغ السبعمائة.

معظمهم بحياكة الأقمشة. إنهم أخفاء وأقوياء كالأسود، اعتاد كل واحد منهم أن يرسم بالوشم صليباً أسود على خديه ويديه في كفه تحت الأصابع، ويحتفظ بهذه العادة جميع الجبليين بالجزائر العاصمة وبجاية. يقول المؤرخون الأفارقة إن عدداً لا يحصى من البلدان والشواطئ والجبال كانت خاضعة للقوط[47] وإنَّ كثيراً من المغاربة تنصروا، وقد أمر ملوك القوط ألا يجبى أي خراج من المتنصِّرين، فكانوا كلهم إبان أداء الخراج يدَّعون أنهم مسيحيون. ولما كان القوط يجهلون لغة البلاد وعاداتها، ولا يتمكنون من التمييز بين المتنصرين ومدعي التنصر فإنهم أمروا المسيحيين بالوشم بهذه الصلبان. وعندما فقد القوط نفوذهم، عاد الكل إلى الدين الإسلامي، غير أن هذه العادة بقيت عبر العصور دون أن يدرك الكثير سببها. ومن عادات الموريطانيين، سواء منهم السادة والسوقة، وشم صليب على خدهم برأس سكين، على نحو ما يفعله بعض الأشخاص بأوربا.

تكثر الخيرات في بريشك لا سيما التين، وتنتج البادية الجميلة من حولها كثيراً من الكتان والشعير، وأهل بريشك حلفاء الجبليين المجاورين[48] وأصدقاؤهم، وبذلك تمكنت المدينة من الدفاع عن نفسها طوال مائة سنة والتحرر من كل خراج، إلى أن جاء التركي بربروس فأثقل كاهلها بالإتاوات.

ينقل كثير من أهل بريشك التين والكتان بحراً إلى الجزائر العاصمة وبجاية وتونس، ويستفيدون من ذلك ربحاً حسناً.

وما زال في المدينة كثير من آثار عمارات الرومان وأبنيتهم، وبأنقاضها بنيت الأسوار[49].

(47) يعني الوندال.
(48) هم زاتيمة فرع من فروع زناتة.
(49) لم يبق إلّا هذه الآثار التي أتلفها البحر كثيراً.

مدينة شَرْشَال

هي مدينة كبيرة جداً وأزلية، شيَّدها الرومان كذلك على ساحل البحر المتوسط(50) وكانت دائرتها في القديم تكاد تبلغ ثمانية أميال، وهو طول سورها الشاهق المبني بأحجار ضخمة منحوتة. ويظهر منها قرب البحر مسجد كبير عال جداً ما زال محرابه قائمًا إلى الآن، وكله مكسو بالمرمر من الداخل. وكان هناك فيما مضى من الزمن قلعة عظيمة قائمة على صخرة يراقب منها البحر على مسافة بعيدة. ويحيط بهذه المدينة أراض فلاحية جميلة جيدة، وكان جزء منها كثير السكان أيام المسلمين، رغم ما تعرضت له من تخريب شديد على يد القوط (الوندال)، وذلك طوال مدة تقرب من خمسمائة عام، ثم هجرت أثناء الحروب القائمة بين ملوك تلمسان وملوك تونس، وبقيت خالية من السكان زهاء ثلاثمائة سنة حتى سقوط غرناطة في أيدي المسيحيين، فقصدها الغرناطيون إذ ذاك وأعادوا بناء عدد مهم من دورها، وجددوا القلعة ووزعوا الأراضي بينهم، ثم صنعوا كثيراً من السفن للملاحة، واشتغلوا بصناعة الحرير، إذ وجدوا هنالك كمية لا تحصى من أشجار التوت الأبيض والأسود. فعاشوا في رخاء دائم حتى أصبحوا يسكنون في مائتين وألف بيت، ولم يخضعوا إلّا لبربروس الذي لم يؤدُّوا له مع ذلك خراجاً سنوياً أكثر من ثلاثمائة مثقال.

مَلْيَانَة

مدينة كبيرة جداً وقديمة، بناها الرومان وأطلقوا عليها اسم ماكْنانة، لكن العرب حرّفوا هذا الاسم(51).

(50) أصلها مدينة فينيقية كانت تسمى أيول، ثم استقر الملك المغربي يوبا الثاني فوسّعها وزخرفها ودعاها القيصرية، وقد خربها الوندال ثم أحياها العرب المسلمون، خاصة المهاجرون الأندلسيون. انظر: أحمد توفيق المدني، ص 22.

(51) ذكر أحمد توفيق المدني في كتاب الجزائر، ص 240 أن مليانة من تأسيس الملك الصنهاجي بلقين بن مناد في القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي.

تقع هذه المدينة في قنةجبل[52] على بعد نحو أربعين ميلاً من البحر، اي عن شرشال. وهذا الجبل مليء بالعيون ومكسوّ بأشجار الجوز، حتى إن الجوز هنالك لا يشترى ولا يقتطف. والمدينة محاطة بأسوار عالية عتيقة، والصخرة تشرف من جهة على شعب سحيق[53] ومن جهة أخرى على منحدر يبدأ من أعلى الجبل ويُذكّر بمدينة نارني القريبة من روما. وللميانة دور متقنة الصنع، في داخلها كلها سقايات جميلة. يكاد يكون سكانها كلهم صناعاً، نساجين أو خراطين، ويصنع هؤلاء أواني من خشب في غاية الحسن، ويشتغل كثير من السكان كذلك بالفلاحة.

وقد عاشوا كلهم أحراراً حتى جاء بربروس فأخضعهم وفرض عليهم الضرائب.

تَنَس

مدينة أزلية بناها الأفارقة في منحدر جبل على مسافة قريبة من البحر المتوسط[54] يحيط بها سور، وسكانها أقوام فِظاظ غِلاظ. وقد كانت دائماً خاضعة لملك تلمسان، لكن الملك محمداً جدّ الملك الحالي[55] خلّف ثلاثة أبناء، أكبرهم عبد الله، وثانيهم أبو زيان، وثالثهم يحيى. فآل الحكم إلى الأول بعد وفاة أبيه، وتآمر الآخران مع بعض الشخصيات من تلمسان على اغتياله، لكن المؤامرة افتضحت فألقي القبض على أبي زيان وزجّ به في

(52) بل في سفح جبل زكار الغربي على ارتفاع 720 متر عن سطح البحر، بينما يبلغ ارتفاع هذا الجبل 1579 متر.

(53) يعني شعب شلف، وفي كتاب الجزائر: تشرف على سهول الشلف الواسعة.

(54) أصلها مستودع تجاري قرطاجني قديم، أقام الرومان مكانه مدينة (كارطيناس ـ كارط تنس ـ ومنها جاء الاسم المتداول حتى اليوم تنس.

(55) يقصد محمداً السابع المعروف بالثابتي نسبة إلى جده أبي ثابت محمد الخامس. وقد تولى الملك عام 902 هـ/1496 إلى أن توفي عام 1503/909.

انظر: عبد الرحمان الجيلالي، **تاريخ الجزائر العام** 2:195وما بعدها.

السجن، إلا أنه أطلق سراحه بعدما طرد أبو حمو، واسترجع ملكه إلى أن قتله بربروس، كما أسلفنا ذلك. وفرّ الأخ الثالث إلى فاس محتمياً بملكها[56] فطلبه أهل تَنَس وبايعوه ملكاً، ودام ملكه عدة سنوات. وترك المملكة بعد وفاته إلى ابنه الشاب الذي طرده أيضاً بربروس، واضطر إلى التوجه إلى اسبانيا عند جلالة الامبراطور القيصر شارل الذي لم يكن حينئذ سوى ملك اسبانيا. فوعده بالمساعدة، إلّا أنه ماطله، فتنصّر هذا الأمير هو وأخوه الأصغر، وأقاما باسبانيا يتقاضيان معاشاً مهمًا من الامبراطور. وآلت تَنَس الى أحد الأخوين التركيين بربروس (خير الدين). لا أثر للظَّرف في هذه المدينة. وأما إقليمها فينتج الكثير من القمح والعسل، ولا ينتج مما سواهما إلا القليل.

مَازُونَة

مدينة أزلية بناها الرومان ــ حسب قول بعضهم ــ على بعد نحو أربعين ميلاً من البحر. تمتد على مساحة شاسعة وتحيط بها أسوار متينة، لكن دورها قبيحة فقيرة، وفيها جامع وبعض مساجد أخرى[57]. لقد كانت مدينة متحضرة جداً في القديم، لكنها كثيراً ما تعرّضت للتخريب من قبل ملوك تونس تارة ومن قبل الثوار تارة أخرى، وبالتالي من الأعراب، حتى أصبحت اليوم قليلة السكان، وهم إما نسّاجون أو فلاحون، وجميعهم تقريباً فقراء، لأنَّ الأعراب يثقلون كواهلهم بالاتاوات. والأراضي المزروعة جيدة تعطي غلة حسنة.

ويشاهد بقرب المدينة أماكن خربة مما كان بناه الرومان. لا تحمل أي اسم معروف لدينا، لكن يدل على أصلها الروماني العدد الوافر من الكتابات المنقوشة على قطع الرخام، ولم يذكرها قط مؤ رخونا الأفارقة.

---

(56) هو محمد الوطاسي المعروف بالبرتغالي.

(57) في كتاب الجزائر ص236 أنها تقع عند ضفة وادي وايزان اليسرى، وترتفع فوق ثلاث ربوات هرمية الشكل، تعْلوها قبب المساجد وثلاثة مآذن.

الجزائر

معناها الجزر، سميت بذلك لأنها مجاورة لجزر ميورقة ومنورقة واليابسة[58] لكن الاسبانيين يسمونها أَلْجي. والمدينة قديمة من بناء قبيلة إفريقية تدعى مِزْغِنَّة، فأطلق عليها القدماء هذا الاسم[59].

وهي كبيرة جداً تضم نحو أربعة آلاف كانون، أسوارها رائعة ومتينة جداً، مبنية بالحجر الضخم. فيها دور جميلة وأسواق منسقة كما يجب، لكل حرفة مكانها الخاص. وفيها كذلك عدد كثير من الفنادق والحمّامات. ويشاهد من جملة بناءاتها، جامع ممتاز في غاية الكبر على شاطىء البحر. أمامه ساحة جميلة جداً اتخذت على سور المدينة ذاته الذي تتلاطم عند أسفله أمواج البحر. ويحيط بالجزائر عدد من البساتين والأراضي المغروسة بأشجار الفواكه.

ويمر قرب المدينة من الجهة الشرقية، نهر نصبت عليه طاحونات. ويزوّد السكان بالماء للشرب ولأغراض أخرى.

في الضواحي سهول جميلة جداً، لا سيما سهل المتيجة الذي يبلغ طوله حوالي خمسة وأربعين ميلاً وعرضه ستة وثلاثين ميلاً، حيث ينبت القمح الجيد بكثرة.

---

(58) تأويل غير صحيح، بل سميت باسم جزر صخرية كانت أمام مركز الجزائر حيث كانت تقيم قبيلة بربرية تدعى بني مزغنة، فسمي المكان جزائر بني مزغنة، ثم تنوسي اسم القبيلة وبقيت جزائر.
انظر: تفصيل ذلك وتاريخ هذه المدينة وآثارها عند أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص 206 وما بعدها.

(59) كانت المدينة الرومانية تسمى أيكوسيوم.

كانت الجزائر خاضعة لتلمسان مدّة طويلة، لكنها استسلمت لملك بجاية القائم حديثاً[60] لقربها من مملكته، فانحاز أهل الجزائر إلى ملك بجاية لما أوجسوا منه خِيفة، ولعدم قدرة ملك تلمسان على إنجادهم، فبايعوه وأدّوا إليه الخراج، لكنهم بقوا تقريباً متحررين. وبعد ذلك سلّحوا سفناً وتحولوا إلى قراصنة، فصاروا يغيرون على جزر يابسة وميورقة ومنورقة، وحتى شواطىء اسبانيا. لذلك أرسل الملك الكاثوليكي فردناند أسطولاً عظيمًا لحصار الجزائر، فشيّدوا قلعة جميلة كبيرة في جزيرة صغيرة مقابلة تماماً للمدينة وقريبة منها[61] بحيث كانت قذائف المدفعية تصل إلى اليابسة بل وتمر فوقها من سور إلى سور، فاضطر أهل الجزائر إلى إيفاد سفارة إلى اسبانيا تطلب هدنة عشر سنوات مقابل بعض الخراج. فقبل الملك ذلك وعاشوا في السلم بضعة أشهر.

ثم جاء بربروس فحاصر بجاية[62] وإحدى القلعتين اللتين بناهما الاسبان، بعد أن استولى على الأخرى. لكنه لم يصل إلى نتيجة، لأن القبائل الجبلية التي هبّت لنصرته ذهبت بدون استئذانه لزرع الحقول، وتبعها أيضاً عدد كبير من الجنود الأتراك[63] فاضطر بربروس إلى الفرار، وقبل أن ينصرف أحرق بيده اثنتي عشرة سفينة ضخمة كانت راسية في

---

(60) بعد موت أبي فارس عبد العزيز (عزوز) الحفصي يوم عيد الأضحى من عام 837/28غشت 1433 اختلّت دولة الحفصيين، وأخذ الولاة من رجال الأسرة المالكة يثورون على أقربائهم الملوك. فكان من ذلك ثورة أبي الحسن بن أبي فارس الحفصي والي بجاية ضد السلطان أبي عمرو عثمان، وإعلانه قيام مملكة بجاية منفصلة عن مملكة تونس، ورغم مقتل أبي الحسن فإن إمارة بجاية ظلّت شبه مستقلة فترة غير قصيرة من الزمن.

(61) كلف الكونت بيير نفارو، الرئيس الأكبر للأسطول الأسباني، سنة 1510، قائد أسطول البحر المتوسط، دييكو دي فيرا، بتشييد برج البينيون بالجزائر.

(62) في رجب 921 غشت 1515.

(63) هطلت في منتصف شتنبر أمطار غزيرة، تضرّر منها القبليون كثيراً فغادروا صفوف الجيش ليشتغلوا بحرث أراضيهم.

النهر، على بعد ثلاثة أميال من بجاية. ثم التجأ مع أربعين من خواصه الأتراك إلى قصر جيجل الواقع على بعد ستين ميلاً من بجاية، ومكث به فترة من الزمان هلك خلالها الملك الكاثوليكي(64)، وأراد أهل الجزائر أن يفسخوا الهدنة ويتخلصوا من الخراج الذي كانوا يؤدونه لاسبانيا، فأرسلوا إلى بربروس ليكون قائداً لهم. نظراً لقيمته العسكرية العظيمة وكفايته في محاربة المسيحيين. وكان الخلاف قائمًا بين بربروس وأحد المتسلطين على إمارة الجزائر، فقتله غيلة في أحد الحمامات. وكان هذا المتآمر زعيم الأعراب القاطنين بسهل المتيجة، واسمه سليم التومي من قبيلة ثعلبة التي هي فرع من معقل، استولى على الحكم بالجزائر عندما احتل الاسبانيون بجاية(65) واستقر فيها عدة سنوات، إلى أن أتى بربروس فقتله، ونودي به ملكاً فضرب السكة وأذعن له جميع السكان بالطاعة وأرسلوا إليه الخراج. ذلكم كان أصل قوة بربروس وعظمته.

حضرت جل هذه الأحداث، إذ كنت على سفر من فاس إلى تونس، ونزلت ضيفاً عند السفير الذي بعث به إلى اسبانيا وعاد حاملاً معه زهاء ثلاثة آلاف مخطوط عربي اشتراها من شاطبة، إحدى مدن مملكة بلنسية. خرجت من الجزائر قاصداً بجاية فوجدت بربروس محاصراً قلعتها، ومكثت عنده لأشاهد نهاية هذه المعركة، إلى أن هرب والتجأ إلى جيجل، فانصرفت بدوري قاصداً قسنطينة في طريقي إلى تونس. وقيل لي إن بربروس قُتل في ذلك الوقت بتلمسان، وبويع أحد إخوته المسمى خير الدين أميراً على الجزائر، وما زال يحكمها حتى الآن(66).

(64) هو فردناند الخامس، وهلك في 23 يناير 1516.

(65) في 25 رمضان عام 5/915 يناير 1510.

(66) المشهور حسب الرواية العربية أن عرّوج عندما احتل تلمسان، استنجد ملكها أبو حمو الزياني بالاسبانيين فأعانوه وحاصروا تلمسان في جمادى الأولى عام 924 / ماي 1518، فاضطر عروج إلى الانسحاب منصرفاً إلى ناحية وادي الملح، وهناك اعترضه كمين اسباني فقاتلهم حتى استشهد، فحزوا رأسه وأخذوه إلى اسبانيا. =

لقد عزم الامبراطور كارلوس الخامس مرتين ــ حسب ما قيل لي ــ على الاستيلاء على الجزائر، وأرسل في سنتين مختلفتين أسطولاً للإغارة على المدينة، فهزم الأول وغرق معظمه في المرسى، واستطاع الأسطول الثاني أن ينزل الجنود إلى البر، فخاضوا الحرب ثلاثة أيام بدون انقطاع، إلا أنهم غلبوا فقتل بعضهم، وأسر البعض الآخر فأصبحوا عبيداً لبربروس، ولم ينج منهم إلا القليل. وكان ذلك عام 922 هـ[67].

تَقْدِمْتْ

مدينة قديمة جداً أسسها الرومان ــ حسب قول بعضهم ــ وأطلق عليها الأفارقة هذا الاسم الذي معناه عتيقة. يبلغ طول محيطها عشرة أميال، كما يلاحظ ذلك من تتبع أسس أسوارها. وما زال بها أنقاض معبدين كبيرين كانت تعبد فيهما الأصنام. ولما فتحها المسلمون عادت مدينة متحضرّة جداً تضمّ عدداً وافراً من العلماء والشعراء، إذ كان الأمير عليها

= أما أخوه خير الدين فقد نودي به على أثر ذلك أميراً على الجزائر، فأخذ البيعة للخليفة العثماني، وضرب السكة باسمه، وأصبحت الجزائر بذلك ولاية عثمانية، ولو أن المتأخرين من الملوك الزيانيين ظلوا يتأرجحون بين الأتراك والاسبان إلى أن قضى على آخرهم الحسن بن عبد الله عام 1555/963 فخلص الأمر للأتراك حينئذ.

(67) خبر الحملتين البحريتين صحيح في أصله، إلا أن الحملة الأولى كانت بإيعاز من الكردينال خيمنس وبقيادة دييكو دي فيرا، في أواخر شعبان 922/ شتنبر 1516 (35 سفينة تحمل ثمانية آلاف مقاتل، مجهزة بالأسلحة المختلفة) فنزلوا إلى الساحل ولقيهم المسلمون في حرب ضارية بقيادة عروج، فكانت للعدو هزيمة شنعاء وغرق معظم الأسطول. أما الحملة الثانية فكانت في شعبان 925 / غشت 1519بقيادة نائب ملك الصقليتين هكودي منكاد، والقائد الاسباني كونزالفو مارينو دي ربيرا (40سفينة تحمل خمسة آلاف من أشد المقاتلين المجهزين بأحدث الأسلحة).

فنزل الاسبانيون كذلك إلى البر، فحاربهم المسلمون بقيادة خير الدين، ومات كذلك وأسر من الاسبانيين عدد كثير، وغرقت أو أحرقت معظم سفنهم. انظر تفاصيل ذلك كله عند أحمد توفيق المدني، **حرب الثلاثمائة سنة**، ص 179-210.

أحد أعمام إدريس مؤسس مدينة فاس، واستمرت إمارة الأدارسة فيها زهاء مائة وخمسين عاماً، ثم خربت تَقْدِمَت أثناء الحروب التي شنهّا عليها خليفة القيروان الشيعي عام 365 هـ، حتى لم يعد الزائر يشاهد بها الآن سوى آثار الأسس، كما لاحظت ذلك بنفسي(68).

المَدْيَة

المدية مدينة بناها الأفارقة في تخوم نوميديا، على بعد نحو ثمانين ميلاً من البحر المتوسط(69)، وتقع في سهل خصيب جداً، تحيط بها جداول ماء كثيرة وبساتين. سكانها أثرياء لأنهم يتّجرون مع نوميديا. ويرتدون لباساً أنيقاً ويسكنون دوراً جميلة. إلّا أن الأعراب يثقلون كواهلهم بالإتاوات، ولا يستطيع ملك تلمسان أن يدافع عنهم ولا أن يسيطر عليهم. لبعدهم عن هذه المدينة بنحو 200 ميل(70).

كانت المدية تابعة لأمير تَنَس، ثم خضعت لبربروس (عروج) ولأخيه (خير الدين). وقد أقمت نحو الشهرين في مرح ونشاط كبيرين، وأُكرمت أكثر من قبل أميرها، لأن الغريب إذا مرَّ بالمدية يكاد سكانها يحبسونه بالقوة، طالبين منه بتوسل وابتهال أن يفصل في قضاياهم، ويحرر عقودهم ويفتيهم في نوازلهم. وقد حصلت في هذين الشهرين على عشرات المثاقيل،

---

(68) تقدمت (أو تاقدمت) تقع على بعد تسع كيلو مترات من مدينة تيارت الحالية التي اشتهرت في ثورة الأمير عبد القادر، حيث اتخذها مخزناً عاماً لذخيرته وسلاحه وأقواته إلى أن اضطر لإخلائها أواسط عام 1841/1257. وليست تقدمت هي مدينة تهرت الرستمية الشهيرة، وما تزال أنقاضها ماثلة للعيان بالقرب من تيارت وتَقْدِمَت.
انظر: أحمد توفيق المدني، **كتاب الجزائر**، ص 205-206.

(69) لا تبعد المدينة عن عاصمة الجزائر إلا بنحو 56 ميلاً، وهي قديمة كان الرومان يسمونها «لامبديا» باسم قبيلة لمدية الصنهاجية، فخربت وجدد بناءها الملك بلقين بن زيري. انظر: **المصدر السابق**، ص 236-237.

(70) بل بأكثر من 300 ميل.

بضائع ونقوداً وماشية، حتى هممت أن استقر بهذه المدينة لولا اضطراري إلى مغادرتها بسبب المهمة التي كلفني بها مولاي.

تَمَنْدْ فُوسْتْ

مدينة عتيقة بناها الرومان على شاطىء البحر المتوسط، على بعد نحو اثني عشر ميلاً من الجزائر[71]، لها ميناء حسن يستعمله الجزائريون، إذ ليس لهم غير مجرد شاطىء رملي. وقد خرّب القوط (الوندال) هذه المدينة، وأعيد بناء أسوار الجزائر كلها تقريباً بالحجر المأخوذ من تمند فوست.

دَلّس

تدلّيس (دَلّس) مدينة عتيقة بناها الأفارقة على بعد نحو تسعة وثلاثين ميلاً[72] من شاطىء البحر المتوسط. تحيط بها أسوار قديمة متينة، وجل سكانها صباغون لوجود عدد من العيون والجداول بها. وهؤلاء السكان ذوو بشاشة ومرح، يحسنون تقريباً كلهم العزف على العود والقيثار. يملكون أراضي زراعية كثيرة تنتج القمح بوفرة، ويرتدون لباساً حسناً كلباس الحضريين الجزائريين. وقد تعودوا جميعاً اصطياد السمك بالشباك، فيحصلون على كمية وافرة منه لا تباع ولا تشترى، وإنما يهدونه لمن يرغب فيه. وتتبع دلس دائمًا عاصمة الجزائر في كل شيء، حكومة وإمارة.

* * *

(71) يعني الخرائب الرومانية لمستعمرة روسكونيي، شرق شاطىء عاصمة الجزائر على بعد 27 كلم منها.

(72) بل أكثر من 50 ميلاً.

جبال مملكة تلمسان

جبل بني يَزْنَاسَنْ

يقع هذا الجبل على بعد نحو خمسين ميلاً غربيّ تلمسان، ويتاخم من جهة قفر كَرْطْ، وقفر أَنْكَادْ من جهة أخرى، ممتداً على طول خمسة وعشرين ميلاً، وعلى عرض نحو خمسة عشر ميلاً. وهو شديد الوعورة والارتفاع، صعب المسالك، تكسوه غابات كثيرة تنتج كمية وافرة من الخروب الذي يعتبر الغذاء الرئيسي للسكان، إذ ليس لهم سوى القليل من الشعير. ويضم هذا الجبل مداشر عديدة يسكنها قوم ذوو بأس شديد.

وفي أعلى الجبل قلعة حصينة يقيم بها أمراء البلاد، ولو أنهم غالباً ما يتحاربون بينهم تنافساً على الحكم. وكانت لي مع هؤلاء الأمراء علاقات طيبة لما تعرّفت عليهم في بلاط فاس، وأظهروا لي عناية كبيرة.

ويعطي هذا الجبل ما يقرب من عشرة آلاف محارب.

جبل مْطَغْرَة

هذا الجبل شاهق جداً شديد البرودة، لكنه كثير السكان. يقع على بعد نحو ستة أميال من نَدْرُومَة. وسكانه أشداء، لكنهم فقراء، إذ لا ينبت في جبلهم حب غير الشعير، لكن فيه أيضاً كثير من الخرّوب. وأهل

ندرومة متحالفون مع هؤلاء الجبليين، يؤازر بعضهم بعضاً ضد ملك تلمسان.

جبل وَهْاصَة

يجاور هذا الجبل المرتفع مدينة هنين، وتسكنه قبيلة عاتية، لكنها ريفية، وكثيراً ما حاربت أهل هنين حتى خربت مدينتهم. ينبت فيه قليل من القمح، وكثير من الخروب.

جبل أَغْبَالْ

يسكن جبل أغبال أناس أنذال خاضعون لحكومة مدينة وهران. وكلهم فلاحون وحطابون، يحملون حطبهم إلى وهران. وكانوا في عيشة راضية يوم كانت المدينة بأيدي المسلمين، لكن عندما احتلها النصارى أصيب الجبليون بفقر مدقع، ولحقهم أذى كثير من هؤلاء المحتلين.

جبل بني وَرْنِيدْ

يقع هذا الجبل على بعد نحو ثلاثة أميال من تلمسان، وهو كثير السكان، ينتج كمية وافرة من الفواكه، لا سيما التين والكرز. وأهله فحامون وحطابون وفلاحون، بحيث إن دخل هذا الجبل اثنا عشر ألف مثقال في السنة، حسب ما أخبرني به كاتب ملك تلمسان.

جبل مَغْرَاوَة

يمتد هذا الجبل هو الآخر على طول نحو أربعين ميلاً محاذياً شاطىء البحر المتوسط، قريباً من مدينة مستغانم المذكورة آنفاً. سكانه نبلاء

أشداء، يملكون أراضي جيدة، بالإضافة إلى أنهم على جانب عظيم من المجاملة والكرم(73).

جبل بني بُوسْعِيد

يجاور هذا الجبل مدينة تَنَس، ويقطنه سكان كثيرون فِظاظ غِلاظ القلوب، لكنهم مقدامون، يملكون كمية وافرة من العسل والشعير والماعز، ويحملون الشمع والجلود إلى شاطىء تَنَس ليبيعوها إلى التجار الاوروبيين، وكانوا يؤدون إتاوة ضئيلة إلى ملك تَنَس لما كانت تلك البلاد خاضعة لأقربائه.

جبل وَنْشَرِيسْ

هذا الجبل شاهق تسكنه قبيلة نبيلة(74) حاربت ملوك تلمسان عدة مرات ودامت هذه الحروب أكثر من ستين عاماً بسبب مساندة ملوك فاس. هذا الجبل جيد التربة كثير العيون، وفي قمته الشديدة الوعورة كمية وافرة من معدن التوتيا (الزنك)، ويبلغ عدد المقاتلين فيه نحو عشرين ألفاً، منهم ألفان وخمسمائة فارس. وهؤلاء الجبليون هم الذين ساعدوا الأمير يحيى عندما عمل على تنصيب نفسه، لكن عندما استبدلت دولة تنس أميرها، أخذ فرسان هذا الجبل يشنون الغارات على البلاد.

---

(73) لا يذكر اليوم بهذه القبيلة الكبيرة إلا رأس مغراوة الواقع على مسافة 104 كلم شرق مستغانم و56 كلم غرب تنس ويبدو أن مغراوة زناتة ـ بالبربرية إمَغْرَان الكبار ـ هم الذين نعتهم هيرودوت باسم مكلبيس في ضواحي جزيرة جربة، وبلين باسم مكريبي، وبطليموس باسم مَكْرِييس.

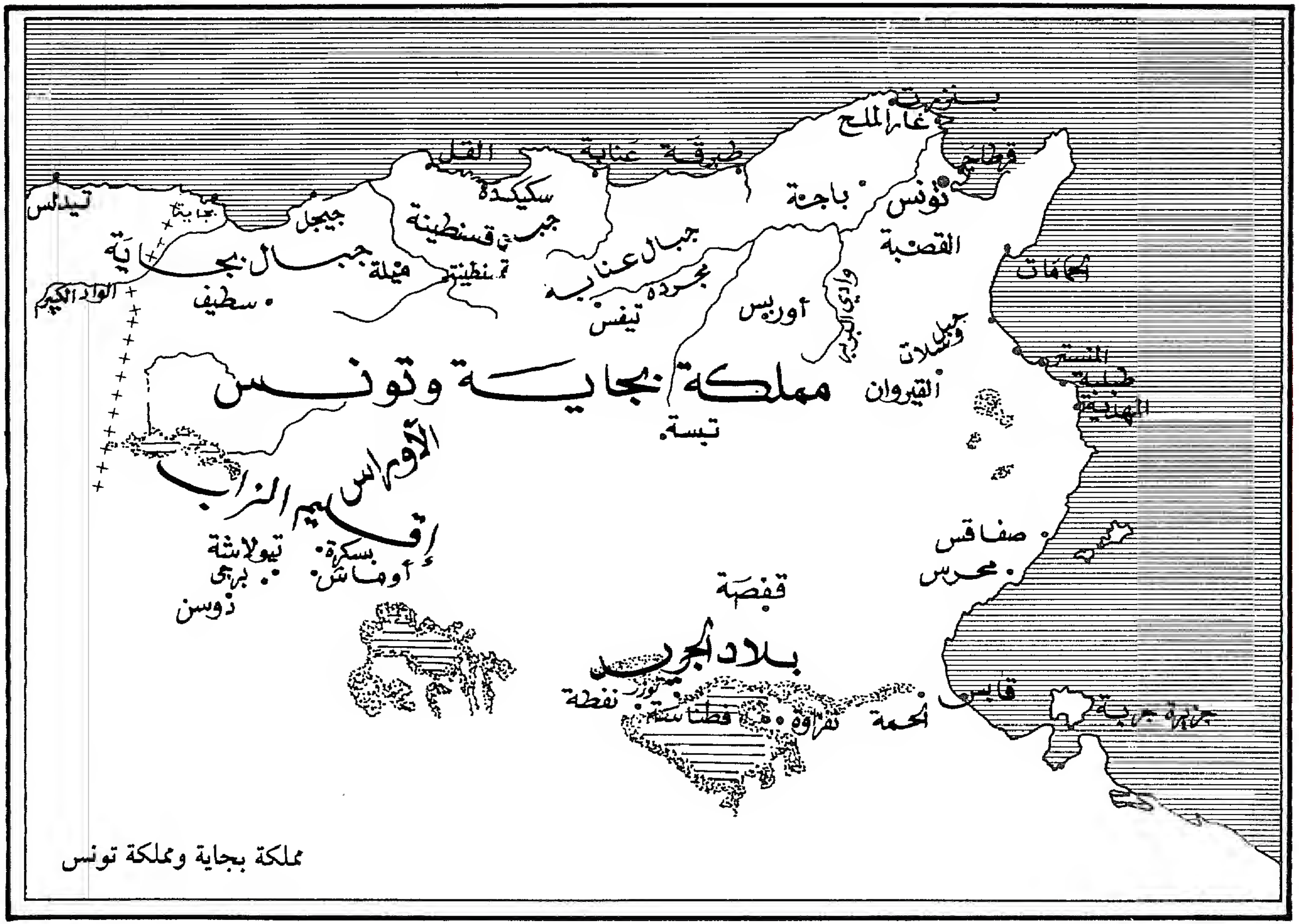
(74) هم بنو توجين الزناتيون.

جبال دولة الجزائر

يوجد في شرق سهل الجزائر وجنوبه عدد لا يحصى من الجبال، تسكنها قبائل شديدة البأس، متحررة من كل إتاوة، وافرة الغنى، واسعة الكرم. يملكون أراضي جيدة للزراعة، وكمية عظيمة من الماشية والخيل. وكثيراً ما تحارب هذه القبائل بعضها بعضاً، حتى لا يستطيع أحد، سواء كان من أبناء المنطقة أو غريباً عنها، أن يمر فيها بسلام ما لم يكن مصحوباً بأحد الأولياء ويقيم هؤلاء الجبليون فيما بينهم معارض وأسواقاً لا يوجد فيها غير البهائم والحبوب والصوف، وقليل من الأقمشة المجلوبة من المدن المجاورة.

القسم الخامس

مملكة بجاية
ومملكة تونس



مملكة بجاية ومملكة تونس

مملكة بجاية
ومملكة تونس

لما قسّمتُ في بداية هذا الكتاب بلاد البربر إلى ممالك، ظننتُ أن من الواجب أن أعدّ من بينها دولة بجاية؛ ثم دقّقتُ النظر في المسألة فوجدتُ أن بجاية لم تكن حاضرة ملك إلا منذ قليل حتى أيامنا الأخيرة، وأن حكومتها تابعة لا محالة لملك تونس؛ لكن ملوك تلمسان احتلّوها وبسطوا نفوذهم عليها مدة طويلة، إلى أن شعر أبو فارس ملك تونس بقوة شوكته، فأجلب عليها بِخَيله ورجله ومَلَكَها وأخضع مِلك تلمسان إلى سلطته. وترك أبو فارس أحد أبنائه حاكمًا أميراً على بجاية، لا لتأمين المدينة أكثر فقط، ولكن أيضاً لتفادي الخصومات المحتمل وقوعها بين أبنائه بعد وفاته. فأعطى أحدهم بجاية ــ كما قلت ــ وهو عبد العزيز، وأعطى آخر مملكة تونس، وهو عثمان الذي بقي في الحكم أربعين عاماً؛ أما الثالث المدعو عمّار فآل إليه أمر بلاد الجريد، وثار على أخيه عثمان ملك تونس، فطارده هذا الأخير حتى استولى عليه في مدينة صفاقس. واختار الثائر نفسه طريقة عقابه بفقء عينيه وحمله إلى تونس، حيث عاش أعمى سنوات عديدة. وبقي أمير بجاية مطيعاً دائمًا لأخيه، واستمرت السلطة الملكية طويلاً في أسرة أمير بجاية إلى أن انتزعها منهم الملك فردناند بقوة السلاح، والمقدرة الجريئة لبيير نافارو(1).

(1) احتل الاسبانيون بجاية عدة مرات وخرّبوها، ثم استرجعها منهم باشا الجزائر صالح رايس عام 962/1.555.

مدينة بِـجَايَة الكبيرة

بجاية[2] مدينة عتيقة بناها الرومان ــ على ما يراه بعضهم ــ في منحدر جبل شاهق على ساحل البحر المتوسط. تحيط بها أسوار عالية متينة، وتناهز كوانينها ثمانية آلاف، أقصد في القسم المسكون منها، إذ لو امتلأت دوراً لفاق عدد كوانينها أربعة وعشرين ألفاً. وتمتد عرضاً على خاصرة الجبل في مسافة لا يمكن تصوّرها. ودورها كلها جميلة، وفيها جوامع كافية، ومدارس يكثر فيها الطلبة وأساتذة الفقه والعلوم، بالإضافة إلى زوايا المتصوّفة وحمامات، وفنادق ومارستانات، وكلها صروح مشيّدة حسنة البناء. وأسواقها كذلك جميلة منسّقة أحسن تنسيق. إلا أن المدينة كلها عقبات، بحيث أن الماشي لا يستطيع أن يخطو خطوات دون أن يصعد أو ينزل.

توجد قرب الجبل قلعة كبيرة متينة الجدران مزخرفة بالفسيفساء والجص المجزع والخشب المنقوش المزدان بألوان اللازرود العجيبة، حتى إن هذه الأعمال الغنية تساوي أكثر من قيمة البناء نفسه. وكان أهل بجاية على قدر عظيم من الغنى، يسلّحون العديد من السفن الحربية المختلفة ويرسلونها لغزو شواطئ اسبانيا، ومن ثم كان سقوط المدينة وإرسال الكونت بيير نافارو لاحتلالها. يعيش السكان في فقر، لأن الأراضي الزراعية غير خصبة لا تستطيع أن تنتج حبوباً، لكنهم مغمورون بالثمار، إذ يحيط بالمدينة عدد لا يحصى من الحدائق العامرة بالأشجار،لاسيما من جهة الباب المؤدّي إلى ناحية الشرق.

---

(2) بجاية أسسها الفينيقيون وسمّوها صلدة، ثم احتلها الرومان ودعوها صلداي، وخرّبها بعد ذلك الوندال والبربر، إلى أن جدّدها الناصر الحمادي عام 468/ 1076 ودعاها الناصرية، ثم سمّيت بجاية باسم قبيلة بربرية تقطن حولها، وقد ورثت بجاية حضارة قلعة بني حماد واتّسع عمرانها بعد أن أصبحت عاصمة سلطنتهم، واستمرت أهميتها طوال حكم الموحدين فالحفصيين إلى أن احتلّها الأسبان وخرّبوها.
انظر أحمد توفيق المدني، **كتاب الجزائر**، ص 196 - 197.

والبلاد كلها جبال وعرة مكسوّة بغابات تنتشر فيها القرود والفهود. والبجائيون أناس طيّبون ميّالون إلى المرح والموسيقى والرقص، لاسيما منهم الأمراء الذين لم يشهروا الحرب قط على أحد. وقد ظهر جبنُهم جلياً إلى حد أنهم عندما جاءهم الكونت بيير نافارو ببعض سفن النقل[3] فرّوا جميعاً إلى الجبل، وعلى رأسهم الملك، حاملين معهم كل ما يملكون دون أن يمتشقوا حساماً. وأخذ الكونت بيير المدينة ونهبها، ثم شيّد بسرعة قلعة قرب البحر في موضع ملائم من الشاطىء، كما حصّن قلعة قديمة مجاورة للبحر بجانب دار الصناعة[4].

وحاول بربروس التركي بعد ست سنوات استرجاع بجاية من أيدي النصارى. فنزل أمام المدينة بألف من الجنود الأتراك، وهجم على القلعة القديمة، فأخذها وحصّنها. ثم وافته قبائل الجبال المجاورة برمّتها لإعانته على أخذ القلعة الأخرى الواقعة قرب الشاطىء. ولكن قتل مائة تركي من أكبر الشجعان ومائة جبلي في أول الهجوم، الأمر الذي جعل الجنود يرفضون استئناف القتال، واضطر بربروس إلى الالتجاء إلى قصر جيجل – كما ذُكر آنفاً[5] –.

قصر جيجَل

هو قصر قديم بناه الأفارقة على صخرة عالية بشاطئ البحر، بعيد عن بجاية بنحو سبعين ميلاً، وفيه ما يقرب من خمسمائة كانون، ودوره في

---

(3) 14 سفينة تحمل 8000 مقاتل!

(4) سقطت بجاية في أيدي الاسبانيين أكثر من مرة، والاحتلال المشار إليه هنا كان يوم السبت 25 رمضان عام 915/5 يناير 1510.

(5) في كتاب الجزائر (ص 216) أن جيجل من تأسيس القرطاجنيين الذين كانوا يدعونها ايجلجيلي، وأن بربروس لما جاء لإنقاذ السواحل الإفريقية من قرصان الاسبان اتخذ مدينة جيجل عاصمة له ومركزاً لأعماله. وتقع جيجل حالياً في شبه جزيرة منخفضة منبسطة بعيدة عن بجاية بنحو 96 كلم.

غاية الحسن، ورجاله أشدّاء كرماء أوفياء، وكلهم فلاحون، لكن أراضيهم وعرة لا تصلح إلا للشعير والكتان والقنّب الذي ينبت هنا بكثرة. ويكثر أيضاً في جيجل الجوز والتين، ويحُمّلان إلى تونس في سفن صغيرة. وقد حافظ هذا القصر دائماً على حريته، بالرغم على ملوك بجاية وملوك تونس، لأنه يستحيل حصاره؛ إلا أن أهله خضعوا من تلقاء أنفسهم إلى بربروس[6] الذي لم يفرض عليهم سوى زكاة عشر الحبوب والثمار، مما هو حلال معمول به، ولم يترك نائباً عنه في القصر سوى مندوب واحد.

مدينة مْسِيلَة

مدينة عتيقة بناها الرومان في تخوم صحراء نوميديا داخل الأراضي، على بعد نحو مائة وأربعين ميلاً من بجاية[7]. الأسوار المحيطة بها جميلة، بخلاف الدُور فإنها قبيحة. والسكان كلهم صنّاع أو فلاحون، يرتدون لباساً رديئاً لفقرهم بسبب جيرانهم الأعراب الذين يسلبونهم مداخيلهم، وملك بجاية الذي أثقل كاهلهم بالضرائب. وقد اندهشتُ للفقر السائد بمسيلة عند مروري بها، فلم أجد الشعير لفرَسي ولليلة واحدة إلا بمشقّة. ولو أقمت بها ليلة أخرى لما تمكّنت من الحصول على مثل ذلك لكثرة البؤس والفاقة السائدين في المدينة.

سْطِيفْ

مدينة بناها الرومان[8] على بعد ستين ميلاً جنوب بجاية، بعد قطع كل الجبال، في سهل جميل جداً. وهي محاطة بأسوار مبنية بحجر جميل ضخم مكعّب، وكانت في العصور الغابرة متحضّرة جداً كثيرة السكان،

---

(6) استرجع بربروس جيجل من يد محتلّيها الجنويين بمساعدة الأمير ابن القاضي عام 1514/920.

(7) مسيلة الحالية مؤسسة على بعد 7 كلم من أطلال المدينة الرومانية زابي المدعوة اليوم بيشيلگة. وتبعد مسيلة عن بجاية بـ190 كلم.

(8) اسمها الروماني سيتيفيس.

لكنها انحطّت منذ الفتح الإسلامي، وخصوصاً عند مجيء الأعراب الذين حطّموا جزءاً من أسوارها. ولم يبق منها سوى مائة دار مسكونة، لكن موقعها الفسيح ما زال قائمًا كما شاهدتُ ذلك عند سفري من فاس إلى تونس.

نڭـــاوَسْ

مدينة تتاخم نوميديا، بناها الرومان على بعد نحو مائة وثمانين ميلاً من البحر المتوسط، وثمانين ميلاً من مسيلة[9]، تحيط بها أسوار متينة عتيقة، ويجري قربها نهر ينبت على ضفافه شجر التين والجوز. وتين البلاد شهير بأنه أجود تين في مملكة تونس، يحمل إلى قسنطينة البعيدة من هنا بثمانين ميلاً[10]. وتوجد حول نڭاوس سهول تصلح كلها لزراعة القمح، والسكان أغنياء أمناء كرماء، لباسهم لائق كلباس سكان بجاية المدنيين. وللجماعة دار أعدّوها ملجأ لإيواء الغرباء، ومدرسة للطلاب يتكفّلون بلباسهم ويتحمّلون نفقاتهم، وجامع جميل فسيح جداً فيه كل ما يحتاج إليه. والنساء جميلات بيض البشرة سود الشعر اللامع، لأنهن يتردّدن على الحمّام ويعتنين بأنفسهن. لا تشتمل الدُور في مجملها إلا على طابق أرضي، لكن ذلك لا يمنع من كونها أنيقة بهيجة، لأن لكل واحدة منها حديقة مليئة بمختلف الأزهار، وخاصة الورد الدمشقي والآس والبنفسج والبابونج والقرنفل وغيرها من الأزهار المماثلة لها في البهاء. ولجميع الدُور تقريباً سقاياتها الخاصة، والجانب الآخر من الحديقة كروم معروشات جميلة تعطي أيام الصيف ظلاً ظليلاً ممتعاً جداً، كثير البرودة والنعيم حول الجزء المغطّى من المسكن، بحيث أن من يرد على نڭاوس يأسف على مغادرتها، لفرط ظرف أهلها وحفاوتهم.

---

(9) هي نيسيويس الرومانية المعروفة باسم نيسيفيبوس، ودعاها العرب نيكاؤوس، فصارت نكاوس، ولا تبعد عن البحر المتوسط إلا بنحو 160 كلم، ولا عن مسيلة إلا بنحو 48 كلم.

(10) بل بأربعين ميلاً فقط.

القُــلْ

مدينة كبيرة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط عند قدم جبل شاهق[11]، وليست مسوّرة لأن القوط (الوندال) هدموا أسوارها؛ ثم إن المسلمين لما حكموها تركوها على حالها، وهي مع ذلك مدينة متحضّرة مليئة بالصنّاع، وأهلها ظرفاء كرماء، تجارتهم رابحة، لأنهم يجنون من جبالهم الكثير من الشمع، ويمتلكون كميّة عظيمة من الجلود يبادلون بها البضائع التي يحمّلها أهل جنوة إلى مينائهم. والأراضي الزراعية منتجة لكنها توجد في الجبل، ويعيش السكان متحررين لأنهم لم يفتأوا يدافعون عن أنفسهم ضد ملك تونس وأمير قسنطينة، إذ تفصل بين القل وقسنطينة جبال شاهقة ومسافة مائة وعشرين ميلاً[12].ويتألف نصف أراضي القل من جبال يسكنها رجال شجعان أبطال. وليس على ساحل مملكة تونس مدينة أغنى من القل، لأنها بدأت تحقّق في تجارتها مع الجنويين أضعاف أضعاف ما تعطيه إياهم، ثم تبيع بالتقسيط في الجبال المجاورة البضائع المأخوذة من الجنويين محقّقة بذلك أرباحاً طائلة.

سْكِيكـــدَة

مدينة أزلية بناها الرومان على ساحل البحر، بعيدة عن قسنطينة بنحو خمسة وثلاثين ميلاً[13] خرّبها القوط (الوندال) في الزمن الغابر. إلا

---

(11) في كتاب الجزائر (ص. 234) أن القل من تأسيس الفينيقيين، واسمها القديم شلو، احتلها نورمانديو صقلية، ثم استولى عليها بربروس سنة 1519.

(12) بل نحو 80 ميلاً فقط.

(13) في كتاب الجزائر أيضاً (ص. 219) أن سكيكدة من المراسي التجارية الكبرى التي أسسها القرطاجنيون، وكان اسمها رأس ايكاد، وعظمت أهميتها أيام الاحتلال الروماني. وبعد أن خرّبها الوندال أعاد العرب تأسيسها وسمّوها رأس سكيكدة فعاد لها عمرانها.

وكان الرومان يدعونها روسيكاد. وهي بعيدة عن قسنطينة بنحو 54 ميلاً.

أن أمير قسنطينة، نظراً لمينائها الجيد، أمر ببناء منازل ومخازن للجنويين الذين كانوا يتّجرون في البلاد، بل أنشأ أيضاً قرية في أعلى جبل مجاور يقيم بها حارس على الدوام للإخبار بالسفن المتجهة إلى الميناء. يتّجر سكان جبل سكيكدة كثيراً مع الجنويين، فيدفعون لهم القمح مقابل أقمشة وغيرها من منتوجات أوربـا. ويمتد بين هذا الميناء وقسنطينة طريق مبلّط بحجارة سوداء على نحو ما يشاهد في إيطاليا من بعض الطرق المسمّاة بالطرق الرومانية. وهذا ما يدلّ بدون شك على أن سكيكدة من بناء الرومان[14].

مدينة قسنطينة

مدينة قديمة بناها الرومان[15]، وهذا شيء لا يمكن إنكاره نظراً لأسوارها العتيقة العالية السميكة المبنية بالحجر المنحوت المسودّ، وهي واقعة على جبل شاهق ومحاطة من جهة الجنوب بصخور عالية. يمر عند قدميها نهر اسمه سوفغمار[16]، والضفة الأخرى لهذا النهر محاطة أيضاً

(14) في بعض النقوش المكتوبة أن قناطر هذه الطريق بناها اللفيف الثالث الأوكيستي بأمر من الامبراطور هادريان (117 - 138 للميلاد). ولا يعارض هذا ما نقلناه قبل عن **كتاب الجزائر** من سبق تأسيس القرطاجنيين لهذا الميناء، إذ استغلّ الرومانيون ــ كما هو معلوم ــ كل المنشآت القرطاجنية بعد انهيار قرطاجنة.

(15) ورد في كتاب الجزائر (ص 232) أن اسم قسنطينة في القديم سيرتا، وهو اسم كنعاني فينيقي وفيها اشتهر ماسينيسا الشجاع الذي أراد أن يحصل على استقلال البربر بواسطة روما فخابت آماله. ثم أصبحت سيرتا مستعمرة رومانية إلى أن خرّبها البربر على أثر ثورة دامية، فأعاد الامبراطور قسطنطين (في أول القرن الرابع للميلاد) بناءها وسمّيت باسمه.
وقد خفّفها الاستعمال العربي بحذف ياء وطاء، فصارت قسنطينة، وبذلك تتميّز عن القسطنطينية العظمى التركية.

(16) معنى «سوف» النهر أو الواد في بعض اللهجات البربرية، لكن معنى باقي الكلمة لم يوضح بعد، والظاهر أن الكلمة كلها تعني: وادي الرمل، حيث يصب بومرزوق قبل أن يصل إلى قسنطينة. وقد نسخ مرمول هذا الاسم هكذا: سوفجمار بو مرزوق.

بصخور، بحيث إن الشعب السحيق الواقع بين هذين الجرفين يستعمل كخندق للمدينة، بل هو أكثر نفعاً لها من الخندق. وفي الجانب الشمالي للمدينة أسوار في غاية القوة، بالإضافة إلى أنها تقع في أعلى قمة الجبل، بحيث أن الصعود إلى قسنطينة لا يمكن إلا من طريقين صغيرين ضيّقين، أحدهما إلى جهة الشرق والآخر إلى جهة الغرب. وأبواب المدينة جميلة كبيرة مصفّحة تصفيحاً جيداً بالحديد.

تستطيع قسنطينة، نظراً لحجمها، أن تضم ثمانية آلاف كانون، ولها موارد كثيرة، وهي متحضّرة جداً، ومليئة بالدُور الجميلة والبناءات المحترمة، كالجامع الكبير، والمدرستين والزوايا الثلاث أو الأربع.

وأسواق المدينة عديدة حسنة التنسيق، بحيث أن جميع الحِرف فيها مفصول بعضها عن بعض. والقسنطينيون شجعان مقاتلون، خصوصاً منهم الصنّاع. وفيها عدد كبير من التجّار الذين يتعاطون تجارة الأقمشة الصوفية المصنوعة محلياً، وبعضهم يرسلون الزيت والحرير إلى نوميديا، وكذلك يفعلون بالأقمشة. كل هذه البضائع تُستبدل بالتمر والرقيق. ولا توجد مدينة افريقية يباع فيها التمر بثمن بخس كقسنطينة، إذ يمكن الحصول على ثمانية أرطال أو عشرة من التمر بثلاث «بايوتشيات» فقط[17]. والقسنطينيون ــ إلى ذلك ــ مقتصدون فيما يتعلّق بلباسهم، متكبّرون مغفلون. وكان من عادة ملوك تونس أن يعطوا قسنطينة لابنهم البكر، لكن الملك الحالي أعطاها تارة لهذا وتارة لذلك من أبنائه، فقد عهد بها أولاً إلى ولي عهده الذي توجّه بجيشه لمحاربة الأعراب، رغبة منه في تحقيق أشياء عظيمة، لكنهم قتلوه في أول لقاء وحطّموا جيشه كله[18]. فولّى الملك على

(17) بايوتشي: عملة إيطالية قيمتها نحو 7 سنتيم ــ ذهب.
(18) سبقت الإشارة إلى هذه المغامرة في القسم الأول (ص. 66) عند الكلام على الشاوية أو رعاة الشاة.

المدينة ابناً له آخر اسمه عبد العزيز، كان شاباً جائراً وقاسياً معاقراً للخمر، فمات بسبب سرطان نخر جنبيه.

ثم أعطاها لابن له آخر، كان ما يزال غلاماً صغيراً أقرع، لوطياً، سكيراً جائراً، فثار عليه الشعب وحاصره في القلعة إلى أن أرسل إليه أبوه بعض الضباط فحملوه مغلولاً إلى تونس، وألقاه أبوه في السجن وفرض عليه غرامة قدرها خمسمائة «دوبولي»[19]، ثم عين الملك نائباً له على قسنطينة رجلاً صالحاً ابن أحد الموظفين الملكيين السامين اسمه فرح، كان مسيحياً وأسلم، فكان الملك يستعين به في أهم الأمور المتعلقة بالمصلحة والإدارة. فسُرّ السكان بهذا النائب الأمين المتواضع في حكمه.

ويوجد بالجانب الغربي[20] لقسنطينة قلعة كبيرة حصينة بُنيت في زمان تأسيس المدينة، إلا أن تحصيناتها جُدّدت من قبل أحد نواب الملك الحالي، وهو أيضاً مسيحي أسلم، أصله من بروفانس، واسمه القائد نبيل[21] وكان على جانب عظيم من الدهاء، فبثّ دسائس خطيرة بين السكان، حتى تمكّن من تسيير المدينة كما شاء، بالإضافة إلى أنه دخل مساومات مع الأعراب المجاورين حتى أصبحوا يعيشون على حذر منه، مع أنهم كانوا يُعدّون من أنبل العرب بافريقيا وأشدّهم بأساً[22] وقد قبض مرة على أكبر هؤلاء الأعراب كان باستطاعته أن يقود خمسمائة فارس، وقبض على أبنائه وأحفاده وإخوته، ولم يطلق سراحه إلا بعد أن ترك عنده ثلاثة من أبنائه رهائن في قلعة قسنطينة.

---

(19) أي مضاعفة، أو دنانير تونسية قيمتها 20 ,16 فرنك ـ ذهب.

(20) بل بالجانب الشمالي.

(21) لم يتولّ السلطان أبو عبد الله محمد المُلْك إلا في 10 شعبان 899/16 ماي 1494، بينما توفي القائد أبو الفتح نبيل في 11 جمادى الأولى 857/21 ماي 1453 أيام السلطان عثمان.

(22) هي قبيلة رياح.

وذهب الغرور بعد ذلك بنبيل إلى أن ضرب السكة باسمه من تلقاء نفسه، فكانت أفضل من سكة الملك. ولما علم الملك بذلك استدعاه على عجل، فلم يستجب للدعوة ولم يرغب في الذهاب بنفسه إلى تونس، وأرسل إلى الملك كميّة وافرة من الدنانير وهدية عظيمة، فسكت الملك لأنه لم يستطع القيام بشيء آخر. وانتهى الأمر بنبيل إلى ارتكاب مظالم شتى تجاه الشعب، حتى ثار عليه في وقت كان مشتغلاً في نوميديا بحصار مدينة تدعى بسكرة. فرجع مباشرة إلى قسنطينة لكنه لم يمكنه الدخول إليها، فاضطر إلى الذهاب إلى تونس مستنجداً بالملك الذي ألقاه تواً في غياهب السجن وفرض عليه غرامة قدرها مائة ألف مثقال. ولما خرج نبيل من السجن وأمدّه الملك بالإعانة التي طلب، ذهب ليضرب الحصار على قسنطينة، ودخلها بعد أيام بقوة الحيلة والسلاح. فأمر بإعدام عدد كثير من أعيان المدينة، الأمر الذي جعل السكان يثورون عليه من جديد، فحاصروه في القلعة وحارب محاصريه يوماً. فقتل الكثير من أنصاره واستولى عليه الحزن والغم إلى حد أنه مرض ومات بعد قليل. فاستسلم رجال القلعة للشعب الذي دخلها ونهب قصر نائب الملك، ووجد فيه أشياء ثمينة ونحو اثني عشر ألف كيل «رودجي» من القمح، بالإضافة إلى ثلاثمائة جواد. وبعد هذه الأحداث، أوفد الملك نائباً إلى قسنطينة ليشرح للسكان أن جلالة الملك قد عفا عن كل ما ارتكبوه من الإساءة، فسُرّوا بذلك إلا أنهم لم يرضوا أن يعينّ الملك بعد الآن نائباً عنه، ولذلك أرسل إليها الملك أبناءه بالتوالي، كما ذكرناه آنفاً.

والأراضي الزراعية المحيطة بالمدينة كلها جيدة خصبة، ويبلغ إنتاجها ثلاثين ضعف ما يُزرع فيها. وتوجد أيضاً في السهل على طول النهر بساتين في غاية الجمال، إلا أنها لا تُنتج كثيراً من الثمار لأنهم لا يحسنون خدمتها.

وتشاهد خارج قسنطينة بنايات عديدة محترمة عتيقة، وعلى بعد ميل تقريباً يرى قوس نصر شبيه بالذي يوجد في روما، لكن العامّي يظن

لحماقته أنه كان هناك قصر تسكنه الشياطين الذين طردهم المسلمون عند مجيئهم إلى هذه البلاد.

ويوجد بقرب النهر تحت الصخرة درج للنزول منحوتة بالحديد في الحجر، وبجانب الماء رواق مقوّس منحوت كذلك بالحديد، بحيث أن السقف والأعمدة والأرض كلها قطعة واحدة، تأتي إليها نساء المدينة لغسل الثياب.

وعلى مسافة نحو ثلاث رميات حجر من المدينة، يوجد حّمام مكوّن من عين ماء ساخن يتدفّق بين أحجار ضخمة[23] ويعيش فيها عدد كبير من السلاحف تعتقد النساء أنها شياطين. وإذا اتّفق أن أصيبت إحدى النساء بالحمّى أو غيرها تقول ان سبب ذلك يرجع إلى السلاحف، وللتخلص من الداء تذبح حيناً دجاجة بيضاء تضعها في إناء بريشها الكامل ثم تربط حول الإناء شمعات وتحمله إلى العين حيث تتركه. وكم من الظرفاء تبعوا امرأة وهي تتوجّه إلى العين حاملة معها الإناء والدجاجة، وأخذوا الإناء بعد انصرافها، ثم طبخوا الدجاجة وأكلوها!

وبعيداً عن عين الماء الحار، هناك عين ماء بارد، يوجد بقربها بناء من رخام شاهدتُ مثله في إيطاليا وفي كل بلاد أوربا. ويعتقد العامة أنه كانت هناك قبل مدرسة آداب كان أستاذها وتلامذته فجرة، فمسخهم الله ومدرستهم رخاماً عقاباً لهم على ذنوبهم.

يجتمع أهل قسنطينة مرة في السنة في قافلة تذهب إلى نوميديا، يحملون إليها أقمشة الصوف المنسوجة في بلادهم، وشيئاً قذراً يسمّى الحشيش، ويصحبون معهم بعض الأتراك من حاملي البنادق، توقّعاً للأعراب الذين كثيراً ما يهاجمونهم، ويستأجرونهم بأغلى الأثمان.

(23) هو ما يُعرف الآن بحمّام سيدي مسيد.

لا يؤدّي تّجار قسنطينة واجبات الدخول إلى تونس، بل يؤدّون عند الخروج منها ما قدره اثنان ونصف بالمائة، إلا أنهم يتضرّرون من هذا السفر أكثر مما يستفيدون، إذ تؤدّي بهم متعة الفجور إلى تبذير معظم ما حصلوا عليه وإنفاقه على النساء العاهرات.

مدينة مِيلَة

ميلة مدينة عتيقة بناها الرومان على بعد نحو اثني عشر ميلاً[24] من قسنطينة، تحيط بها أسوار قديمة، وتضم زهاء ثلاثة آلاف كانون، لكنها اليوم لم يبق فيها إلا قليل من الدُور المسكونة، بسبب جور الأمراء. وفيها عدد كبير من الصنّاع، وخصوصاً من يعملون في نسج الصوف الذي تُصنع منه أغطية الأسرّة. وفي ساحة المدينة عين جارية يُستعمل ماؤ ها لمختلف حاجات السكان. وهؤلاء السكان شجعان لكنهم مغفّلون.

ويكثر في البلاد التفاح والإجاص وغيرهما من الفواكه، بحيث أن اسم هذه المدينة ــ على ما أظن ــ مشتقّ من الاسم اللاتيني ميلة بمعنى التفاح[25] كما يكثر فيها القمح أيضاً.

من عادة أمير قسنطينة أن يبعث إلى هذه المدينة والياً ليقضي بين الناس ويجبي ما خصص له من إيرادات في آن واحد، ويمكن أن يبلغ خراج ميلة زهاء أربعة آلاف دينار، لكن كثيراً ما يقتل هؤلاء الولاة بسبب قساوة أهل البلاد.

---

(24) بل 32 ميلاً. وذكر أحمد توفيق المدني في كتاب الجزائر (ص. 241) أن هذه المدينة كانت تُعرف في القديم باسم ميلو، وأن سورها من بناء الامبراطور الرومي جوستينيان سنة 540 للميلاد، وبها بناء إسلامي عتيق يدعى القصبة، عليه كتابات عربية أثرية.

(25) اشتقاق غير صحيح.

مدينة بُونَة (عَنَّابَة)

بونة أو عنّابة[26] مدينة عتيقة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط على بعد نحو مائة وعشرين ميلاً غرباً[27]، وكانت تسمّى قديماً أوربونة، وفيها كان سان أوكيستان حين كانت خاضعة للقوط (الوندال)، ثم فتحها عثمان ثالث الخلفاء الراشدين، بعد محمد ﷺ فخرّبها وتركها خالية بعد أن نهبها وأحرقها[28].

وقد بُنيت بعدها مدينة أخرى تبعد عن الأولى بنحو ميلين، واستعملت في بنائها أحجار المدينة القديمة. وهي مشهورة عند الكثير من الناس باسم بلد العنّاب لكثرته في ذلك المكان. يجفّف هذا العنّاب ويؤكل في فصل الشتاء. وتضم المدينة حوالي ثلاثمائة كانون، وهي كثيفة السكان لكن الدُور الجميلة بها قليلة، وفيها جامع في غاية الحسن مشيّد على شاطئ البحر.

والرجال فيها ظرفاء، بعضهم تجار وبعضهم صنّاع وحاكة، يبيعون كميّة وافرة من قماش الكتّان في مدن نوميديا، إلا أن أهل عنّابة متكبّرون شرسون إلى حد أنهم لا يرضون فحسب بقتل حكّامهم، بل يتجرّأون على التهديد بتسليم المدينة إلى النصارى إن لم يرسل إليهم الملك حكّاماً مستقيمين منصفين. ويضيفون إلى هذه العجرفة سذاجة كبيرة، لأنهم

---

(26) في كتاب الجزائر (ص. 223-224) أن عنّابة كانت مركزاً قرطاجنياً، ثم أصبحت مرسى رومانيا تحت اسم هيبون، ومن بعد صارت بونة العربية مدينة العنّاب... وعلى مقربة منها توجد آثار هيبون العتيقة... وصهاريج رومانية عتيقة وقع إصلاحها وترميمها، وهي التي تمدّ المدينة اليوم بمياهها.

(27) لعل المراد جهة الشرق لا الغرب، لأنه يذكر موقع عنّابة بالنسبة لقسنطينة، والمسافة المذكورة تؤيّد هذا.

(28) لا يعرف في تاريخ الفتح العربي لشمال افريقيا أن المسلمين اجتازوا إفريقية أيام عثمان. وليس الحرق والنهب من شيمتهم على أي حال.

يعظّمون أقواماً يسيرون في المدينة كالمجانين، ويعتقدون أنهم من الأولياء الصالحين، ويحيطونهم بكل اعتبار وتقدير.

ليس في عنّابة عيون وإنما فيها صهاريج (نطافي) لخزن ماء المطر. وفي الجانب الشرقي من المدينة توجد قلعة كبيرة حصينة محاطة بأسوار سميكة من بناء ملوك تونس، وفيها يقيم الحاكم. وفي خارج المدينة تحرث البادية على مسافة نحو أربعين ميلاً طولاً وخمسة وعشرين ميلاً عرضاً وكلها صالحة للقمـح. وتسكنها قبيلة عربية تدعى مرداس، تزرع الأرض وتملك عدداً كبيراً من البقر والثيران والغنم. وتعطي هذه الماشية الزبد بكثرة إلى حد أن الأعراب يكادون لا يحصلون في مقابله على مال، عندما يحملونه للبيع في عنّابة. وكذلك القمح. وتأتي كل سنة سفن عديدة من تونس وجربة ومن سائر السواحل، وكذلك من جنوة لشراء القمح والزبد، فتُستقبل بحفاوة كبيرة. ويُعقد السوق كل يوم جمعة خارج المدينة قرب الأسوار، ويستمر إلى المساء.

ويوجد غير بعيد من عنّابة شاطئ يكثر فيه المرجان، إلا أنه ليس لأحد الحق في صيده من البحر أو التقاطه من الشاطئ، لأن الملك أكرى هذا الشاطئ للجنويين الذين استأذنوه في بناء قلعة هناك بعد أن أقلقهم القراصنة، لكن السكان رفضوا ذلك بدعوى أن الجنويين قد استعملوا مرة سابقة هذه الحيلة واستولوا على المدينة ونهبوها ثم استرجعها منهم أحد ملوك تونس.

تِيفَشْ

مدينة بناها الأفارقة في العصر القديم على بعد نحو خمسين ميلاً جنوبي عنّـابـة[29]. وكانت في الزمان الغابر متحضّرة كثيرة السكان، مزدانة

(29) تقع تيفش في الواقع على بعد نحو 80 ميلاً من عنّابة، ولا يشاهد منها الآن إلا بعض أنقاض للمدينة القديمة (تيباسا نوميدروم) في بلاد حقيقية نومدية. وهذا الاسم مثل واضح لنقل الأصوات البربرية إلى اللاتينية، حيث يحوّل حرف f إلى p وحرف ch إلى s.

ببناءات جميلة، لكنها دُمّرت عند قدوم الأعراب[30] إلى افريقيا، ثم عُمّرت من جديد ولم تصب مدة بضعة أشهر بأي أذى. ثم استولى عليها أعراب آخرون من جديد.

وأخيراً بقيت في ملك إحدى القبائل الافريقية، تدعى هوارة، لا تستعملها إلا كمستودع لحبوبها.

وأمير هوارة في عهدنا هذا يسمّى النَّسر، جمع أفواجاً من الفرسان فحارب من أجل قبيلته حتى بلغت به الشجاعة أن يصمد في البادية رغمًا على الأعراب. وهو الذي قتل أمير قسنطينة الناصر ابن ملك تونس. ثم إن الملك نفسه مرّ بتيفش، بعد عودته مرة من نوميديا، فنهب وخرّب ما بقي قائمًا بها. وربما كانت هذه الأحداث قد وقعت عام 915 هـ.

تِبَسَّة

مدينة عتيقة حصينة بناها الرومان في تخوم نوميديا على بُعد مائتي ميل جنوب البحر المتوسط[31] تحيط بها أسوار عالية متينة سميكة، مشيدة بحجر ضخم منحوت شبيه بحجر الكوليزي في روما. ولم أر أسواراً من هذا الشكل لا في افريقيا كلها ولا في أوربا، لكن الدور بها قبيحة بقدر ما هي الأسوار جميلة. ويسيل قرب المدينة نهر عظيم[32] يخترق جزءاً من المدينة. وتشاهد في الساحة وفي أماكن أخرى أعمدة رخام منقوشة فيها الكتابة اللاتينية بحروف التاج، وبناية قائمة على أعمدة رخام مربعة تعلوها قبة. ورغمًا على أن التربة غير خصبة، فإن البادية منتجة، بحيث إن الآتي

(30) بنو هلال.

(31) اسمها الرومان ثيفيست (Theveste). ولا تبعد عن عنابة إلا بنحو 150 ميلًا فقط. وجاء في كتاب الجزائر ص 201 أن مدينة تِبَسة ترتفع 900 متر عن سطح البحر، وهي مركز قبيلة النمامشة العربية البربرية العتيدة، وأنها في العصر الإسلامي كانت على الأكثر تابعة للدولة الأغلبية والدولة الحفصية.

(32) هو الآن جاف في معظم السنة.

إلى تبسة عندما يصل إلى مسافة أربعة أميال أو خمسة يخالها واقعة في غابة، لكن الأشجار ليست [سوى] أشجار جوز كبيرة(33).

وبجوار المدينة جبل كبير فيه عدة حفر أحدثت بالمعول، تعتقد العامة أنها كانت منازل للعمالقة، لكن من الواضح أن الرومان اقتطعوا من هناك الحجر الذي بنوا به أسوار تبسة.

وأهل تبسة بخلاء غلاظ شداد، لا يحبون رؤية أي غريب، حتى إن الدبّاغ الشاعر الشهير الذي أصله من مدينة مالقة الأندلسية، أسيء إليه لدى مروره بهذه المدينة، فنظم الأبيات الآتية التي أبيت إلا أن أذكرها، لأن هجاء هذا الشاعر يدل على الاحتقار الذي تستحقه تبسة.

لا شيء في تبسة ممّا هو جدير
بالتقدير والاهتمام غير شجر الجوز
معاذ الله! بل هناك الأسوار
وماء النهر الرقراق بجوارها؛ والمدينة خالية من الفضائل
وسأقول إنها الجحيم، والكثير من الخنازير
هم سكان بيوتها.

وكان الدباغ شاعراً عربياً مقذع الهجاء(34).

ولنعد إلى سكان تبسة فنقول إنهم عاشوا في ثورة دائمة ضد ملوك تونس، وقتلوا الحكام الذين أرسلوهم إليهم. ولما مرّ ملك تونس بهذه المدينة عند عودته الأخيرة من نوميديا واقترب منها بعث إليها بطلائع، ولما وصلوا إلى الأسوار نادوا: من هنا؟ فأجيبوا: السور الأحمر، يعنون سور المدينة، فغضب الملك وأمر بالهجوم عليها ودخلها عنوة، وشنق فيها

(33) اختفت في الوقت الحاضر أشجار الجوز التي كانت في ضواحي تبسة.

(34) لا نعرف شيئاً عن هذا الشاعر.

أكثر من مائة رجل. وأمر بذبح أكثر من مائة آخرين. ثم نهب المدينة حتى بقيت كأنها خالية. وكان ذلك في عام 915 هـ.

أُورْبَسْ

مدينة عتيقة بناها الرومان، كما يدلّ اسمها على ذلك[35]، وتقع في سهل جميل جداً هو زهرة أقاليم افريقيا كلها. أرضها خصبة جداً منبسطة تماماً مع سهولة كبيرة في السقي، وتزوّد هذه البادية بلاد تونس كلها بالقمح والشعير لأنها على بعد نحو مائة وتسعين ميلاً من الجنوب التونسي[36]. تكثر فيها الآثار الرومانية، من تماثيل رخامية وقطع مرمرية موضوعة في أعلى الأبواب عليها كتابات منقوشة بالحروف اللاتينية، مع كثير من الحجر المنحوت. وقد استولى القوط (الوندال) عليها لأن النبلاء الرومانيين الذين كانوا يستوطنون أفريقيا التجأوا إليها وجمعوا فيها كنوزهم. فبقيت خالية مدة من الزمان، ثم سكنت من جديد ولكنها ظلّت قرية.

ويمرّ بين قلعة هنالك ومدشرين جدول ماء صالح للشرب، يسيل في قناة حجارتها ناصعة البياض كأنها من فضة ويحرّك طاحونات للقمح. ينبع من ربوة بعيدة عن المدينة بنحو ميل ونصف ميل. ومدينة أُوْرْبَس متحضّرة قليلاً لأن سكانها منقسمون إلى طبقتين: النساجون والفلاحون، ويثقل ملوك تونس كواهلهم بالضرائب. ولو عرف هؤلاء الملوك ما تشتمل عليه هذه المنطقة من خصب وإنتاج سواء في الحبوب أو الماشية أو في غزارة المياه ونقاوة الهواء، لهجروا تونس بلا شك وسكنوها. ويعرف الأعراب ذلك

---

(35) كانت المستعمرة الرومانية لاريس يعبر عنها غالباً بلاريبوس، حسب اللغة اللاتينية، ثم استنسخ العرب هذا اللفظ صوتياً فكان الأربوس، وظن الكاتب أنه تحريف أوربس بمعنى المدينة. ولم يبق من هذه المدينة سوى الآثار على بعد نحو 30 كلم شرق الكهف.

(36) لا يفصل أوربس عن تونس إلا نحو تسعين ميلاً.

كله فيأتون كل سنة إلى بادية أوربس ويملأون أكياسهم قمحاً دون أن يؤدوا أي ثمن، ثم يعودون إلى الصحراء.

مدينة بَاجَة

مدينة عتيقة بناها الرومان على بعد نحو خمسة وعشرين ميلاً من البحر المتوسط، وثمانين ميلاً أو أكثر بقليل من تونس[37]. وبما أنها شيدت في موقع مدينة أخرى أطلقوا عليها اسم فيتشيا، ثم تحولت الفاء باء والكاف جيمًا فأصبح الاسم باجا[38]. وأعتقد أن الاسم الأول الذي سماها به الرومان فسد من جرّاء كثرة تقلّب الأمراء على المدينة وتغيّر الديانات فيها، إذ يلاحظ أن هذا اللفظ ليس عربياً. واحتفظت باجة بأسوارها العتيقة الأولية إلى يومنا هذا.

والباجيّون متحضرون بعض الشيء، ومدينتهم مصونة على أكمل وجه ومتوفرة على جميع أرباب الصنائع، خصوصاً النساجين؛ علاوة على عدد كبير من الفلاحين، لأن بادية باجة شاسعة الأطراف وافرة الإنتاج؛ إلا أن عدد الناس فيها لا يكفي لزرع الحقول، فيعمدون إلى الأعراب لزرع جزء كبير منها. ومع ذلك تبقى أراضٍ كثيرة بوراً، ويباع سنوياً عشرون ألف كيل «رودجي» من الحبوب.

ومن الأقوال المأثورة في تونس أنه لو كانت باجتان لفاق عدد حبات القمح عدد حبات الرمل. ويثقل ملك تونس كواهل سكان هذه المدينة بالضرائب إلى حد أنهم أخذوا ينحطون شيئاً فشيئاً ويفقدون الكثير من تربيتهم الحميدة.

---

(37) ليس بين باجة وتونس إلا نحو 65 ميلاً.

(38) كانت المدينة الرومانية تدعى «ڤاكا» فحوّلت إلى باجة العربية. أما فيتشيا فكلمة ايطالية لم يعرفها اللاتينيون.

عَين زَمّيت

بنى هذه المدينة ملوك تونس في عهدنا هذا، على بعد نحو ثلاثين ميلاً من باجة[39]، أسسوها لئلا يفقدوا هذا الجزء من الأراضي الخصبة التي لم تكن مزروعة، لكن الأعراب خرّبوها في بضعة أيام بموافقة ملك تونس، ورغم ذلك فمازالت الأبراج قائمة إلى الساعة الراهنة، وكذلك الدّور التي لا تنقصها إلا السقوف، كما شاهدت بنفسي.

القصَبَة

مدينة عتيقة بناها الرومان وسط سهل فسيح جداً يمتد شرقاً على مسافة اثني عشر ميلاً حول المدينة، وتبعد عن تونس بنحو أربعة وعشرين ميلاً[40]. وما زالت أسوارها قائمة، وهي مبنية بالحجر الضخم المنحوت، إلا أن المدينة خرّبها الأعراب وأصبحت أراضيها غير مزروعة، لا بسبب عجز ملوك تونس فقط، ولكن أيضاً بسبب كسل السكان الذين يموتون جوعاً رغم وجود أراضٍ في متناولهم تبلغ هذا الحد من الخصوبة.

شِيرْس

قصر شيّد في العهد الحديث على نهر مجردة، بعيداً عن تونس بنحو ثمانية أميال[41]، تحيط به أراضٍ جيدة، وتوجد بقربه غابة كبيرة من شجر

(39) يقال: إن السلطان أباعمرو عثمان (1435-1488) بنى زاوية بعين زميت. أما الموقع الذي يذكره المؤلف فعلى بعد نحو 48 كلم من باجة، ولعله شرقاً وفي وادي الاثنين، فإنه غير معروف.

(40) بل 34 ميلاً وهي المسافة الحقيقة تقريباً بين تونس وهنشر القصبة التي تشكّل آثار توربُوبُو ماجُوس قرب قنطرة فحص.

(41) لم تحدد بعد هذه البلدة ولا ضبط اسمها. غير أن مذكرة اسبانية مؤرخة سنة 1536 عن القبائل العربية في الناحية تشير إلى أن أولاد علي من أولاد شيفة يقطنون شرس أولاد علي، بين باجة وأوربس. وإذا كان كذلك فالبعد من تونس 80 ميلاً لا 8.

الزيتون. خرّبه هو الآخر أعراب اسمهم بنو علي، كانوا يثورون دوماً على ملك تونس ولا يعيشون إلا من النهب والفتك والسلب للفلاحين المساكين الذين تزيد الضرائب الباهظة المفروضة عليهم بكثير على الضرائب العادية.

بَنْزَرْتْ

بنسرت أو بنزرت كما نقول مدينة عتيقة بناها الأفارقة على ساحل البحر المتوسط، على بعد نحو خمسة وثلاثين ميلاً من تونس. وهي صغيرة يسكنها قوم فقراء، ويدخل البحر قرب المدينة داخل الأراضي من حلق ضيق قصير، يتسع جنوباً إلى أن يكوّن شبه بحيرة كبيرة تحيط بها مداشر عديدة لصيادي السمك والفلاحين، إذ يمتد غربها سهل عظيم يسمى سهل ماطر. وهذا السهل منتج إلى أقصى حد، لكنه مثقل بالضرائب الجسيمة التي يفرضها عليه ملوك تونس والأعراب. ويصاد من البحيرة كمية وافرة من السمك، خصوصاً سمك المرجان الكبير الذي يزن من خمسة إلى ستة أرطال. وعند انتهاء شهر أكتوبر يصطادون نوعاً من السمك يسميه الأفارقة زرافة، واظن أنه هو الذي يحمل اسم لاتشيا[42] في روما. ذلك لأن ماء البحيرة يعود أكثر عذوبة عندما ينزل المطر، فيدخل إذ ذاك السمك إليها، بالإضافة إلى أن البحيرة قليلة العمق. ويستمر الصيد حتى أوائل ماي، ثم يهاجر السمك، كما يهاجر السمك الذي يصاد في النهر الجاري بقرب فاس.

قرطاج المدينة العظمى

قرطاج مدينة عتيقة، كما هو مشهور. يزعم البعض أن مؤسسيها قوم جاءوا من الشام، ويرى البعض الآخر أن مؤسسيها جاءوا من أرمينيا

(42) هو الشابل.

فاجتازا بحر المورة وتوقفوا بالمنطقة حيث بنوا المدينة. ويقول المؤرخ ابن الرقيق إن مؤسسيها قوم جاءوا من برقة بعد أن أجلاهم ملك مصر عن مملكته. فلا أحد إذن من المؤلفين الأفارقة يقول ويعرف الحقيقة، فضلاً عن أن المؤرخين والجغرافيين الأفارقة مثل ابن فيشيد[43] والشريف الإدريسي لم يذكروا شيئاً عن هذه المدينة إلا بعد سقوط الامبراطورية الرومانية، وفي ذلك العهد كان جميع الحكام ونواب الامبراطور الذين يوجدون بافريقيا قد بقوا فيها كأمراء مستقلين بمختلف المناطق. غير أن القوط (الوندال) انتزعوا الحكم منهم. ولما جاء المسلمون إلى افريقيا واستولوا على طرابلس الغرب وقابس، غادر جميع السكان هاتين المدينتين وسكنوا قرطاج حيث تجمّع النبلاء من الرومان والقوط، فتحالفوا للصمود أمام الجيوش الإسلامية، إلا أن الرومان فروا إلى عنابة بعد وقائع متتالية، وترك القوط قرطاجنة فنهبت ودمّرت[44].

بقيت المدينة مهجورة مدة من الزمان إلى أن جاء الخليفة الشيعي المهدي فعمّرها من جديد، لكن لم يُسكن منها حينئذ سوى نصف عشر مساحتها. وما زال يشاهد بها الآن هنا وهناك أسوار كاملة، فضلاً عن خزان ماء ذي سعة كبيرة جداً. كما أن القناة التي كانت تحمل الماء إلى قرطاجنة من جبل يبعدعنها بثلاثين ميلاً ما زالت كاملة، وعلوها يوازي علو القناة التي كانت تحمل الماء إلى القصر الكبير بروما[45]. وقد زرت مأخذ الماء الذي كان يزود قناة قرطاجنة[46]. وتظّل القناة على مستوى سطح الأرض على طول 10 أميال، لأن الأرض مرتفعة بقرب الجبل، وكلما

(43) لعله تحريف لابن الرقيق.

(44) وذلك حوالي عام 74 هـ / 693م.

(45) وهو البالاتين.

(46) وهو نيمفيا الروماني الواقع على 55 كلم. جنوب تونس قرب مدينة زغوان الصغيرة، والذي تجتمع فيه مياه مختلف عيون جبل زغوان.

ابتعدت عنه انخفضت، وأخذت القناة حينئذ ترتفع شيئاً فشيئاً حتى تصل الى قرطاجنة. ورأيت كذلك في خارج المدينة عدة بنايات عتيقة لا أتذكرها الآن بصورة دقيقة.

ويحيط بقرطاجنة، ولا سيما من جهتي الغرب والجنوب، عدد كثير من الحدائق المليئة بالثمار، التي لا يقل الاعجاب بضخامتها عن الاعجاب بجودتها. خصوصاً منها الخوخ والرمان والزيتون والتين. ومن هذه الحدائق تتزود تونس بالفواكه. والأراضي المجاورة لقراطجنة صالحة للزراعة، لكنها ضيقة جداً، حيث يحدها شمالاً الجبل والبحر وبحيرة حلق الواد، كما تحدها شرقاً وجنوباً سهول بنزرت التي تكون جزءاً من اراضي هذه المدينة[47]. وقد نزلت قرطاجنة المسكينة في الوقت الحاضر إلى الدرك الأسفل من الشقاء فلا يوجد فيها سوى عشرين أو خمسة وعشرين دكاناً، ونحو خمسمائة دار قبيحة متهدمة، لكن بها جامع جميل شيد حديثاً ومدرسة ليس بها أي طالب، بحيث أن مداخيل (أوقافها) تدفع الى بيت مال الملك.

وسكان قرطـاج معجبون بأنفسهم إلى أقصى حد، لكنهم فقراء بؤساء، يتظاهرون بالتقوى، ويشتغل معظمهم بزراعة الخضر والحبوب، ويثقل الملك كواهلهم بالضرائب حتى لا يستطيع أحد منهم أن يملك عشرة مثاقيل. وهذا جور معروف لدى الجميع.

مدينة تونس الكبرى

يسمي اللاتينيون هذه المدينة تونيوتوم، ويسميها العرب تونس، لكن هؤلاء يعتقدون أن هذا الاسم محرّف، إذ لا مدلول له في لغتهم. وكانت تدعى في غابر الأزمان ترسيس كنظيرتها الأخرى في آسيا[48]. وكيفما كان

(47) ليس من الصعب تصحيح هذا التوجيه، فالبحر في شمال قرطاجنة وشرقها، وبحيرة تونس في جنوبها، والتلال في غربها، والسهل وراء هذه المرتفعات.

(48) يقارب الحسن الوزان هنا اسم تارس (مدينة طرسوس الحالية بتركيا) باسم ترسيس أو ترشيش المذكورة في التوراة والتي يمكن أن تكون منطقة ويلبا أو إشبيليا باسبانيا. =

الأمر فإنها كانت في البداية مدينة صغيرة من تأسيس الأفارقة على ضفة البحيرة المكونة من قناة (حلق الوادي) بعيدة عن البحر المتوسط بنحو ميلين.

وعلى أثر تخريب قرطاج، بدأت مدينة تونس في النمو سواء في عدد المنازل أو عدد السكان. فالجنود الذين احتلوا قرطاج، أبوا الإقامة بها خشية مجيء مدد للعدو من اوربا. فسكنوا بتونس وبنوا بها دوراً، ثم جاء قائد من قبل عثمان ثالث الخلفاء الراشدين، اسمه عقبة، فأمر جيشه ألا يقيم في أية مدينة تقع قرب البحر أو على الشاطئ ذاته. لذلك بنى المدينة التي سميت القيروان على بعد ستة وثلاثين ميلاً من البحر ومائة ميل من تونس. فغادر الجنود تونس واستقروا بالقيروان، ودخل أهل تونس الديار التي أخلاها الجنود.

وبعد مرور قرابة ثلاثمائة وخمسين سنة، دمّر الأعراب القيروان على أثر ثورة والي افريقية الذي تركه بها الخليفة القائم، حتى إن هذا الوالي فرّ تجاه الغرب وحكم بجاية وجميع البلاد المحيطة بها[49].

= وذكر حسن حسني عبد الوهاب في كتابه ورقات (1:290) أن اسم تونس فينيقي الأصل (Thunes) ورد بين القرى التي كانت موجودة في عصر القرطاجنيين ثم في عصر الرومانيين والبيزنطيين، إلا أنها لم يكن لها نصيب كبير من تاريخ البلاد، إلى أن جاء القائد حسان بن النعمان عام 69 هـ لحصار قرطاجنة فاتخذ قرية تونس قاعدة لمعسكره، وبعد أن تم له الاستيلاء على قرطاجنة أنف أن يعيد لها العظمة القديمة وتركها تبيد متخذاً بدلها تونس، فعمّرها وبنى فيها جامع الزيتونة، وحفر خليجاً متسعاً يصل بحيرتها بالبحر من جهتي رادس وحلق الوادي.

(49) خرج المعز بن باديس إلى المهدية في رمضان عام 449 / نونبر 1057 وذلك بعد أن انهزم أمام أعراب بني هلال وصالحهم وأخلى لهم القيروان. ويخلط الحسن الوزان هنا بين الإمارتين الصنهاجيتين: إمارة القيروان الشرقية، وإمارة قلعة بني حماد الغربية.
انظر: تفاصيل ذلك عند حسن حسني عبد الوهاب، **خلاصة تاريخ تونس**، 109-115.

وبقيت بتونس أسرة منتمية إلى والي افريقية، كان منها الأمراء الذين حكموا تونس.

وبعد مرور عشر سنوات طرد يوسف بن تاشفين أمراء بجاية وأقرّ أمراء تونس في مناصبهم لما رأى فيهم من ذلة وخضوع، لكن عبد المومن ملك مراكش حينما استرجع المهدية التي كانت قد سقطت في أيدي النصارى، مرّ بتونس عند عودته وعزل هؤلاء الأمراء[50].

وعاشت تونس آمنة مطمئنة طوال عهد ملوك مراكش: عبد المومن وابنه يوسف وحفيده يعقوب المنصور. ولما مات المنصور شنّ ابنه محمد الناصر حرباً ضد ملك اسبانيا، لكنه هزم وفرّ إلى مراكش ولم يعش بعد ذلك إلا بضع سنين[51]. ثم بويع أخوه يوسف بعد موته وقتل على يد جنود ملك تلمسان[52] وعاد الأعراب إلى سكنى ولاية تونس أثناء هزيمة الناصر وموت أخيه يوسف، وحاصروا مراراً حاكم تونس. فأرسل إلى ملك مراكش يخبره أنه سيضطر إلى تسليم المدينة إلى الأعراب إن لم يصله المدد

(50) توقفت فتوح المرابطين عند جزائر بني مزغنة (الجزائر) ولم يجُلبوا على ما وراءها من البلاد الواقعة تحت نفوذ الإمارتين الصنهاجيتين بقلعة بني حماد والمهدية اعتباراً للحمية الصنهاجية. أما عبد المومن فإنه بعد أن أتم تمهيد بلاد المغرب والأندلس، خرج للقضاء على اضطرابات افريقية وعلى المتنافسين فيها من أمراء صنهاجة وأعراب، فدخل الجزائر وبجاية وقلعة بني حماد وقسنطينة، ومهّد كل تلك البلاد عام 547. ثم زحف عبد المومن على افريقية مرة ثانية براً وبحراً عام 1159/554 على أثر استصراخ أهلها به من تعسفات المسيحيين الذين أخذوا يعيثون في الأرض فساداً، ينهبون ويقتلون ويسرقون المسلمين دون أن يستطيع الأمراء الصنهاجيون المحليون دفاعاً. فدخل تونس وقضى على أمرائها العاجزين، ثم طرد المسيحيين من زويلة والمهدية (عام الأخماس 1160/555) واستولى على صفاقس وسوسة وجبال نفوسة، وقابس وقفصة وطرابلس، وبذلك توطّد حكمه من برقة إلى المحيط. انظر: تفاصيل ذلك عند أحمد الناصري، **الاستقصا**، 2:107-124.

(51) يشير إلى وقعة العقاب المشؤومة منتصف صفر سنة 609 / يوليوز 1212، وكانت وفاة الناصر في 11 شعبان 26/610 دجنبر 1213.

(52) بل الذي بويع بعد الناصر هو ابنه يوسف المنتصر بالله، ومات في بستانه الكبير بمراكش، طعنته بقرة شاردة في صدره يوم 12 ذي الحجة 620 / 5 يناير 1224.

عاجلاً، فرأى الملك أن لا بدّ من رجل محنّك للقيام بمثل هذه العملية الخطيرة، فاختار من بين حاشيته رجلاً من مدينة إشبيلية الأندلسية يدعى عبد الواحد[53] وأوفده إلى تونس بالتفويض الكامل. ولما وصل إليها على رأس ثلاث وعشرين سفينة كبيرة وجد الأعراب قد دمروا نصف المدينة فأصلح من أمرها بفضل كياسته وذلاقة لسانه، وأمّن الولاية وجبى الخراج من جميع البلاد. ثم خلفه ابنه أبو زكريا ففاق أباه سياسة وذكاء، وشيّد بتونس في أعلى قسمها الغربي قلعة كبيرة وقصوراً جميلة وجامعاً حسناً ذا صومعة عالية، وكان بناء ذلك كله في غاية الاتقان[54]. زحف أبو زكريا بجيشه إلى أن بلغ طرابلس، ثم عاد مخترقاً بلاد الجنوب لأخذ خراجها حتى أنه خلّف أموالاً طائلة بعد موته. ثم ولي الأمر بعده أحد أبنائه، وكان شاباً متكبراً لم يرض بالاعتراف بملوك مراكش الذين أخذت دولتهم تنحّط إذ ذاك، وبدأ بنو مرين ينشرون نفوذهم في أقاليم فاس، بينما كان بنو زيان قد أسسوا مملكة تلمسان، وثارت الأندلس كذلك وطردت ولاة ملوك مراكش من شبه الجزيرة، بالإضافة إلى أن السلطة في مراكش أصبحت هدفاً للمنازعات والمؤامرات، فابن الأخ يقاتل عمه والأب يعمل ضد ولده، فشعر عاهل تونس حينئذ بقوته وشنّ الغارة على تلمسان، وفرض الخراج على ملكها. علم الملك المريني بذلك وهو يخوض الحرب ضدّ مراكش، فأرسل إلى عاهل تونس بهدايا ثمنية، وأوصاه خيراً بشخصه

---

(53) اختلط الأمر على المؤلف هنا، فالناصر هو الذي ولى ثقته وزيره عبد الواحد الهنتاني ـ لا الأندلسي ـ ابن الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى أحد ركائز دولة الموحدين وجد ملوك تونس الحفصيين، ولاه على تونس بعد أن مهدها في حركته الطويلة الشهيرة وطرد عنها ابن غانية عام 603 / أبريل 1207. انظر: تفاصيل ذلك في **الاستقصا**، 2:191-193.

(54) القصبة قديمة من عهد الأغالبة، وإنما بنى أبو زكريا جامع القصبة وصومعته الجميلة، ودارأ للكتب في قصره بها، كما أسس أيضاً عدداً من المساجد والمدارس وسوق العطارين بتونس. انظر: حسن حسني عبد الوهاب، **خلاصة تاريخ تونس**، ص 129.

ودولته. فرضي بذلك واعتبره صديقاً ولو أنه كان ــ في نظره ــ أقل منه رتبة بكثير، وعاد إلى تونس منتصراً واستقبل بحفاوة كبيرة ونودي به ملكاً على افريقية. وبدأ بتنظيم حاشيته الملكية من كتاب ومستشارين وقائد عام للجيش. مطبقاً كل المراسم المعروفة في بلاط مراكش.

ولم تزل تونس تنمو، منذ ذلك العهد إلى أيامنا هذه، سواء من حيث السكان أو الامتياز على غيرها حتى أصبحت غرّة مدن افريقيا.

ثم مات هذا الملك وخلفه ابنه فبنى أربعة أرباض في ضواحي تونس[55]، أحدها خارج باب يسمى باب السويقة ويضم حوالي ثلاثمائة كانون، وآخر خارج باب المنارة ويضم نحو ألف كانون، وكلاهما عامر بعدد لا يحصى من الصنّاع والصيادين والعطارين وغيرهم. ويوجد في هذا الربض حارة تكون هي الأخرى شبه ربض صغير يسكنه نصارى تونس الذين يستخدمون في حرس الملك أو يزاولون حِرفاً لم يعتد المسلمون ممارستها. ثم امتد ربض آخر خارج باب البحر على بعد نحو نصف ميل من بحيرة قناة حلق الواد، ينزل به التجار الأجانب أمثال الجنويين والبنادقة والقطلونيين، ولهم فيه فنادق وملاجئ خاصّة. وهذا الربض كبير يضم نحو ثلاثمائة كانون من بين النصارى والمسلمين. وتمتاز مدينة تونس حقاً بجمالها الفائق، ونظامها الرائق. لكل من أرباب الحرف موقعهم الخاص، بالإضافة إلى كثرة السكان وكثافتهم، وجلّهم نسّاجون، يصنعون فيها كمية عظيمة من القماش البالغ حد الاتقان، يباع في افريقيا كلها بأثمان باهظة، لأنه رفيع ومتين. والنساء يُتقنَّ الغزل غاية الإتقان، فيجلسن في مكان مرتفع ويرخين المغزل كثيراً إلى أسفل، يقعدن مثلاً في نافذة

(55) لم يذكر المؤرخون التونسيون، كابن أبي الضياف، أن محمد المستنصر الذي خلف والده أبا زكريا يحيى في الحكم بنى هذه الأرباض، مع استقصائهم لآثاره العمرانية. ويمكن أن تكون الأرباض المذكورة هنا مجرد وصف لتونس كما شاهدها المؤلف في أوائل القرن العاشر الهجري.

انظر: كتاب ابن أبي الضيّاف، **إتحاف أهل الزمان**، 1:160-163.

ويتركن المغزل ينزل إلى ساحة الدار، أو ينزل من ثقب السقف بين طابق وآخر، فيتكون الخيط بواسطة ثقل المغزل ويأتي جيد الانبساط والفتل منتظم الغلظ.

تضمّ بعض أسواق تونس عدداً كبيراً من تجار القماش الذين يعتبرون أغنى سكان المدينة، كما تضمّ غيرهم من التجار والصناع، كالعطارين وبائعي الأشربة والعقاقير المحلاّة بالسكر، وتجار العطور والحرير، والخيّاطين والسراجين والفرّائين والفاكهانيين واللبّانين والخبّازين (صانعي الفطائر) والقصابين الذين يذبحون الخرفان أكثر من غيرها لا سيما في الربيع والصيف، إلى غير ذلك من الحرف التي تمارس في هذه السوق ولا فائدة في ذكرها.

وأهل تونس على جانب كبير من الطيبوبة واللياقة. يرتدي الصنّاع والتجار والفقهاء وجميع من يتقلد وظائف لباساً ممتازاً، ويضعون على رؤوسهم عمامة (قلنسوة) مكسوة بقماش طويل، وكذلك العسكريون وأصحاب الحاشية، إلا أنهم لا يضعون قماشاً على القلنسوة. وعدد الأغنياء قليل بسبب قلة القمح الذي يساوي ثلاثة مضاعفات(55م) للحمل، أي أربع أوقيات (دوكات ايطالية). وذلك ناتج عن كون السكان لا يستطيعون زرع الأراضي المجاورة لتونس خوفاً من تعسف الأعراب. فيجلب القمح من بعيد، من أوربس وباجة وخصوصاً من عنابة، إلا أن لبعض أهل المدينة ممتلكات صغيرة في الضواحي القريبة يزرعون فيها قليلاً من الشعير والقمح. ولّما كانت هذه الأراضي مفتقرة إلى السقي فإن لكل منها بئراً يؤخذ منها الماء في قنوات محكمة البناء ويرسل بواسطة آلة مكوّنة من عجلة (ناعورة) يحرّكها بغل أو جمل فتسقي المزروعات. تصوّروا مقدار الحبوب التي يمكن استخراجها من حظيرة صغيرة مسورة تتطلّب كل هذه العناية والخدمة، وفي النهاية لا يحصل أي واحد منها على ما يكفيه لنصف السنة، ومع ذلك فإن الخبز بتونس في غاية الجودة؛ أبيض مخبوز كما يجب، إلا أنه

(55م) راجع الحاشية رقم (19) السابقة ومرجعها في المتن ــ المشرف.

لا يصنع من الدقيق فقط، بل يخلط بالسميد ويعالج بكامل العناية، خصوصاً لتهييء العجين الذي يخبط بمدقة مثل التي يخبط بها الأرز للتقشير في مصر. ومن عادة التجار والصناع وغيرهم من سكان المدن أن يتناولوا في النهار طعاماً خشناً من دقيق الشعير الممزوج بقليل من الماء الخاثر كالصمغ، يضاف إليه قليل من الزيت أو عصير الليمون الحامض أو البرتقال. يحتسون هذا العجين نيئاً قليلاً قليلاً دون مضغ، ويسمونه البسيس وهو كريه. وهناك سوق لا يباع فيه غير دقيق الشعير لصنع البسيس. ولهم طعام آخر من هذا النوع إلا أنه أجود منه وذلك بأن يؤتى بعجين خفيف يطبخ في الماء، فإذا نضج، عُجن في إناء وجُمع في وسطه، ثم سُقي بالزيت أو مرق اللحم ويبلعونه دون مضغ كذلك، ويسمونه البازين. وهناك أطعمة أخرى أكثر تعقيداً وأوفر حظاً من العناية.

لا توجد طاحونات يحركها الماء، لا داخل تونس ولا خارجها، بل تدار كلها بالدواب، بحيث أن الطاحونة تكاد لا تطحن سوى حمل من القمح في اليوم. وليس في تونس عين ولا نهر ولا بئر، بل تستعمل صهاريج لجمع ماء المطر، غير أنه يشاهد في ضواحي المدينة بئر صالح للشرب فيه شيء من الملوحة، يأتي إليه السقاؤون بدوابهم وقربهم؛ فيملأون هذه القرب ماء وينطلقون لبيعها في المدينة، ويشرب الناس منه لأنه أنقى من ماء الصهريج. وفي خارج المدينة آبار أخرى جيدة الماء إلا أنها مخصصة للملك وحاشيته. ولمدينة تونس جامع كبير في غاية الجمال والسعة[56] كثير المتسخدمين عظيم الموارد، وجوامع أخرى في المدينة وفي الأرباض أقل أهمية من الجامع الكبير، وفيها عدة مدارس للطلبة، وبعض الزوايا للمريدين المتنسكين، وتكفي أوقاف هذه المؤسسات الدينية للانفاق عليها لتستمر في القيام بوظائفها بكيفية لائقة. ويشترك جميع أهل تونس في اعتقاد ساذج يرى أن كل من يرمى بالحجر هو من الصالحين. وفي أثناء

(56) جامع الزيتونة الشهير.

إقامتي بتونس أمر الملك ببناء زاوية جميلة جداً لأحد هؤلاء المجاذيب المسمى سيدي الداهي. وكان هذا الرجل يمشي في الأزقة مرتدياً كيساً، عاري الرأس، حافي القدمين، يضرب بالحجر ويصيح كالمسعور، فأجرى عليه الملك إيراداً حسناً يعيش به هو وعائلته.

ومعظم الديار حسنة المنظر مبنية بحجارة مزلوجة ومنحوتة على أكمل وجه، سقوفها مزدانة بالفسيفساء والجص المجزع بطريقة فنية عجيبة، ومصبوغة باللازورد وغيره من الألوان الرفيعة. ذلك لأن الألواح وأخشاب البناء نادرة جداً، ولا يمكن أن يصنع بما يتوفر منها محلياً إلا قناطر قبيحة. وتبلط الحجرات بمربعات لماعة ذات لون فاتح، وتبلط أيضاً الساحات كذلك بقطع لماعة. وغالب المنازل ليس بها سوى طابق أرضي، ومدخلها جميل ذو بابين أولهما يُفضي إلى الخارج، والآخر يتصل بالمسكن ويرقى إليه بسلم من بضع درجات مزدانة بتبليط جميل. ويتنافس السكان في تجميل مداخل بيوتهم لتكون أكثر أناقة وزخرفة من غيرها، لأن هناك يجتمع الناس للتحدث مع أصدقائهم أو لقضاء بعض الشؤون مع خدامهم.

الحمامات متعددة، وهي أكثر تنسيقاً وتسهيلاً من حمامات فاس، إلا أنها أقل منها حسناً وسعة. وتوجد في خارج تونس ممتلكات بديعة تنتج فواكه عجيبة بكميات قليلة لكنها في غاية الجودة. وهناك عدد لا يحصى من البساتين المغروسة بالبرتقال والليمون، والورد وغيره من الأزهار الجميلة، خصوصاً في مكان يدعى الباردو حيث بساتين الملك وقصوره الفخمة البهية بمختلف النحوت والرسوم الجميلة.

ويحيط بالمدينة على مسافة أربعة أميال إلى ستة أميال بساتين زيتون عديدة تنتج كمية عظيمة من الزيت لا تزود تونس فحسب، ولكن تصدر أيضاً إلى مصر. ومن خشب الزيتون يصنع الفحم الذي يستعمل في المدينة، ويتخذ بعضه حطباً للتسخين، حتى أنك لا تجد مدينة أخرى في العالم يفتقد فيها الخشب كما يفتقد في تونس. وبالتالي فإن البؤس الذي يفتك بضعفاء

الشعب في تونس يؤدي بكثير من النساء إلى الاتجار بمفاتنهن بأبخس الأثمان، ويدفع بالغلمان إلى التعرض للرجال، وهم أشد دناءة ووقاحة ورذالة من العاهرات.

ومهما يكن من أمر، فإن السيدات التونسيات يرتدين لباساً حسناً ويتأنقن في زينتهن، ويسترن وجوههن عندما يخرجن مثلما تفعل الفاسيات: يغطين الوجوه بوضع خمار يدعى سفساري على عصابة عريضة جداً يعصبن بها جباههن، بحيث تبدو رؤوسهن وكأنها رؤوس عماليق، لا يشتغلن بغير زينتهن وعطرهن، حتى إن العطارين هم دائمًا آخر من يغلقون دكاكينهم.

ويتناول التونسيون عادة بعض المستحضرات المسماة بالحشيش، وثمنه مرتفع، إذا أكل الإنسان منه أوقية استخفه المرح وأخذ يضحك ويأكل ما يأكله ثلاثة رجال، ويصير أسوأ حالاً من الثمل. وهذا المخدر يقوي على الجماع بكيفية غريبة.

بلاط الملك ونظامه وتقاليده وموظفوه

يُعيّن ملك تونس عن طريق الوراثة باختيار من أبيه، فيبايعه الأعيان من قواد وفقهاء وأئمة وقضاة وأساتذة. وعندما يموت ملك ينصب خلفه على العرش بمجرد ما يختار ويبايعه الجميع على السمع والطاعة.

ويأتي بعد الملك الشخص الذي يحتل أعلى رتبة ويسمى المنفذ، وهو كنائب الملك في حكم المملكة، يعرض على الملك جميع القضايا الإدارية التي أنجزها، ويعين الموظفين في مناصبهم بموافقة الملك، ويطلعه على جميع التفاصيل المتعلقة بهؤلاء الموظفين، وعلى النفقات العسكرية.

ويسمى صاحب المنصب الثاني المزوار، وهو شبه القائد العام، له السلطة المطلقة على الجنود والحرس الملكي. يستطيع أن يوزع عليهم

الأجور، وينقص منها أو يزيد فيها كيفما شاء، ويمكنه أن يرقي ويعطي الأوامر بتحركات الجيوش، إلى غير ذلك، غير أن الملك يحرص الآن على الاشتغال شخصياً بهذه القضايا.

والثالث في شرف المرتبة هو قائد القصر المكلف بحرس القصر والبنايات التي يشغلها هذا الحرس، وبالقصور الملكية والسجناء المعتقلين بالقصر لجنايات قليلة الأهمية. وله الصلاحية أيضاً في الحكم بين الناس الذين يعرضون قضاياهم عليه كما لو كان هو الملك نفسه.

والرابع في الرتبة هو والي تونس الذي له الصلاحية في النظر في القضايا الجنائية، وإصدار الأحكام حسب خطورة الجريمة.

والخامس هو الكاتب الأعظم الذي يكتب ويجيب باسم الملك، وله الحق في فتح رسائل جميع الناس ما عدا رسائل الموظفين السامين السابقين.

والسادس هو قائد الايوان، يكلف كل يوم مجلس بتفريش المكان بالزرابي والطنافس، وتعيين مقعد كل عضو من أعضاء المجلس، ويطلب من السعاة باسم الملك الإعلان عن القرارات المتخذة في المجلس أو إلقاء القبض على شخصية هامة. ولهذا الموظف صلة وثيقة بالملك لأنه يستطيع أن يكلمه متى يشاء.

والسابع هو الأمين الذي يستلم المال من الجباة ويدفعه إلى أصحاب بيت المال. ثم يصرفه وفق أوامر الملك، أو الوزير الأول مع المصادقة عليه بخط الملك.

والثامن هو مدير المكْس، يقبض الرسوم المفروضة على البضائع الداخلة إلى تونس براً والرسوم التجارية التي يؤديها التجار الغرباء عن تونس، ومقدارها اثنان ونصف بالمائة. ولهذا الموظف عدد كبير من الأعوان الذين يسوقون إليه كل غريب تبدو عليه علامة الثراء بمجرد ما يدخل المدينة. وإن لم يكن المدير حاضراً وضعوا الغريب في السجن حتى يأتي

فيلزمه بدفع كذا بالمائة من المال الذي يحمله، ويأمره بأن يُقسم بالأيْمان المغلظة على صحة ما صرح به.

والتاسع هو مدير الجمرك، ومهمته جمع الرسوم الجمركية المفروضة على البضائع التي تخرج من تونس للتصدير بحراً، وكذلك على البضائع الواردة عن طريق البحر. وتسند هذه المهمة عادة إلى أحد اليهود الأغنياء. ويوجد مركز الجمرك على بحيرة قناة حلق الوادي قرب تونس.

والعاشر هو القائم بالصرف، وهو شبه قهرمان مكلف بتزويد القصر الملكي بالخبز واللحم وغيرهما من الضروريات، كثياب حرم الملك وبناته، والخصيان والاماء السود الخاصات بحجرات الملك. وهو الذي يسدد نفقات صبيان الملك ومرضعاتهم، ويوزع بين العبيد المسيحيين الأعمال المسندة إليهم، سواء داخل القصر أو خارجه، ويزودهم بالمأكل والملبس حسب حاجاتهم.

تلك هي الوظائف الرئيسية والمناصب المهمة في هذا البلاط. وهناك وظائف أخرى أقل رتبة، مثل قائد الاصطبلات، وقائد الصوان، والإمام، وقاضي المعسكر، ومعلم أبناء الملك، وقائد السيافين، وغيرهم.

وللملك تونس ألف وخمسمائة فارس، جلهم من النصارى المعتنقين للإسلام، يتقاضى كل واحد منهم مرتباً له وآخر لفرسه. ولهؤلاء الفرسان قائدهم الخاص الذي يعينهم أو يعفيهم من الخدمة كما يشاء.

وهناك مائة وخمسون من فرسان الملك المولودين على الإسلام، وهم المستشارون العسكريون للملك فيما يخص الأوامر الصادرة والقضايا المتعلقة بالحرب، فهم شبه ضباط أركان الحرب.

وللملك كذلك مائة من الرماة، أكثرهم نصارى أسلموا، يصحبون الملك دائمًا عندما يركب، سواء في المدينة أو في خارجها. إلا أن الذين يلونه مباشرة ويحيطون به هم حرسه السري المؤلف من المسيحيين القاطنين

في الربض الذي تحدثنا عنه، ويتقدمه حرس آخر راجل مكون من أتراك مسلحين بالقسي والبندقيات.

ويتقدم أمام الملك رئيس السيافين، ممتطياً فرساً ومصحوباً من جانب بالضابط الذي يحمل حربة الملك، ومن جانب آخر بالضابط الذي يحمل ترسه، ومن ورائه حامل قوسه، ويسير حوله بعض الضباط مثل رؤساء أركان الحرب والحجاب المكلفين بالمراسم الملكية.

ذلك هو النظام الموضوع حسب القواعد المعهودة والعادات المألوفة في بلاط ملك تونس، لكنه معروض بصفة عامة، لأن الفرق شاسع بين الأسلوب العادي لحياة الملوك الأقدمين وأسلوب الحياة الخاص للملك الحالي. فهذا الملك حقاً مختلف تمام الاختلاف عن أسلافه طبعاً وعادة وسيرة. وسأخجل حقيقة إذا ذكرت العيوب الشخصية لأحد الملوك كيفما كان، لا سيما من أولاني منهم هذه العناية الفائقة. غير أنني لو تركت جانباً الحديث عن هذه النقائص فلا بد أن أقول إن هذا الملك بارع في استخلاص المال من رعاياه، فيعطي بعضه للأعراب وينفق سائره لبناء قصوره، حيث يعيش عيشة كلها مجون وخلاعة بين الموسيقيين والمغنين والمغنيات، تارة في القصبة وأخرى في بساتين عجيبة. إذا أراد رجل أن يغني أو يعزف على آلة موسيقية بين يديه بدأوا بعصب عينيه مثلما يفعلون بالبزاة، ثم يدخل إلى الحجرة التي يوجد بها الملك مع حظاياه(57).

ويزن الدينار الذي يضربه ملك تونس أربعة وعشرين قيراطاً أي ما يعادل (دوكة) وثلثاً مما يروج منها في أوربا، ويسك أيضاً عملة فضية مربعة الشكل تزن ستة قراريط، وتساوي ثلاثون منها أو اثنان وثلاثون منها ديناراً واحداً(58).

---

(57) يقصد أبا عبد الله محمد بن الحسن الحفصي المتوفى عام 1526/932.

(58) بقي الحفصيون يحافظون على النظام الموحدي في النقود. انظر حسن حسني عبد الوهاب ورقات، 1:455-460.

(نَابُولِي رَادِس)

مدينة صغيرة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط قرب قناة حلق الوادي، يسميها المغاربة نابل[59]. كانت قديماً عامرة بالسكان ومتحضرة جداً، لكن لم يبق بها إلا بعض الفلاحين الذين يزرعون الكتان ولا يحصدون غيره.

كَمَرْت

مدينة أخرى قديمة أيضاً ومجاورة لقرطاجنة، على بعد نحو ثمانية أميال[60] شمالي تونس، يعمرها كثير من زارعي الخضر الذين يحملون إنتاجهم إلى تونس. وينبت هناك أيضاً قصب السكر بكثرة ويباع في تونس، ويكتفي من يشتريه بمصه لأنهم يجهلون طريقة استخراج السكر منه.

المَرْسَى

مدينة صغيرة قديمة مبنية على ساحل البحر، وبها كان ميناء قرطاج. خربت في الزمان الغابر وبقيت خربة مدة طويلة، لكن يسكنها اليوم صيادون وفلاحون وقصارو الأقمشة، وتوجد بقربها القصور والضياع الملكية حيث يقضي الملك الحالي الصيف كله.

أَرْيَانَــة

مدينة صغيرة قديمة بناها القوط (الوندال) على بعد نحو ثمانية أميال من تونس. تشاهد غير بعيد منها عدة حدائق تنتج مختلف الفواكه، لا سيما الخروب. أسوارها عتيقة وسكانها فلاحون.

---

(59) يعني رادس التي هي المكسولة الرومانية. أما نابول القريبة من آثار نيابوليس العتيقة فتقع على الساحل الجنوبي لشبه جزيرة رأس بونة.

(60) بل 18 ميلاً.

الحَمَّامَات

مدينة حديثة بناها المسلمون وأحاطوها بأسوار متينة. تقع على بعد خمسين ميلاً[61] من تونس، ويسكنها فقراء مساكين كلهم صيادون وبحارون وفحامون وقصارو القماش. وقد أثقل الملك كواهلهم بالضرائب حتى كادوا يسألون الناس.

إِهْرِيقْلِيَّة

مدينة صغيرة بناها الرومان على ربوة قرب البحر، وخربها الأعراب[62].

سُوسَة

مدينة كبيرة عتيقة بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط، على بعد مائة ميل من تونس، اتخذها المسلمون قاعدة لنائب الوالي لما ملكوها وملكوا الشاطئ. وهناك شيدوا قصر الوالي الذي أصبح اليوم شبه زاوية. تحيط بالمدينة أسوار جميلة، وفيها قصبة كبيرة حصينة. والمدينة نفسها أنيقة، وموقعها حسن. كانت في القديم عامرة متحضرة ذات منازل جميلة ما زال بعضها ماثلاً للعيان، وفيها أيضاً جامع في غاية الحسن. وفي خارج المدينة ممتلكات عديدة مغروسة بشجر الزيتون الذي تستخرج منه كمية وافرة من الزيت، وبشجر التين. وهناك أيضاً أرض صالحة لزراعة الشعير، لكن يتعذر استغلالها بسبب ثقل الإتاوات التي يفرضها الأعراب.

أهل سوسة مهذبون آدميون، يقتبلون الغريب بحفاوة، وجلهم بحارون في السفن التجارية الذاهبة إلى الشرق أو إلى تركيا، أو في سفن

(61) بل 40 ميلاً.

(62) هرقلة بالعربية، وهي هوريس كويلية الرومانية زارها التجاني ووصفها في رحلته ص 24-25.

القرصنة التي تهاجم مدن صقلية المجاورة أو غيرها من المدن الإيطالية. وسائر السكان من النساجين، والبقارين، والفخارين الذين يصنعون أباريق وأواني وقماقم وسائر أنواع أدوات الفخار غير المطلية، يزودون بها الساحل كله بما في ذلك مدينة تونس(62م).

لكن سوسة المسكينة خلت الآن من السكان بسبب جور الملوك وقمعهم. فلم يبق مسكوناً فيها سوى خمس الديار، كما لم يبق بها أكثر من خمسة أو ستة دكاكين لبقالين أو بائعي الجبن والخضر وغيرها من البضاعة التافهة. أقمت أربعة أيام في هذا الميناء بسبب عاصفة، وقد أسفنا جميعاً ورثينا للحالة التي توجد عليها المدينة.

المُنَسْتِير (63)

مدينة عتيقة بناها الرومان على ساحل البحر، بعيدة بنحو اثني عشر ميلاً عن سوسة، تحيط بها أسوار متينة عالية، ودورها مبنية في الداخل بعناية كذلك. ومما لا شك فيه أن أهلها فقراء إلى حد التسول، يرتدون لباساً حقيراً خشناً، وينتعلون نعالاً من الأسل البحري، وأغلبهم نساجون أو صيادون يقتاتون بخبز الشعير أو بذلك البازين المخلوط بالزيت الذي تحدثنا عنه آنفاً مثلما يفعله سكان جميع مدن الساحل، لأنه لا ينبت بها سوى الشعير. وأقص عليكم في هذا الصدد ما حدث لي أثناء سفري في سفينة مع سفير من هذه المدينة كان متوجهاً إلى تركيا. فبينما كنا نتبادل أطراف الحديث، إذ ذكر لي أن الملك أجرى له راتباً مؤلفاً من عدد من المثاقيل، ثم من أربعة وعشرين كيلاً (مودجياً) من الشعير في السنة، فقلت

(62م) زار التيجاني كذلك سوسة ووصفها في الرحلة، ص 25-55.

(63) أصل المنستير ــ على ما عند ح.ح. عبدالوهاب ــ **خلاصة تاريخ تونس** ص 74 ــ رباط للمسلمين لحماية الثغر من نصارى البحر المتوسط أسسه هرثمة بن أعين حين بعثه الرشيد والياً على افريقية عام 179.

له، ولم تكن لي أية خبرة بالبلاد، لا شك أن لك عدة خيول؟ فأجابني بالنفي، فقلت: فماذا تصنع إذن بهذا القدر من الشعير؟ فرأيته قد احمر وجهه، وفهمت أنه أراد أن يقول لي إنه يأكله. وتضايقت من هذا السؤال الذي خطر ببالي، لأنني ظننت أن الشعير لا يأكله غير الفقراء. ويوجد خارج المنستير عدد كبير من الممتلكات الزراعية المغروسة بأشجار الفواكه، كالمشمش والتين والتفاح والرمان، وبعدد لا يحصى من شجر الزيتون، إلا أن الملك يثقل كاهل المدينة بما لا طاقة لها به من الضرائب.

طُبُلْبَـــة

مدينة عتيقة بناها الرومان على البحر المتوسط، بعيدة بنحو اثني عشر ميلاً عن شرق المنستير[64]. وكانت فيها مضى كثيرة السكان، تنتج أراضيها كمية عظيمة من الزيتون، لكنها كلها أهملت إثر هجومات الأعراب، ولم يبق بها غير قليل من الدور، يسكنها بعض النساك. ولهم مسكن كبير على غرار ملجأ يأوي إليه الغرباء، ويأتي الأعراب كذلك إلى هذه المدينة، لكنهم لا يسببون أي ازعاج للناس.

مدينة المهدية

المهدية مدينة بناها في عهدنا هذا[65] المهدي الشيعي، أول خليفة بالقيروان[66]، على ساحل البحر المتوسط، فوق كتلة صخرية داخل

(64) تقع طبلبة على بعد كيلومتر من البحر، و22 كلم جنوبي شرقي المنستير، في الطريق الذاهبة من تونس إلى المهدية. وفي طبلبة ضريح الشيخ عبد العزيز بن عياش الصوفي الكبير. انظر ح. ح عبد الوهاب، ورقات 3:358.

(65) يريد الكاتب بقوله «عهدنا» العصر الإسلامي.

(66) هو الخليفة الفاطمي عبيد الله المهدي، أسس المهدية عام 300/913م. انظر أخبار المهدية مفصلة عند حسن حسني عبد الوهاب، ورقات، 3:357-383.

البحر، وأحاطها بأسوار عالية متينة، وأبراج ضخمة وأبواب مصفحة بالحديد، كما حصن الميناء بأسوار جيدة.

أتى المهدي إلى هذه الديار في شعار ناسك، فتقبله الناس بقبول حسن، وادعى أنه من سلالة محمد (عليه السلام) حتى إنه بمساعدة الشعب تلقب بالخليفة المهدي لينال ثقته أكثر. ثم ذهب لجباية الخراج في بعض بلاد نوميديا الواقعة على مسافة نحو أربعين يوماً غربي القيروان، فأسره أمير سجلماسة وزج به في السجن، لكنه أشفق عليه وأطلق سراحه، وقد قتله المهدي جزاءً له. ثم إن المهدي تجبر في الحكم حتى أخذ الشعب يأتمر به ليقتله.

ومن حسن حظه أن أحد الدعاة وهو أبو يزيد الملقب براكب الحمار ـ لأنه كان يمتطي حماراً باستمرار ـ أتى لمحاصرة القيروان على رأس أربعين ألف مقاتل. ففر المهدي والتجأ إلى المدينة الجديدة وصمد أمامه بفضل نجدة ملك قرطبة الذي أرسل إليه أربعين سفينة، إلى أن هزم أبو يزيد وقتل هو وابن له. ثم عاد المهدي من هناك إلى القيروان، فأخمد الفتن واسترجع ولاء الشعب، ودام الحكم في أسرة المهدي إلى العهد الذي ذكرناه في هذا الكتاب[67].

وبعد ذلك بمائة وثلاثين عاماً استولى المسيحيون على المهدية، لكن عبد المومن خليفة مراكش استردها منهم[68]، وهي الآن خاضعة لملك تونس الذي يعين بها والياً يثقل المدينة بالضرائب، ويتعاطى سكانها التجارة البحرية، ويعيشون في عداء كبير مع الأعراب حتى إنهم لا يستطيعون حرث أراضيهم.

---

(67) انظر أخبار عبيد الله المهدي مفصلة عند حسن ابراهيم حسن، **تاريخ الدولة الفاطمية**، ص 22 وما بعدها.

(68) أخبار استرجاع عبد المومن الموحدي للمهدية مفصلة عن أحمد الناصري، **الاستقصا**، 2:120-124.

وقد حسب الكونت بيير نفارو في أيامنا هذه أن باستطاعته أن يستولي على المهدية بتسع سفن حربية، لكن المدينة ردته خاسراً على أعقابه حتى اضطرت مدفعيته إلى أن تقاتل متقهقرة متكبدة خسائر فادحة. وكان ذلك عام 1519 م.

صْفَاقِسْ

مدينة عتيقة بناها الأفارقة على ساحل البحر المتوسط أيام كانوا يحاربون الرومان. وهي مدينة كبيرة محاطة أيضاً بأسوار عالية متينة، كانت في القديم كثيرة السكان، لكنها اليوم لم يبق فيها سوى ثلاثمائة إلى أربعمائة كانون، أما دكاكينها فعددها ضئيل، لأن الأعراب وملك تونس يثقلونها بالضرائب. ومعظم الصفاقسيين نساجون وبحارون وصيادون، يصطادون كمية وافرة من سمك يدعى سباريس، وهذا الاسم ليس عربياً ولا بربرياً ولا حتى لاتينياً، ويأكلون خبز الشعير والبازين كغيرهم ممن ذكرناهم آنفاً. ولباسهم رديء، يذهب بعضهم بسفنهم ليتجروا في مصر وتركيا[69].

القَيْرَوَان، المدينة الكبرى سالفا

القيروان أو القَرَوَان مدينة أصيلة، أسسها عقبة قائد جيوش الجزيرة العربية الصحراوية التي أرسلها عثمان ثالث الخلفاء الراشدين. بناها على بعد ستة وثلاثين ميلاً من البحر المتوسط، ونحو مائة ميل من تونس. وهدفه الوحيد من ذلك هو ضمان الأمن لجيشه وحرز الأموال التي غنمها أو جمعها من مدن افريقيا ونوميديا. وسوَّر المدينة بسور جميل بناه كله بالآجر، كما شيد بها جامعاً عظيمًا عجيباً قائمًا على أعمدة بهيجة من المرمر،

(69) زار عبد الله التيجاني مدينة صفاقس في مطلع القرن الثامن الهجري، ووصفها في رحلته، ص 68-84 وذكر أخبارها ورجالها بتفصيل.

اثنان منها قرب المحراب، ارتفاعهما لا يتصوره العقل، ولونهما أحمر قان مع نقط بيضاء، كأنه رخام سماقي[70]. وبعد موت عثمان أقر معاوية عقبة على قيادة الجيوش، وبقي كذلك إلى أيام الخليفة الوليد بن عبد الملك الذي كان يحكم بدمشق. وقد أرسل الوليد إلى القيروان أحد قواده المسمى موسى بن نصير على رأس جيش عرمرم. ولما وصل موسى إلى القيروان أقام بها ريثما يستريح جيشه، ثم توجه نحو الغرب واستولى على عدة مدن حتى وصل إلى البحر المحيط، فاقتحم البحر بفرسه إلى أن وصل الماء إلى ركابه[71]، معتبراً أن فتحة كان كافياً في هذه المرة. ثم قفل راجعاً إلى القيروان وأرسل أحد قواده المسمى طارق إلى موريطانيا، فأبرم معاهدة مع يوليان والي سبتة. وأمره موسى بالعبور إلى الأندلس، فامتثل أمره في أبريل 711 (جمادى الثانية ــ رجب 92هـ) واستولى على عدة مدن وأقاليم كاملة كما هو مذكور في كتب ابن حيان وغيره من مؤرخي الأندلس. فحسده موسى على ذلك وأمره بالتوقف في انتظاره، فتوقف طارق في ساحل الأندلس وجاء موسى بعد أربعة أشهر على رأس جيش عظيم. وبعد أن اجتاز الزقاق انضم الجيشان إلى بعضهما، وتوغلوا في البلاد لمجابهة جيش القوط، فاعترضهم روديك ملك القوط، إلا أنه قتل وحطم جيشه لسوء حظه. وتابع القائدان انتصارهما إلى أن وصلا إلى قشتالة فاستوليا على طليطلة، ووجدا فيها أموالاً طائلة وثروات عظيمة، ورفات القديسين موضوعاً في كنيسة هذه المدينة، وبالأخص المائدة التي تناول عليها المسيح العشاء الأخير مع الحواريين، وهي مصفحة بالذهب ومرصعة بالأحجار الكريمة، تقدر قيمتها

---

(70) الكلام على القيروان والفتح العربي طويل عريض لم يذكر منه الحسن الوزان إلا نتفاً قليلة، بعضها صحيح وبعضها مختلط بسبب اعتماده على الذاكرة فقط، وينبغي الرجوع في هذا إلى ح. ح عبد الوهاب، **ورقات**، 1:43-114؛ وأحمد الناصري، **الاستقصا**، 1:65-106.

(71) المعروف أن عقبة هو الذي أدخل قوائم فرسه في البحر بآسفي، ودعا ربَّه، انظر **الاستقصا**، 1:73.

بنصف مليون دينار. وبعد أن تم فتح طليطلة، انصرف موسى مع قسم من الجيش، وأخذ معه تقريباً كل ثروات اسبانيا، فاجتاز البحر ليعود إلى القيروان، لكنه تلقى في هذه الأثناء رسائل خليفة دمشق الوليد (بن عبد الملك) يدعوه فيها إلى العودة. فتوجه نحو مصر بجميع أمواله. ولما بلغ الاسكندرية أخبره أحد اخوة الخليفة المسمى هشام، أن الوليد في الاحتضار، وأنه من الأفضل أن لا يجيء إلى دمشق، لأن الأموال قد تتعرض للنهب إذا مات الخليفة، لكن موسى لم ينصت إلى هذه النصيحة وجاء.

ولما مات الوليد وولي الخلافة أخوه هشام عزل موسى عن إمارة افريقيا، وعين مكانه قائداً آخر اسمه يزيد بن المهلب، فخلف هذا الأخير ابنه وأخوه وحفيده بالتداول، وحكموا مدينة القيروان ما دامت الخلافة لدولة بني أمية(72).

ولما انتقلت السلطة من يد الأمويين بقوة سلاح العباسيين، وولي الخلافة السفاح، بعث (إلى القيروان) والياً آخر اسمه الأغلب بن سالم، فاستبد بالحكم. وكان الخلفاء المسلمون تركوا آنذاك دمشق واتخذوا بغداد قاعدة لهم لأسباب مذكورة في تواريخ الإسلام. فخلف الأغلب أحفاده بعد موته، وبقيت إمارة افريقيا بأيديهم مائة وسبعين سنة، إلى أن طرد آخرهم على يد الخليفة المهدي الشيعي(73).

(72) اختلط الأمر على المؤلف، فالذي تولى الخلافة بعد الوليد هو أخوه سليمان بن عبد الملك، ثم ابن عمه عمر بن عبد العزيز، ثم أخوه يزيد بن عبد الملك، ثم هشام بن عبد الملك (من عام 105-120/724-743)، ولم يتوارث آل المهلب قط حكم افريقيا أيام الأمويين.

(73) بل قدم الأغلب بن سالم التميمي إلى أفريقية عام 148 أيام الخليفة العباسيّ الثاني أبي جعفر المنصور، ومات عام 150. وإنما ينسجم سياق المؤلف قليلاً مع إبراهيم بن الأغلب الذي ولي حكم افريقيا بأمر من هارون الرشيد. انظر أخبار الدولة الأغلبية في القيروان عند ح. ح عبد الوهاب، **خلاصة تاريخ تونس**، ص 77 وما بعدها.

وقد تطورت القيروان وتبحر عمرانها على عهد ملوك بني الأغلب، إلى حد أنها لم تعد تسع جميع السكان، فبنى الملك مدينة أخرى أطلق عليها اسم رقّادة[74] وسكنها مع أكبر أعيان حاشيته. وفي ذلك العهد أرسل جيوشه بحراً تحت إمرة قائد اسمه علقمة، فاحتل جزيرة صقلية وبنى فيها مدينة صغيرة تقوم مقام قلعة يأمن فيها، وسماها باسمه. وما زال الصقليون إلى اليوم يسمونها علقمة. وكادت هذه المدينة أن تتعرض لحصار جنود أتوا لنجدة صقلية. فأرسل ملك القيروان قوات أكثر عدداً بإمرة قائد مقدام اسمه أسد (بن الفرات) عضّد علقمة. وضَمَّ القائدان قواتها واحتلا بقية المدن. وزادت هذه الحملة واحتلال صقلية مدينة القيروان ازدهاراً ونمواً في السكان.

تقع القيروان في سهل رملي قاحل لا تنبت فيه أشجار ولا حبوب، فالقمح وسائر منتجات الأرض الضرورية للحياة تجُلب من الساحل، إما من سوسة، وإما من المنستير أو المهدية، وكلُّها على بعد أربعين ميلاً. ويوجد على بعد اثني عشر ميلاً من المدينة جبل يدعى وسلات، ما زالت فيه بعض الآثار الرومانية[75]، وفيه أيضاً عدة عيون وأراض مغروسة بشجر الخروب. ومن وسلات يجلب ماء الشرب إلى القيروان التي ليس فيها عين ولا بئر ماء عذب، اللهم إلا بعض الخزانات. غير أنه توجد خارج المدينة خزانات قديمة تمتلىء ماءً عند نزول الأمطار، وتفرغ منه بعد شهر يونيو لأن الناس يوردون فيها دوابهم. ويقيم الأعراب صيفاً في ضواحي المدينة، فيزيد ذلك من قلة القمح والماء، لكنه يؤدي إلى كثرة اللحم والتمر المجلوب من مدن نوميديا التي تبعد عن القيروان بنحو مائة وسبعين ميلاً.

(74) انظر عن تأسيس رقادة وحضارتها ح. ح. عبد الوهاب، ورقات، 1:360-375.
(75) هو أسيلّاطوم عند الرومان، وممطور عند العرب الفاتحين، وأسلات الآن.

وقد ازدهرت العلوم الإسلامية بالقيروان في فترة من تاريخها، حتى إن معظم فقهاء افريقيا من المتخرجين منها. وبعد أن خرَّب الأعراب القيروان، أخذت في الوقت الحاضر تمتلىء بالسكان، لكن بكيفية بائسة. فليس فيها الآن غير صناع فقراء، أكثرهم يصبغون جلود الغنم والماعز. ويبيعونها ملابس جلدية في مدن نوميديا التي لا توجد بها الأقمشة الأوربية. فهذه الحرفة لا تضمن لهم إلا معاشاً موقتاً، بالإضافة إلى أن ملك تونس يثقل كاهلهم بالضرائب، وبذلك غدت معيشتهم ضنكاً، كما شاهدت ذلك أثناء سفر قمت به من تونس إلى نوميديا، حيث كان هناك معسكر ملك تونس، وذلك عام 922هـ.

مدينة قَابَسْ

مدينة كبيرة جداً بناها الرومان على ساحل البحر المتوسط في داخل الخليج تحيط بها أسوار عالية قديمة، وكذلك القصبة. يجري جدول ماء صغير قرب المدينة، لكن ماءه حار يكاد يكون مالحاً. وقد أدى نهب الأعراب لقابس إلى انحطاطها، إذ ألحقوا بالسكان أضراراً كثيرة جعلتهم يهجرونها ويعيشون خارجها في بساتين النخل التي تنتج كمية عظيمة من التمر. ولا يدخر هذا التمر السنة كلها لأنه يصير مرّاً، ولا ينبت غيره في هذه الأرض ما عدا فاكهة تنمو تحت الأرض على شكل الفجل لكنها صغيرة مثل الفول، وعندما تمتص تكون لها حلاوة اللوز وشيء من مذاقه، وتستهلك في كافة المملكة التونسية ويسميها الأعراب حب العزيز.

وسكان قابس سود البشرة، فلاحون فقراء أو صيادون ضعفاء، يستغلهم كثيراً الأعراب وملك تونس[76].

(76) زار التيجاني قابس ووصفها في رحلته (ص 86 وما بعدها) مؤكداً ما يقال إنها جنة الدنيا.

الحامَّة

مدينة عريقة في القدم، بناها الرومان داخل الأراضي على بعد نحو خمسة عشر ميلاً من قابس، يحيط بها سور مبني بالحجر الضخم المنحوت نحتاً جيداً، وما زالت تظهر حتى اليوم في أعلى الأبواب لوحات من المرمر عليها كتابات منقوشة، والديار والأزقة قبيحة، والسكان فقراء لصوص. أما أراضي المدينة فوعرة جافة، لا ينبت فيها سوى نخيل تمره غير جيد(77).

وعلى بعد نحو ميل ونصف من المدينة تنبع عين ماء ساخن جداً، يكوّن جدولاً يخترق المدينة من وسطها في قنوات عريضة. وتقوم فوق هذه القنوات بنايات، وهي شبه غرف مفصول بعضها عن بعض تحت مستوى الأرض، بحيث إن قصر القناة هو رصيفها. فإذا دخل الإنسان إلى هذه الغرف وصل الماء إلى سرته، لكن لا يجرؤ أحد على ذلك، لأن حرارة الماء مرتفعة جداً. ورغم ذلك فإن الناس إذا أرادوا أن يشربوه في الصباح استقوه في المساء، والعكس بالعكس. يتجمع كل هذا الماء شمال المدينة عند خروجه منها مكوناً بحيرة تدعى بحيرة المجذومين، إذ من خاصياته أنه يبرىء من داء الجذام ويدمل الجروح، ولذلك يقيم عدد كبير من المجذومين في أكواخ حول البحيرة. ولهذا الماء تأثير عجيب على المرضى، إلا أنه يترك مذاق الكبريت عندما يشرب كما تحققت ذلك بنفسي، بحيث إنه لا يزيل الظمأ.

قصر المَحْرَس

المحرس قصر بناه الأفارقة في عهدنا هذا عند مدخل خليج قابس، وكأنه شيد لحراسة هذا الخليج من هجمات سفن العدو. يقع على بعد

(77) كتب التيجاني الحمَّة ــ بدون مد ــ وهو الاسم العربي الفصيح. وقال إنها تعرف بحمة مطماطة تفرقة بينها وبين حمة توزر المعروفة بحمة البهاليل. انظر الرحلة، ص 134 وما بعدها.

نحو خمسين ميلاَ من جزيرة جربة، وينسج من هجمات سفن العدو. يقع على بعد نحو خمسين ميلاً من جزيرة جربة، وينسج سكانه بعض الأقمشة الصوفية، وكثير منهم بحارة وصيادون، يتجرون مع جزيرة جربة، ويتكلمون جميعاً بنفس اللهجة الإفريقية التي يتكلم بها أهل جربة. وحيث إنهم لا يملكون أية أراض زراعية ولا أية ممتلكات فلاحية، فإن من لا يشتغلون منهم بالنسيج لا يقتاتون جميعاً إلا من العمل في البحر[78].

جزيرة جَرْبَة

جزيرة جربة مجاورة لليابسة، وهي كلها منبسطة رملية، يكثر فيها النخل والكرم والزيتون وغيرها من الأشجار المثمرة. ودائرتها نحو ثمانية عشر ميلاً[79]، يعيش سكانها في مداشر متفرقة المنازل، لكل ملكيةٍ أرضيةٍ دار تسكنها أسرة خاصة. ومع ذلك فإن بعض هذه الملكيات والدور متجمعة. وتربة الجزيرة غير خصبة[80] يجب خدمتها جيداً وسقيها بماء يستخرج من آبار عميقة ليمكن أن يزرع فيها قليل من الشعير، فينتج عن ذلك نقص كبير في الحبوب التي يكاد يساوي ثمن نصف كيل (مودجيو) دائمًا ست (دوبلات)، وأحياناً أكثر من ذلك، واللحم غال جداً أيضاً.

توجد في الجزيرة قصبة مشيدة على ساحل البحر يسكنها الوالي وأسرته، وقرب القصبة مدشر كبير يقطن فيه التجار الغرباء من مسلمين

(78) ذكر التيجاني في الرحلة (ص. 58) أن أصل المحرس مسجد للعبادة والرباط في سبيل الله، وينسب بناؤه إلى ابن الأغلب. وسكانه من هوارة.

(79) سبق قلم أو خلط في نسخ الأرقام، فقد ذكر التجاني في **الرحلة** (ص. 121) أن طول جزيرة جربة من المغرب إلى المشرق ستون ميلاً نقلاً عن **نزهة المشتاق** للادريسي، وأن عرضها مختلف من عشرين ميلاً في الرأس الغربي إلى خمسة عشر ميلاً في الرأس الشرقي الذي هو أضيق مكان بها.

(80) هذا خلاف في **رحلة التيجاني** (ص. 122) : «وهي أرض كريمة المزارع، عذبة المشارع. . . وغيرها من كرائم الأرضين لا يقاربها على الجملة في ثمارها أو يساويها».

ونصارى. يقام فيه سوق مرة في الاسبوع كأنه معرض، إذ يحتشد فيه جميع سكان الجزيرة، ويقصده أيضاً عدد كبير من الأعراب الوافدين من اليابسة، سائقين ماشيتهم، وحاملين معهم كمية وافرة من الصوف. ويعيش معظم سكان جزيرة جربة من تجارة قماش الصوف الذي يصنع فيها، يحملونه إلى تونس والاسكندرية، ويصدرون كذلك الزبيب.

وقد هجم على هذه الجزيرة قبل زهاء خمسين عاماً أسطول مسيحي، فاستولى عليها ونهبها، لكن سرعان ما استرجعها منهم ملك تونس، وأسكن الناس فيها من جديد؛ وشيدت القلعة حينئذ إذ لم يكن فيها من قبل سوى المداشر[81]. وكانت جربة دائمًا تحت حكم ملك تونس الذي كان يبعث إليها والياً قاضياً، وجابياً للأموال على يد رئيسي الفريقين المنتمين إلى المجموعتين اللتين تسكنان الجزيرة[82].

ولما مات الملك عثمان[83] ضعفت سلطة خلفه، فطالبت الجزيرة بحريتها، وسارع أهلها إلى قطع الجسر الرابط بين الجزيرة واليابسة، خشية

---

(81) ذكر التجاني في **الرحلة** أن النصارى تغلبوا على جربة سنة 529 هـ ثم ثار عليهم الأهالي وقتلوهم، ثم غزاهم النصارى بالقرب، ثم تملكها المسلمون، قال: «ولم تزل من أول الفتح الإسلامي على هذه الصفة مترددة بين تملك المسلمين وتغلب النصارى إلى زماننا هذا».

والإشارة عند الوزان هنا إلى الحملة التي قادها الفونس الخامس الأركوني ملك ايطاليا الإسبانية، وجرت في أول محرم عام 836، أواخر غشت 1432، فخرج السلطان أبو فارس عبد العزيز بنفسه لإنجاد الجزيرة. وقد ذكر الوزير السراج في **الحلل السندسية** (القسم الرابع من ج 1: 1078-1079)، تفاصيل هذه الغارة المسيحية على جربة وقيام السلطان أبي فارس بمحاربتهم وطردهم عنها.

(82) ذكر التجاني في **الرحلة** (ص 123) أن أهل جربة ينقسمون إلى فريقين، فرقة تعرف بالوهبية ويسكنون الجهة الغربية من الجزيرة؛ وفرقة تعرف بالنكارة، ويسكنون الجهة الشرقية منها. وكلا الطائفتين خوارج غلاة، يكفرون العصاة، ولا يماسحون بثيابهم ثياب أحد ممن ليس على مذهبهم، ولا يواكلونه في آنية...

(83) كانت وفاة أبي عمرو عثمان الحفصي عام 893 هـ = 1488 م.

مجيء الجنود إليها عن طريق البر. ثم قتل أحد الرئيسين أعيان الفريق المضاد له، فبقي وحده أميراً على الجزيرة، وتوارث أفراد أسرته الحكم إلى يومنا هذا.

تُعْطي جربة عشرين ألف «دوبل» من مداخيل الإتاوات والمكس نظراً للتجارة الكبيرة بها، إذ يختلف إليها كثيراً التجار الاسكندريون والأتراك والتونسيون. لكن المسيطرين عليها حالياً يتعاملون فيما بينهم بالمكر والخداع، يقتل الابن أباه، ويفتك الأخ بأخيه للاستيلاء على الحكم، حتى قتل فيها قرابة عشرة أمراء في ظرف خمس عشرة سنة. وأرسل فرديناند ملك اسبانيا في عهدنا هذا أسطولاً عظيمًا إلى جربة بقيادة دوق الألب الذي لم تكن له خبرة بالجزيرة، فأنزل جنوده على بعد بضعة أميال من الشاطىء، فدافع المسلمون عن الجزيرة بكل شجاعة وأرغموا الاسبانيين على التقهقر. فتضرر هؤلاء كثيراً من القيظ والعطش، لأنهم لم يجدوا ماء يشربونه. وكان نزولهم في وقت المدّ، فلما أرادوا العودة إلى سفنهم صادفوا وقت الجزر لدى رجوعهم، وكانت السفن قد تراجعت مع الجزر حتى لا ترسو على اليابسة، وقد انحسر الماء عن مسافة أربعة أميال بسبب تراجع البحر. فأضيفت هذه الأميال إلى الأخرى التي قطعها الاسبانيون، ووجدوا أنفسهم منهوكين مهددين بخطر جعلهم يقصدون سفنهم بغير نظام وقد ركب الفرسان المسلمون ظهورهم، فقتل معظمهم أو أُسر، ولم ينج منهم ويلتحق بصقلية مع الأسطول إلّا القليل(84).

(84) تقول الرواية المسيحية إن الكونت بيير نافارو: بعد أن استولى على طرابلس في 18 ربيع الثاني 25/916 يوليوز 1510، قرر مهاجمة جزيرة جربة، فنزل بها فجر يوم الجمعة 25 جمادي الأولى 30/916 غشت 1510، ومعه من المقاتلين 12.000 جاؤ وا من طرابلس، و3.000 جاؤ وا من بجاية، وفيهم ولدان لدوق الألب، لقي أحدهما مصرعه هناك، وهو الدوق غارسيا دي طليطلة. وكانت خسائر المسيحيين 1.500 مقاتل، منهم ألف ماتوا بالعطش أو الحر، وخمسمائة قتلوا أو أسروا، والتحق الباقون بالأسطول ليلاً ورجعوا في صباح الغد إلى طرابلس.

وبعد ذلك في عهد جلالة الامبراطور كارلوس، أُرسل أسطول آخر إلى جربة، بأمر منه برئاسة دون نوفو، فارس طائفة القديس يوحنا ورئيس ديرها بمدينة مسين، فتمكن بفضل حذره وحذقه من إخضاع المسلمين دون حرب، والتزامهم بأداء خراج لصاحب الجلالة القيصرية الإمبراطور، وإرسال سفراء حتى إلى ألمانيا لتأكيد المعاهدات المبرمة مع القائد دون نوفو. فوافق الامبراطور عليها وأمر أن تؤدي الجزيرة سنوياً خمسة آلاف «دوبل» لنائب ملك صقلية، وما زال العمل جارياً بهذه الهدنة.

مدينة زْوَارَة

مدينة صغيرة بناها الأفارقة على ساحل البحر المتوسط، بعيدة بنحو خمسين ميلاً عن جربة شرقاً[85]. تحيطها أسوار قبيحة متلاشية، ويسكنها قوم بؤساء لا يعيشون إلّا من صنع الجير والجبس ومن نقلهما إلى طرابلس. ليس لهم أرض للزراعة، وهم دائمًا في خوف من هجوم القراصنة النصارى عليهم، لا سيما بعد سقوط طرابلس.

لَبِيدَة

هذه المدينة أيضاً من بناء الرومان، محاطة بأسوار عالية مبنية بالحجر الضخم. خربت في الزمان الغابر، غير أنها عمرت من جديد لما دخلت جيوش المسلمين إلى البلاد، وبقيت عامرة إلى هجوم الأعراب، حيث خربت مرة أخرى وتحولت إلى الوضعية التي هي عليها الآن. وقد استعملت أحجارها وأعمدتها لتشييد طرابلس[86].

(85) توجد بين جزيرة جربة وزوارة، على طريق البحر، مسافة تقرب من 70 ميلاً وقد تحدث التجاني في رحلته (ص 207-210) عن زوارة الصغرى وزوارة الكبرى، وقال إن الصغرى تعرف بوطن بلد المرابطين، وكانت في بداية القرن الثامن الهجري خراباً، والكبرى تسمى كوطين ــ بضم الكاف وكسر الطاء ــ وهي أضخم من الأولى وأكبر غابة.

(86) المراد المدينة الرومانية «لِيبْتِيس ماكْنا» التي تسمى أطلالها بالعربية لَبِيد، وتقع على بعد 240 كلم شرق زوارة، أي وراء طرابلس بمسافة 123 كلم. =

طَرَابُلُس القديمة

هي مدينة عتيقة بناها الرومان كذلك، ثم حكمها الوندال فالمسلمون الذين احتلوها أيام عمر ثاني الخلفاء الراشدين. وقد حوصر بها الدوق الوندالي مدة ستة أشهر، واضطر إلى الفرار إلى قرطاجنة، فنُهبت المدينة وقتل أهلها أو أخذوا أسرى إلى مصر والجزيرة العربية حسب رواية المؤرخ ابن رقيق[87].

طَرَابُلُس الغرب

بناها الأفارقة إثر خراب طرابلس القديمة[88]. تحيط بها أسوار عالية جميلة، لكنها غير متينة كما يجب، وتقع في سهل رملي مغروس بنخل كثير. دورها جميلة بالنسبة لدور تونس، وأسواقها منسقة مفصولٌ بعضها عن البعض بحسب اختلاف الحرف، لا سيما حرفة النساجين. وليس بها سقايات ولا آبار، وإنما فيها خزانات، وتعاني كثيراً من قلة الحبوب، لأن البادية كلها ليست سوى رمال كبادية نوميديا. والسبب في ذلك أن البحر

= وسماها التجاني في رحلته (ص 83) لُبيدَى، وقال: كذا تحققتها، وسماها الرشاطي لبيدة، ينسب إليها الفقيه الصالح أبو القاسم عبد الرحمان بن محمد الحضرمي اللبيدي، مؤلف الكتاب الكبير المسمى بالشرح والتفصيل لمسائل المدونة؛ وتوفي قريباً من عام 430 هـ.

(87) يظهر أن الأمر اختلط على المؤلف، فطرابلس الغرب هي التي فتحها عمرو بن العاص، سنة 22 هـ. واقتحمها على الروم بعد حصار دام شهراً.

(88) ذكر البكري في **المسالك والممالك** (ص 6-7) أن ترجمة طرابلس باللغة الإغريقية ثلاث مدن. وصفها التجاني في **الرحلة** (ص 237 ومابعدها) وصفاً دقيقاً مطولاً، وذكر أخبارها منذ الفتح الإسلامي إلى أوائل القرن الثامن الهجري، مع أدب كثير نظمًا ونثراً. وورد اسمها في النص الفرنسي طرابلس بلاد البربر، وهو ظاهر التحريف في الترجمة للتعارف عند المسلمين من مقابلة طرابلس الغرب لطرابلس الشام. ويفرق بعضهم بينهما بكتابة طرابلس الغرب بزيادة همزة وصل في أولها «آطرابلس» وكتابة الأخرى «طرابلس» بدونها.

المتوسط يتوغل في قلب هذه المناطق جنوباً، إلى حد أن الأماكن التي كانت ولا شك[89] دسمة خصبة في الزمان الغابر هي الآن مغمورة بالمياه. ويقول سكان هذه البلاد إن مساحة شاسعة من الأراضي كانت في القديم متقدمة جداً نحو الشمال، ولكن المياه غمرتها مع توالي العصور بتلاطم الأمواج التي كانت تحفرها دائمًا كما يشاهد ذلك في شواطىء المنستير والمهدية وصفاقس وقابس وجزيرة جربة وغيرها من المدن الواقعة إلى جهة الشرق حيث البحر قليل العمق، حتى إن الإنسان إذا دخل في البحر لا يصل الماء إلّا إلى حزامه. ولهذا يقولون إن هذه الأماكن غمرها البحر منذ عهد قديم. ويزعمون أيضاً أن المدينة كانت تمتد أكثر شمالاً، لكن حفر المياه المستمر لها أرغمها على التقهقر صوب الجنوب، وأن الدور والبناءات تشاهد لحد الآن تحت المياه. وكان في هذه المدينة قديماً عدة جوامع وبعض المدارس والبيمارستانات لإيواء المساكين والغرباء. ويأكل السكان طعاماً رديئاً جداً هو بازين الشعير، لأن المُؤن المستوردة للمدينة لا تكفي لإعالتها ولو يوماً واحداً. ويعتبر الفلاح غنياً إذا استطاع أن يدخر ستيّة[90] أو ستيتين من الحب لزاده.

ومع ذلك فإن السكان يتعاطون التجارة بكثرة، لأن المدينة قريبة من نوميديا ومن تونس دون أن توجد مدينة غيرها حتى الاسكندرية، وهي كذلك قريبة من مالطة وصقلية. وكانت سفن البنادقة ترسو بها قديماً، وتقوم بتجارة كبيرة مع تجار طرابلس ومع الذين يفدون إليها كل سنة من أجل هذه السفن.

كانت هذه المدينة دائمًا تابعة لملك تونس، ما عدا في الفترة التي جاء

(89) لاحظ ايبولار هنا أن الصحيفة رقم 58 من المخطوط مفقودة، ولذلك لفق في ترجمته الفرنسية ما يقابلها من ترجمة طمبورال.

(90) «ستيّة»: كيل قديم يقدر بنحو خمسة أرطال.

أبو الحسن ملك فاس لضرب الحصار على تونس، وألجأ ملكها إلى صحاري الأعراب التماساً لسلامته.

إلاّ أن ملك تونس استرجع حكمه بعد أن هزم أبو الحسن وكسر جيشه، فثارت تونس حينئذ، ودامت الثورة خمس سنوات إلى أن أعاد أبو عنان ملك فاس الكرة على مملكة تونس، فنهض لملاقاته ملك تونس المسمى أبا العباس، وتقاتل الجيشان فغُلب ملك تونس وفر إلى قسنطينة، فتبعه ملك فاس وحاصر قسنطينة وضيّق عليها الخناق حتى ضاق السكان درعاً وفتحوا الأبواب. فأُخذ ملك تونس أسيراً واقتيد إلى فاس، ثم سجن في قصبة سبتة.

وبينما كان ملك فاس يقتاد ملك تونس أسيراً هجم على طرابلس أسطول جنوي من عشرين سفينة حربية، واحتلوا المدينة ونهبوها بعد معركة ضارية، وأسر جميع السكان. وفي الحين كتب هلال بن ميمون، خليفة الملك أبي عنان بتونس، رسالة إلى عاهله يخبره فيها بما حدث وأنه صالح الجنويين على أن يؤدي إليهم خمسين ألف مثقال. ولما أدى هذا المبلغ أفرغ الجنويون المدينة وأطلقوا سراح الأسرى، لكن تبيَّن لهم بعد ذهابهم أن نصف المثاقيل كان مغشوشاً[91].

(91) تقول الرواية المسيحية إن الجنوي فيليب دوريا داهم مدينة طرابلس على حين غرة مع خمس عشرة سفينة حربية في 12 أبريل 1355 (18 ربيع الأول 756) واستولى عليها بغتة، وكان يحكمها آنذاك أمير صغير من أهلها. ثم خرج الجنوي من المدينة في 22 غشت 1355 (12 شعبان 756) آخذاً معه سبعة آلاف سجين وغنيمة كبيرة، بعد أن أخذ غرامة حربية عظيمة شارك فيها أبو عنان المريني بخمسين ألف دينار ذهبية نقداً، ولم يكن آنذاك قد احتل تونس. ويقول ابن جزي الذي كتب رحلة ابن بطوطة بعد نحو ثلاثة أشهر من وقوع هذا الحادث: إن أبا عنان أمر خدامه بمدن افريقية أن يفتدوا طرابلس ولما علم بنتيجة المفاوضات أمر بإرسال الخمسين ألف دينار، أي خمسة قناطير، أو بعبارة أخرى خمسمائة رطل مريني من نقود الذهب وحملها إلى افريقية وقال: الحمد لله الذي خلّصها من أيدي الكفار بهذا المبلغ الزهيد!

وبعد ذلك أطلق أبو سالم ملك فاس سراح ملك تونس بسبب صلة قرابة وقعت بينهما فاسترجع ملكه.

وهكذا عادت طرابلس أيضاً تحت سلطة ملك تونس، واستمر ذلك إلى أيام الأمير أبي بكر ابن عثمان ملك تونس. إذ قُتل أبوبكر في قصبة طرابلس مع أحد أبنائه بأمر من يحيى ابن أخيه، فبويع يحيى ملكاً لتونس وخضعت له طرابلس، ثم قتل بعد ذلك أثناء معركة مع ابن عمه عبد المؤمن الذي سلبه الحكم واحتفظ به إلى مماته. فخلفه زكرياء ابن الملك يحيى ومات بالطاعون بعد بضعة أشهر، فبايع الشعب وأعيان تونس محمد ابن الحسن وابن عم زكرياء ورفعوه على العرش، لكن محمداً أظهر من العجب والجور حينما رأى نفسه في تلك الدرجة العليا، حتى إن أهل طرابلس طردوا واليهم من قبله والموظفين الملكيين، وعينوا أميراً عليهم من أنفسهم، قدموا له جميع خراج طرابلس وبيت مالها. فحكم هذا الرجل المدينة بكامل التواضع(92).

لكن ملك تونس أرسل إلى طرابلس جيشاً عرمرماً بقيادة أحد خلفائه للانتقام من هذه الثورة، فسمَّه الأعراب وقتلوه بإيعاز من أهل طرابلس، وتبدّد الجيش. ثم حدث أن أمير طرابلس هذا الذي تظاهر بالتواضع أولاً أخذ يتجبر حتى قتله صهره، وانتهى الأمر بالشعب إلى الالتجاء إلى أحد أفراد حاشية الأمير أبي بكر ـ كان قد تنسك ـ وإجباره على تولي إمارة طرابلس، فاستمر في الإمارة عدة أشهر إلى أن أرسل الملك الكاثوليكي فرديناند أسطولاً إلى طرابلس بقيادة الكونت نافارو. وصل الأسطول بغتة

(92) هذه الأحداث التاريخية المتعلقة بحكم المتأخرين من الحفصيين وتدخل المرينيين في افريقية قد اختلط الكثير منها على الحسن الوزان بسبب اعتماده على الذاكرة فقط، ولم نر فائدة في التعليق على كل خطأ مكتفين بالإحالة على مرجعين هامين في الموضوع، هما كتاب **المؤنس** لابن أبي دينار، ابتداء من صحيفة 145، وكتاب **الاستقصا** لأحمد الناصري، 3: 153 وما بعدها.

أمام طرابلس مساء، وفي الغد أُخذت المدينة وأُسر جميع أهلها؛ وحُمل الأمير مع أحد أصهاره إلى مسين، حيث لبثا في السجن بضع سنين، ثم نقلا إلى باليرم. وهناك أطلق الامبراطور كارلوس سراحهما، فعادا إلى طرابلس بمحض اختيارهما. وكانت هذه المدينة قد خربت على إثر احتلال المسيحيين لها. حقاً انهم حصنوا القصر بسور متين ومدفعية ضخمة، كما شاهدنا ذلك في عام 1518 للميلاد، وسمعت منذ وقت قريب أن أمير المدينة أخذ يعمرها بالسكان باسم القيصر[93].

ذلك كل ما يمكنني أن أقول عن مدن مملكة تونس.

جبال بِجَايَة

تكاد دولة بجاية تكون كلها مؤلفة من جبال شاهقة وعرة ذات غابات وعيون كثيرة. وتسكن هذه الجبال قبائل غنية نبيلة كريمة، تملك عدداً كبيراً من الماعز والبقر والخيل، كانت تعيش دائمًا تقريباً في حرية، لا سيما بعد أن سقطت بجاية في يد المسيحيين. ويحمل معظم السكان في

(93) تقول الرواية المسيحية إن الكونت بير نافارو، بعد أن احتل بجاية في 5 يناير 1510 (24 رمضان 915)؛ حارب حواليها عدة شهور إلى أن ظهر الوباء؛ فقرر مناجزة طرابلس، وأخذ معه خمسة عشر ألف مقاتل من بجاية، وذهب إلى صقلية فتزود منها، ووصل أسطوله المؤلف من خمسين سفينة شراعية أمام شاطىء طرابلس في 24 يوليوز 1510 (17 ربيع الثاني 916). وأخذ المدينة يوم الخميس 25 يوليوز بعد مقاومة عنيفة جداً من طرف السكان، لأنهم كانوا على علم بهذه الحملة منذ زمن طويل ومتأهبين لها. وكانت الخسائر فادحة، وخربت المدينة انتقاماً منها، ولم تبدأ في استرجاع عمرانها إلّا بعد عودة أميرها المسلم السابق إليها. وفي سنة 1523 (929هـ) عندما أخذ الأتراك جزيرة رودس من يد فرسان طائفة القديس يوحنا، أعطاهم الامبراطور شارل الخامس جزيرة مالطة، ثم أسند إليهم أمر طرابلس سنة 1528 (935 هـ) فصار أحد فرسانهم حاكمًا لها. وقد انتزع سنان باشا مدينة طرابلس من يد طائفة القديس يوحنا في 4 غشت 1551 (فاتح شعبان 958) رغم المقاومة العنيفة التي أبداها القائد العام لهذه المدينة، الفارس الفرنسي دوكامباري.

هذه البلاد بالأخص وشمًا على خدهم يمثل صليباً أسود حسب العادة القديمة التي أشرنا إليها آنفاً. غذاؤهم الرئيسي خبز الشعير. ولهم كمية عظيمة من الجوز والتين اللذين يوجدان على الخصوص في جبال الشاطىء المعروفة بجبال زواوة[94]. في هذه الجبال معادن حديد تصنع به سبائك صغيرة تزن الواحدة منها نصف رطل وتستعمل كعملة، وتضرب نقود صغيرة من الفضة وزنها أربع حبات. وينبت هناك الكتان والقنب بكثرة، وتصنع منهما كمية كبيرة من القماش، وكله خشن.

أهل البلاد غيورون، أقوياء سباقون للخير، يرتدون كلهم تقريباً لباساً مناسباً. وتمتد دولة بجاية هذه في منطقتها الجبلية على طول ساحل البحر المتوسط في مسافة نحو مائة وخمسين ميلاً، وعلى عمق نحو أربعين ميلاً. وتسكن كل جبل من هذه الجبال قبيلة غير التي تسكن جبلاً آخر، لكنها غير مختلفة في أسلوب العيش، لذلك سأعدل عن ذكرها.

جبل الأَوْرَاس

هو كتلة جبلية شاهقة، أهلها مغفلون، ولصوص فتاكون.

تقع الأوراس على بعد نحو ثمانين ميلاً من بجاية، وستين ميلاً من قسنطينة[95]، وهي مفصولة عن الجبال الأخرى وممتدة على طول نحو ستين ميلاً. تتاخم الأوراس جنوباً صحراء نوميديا، وشمالاً بلاد مسيلة وسطيف ونڭاوس وقسنطينة. وتنبجس في المرتفعات عدة عيون ينتشر ماؤ ها في السهل ويكوّن أنواعاً من مستنقعات تتحول إلى ملاحات عندما يشتد الحر.

لا يستطيع أحد أن يتصل بسكان جبال الأوراس، لأنهم لا يريدون

---

(94) جبال زواوة هي جبال القبائل الكبرى غرب بجاية.

(95) بل 60 ميلاً من بجاية، و80 ميلاً من قسنطينة.

أن تعرف مسالك جبالهم، اتقاء من أعدائهم الأعراب ومن الأمراء المجاورين لهم.

جبال دولة قُسَنْطِينَة

تكتظ كل المنطقة الواقعة شمال قسنطينة وغربها بجبال لا تحصى عدداً، تبتدىء من تخوم بجاية وتمتد على طول البحر المتوسط حتى قرب عنابة، أي على مسافة نحو مائة وثلاثين ميلاً. وهذه الجبال كلها كثيرة الإنتاج، لأن الأراضي الواقعة بينها في السهل غاية في الخصب، تعطي الكثير من الزيتون والتين وغيرهما، بحيث تـزود جميع المـدن المجاورة كقسنطينة والقالة وجيجل، وتزود الأعراب كذلك.

سكان هذه الجبال متحضرون أكثر من سكان جبال بجاية، يزاولون مختلف الحرف، وينسجون على الخصوص كمية كبيرة من القماش.

ومن عادات نساء هذه البلاد الفرار إلى جبل آخر إذا لم يرضين بأزواجهن، وتترك المرأة الهاربة أولادها، وربما اتخذت زوجاً آخر في الجبل الذي تقصده إذا كان عدواً لجبل زوجها، وذلك ما يسبب الخصومات. لكن غالباً ما يقع الاتفاق إما بأداء مبلغ من المال وإما بمبادلة أخرى؛ كأن يزوج الرجل الذي أخذ الهاربة إحدى بناته أو أخواته لزوج المرأة الهاربة.

سكان هذه المنطقة أغنياء جداً، لأنهم لا يؤدون أي خراج، لكنهم لا يستطيعون مزاولة التجارة لا في السهل خوفاً من الأعراب، ولا في المدن خوفاً من الأمراء. يقيمون سوقاً كل أسبوع في أيام مختلفة، يقصده عدد كبير من تجار قسنطينة والقالة، إلّا أن على هؤلاء التجار أن يتخذوا صديقاً لهم في كل جبل كضامن، إذ بدونه لا يمكن أن ينصفهم أحد إذ خُدِعوا.

ليس هناك قاض ولا إمام ولا أي شخص يعرف القراءة، وإذا

احتاج إنسان إلى قراءة رسالة فلا بد له من البحث عمن يقرؤها له على بعد اثني عشر أو خمسة عشر ميلاً من هناك.

وتعطي هذه الجبال في مجموعها نحو أربعين ألف فارس، ولو كان هؤلاء القوم متحدين كما يجب لاستطاعوا أن يسيطروا على افريقية كلها لفرط شجاعتهم.

جبال عَنَّابَة

إن عنابة التي يحدها البحر شمالاً، يقع في غربها وجنوبها بعض الجبال المتصلة بجبال قسنطينة؛ لكن في شرقها جبال على شكل تلال مغطاة بأراضٍ زراعية جيدة، كان فيها قديماً عدد من المدن والقصور التي أنشأها الرومانُ وتحولت اليوم إلى رسوم داثرة لا يعرف اسم أي واحد منها. والمناطق الزراعية غير مسكونة بسبب الأعراب، باستثناء منطقة صغيرة تحرثها قبائل تعيش في البادية، استقرت أقدامهم فيها بقوة السلاح بالرغم على الأعراب. وتمتد هذه التلال على طول نحو ثمانين ميلاً من الشرق إلى الغرب، أي من ضواحي عنابة إلى باجة، وعلى عرض نحو ثلاثين ميلاً. وتنبع في هذه الجبال عدة عيون تُكوّن جداول ماء تخترق السهل الواقع بين هذه الكتلة الجبلية والبحر المتوسط.

الجبال المجاورة لتُونُس

تقع تونس في السهل، ولا يوجد بجوارها مباشرة جبال غير بعض المرتفعات الصخرية الداخلة في البحر جهة الغرب، كالجبل الذي تقوم فوقه قرطاج؛ إلاّ أنه يوجد جبل شاهق شديد البرودة على بعد نحو ثلاثين ميلاً جنوب شرق تونس يسمى زغوان، لكنه غير آهل إلاّ ما كان من أكواخ قليلة يسكنها فلاحون يربون النحل ويزرعون قليلاً من الشعير. وكان جبل زغوان قديماً على عهد الرومان مسكوناً، إذ بنوا في قمته

ومنحدراته وسفحه قصوراً عديدة ومداشر أصبحت اليوم خراباً تماماً. وتوجد من بين هذه الآثار القديمة الكثيرة جداً عدة نقوش باللغة اللاتينية، رأيتها بنفسي، وقرأ بعضها لي وترجمها صقليٌّ اعتنق الإسلام. ومن زغوان أخذوا الماء في ذلك العهد إلى قرطاج، وما زالت قناته ماثلة للعيان إلى الآن.

جبال بني يَفْرَن ونُفُوسَة

تعزل الصحراء هذه الجبال الواقعة على بعد نحو ثلاثين ميلاً من جربة وصفاقس، وهي عالية باردة، لا ينبت فيها القمح إلّا نادراً مع قليل من الشعير لا يكفي لنصف السنة. وسكان هذه الجبال شجعان أبطال، إلّا أن المسلمين المتذهبين بمذهب خلفاء القيروان يعتبرونهم زنادقة(96). وقد رجع سكان بلاد افريقية عن هذه النحلة الضالة ما عدا هؤلاء الجبليين، ولذلك يذهبون إلى ضواحي تونس وغيرها من المدن حيث يزاولون حرفاً بسيطة لكسب معاشهم، متحرزين من إظهار عقيدتهم خشية أن يتعرضوا لعقاب المتربصين بهم(97).

---

(96) يقصد الشيعة من أنصار الفاطميين ملوك القيروان، والخوارج الممتنعين في جبال نفوسة. لما عرف في التاريخ من تناقض آراء الفريقين حول علي بن أبي طالب، يقدسه الشيعة إلى حد العبادة، وينتقصه الخوارج إلى حد التكفير.

(97) من المعلوم أن الخوارج تفرقوا بعد اندحارهم أمام علي في وقعة النهروان، فكانت منهم فرقة بالعراق مركزها البطائح قرب البصرة، وأخرى بالجزيرة العربية، وثالثة بالمغرب امتنعت بجبال نفوسة ولا صحة لما يقال من أن عبد الله بن إباض التميمي الذي ينتسب إليه الخوارج الإباضية، وعبد الله بن وهب الراسبي الذي ينتسب إليه الخوارج الوهبية، قد التجآ بعد وقعة النهروان إلى جبال نفوسة، لأن الثابت أن عبد الله بن وهب قتل في معركة النهروان، (عام 38) وعبد الله بن إباض عاش في المشرق إلى أيام عبد الملك بن مروان، وأخباره معروفة مع الأمويين، إلى أن مات عام 86. ومعلوم أن لكل من هذين الرئيسين الخارجيين ولغيرهم أتباعاً كثيرين تفرقوا شذر مذر في بلاد الإسلام. والنحلة الخارجية الضالة هي الوحيدة التي تمكنت من البقاء في =

جبال غَرْيَان

غريان جبل مرتفع بارد طوله نحو أربعين ميلاً، وعرضه نحو خمسة عشر ميلاً، يفصله عن باقي الجبال بعض المساحات الرملية، ويبعد عن طرابلس بنحو خمسين ميلاً[98]. ينتج الكثير من الشعير والتمر الممتاز الذي ينبغي أن يؤكل طرياً، كما ينتج كثيراً من الزيتون الذي تستخرج منه كمية عظيمة من الزيت، تنقل إلى الاسكندرية والمدن المجاورة.

ويكثر فيه أيضاً الزعفران الممتاز لوناً وجودة، وهو أحسن بكثير من الزعفران المستورد من أي جهة أخرى في العالم. فإذا كان زعفران اليونان أو تونس يساوي في القاهرة عشرة دنانير أشرفية[99] للرطل، فإن زعفران غريان يساوي خمسة عشرة ديناراً أشرفياً حسبما أخبرني به من كان حاكماً بهذا الجبل؛ وأضاف أن الدخل السنوي لهذا الجبل ستون ألف (دوبل)، وأن في أيام حكمه كان يستخرج ثلاثون قنطاراً من الزعفران، وهي أحمال خمسة عشر بغلاً.

لكن سكان غريان كانوا دائماً مستغلين من قبل الأعراب وملوك تونس. ولهم قرى عديدة تبلغ مائة وثلاثين تقريباً، محتوية على دور فقيرة قبيحة.

= بلاد المغرب، إلى أيامنا هذه، لأنها انتحلت مبدأ التقية الشيعية، فكانت تظهر تارة، وتختفي أخرى كما يشير إليه الحسن الوزان هذا.

(98) جبل غريان الذي هو امتداد لجبل يَفْرَن من جهة الشرق، يبعد عن طرابلس بمائة كيلومتر جنوباً.

(99) الدينار الأشرفي منسوب إلى سلطان مصر المملوكي سيف الدين برس باي الأشرف (825-841 هـ = 1422-1438) كان يزن 466، 3 غرامات، من النضار الخالص، ويتعامل به الناس في المشرق كله حتى بلاد الهند، ويرغبون فيه لدرجة أن كان (الذهب الأشرفي) في فرنسا القرن السادس عشر يعني الذهب من الدرجة الأولى.

جبال بني وليد

يقع هذا الجبل على بعد نحو مائة ميل من طرابلس. وتسكنه قبيلة شجاعة غنية تعيش حرة متحالفة مع سكان جبال أخرى في تخوم صحراء نوميديا.

* * *

وبعد أن أنهيت الكلام عن الجبال، سأتابع حديثي عن أقاليم مملكة تونس التي ليس بها مدن ولا قصور، وإنما فيها شبه مداشر، وأذكرها الواحد تلو الآخر.

قصر أحمد

هو قصر بناه أحد قادة الجيوش الوافدة إلى افريقيا. وقد خربه الأعراب.

سُبَيْخَة

كانت هي الأخرى من القصور المشيدة في عصر الفتح الإسلامي لإفريقية، عامرة بالسكان، إلى أن خربها الأعراب، وما زال فيها صيادون وغيرهم من الفقراء.

قصر حَسَّان

قصر آخر بناه على شاطىء البحر الجنود المسلمون وخرّبه الأعراب كذلك[100].

(100) إذا كان القصران الأولان مندثرين لا يعرف لهما عين ولا أثر، فإن قصر حسان هذا يمكن أن يكون هو ما يعرف عند المؤرخين والجغرافيين العرب بقصور حسان، وهي قصور بناها القائد حسان بن النعمان الغساني، على ساحل البحر بعيدة عن =

نُون

نون منطقة مسكونة على شاطىء المحيط ليس بها سوى قرى عامرة بناس فقراء. تقع بين نوميديا وليبيا، لكن القسم الأعظم منها ينتسب إلى ليبيا، لا ينبت فيها إلاّ الشعير وقليل من التمر الرديء. يرتدي أهل هذه البلاد لباساً سيئاً، وهم فقراء لأن الأعراب يستغلونهم ويستنزفونهم. ويذهب بعضهم للاتجار في مملكة ولاتة(81).

تِغَزّة

تغزة مكان مأهول فيه عدد من مناجم الملح التي تشبه مقالع الرخام. يستخرج الملح من حفر تحيط بها أكواخ عديدة يسكنها المستخدمون لاستخراج هذا الملح، وليسوا من سكان البلدة، بل هم من أصل أجنبي، يأتون مع القوافل ويقيمون هنا كمنجمين يستخرجون الملح ويحتفظون به حتى تأتي قافلة فتشتريه منهم. ومن هنا يحمل إلى تمبكتو التي يعوزها الملح كثيراً. يحمل كل جمل أربع قطع من الملح. وليس للعاملين في ملح تغزة

= طرابلس بنحو 400 كلم، في المكان المسمى اليوم بقصور حسان، و«تماد حسان» أي المستنقع الصغير. وقد استقر حسان بهذه مع جنده بعد أن ظهرت «الكاهنة» عليهم، إلى أن جاء المدد من عبد الملك بن مروان عام 74، فأعاد الكرة على الكاهنة وهزمها ثم قتلها. انظر أحمد الناصري، **الاستقصا**، 1 :82-84.

(81) النون في العربية هو الحوت. ويطلق في المغرب حتى اليوم على الحوت النهري المستطيل الذي يشبه الحنش. وينطق به أحياناً «نول». وهذا أصل تسمية هذه المنطقة الواقعة في جنوب المغرب بتخوم بلاد سوس. والنسبة إليه واد نوني، وهناك علماء مغاربة وادنونيون مشهورون. (انظر: كتابنا **الحركة الفكرية**، ج 2، ص 621-622).
وقد حل المؤلف ببلاد نون عندما ذهب إلى تكاووست ــ كما جاء في الكتاب الثاني ــ إلاّ أنه لم يضعها في مكانها من جهتي الجنوب والغرب.
وكان البحارة الأوربيون يقصدون رأس نون للاتجار مع الأهالي خلال القرنين 15 و16 م وما زال حتى اليوم في سيدي إفني مكان يبعد بنحو 15 كلم عن مصب واد أساكا إلى جهة الشمال يعرف بسوق النصارى.

قوت إلّا ما يحمل إليهم من تمبكتو ودرعة، وكلاهما على مسيرة عشرين يوماً من تغزة. وقد يموت أحياناً بعضهم جوعاً في أكواخهم لفقد القوت بسبب عدم مجيء القافلة. بالإضافة إلى الريح الشرقية التي تهب في الصيف فتفسد أعينهم، ويفقد الكثير منهم أبصارهم. أقمت مرة في تغزة ثلاثة أيام ريثما يحمل الملح، واضطررت أثناء ذلك إلى شرب الماء المالح من بعض الآبار القريبة من المنجم.

أُوجْلَــة

أوجلة[82] ناحية مسكونة في صحراء ليبيا على بعد نحو أربعمائة وخمسين ميلاً من النيل[83]. فيها ثلاثة قصور[84] وبضعة مداشر صغيرة يحدق بها نخيل كثير، لا ينبت بها القمح، وإنما يستورده الأعراب من مصر. وتقع أوجلة على الطريق الكبرى الذاهبة من موريطانيا إلى مصر مروراً بصحراء ليبيا[85].

قرية الْغَار

قرية على شاطىء البحر يكثر فيها التمر، أرضها قاحلة يزرع فيها قليل من الشعير يقتات به السكان.

---

(82) ذكرها ياقوت في **معجم البلدان** (ج 1: 368) وقال إنها مدينة في جنوبي برقة نحو المغرب ضاربة إلى البر، ثم نقل عن البكري المسافات وقال إن أوجلة اسم للناحية، واسم المدينة أرزاقية. وأوجلة قرى كثيرة فيها نخل وشجر كثير وفواكه، ولمدينتها أسواق ومساجد.

(83) تقع واحة أوجلة التي سماها هيرودوتس بنفس الاسم على بعد أكثر من 1000 كلم من النيل.

(84) هي أوجلة، وجلو، وجكرة، وتشكل مثلثاً تبعد فيه كل واحدة عن الأخرى بثلاثين وأربعين كلم مع مداشر عديدة.

(85) تمر هذه الطريق بواحات جغبوب وسيوة، وهي سنترية، واحة حمون الشهيرة.

غَارُ الْغَار

هي أرض تظهر فيها حفريات عظيمة، يظن أن من هناك كان يستخرج الحجر الذي بنيت به طرابلس القديمة، لقرب هذا المكان منها.

سَرْمَان

قرية كبيرة كثيرة السكان، قريبة من طرابلس القديمة، يكثر فيها التمر، لكن لا ينبت فيها أي شيء من الحبوب.

زاوية بني يَرْبُوع

قرية أخرى لا تبعد كثيراً عن البحر، وينبت فيهـا القليل من القمح. يسكنها بعض النساك، ويظهر فيها نخل كثير.

زَنْزُور

قرية قريبة من البحر على بعد نحو اثني عشر ميلاً من طرابلس، يكثر فيها الصناع، وتنتج الكثير من التمر والرمان والسفرجل. سكانها ضعفاء لا سيما منذ احتلال المسيحيين لطرابلس، ومع ذلك فإنهم يتجرون معهم ويبيعون لهم فواكههم.

عَمْرُوس

مدشر يقع على بعد نحو ستة أميال من طرابلس داخل الأراضي، ويوجد فيه عدد كبير من النخيل، وبساتين مليئة بمختلف الأشجار المثمرة.

تَاجُورَة

بادية تقع على بعد نحو ثلاثة أميال[101] شرق طرابلس. وتوجد فيها عدة قرى مع بساتين مغروسة بالنخيل وغيره من الأشجار المثمرة. وقد

(101) بل 13 ميلاً.

عادت خصبة جداً بعد سقوط طرابلس، لأن عدداً كبيراً من المدنيين لجأوا إليهـا؛ لكن يوجد في جميع القرى والمداشر المذكورة قوم غلاظ جهال لصوص، يسكنون في أكواخ من الجريد ويقتاتون بخبز الشعير والبازين. وكلهم خاضعون لملك تونس والأعراب، ما عدا الذين يعيشون في قلب البادية.

مَسْلاَتَــة

إقليم على شاطىء البحر المتوسط، بعيـد بنحو خمسـة وثلاثـين ميلاً[102] عن طرابلس، فيه عدد من القرى والقصور العامرة بالسكان الأثرياء، لكثرة ما فيه من النخيل وشجر الزيتون. يعيش أهله في حرية، ويختارون رئيساً من أنفسهم يقوم مقام الأمير، ويدير شؤون السلم والحرب مع الأعراب. وفي هذا الإقليم قرابة خمسة آلاف مقاتل.

مَسْرَاتَــة

مسراتة هي كذلك إقليم على شاطىء البحر المتوسط، يبعد بنحو مائة ميل عن طرابلس[103]، ويشتمل على قصور وقرى، بعضها في السهل وبعضها في الجبل. أهل مسراتة أغنياء، لأنهم لا يؤدون أيـة إتاوة، ويتعاطون التجـارة. يأخـذون البضائـع التي تحملها إلى بـلادهم سفن البندقية، ويحملونها إلى نوميديا حيث يستبدلون بها الرقيق وقطط الزباد، والمسك، الواردة من إثيوبيا والسودان، ثم يحملون كل ذلك إلى تركيا، محققين هكذا أرباحاً من رحلة الذهاب ورحلة الإياب.

وإذ انتهينا من مملكة تونس، فلنتابع الحديث عن صحراء برقة.

---

(102) بل بنحو 65 ميلاً.

(103) بل نحو 130 ميلاً.

صحراء بَرْقَة

تبتدىء هذه الصحراء عند تخوم إقليم مسراتة، وتمتد شرقاً حتى تخوم الاسكندرية،على مسافة نحو ألف وثلاثمائة ميل، ويقارب عرضها مائتي ميل[104]. وبرقة بلاد قاحلة وعرة لا ماء فيها ولا أرض تـزرع. كانت خالية من السكان قبل دخول العرب إلى افريقيا[105]؛ لكن لما جاء الأعراب استقر أقواهم في المناطق الخصبة، وبقي أقلهم بأساً في الصحراء حفاة عراة يتضورون جوعاً؛ لأن هذه الصحراء بعيدة عن كل منطقـة مسكونـة ولا تنبت شيئاً، حتى إن الأعراب البؤساء إذا أرادوا القمح أو غيره من الضروريات، اضطروا إلى رهن أولادهم في ذلك؛ ويحمل إليهم القمح وغيره الصقليون عن طريق البحر، ثم يرجعون بالرهان. وعندما ينصرف هؤلاء يذهب الأعراب بدورهم إلى النهب حتى إلى نوميديا. وهم أكبر لصوص الدنيا وأكثرهم خديعة ومكراً، يجردون الحجاج المساكين وأبناء السبيل من ثيابهم، بل ويسقونهم لبناً ساخناً ثم يحركونهم ويقذفون بهم في الهواء، إلى أن يأخذ هؤلاء الأشقياء في التقيؤ حتى تكاد تخرج أحشاؤهم، فيبحث الأعراب عما قد يكون في القيء من نقود، لأن هؤلاء البهائم المتوحشة يتهمون المسافرين ببلع نقودهم عندما يقتربون من هذه الصحراء حتى لا يعثر عليها معهم.

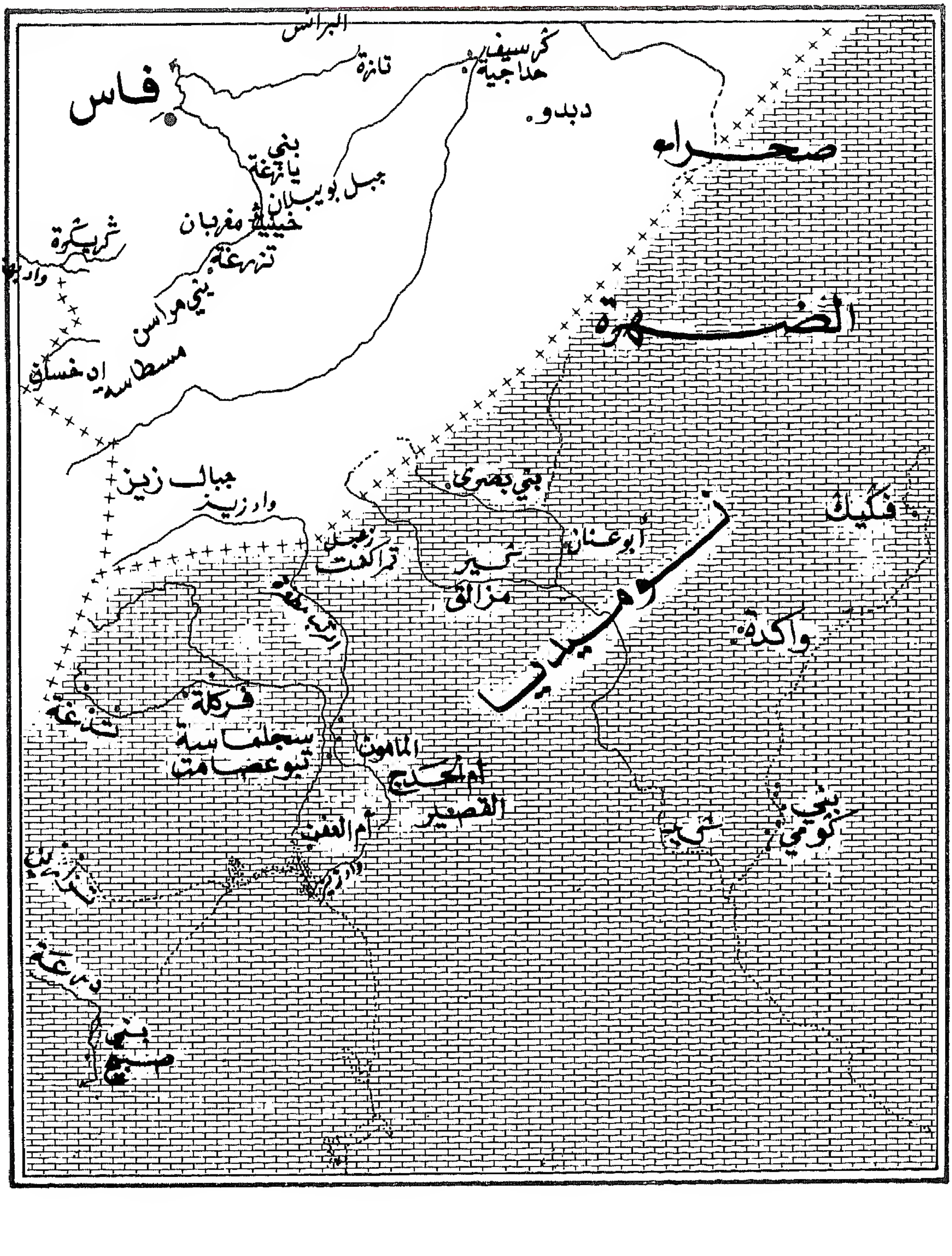
---

(104) يُدخل المؤلف في صحراء برقة ــ على ما يظهر ــ جميع المنطقة الساحلية المحدودة في جنوب سيرينايك بطريق القوافل بين طرابلس ومصر بـواسطة واحـات أوجلة وجغبوب وسيوة والبحرية.

(105) بل تدل النصوص على أن المناطق الصالحة للزراعة في سيرينايك كانت منذ القديم وإلى مجيء أعراب بني هلال في منتصف القرن الخامس الهجري /11م، متمتعة بازدهار نسبي.

القسم السّادس

نوميديا


البرانس
تازة
فاس
كرسيف
هداجية
دبدو
صحراء
بني يازغة
جبل بويبلان
مغربان
تنهغة
بني مراسن
مسطاسة
الضهرة
جبال زين
وادزيز
تراكدت
بني بصري
أبوعنان
مزالق
فكيك
واكدة
فركلة
سجلماسة
تيوعصامت
تدغة
المامون
أم الحدج
القصير
أم العقب
بني كومي
درعة
بني صبيح

نوميديا

لقد سبق لنا أن قلنا في القسم الأول من هذا الكتاب إن نوميديا تعتبر أقل أهمية من بلاد البربر لأسباب يذكرها الجغرافيون والمؤرخون الأفارقة.

بعض بلاد نوميديا قريبة جداً من الأطلس، وقد تكلمنا عنها في القسم الثاني من هذا الكتاب الذي ذُكرت فيه بلاد حاحا وإقليما سوس وجزولة؛ وفي مملكة تونس تعرضنا للحامة وقابس. ويرى البعض أن هذه البلدان تنتسب في الواقع إلى نوميديا، إلّا أننا أدمجناها في أقاليم بلاد البربر، لأن بطليموس يجعل شاطىء مملكة تونس كله ضمن بلاد البربر، وسنذكر باقي الأقاليم واحداً واحداً.

تَشّيتْ

تشيت مدينة صغيرة بناها النوميديون في تخوم صحراء ليبيا. سورها مبني بالآجر النيء. ولا ينبىء مظهرها كثيراً عن مدينة متحضرة، بل لا يدل على شيء من ذلك. يقدر سكانها بنحو أربعمائة كانون. ولا يحيط بها سوى بادية رملية، ولو أنه يوجد في الواقع قرب المدينة مسافة صغيرة صالحة للحرث مغروسة بالنخيل، وأخرى يزرع فيها شعير ودخن يسد بهما السكان المساكين رمقهم. يؤدي هؤلاء القوم إتاوة كبيرة للأعراب المجاورين لهم

بالصحراء، ويقومون برحلات تجارية إلى بلاد السودان وجزولة حاملين معهم سلعهم، بحيث لا يكاد يقيم منهم في المنازل إلّا النصف. وهم قبيحو المنظر سُود البشرة تقريباً، لا ثقافة لهم، بل النساء هن اللائي يتعلمن ويقمن بدور معلمات المدارس للبنات والبنين. وعندما يبلغ الصبيان الثانية عشرة من عمرهم يستخدمهم آباؤهم في ممتلكاتهم، اما لاستخراج الماء من البئر للسقي، وإما لِقلب الأرض. والنساء أكثر سمناً وبياضاً من الرجال، وإذا استثنينا اللواتي يتعاطين الدراسة وغزل الصوف فان سائر النساء يبقين عاطلات أيديهن في حزامهن. والفقر هنا من نصيب الجميع. الماشية قليلة تتكون من الدَّمّان[1] فقط، دون بقر ولا غنم، ويحرثون الأرض بزوج من فرس وجمل، كما هي العادة في نوميديا بكاملها[2].

وَدَانْ

وَدَانْ قرية في صحراء نوميديا المتاخمة لليبيا، يسكنها قوم خشنون فقراء. لا ينبت فيها غير قليل من التمر، ولا موارد للسكان الذين يعيشون شبه عراة، ولا قدرة لهم على مغادرة قريتهم بسبب عداوة جيرانهم. يتعاطون الصيد بواسطة مصايد، ويقنصون وحوش هذه المناطق كاللمت والنعام، وليس عندهم غير لحم هذه الحيوانات. حقاً ان هؤلاء الناس يملكون بعض الماعز، ولكنهم يحتفظون بها من أجل اللبن. ولون بشرتهم أقرب إلى السواد منه إلى البياض[3].

---

(1) الدَّمّان: غنم الصحراء.

(2) لا شك أن الوزان يقصد تشيت الموجودة حالياً في موريطانيا، ولو أن الأوصاف والمسافات المذكورة لا تنطبق على تلك المدينة.

(3) لا شك أن هذه هي وادان الخرائط الحالية المعروفة بقصر أدرار موريطانيا. وكانت قديماً مستودعاً للملح المستخرج من أجيل، ومرحلة هامة بين السودان والجنوب المغربي.

إفْرَانْ

يتكون إفران[4] من نحو أربعة قصور، بناها النوميديون بعيداً بعضها عن بعض بنحو ثلاثة أميال على مجرى صغير لماء يسيل في الشتاء ويجف في الصيف. ويوجد بين هذه القصور عدد من بساتين النخل. والسكان أغنياء نسبياً لأنهم يتجرون بسلعهم مع البرتغاليين في ميناء غاركسيمة[5] فيأخذون منهم الثياب الخشنة والقماش وغير ذلك ويحملونها إلى بلاد السودان كولاتة وتمبكتو. يقطن في هذه القصور صناع عديدون ولا سيما صانعو الأواني النحاسية التي تروج كثيراً في بلاد الزنوج، وذلك لوجود عدد من مناجم النحاس في نواحي افران عند قدم الأطلس[6].

يقام سوق مرة كل أسبوع في أحد هذه القصور، لكن الحبوب فيه نادرة دائماً. والناس يرتدون ملابس حسنة، ولهم جامع في غاية الجمال، وأئمة وقاض يبت في مسائل الديون والمواريث. أما المجرمون فلا عقاب لهم غير النفي من الأرض.

أَقَّا

تتألف أَقَّا من ثلاثة قصور صغيرة متقاربة في صحراء نوميديا على تخوم ليبيا. وكانت عامرة جداً لكن السكان هجروها على إثر فتن أهلية، ثم عمرت من جديد بفضل تدخل رجل صالح هدَّأ من هذه المنازعات،

---

(4) يقصد «إفران» الأطلس الصغير بسوس. انظر محمد المختار السوسي، خلال جزولة، ج 2:232 وما بعدها.

(5) جعله مترجم النص الفرنسي هو أكدير الخاضع آنذاك للبرتغاليين، والتاريخ يقبله، لكن افران بعيد عن أكدير وأقرب منه ميناء ماسة الذي كانت له أهمية تجارية عظيمة في ذلك العصر. انظر التعليق رقم 26 من صفحة 118 من الجزء الأول.

(6) كان هذا النحاس، إذ ذاك مشهوراً باسم الصيني. ومنه جاء إسم صينيات الشاي النحاسية.

وربط أواصر القرابة بين الخصوم السابقين، فأصبح أميراً لأقّـا. ولا أفقر فعلاً من هؤلاء القوم، إذ لا يشتغلون بغير قطف تمرهم(6م).

دَرْعَة

درعة إقليم يبتدىء عند الأطلس ويمتد جنوباً على مسافة نحو مائتين وخمسين ميلاً عبر صحراء ليبيا(7). وهذا الإقليم ضيق جداً، يقيم السكان على ضفاف النهر الذي يحمل نفس الاسم ويفيض طوراً في الشتاء حتى كأنه بحر، ثم يجف طوراً آخر في الصيف حتى يمكن عبوره على الأقدام. وعندما يفيض يسقي البلاد كلها. وإذا لم يحدث فيضان في أوائل أبريل تلفت الغلة كلها، وإذا حدث في ذلك الوقت كانت الغلة حسنة.

وعلى ضفاف النهر يتوالى عدد كبير من القرى والقصور المبنية بالحجر الغير المنحوت والطين، والسقوف كلها من جذوع النخل وكذلك الخشب، مع أن هذا الخشب ليست له قيمة كبيرة، لأنه ليفيّ وغير مكتنز كسائر الأخشاب.

(6م) أقّا اسم نهر من روافد درعة، سميت به مجموعة من القرى كانت مسكونة منذ القرن السابع الهجري، وازداد عمران قرى أقا بعد خراب مدينة تمدولت الإدريسية الشهيرة القريبة منها. انظر أخبار أقا عند محمد المختار السوسي، **خلال جزولة**، 3:42-88، وخاصة صفحة 84.

أما الصالح المشار إليه هنا فهو محمد بن مبارك الأقاوي. وقد سبق أن ذكره الحسن الوزان ووصفه في الجزء الأول صفحة 145، انظر مراجع ترجمته وبعض أخبار أقّا كذلك في كتابنا الحركة الفكرية، ج 2:614-616.

(7) بما أن الكاتب ضم تنزيتة إلى إقليم هسكورة، كان جزء درعة الذي يعتبره إقليمًا لنوميديا يبتدىء عند جنوب زاوية تنزيتة التي يوجد بقربها المركز الحالي لزاكورة، ويكون أول إقليم نوميديا هو إقليم تكمادرت. ولم يكن وادي درعة مأهولاً منذ هذه النقطة إلّا على امتداد 100 كلم. أما مسافة 250 ميلاً هذه فإنها تناسب الجزء الكامل المأهول للوادي، سواء منه ما فوق زاكورة وما تحتها.

ويوجد بجوار النهر على مسافة خمسة إلى ستة أميال عدد لا يحصى من بساتين النخل التي تنتج تمراً غليظاً من النوع الممتاز، يمكن أن يدخر سبع سنوات في مستودع دون أن يفسد، شريطة أن يكون المستودع في الطابق الأول. وتختلف أثمان التمر باختلاف أصنافه وألوانه، بحيث إن البعض منه يساوي مثقالاً لكيل «المدجيو»، والبعض الآخر ربع مثقال، وهذا إنما يستعمل لعلف الإبل والخيل. والنخل ذكر وأنثى: فالأنثى تنتج التمر، والذكر لا ينتج غير عناقيد الزهر. فلا بد إذن، قبل تفتح الأزهار من أخذ عريش من الأزهار المذكرة وربطه في الأزهار المؤنثة، وإلا فلا تنتج الشجرة غير تمر هزيل نواته غليظة جداً. ويتغذى أهل البلاد من مثل هذا التمر، لا سيما في الأيام التي لا يأكلون غيره، ويقتاتون بحساء الشعير وغيره من الأشياء البسيطة. أما الخبز فلا يأكلونه إلا في الأعياد والولائم.

وليس في قصور هذا الإقليم سوى القليل من مرافق الحياة الحضرية، بالرغم من وجود صناع، بالإضافة إلى صائغين يهود في طرف الإقليم المقابل لموريطانيا على الطريق الرابطة بين فاس وتمبكتو. إلّا أنه توجد في المنطقة ثلاث قرى أو أربع كبيرة، يقيم فيها التجار الغرباء عن البلاد والتجار الدرعيون، وتشتمل على دكاكين ومساجد تامة التجهيز.

يسمى أهم هذه القرى بني صبيح[8]. وهي مسورة ومقسمة إلى قسمين يحكمها رئيسان مختلفان يعيشان في نزاع وقتال دائمين، وبالأخص عندما يجب سقي المزروعات بسبب قلة الماء الجاري. وسكان هذه القرية

---

(8) قصر بني صبيح ما زال عامراً إلى اليوم، وهو أحد قصور منطقة لكتاوة بأسفل درعة قريباً من محاميد الغزلان. وتنيف قصور لكتاوة على خمسين قصراً، ما زال بعضها يحمل اسم اليهود الذين كانوا يعيشون فيه، كقصر بني حيون، إلّا أن اليهود هاجروا جميعاً من درعة، ولم يبق في هذه القصور اليوم غير المسلمين. وقد زرتها سنة 1975 للوقوف على ضريح الشيخ أحمد آدفال. انظر كتابنا **الحركة الفكرية**، ج: 2، ص 529 وما بعدها.

أشداء كرماء، يضيفون التاجر على حسابهم لمدة سنة كاملة أو أكثر، ولا يأخذون منه إلّا ما يتركه لهم عن طيب خاطر.

ولأهل درعة عدة رؤساء يتحاربون باستمرار، ويستعين كل فريق بالأعراب المجاورين الذين يتقاضون مقابل ذلك أجرة كبيرة، قدرها نصف مثقال لليوم لكل فارس يقاتل لحسابه؛ لكن هؤلاء الأعراب تؤدى لهم الأجرة يوماً ليوم، وعن الأيام التي استعملوا فيها أسلحتهم فقط. ويستعمل أهل هذه البلاد مختلف أنواع الأسلحة النارية منذ زمن قريب، ولم أر قط أحسن منهم رماية، إذ ربما يصيبون رأس إبرة، ويتقاتلون بينهم بهذه الأسلحة النارية.

تنمو في هذه المنطقة كمية وافرة من أشجار النيلة، وهو نبات للصباغة يشبه العِظْلم، أو الوسمة، ويستبدلون به سلعاً مستوردة من فاس وتلمسان. والقمح مرتفع الثمن جداً يجلب مقابل التمر من فاس وغيرها من المدن المجاورة. والخيل قليلة العدد وكذلك الماعز. وتعلف الخيل بالتمر عوض الشعير وبنوع من الحشيش يسمى «فرفة» في مملكة نابولي. أما الماعز فتعلف بنواة التمر المكسرة التي تساعد على سمنها وإعطائها لبناً أكثر. ويأكلون بكثرة لحم التيس والجمل المسنين، وهو غذاء رديء، بالإضافة إلى النعام الذي يربونه ويأكلون لحمه الذي يشبه طعمه قليلاً لحم الدجاج، لكنه أصلب منه وله رائحة كريهة، لا سيما لحم الفخذين اللزج.

النساء جميلات سمينات لطيفات، أكثرهن عاهرات. ويملك أهل هذه البلاد عبيداً سوداً من الجنسين يلدون الأولاد، ويحتفظون بهؤلاء الأولاد وآبائهم لخدمتهم. لذلك تجد منهم الأسود والهجين، أما الأبيض فنادر جداً.

سِجِلْمَاسَة

سجلماسة إقليم يستمد اسمه من المدينة الرئيسية فيه، ويمتد على طول واد زيز، ابتداء من الخنك من المضيق القريب من مدينة

غارسلوان[9] ونزولاً نحو الجنوب على مسافة مائة وعشرين ميلاً حتى تخوم صحراء ليبيا. وتسكنه قبائل بربرية مختلفة، إما زناتية أو صنهاجية أو هوارية. وكان في القديم خاضعاً لسلطة عاهل مستقل، لكنه خضع بعد ذلك ليوسف ملك لمتونة ثم انتقل للموحدين.

وقد استولى بنو مرين على هذا الإقليم بعد اضمحلال مملكة الموحدين، وعهدوا بحكمه إلى أقرب الناس إليهم وخاصة أبناءَهم. وظل الأمر كذلك إلى أن مات أحمد ملك فاس، فثار الإقليم وقتل أهل البلاد الوالي وهدموا سور المدينة، فبقيت خالية حتى يومنا هذا. وتجمع الناس فبنوا قصوراً ضخمة ضمن الممتلكات ومناطق الإقليم، بعضها حرٌّ، والبعض الآخر خاضع للأعراب[10].

---

(9) عند فم زعبل.

(10) المشهور أن سجلماسة من تأسيس بني مدرار الخوارج في أواسط القرن الثاني للهجرة، إلا أن ابن أبي محلي السجلماسي ذكر في تقييده في التعريف بمدينة سجلماسة أنها من تأسيس العرب الفاتحين عام 40 هـ، ثم وسعها بنو مدرار فكانت عاصمة لتلك المملكة الخارجية إلى أن استولى عليها الفاطميون ملوك القيروان، فأدرت عليهم أموالاً طائلة باعتبارها مركزاً تجارياً مهمًا في طريق القوافل المتجرة في السودان. ولما قامت دولة المرابطين في أواسط القرن الخامس الهجري رجعت سجلماسة إلى حكم المغرب وظلت عامرة كذلك أيام الموحدين والمرينيين إلى أن خربت قبيل قيام دولة السعديين، فانتقلت أهمية سجلماسة إلى القصور المجاورة، ولا سيما قصر الشرفاء الحسنيين المعروف آنذاك بالقصبة السجلماسية حيث ضريح المولى علي الشريف. وما زالت أطلال سجلماسة ماثلة للعيان بالقرب من الريصاني، ويسميها السكان «المدينة الكبيرة» أو «المدينة الكبيرة».

انظر: أحمد بن أبي محلي، تقييد في التعريف بسجلماسة، مخطوط م م رقم 2634؛ وأحمد الناصري، **الاستقصا**، ج: 1، ص 111 وما بعدها. ــ وكتابنا **الحركة الفكرية**، ج: 2، ص 519 و528.

الخَنْكُ

الخنك[11] إقليم ــ أو على الأصح دائرة ــ على واد زيز، يتاخم جبال الأطلس، ويشتمل على عدة قصور ومداشر وبساتين نخل صغيرة، الأراضي الزراعية فيه هزيلة ضيقة، انما هي عبارة عن شرائط صغيرة على حافة النهر عند قدم الجبل، لا يبلغ عرضها أحياناً مرمى حجر، ويزرع فيها قليل من الشعير.

ومن السكان من يخضعون للأعراب أو لمدينة غار سلوان، ومنهم أحرار. فالأولون فقراء إلى حد أنهم أصبحوا يتسولون، والآخرون أغنياء لأنهم يسيطرون على الطريق المؤدية من فاس إلى سجلماسة، ويرغمون التجار على أداء مبلغ مالي مرتفع.

وبهذا الخنك ثلاثة قصور رئيسية: الأول يسمى زعبل، ويقع على أعلى صخرة عند مدخل الخنك[12] كأنها تبلغ السماء طولاً لشدة علوها. ويقف في أسفل الصخرة الحرس الذي يستخلص واجب المرور وهو ربع مثقال للجمل.

ويسمى القصر الثاني كُسترير، ويقع على بعد نحو خمسة عشر ميلاً من السابق، إلّا أنه على منحدر الجبل تقريباً في السهل، وهو أشرف وأغنى من الأول.

والثالث يسمى تَمَرَّاكُشْت ويقع على بعد نحو عشرين ميلاً من كسترير على الطريق الكبرى.

---

(11) الخنك هو الخانق العربي الفصيح، أي الشّعب الضيق. وهذا الخنك فعلاً شعب يخترقه واد زيز.

(12) لقد اضمحل القصر الآن، والصخرة مفتوح فيها نفق يساعد الطريق الحديثة على اجتياز فم زعبل.

وهنالك أيضاً بعض المداشر والقصور الصغيرة. وتعوز الحبوب كثيراً سكان هذا الخنك، لكن لديهم عدد كثير من الماعز يؤوونها أثناء الشتاء في كهوف واسعة. وتلك هي حصونهم لأنها عالية جداً ومدخلها في غاية الضيق، لا يُصعد إليها إلّا من ممرات صنعتها يد الإنسان بحيث يستطيع شخصان أن يصمدا أمام هجوم الإقليم بأجمعه. ويمتد هذا المضيق على طول نحو أربعين ميلاً[13].

مَضَغْرَة

مضغرة دائرة أخرى تتاخم السابقة في اتجاه الجنوب خارج المضيق، وتحتوي على قصور عديدة تقع كذلك على واد زيز، وأهمها القصر المسمى هلال[14]. وفيه يقيم أمير الدائرة، وهو عربي، وله فخذ من قبيلته[15] يعيش في البادية تحت الخيام، وآخر كذلك بالقصر مع بعض الجنود. لا يستطيع أحد أن يخترق إقليمه دون إذنه الصريح، فإذا لقي هؤلاء الجنود قافلة بدون رخصة مرور نهبوها فوراً وجردوا التجار والرائدين. وهناك أيضاً قصور ومداشر أخرى، كما شاهدت ذلك بنفسي، لكنها كلها بائسة[16].

الرْتَبْ

هي أيضاً دائرة تتاخم مضغرة وتمتد على طول زيز شطر الجنوب على مسافة نحو خمسين ميلاً[17] إلى إقليم سجلماسة. وبها عدد لا يحصى من

---

(13) بل نحو 20 ميلاً فقط.

(14) اضمحل هذا القصر ويبدو أن قصر السوق (الرشيدية الآن) خلفه.

(15) المنابهة.

(16) تكتب فرقة تفيلالت بالدال والضاد (مدغرة ومضغرة) للتفرقة بينها وبين مطغرة المقيمين بالمغرب الأوسط، وان كان أصلهم واحداً. انظر: كتابنا **الحركة** الفكرية، ج 2 : ص 520 .

(17) بل 20 ميلاً.

القصور وبساتين النخيل. والسكان خاضعون للأعراب[18]، بخلاء جداً وجبناء، لا يقدر مائة من خيرة فرسانهم على مجابهة عشرة من فرسان الأعراب يخدمون أراضيهم لهؤلاء الأعراب كما لو كانوا عبيداً لهم. وتتاخم هذه الدائرة من الشرق جبلاً غير مأهول[19]، ومن الغرب سهلاً خالياً رملياً يخيم فيه الأعراب عند عودتهم من الصحراء.

---

(18) المنابهة.

(19) هو تمسنت الخالي تماماً.

إقليم سِجلماسة

لقد ذكرت آنفا باختصار ما رأيته جديراً بالذكر فيما يخص إقليم سجلماسة، إلاَّ أنه بقي لي أن أقول إن إقليم سجلماسة ذاته الذي يمتد على مسافة عشرين ميلاً على طول زيز من الشمال إلى الجنوب، يشمل ما يقرب من ثلاثمائة قصر كبير وصغير، فضلاً عن المداشر[20]. وأهم القصور فيه ثلاثة:

الأول يسمى تَنِجْيُوت، وعدد سكانه نحو ألف كانون. وهو الأقرب من سجلماسة. وبه بعض الصناع.

والثاني يسمى تَبُعْصَامَتْ، وهو على بعد نحو ثمانية أميال جنوبي القصر السابق. وهو أكبر منه وأكثر حضارة، وفيه عدد كبير من التجار الأجانب ومن اليهود المشتغلين بالصناعة والتجارة. ويوجد في الواقع من السكان في هذا القصر أكثر من كل بقية الإقليم[21].

---

(20) يقصد بلاد تفيلالت.

(21) ما زال قصر تبعصامت باقياً على ضفة زيز اليمنى، على بعد نحو 5 كلم من أنقاض سجلماسة في الضفة اليمنى.

والثالث اسمه اَلْمَأمُون، وهو أيضاً كبير حصين كثير السكان، خصوصاً منهم التجار اليهود والمسلمين(22). ويدير شؤون كل قصر من هذه القصور أمير خاص هو رئيس فريقه. وكثيراً ما تنشب بين هؤلاء الناس خصومات ونزاعات، وهم في عراك دائم بينهم، يسيء بعضهم إلى بعض ما استطاع، فيتلفون قنوات السقي المجلوبة من النهر، ويقطعون النخل من أسفل، وينهب بعضهم بعضاً مظاهرين على ذلك بالأعراب.

تُضرب في هذه القصور سكة فضة وذهب، تشبه المثاقيل «البسلاتشي» الخفيفة من الذهب الرديء، وتزن العملة الفضية الرفيعة أربع حبات، وتساوي ثمانون منها مثقالاً. يأخذ رؤساء الفرق قسطاً من مداخيل البلاد، كالجزية المفروضة على اليهود، والربح الحاصل من ضرب السكة؛ أما القسط الآخر فيأخذه الأعراب، كرسوم المكس. والسكان أنذال، كل من هاجر منهم زاول حرفاً وضيعة، إلّا أنه يوجد بعض النبلاء الأغنياء يذهب الكثير منهم إلى بلاد السودان يحملون إليها بضائع من بلاد البربر ويستبدلون بها الذهب والعبيد.

يقتات عامة الناس بالتمر والقليل من القمح. وتكثر العقارب بكيفية مهولة في جميع القصور، لكن لا وجود للبراغيث. وتشتدّ الحرارة في الصيف وكذلك الغبار إلى حد أنه ـ فيما أظن ـ يسبب التهاب أعين الناس. وكثيراً ما يجف النهر في هذا الفصل من السنة ويقل الماء جداً، بحيث لا يجدون غير الماء الملح المستخرج من الآبار المحفورة باليد.

دائرة هذا الإقليم نحو ثمانين ميلاً. ولما كان الاتفاق سائداً بين السكان، فإنهم بنوا بأقل ثمن أسواراً لرد غارات الفرسان الأعراب. وطالما بقوا متحدين بإرادة مشتركة، عاشوا أحراراً، لكنهم هدموا هذه الأسوار عندما

---

(22) يبدو أن قصر المامون خرب حوالي 1830. وكان واقعاً على بعد 1 كلم، جنوب غرب تبعصامت على ضفة زيز اليسرى مباشرة شمال القصر الحالي عيادو.

افترقوا شيعاً وأحزاباً، واستعان كل حزب بالأعراب للدفاع عن نفسه فأصبحوا بذلك أتباعاً أو كعبيد للأعراب.

مدينة سِجِلْمَاسَة

إن مؤسس هذه المدينة ـ حسب بعض مؤلفينا ـ قائد روماني ذهب من موريطانيا فاحتل نوميديا بأسرها، ثم زحف شطر الغرب حتى ماسة، فبنى المدينة وسماها سِجِلُوم مِيسِّي لأنها كانت آخر مدن دولة ماسة. ولأنها كانت كالخاتم الذي يسجل نهاية فتوحاته، فحرف هذا الاسم بعد ذلك وتحول إلى سلجلماسة.

وحسب رواية أخرى هي في الواقع رواية الشعب ورواية جغرافينا البكرى، فان المدينة أسسها الإسكندر الكبير لفائدة المرضى والمعطوبين من جنوده(23).

بنيت المدينة في سهل على واد زيز، وأحيطت بسور عالٍ مازالت بعض أجزائه باقية. ولما فتح المسلمون افريقيا خضعت سجلماسة لملوك زناتة إلى أن طردهم يوسف بن تاشفين اللمتوني.

كانت سجلماسة مدينة متحضرة جداً، دورها جميلة، وسكانها أثرياء بسبب تجارتهم مع بلاد السودان. وكان فيها مساجد جميلة، ومدارس ذات سقايات عديدة يجلب ماؤ ها من النهر، تأخذه ناعورات من واد زيز وتقذف به في قنوات تحمله إلى المدينة. وكان هواؤ ها طيباً، إلاّ أن فصل الشتاء بها

(23) لا يعرف للرومان توغل في داخل المغرب وبالأحرى وراء جبال الأطلس، وخط الليمس الذي كان يحد منطقة نفوذهم ما تزال آثاره بادية في ضاحية مدينة الرباط. أما الإسكندر فلا يوجد في نص البكري، ولعل الوزان اعتمد على رواية شفوية كانت جارية على الألسن آنذاك، كشأن العامة في نسبة الأشياء العتيقة والإغراب في ذلك، وظنها ـ لطول المدة ـ رواية مكتوبة.

كان شديد الرطوبة، كثيراً ما يسبب النزلة للناس، وتمرض عيونهم في الصيف، لكنهم سرعان ما يشفون.

سجلماسة الآن خربة تماماً كما ذكرنا آنفاً، تجمع سكانها في القصور، وتفرقوا هنا وهناك في الإقليم كله. أقمت بهذه المدينة وإقليمها، وعقدت علاقات مع أهلها، لأن البلاد كثيرة السكان. وبقيت مرة سبعة أشهر بقصر المامون.

قصر السُّوِيهْلَة

قصر صغير يقع على نحو اثني عشر ميلاً من إقليم سجلماسة إلى جهة الجنوب، أسسه الأعراب في الصحراء ليحفظوا فيه أموالهم ومؤنهم ويمنعوها من عدوهم، ولا شيء حوله سوى لعنة الله. فليس هناك حديقة شجر ولا خضر ولا زرع، ولا أثر لأية حياة، وإنما هي الحجارة السوداء والرمال.

أمّ الـحْدَجْ

قصر آخر على بعد نحو ثمانية عشر ميلاً من سجلماسة، بناه الأعراب أيضاً للسبب الذي ذكرناه. ولا يوجد حول هذا القصر سوى بادية وعرة ينبت فيها الحدج[24] بكثرة، حتى إنها لتبدو من بعيد وكأنها ليمون رمي به في الأرض[25].

أُمّ العْفَنْ

قصر رديء بعيد عن سجلماسة بنحو خمسة وعشرين ميلاً، بناه الأعراب في فلاة وعرة على الطريق المؤدية من سجلماسة إلى درعة.

---

(24) ترك المؤلف مكان كلمة حدج أو حنظل فارغاً لأنه لم يكن فيما يبدو عارفاً الاسم الإيطالي.

(25) ما تزال أطلال قصبة أم الحدج ظاهرة على واد زيز بعيدة بنحو 5 كلم عن المكان الذي يلتقي فيه الرافد المربوح بزيز.

وأسواره من حجر أسود كأنه فحم. يقيم فيه دوماً حرس بعض الأمراء الأعراب، ولا يستطيع أحد أن يمر دون أن يؤدي ربع مثقال عن كل جمل، ويفرض نفس المبلغ على كل يهودي.

مررت من هناك ذات مرة مع أربعة عشر يهودياً، ولما سألنا الحارس عن عددنا أسقطنا شخصين، فعدنا الحارس وأراد أن يحتفظ باثنين منا، فأكدنا له أننا مسلمان وأن الباقي يهود، وللتثبت من ذلك طلب منا نحن الاثنين أن نقرأ الفاتحة، ثم اعتذروا لنا وخلوا سبيلنا[26].

تَبَلْبَلْتْ

هو مكان مأهول في وسط صحراء نوميديا، على بعد نحو مائتي ميل من الأطلس ومائة ميل جنوب سجلماسة. وهناك ثلاثة قصور عامرة بالسكان[27]، وأراضيها الصالحة للفلاحة مغروسة بالنخيل، الماء فيها قليل وكذلك اللحم، وتؤكل فيها النعام والوعول التي تصاد. ورغم أن القوم يتجرون مع بلاد السودان فإنهم فقراء لكونهم خاضعين للأعراب[28].

تَدْغَةُ

إقليم صغير على مجرى ماء صغير يحمل نفس الاسم. ويكثر فيه التمر والخوخ والعنب والتين، وهناك نحو أربعة قصور وعشر قرى يسكنها

---

(26) لم تعد تعرف آثار أم العفن إلّا باسم إغْرَمْ معناه قصر بالبربرية. لكن غديراً على بعد بضع مئات من الأمتار شمال هذه الآثار ما زال يحمل اسم أم العفن، لأن الأعراب كانوا يجيئون إليه بكثرة ليغتسلوا فيه. وتقع هذه الآثار على بعد 60 كلم جنوب سجلماسة على الضفة اليسرى لواد غريس.

(27) هذه القصور هي الحالية: شرايعية وزكرى ومخلوف.

(28) تبعد تبلبلت في الحقيقة عن الأطلس بنحو 500 كلم. وبـ 350 كلم عن سجلماسة جنوباً.

أناس فقراء، جلهم فلاحون ودباغون. ويبعد هذا الإقليم عن سجلماسة بنحو أربعين ميلاً[29].

فَرْكْلَة

دائرة أخرى مأهولة على نهر صغير، يكثر فيها كذلك التمر وغيره من الفواكه، لكن الحبوب لا تنبت فيها إلا بقدر قليل جداً. وهناك ثلاثة قصور وخمس قرى بعيدة بنحو مائة ميل عن الأطلس وستين ميلاً عن سجلماسة. وسكانها خاضعون للأعراب[30].

تَزَرِينْ

منطقة جميلة، تقع كذلك على نهر صغير، بعيدة بنحو ثلاثين ميلاً عن فركلة، ومائة ميل عن الأطلس. ينتج هذا الإقليم التمر بكثرة، ويشمل خمس عشرة قرية وستة قصور وآثار مدينتين لا يعرف اسمهما. ومن هناك جاءت تسميته، لأن تزرين تعني المدن في لغة الأفارقة[31].

بني كُومِي

دائرة أخرى على واد كبير، نخلها كثير جداً، وسكانها فقراء يزاولون بفاس كل أنواع المهن الحقيرة. يجمعون أرباحهم في سنة ويشترون بها فرساً يسوقونه إلى بلادهم، ثم يبيعونه إلى التجار الذاهبين إلى بلاد السودان.

(29) وقع خلط هنا للكاتب، إذ فركلة هي التي تقع على بعد نحو 90 كلم غرب سجلماسة. أما تُدغة فما زالت أبعد منها غرباً. فلا يمكن تحديد الواحة التي ينطبق عليها هذا الوصف من بين هاتين الواحتين.

(30) انظر: عن فركلة كتابنا **الحركة الفكرية**، ج 2: ص 527.

(31) خلط المؤلف الذي كان يجهل اللغة البربرية بين تزرين، أي شجر التين، وتدرين، أي الدور، ثم أطلقت على المداشر. وتزرين المرسومة في خرائطنا تقع على بعد نحو مائة كلم جنوب غرب فركلة، في السفح الجنوبي لجبل صغرو.

وفي هذه الدائرة ثمانية قصور صغيرة وأكثر من خمس عشرة قرية بعيدة عن سجلماسة بنحو مائة وخمسين ميلاً إلى جهة الجنوب الشرقي(32).

قصرا مْزَالَقْ وبُوعْنَانْ

قصران في صحراء نوميديا، على بعد نحو خمسين ميلاً من سجلماسة. وسكانها أعراب يعيشون دائمًا في الفقر والبؤس، لا ينبت في هذه الأراضي أي نوع من الحبوب، وليس بها سوى القليل من النخيل. وهذان القصران على ضفة واد كْير(33).

القْصَيّــر

مدينة صغيرة في صحراء نوميديا على بعد نحو عشرين ميلاً من الأطلس، فيها معدن رصاص ومعدن كحل، يستخرج السكان هذين المعدنين ويحملونها إلى فاس. ولا ينبت شيء حول هذه البلدة(34).

(32) تتوالى قصور بني كومي على بعد نحو 250 كلم جنوب شرق تفلالت على نحو 20 كلم على طول ززفانة ــ لا واد كير ــ. لقد اضمحلّت خمسة من بين القصور الثمانية التي ذكرها المؤلف وعوّضت بأخرى، منها تغيت المشهور بألوانه الساحرة. انظر كتابنا **الحركة الفكرية**، ج: 2، ص 625 - 626.

(33) لا يعرف مزالق، وإنما يقع بوذنيب على واد كير بنفس البعد المذكور هنا. أما بوعنان فليس على كير، بل على رافده واد بوعنان. والقصر واقع على بعد بضعة كيلومترات من هذا المركز شمالاً.

(34) لقد اضمحلّ القصير لكن موقعه يمكن أن يكون هو حاسي القصير. ويحمل مجرى نهر جاف قريباً من هناك اسم واد القصير، وكتلة التلال المجاورة اسم عرق القصير. والثنية الواقعة شرقاً التي ينفذ منها إلى نجد حمادة كير اسم ثنية القصير. وحيث إن حاسي القصير يوجد على بعد نحو 70 كلم. جنوب شرق سجلماسة، فيجب تصحيح المسافة بـ 120 ميلاً من الأطلس، وهي المسافة بين القصير ومدخل الخنك حيث كان ولا شك يمر الرصاص والكحل المحمولان إلى فاس.

بني بَصْري

إقليم مأهول، توجد به نحو ثلاثة قصور في سفح الأطلس، وتكثر فيه الفواكه، لكن لا ينبت فيه نخيل ولا حبوب. وهناك منجم حديد يزوّد جميع إقليم سجلماسة. وبعض قرى هذا الإقليم خاضعة لأمير دبدو، وجميع السكان يشتغلون في المنجم[35].

وَكْـــدَة

إقليم بعيد عن سجلماسة بنحو سبعين ميلاً إلى الجنوب[36]، فيه ثلاثة قصور كبيرة وقرى عديدة، كلها على واد كُير[37]. لا ينبت فيه إلا القليل من القمح، لكن تمره كثير. يرسل السكان بضائعهم إلى بلاد السودان، وكلهم خاضعون للأعراب.

فكّيك

فكّيكْ عبارة عن ثلاثة قصور في وسط الصحراء يحيط بها عدد كبير من النخيل. وتنسج النساء ثياباً من الصوف على شكل أغطية السرير، لكنها دقيقة رفيعة حتى يظن أنها حرير، وتباع بثمن مرتفع في مدن بلاد البربر كفاس وتلمسان. والرجال أذكياء جداً يتعاطى بعضهم التجارة في

---

(35) تقع قصور بني بصري في أعلى واد عيسى الذي هو من الفروع المكوّنة لواد بوعنان، أحد روافد كير. وهي بعيدة عن دبدو بأكثر من 200 كلم جنوباً، وبنحو 30 كلم جنوب غرب مركز تلسينت. وتوجد حالياً خمسة من قصور بني بصري، والقصور القديمة الثلاثة خربة قرب القصور الحالية لآيت يحيى وعيسى، ولآيت عيسى وعلي، ولتخوالت. ولم يبق إلا آثار معادن الحديد قرب هذه القصور بعد انقطاع عرقها.

(36) بل 170 ميلاً إلى الشرق لا إلى الجنوب.

(37) إن القصرين الوحيدين الباقيين في هذه الواحة يوجدان على واد بشار الذي لا صلة بينه وبين كير، وهما وكدة، وبشار البعيد عنها بستة كيلومترات في جهة الجنوب الغربي.

بلاد السودان، ويرحل البعض الآخر إلى فاس لدراسة الآداب. وإذا نال أحدهم الإجازة عاد إلى نوميديا وأصبح إماماً أو خطيباً. لذلك كان جميع الفكّيكّيين أثرياء. وهذه القصور على بعد نحو مائتين وخمسين ميلاً شرقي سجلماسة(38).

تَسَبِت

إقليم مأهول في صحراء نوميديا على بعد نحو مائتين وخمسين ميلاً شرق سجلماسة ومائة ميل من الأطلس، يضم أربعة قصور وقرى عديدة في تخوم ليبيا، على الطريق المؤدّية من فاس وتلمسان إلى مملكة أكْدز في بلاد السودان. سكانه فقراء جداً، لا تنبت أرضهم غير التمر وقليل من الشعير. بشرتهم سوداء، إلا أن نساءهم جميلات سمراوات.

تِيكُورارين

تيكُورارين(39) منطقة مأهولة في صحراء نوميديا، بعيدة بنحو مائة وعشرين ميلاً عن شرق تسبت، حيث يوجد ما يقرب من خمسين قصراً وأكثر من مائة قرية بين حدائق النخيل. وسكان هذه المنطقة أغنياء لأنهم اعتادوا الذهاب كثيراً بسِلعهم إلى بلاد السودان. وهنا مجمع القوافل، لأن تُجّار بلاد البربر ينتظرون تجار بلاد السودان، ثم يذهبون جميعاً.

لهذه البلاد أراض كثيرة صالحة للزراعة، لكن يلزم سقيها بماء البئر وتسميدها بالسماد، لأنها جافة وهزيلة جداً. ولذلك يسكن أهل

---

(38) قصور فكّيك كثيرة أهمها سبعة. انظر الصديق بن العربي، المغرب، ص 120 - 121، وكتابنا الحركة الفكرية، ج: 2، ص 511.

(39) معناه بالبربرية المعسكرات، ويعرّب فيقال كرارة، انظر كتابنا الحركة الفكرية، ج: 2، ص 629.

تيكورارين الغرباء في منازلهم بدون أجر ليحصلوا على سماد الخيل ورجيع الناس، حتى إن أكبر ما يسيء به الغريب لمضيفه أن يتغوّط خارج بيته، فإذا رآه رب البيت يفعل ذلك اغتاظ وصاح به قائلاً: «ألا يوجد كنيف في داري حتى تخرج لقضاء حاجتك؟!». واللحم مرتفع الثمن لعدم إمكان وجود الماشية من جرّاء جفاف البلاد. فليس بتيكُورارين سوى بعض الماعز الذي يربىّ من أجل اللبن. ويؤكل لحم الجمال التي تشترى من الأعراب الواردين على الأسواق التي تقام بهذه المنطقة، وهي جمال معطلة لم تعد صالحة للركـوب. ويُستعمل أيضاً في هذا الغذاء البائس الشحم المالح الذي يأتي به تجار فاس وتلمسان ويجنون منه أرباحاً طائلة.

كان بعض اليهود الأغنياء يقيمون بتيكُورارين، ثم تدخّل أحد فقهاء تلمسان[40] فأدّى ذلك إلى نهب أموالهم وتقتيل معظمهم من طـرف السكان. حدث ذلك في العام الذي طرد فيه الملك الكاثوليكي اليهود من اسبانيا وصقلية[41].

وتدبير الشؤون بأيدي بعض رؤساء الفرق. وكثيراً ما يتقاتلون بينهم ويتطاحنون، إلا أنهم لا يمسّون الغرباء بسوء. ويؤدّون عادة إتاوة صغيرة إلى الأعراب ويخضعون لسلطتهم.

مِزَابْ

مزاب منطقة مأهولة في قفار نوميديا على بعد نحو ثلاثمائة ميل شرق تيكُورارين وعلى نفس المسافة من البحر المتوسط[42]. تشتمل على ستة

---

(40) محمد بن عبد الكريم المغيلي مؤلف كتاب ما يجب على المسلمين من اجتناب الكفّار، الذي أثار ضجة فكرية كبرى في أقطار المغرب. انظر تفاصيلها في كتابنا الحركة الفكرية، ج: 1، ص 268 - 270.

(41) المرسوم المتعلق بطرد اليهود من اسبانيا مؤرخ في 3 مارس 1492 (3 جمادى الأولى 897).

(42) بل على بعد نحو 600 كلم جنوب البحر المتوسط و700 كلم من كرارة.

قصور وعدة قرى[43]، سكانها أغنياء. وهي أيضاً رأس خط تجاري يلتقي فيه تجار الجزائر وبجاية بتجّار أرض السودان، غير أن أهل مزاب يؤدّون الإتاوة إلى الأعراب ويخضعون لهم.

تُقُرْت

مدينة قديمة بناها النوميديون على جبل في شكل نتوء، يمر في سفحها نهر صغير يقطعه جسر متحرّك كما يوجد ذلك في أبواب المدن. وهي مسوّرة بسور من الطوب والطين، ما عدا من جهة الجبل فإن صخوره تحميها. وتقع هذه المدينة على بعد نحو خمسمائة ميل جنوب البحر المتوسط، وثلاثمائة ميل من تيكُورارين[44].

وفي تقرت نحو ألفين وخمسمائة كانون. دُورها مبنية بالآجر المشوي والنيء حاشا الجامع فإنه وحده مبني بالحجر المنحوت الجميل. وهي عامرة بالصنّاع والنبلاء الأغنياء الذين يملكون حدائق النخيل. لكن القمح منعدم فيها، ويُستورد من قسنطينة في مقابل التمر. ويحب أهل تقرت الغرباء جداً، ويستضيفونهم في بيوتهم بالمجان، ويفضّلون أن يزوّجوا بناتهم للغرباء من أن يزوّجوهن أهل البلاد. ومن عادتهم أن يمنحوهن مهراً مكوّناً من عقارات، كما هو الشأن في أوربا. ويقدّمون أيضاً هدايا هامة إلى

(43) وادي ميزاب أو بلاد ميزاب، هكذا يسمّيها أحمد توفيق المدني في كتاب الجزائر، وذكر أن الخوارج الإباضية تلاحقوا بوادي ميزاب بعد انقراض دولة بني مدرار بسجلماسة، ودولة تيهرت، وكانوا قد التجأوا إلى بلاد وارجلان (= وركلة) واريغ فضاقت بهم، ورأوا أن جبال بني مصعب = وادي ميزاب أحسن ملجأ لهم وأمنع حصن لأجيالهم. فتلاحقوا بها وتكوّنت بذلك في عصور متعاقبة ما يعرف ببلاد ميزاب السبع، وهي عرداية (العاصمة) وبني يزقن، ومليكة، وبنورة، والعطف، وبيريان، والقرارة.
انظر النطام الاجتماعي بوادي ميزاب في كتاب الجزائر، ص 109 - 121.

(44) لا توجد سوى 330 ميل بين تقرت والبحر المتوسط، والطريق الأقرب من تقرت إلى تيميمون مروراً بوركلة والقليعة يقدّر بنحو 550 ميلاً.

الغرباء، ولو كانوا يظنّون أنهم لن يعودوا إليهم أبداً، وذلك لفرط كرمهم. كانت تقرت أولاً خاضعة لملوك مراكش، ثم لملوك تلمسان، وأخيراً لملك تونس الذي تؤدّي له خمسين ألف مثقال في السنة، شريطة أن يأتي بنفسه لجبي الخراج. وقد ذهب إليها ملك تونس الحالي مرتين. وتوجد حول تقرت عدة قصور وقرى وأماكن مأهولة على طول مسيرة ثلاثة أيام أو أربعة، وكلها خاضعة لأمير تقرت الذي أصبح يجبي منها مائة وثلاثين ألف مثقال. ولهذا الأمير حرس قوي من الفرسان ورماة القذائف والبنادق الأتراك، يعطيهم أجراً مناسباً حتى يبقى كل واحد منهم في خدمته عن طيب خاطر. وهو شاب شهم كريم اسمه عبد الله، اتّصلتُ به فوجدتهُ في تمام الظرف ولين العريكة، كثير الانشراح عطوفاً على الغرباء(45).

وَرْكْلَــــة

مدينة أزلية بناها النوميديون في صحراء نوميديا، لها سور من الآجر النيء ودُور جميلة، وحولها نخل كثير. ويوجد في ضواحيها عدة قصور وعدد لا يحصى من القرى. الصنّاع فيها كثيرون، وسكانها أغنياء جداً، لأنهم في اتّصال مع مملكة أكدز، منهم عدد كبير من التجّار الأجانب الغرباء عن البلد، لاسيما من قسنطينة وتونس، يحمّلون إلى ورگلة منتجات بلاد البربر ويستبدلونها بما يأتي به التجّار من بلاد السودان.

القمح واللحم نادران جداً، وتؤكل الجمال والنعام. وأغلب الناس سود لا بسبب المناخ ولكن لأن لهم جواري سوداوات يتسرون بهن، فيأتين بأولاد سود. وأهل ورگلة كرما ظرفاء، يستقبلون الغرباء استقبالاً حسناً، لأنهم لا يملكون غير ما يأتيهم به هؤلاء، كالقمح واللحم المالح والشحم والمنسوجات والأقمشة والأسلحة والسكاكين، وكل ما يحتاجون إليه على الإجمال.

---

(45) انظر عن أرض تقرت، أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص 182 وما بعدها.

لورگلة أمير يشرّفونه كالملك، يعيل نحو ألف فارس من حرسه، ويجبى إليه من إمارته مائة وخمسون ألف مثقال، ويؤدّي إلى جيرانه الأعراب خراجاً مرتفعاً(46).

(46) انظر عن وركلة كتاب الجزائر لأحمد توفيق المدني، ص 244 - 245.

إقليم الزّابْ

يقع هذا الإقليم في وسط مفازات نوميديا، ويبتدىء غرباً من تخوم مسيلة، ويحدّه شمالاً جبال مملكة بجاية، ويمتد شرقاً إلى بلاد الجريد التي توافق مملكة تونس، وجنوباً إلى القفاز التي تقطعها الطريق المؤدّية من تقرت إلى ورگلة. وهذه المنطقة شديدة الحرارة رملية، لا يوجد بها إلا يسير من الماء وقليل من الأراضي الصالحة لزراعة الحبوب، لكن عدد حدائق النخل بها لا يُحصى. يشمل الإقليم خمس مدن وعدداً كثيراً من القرى. وسنصف المدن حسب ترتيبها.

بِسْكِـرَة

مدينة عريقة في القِدم، أسّست أيام كان الرومان يحكمون بلاد البربر. وخربت بعد ذلك، ثم أعيد بناؤ ها لما دخلت الجيوش الإسلامية إلى افريقيا. وهي الآن عامرة كما ينبغي، وسورها من الآجر النيء. أما السكان فمؤدّبون لكنهم فقراء، لأن أراضيهم لا تُنتج شيئاً غير التمر.

وقد تعاقب على حكم هذه المدينة رؤ ساء كثيرون. فكانت مدة خاضعة لملك تونس حتى وفاة الملك عثمان(47)، فثارت المدينة حينئذ بإيعاز

(47) هو أبو الحسن عثمان المتوفى في شهر شوال 893/ شتنبر 1488.

من إمامها الـذي نصب نفسه أميـراً عليها. ولم يستـطع ملك تونس استرجاعها منذ ذلك الحين. تكثر فيها العقارب التي يقتل لسعها حالاً، ولذلك يغادرها السكان في الصيف للإقامة في ممتلكاتهم خارجها إلى شهر نونبر[48].

البُــرْج

البرج مدينة على بعد أربعة عشر ميلاً غـرب بسكرة[49]، وهي متحضّرة كثيرة السكان. يوجد بها عدد كبير من الصنّاع، لكن الأغلبية من الفلاحين، ونظراً لقلة الماء بها فإن كل فلاح على انفراد يجلب الماء إلى حقله ساعة أو ساعتين من نهار حسب سعة أرضه، وذلك من القناة التي تمدّ الحقول. ولهؤلاء الفلاحين ساعات مائية يملؤونها، وعندما تفرغ يكون وقت السقي المخصص لهم قد انتهى، ولا يحق للمستفيد من الماء أن يحتفظ به حينئذ. وكثيراً ما تهيج الخصومات بينهم بسبب ذلك ويسقط القتلى[50].

نَفْطَــة

هذه مدينة، أو بالأحرى مكان مأهول مقسّم إلى ثـلاثة قصـور عظيمة، لاسيما القصر الذي توجد به القصبة. أظن أن الرومان هم الذين أسّسوا نفطة حسبما فيها من البناءات. ورغم كثرة سكانها فليس لها إطلاقاً طابع مدينة متحضّرة. وكان سكانها عادة من كبار الأغنياء لوجودهم في تخوم ليبيا على الطريق المؤدّية إلى بلاد السودان. لكنها دخلت منذ ما يقرب

(48) انظر عن بسكرة قديماً وحديثاً، أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص 197 - 198. وقد ضبطها ياقوت في **معجم البلدان** (2: 182) بكسر الكاف.

(49) بل 24 ميلاً.

(50) انظر عن البرج المسمّى أيضاً برج بوعريرج، أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ص 197.

من مائة سنة في ثورة دائمة ضد ملك تونس. فحاربها الملك الحالي، واحتلّها ونهبها وقتل الكثير من أهلها وهدم أسوارها، حتى تحوّلت القصور الثلاثة اليوم إلى قرية واحدة. يمر بالقرب منها جدول ماء يميل إلى السخونة(51).

طولْقَـــة

مدينة بناها النوميديون(52). يحيط بها سور حقير، ويمر قربها جدول ماء ساخن. تنتج أراضيها كثيراً من التمر وقليلاً من القمح. سكانها فقراء هم أيضاً، ومثقلون بالإتاوات من قِبَل الأعراب وملك تونس، لكنهم في غاية البخل والكبر، ينظرون إلى الغرباء نظرة السوء(53).

دُوسّن

مدينة أزلية من بناء الرومان في النقطة التي تتاخم فيها مملكة بجاية صحراء نوميديا. وقد خربت لما دخل جنود المسلمين إلى افريقيا، لأنه كان بداخلها كونت روماني مع عدد كبير من الشجعان لم يرض إطلاقاً بتسليم المدينة إلى القائد العربي؛ بحيث إن الحصار دام عاماً إلى أن احتلت عنوة وقُتل جميع الرجال وأسر النساء والأطفال، ثم أُضرمت فيها النيران فاحترقت المنازل، لأن الأسوار المبنية بحجر ضخم لم يمكن هدمها، ولكنها تبدو مخرّبة في واجهتين لا أدري أكان ذلك بآلة أو بزلزال. وتظهر قرب

---

(51) نفطة مدينة قريبة من توزر، زارها أبو سالم العياشي ووصفها في رحلته (ج: 2، ص 409). وربما كان مقصود المؤلف هنا قرية أوماش البعيدة بنحو 20 كلم إلى الجنوب.

(52) ذكر أحمد توفيق المدني في كتاب الجزائر (ص 222) أن بها آثار معاقل رومية بيزنطية.

(53) انظر عن واحة طولقة وآبارها الفوّارة وما يجاورها من واحات، المصدر السابق في نفس الصفحة.

المدينة آثار كأنها مقابر، وعندما ينزل المطر يعثر فيها الصيادون على قطع غليظة من الذهب والفضة مع صور ومفاتيح لم يستطع أحد أن يفسّر لي معناها[54].

(54) تحتوي قرية دوسن البعيدة عن البرج بنحو 28 كلم على آثار رومانية، لم يقع التعرّف على أهميتها إلا أخيراً بفضل التصوير الجوي.

بلاد الجريد

يمتد هذا الإقليم من تخوم بسكرة إلى تخوم جزيرة جربة، ويبعد جزء منه كثيراً عن البحر المتوسط، كقفصة، وتوزر الواقعتين على مسافة ثلاثمائة ميل بالداخل(55). وهذه البلاد شديدة الحرارة كثيرة الجفاف، لا تنبت فيها حبوب، وإنما تنتج كمية وافرة من التمر الجيد الممتاز الذي يحمّل إلى شاطىء تونس بكامله. ويشمل الإقليم عدداً من المدن التي سنذكرها:

تَـــوْزر

مدينة عتيقة بناها الرومان في صحراء نوميديا على جدول ماء صغير يأتي من بعض الجبال من جهة الجنوب. وكانت أسوارها جميلة متينة تحيط بأرض شاسعة، لكن المسلمين خرّبوها وخرّبوا في نفس الوقت عدة قصور جميلة لم تعد اليوم سوى أنقاض موحشة(56). والسكان أغنياء بعقاراتهم

---

(55) بل لا تبعد قفصة عن ميناء محرس إلا بنحو 217 كلم، ولا توزر عن ميناء قابس إلا بنحو 211 كلم.

(56) ربما لم يزر الوزان توزر وإنما استقى معلوماته ممن أعطاه أخباراً غير صحيحة، أو خانته الذاكرة، وإلا فمياه توزر من عيون تنبع من الرمل وتجتمع خارج البلد في واد متّسع تتشعّب منه جداول كثيرة، وكان افتتاح توزر صلحاً على يد حسان بن النعمان سنة 79 هـ ولم يخرّبها العرب هي ولا غيرها من القرى التي دخلت في طاعتهم دون كبير إصرار ومقاومة. انظر وصف توزر وتاريخها مفصلاً في رحلة التجاني، ص 157 - 172.

وأموالهم، لأنهم يقيمون في مدينتهم أسواقاً عديدة يقصدها الناس من مختلف القبائل النوميدية والبربرية. وهم مقسّمون إلى قسمين يفصل بينهما النهر الصغير، يسمّى القسم الأول فَطْناسة(57) وينتمي إليه كل شريف ونبيل بالمدينة، ويسمّى ثانيهما مِرْداس ويتكوّن من أعراب بقوا في المدينة منذ أن فتحها المسلمون(58). وهذان القسمان يعيشان في عداء، وقليلاً ما يطيعان ملك تونس الذي يعاملهم بشدة عندما يجيء إلى توزر، خصوصاً الملك الحالي.

مدينة قَفْصَة

قفصة مدينة قديمة بناها الرومان، وبقيت في أيدي دوقاتهم إلى أن جاء عقبة قائد عثمان(59) فحاصرها، وفتحها المسلمون ودمّروا أسوارها. لكنهم لم يستطيعوا تدمير القصبة التي هي حقاً عجيبة، لأن علو جدرانها يبلغ خمسة وعشرين ذراعاً وسمكها خمسة أذرع، وهي مبنية بالحجر العظيم المنحوت كحجر الكوليزى بروما. وأعيد بناء الأسوار بعد ذلك، وأخذت المدينة تسترجع طابعها كمدينة متحضّرة، إلى أن جاء المنصور ملك مراكش وخليفتها، فأمر بهدم السور مرة أخرى وجزء من جدار القلعة. والسبب في ذلك أنه كان قد بقي في هذه الناحية أمير من أسرة ملك لمتونة، يحكم البلاد ويعيث فساداً في الساحل التونسي بمساعدة

(57) تقع فطناسة في الجهة الأخرى لشط الجريد في ناحيته الجنوبية ببلاد نفزاوة.

(58) هناك مرداس رياح أي الهلاليون، ومرداس سليم من بطون بني سليم، لذلك لا يتعارض ما سبق أن ذكره المؤلف في الكتاب الخامس من وجود فرقة مرداسية في ضواحي عنّابة مع ما ذكره هنا.

(59) والي عثمان الذي غزا افريقية وهاجم قفصة هو عبد الله بن سعد بن أبي سرح العامري ــ أخو عثمان من الرضاع ــ وذلك عام 26هـ. انظر أحمد الناصري، **الاستقصا**، ج: 1، 66-67.

الأعراب[60]. وكان المنصور قد جاء مرة أولى بجيوشه إلى هذه البلاد فسارع الأمير المذكور إلى مغادرة المنطقة والدخول إلى الصحراء مع بعض الأعراب[61]. فاكتفى المنصور باستسلام الإقليم إليه ورجع إلى مراكش. وما كاد يصل إليها حتى طلع الأمير من الصحراء وطرد ولاة المنصور. فأعاد المنصور الكرّة بعد بضع سنوات وجاء بجيش جرّار إلى قفصة، فوصلها وفوجىء الأمير وهو داخل القلعة، فهاجمه المنصور بدون هوادة. وكان الدفاع سهلاً لأن أسوار المدينة كانت كافية لصد هجوم جيوش افريقيا كلها؛ لكن الأمير المسكين لم تكن له مؤن في القلعة، فاضطر يوماً إلى محاولة خروج مسلّح مع أبنائه وأوليائه، فحاربوا كلهم إلى أن مزّقتهم السيوف. وعند ذلك أمر المنصور بهدم إحدى واجهات القلعة، وعين ولاة ومستخدمين في الإقليم، ثم عاد إلى المغرب ومعه رؤوس الفتنة من الأعراب الذين تسبّبوا في ثورة البلاد.

وعاد اليوم عمران قفصة كاملاً، لكن ليس فيها سوى بناءات متواضعة، باستثناء بعض المساجد. أزقّتها واسعة جداً، وكلها مرصفة بالحجر الأسود كنابل وفلورنس، والسكان متحضّرون لكنهم فقراء لأنهم مثقلون بالإتاوات من قِبَل ملك تونس. وفي وسط المدينة عيون بُنيت عليها أحواض مستطيلة عميقة واسعة، تحيط بها الجدران، إلا أن بين الجدران

(60) يشير إلى بني الرند أمراء قفصة من قبل المرابطين، وقد استبدّ بنو الرند بقفصة بعد سقوط الدولة المرابطية، لكن عبد المؤمن بن علي استنزلهم لما غزا افريقية، ثم رجعوا إلى قفصة فغزاهم ابنه أمير المؤمنين يوسف عام 576 وقتل القائم منهم بها. انظر الاستقصا، ج: 2، 136 - 137.

(61) اختلط الأمر على الحسن الوزان، فالثائر الذي طارده يعقوب المنصور هو علي بن اسحاق المسوفي المعروف بابن غانية. وكان بنو غانية أمراء من قبل المرابطين على الجزائر الشرقية: ميورقة ومنورقة ويابسة. وبعد انقراض الدولة المرابطية كانت ثورة بني غانية بالمغربين الأوسط والأدنى من أخطر الثورات التي واجهها الموحّدون. انظر تفاصيل ذلك عند أحمد الناصري، الاستقصا، ج: 2، 142 وما بعدها؛ والوزير السراج، الحلل السندسية، ج: 4، ص 1006.

والأحواض فضاء يستطيع الناس أن يسيروا فيه ليغسلوا أجسادهم، لأن الماء ساخن، ويُشرب هذا الماء بعد ما يبرّد مدة ساعة أو ساعتين.

وهواء قفصة شديد الوخم، لذلك فإن نصف السكان مصابون بالحمّى على الدوام. وهؤلاء القوم فقراء وأشرار بالخصوص، لا يريدون مصادقة الغرباء، ولذلك تكرههم افريقيا كلها. ويوجد خارج المدينة عدد لا يُحصى من النخيل والزيتون والليمون. والتمر أجمل وأحسن وأغلظ ما يوجد في الإقليم كله. وكذلك الزيتون الذي يُصنع منه زيت جيد المذاق واللون. وفي قفصة أربعة أشياء من الطراز الأول: التمر والزيتون والقماش والفخار. يرتدي السكان لباساً لائقاً جداً، لكنهم ينتعلون شبه نعال من جلد الوعل عريضة جداً حتى يمكنهم إصلاحها عدة مرات.

وقد سبق أن ذكرنا مدينة الحامة وقابس وجربة عند الكلام على مملكة تونس.

نَفْزاوة

تتكوّن نفزاوة من ثلاثة قصور متقاربة(62)، كثيرة السكان لكنها مسوّرة بأسوار كئيبة تحيط بدُور أكثر منها كآبة، والأراضي تصلح للتمور، ولا تنبت أي نوع من الحبوب. والسكان فقراء لأن ملك تونس يثقل كواهلهم بالإتاوات وهم على مسافة نحو خمسين ميلاً من البحر المتوسط(63).

تاوَرْغَــة

تاورغة مكان مسكون في تخوم دولة طرابلس على حدود صحراء برقة، توجد فيه ثلاثة قصور وبعض القرى مع نخل كثير. ولا تنبت فيه

(62) لم تكن بنفزاوة في أوائل القرن الثامن الهجري إلا قاعدتان، هما طرة، وبشرى. ذكرهما التجاني في رحلته، ص 142 - 153 وما بعدها.

(63) بل 100 ميل.

الحبوب. وحرمان السكان مما هو ضروري لهم لا يقل عن حرمانهم من المال، لمجاورتهم للصحراء وبُعدهم عن كل مركز متحضّر[64].

زْلِيطَنْ

زليطن[65] منطقة مسكونة على شاطىء البحر المتوسط، حيث القصور العديدة والنخيل الكثير. يتمتع السكان فيها برخاء نسبي، لأن موقعهم على جانب البحر يمكّنهم من الاتّجار مع المصريين والصقليين.

غدَامِسْ

غدامس[66] منطقة كبيرة مسكونة، حيث القصور العديدة والقرى المأهولة، على بعد نحو ثلاثمائة ميل من البحر المتوسط. سكانها أغنياء، لهم بساتين نخل وأموال، لأنهم يتّجرون مع بلاد السودان. يـديرون شؤونهم بأنفسهم ويؤدّون خراجاً إلى الأعراب. وكانوا من قبل خاضعين لملك تونس أي لخليفته في طرابلس. ويرتفع ثمن القمح واللحم في هذا المكان ارتفاعاً كثيراً.

فَزَّان

فزان هو الآخر منطقة كبيرة جداً مسكونة، فيها قصور عظيمة، وقرى كبيرة، كلها عامرة بناس أغنياء يملكون النخيل والأموال، ويجاورون

(64) تقع تاورغة على نحو 260 كلم شرق طرابلس و40 كلم جنوب ميناء مسراتة التي أشار إليها المؤلف في الكتاب الخامس، ولا ندري إن كانت هي صلتان التي تحدّث عنها التجاني في الرحلة، ص 22-23.

(65) تقع واحة زليطن الهامة ــ وكتبت في الأصل يزليطن ــ على نحو 160 كلم شرق طرابلس ونحو 60 كلم غرب ميناء مسراتة.

(66) ذكر غدامس ياقوت في **معجم البلدان**، ج: 6 ,268، وقال انها مدينة بالمغرب في جنوبه ضاربة في بلاد السودان. ويذكر في غزوات عقبة بن نافع الأولى قبل تأسيس القيروان أنه فتح غدامس عام 42هـ. انظر **الاستقصا**، ج: 1، ص 69.

كلاّ من أكْدز وصحراء ليبيا المتاخمة لمصر، على بعد مسيرة قرابة ستين يوماً من القاهرة. ولا يوجد بين فزان ومصر مكان مسكون من غير أوجلة الكائنة في صحراء ليبيا. ويحكم فزان أمير هـو بمثابـة القاضي الأول للشعب، يتصرف في جميع موارد البلاد لفائدة الجماعة، ويؤدّي بعض الخراج إلى جيرانه الأعراب. والخبز واللحم قليلان جداً في هذه البلاد أيضاً، فيؤكل لحم الجمل وهو كذلك مرتفع الثمن(67).

(67) ذكر ياقوت فزان في معجم البلدان، ج: 6، ص 374، وقال انها ولاية واسعة بين الفيوم وطرابلس الغرب، ومدينتها زويلة السودان، والغالب على ألوان أهلها السواد.

صحارى ليبيا

صحراء صنهاجة

الآن وقد تكلمنا عن نوميديا، وهي القسم الثاني من افريقيا، سنحدثكم عن صحارى ليبيا المنقسمة إلى خمسة أقسام، كما ذكرنا ذلك في أول هذا الكتاب.

سنبدأ بصحراء صنهاجة(68) فنقول: ان هذه الصحراء شديدة الجفاف وعرة، تبتدىء عند المحيط غرباً وتمتد شرقاً إلى ملاحات تغزة، وتنتهي شمالاً في تخوم نوميديا، أي اقليم سوس عند أقا ودرعة. وتسير جنوباً حتى أرض السودان عند مملكتي ولاتة وتمبكتو. لا يوجد فيها ماء إلا على مسافة كل مائة أو مائتي ميل، بالإضافة إلى أنه مالح مر في آبار عميقة جداً، خصوصاً في الطريق المؤدية من سجلماسة إلى تمبكتو. وفي هذه الصحراء عدد كبير من الوحوش والحيات، كما سنذكر ذلك في محله. وفي هذه المنطقة فلاة خاصة وعرة جداً لا تسلك إلا بمشقة عظمى تسمى أزواد، لا ماء فيها ولا منزل طوال مسافة مائتي ميل بين بئر أزواد وبئر

---

(68) كتب في الأصل بالزاي بدل الصاد، وتحرّف فعلاً في بعض المناطق إلى زناكة. انظر: كتابنا **الحركة الفكرية**، ج 2:511. وكتاب المغرب للصديق بن العربي، ص 93.

أروان الذي هو على بعد مائة وخمسين ميلاً من تمبكتو، يموت فيها كثير من الناس حراً وعطشاً، كما قلته آنفاً فيما أذكر(69).

(69) هذا التقسيم مأخوذ من ابن خلدون الذي يقول عن برابرة الصحراء متعرضاً إلى مواقعهم: «واتصل بنيانهم على بلاد السودان إلى المشرق مناظر السلع العرب على بلاد المغربين وافريقية. فكدالة منهم في مقابلة ذوي حسان من المعقل عرب السوس الأقصى، ولمتونة وتريكة في مقابلة ذوي منصور وذوي عبد الله من المعقل أيضاً عرب المغرب الأقصى، ومسوفة في مقابلة زغبة عرب المغرب الأوسط، ولمطة في مقابلة رياح عرب الزاب وبجاية وقسنطينة، وتاركا في مقابلة سليم عرب افريقية...»، **تاريخ العبر** (طبعة بيروت) ج 6: ص 408.

فهذه المعلومات، مع غموضها، تحدد تقريباً موقع القبائل الملثمة بالنسبة لقبائل العرب المقيمة في الشمال. فكانت إذن تتعاقب من الغرب إلى الشرق: كدالة ولمتونة ونزقة ولمطة وتركا. فاتبع الوزان نفس الترتيب إلا أنه جمع كدالة ولمتونة تحت اسم زناكة، مبدلاً موقع لمطة وتركا جاعلاً منهما الأولين في الترتيب، عوض الآخرين، من الغرب إلى الشرق. وقد اتبع هذا التقسيم جميع واضعي الخرائط الذين استقوا من الوزان وشارحيه، ولم يأخذوا بعين الاعتبار نصـوص المؤرخين السابقين له خصوصاً منهم ابن حوقل والبكري والادريسي وابن بطوطة وأبي الفداء الذين أفادونا بمختلف مواقع القبائل المغربية والتوارقية. وما عدا تحركات بعض القبائل التي حدثت في هذه الأثناء، فإن هذه المجموعات كانت تقريباً في المناطق التي تجدها فيها الآن. ولا ننس أن لطبيعة التراب دوراً هاماً في اختيار مناطق الرعي. وإذا كان الوزان قد خلط بعض الشيء الخرائط المأخوذة عن ابن خلدون إلا أنه أعطى بعض التفاصيل عن حدود مختلف الصحارى تفيد في التعرف على القبائل الصحراوية رغم غموضها. ونشير في هذا الصدد إلى أن لفظ «صحراء» المستعمل عند الوزان لا يعني دائمًا القفر الذي لا ماء فيه ولا نبات، بل البلاد الخالية، وذلك لأسباب مختلفة نظراً لكونها مهجورة أو غير آمنة. وصحراء صنهاجة ــ حسب الوزان ــ كانت تشكّل مثلثاً يمس رأسه سوس، ويحدّ قاعدته خط تمبكتو ــ ولاتة ــ المحيط؛ ويحد المحيط جانبه الغربي، والخط سوس ــ تغازة ــ تمبكتو جانبه الشرقي. ومن المحتمل أن تكون المنطقة الواقعة بين تغازة والساورة ــ التي يضمها إلى صحراء ونزكة ــ مسكونة بسبب وجود الكتل الرملية العظيمة فيها. ومن الممكن أن أول معسكرات التوارق كانت ــ حسب ابن خلدون ــ في جهة الركان. وفي الواقع فإن إقليم زناكة كان يمتد سياسياً حتى أول واحات توات ويناسب الصحراء الغربية وأراضي الرعي الحالية للركيبات والبرابش ولمختلف القبائل العربية ــ المغربية ــ لتكنت وأدرار.

الصحراء التي يسكنها شعب وَنْزيكَة

تبتدىء الصحراء الثانية غرباً في تخوم تغزة، وتمتد شرقاً إلى تخوم الأيـر، وهو البلاد الخالية التي يسكنها شعب تاركة[70]. تتاخم شمالاً صحراء سجلماسة وتبلبلت وبني كومي، وجنوباً صحراء كَير[71] التي تناسب مملكة كُوبر. وهذه الصحراء أكثر من السابقة وعورة ووحشة، يمر بها التجار الذاهبون من تلمسان إلى تمبكتو، ويقطعونها من أبعد طرفي قطرها، فتؤدي صعوبة المرور إلى موت العديد من الناس والدواب لفقدان الماء. وفي هذه المفازة بلاد خالية تدعى كَكدم لا يوجد بها ماء مسيرة تسعة يام. فيتحتم الاكتفاء بالماء المحمول على الجمال، إلا ما يعثر عليه أحياناً من غدران ماء المطر، لكن ذلك، لا يقع إلّا بمحض الصدفة[72].

(70) تاركَة: قبيلة من قبائل صنهاجة بالصحراء، ينسب إليها بلفظ تاركي، والجمع توارك، حُرِّف على لسان المشارقة إلى طوارق ــ بالطاء بدل التاء ــ ومنه حي توراكة المعروف بجوار القصر الملكي بالرباط لاختصاصهم بخدمة القصر منذ أجيال

(71) يمكن أن تقرأ بالكاف المعقودة «كَير» ح واد كَير، وبالغين «غير» = رأس غير الذي يصب عنده واد كَير.

(72) يشمل هذا التحديد إقليمًا شاسعاً جداً، يمتد من الشمال الشرقي إلى الجنوب الشرقي للصحراء. إلا أنه عندما يقول الوزان انه يتاخم صحراء سجلماسة وتخوم تغازة يقع هناك بعض الغموض، إذ لا ندري ما يناسب مثل هذا الاقليم. فأين كانت تنتهي صحراء سجلماسة؟ وأين كانت تبتدىء صحراء تبلبلت؟ لا نعرف عن ذلك شيئاً حيث إن هذين الاسمين لا يدلان اليوم سوى على أماكن معينة لا مناطق خالية. فيعتري النص خلط يبدو من خلاله جلياً أن الوزان اعتمد على النقل والأخبار، فهو يقول من جهة إن الاير تسكنه تاركة، وعندما يتعرض لهؤلاء يقول إن صحراءهم تبتدىء في تخوم الاير. ثم إنه عندما يتكلم عن مملكة أكْدز لا يذكر ولو مرة واحدة اسم الأير مبيناً بذلك أنه ربما كان يجهل العلاقات العرقية الموجودة بين الرحل في هذه الكتلة وإخوانهم ونزكة وتاركة ولمطة. ولعل مرد هذه العلاقة بين تاركة والأير إلى كون الوزان استقى معلومات تشير إلى أن كلًا من الأير وتاركة كانا من أسرة واحدة. وفعلاً فإن عدداً من القبائل تنتسب إلى تاركة وقد أتت من فزان بعد الفتح العربي. وهذا مجرد افتراض لا يسمح بإدماج كل الأير في تاركة الوزان لكنه يبرر التباسه. أما «صحراء كَير التي تناسب مملكة كُوبر» فلا نرى أية مناسبة هناك: فلا وجود لكَير في الناحية، وليس =

الصحراء التي يسكنها شعب تاركة

تبتدىء الصحراء الثالثة عند تخوم الأيـر غرباً وتمتد إلى قفر إيغيدي شرقاً، وتتاخم شمالاً مفازات توات وتيكُورارين ومزاب، وجنوباً المفازات

= ڭوبر بصحراء البتة. وهذا الالتباس الأخير لا يعلل، سيما وأن الوزان يذكر أنه ذهب إلى كوبر، فلا يفهم أنه يصفه بالصحراء

الواقع ان المنطقة الخالية تحد في تخوم الأير، والناحية الواقعة شمال كُوبر بالخط الموصول تقريباً بآبار تماية وتڭدَّ ـ نْ ـ تسمت، وتكتّ ـ نْ ـ كولات، حيث ينبغي أن تنتهي بلاد ونزيكة.

ومن جهة أخرى فإن المعلومات حول طريق القوافل المؤدية من تلمسان إلى تنبكتو والمارة فعلاً بتوات وبئر. إ ـ نْ ـ زيزة وأدرار إيفوراس، وهي ذات الأخطار الكبيرة بدون شك، تضعنا في وسط أكثر إدراكاً، لأن المنطقة المخترقة هي منطقة التوارك تايطوك، فلا يوجد شعب ونزكة بكل معنى الكلمة. وقد ذكر فعلاً ابن خلدون ج 6، ص 371 ونزكة في جنوب المغرب الأقصى لكن هذا اللفظ غامض ويمكن أن يقرأ وتريكة (حسب المترجم دوسلان). ومن المحتمل أيضاً أن يكون هذا اللفظ تحريفاً لاسم إ ـ نْ ـ زيزة أو لاسم و ـ إ ـ نْ ـ زيزة ومعناهما ذوي إ ـ نْ ـ زيزة وقد يكون لقباً. وقد أخذ الوزان هذا اللفظ لابن خلدون جاعلاً منه ونزكة. ومن جهة أخرى فإ ـ نْ ـ زيزة ما هي إلا تحريف لإ ـ نْ ـ هِهاو، حسب نطق كل أهكار، ولإ ـ ن ـ ششاو، حسب نطق كل أدرار، ولإ ـ نْ ـ زيزاو، حسب نطق كل الأير، وهي بئر في الجبل الصغير الذي يحمل نفس الاسم، بين أدرار أهنت وأدرار إفوراس، والمذكورة في الخرائط تحت اسم إ ـ نْ ـ زيز. ونقطة الماء هذه ذات أهمية رئيسية في مواصلات القوافل بين توات والسودان وقد اشتهرت في خرائط القرون الوسطى تحت اسم آنية وأنزيكا. وأنسيشا، وأنزيش. وكانت القوافل تختلف إلى إ ـ نْ ـ زيزة، ومازالت تختلف إليها آتية من عين صالح وما وراءها شمالاً والذاهبة إلى تدمكّة وتبكتو وكْاو. وكانت نقطة الماء هذه في أراضي مرور تواركا تايطوق وكل أهنت الذين كانوا يسيرون حتى ركان وولان كلما سمح لهم الرعي بذلك. وكانت الحالة كذلك في عهد ابن خلدون الذي تحدّث عنهم.

وماذا يمثّل خلاء كَكْدم؟ إننا نجد هذا اللفظ في شكل كُوكَدام عند الإدريسي، وكَوْكَدام عند أبي الفداء، وكَاكْدم عند ابن خلدون. وهو ـ حسب الإدريسي ـ مدينة أزوكي البربرية، وحسب أبي الفداء مدينة أخرى على بعد مسيرة ثمانية أيام شمال غربها وجبل آخر، وحسب ابن خلدون صحراء تسكنها مختلف فروع لمطة. ويبدو أن الصواب هو رواية الإدريسي.

القريبة من مملكة أكَدز. وليست صحراء تاركَة[73] هذه وعرة وخطيرة مثل سابقتيها. إذ يوجد فيها على مسافة كل يومين ماء جيد في آبار عميقة جداً، لا سيما في جوار الأيـر، وهو قفر معتدل نقي الهواء ينبت فيه الكلأ بكثرة[74]. وبعيداً من هناك قرب أكَدز[75] يوجد كثير من اَلمنّ، وهو شيء عجيب: يذهب الناس في الصباح الباكر ليجمعوا هذا المنّ فيملؤون به دِناناً ثم يبيعونه طرياً في أزقة أكَدز. والدنّ الذي سعته «بوكال»[76] يساوي «بيوتشيين» ويشرب هذا المنّ ممزوجاً بالماء ويكون شراباً ممتازاً. ويجعل أيضاً في الحساء، ويبرد كثيراً. لذلك لا يمرض الغرباء بأكَدز كما يقع لهم بتمبكتو ذات الهواء الوخيم.

وتمتد هذه الصحراء من الشمال إلى الجنوب، على طول ثلاثمائة ميل.

---

(73) إن شعب تاركَة مذكور في النصوص العربية منذ القرن الرابع الهجري / العاشر م، وتاركَة كلمة بربرية معناها قناة، ويطلق في لهجة توارك الشمال - وهي تمهاك ــ على فزان. وأطلق العرب هذا الاسم على السكان الملثمين.

(74) مساحة هذه الصحراء عظيمة حيث أنها تمتد من الشمال إلى الجنوب من مزاب إلى تخوم الأير. وتصل من جهة أخرى إلى ربى إكَيدي وتوات وكَرارة. فلا يمكن أن تكون سوى أرض مرور توارك الهكار، ويبدو أن الوزان ارتكب خطأ في التوجيه إذ جعل الأيـر في الغرب وإكَيدي في الشرق، بينما الصواب هو العكس.

وتناسب هذه الصحراء لمطة ابن خلدون حيث يجعلها جنوب الزاب وإقليم قسنطينة. فعكس الوزان ــ كما قلنا ــ موقع القبيلتين. ولم يقع كبير تغيير في موقع هذه المجموعات الكبيرة: فقد ذكر الإدريسي أزكَار في جبل طنطانو الذي هو تسِّيلي، وقد اجتاز ابن بطوطة بلاد الهكَار وبلاد كهار، ويمكن تأويلها بكل أهار. أما ابن خلدون فأفادنا أن هجرة هوارة أعطت اسمها إلى هكار (أهكَار).

(75) الوزان هو أول من ذكر مدينة أكَدز. وقد اختلفت الروايات في تاريخ تأسيسها: فحسب مرمول، أنها أسست سنة 1460، وحسب رواية محلية سنة 1430، وفي رواية أخرى سنة 1502.

(76) «بوكال» كيل ايطالي سعته 1,823 ليتر.

الصحراء التي يسكنها شعب لمطة

تبتدىء الصحراء الرابعة عند إغيدي المذكورة آنفاً، وتمتد إلى تخوم القفر الذي يسكنه شعب برداوة، وتتاخم شمالاً قفار تكُرت وورگلة وغدامس، وجنوباً حتى المفازات الممتدة إلى كَانو مملكة بلاد السودان. وهذه الصحراء جافة وخطيرة على التجار الذين يجتازونها، كحال الذين يذهبون من قسنطينة إلى بلاد السودان(77). ويدعي سكان هذه الصحراء

(77) بما أنها محددة هكذا فإن بلاد لمطة ــ وهي في الواقع بلاد تاركَة ــ تناسب أراضي مرور كل أجَّر، مع التحفظ بأنها لا تمتد غرباً حتى إِكّيدي. وقد ذكر الكاتب هذا الاسم عرضاً عندما وقع له خلط مع تاركَة. فكان لمطة الحقيقيون ــ وهم كل هكار ــ يذهبون حتى إلى أكّيدي، لا تاركَة. وكان أجّر يصلون ــ استثنائياً ــ إلى حدود تدمايت لكنهم لا يتعدون أبداً قطب إ ــ نْ ــ كَطارة. وبلاد برداوة هي بلاد تبو، وهذا الحد الشرقي صحيح، وكذلك الشمالي المعبر عنهما بقفري وركَلة وغدامس. أما الحد الجنوبي فتنقصه الدقة، لكن لفظ «المفازات الممتدة إلى كانو»، ويمكن أن يطابق التينيرى الفاصل بين تسيلي والأير الذي يقطع فعلاً عند الذهاب إلى كانو، وكما يمكنه أن يطلق على القفر في جنوب هكّار والذي يخترقه التوارك في طريقهم إلى تمسنة وكانو ورغم بعض الغموض فإنهم فعلاً «كل أجّر» بعد تصحيح الخلط بين لمطة وتركَة.

وقد ذكر لمطة المؤلفون العرب منذ القرن الثالث الهجري / التاسع م، ويجعلهم اليعقوبي ــ الذي كان يكتب عام 889/276 م ــ حول زويلة فزان في اتجاه أوجلة وأجدابية، وهم أول من فرُّوا أمام هجوم العرب. يقول ابن خلدون إنهم إخوة لصنهاجة وأوربة وجزولة وأزداجة، وأبناء عمومة لهوارة من جدتهم المشتركة تيسكي العرجاء. ويضيف أن البعض منهم كان يسكن في جوار صنهاجة الملثمين، والبعض الآخر في القفار جنوب تلمسان وافريقية. ويبدو أنهم ساهموا في أول تعمير هكّار قبل وصول هوارة. وكان النبلاء العريقون عند كل هكّار يحملون اسم لومّيت، وهو من نفس أصل إلمتيين، الأمر الذي يبرر وجود لمطة قديماً في هذه البلاد. ومن الممكن أن عناصر من هذه القبيلة دخلوا من بعد إلى السودان حيث أطلق عليهم اسم لمطة، مع أن مؤلف كتاب **تاريخ السودان** يذكر ص 42 أنهم أتوا من المغرب في القرن الحادي عشر. أما لمطة الغرب فقد أشار إليهم الجغرافي ابن حوقل ــ منذ القرن الرابع / العاشر م ــ في ناحية واد نون. وكانت عاصمتهم نول لمطاطة حيث توجد الآن واحة أسرير قرب كَلمين. وقد تركوا ذكراً لهم في إقليم من أقاليم شمال فاس، أثناء تحولاتهم مع =

فعلاً أن إمارة ورگْلة تنتهك حرمة إقليمهم، ويعلنون العداء ضد أمير ورگْلة، ويسلبون جميع التجار الذين يلاقونهم في الصحراء، لكن أهل ورگْلة يقتلونهم بلا شفقة ولا رحمة[78].

الصحراء التي يسكنها شعب برداوة

تبتدىء الصحراء الخامسة غرباً من حيث تنتهي السابقة، وتمتد شرقاً إلى قفر أوجلة، وتتاخم شمالاً مفازات فزان وبرقة، ممتدة جنوباً إلى تخوم مفازة بورنو. الأرض شديدة الجفاف في هذه الناحية. ولا يمكن اختراق هذه البلاد بسلام. فأهل غدامس وحدهم يستطيعون ذلك لأنهم أصدقاء لبرداوة، يأخذون من فزان المؤن والثياب وغير ذلك مما هو ضروري للسفر[79].

* * *

أما باقي صحارى ليبيا، أي التي تمتد من أوجلة إلى النيل، فيسكنها الأعراب وشعب يدعى لواتة، وهو افريقي أيضاً[80].

= المرابطين. وقد قتل من بقي منهم في البلاد أو انضموا إلى عرب معقل فأصبحوا «تكنة» بلاد نون.

(78) يطلق هذا المقطع هنا على «كل أجَّر» كما يمكن أن يطلق على «كل هكّار» لأن علاقات أولئك وهؤلاء مع شعامبة ورگْلة كثيراً ما كانت من أسوأ العلاقات.

(79) أطلق اسم برداوة على سكان برداي في تبستي، ثم شمل «تِدة». وقد تتعدى كثيراً الحدود المذكورة هنا تبستي. ومهما يكن من أمر فإن شعب برداوة يطابق تماماً «تدة» أو «تبو»، وقد سبق للمقريزي أن ذكرهم معتبراً إياهم بربراً. ولعل الوزان أخذ منه ذلك، لأن ابن خلدون لم يذكرهم.

(80) شعب لواتة هذا هو لوبيم المذكور في التوراة، ولَبو ولَبَتَايْ عند اليونان، ولُوَاتة عند الرومان، وليفاتيس عند كوريُّوس. وقد لعب اللواتيون دوراً هاماً في تاريخ مصر التي هاجموها طوراً وخدموها طوراً آخر، إلى مجيء العرب. واللواتيون هم الذين أطلقوا اسمهم على ليبيا. ويجعل ابن خلدون من جدهم المسمى لوا بن زديك بن مدَّغِس منتسبين هكذا إلى البربر البتر. وكانوا يقطنون، عند قدوم العرب، إقليمًا بسيرينايكة =

وهنا ينتهي وصف صحارى ليبيا. ويليه وصف بعض الأماكن المسكونة فيها.

سُرْت

سرت مدينة عتيقة أسسها المصريون حسب رواية بعضهم، والرومان حسب رواية آخرين، ويرى غيرهم أنها من بناء الأفارقة. ومهما يكن من أمر فهي الآن خربة، يقال إن المسلمين هم الذين خربوها، مع أن المؤرخ ابن رقيق يعزو ذلك إلى الرومان. فلا يشاهد بها سوى آثار صغيرة من الأسوار[86].

بَرْدَاوَة

برداوة[87] ناحية مسكونة، توجد في قلب صحراء ليبيا، على بعد نحو خمسمائة ميل من النيل، ثلاثة قصور، وخمس أو ست قرى، فيها نخل كثير ينتج كمية وافرة من التمر الجيد. وهذه القصور الثلاثة اكتشفها منذ ثمانية عشر عاماً دليل اسمه عمار، ضلّ الطريق لمرض أصابه في عينيه. ولما لم يكن أحد غيره في القافلة يعرف الطريق، ظل يسير في الأمام على جمله ويأمر بأن يناولوه شيئاً من الرمل بعد قطع كل ميل فيشمه. وهكذا لما اقتربت القافلة من هذا المكان بأربعين ميلاً قال: «اعلموا أننا

= يقابل ناحية برقة. وهاجر بعض بطون لواتة شطر الغرب حتى المحيط ــ ولعل ذلك كان قبل الإسلام ــ والبعض الآخر بعد الفتح الإسلامي. وقد ساهم الكثير من قبائلهم في تعمير الأير، ومن جملتهم سدراتة.

(86) بل كانت سرت عامرة مزدهرة بالتجار في القرن الخامس الهجري، حسبما ذكره البكري في **المسالك والممالك**. (بنقل ياقوت في **معجم البلدان**، ج 5: ص 62-63). وقال إنها مدينة كبيرة على سيف البحر، عليها سور من طوب، وبها جامع وحمام وأسواق، ولها ثلاثة أبواب: قبلي، وجنوبي، وباب صغير إلى البحر، وليس حولها أرباض، ولهم نخل وبساتين وآبار عذبة وجباب كثيرة. ثم ذكر السكان ووصفهم بأقبح النعوت نثراً وشعراً، وذكر لهجتهم التي يتراطنون بها.

(87) مجموعة واحات كفرة.

قربنا من مكان مأهول!». فلم يثق به أحد لعلمهم أنهم كانوا على بعد أربعمائة وخمسين ميلاً من مصر، فأخذوا يتساءلون إن كانت القافلة راجعة إلى أوجلة، إلا أنهم في اليوم الثالث أشرفوا على هذه القصور. فذهل أهل البلاد من مجيء الغرباء، ودخلوا قصورهم وغلّقوا أبوابها وامتنعوا من تقديم ماء الشراب إلى القافلة. فأصابها من ذلك جهد كثير لأن الآبار كانت داخل القصور. وبعد معركة خفيفة استولى أصحاب القافلة على القصور، وتزودوا بالماء الكافي، ثم تابعوا سفرهم.

الواحات

الواحات منطقة مسكونة على بعد نحو مائة وعشرين ميلاً من مصر في صحراء ليبيا، فيها ثلاثة قصود وعدد من القرى وبساتين النخيل. سكانها سود البشرة، أنذال بخلاء، لكنهم أغنياء لوجودهم بين مصر وكاوكاو. لهم رئيس شبه ملك، ومع ذلك فإنهم يؤدون خراجاً إلى جيرانهم الأعراب(88).

(88) لقد جعل المؤلف الواحات في نوميديا في الكتاب الأول. فالسكة الحديدية الواصلة بين وادي النيل وقاعدة واحة الخارجة طولها 195 كلم. فتطلق الواحات مبدئاً على سلسلة الواحات المتباعدة في منخفض صحراء ليبيا، أقصاها شمالاً واحة سيوة المحتوية قديماً على معبد أمون الشهير الذي زاره الإسكندر ذو القرنين. لكن هذا الاسم أطلق بصفة خاصة على الواحتين الموغلتين في الجنوب، الداخلة (بالنسبة لصحراء ليبيا)، والخارجة في الجنوب الشرقي لأنها أقرب إلى النيل.

وكانت هذه الواحة المقر المفترض للموتى عند المصريين القدماء: «التوا» وتوجد نفس الكلمة في البربرية القديمة كما يدل على ذلك تصغيرها «توات» في الصحراء الغربية. ولا شك أنه أعطى الاسم اليوناني أوازيس وربما الاسم العربي واج. ويبدو أن الكاتب لم يقصد هنا سوى واحة الخارجة وهي الباب الحقيقي المؤدي إلى مصر من السودان الغربي منذ قديم الزمان. كما تشهد بذلك الآثار الموجودة هناك. وقد سبق هيرودوس أن أشار إلى أهميتها. وابن حوقل أول مؤلف عربي معروف تكلّم عن تجارتها، قبل القرن التاسع م. مع غانة والمغرب.

القسم السابع

بلاد السودان

بــلاد السودان

لم يكتب الجغرافيون القدماء مثل البكري والمسعودي شيئاً عن بلاد السودان باستثناء الواحات وغانة، إذ لم يكن يعرف شيء عن غيرهما من بلاد الزنوج في ذلك العصر؛ ولكنها اكتشفت بعد سنة 380 هـ، لأنّ لمتونة وجميع سكان ليبيا أسلموا على يد داعية حملهم بالإضافة إلى ذلك على فتح بلاد البربر كلها[1]. فبدأ الناس، منذ ذلك الوقت يختلفون إلى هذه البلاد ويتعرفون عليها.

يسكن هذه البلاد كلهـا قوم يعيشـون كالبهـائم، لا ملوك لهم ولا أمراء ولا جمهوريات ولا حكومات ولا عادات، يكادون لا يعرفون زرع الحبوب، ويلبسون جلود الغنم. وليس لأحد منهم امرأة خاصة به، وإنما يرعون الماشية في النهار أو يخدمون الأرض، ثم يجتمعون في الليل،

---

(1) يشير إلى عبد الله بن ياسين الذي اتخذ رابطة في حوض السينغال في أوائل القرن الخامس الهجري، جمع فيها المرابطين من لمتونة الصنهاجيين، فنشروا الإسلام هناك قبل أن يؤسسوا دولة المرابطين ويشيدوا عاصمتهم مراكش؛ لكن الإسلام انتشـر في الصحراء وما وراءها من بلاد السود قبل هذا التاريخ، بداية من الفتح الإسلامي لبلاد شمال إفريقيا في منتصف القرن الأول للهجرة.

انظر حسن ابراهيم حسن، **انتشار الإسلام والعـروبة فيـما يلي الصحـراء الكبرى**، ص 2 وما بعدها، وأحمد الناصري، **الاستقصا**، 7:2 وما بعدها.

عشرة إلى اثني عشر رجلاً وإمرأة في كوخ، ويضاجع كل واحد من تعجبه أكثر من غيرها، مرتاحين نائمين على جلود النعاج.

لا يحارب هؤلاء القوم أحداً، ولا يخرجون من بلادهم، بعضهم يعبدون الشمس ويسجدون لها بمجرد ما يرونها تبرز في الأفق، وبعضهم يعبدون النار كأهل ولاتة، والبعض الآخر مسيحيون على طريقة المصريين، وهم سكان ناحية ڭاوڭاو. وقد حكم هؤلاء الزنوج يوسف (بن تاشفين) ملك مراكش ومؤسسها، ومعه شعوب ليبيا الخمسة، فعلموهم الشريعة الإسلامية والمبادىء الضرورية لسلوكهم في الحياة. فاعتنق الكثير منهم الإسلام، وبدأ تجار بلاد البربر حينئذ يذهبون إلى هذه البلاد ليتجروا فيها حتى تعلموا لغاتهم.

واقتسمت شعوب ليبيا الخمسة هذه البلدان خمس عشرة قسمة، فنال كل شعب ثلاث قسم منها. والحقيقة أن ملك تنبكتو الحالي، وهو أبو بكر أسكيا من الجنس الأسود، كان قد عين قائداً أعلى من قبل ملك تنبكتو وڭاغو سني علي الذي هو من أصل ليبي(2).

وبعد موت سني علي ثار أبو بكر على أبنائه وقتلهم، ثم خلص جميع الشعوب السود من ربقة رؤساء قبائل ليبيا، بحيث إنه استولى على عدة ممالك في ظرف ست سنوات. ولما فرغ من نشر السلام والهدوء في مملكته

---

(2) هناك حاكمان من أسرة سني يدعى كل منهما سني علي ــ ويكتبه السودانيون بالياء: سني، وبدونها: سن ــ أولهما (يعرف بعلي كلن) هو مؤسس دولة سني بعد قضائه على دولة آل ضياء الليبيين أمراء سنغاي عام 1335/735، وهو سني علي بير (أي الكبير) الظالم الفاجر الخارجي؛ وآخر آل سني الذي ثار عقب وفاته محمد أسكيا مؤسس دولة الأسكيين حكام المنطقة إلى مجيء جيوش أحمد المنصور. واستمرت دولة آل سني هذه من عام 735-1335 إلى عام 1493/898، تعاقب على الحكم خلالها أربعة عشر أميراً.

انظر: عبد الرحمان السعدي، تاريخ السودان، ص 5 وما بعدها + ص 71 وما بعدها.

رغب في الحج إلى مكة، وأنفق في هذا الحج كل ماله، واقترض خمسين ألف مثقال.

تمتد هذه الممالك الخمس عشرة المعروفة كلها لدينا على طول ضفتي النيجر وروافده[3]، وتقع بين قفرين عظيمين يبتدىء أحدهما عند نوميديا وينتهي في هذه البلاد، والآخر في الجنوب يمتد إلى البحر المحيط. وهناك مناطق كثيرة جداً، لكن معظمها غير معروفةٍ لدينا، سواء بسبب طول السفر وصعوبته، أو بسبب تنوع اللهجات والمعتقدات؛ وذلك ما يمنعها من إقامة علاقات مع البلدان المعروفة عندنا، ويمنع هذه البلدان كذلك من إقامة علاقات معها. ومع ذلك فإن هناك بعض العلاقات مع الزنوج الذين يعيشون على ساحل المحيط.

مملكة وَلاَتَة

مملكة صغيرة خاملة بالنسبة لسائر ممالك السودان. فليس لها من الأماكن المسكونة سوى ثلاث قرى كبيرة وأكواخ متفرقة بين حدائق النخل. وتبعد هذه القرى بنحو ثلاثمائة ميل جنوب نون، وخمسمائة ميل شمال تنبكتو، ومائة ميل من المحيط[4].

ولما كانت شعوب ليبيا، تسيطر على هذه الناحية، جعلوها مقر البلاد الملكي، فأدى ذلك بالكثير من تجار بلاد البربر إلى الوفود عليها[5]؛ لكن التجار

(3) يعتقد المؤلف ــ كسائر الجغرافيين العرب القدماء ــ أن النيجر يأتي من التشاد ويصب في المحيط عند مصب السنغال.

(4) في الحقيقة 1900 كلم. جنوب نون و450 كلم. غرب تنبكتو و900 كلم. من المحيط.

(5) يبدو فعلاً أن ولاتة (إيولاتن باللهجة المحلية) هم فرع من مسوفة الذين يتنقلون في الجزء الصحراوي الواقع شمال هذه الناحية، كانوا لا يقومون بقيادة القوافل التجارية القاطعة للصحراء وحمايتها فحسب. بل شاركوا في حكم البلاد، ومنهم أخذت قرية بيرو اسم إيولاتن ثم ولاتة، ففي ربيع الأول عام 753/ ابريل 1352 عندما مر الرحالة ابن بطوطة بها كان يحكمها أسود باسم ملك مالي واقتبل ابن بطوطة.

تركوا ولاتة شيئاً فشيئاً منذ عهد سني علي الذي كان رجلاً عظيّما وذهبوا إلى تنبكتو وكَاغو، بحيث إن أمير ولاتة أصبح فقيراً لا سلطة عليها.

يتكلم أهل هذه البلاد لغة تسمى سنغاي[6] وهم أناس في غاية السواد والخسة، لكنهم ظرفاء جداً لا سيما مع الأجانب. يؤدي الأمير الذي يحكمهم الخراج إلى ملك تمبكتو، لأن هذا الملك جاء مرة إلى البلاد بجيشه ففرّ أمير ولاتة في الحين راجعاً إلى أهله في القفار. ورأى ملك تمبكتو أنه لا يستطيع ضبط البلاد كما يجب، لأن هذا الأمير سيخلق له متاعب بمساعدة أهله الصحراويين، فاتفق معه على أن يؤدي إليه خراجاً معيناً، ورجع الأمير إلى ولاتة، كما عاد الملك إلى تنبكتو.

ونمط معيشة أهل ولاتة وعاداتهم كنمط وعادات جيرانهم القاطنين بالصحراء. لا تنبت هذه البلاد إلّا القليل من الحبوب، كالدخن، وحب آخر مستدير أبيض يشبه الحمص ولا يوجد بأوربا[7]، واللحم نادر الوجود جداً. ومن عادة النساء والرجال أن يتلثموا ويغطوا وجوههم. ولا يوجد في هذه الناحية أي تنظيم متحضر، فلا حاشية ولا قضاة، ويعيش القوم في البؤس الشديد.

مملكة غِينْيَا

مملكةَ يسميها التجار الأفارقة كُنَاوَة، والأهليون جيني، ويطلق عليها البرتغاليون ومن لهم خبرة بهذه المناطق في اوربا غينيا[8]. تتاخم المملكة

(6) سنغاي: قبيلة كانت تسكن النيجر حول حدود الغابات الاستوائية أولاً، ثم طلعت إلى الشمال وأسست حوالي القرن الأول الهجري دولة عرفت أطوار القوة والضعف، وتدهورت أوضاع سنغاي قبل أن يتولى أمرها الاسيكون كما سبقت الإشارة إلى ذلك. واللغة التي سماها الوزان سنغاي، يقصد ولا شك لهجة هذه القبيلة. أما اليوم فليس إلا العربية في ولاتة.

(7) لعله يقصد الذرة البيضاء.

(8) لعل المؤلف يقصد كُيني ــ أو جيني كما يكتبها السودانيون ــ المدينة المشهورة في حوض النيجر جنوبي تنبكتو.

السابقة، مع وجود مسافة نحو خمسمائة ميل[9] بينهما عبر الصحراء. تقع ولاتة في الشمال، وتنبكتو في الشرق، ومالي في الجنوب. وتمتد طول النيجر على مسافة نحو مائتين وخمسين ميلا، ولها جزء على المحيط حيث يصب النيجر في البحر[10].

أما الشعير والروز والماشية والسمك والقطن فتوجد بكثرة كاثرة. ويحقق أهل البلاد أرباحاً هائلة في تجارة قماش القطن مع تجار بلاد البربر الذين يحملون إليهم الكثير من الثياب الأوربية والنحاس والصفر والسلاح مثل الخناجر. والعملة الرائجة عند هؤلاء السودانيين هي الذهب غير المسكوك، وكذلك قطع الحديد لشراء أشياء تافهة كاللبن والخبز والعسل. وتزن هذه القطع رطلاً أو نصف رطل أو ربعه.

ولا تنبت في هذه الناحية أية شجرة مثمرة، فلا وجود لأية فاكهة غير التمر المستورد من ولاتة أو نوميديا. ولا مدينة فيها ولا قصر ما عدا قرية واحدة كبيرة يسكنها الملك والأئمة والفقهاء والتجار والأعيان، وجميع الدور التي يسكنونها كالأكواخ، مملوطة الحيطان بالطين ومغطاة بالتبن.

يرتدي أهل هذه القرية لباساً حسناً، ويتلثمون بلثام كبير من قطن أسود وأزرق يغطون به حتى رأسهم، لكن الأئمة والفقهاء يتلثمون بلثام أبيض. وأخيراً فإن هذه القرية تشكل شبه جزيرة خلال ثلاثة أشهر في العام، في يوليوز وغشت وشتمبر، لأن النيجر يفيض في هذه المدة تماماً كما يفيض النيل.

(9) المسافة بين ولاتة وجني 450 كلم فقط.

(10) خطّأ المعلقون في الترجمة الفرنسية المنقول عنها المؤلف الحسن الوزان بتأويل كلامه هذا إلى أنه يقصد مصب نهر السينغال. مع أنه يمكن أن يقصد مصب النيجر الحقيقي في المحيط عند خليج غينيا، بل وهو الأنسب لتسميته وسياقه.

ويأتي تجار تنبكتو في هذه الفترة حاملين بضائعهم في زوارق صغيرة ضيقة جداً مصنوعة من نصف جذع شجرة مجوفة، تجري بهم نهاراً، ويربطونها ليلاً في الضفة ليناموا على الأرض.

كانت هذه المملكة في القديم خاضعة لأسرة من أصل ليبي، لكن في عهد الملك سني علي أصبح صاحب هذه المملكة خاضعاً له. ولما فقد سني علي مملكته على يد خلفه أسكيا، أخذ وسجن في كَاغو حتى مات، وصار يحكم هذه المملكة أحد نواب أسكيا.

مملكة مالي

تمتد هذه المملكة[11] على طول أحد فروع النيجر في مسافة نحو ثلاثمائة ميل متاخمة المملكة السابقة من جهة الشمال، والقفر مع جبال وعرة من جهة الجنوب. وتحدها غرباً غابات مهجورة تمتد إلى المحيط، وشرقاً إقليم كاغو. وفي هذه البلاد قرية عظيمة تضم نحو ستة آلاف كانون وتسمى مالي[12] أطلق اسمها على سائر المملكة. يسكنها الملك وحاشيته، ويكثر في البلاد الحب واللحم والقطن. ويوجد في هذه القرية عدد كثير من الصناع والتجار المقيمين، والطارئين الذين يعيرهم الملك عناية أكثر من غيرهم. والسكان أغنياء بفضل تجارتهم،إذ يزودون غينيا وتمبكتو بكثير من المنتجات. ولهم مساجد كثيرة وأئمة، وأساتذة يدرسون في المساجد لعدم

---

(11) كتب في الأصل «ملي» وكذلك يكتبها السعدي وغيره من المؤرخين السودانيين، وهي المملكة العظيمة التي كونها شعب الماندينغو وبلغت أوج عظمتها في القرن التاسع الهجري/ 14 م.

انظر: تفاصيل مملكة مالي عند عبد القادر زبادية، **مملكة سنغاي**، ص ١٢ وما بعدها.

(12) من المحتمل أن يكون الأمر يتعلق بنياني وهي قرية على نهر سنكراني قرب التقائه بالنيجر. وقد نقلت عاصمة مالي عدة مرات.

وجود المدارس. وهم أكثر تحضراً وذكاء واعتباراً من بين جميع السود، لأنهم كانوا من السابقين إلى اعتناق الإسلام، فحكمهم عند إسلامهم أكبر أمراء ليبيا وهو عم ليوسف (بن تاشفين) ملك مراكش[13]. ودام الحكم في عقبه إلى عهد أسكيا، فأصبح آخرهم خاضعاً له ومثقلاً بالضرائب إلى حد أنه لا يستطيع إطعام أسرته.

تَنْبُكْتُو

اسم هذه المملكة حديث، وتنبكتو[14] اسم مدينة بناها ملك يدعى منسا سليمان عام 610 للهجرة، على بعد نحو اثني عشر ميلاً من أحد فروع النيجر[15].

ودُور تنبكتو عبارة عن أكواخ مبنية بأوتاد مملوطة بالطين ومسقوفة بالتبن. وفي وسط المدينة مسجد مبني بالحجر المركب بالطين والجير على يد مهندس أندلسي من مدينة المانا[16]، وقصر كبير من بناء نفس المعلم[17] يسكنه الملك، ودكاكين كثيرة للصناع والتجار، لاسيما دكاكين نساجي

(13) كان يوسف بن تاشفين ابن عم لأبي بكر بن عمر اللمتوني، فاتح بلاد السودان، الذي زوج إحدى بناته لعاهل المندينغو آنذاك.

(14) يكتبها السودانيون والصحراويون هكذا: «تنبكت» ويزيدون أحياناً الياء بعد التاء الأولى «تينبكت». ذلك ما يوجد عند السعدي في **تاريخ السودان** والولاتي في فتح الشكور، وغيرهما.

(15) منسا معناها السلطان. وقد اتخذ أمراء اَلمَنْدِينغو لقب منسا ابتداء من القرن السابع الهجري/13 م. وقد فصل السعدي في **تاريخ السودان** الكلام في تأسيس تنبكتو في أواخر القرن الخامس الهجري على أيدي التوارق، والتطورات التي عرفتها عمرانياً وبشرياً وسياسياً إلى عصره (منتصف القرن الحادي عشر/17 م). انظره في صفحة 20 وما بعدها.

(16) كذا بالأصل المنقول عنه. ولعله تحريف لاسم مدينة موله (Mula).

(17) لفظ «المعلم» الوارد هنا أنسب من لفظ المهندس السابق، اعتباراً لاصطلاح مؤرخي الغرب الإسلامي القدماء، بل ولما يجري على الألسنة في المغرب حتى اليوم.

أقمشة القطن. وتصل أيضاً إلى تنبكتو أقمشة أوربـا يحملها تجار بلاد البربر.

ما زالت نساء المدينة محتجبات باستثناء الجواري اللائي يبعن كل المطعومات. والسكان أغنياء مترفون، لا سيما الأجانب المقيمين في البلاد، حتى إن الملك الحالي زوج اثنتين من بناته من أخوين تاجرين لغناهما. وتوجد بتنبكتو عدة آبار ماؤها عذب، بالإضافة إلى ما يصل إلى المدينة من ماء في قنوات عند فيضان النيجر؛ والحبوب والمواشي كثيرة جداً، بحيث إن اللبن والسمن يستهلكان فيها بكيفية مفرطة؛ لكن الملح قليل جداً، لأنه يستورد من تغزة البعيدة عن تنبكتو بنحو خمسمائة ميل.

كنت في هذه المدينة عندما كان الملح يساوي هناك ثمانين مثقالاً. ويملك الملك خزينة كبيرة من النقود والسبائك الذهبية، تزن الواحدة منها ألفاً وثلاثمائة رطل. والبلاد الملكي على قدر كبير من النظام والأبهة. فإذا ذهب الملك من مدينة إلى أخرى مع حاشيته ركب جملاً، وسيقت الخيل أمامه بأيدي السيافين، وفي الحرب يعقل السيافون الابل ويمتطي جميع الجنود الجياد. وكلما أراد شخص أن يخاطب الملك جثا بين يديه وأخذ التراب وحثاه على رأسه وكتفيه، وهذه طريقة الاجلال عندهم، لكنها لا تفرض إلا على من لم يسبق لهم أن خاطبوا الملك قط، أو على السفراء. وللملكة قرابة ثلاثة آلاف فارس، وعدد لا يحصى من الراجلين الحاملين لقسي مصنوعة من خشب (الفنُويْ) البرية، تمرق منها سهام مسمومة. وإنما يحارب هذا الملك الأعداء من جيرانه، ومن يمتنعون من أداء الخراج إليه. وإذا انتصر باع في تنبكتو كلَّ من أسره في القتال حتى الأطفال.

لا يولد في هذه البلاد من الخيل غير بعض البراذين الصغيرة التي يستعملها التجار في أسفارهم، وأرباب الحاشية في تجوالهم في المدينة. أما الجياد فتأتي من بلاد البربر، تصل مع القافلة ثم تعرض بعد عشرة أيام

أو اثني عشر يوماً على الملك ليأخذ منها العدد الذي يريده ويدفع فيه ثمناً مناسباً.

هذا الملك عدو لدود لليهود، لا يريد أن يقطن أحد منهم في المدينة. وإذا علم أن تاجراً من بلاد البربر يخالطهم أو يتجر معهم صادر أمواله[18]. وفي تنبكتو عدد كثير من القضاة والفقهاء والأئمة، يدفع الملك إليهم جميعاً مرتباً حسناً، ويعظم الأدباء كثيراً. وتباع أيضاً مخطوطات كثيرة تأتي من بلاد البربر، وتدر أرباحاً تفوق أرباح سائر البضائع.

تستعمل قطع الذهب الخالص بدلاً من العملة المسكوكة، والودع لشراء الأشياء التافهة، وهو صدف مستورد من بلاد فارس، تساوي أربعمائة منه مثقالاً واحداً، وتساوي الأوقية الرومانية من الذهب عندهم ستة مثاقيل وثلثي مثقال.

وقد فُطر أهل تنبكتو على المرح، وتعوّدوا على التجول في المدينة بين الساعة العاشرة ليلاً والواحدة صباحاً، وهم يعزفون على آلات الطرب ويرقصون. ولأهل المدينة عدد كثير من الرقيق ذكوراً وإناثاً يعملون في خدمتهم. وكثيراً ما تتعرض تنبكتو لخطر الحريق، فقد احترق نصفها في ظرف خمس ساعات أثناء إقامتي بها في رحلتي الثانية. كانت الريح عاتية، وبدأ سكان النصف الآخر للمدينة ينقلون أثاثهم خشية أن يحترق النصف الآخر.

ولا يحيط بتنبكتو أي بستان أو حديقة.

---

(18) الإشارة هنا إلى أثر اتصال الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي بملك تنبكتو الحاج محمد أسكيا حوالي عام 1502/908 في شأن طغيان اليهود ونقضهم عهد الذمة. انظر تفاصيل ذلك عند محمد ابن عسكر، دوحة الناشر، 130-132، وفي كتابنا: الحركة الفكرية، 1: 268 وما بعدها.

مدينة كَبْرَة

كبرة[19] مدينة كبيرة على شكل قرية مسورة، بعيدة بنحو اثني عشر ميلاً من تنبكتو على النيجر[20]. ومنها تنقل البضائع في السفن إلى غينيا ومالي. ولا تختلف دورها وسكانها عن الدور والسكان الذين ذكرناهم آنفاً. والسود بها من مختلف الأجناس، لأنها الميناء الذي يقصدونه بزوارقهم من مختلف الجهات.

وقد أرسل إليها ملك تنبكتو نائباً عنه ليسهل على السكان الاستقبالات الملكية، ويعفيهم من عناء قطع مسافة اثني عشر ميلاً[21].

كان هذا النائب عندما كنت في كبرة أحد أقارب الملك، يدعى أبا بكر ويلقب بركَما. وكان شديد السواد إلا أنه جليل القدر بذكائه وكثرة إنصافه.

والشيء الذي تتضرر منه هذه المدينة كثيراً هو الأمراض المنتشرة الناتجة عن حالة الأطعمة المتناولة فيها، كالسمك واللبن والزبد واللحم

---

(19) كتبت في الأصل بدون حركة على الباء (كبرة) وشكلت في هامش الترجمة الفرنسية المنقول عنها بفتح الباء (كبرة) وذكر هوداس في ترجمته كتاب تاريخ السودان لعبد الرحمن السعدي (ص 25، هامش 2) أن الشكل الناقص في المخطوط يدل على أن ينطق بها «كبيرة» لا «كبرة» وقد كتب في النص العربي (ص 13) «كابر».

(20) ليست كبرة على النيجر بالذات، لكن ــ كما قيل آنفاً ــ على فرع من هذا النهر. ولا تفصل المدينتين سوى 7 كلم على طريق البر. أما بواسطة القناة التي تمكن من الدخول إلى تنبكتو أيام ارتفاع المياه ــ أي من منتصف دجنبر إلى منتصف فبراير ــ فالمسافة 17 كلم، وهذا يدل على أن المؤلف ذهب من مدينة إلى أخرى في هذه الحقبة ولعل ذلك كان عام 918/1512-1513.

(21) وهو كبرة كوي المكلف بأمن الميناء والسهر على حمل البضائع من كبرة إلى تنبكتو، إما بواسطة الحمالين أو الحمير في فصل الجفاف، وإما بالزوارق أيام ارتفاع المياه.

المزوج بعضها ببعض. ونصف المواد الغذائية الموجودة بتنبكتو مستورد تقريباً من كبرة(22).

كَاغو وممتلكاتها

كَاغو مدينة عظيمة كسابقتها، أي غير مسورة، بعيدة بنحو أربعمائة ميل عن تنبكتو إلى جهة الجنوب الشرقي. دورها قبيحة على العموم، إلا أن البعض منها جميل جداً حيث يسكن الملك وحاشيته، وسكانها تجار أغنياء يتجولون دائمًا في المنطقة بسلعهم. ويأتي إليها عدد لا يحصى من السود حاملين معهم كمية وافرة من الذهب ليشتروا بها أشياء مستوردة من بلاد البربر وأوربا، لكنهم لا يجدون أبداً ما يكفي منها لانفاق ذهبهم، فيعودون دائمًا إلى بلادهم بنصفه أو ثلثه. والمدينة متحضرة جداً بالنسبة لتنبكتو. الخبز واللحم فيها كثيران جداً، لكن الخمر والفواكه منعدمان. حقاً إن البطيخ والخيار والقرع الجيد والأرز توجد فيها بكميات ضخمة، وآبار الماء العذب عديدة. وهناك ساحة يباع فيها أيام السوق عدد لا يحصى من الرقيق ذكوراً وإناثاً، تساوي الفتاة بنت خمس عشرة سنة نحو ستة مثاقيل، وكذلك الفتى تقريباً؛ ولا يساوي الأطفال الصغار إلا نصف هذا الثمن بالتقريب، وكذلك العبيد المسنون. وللملك قصر خاص معد لعدد عظيم من النساء والجواري والعبيد، والخصيان المكلفين بحراسة هؤلاء النساء. وله أيضاً حرس كثير مؤلف من الفرسان والراجلين المسلّحين بالقسي. وبين الباب العام والباب الخاص ساحة كبيرة مسورة، في كل جانب من جوانبها رواق مخصص للاستقبالات. ورغم أن الملك يفصل بنفسه في جميع قضاياه فإن له عدداً من المساعدين الموظفين، كالكتاب والمستشارين والقواد والأمناء.

(22) ليست المواد الغذائية في الواقع أردأ من غيرها، لكن هواء كبرة رديء من أجل الحمى التي تسببها كثرة البعوض.

إن موارد المملكة عظيمة لكن مصارفها أعظم، فالحصان الذي يساوي عشرة مثاقيل بأوربا يباع هناك بأربعين إلى خمسين مثقالاً، وأبسط قماش أوربا يباع بأربعة مثاقيل للكنة[23] والقماش الرفيع مثل «المنتشينو» و «المينمو» يباع بخمسة عشر مثقالا، أما القماش البندقي الرفيع كالقرمزي والبنفسجي والأزرق فيصل إلى ثلاثين مثقالاً. وأقبح سيف أوربي لا يزيد ثمنه على ثلث مثقال، يساوي هناك أربعة مثاقيل أو ثلاثة على الأقل، وكذلك المهاميز والأعنة، وجميع أدوات الخياطة والعطارة باهظة الأثمنة، تساوي «دسيمة»[24] الملح مثقالاً محلياً.

ويتكون باقي المملكة من مداشر وقرى يعيش فيها الفلاحون والرعاة، مرتدين جلود النعام في الشتاء. أما في الصيف فيمشون عراة حفاة، غير أنهم يسترون عوراتهم بمئزر صغير، وينتعلون أحياناً بنعال جلد البعير.

يعيش هؤلاء القوم في جهالة جهلاء، حتى لا تكاد تعثر في مسافة مائة ميل على واحد منهم يعرف القراءة والكتابة، لكن الملك يعاملهم بما يستحقون، فلا يترك لهم إلا ما يسدون به رمقهم لكثرة ما يثقل به كاهلهم من الضرائب.

مملكة كُوبَرْ

تقع هذه المملكة على بعد نحو ثلاثمائة ميل شرق مملكة كَاغو[25]، ويقطع المار بين هاتين المملكتين مفازة لا يوجد فيه إلا القليل من الماء لبعدها عن النيجر بنحو أربعين ميلاً. وتوجد هذه المملكة بين جبال

---

(23) الكنة مقياس إيطالي قدره نحو ميترين.

(24) «الدسيمة»: مكيال ايطالي قدره عشرة أرطال.

(25) الواقع أن كَوبر الذي يشكل إقليمًا بحد نيجيريا الانجليزية (سابقاً) يوجد على بعد 1000 كلم جنوب شرق كَاغو.

شاهقة[26] تضم عدداً كبيراً من قرى يسكنها رعاة الغنم والبقر، لأن فيها كمية وافرة من هذه الأنعام لكنها قصيرة القامة. والناس متحضرون جداً على العموم، فيهم عدد كبير من نسّاجي القماش، ولا سيما الإسكافين الذين يصنعون أحذية كالتي كان ينتعلها الرومان في القديم؛ وتصدر هذه الأحذية إلى تنبكتو وكَاغو. ويكثر فيها العسل والأرز، ونوع من الحب لم أره قط في إيطاليا، وأظن أنه موجود باسبانيا. وعندما يفيض النيجر يغمر جميع السهول ويحيط بهذه الأماكن المسكونة، فيزرعون حسب عادتهم الحب على الماء[27]. ومن بين هذه الأماكن قرية عظيمة تضم ستة آلاف كانون، ويسكنها التجار الكَوبريون أو الأجانب، كانت من قبلُ دار مُقام الملك وحاشيته، ذلك الملك الذي أسره وقتله في أيامنا هذه أسكيا تنبكتو[28]، كما أنه خصى أحفاده وجعلهم خدَمة في قصره. فاستولى على هذه المملكة وعين والياً عليها من قبله وأثقل كاهل السكان بالضرائب، وكانوا قديماً يحققون أرباحاً تجارية طائلة، فأصبحوا الآن فقراء، ونقص عددهم أكثر من النصف؛ لأن أسكيا أخذ من البلاد عدداً كثيراً من الناس، احتفظ ببعضهم أسرى واستخدم البعض الآخر كعبيد له.

أَغَدَسْ ومملكتها

أغدس مدينة مسورة بناها الملوك المحدثون في تخوم ليبيا. وهي مدينة السود التي تكاد تكون أبهى من مدن البيض باستثناء ولاتة. دورها متقنة البناء جداً على نمط دور بلاد البربر، لأن جميع سكانها تقريباً من التجار

---

(26) ليست في الواقع سوى كتل جبلية صغيرة ناتئة هنا وهناك لا يتعدى علوها 100 متر.

(27) لا يتعلق الأمر بالنيجر البعيد بمآت الكيلومترات، وإنما المراد أحد روافده.

(28) يقصد أسكيا الحاج محمد الذي غزا عام 1513/919 كشن = كاتسيا (من بلاد الحوصا في نيجريا الشمالية الآن)، ويمكن أن تكون هذه الحملة العسكرية وصلت إلى كَوبر وأطاحت بأميرها: انظر: **تاريخ السودان**، ص 68 من النص العربي، وص 129 من الترجمة الفرنسية.

الأجانب. وأهل البلاد فيها قليلون جداً، يعملون صناعاً أو جنوداً للملك المدينة. ولكل تاجر عدد كبير من العبيد يخدمونه كحراس له في الطريق المؤدية من كانو إلى بورنو التي تعيث فيها فساداً قبائل لا تحصى ضاربة في الصحراء. وهم قوم يشبهون أفقر البوهيميين ويهاجمون التجار على الدوام ويفتكون بهم، لذلك يأخذ التجار معهم عبيداً مسلحين كما يجب بالرماح والسيوف والقسي، وبدؤا اليوم يستعملون الأسلحة النارية(28م) وبذلك لا يتمكن هؤلاء اللصوص من عمل أي شيء ضدهم. وبمجرد ما يصل تاجر إلى المدينة يستعمل هؤلاء العبيد في مختلف الأشغال ليكسبوا معاشهم، ويحتفظ بعشرة أو اثني عشر منهم لخدمته الخاصة وحراسة بضائعه.

ينفق ملك أغدس على حرس مهم، ويعيش في قصر بوسط المدينة، لكن جيشه مؤلف من البدويين والصحراويين، لكونه في الحقيقة من هذه الشعوب الليبية، وقد يخلعه هؤلاء أحياناً ويعوضونه بأحد أقربائه، إلا أنهم لا يقتلونه. ويعين ملكاً لأغدس من يرضي أهل الصحراء أكثر من غيره.

وفي باقي المملكة، أي سائر المنطقة الجنوبية، يقبل الناس على تربية الماعز والبقر، ويعيشون في أكواخ من أغصان الأشجار ومن حصر يحملونها على الثيران عند ارتحالهم لينصبوها في مراعي ماشيتهم كما يفعل الأعراب. ويحصل الملك على مورد هام من الإتاوات التي تؤدى على البضائع الأجنبية ومنتجات البلاد، لكنه يؤدي نحو مائة وخمسين ألف مثقال كخراج لملك تنبكتو(29).

(28 م) هذه أول إشارة إلى استعمال الأسلحة النارية بهذه المنطقة.

(29) في الترجمة الفرنسية المنقول عنها تعليق مطول هنا حول خضوع أغدس لأسكيا ملك كاغو، واختلاف مترجمين فرنسيين في نقل أعلام جغرافية مكتوبة بالعربية في كتب تاريخ السودان للسعيد وكعتي وغيرهما لم نر فائدة في نقله أو تلخيصه، وإنما نحيل فقط على المصادر العربية المطبوعة، مثل تاريخ السودان لعبد الرحمان السعدي، ص 75 وعبد القادر زبادية، **مملكة سنغاي**، ص 38.

ڭَانُو

ڭانو إقليم كبير على بعد نحو خمسمائة ميل شرقي النيجر، يضم عدة شعوب يسكنون القرى ويعيشون من تربية الغنم والبقر أو من فلاحة الأراضي التي تنبت كثيراً من الحب والأرز والقطن. وفيه جبال خالية من السكان مكسوة بالغابات مليئة بالعيون. وفي هذه الغابات كثير من شجر البرتقال والليمون البري، ينتج فواكه لا يختلف مذاقها عن مذاق الشجر المغروس.

وفي وسط الاقليم مدينة استمد الاقليم منها اسمه، يحدق بها سور مبني بالركائز والطين، والدور مبنية بنفس المواد. والسكان صناع متحضرون وتجار أغنياء. كان ملكهم في القديم ذا شوكة قوية له حاشية هامة وعدة فرسان، بحيث إنه أخضع لسلطته ملك زكْزكْ وملك كاتسينا، إلّا أنّ أسكيا ملك تنبكتو تظاهر بإنجاد هذين الملكين وأمر بقتلهما غيلة واستولى على مملكتهما. ثم بعد ثلاث سنوات أعلن الحرب على ملك ڭانو وأرغمه بعد حصار طويل على أن يتزوج إحدى بناته ويؤدي له ثلث مورده كل سنة، ويترك في المملكة عدداً من الأمناء والجباة لاستيفاء حقه من الضرائب.

كاتسينا ومملكتها

كاتسينا مملكة مجاورة للسابقة من جهة الشرق مشتملة على عدة جبال[30]، وأراضيها وعرة لكنها جيدة للشعير والدخن. والسكان شديدو سواد البشرة، أنوفهم كبيرة شنيعة، وشفاههم غليظة. وجميع الأماكن المسكونة في هذه البلاد قرى من أخصاص قبيحة المنظر، لا يتعدى سكان أيّ واحد منها ثلاثمائة كانون، وهنا يجتمع الفقر والدناءة. وكان لهؤلاء

(30) ليست في الواقع سوى تلال صخرية قليلة الا رتفاع.

القوم في القديم ملك يحكمهم، لكن أسكيا قتله وأفنى نصف الشعب وتمكن من المملكة كما قلناه آنفاً.

زَكْزَكْ ومملكتها

هذه بلاد تتاخم كانو من جهة الجنوب الشرقي، لكنها تقع على بعد نحو خمسين ميلاً من كاتسينا. سكانها أغنياء يتعاطون التجارة في المنطقة كلها. قسم من هذا الاقليم شديد الحر، والقسم الآخر شديد البرد إلى حد أن السكان لا يطيقون تحمل الشتاء. فيتخذون في أرض أكواخهم مواقد كبيرة يوقدون فيها كثيراً من الجمر يضعونها تحت أسرتهم المرتفعة فينامون عليها. ومع ذلك فإن الأرض تنتج الثمار، وتكثر فيها المياه والحبوب. وتشبه الدور والقرى مثيلاتها المذكورة آنفاً. وكان في هذه البلاد ملك مستقل إلا أن أسكا قتله واستولى على ملكه هو الآخر.

زَنْفَــرَى

هذه ناحية متاخمة لسابقتها من جهة الشرق، تسكنها عدة شعوب حقيرة بدائية، ويكثر في البلاد الحب والأرز والدخن والقطن. وأهل زنفرى طوال القامة لكنهم سود البشرة لدرجة لا توصف، وجوههم وحشية طويلة، وهم إلى البهائم أقرب منهم إلى الإنسان، وقد سمَّ أسكيا ملكهم، وأباد قسمًا منهم[31].

مملكة وانْكُرَة

وانكرة إقليم متاخم للإقليم السابق من جهة الجنوب الشرقي[32]، يسكنه شعب كبير يحكمه ملك يستطيع أن يعبىء سبعة آلاف رجل مسلح

(31) توجد في الواقع زنفرا أو زمفرا جنوب كوبر وشمال غرب كاتسينا التي تفصله عن زكزك أكثر جنوباً. والوزان أول من ذكر سكان هذه البلاد المجهولي الأصل.

(32) ليست ونكرى هذه إمبراطورية مالي ــ كما يعتقد بعضهم ــ بل هي دولة نشأت في بلاد الحوصة في القرن السابع الهجري /13م، وقد ضمتها إليها مملكة كاتسينا النامية.

بالقسي وحوالي خمسمائة فارس من الغرباء، ويستخرج مورداً كبيراً من رسوم السلع والضرائب التجارية. وجميع الأماكن المسكونة قرى من أخصاص، باستثناء واحد هو أكبر وأجمل من الأخرى. والسكان أغنياء جداً لأنهم يذهبون بسلعهم إلى البلدان النائية، ويجاورون من الجنوب البلاد التي يوجد فيها الذهب بكمية وافرة. أما الآن فلا يستطيعون القيام بتجارة خارجية لوجود عدوين قويين شرسين، هما أسكيا في الغرب، وملك بورنو في الشرق. ولما كنت في بورنو حشد ملكها ابراهيم جيشه كله لمهاجمة ملك وانكَّرة، لكنه لما اقترب من هذه المملكة علم أن عمر أمير گاوگا يستعد للزحف على بورنو، فعدل حيناً عن مشروعه وقفل راجعاً إلى مملكته. وكان ذلك من حسن حظ ملك ونگَّرى. ويضطر تجار ونگَرى عندما يتوجهون إلى بلاد الذهب إلى اجتياز جبال عالية وعرة لا تستطيع الدواب أن تمر بها. فيتخذون الطريقة الآتية، وهي أن يحمل الخدم على رؤوسهم البضائع وما يحتاجون إليه في قشور قرع عريضة عميقة، ويستطيع كل خادم أن يقطع عشرة أميال وأكثر حاملاً على رأسه مائة رطل. ورأيت منهم من يقطع هذه المسافة مرتين في نفس اليوم، ولم يبق على رأسهم شعر بسبب الوزن الثقيل الذي تعودوا على حمله، وينقلون زيادة على البضائع المؤن لسادتهم ولجميع العبيد المسلحين لحراسة التجار.

بورنُو ومملكته

بورنو[33] إقليم كبير يتاخم وانگُرَة غرباً، ويمتد شرقاً على مسافة نحو خمسمائة ميل، ويبعد بنحو مائة وخمسين ميلاً عن منبع النيجر[34]، كما يتاخم جنوباً صحراء سات[35] وشمالاً الفلوات المقابلة لبرقة. ولهذا

---

(33) هو إقليم لنيجريا الشمالية الحالية.

(34) ذكر المؤلف في القسم الأول أن النيجر ينبع في قفرسا ومن بحيرة كبيرة، أي من التشاد.

(35) سبق قلم بل ساو.

الاقليم مواقع متنوعة، فبعض النواحي جبلية، والأخرى مؤلفة من سهول حيث توجد قرى عديدة يسكنها قوم متحضرون وتجار أجانب من السود والبيض. أما الملك فيسكن أعظم هذه القرى مع جنوده.

يسكن الجبل رعاة يرعون الماعز والبقر. ويزرع فيه أيضاً الدخن وبعض الحبوب الأخرى المجهولة عندنا. يسير أهل البلاد عراة في الصيف بمآزر من جلد، ويتدثرون في الشتاء بجلود الغنم، ويفترشونها كذلك. وهم بشر لا ديانة لهم لا نصرانية ولا يهودية ولا إسلامية، بل لا إيمان لهم كالبهائم، يشتركون في النساء والأولاد. وحسب ما سمعته من أحد التجار الذي كان يعيش في هذه البلاد ويفهم لغتهم، ليس لهم أسماء خاصة كما لغيرهم. فإذا كان شخص طويل القامة دُعي بالطويل، وإذا كان قصير القامة دُعي بالقصير، وإذا كان منحرف البصر دُعي بالأحول، وهكذا دواليك حسب الأعراض والخاصيات.

يحكم هذا الاقليم أمير شديد البأس من برداوة الشعب الليبي(36)، له زهاء ثلاثة آلاف فارس وما يشاء من الراجلين، لأن الشعب كله في خدمته، يقوده حيثما شاء، ولا يفرض عليه أي خراج ما عدا عشر ما تنتجه الأرض. ولا مورد لهذا الملك غير ما يحصل عليه من نهب وقتل الأعداء من جيرانه القاطنين فيما وراء قفر ساو، وعددهم لا يحصى. وكانوا قديماً يقطعون هذا القفر مشياً على الأقدام ويجتاحون مملكة بورنو بأسرها، لكن الملك الحالي لهذه البلاد جاء بتجار من بلاد البربر ليأتوه بخيل يستبدلونها بعبيد، يأخذون مقابل كل فرس خمسة عشر أو عشرين عبداً، فكان يشن الغارة على العدو بهذه الخيل، ويترك التجار ينتظرون إلى عودته. وربما مكثوا في انتظاره شهرين أو ثلاثة أشهر، وهم على نفقة في هذه المدن.

(36) نذكر أن المؤلف يجعل من برداوة بيضاً من نفس جنس التوارق، بينما هم سود من جنس تيد الخاص. تقول الروايات المحلية إن تيدا الآتين من كانم دمروا ساو وضموها إليهم، ثم أنشؤوا كانوري أو برنوان.

وعند عودته يجلب معه أحياناً من العبيد ما يكفي لأداء المبلغ الواجب للتجار، وأحياناً يضطر التجار إلى انتظار السنة الموالية لأن الملك لم يكن له من العبيد ما يفي بالثمن، فهذه الغارة لا يمكن القيام بها دون خطر إلا مرة في السنة.

ولما ذهبت إلى هذه المملكة وجدت فيها عدة تجار مستائين راغبين في ترك هذه التجارة وعدم الرجوع إلى هذه البلاد أبداً، لأنهم كانوا ينتظرون قبض الثمن منذ سنة. ورغم ذلك فإن الملك يتباهى بثروته وبالخزينة العظيمة التي يملكها. وقد رأيت كل ما يجهز به خيله من ركابات ومهامز وأعنة وشكيمات كلها من الذهب، وكذلك القصع والأواني التي يستعملها للأكل والشرب معظمها كذلك من الذهب. والسلاسل، حتى سلاسل كلاب الملك، كلها من الذهب الخالص، ومع ذلك فإن هذا الرجل ــ كما قلنا ــ شديد البخل يفضل دفع الثمن رقيقاً على دفعه ذهبا.

يسيطر على ممالك عديدة، لكن البيض يسمون جميع البلدان التي يحكمها بورنو، وذلك لقلة الخبرة الكافية التي تمكن من معرفة خاصة بهذه البلاد، وذلك ما حدث لي بالأخص، لأنني لم أقضِ في هذا الاقليم أكثر من شهر تقريباً(37).

كَاوْكَا ومملكتها

يتاخم هذا الاقليم بورنو غرباً، ويمتد شرقاً إلى حدود مملكة نوبيا الواقعة على النيل، وينتهي جنوباً بصحراء تتاخم أيضاً منعرجاً للنيل، ويسير

(37) من المحتمل أن يكون البرنويون من بربر غاوة الذين ينسبهم ابن خلدون إلى هوارة، والذين أشار إليهم الإدريسي حول الأير (تينشمان)، ويكونون وفدوا على برنو حوالي القرن الثالث الهجري / 9م، حيث امتزجوا بسودان ساو ونتج عنهم الكانوري. ودامت مملكة برنو إلى عام 1893/1311 حيث سقطت تحت قبضة السلطان رباح.

شمالاً إلى صحراء سرت وتخوم مصر، ثم يمتد من الغرب إلى الشرق على طول نحو خمسمائة ميل، وعلى نفس المسافة عرضاً بالتقريب(38).

لا توجد هناك حضارة ولا معرفة بالآداب ولا حكومة، والسكان أغنياء لا سيما الجبليين منهم، يسيرون حفاة في الصيف ولا يرتدون أي لباس غير شبه سروال من الجلد يستر عورتهم. دورهم أكواخ من أغصان الشجر، كثيراً ما تحترق عند هبوب أدنى ريح خفيفة، ولهم عدد وافر من الغنم والبقر يقومون على تربيتها.

وقد عاش هؤلاء القوم أحراراً مدة طويلة، إلا أن عبداً زنجياً من هذه البلاد سلبهم حريتهم منذ مائة سنة، كان قد جاء به سيده إلى هناك، وهو أحد التجار الأغنياء. فلما وجد العبد نفسه قريباً من منزله قتل سيده بينما كان نائماً مطمئناً، واستولى على أمواله المؤلفة من أحمال عدة جمال وثياب وأسلحة، وعاد إلى بيته وقسم كل ذلك بين أهله وأصدقائه. وبعد أن اشترى بعض الخيل من تجار بيض، أخذ يقوم بشن الغارات على بلد أعدائه، وكان ينتصر عليهم دائماً لأن رجاله كانوا مسلحين بأسلحة حديثة، بينما لم يكن لأعدائه غير قسي رديئة من الخشب. فجمع عبيداً كثيرين استبدلهم بخيل مجلوبة من مصر، وتضاعف عدد جنوده. فأطاعوه جميعاً وعدوه رئيساً وأميراً لهم.

وخلفه ابنه بعد موته، ولم يكن أقل منه شجاعة وإقداماً. ثم جاء بعده أحد إخوته المسمى موسى، وخلفه أحد أحفاده المدعو عمر، وهو الأمير الحالي، فوسع كثيراً رقعة أملاكه، ونال صداقة سلطان القاهرة

(38) هذه الحدود مبالغ فيها، لأن مملكة بولالا المعروفة باسم كَاوكَا تتاخم في الغرب نحو كانم مع مملكة برنو، لكن فيما عدا ذلك لم تكن حدودها معروفة: ففي الشرق حيث انتهت مملكة نوبيا منذ 1504/909 تسربت القبائل العربية حتى دَرْفور، وفي الشمال تقف هذه المملكة عند صحراء يسكنها تيبو، وفي الجنوب تصطدم بمجموعة قبائل بلاد شاري وروافده.

ورعايته بفضل هداياه ومجاملاته، وحصل منه على الأسلحة والأقمشة والخيل التي كان يدفع فيها ضعف ثمنها متظاهراً بالسخاء، حتى جعل تجار مصر لا يقصدون غير بلاطه. ويفد عليه عدد كثير من فقراء القاهرة حاملين بعض الهدايا الجميلة النادرة فيدفع إليهم ضعف ثمنها، وكان لا يخرج من عنده أحد إلا وهو به مغتبط جذلان؛ ويعامل المثقفين، لاسيما آل البيت، بكثير من الاعتبار والإعزاز. وكنت حاضراً عندما وفد عليه رجل من دمياط وأهدى إليه فرساً في غاية الجمال وسيفاً تركيا، وزردا وبندقية، وبعض المرايا الجميلة، وسبحات من المرجان وبعض السكاكين، يقدر ثمنها كلها في القاهرة بخمسين مثقالاً. فأعطاه الملك في مقابل ذلك خمسة عبيد وخمسة جمال وخمسمائة مثقال من سكة البلاد، بالإضافة إلى نحو مائة من أنياب الفيل العظيمة.

النُّوبَة ومملكتها

تتاخم مملكة النوبة[39] المملكة السابقة، أي مفازاتها نحو الغرب. وتمتد على طول النيل متاخمة قفر القرعان[40] جنوباً وأراضي مصر شمالاً.

لا يمكن الذهاب في السفن من النوبة إلى مصر، لأن ماء النيل ينتشر في السهول وهو قليل العمق بحيث يعبره الناس والبهائم خوضاً بالاقدام.

في هذه المملكة مدينة رئيسية تدعى دُمْقُلَة[41]، وهي كثيرة السكان، يبلغ عدد كوانينها قرابة عشرة آلاف. لكن دورها كلها قبيحة

(39) كتب في الأصل الفرنسي «نوبيا» والاسم العربي نوبة كما جاء في معجم البلدان (323:8) وهي مملكة نصرانية جنوب مصر، دمرها العرب في أوائل القرن الثامن الهجري/ 14 م وما تزال في الجنوب مملكة نصرانية أخرى (ألوا).

(40) القرعان هو الاسم الذي أطلقه العرب على دازا من مجموعة تيدا ــ دازا القاطنين حالياً شمال بحيرة تشاد وفي الشمال الشرقي إلى بوركو وإينيدي.

(41) كتبت في الترجمة الفرنسية دنقلة ــ بالنون ــ وأصلها الميم كما في معجم البلدان (323:8).

مبنية بأعمدة طويلة وبالطين. والسكان أغنياء متحضرون، لأنهم يزاولون في القاهرة وسائر مدن مصر تجارة القماش والسلاح وغير ذلك من البضائع المختلفة[42]. وفي باقي المملكة قرى على ضفتي النيل يسكنها الفلاحون. وتكثر الحبوب في بلاد النوبة كلها، وكذلك السكر، إلا أنهم لا يحسنون طبخه فيعود أسود كريهاً. ويكثر في دمقلة قطاط الزباد وخشب سانغو[43]، وكذلك العاج، لأنهم يصطادون كثيراً من الفيلة. ويوجد بها أيضاً كثير من السم الزعاف، حتى إن مقدار حبة واحدة منه إذا اقتسم على عشرة أشخاص قتلهم في ظرف ربع ساعة، وإذا تناول الإنسان حبة واحدة مات بعدما ينطق بالشهادة. ويساوي هذا السم مائة مثقال للأوقية، ولا يباع للأجانب إلا بالضامن، وحتى باليمين أنهم لن يستعملوه في النوبة. ويؤدي المشتري إلى الملك مبلغاً يعادل ثمن السم، لذلك لا يستطيع أحد بيعه سراً خشية عقوبة الإعدام. وملك النوبة في حرب دائمة، تارة ضد القرعان الذين هم من جنس شبيه بجنس البوهيميين الذين يعيشون عيشة ضنكاً في الصحراء ولا يفهم أحد لغتهم، وتارة ضد نوع آخر من قوم يعيشون أيضاً في الصحراء لكن في القسم الشرقي مما وراء النيل. ويمتد القفر حتى البحر الأحمر نحو تخوم السواكن. ويتكلم هؤلاء القوم لغة أظن أنها ممزوجة بالكلدانية وقريبة جداً من اللغة التي يتكلم بها في السواكن وإيثوبيا العليا حيث يُوجد مُقام الراهب يوحنا. وهذا الجنس يُدعى البُجَة، وهم رعاع يرتدون لباساً رديئاً، وفقراء يعيشون من ألبان إبلهم ولحومها، ومن الصيد الوحشي. ويتقاضون أحياناً بعض الإعانات المالية من أمير السواكن أو أمير دمقلة.

(42) يسمي العرب النوبيين بربرا، وهم زنوج، ويمكن أن يكونوا هجناء منذ عصور قديمة.

(43) شبه الأبنوس.

وكان لهم في القديم على البحر الأحمر مدينة عظيمة اسمها زبيد[44] لها ميناء، يقابل مباشرة ميناء جدة[45] الواقعة على بعد أربعين ميلاً[46] من مكة. لكن هؤلاء القوم منذ مائة سنة مضت نهبوا قافلة كانت تحمل سلعاً ومؤناً لمكة، فاغتاظ ملك مصر وبعث في البحر الأحمر أسطولاً استولى على مدينة زبيد ومينائها ودمرهما[47]. وكانت المدينة وميناؤ ها تعطيانه دخلاً قدره مائتا ألف (دينار) أشرفي. ففر البُجَة والتجأوا إلى دمقلة والسواكن حيث حصلوا على بعض معاشهم؛ إلا أن ملك السواكن بعد ذلك هزمهم هزيمة شنعاء، بمعونة أتراك مسلحين بالبنادق والقسي، بحيث إنه قتل من هؤلاء الرعاع الذين كانوا يعيشون عراة أكثر من أربعة آلاف في معركة واحدة. وسيق ألف منهم إلى السواكن حيث قتلهم النساء والأطفال.

هذا كل ما استطعت أن أكتبه ملخصاً عن بلاد السودان، ولا يمكن إعطاء تفاصيل أكثر عنها، لأن كل واحدة من هذه الممالك الخمس عشرة تشبه الأخرى من حيث طبيعة البلاد والحضارة والعادات وأسلوب العيش، ويحكمها أربعة ملوك. وسأتابع حديثي الآن عن مصر.

(44) زبيد مدينة شهيرة باليمن، ولعل المراد هنا عيذاب التي ذكر ياقوت في معجم البلدان (6 :246) انها بليدة على ضفة بحر القلزم وهي مرسى المراكب التي تقدم من عدن إلى الصعيد.

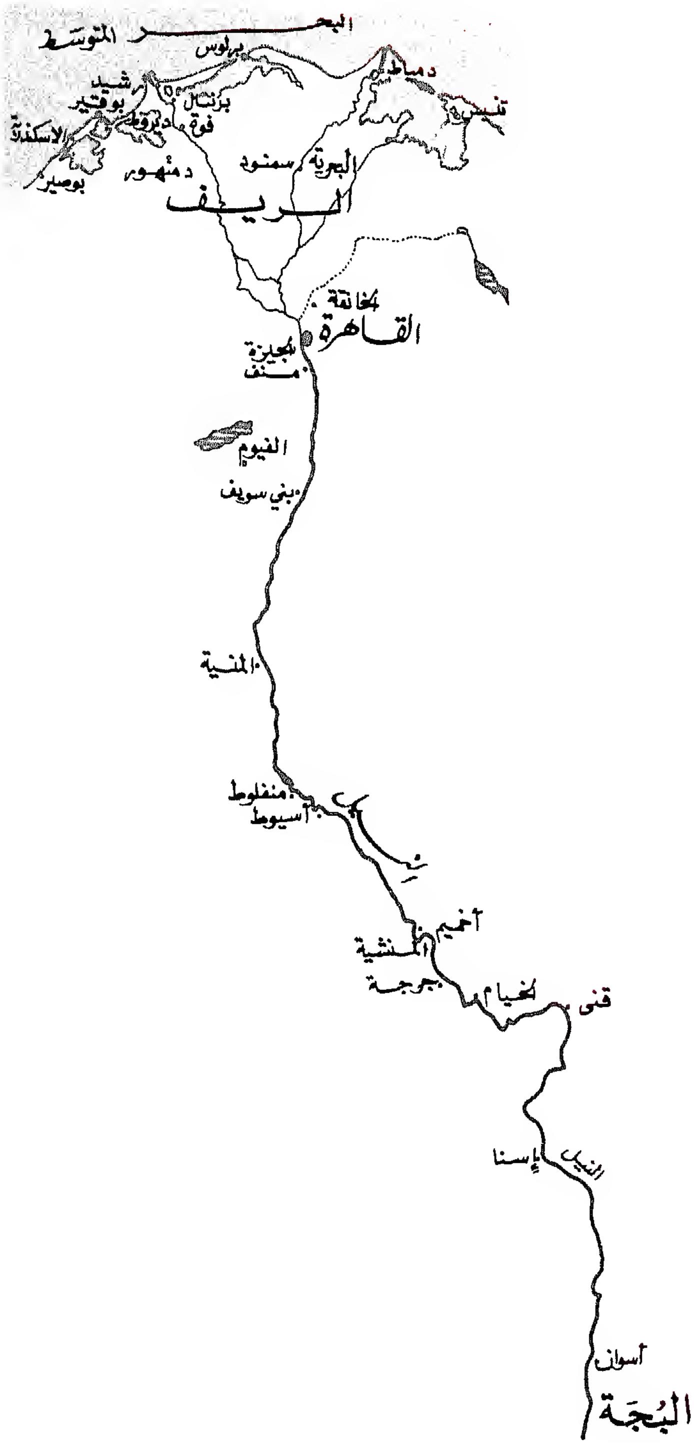
(45) كتب في أصل الترجمة الفرنسية «زيدن».

(46) بل 55 ميلاً.

(47) لم يعثر على آثار عيذاب، فبقي موقع المدينة غير واضح.

القسم الثامن

مصـــر


البحر المتوسط
برلس
دمياط
تنيس
رشيد
بوقير
الاسكندرية
برنبال
فوة
بوصير
دمنهور
سمنود
البحرية
الريف
الخانقة
القاهرة
الجيزة
منف
الفيوم
بني سويف
المنية
منفلوط
أسيوط
أخميم
المنشية
جرجة
الخيام
قنى
إسنا
النيل
أسوان
البجة

مصــــر

إقليم مصر المشهور كثيراً يحدّه غرباً صحاري برقة ونوميديا وليبيا، ويتاخم شرقاً المفازات الواقعة بين النيل والبحر الأحمر، ويصل شمالاً إلى البحر المتوسط، كما يتاخم جنوباً إقليم البُجَة (1) والأماكن التي يحتلّونها على النيل. ويبلغ طوله بين البحر المتوسط وبلاد البجة نحو أربعمائة وخمسين

(1) البُجَة: قوم مساكنهم بين النيل والبحر. تكلم عنهم المؤرخون والجغرافيون العرب القدماء، كالمسعودي في **مروج الذهب**، والإصطخري في **المسالك والممالك**، وابن حوقل في **صورة الأرض** وغيرهم. وتحدث عنهم عن مشاهدة أحمد بن أبي يعقوب ابن واضح الأخباري في كتابه **تاريخ اليعقوبي**، (ج: 1، ص 217-218) فذكرهم ضمن ممالك الحبشة والسودان، وقال إن للبجة عدة ممالك ذكر منها ستًّا، أولها من حد أسوان إلى حد بركات، وهم الجنس الذي يقال لهم نقيس، وحاضرتهم تدعى هجر، ولهم قبائل وبطون كما هو الشأن عند العرب ـ وذكرها ـ، وقال إن في بلادهم معادن التبر والجوهر والزمرّد، وهم مسالمون للمسلمين، والمسلمون يعملون في بلادهم في المعادن.
ملاحظة: أمدّني الزميل الدكتور عبد العال الشامي استاذ الجغرافيا بكلية الآداب بجامعة الكويت ـ جزاه الله خيراً ـ بمجموعة من الملاحظات والمراجع المتعلقة بجغرافية مصر، لاسيما ملحق رسالته في الماجستر عن **مصر عند الجغرافيين العرب فيما بين القرنين الثالث والتاسع للهجرة**، ومصوّر ملحق كتاب **التيسير والاعتبار والتحرير والاختبار** لمحمد الأسدي بتحقيق الدكتور عبد القادر طليمات، وذلك على أثر لقائنا في المؤتمر الجغرافي الإسلامي الأول بالرياض، في صفر 1399/ يناير 1979، وأنا يومئذ مشتغل بتنقيح الجزء الثاني من **وصف افريقيا** الذي أتممت مع الدكتور محمد الأخضر آنذاك ترجمته عن الفرنسية، وقدّمنا الجزء الأول للمطبعة. وقد تفضّل الدكتور عبد =

ميلاً، ويكاد عرضه يكون منعدماً، لأنه لا يشكّل سوى القليل من الأراضي المزروعة الموجودة على ضفاف النيل الجاري بين جبال يابسة محاذية للصحاري المذكورة. ولمصر في الحقيقة بعض العرض قرب البحر المتوسط، لأن النيل ينقسم إلى فرعين على بعد ثمانين ميلاً في عالية القاهرة: أحدهما، وهو الغربي، يلتحق أخيراً بالفرع الرئيسي الذي يتولّد عنه[2]. وينقسم النيل مرة أخرى على بعد نحو 60 ميلاً[3] عن سافلة القاهرة إلى فرعين، أحدهما يسير إلى رشيد والآخر إلى دمياط. وينفصل عن نيل دمياط فرع جديد يتحوّل إلى بحيرة[4]، إلا أنه يبقى مضيق يصل البحيرة بالبحر، وتقع عليه مدينة تِنّيس الأزلية[5]. وإذا كانت مصر يزداد عرضها، فلأن النيل يتفرّع بهذه الكيفية كما ذكرنا. وإقليم مصر كله عبارة عن سهل خصيب بالحبوب والخضر، فيه مراع ممتازة للمواشي، وكمية لا تحصى من الدجاج والأوز.

يكاد يكون جميع سكان هذه البلاد سُمراً، إلا المدنيين فإن بشرتهم بيضاء، يرتدون لباساً حسناً ضيقاً مخيطاً عند الصدر مفتوحاً من هناك إلى الأرجل مع أكمام ضيّقة أيضاً. ويضعون على رؤوسهم عمامة كبيرة

= العال ــ مشكوراً ــ بالإجابة شفوياً عن بعض المشاكل التي طرحتها عليه، ثم بعث إليّ بهذه المجموعة من الوثائق التي أفدت منها كثيراً في مراجعة القسم المتعلّق بمصر من هذا الكتاب.

(2) ليس للنيل في الحقيقة فرعان، لكن ينفصل عنه على بعد 193 ميلاً عالية القاهرة ــ لا 80 ميلاً ــ فرع ملتو مواز شيئاً ما للنهر، وهو بحر يوسف الذي كان قديماً يلتحق بأحد فرعي دلتا النيل في سافلة القاهرة الذي يسقي فرع منه الفيوم.

(3) سبق قلم عوض 16 ميلا.

(4) هي بحيرة المنزلة.

(5) تنيس ــ بكسر التاء والنون المشددة ــ مدينة في بحيرة المنزلة بالنيل (جزيرة في بحر مصر ــ بتعبير ياقوت) ذكر أخبارها مفصّلة ياقوت في **معجم البلدان**، ج: 2، ص 419 وما بعدها.

ملفوفة على قلنسوة من نسيج الصوف والوبر، وفي أرجلهم شبه نعال على الشكل العتيق. وينتعل القليل منهم أحذية مثنى جانب منها تحت القدم. ولباسهم في الصيف ثوب من القطن مخطّط بالألوان، وفي الشتاء يحشى الثوب بالقطن ويسمّى الهبر. أما الشخصيات المهمة والتجّار فيرتدون ملابس أوربية.

المصريون فضلاء ظرفاء، وأكثر من ذلك أسخياء. يستعملون في غذائهم كثيراً من اللبن والجبن الطري، لكنهم يستهلكون أيضاً كثيراً من اللبن الحامض أو من اللبن الذي يخثّرونه بوسائلهم الخاصة. ويملّحون جبنهم كثيراً فلا يستسيغ الغريب الذي لم يتعوّد ذلك ما يستلذّونه من طعام. ويضعون اللبن الحامض في كل أنواع الحساء عندهم تقريباً.

أقسام إقليم مصر

قسمت مصر إلى ثلاثة أقسام في عهدنا هذا، أي منذ أن أخذ المسلمون يسيطرون على هذا الإقليم، فما بين القـاهرة ورشيـد يسمّى الريف، أي الساحل، ومن عالية القاهرة إلى تخوم البُجَة يسمّى الصعيد، أي الأرض، والجزء الواقع على فرعي النيل الذاهب إلى دمياط وتنيس يدعى البحيرة نسبة للبحر.

وهذه الأقسام الثلاثة غزيرة الإنتاج خصبة جداً. لكن الصعيد ينتج على الخصوص الحبوب والخضر والمواشي والطيور والكتّان، بينما ينتج الريف الفواكه والأرز، والبحرية القطن والسكر وبعض الفواكه المسمّاة بالموز ــ موزى بالإيطالية ــ. وسكان الريف ومصر البحرية أكثر تحضّراً من سكان الصعيد، لأن هاتين الناحيتين أقرب إلى البحر ويختلف إليهما الأجانب القادمون من بلاد البربر وأوربـا والشام. أما سكان الصعيد الذين يعيشون داخل الأراضي فلا يرون الغرباء أبداً لـوجودهم وراء القاهرة، والغرباء ــ ما عدا بعض الأثيوبيين ــ لا يذهبون إلى تلك البلاد.

أصل المصريين ونَسَبهم

يرجع أصل المصريـين، كما كتبـه موسى[6]، إلى مصـرائيم بن

(6) يشير إلى ما كان يعتقده اليهود من كتابة موسى لأسفار التوراة.

كوش بن حام بن نوح(7). وأطلق العبرانيون على الناحية وسكانها نفس الاسم وهو مصرائيم(8)، ويسمّي العرب أيضاً جميع الناحية مصر، لكنهم يدعون السكان أقباطاً، ويقولون إن قبطاً أول من استولى على البلاد وبنى فيها دُوراً. وأهل البلاد أنفسهم يدعو بعضهم بعضاً بهذا الاسم. لكن لم يبق من هؤلاء المصريين الحقيقيين إلا من يوجد فيها حالياً من المسيحيين، واعتنق سائرهم الإسلام وانتسبوا إلى العرب والأفارقة.

دامت مملكة مصر خاضعة للمصريين مدة طويلة، وهم الفراعنة الذين كانوا ملوكاً أقوياء عظماء، كما تشهد بذلك آثار المباني الأنيقة العجيبة. وما زال التاريخ يتحدّث عنهم وعن البطالسة.

ثم سقطت مملكة مصر في يد الرومان اثر زواج.... (9) التي كانت ملكة وقتذاك مع قائد روماني كبير، كما يذكره التاريخ.

وتنصّر المصريون بعد ظهور المسيح. إلا أن مصر استمرت كجزء من الامبراطورية الرومانية. ولما انحلّت هذه الامبراطورية تحوّلت مصر إلى امبراطورية القسطنطينية، واهتمّ الأباطرة كثيراً بالمحافظة على هذه المملكة.

وأخيراً بعد ظهور محمد ـ عليه السلام ـ غزا المسلمون مملكة مصر وفتحها عمرو بن العاص قائد جيش عربي باسم الخليفة الثاني عمر، فترك للسكان حرية الديانة ولم يفرض عليهم غير الخراج.

وبنى عمرو بن العاص على ضفة النيل مدينة صغيرة يسمّيها العرب الفسطاط، ويعني في لغتهم الخيام، لأن عمراً عندما قام بحملته وجد المكان خالياً تماماً من السكان، مهملاً، فاضطر الجيش إلى الإقامة تحت

---

(7) في سفر التكوين، الفقرة 6، أن مصرائيم هو ابن حام وأخو كوش. وقد كتبت في الترجمة الفرنسية المنقول عنها بالنون مصرائين.

(8) كانت عبارة مصري في الواقع تسمية بابلية.

(9) هنا بياض لأن المؤلف لم يتذكر اسم كليوباترا.

الخيام، ويدعو الشعب هذه المدينة مصر العتيقة ــ أي القديمة ــ وذلك بالنسبة للقاهرة التي هي مدينة جديدة ــ إن صحّ التعبير ــ.

ويتوهّم كثير من المفكّرين النابهين اليوم، سواء منهم المسلمون والمسيحيون واليهود، أن مصر كانت المدينة التي يسكنها فرعون موسى وفرعون يوسف، والحقيقة أن عاصمة فرعون كانت في الجزء الافريقي من مصر، أي على ذراع النيل المار غرباً[10] حيث توجد الأهرام. ويشهد ذلك الكتاب المقدّس ــ إن صحّ التعبير ــ في سفر التكوين عندما يذكر أن اليهود استُخدموا في بناء أبتون، وهي مدينة شيّدها الفراعنة في عهد موسى، وهي أيضاً على الضفة الافريقية على بعد نحو خمسين ميلاً جنوب القاهرة، على ذراع النيل المذكور الواقع غرب الفرع الرئيسي للنهر[11]. وهناك حجة أخرى على أن مدينة فرعون كانت في الموقع الذي ذكرته، هو أنه يوجد في مفترق فرعي النيل[12] بناء عريق في القِدَم يسمّى قبر يوسف، وبه دُفن قبل أن ينقل اليهود جثته إلى مقبرة أسلافه[13]، فلا علاقة إذن بين القاهرة والأماكن المجاورة لها، وبين مدن الفراعنة القدماء.

---

(10) هو بحر يوسف

(11) جاء في سفر الخروج (1 :11) ــ لا في سفر التكوين ــ أن بني اسرائيل شيّدوا مدينتي بيتوم ورمسيس لاستعمالها كخزانين لفرعون، ولم تكن بيتوم واقعة على بحر يوسف، بل عرفت بتل الرتابة في وادي الاسماعيلية. فظنّ الكاتب أنها مدينة الفيوم البعيدة على الأقل بـ60 ميلاً من القاهرة ــ لا بـ50 ميلاً ــ بأقصر طريق.

(12) بل لبحر يوسف.

(13) من المحتمل أن يكون المقصود أثر مدفن فرعون أمنيميس الثالث القريبة من هرم الهوارة، على بعد نحو 6 كلم جنوب شرق مدينة الفيوم، وليس هذا إلا معبد التيه الشهير.

ومعلوم أن النبلاء عند قدماء المصريين كانوا يسكنون الصعيد في عالية القاهرة في المدن المسمّاة الفَيُّوم ومَنْف[14] وإخْمِيم [15] وغيرها من المدن الشهيرة. لكن بعد احتلال الرومان لمملكة مصر، تجمع أعيان البلاد كلهم في الريف على الساحل، حيث الاسكندرية ورشيد. ويوجد فيه حتى اليوم عدة أماكن تحمل أسماء لاتينية. ولما انتقلت الامبراطورية من روما إلى اليونان تراجع هؤلاء النبلاء شيئاً فشيئاً إلى مصر البحرية، واتخذ نائب الامبراطور من الاسكندرية دار مقام له.

وعندما قدِمت جيوش المسلمين إلى مصر أقامت تقريباً في وسط المملكة للوصول إلى هدفين اثنين: إخماد الفتن في جزئي المملكة، والتحرّز من المسيحيين الذين كانوا يخشونهم كثيراً لو مكثوا في مصر البحرية.

خاصّيات مناخ مصر وتغيّراته

الهواء مضرّ جداً شديد الحر، والسماء لا تمطر في هذا القطر إلا نادراً، وتسبّب الأمطار عدة أمراض: فمن الناس من يصابون بالحمّى والنزلة، ومنهم من تنتفخ خصيهم بكيفية مشوّهة يعجب منها الناظرون، ويعزو الأطباء ذلك إلى استهلاك الجبن المالح ولحم الجاموس.

وفي الصيف تلتهب البلاد بسبب الحرارة المفرطة. وتفادياً لذلك يبنون في جميع المدن مدخنات عالية لها فتحة في أعلاها وأخرى في أسفلها تناسب حجرات المنازل، فتدخل الريح من أعلى وتخرج من أسفل حاملة معها بعض البرودة. ولولا ذلك لما أمكن العيش لشدة الحر الذي

(14) هي منفيس القديمة عند الإغريق، ومنفي عند الأقباط، على بعد 25 كلم جنوبي القاهرة، وقد عفت آثارها العظيمة إلا القليل، بين قريتي بدرشين وسقارة على ضفة النيل اليسرى.

(15) كتب في الأصل اشمين، وهي على الضفة اليمنى للنيل على بعد نحو 520 كلم في عالية القاهرة بطريق النهر.

لا يُحتمل. ويأتي الطاعون أحياناً فيذهب بعدد لا يُحصى من الناس، لاسيما في القاهرة، حيث يموت منه أحياناً اثنا عشر ألف شخص في اليوم. أما داء الإفرنج فلا أظن أنه توجد في العالم بلاد أخرى يجتاحها أكثر من هذه البلاد، فيشاهد في القاهرة عدد كثير من الناس قد أعطبهم أو أتلفهم هذا الداء.

ويكون الحصاد بمصر في أوائل أبريل، والدراس في فترتين: إحداهما في أبريل أيضاً، والثانية في ماي، فلا تبقى أية حبة في البوادي قبل حلول العشرين من ماي.

يبدأ فيضان النيل في منتصف يونيو[16] ولا يدوم سوى أربعين يوماً. ومدة تراجعه أربعون يوماً كذلك[17]. وأثناء هذه الثمانين يوماً تكون جميع مدن مصر وقراها شبيهة بالجزر، لا يمكن الانتقال فيها من مدشر إلى آخر إلا بالزوارق. ويمكن حينئذ بكل سهولة أن يحمّل على الجرمات[18] العظيمة التي يستطيع بعضها حمل ستة آلاف أو سبعة آلاف كيل «مدجي» من الحبوب، بالإضافة إلى بضع مئات من الغنم.

ولا يمكن لهذه الجرمات أن تسير في النهر بمثل هذه الحمولة إلا إبّان فيضان النيل نزولاً مع مجرى المياه، ولا تكاد وهي فارغة تستطيع السير صعداً ضد تيار النهر. ويتوقّع المصريون بالضبط عند فيضان النيل ما يمكن أن يكون عليه ثمن القمح طوال السنة كلها، كما سأشرح ذلك عندما سأتعرّض لجزيرة النيل الواقعة تجاه المدينة القديمة بصدد مقياس النيل.

---

(16) في القاهرة.

(17) يستمر التراجع في الحقيقة إلى فيَضان السنة الموالية، لكن النهر يبدأ في النقصان بعد مدة يتفاوت طولها، والتقريب حوالي 26سبتمبر ــ أي 70 يوماً من ابتداء الفيضان ــ ثم يعود إلى مجراه في شهر نونبر.

(18) الجرمات: زوارق النيل، والواحدة جرمة.

وليس غرضي أن أحدّثكم عن جميع مدن مصر، لأن كتّابنا غير متّفقين عليها فيما بينهم. فلا يقبل بعضهم أن يضم جزء من مصر إلى افريقيا، بينما يرى البعض الآخر خلاف ذلك، ويؤكّد الكثيرون أن الجزء الموالي لصحارى بلاد البربر ونوميديا وليبيا تابع لافريقيا. وترى طائفة أخرى أن جميع الأماكن الواقعة على الفرع الرئيسي للنيل افريقية، وأن غير الواقعة عليه ليست بافريقية، كمَنْف والفَيُّوم وسمنّود، ودمنهور، وبرلس، وتِنيس، ودمياط. وذلك هو أيضاً رأيي لعدة أسباب معقولة، ولذلك فإني لا أذكر سوى المدن الواقعة على الفرع الرئيسي للنهر.

مدينة بوصير

بوصير مدينة عتيقة بناها المصريون على ساحل البحر المتوسط، بعيدة بنحو عشرين ميلاً[19] غرب الاسكندرية. وكانت محاطة بأسوار متينة، وفيها دُور في غاية الجمال. وما زال حولها حتى الآن عدد من مغارس النخيل، لكن لا أحد يعتني بها، لأنه لما احتلّ المسلمون الاسكندرية ونهبوها، ترك السكان مدينتهم وهربوا مسرعين إلى المكان المسمّى بالبحيرة[20].

الاسكندرية، مدينة مصر الكبرى

أسّس مدينة الاسكندرية، كما هو معروف، الاسكندر ذو القرنين، بناها حسب تخطيطات مهندسين مشهورين ماهرين في موقع جميل على رأس داخل في البحر المتوسط، يبعد بأربعين ميلاً عن النيل إلى جهة الغرب.

---

(19) بل 40 ميلاً في الحقيقة على طريق محطة السكة الحديدية الحالية لباهيج وهي آثار تبوزيريس ماكنا.

(20) تسمى الآن بحيرة مريوط، من الاسم اليوناني القديم ماريوتيس. واحتلّ الاسكندرية ملك قبرص بيير الأول في 24 محرم 766/10 أكتوبر 1365.

وكانت الاسكندرية بدون شك أشرف المدن كلها لأهميتها وجمال قصورها ومنازلها، واحتفظت بشهرتها هذه زماناً طويلاً إلى أن سقطت في أيدي المسلمين[21].

ومنذ ذلك الحين أخذت أهمية الاسكندرية تقل على مر السنين، وفقدت شرفها القديم، لأنه لم يعد أي تاجر من اليونان أو أوربا يستطيع أن يتّجر فيها، فكادت تخلو من السكان. إلى أن جاء أحد خلفاء المسلمين الأذكياء، فزعم كذباً أن محمداً ﷺ خصّ في بعض أحاديثه بكثير من الفضائل أهل الاسكندرية، ومن يأتي إليها يوماً للرباط في سبيل الله، أو لبذل الصدقات. فلم يمض غير زمن يسير حتى عمّرها بالسكان وبالغرباء عن البلد وبأقوام من أجناس شتى جاؤوا لتحصيل تلك الفضائل، واتخذوا جميعاً مساكن لهم في أبراج السور، وبنوا مدارس لطلاب الآداب، وزوايا عديدة لمن أتى من النسّاك.

والمدينة مربّعة الشكل، لها أربعة أبواب: أحدها في الشرق جهة النيل، والآخر في الجنوب نحو البحيرة، والثالث في الغرب جهة صحراء برقة، والرابع نحو البحر حيث يوجد الميناء[22]. وفيه كان يقيم الحرس والماكسون الذين يفتشون الناس حتى في سراويلهم، لأن الدنانير نفسها حسب مكس هذه البلاد يؤدّى عنها قدر في المائة كما لو كانت سلعاً. ويوجد قرب الأسوار زيادة على ذلك بابان تصل بينهما محجة، وبرج حصين في مدخل مرسى يسمّى مرسى البرج ترسو فيه أجمل السفن وأهمها، كسفن

---

(21) في 28 شوال عام 21/29سبتمبر 642.

(22) كانت المدينة المسوّرة على شكل مستطيل، وكان باب البحرية شمالاً يفضي إلى المرسى القديم ــ أو المرسى الغربي ــ، وباب رشيد شرقاً في طريق النيل، وفي الجنوب الباب المسمّى عند المصريين باب السدرة وعند الأوربيين الفلفل في طريق بلاد البربر، والباب الرابع وهو أيضاً في الجنوب يؤدّي إلى المقبرة.

البندقية وجنوة وصقلية وغيرها من السفن الأوربيـة [23]. وتأتي عادة إلى الاسكندرية أيضاً سفن فلاندرا وانجلترا وبسكاي والبرتغال وسائر سواحل أوربـا، لكن أكثرها سفن إيطالية، لاسيما سفن اليُّوي وصقلية. وكذلك السفن اليونانية ــ أي التركية ــ التي تقصد كلها هذا المرسى لتحتمي فيه من القراصنة والعواصف. وهناك مرسى آخر يدعى مرسى السلسلة، ترسو فيه السفن الآتية من بلاد البربر وجربة وغيرها من البلدان.

وتوجد داخل المدينة ربوة عالية جداً تشبه ربوة «تستاتشيـو» في روما[24] يُعثر فيها على عدد من الأواني العتيقة، وهي في الواقع كومة مصطنعة[25]، في أعلاها بُريج يقيم فيه باستمرار رقيب يرقب السفن التي تمر، ويتقاضى أجراً عن كل سفينة أعلم بها موظفي المكس. وإذا نام أو ذهب للتفسّح وجاءت سفينة لم يعلم بها مستخدمي المكس حُكم عليه بغرامة تبلغ ضعف أجره وتُسلّم إلى بيت المال.

وجميع دُور الاسكندرية تقريباً مبنية على خزانات ماء محدَودبة مدعمة بأعمدة وأقواس يصل ماء النيل إليها. فعند الفيَضان يأتي الماء بواسطة قناة اصطناعية محفورة في السهل من النيل إلى الاسكندرية، ويدخل ماراً تحت سور المدينة ليصب في الخزانات كما ذكرنا.

وفيما يتعلّق بموارد الاسكندرية، فإن المدينة تقع في وسط مفازة من الرمال، بحيث أنها لا تملك أرضاً زراعية ولا كروماً ولا حدائق. فالقمح

(23) لم يبق للمحجة وأبوابها أثر، أما البرج فقد بناه السلطان سيف الدين قايتباي الأشرف (1468 - 1496) في شبه الجزيرة، حيث كان المنار المشهور الذي دمّره نهائياً زلزال منتصف القرن الثامن الهجري / 14 م.

(24) ربوة مكوّنة من الأنقاض، علوّها 35 متراً قرب نهر التبر جنوب رومة.

(25) كان في الاسكندرية آنذاك كومتان داخل المدينة، وكومة خارجها، تسمّى الداخليتان كومة الديمة ــ أي تحت الأرض (؟) ــ وكومة الديك، وتسمّى الخارجية كـومة الشقف ــ أي الخزف المكسور ــ. ويُفترض وجود الأشياء الأثرية في كومة الديمة.

يجلب إليها من مسافة أربعين ميلاً، ويوجد قرب القناة التي تحمل ماء النيل مزارع صغيرة للخضر، لكن منتجاتها مضرّة على الأصح، لأنه في الوقت الذي يأكلها الناس يصاب معظمهم بالحمّى وغيرها من الأمراض. وعلى بعد نحو ستة أميال غرب المدينة توجد بناءات عريقة في القِدَم، من بينها عمود في غاية الضخامة والارتفاع، يسمّى بالعربية عماد الصواري. وقد سطّر فعلاً في الكتب المتعلقة بعجائب الدنيا أن فيلسوفاً أيام الاسكندر يدعى بطليموس شيّده لتأمين المدينة من العدو[26]، وجعل في أعلاه مرآة كبيرة من الفولاذ، بحيث أن كل سفينة تمر بالقرب منها تحترق حالاً إذا كشفت المرآة. لكن هذه المرآة تلفت أيام دخول المسلمين إلى افريقيا، وتذكر الأسطورة أن سبب إتلافها يهودي فركها بالثوم[27].

ما زال يوجد من بين سكان الاسكندرية عدد كبير من أولائك المسيحيين الذين يُدعَون اليعاقبة. لهم كنيسة خاصة بهم أعيد بناؤ ها عدة مرات وبقيت إلى يومنا هذا. وقد دفن فيها رفات سان مارك الإنجيلي الذي اختطفه غدراً عام 829 م تجار من البندقية وحملوه إلى هذه المدينة. وهؤلاء اليعاقبة كلهم تجار وصنّاع يؤدّون الجزية إلى ملك القاهرة. ولا يفوتنا أن نذكر هنا داراً صغيرة قصيرة كأنها معبد، تقع بين الأنقاض في قلب المدينة وتشتمل على ضريح يقدّسه المسلمون ويعظّمونه، ويوقدون الأنوار حوله صباح مساء، يقال إنه قبر الاسكندر الكبير الذي كان نبيئاً وملكاً حسبما جاء في القرآن المنزل على محمد (عليه السلام)[28]. ويأتي عدد كثير من

(26) يقع هذا العمود في الحقيقة على بعد نصف ميل جنوب غرب باب السدرة. واسمه العربي يمكن أن يدل على صواري السفن أو الأعمدة أي السواري. ويبدو أنه شُيّد عام 392 م على شرف الامبراطور ديوكليسيان. ويدعى بالفرنسية عمود بومبي.

(27) كان ارتفاع عمود الصواري يبلغ 30 متراً، وقد خلط المؤلف في أسطورة المرآة الحارقة بين عمود الصواري ومنار الاسكندرية.

(28) جاء في الترجمة الفرنسية المنقول عنها عبارة «حماقة محمد» ولا نشك في أنها من إضافة رامزيو أو غيره من نقلة هذا الكتاب المتعصبين. ونشير إلى أن القرآن لم يذكر

الأجانب من كل فج عميق ليشهدوا هذا القبر ويتعبدوا فيه ويتركوا صدقات جسيمة.

وأكفّ عن ذكر أشياء أخرى كثيرة ومهمة حتى لا يتضخم حجم الكتاب فيصبح مملاً ومنفراً للقارىء.

أبوقيــــر

أبوقير مدينة صغيرة عتيقة مبنية على ساحل البحر المتوسط، بعيدة بنحو ثمانية أميال[29] شرق الاسكندرية. وهي الآن خربة، وما زال الكثير من آثار أسوارها باقياً، وفي موقعها مزارع نخيل يتغذّى من تمرها مساكين يسكنون أكواخاً منعزلة. ويشاهد برج على ساحل خطير يتحطم فيه عدد من السفن القادمة ليلاً من الشام، لأنها لا تحمل على متنها أحداً يعرف كيفية الدخول إلى مرسى الاسكندرية، فترتمي على الشاطىء بسبب الظلام. ولا يوجد حول هذا المكان سوى سهل رملي حتى النيل.

رشيد التي يسمّيها الإيطاليون روزيطو

رشيد مدينة تقع على النيل في الضفة الأسيوية، بعيدة عن المصب بثلاثة أميال[30]، بناها عبد لأحد الخلفاء كان نائباً عنه بمصر[31]. فيها

الاسكندر وإنما ذكر ذا القرنين، واختلف المفسّرون في حقيقة أمره أهو الاسكندر المقدوني أم غيره من ملوك اليمن؟ والراجح عندهم أنه عبد صالح آتاه الله علمًا كثيراً، وملكاً كبيراً.

(29) في الواقع أكثر من 14 ميلاً.

(30) بل على الضفة اليسرى ــ الضفة الافريقية ــ على نحو 7 كلم. من البحر في ذلك العهد. وقد تضاعفت المسافة بسبب الطمي الذي يجرفه النيل.

(31) رشيد مدينة عتيقة، إلا أنه أعيد بناؤها عام 870/255 في حقبة أحمد بن طولون والي مصر المستقل، وكان أبوه عبداً لأحد الخلفاء.

دُور جميلة وقصور مشيّدة على ضفة النهر، وسوق كبير عامر بالصنّاع والتجّار، بالإضافة إلى مسجد في غاية الجمال، حسن المنظر، تفضي بعض أبوابه إلى السوق، وبعضها الآخر إلى النهر، حيث ينزل إليه بدرج عجيبة. ويوجد الميناء أمام المسجد. ومن عادتهم أن تجتمع فيه بعض الجرمات التي تحمل السلع إلى القاهرة.

إلا أن هذه المدينة غير مسوّرة، وهي أقرب إلى قرية كبيرة منها إلى مدينة. وتحيط بها عدة مصانع يخبط فيها الأرز بأدوات خاصة من خشب. وأظن أنه يُقشّر فيها ويُنقّى في كل شهر أكثر من ثلاثة آلاف كيل «مودجي» من الأرز. وفي خارج المدينة في شبه قرية عدد كثير من البغال والحمير يكتريها من يريد الذهاب إلى الاسكندرية. ومن اكترى واحداً منها، ليس عليه إلا أن يترك الدابة تسلك به أقصر السبل وتحمله إلى المنزل، ثم ليس عليه إلا أن يتركها. وهذه الدواب سريعة إلى حد أنها تقطع أربعين ميلاً فيما بين الصبح والعصر، متبعة دائمًا ساحل البحر، بحيث إن الأمواج تضرب أحياناً حوافرها.

وحول رشيد عدد من بساتين النخل وأراض صالحة لزراعة الأرز. والسكان أليفون ظرفاء مع الأجانب، يقضون معهم وقتاً ممتعاً عن طيب خاطر. وفي المدينة حمام جميل جداً مشتمل على عدد من سقايات الماء البارد والحار، لا يوجد حقاً مثله جمالاً وراحة في مصر كلها. كنت برشيد عندما مرَّ بها عظيم الترك سليم لدى عودته من الإسكندرية[32]. فأبى إلّا أن يرى هو وأقرب الناس إليه هذا الحمام، وأظهر سروراً كبيراً حصل له من ذلك.

مدينة أَنْثِيُوسْ

أنثيوس مدينة بناها الرومان على ضفة النيل الآسيوية. وتشاهد فيها حتى اليوم كتابات لاتينية عديدة على صفائح من المرمر. وهي مدينة

(32) في إحدى الجمادين 923 / يونيه 1517.

متحضرة يسكنها قوم يشتغلون بكل الصناعات، وباديتها غنية جداً بالأرز والقمح. ولها نخيل كثير، يمتاز أهلها بحلمهم وبشاشتهم، ومن عادتهم جميعاً أن يحملوا الأرز إلى القاهرة ويحصلوا على أرباح طائلة.

بَرِنْبَالْ

برنبال مدينة قديمة مشيدة على النيل في الضفة الآسيوية، أسست في العصر الذي تنصر فيه سكان مصر. وهي جميلة جداً يعمها الرخاء لا سيما الأرز. والذين يدرسونه أجانب معظمهم من بلاد البربر، يتقاضون أجراً أكثر من ثمن الأرز، ويعيشون حياة ماجنة، ولذلك تتوافد كل عاهرات مصر تقريباً على برنبال، يجلبهن هؤلاء الدراسون، بحيث إن هؤلاء العمال يكونون منهوكي القوى دائمًا، وتتحول جميع أرباحهم إلى هؤلاء النساء.

مدينة طِيبَة

مدينة أزلية مشيدة على النيل في ضفة بلاد البربر. يختلف المؤرخون فيما يخص مؤسسيها: فيدعي بعضهم أنهم المصريون، ويرى البعض الآخر أنهم الرومان، ويقول غيرهم إنهم الإغريق. وتوجد فيها فعلاً حتى الآن عدة كتابات بالحروف اللاتينية واليونانية والمصرية. ولا تزيد كوانينها اليوم على ثلاثمائة، لكنها مزدانة بدور جميلة. ويكثر فيها القمح والأرز والسكر، وذلك النوع من الفاكهة المسمى بالموز، وهو جيد. وفيها بعض التجار والصناع، لكن معظم السكان فلاحون. وعندما يتجول الإنسان في المدينة نهاراً لا يشاهد إلّا النساء اللواتي لا يقل لطفهن عن جمالهن. ومزارع النخيل كثيفة حول المدينة، بحيث لا يبصرها القادم إلّا عندما يصل إلى قرب الأسوار، وهناك أيضاً عدد كثير من أشجار العنب والتين والخوخ، تُحمل من ثمارها إلى القاهرة كمية عظيمة.

وما زالت باقية خارج المدينة آثار عديدة لبناءات عتيقة، من أعمدة ونقوش وجدران مبنية بالحجر المنحوت الضخم. ونظراً لأهمية أنقاضها يمكن التقدير بأنها كانت حاضرة كبيرة جداً(33).

مدينة فُوَّة

مدينة قديمة بناها المصريون على الضفة الآسيوية للنيل، بعيدة بنحو خمسة وأربعين ميلاً جنوب رشيد. وهي كثيرة السكان، متحضرة ومزدهرة جداً. وللتجار والصناع فيها دكاكين جميلة، لكن أزقة السوق ضيقة. يحب السكان الهناء والحبور، وللنساء الحرية المطلقة بحيث إنهن يقضين النهار حيث طاب لهن، ويعدن مساء إلى منازلهن دون أن يسألهن أزواجهن عن أي شيء.

وفي خارج المدينة حارة ــ أو ربض على الأصح ــ حيث تسكن العاهرات اللائي يشكلن جزءاً هاماً من السكان. ومغارس النخيل حول فوة كثيرة جداً. والتربة صالحة لقصب السكر وللقمح أيضاً، لكن القصب الذي ينبت في هذه الأرض يعطي السكر الجيد. ويستخرج بدلاً منه نوع من العسل يشبه الدبس يستهلك في مصر كلها لعدم وجود العسل فيها.

جزيرة الذَّهَب

تقع هذه الجزيرة مباشرة تجاه فُوة في وسط النيل(34)، وأرضها مرتفعة بحيث توجد فيها جميع أنواع الأشجار المثمرة، ما عدا شجر

(33) لم يكن يعرف في عصر المؤلف موقع مدينة طيبس الشهيرة، لكن هذا الوصف لا ينطبق على أية بلدة في الضفة اليسرى لفرع النيل هذا. أما في الضفة اليمنى التي يسميها المؤلف آسيوية فتقع قرية مطوبي، مطوبيس اللتين يقترب اسمهما من اسم طيبس، والأنقاض العتيقة الوحيدة غير الهامة لسايس على عالية مطوبيس.

(34) إن النيل في الحقيقة ينحرف نحو الغرب قبل وصوله إلى فوة ويفصل نحو الشمال فرعاً صغيراً يحيط في الضفة اليمنى قبل فوة بقطعة من الأرض مكوناً هكذا جزيرة.

الزيتون. وتحتوي على ضيعات عديدة وقصور جميلة[35]، إلّا أنه لا يمكن رؤيتها بسبب كثافة النخيل وغيره من الأشجار. أرضها صالحة لقصب السكر والأرز. ويشتغل جميع السكان في زراعة الأرض أو حمل بضائعهم إلى القاهرة.

المَحَلَّة

المحلة[36] مدينة بناها المسلمون على النيل في الضفة الأسيوية. سورها رديء، وهي عامرة جداً، لكن سكانها في معظمهم نساجون أو زراع، يملكون كمية عظيمة من الإوزّ يبيعونها في القاهرة، والتربة المحيطة بالمدينة صالحة للقمح والكتان، ويقل الأدب والأنس عند أهل المحلة.

مدينة دَيْرُوط

ديروط مدينة عريقة بناها الرومان في الضفة الافريقية للنيل. وهي غير مسورة، وعامرة جداً ومزدانة بالدور الجميلة المتقنة البناء، أرباضها كبيرة مليئة بالدكاكين الجميلة، وفيها أيضاً مسجد جميل. وسكانها أغنياء جداً لأنهم يملكون كثيراً من مزارع قصب السكر، وتدفع الجماعة نحو مائة ألف (دينار) أشرفي سنوياً للسلطان عن صناعة السكر. وفي ديروط مصنع كبير جداً يشبه القصر توجد فيه المعاصر والمراجل لاستخراج السكر وطبخه، ولم أر قط في أي مكان آخر مثل هذا العدد من العمال المستخدمين في هذه الصناعة. وسمعت من أحد موظفي الجماعة أنه ينفق يومياً نحو مائتي (دينار) أشرفي على هؤلاء العمال.

---

(35) كانت قبل بضع سنوات ملكاً شخصياً لأولى زوجات السلطان الغوري.

(36) توجد بمصر مدن عديدة يسمى كل منها المحلة، وقد فصل الكلام فيها ياقوت في **معجم البلدان**، ج 7 : ص 397.

مَحَلَّةُ قَيْس

مدينة حديثة شيدت في العصر الإسلامي على الضفة الافريقية للنيل فوق تل مرتفع. وجميع الأراضي الزراعية عالية بحيث إن المزارع عبارة عن كروم، لأن النيل لا يستطيع أن يدركها عند فيضانه. وتزود هذه المدينة القاهرة بالعنب الطري طوال نصف موسمه. وهذه البلدة متحضرة قليلاً، وجميع سكانها تقريباً ملاحون، لأنهم لا يملكون إلّا القليل من الأراضي الزراعية(37).

* * *

(37) ذكر ياقوت في **معجم البلدان**، ج 7 : ص 196 أن قيسا قرية بمصر في غربي النيل بعد الجيزة، سميت بذلك لأن فتحها كان على يد قيس بن الحارث المرادي.

مدينة القاهرة العظمى العجيبة

من المشهور المؤكد أن القاهرة إحدى كبريات مدن العالم العجيبة، وسأصف لكم بالتفاصيل مظهرها وموقعها، تاركاً جانباً كل الأكاذيب التي تذاع عنها هنا وهناك.

فلنبدأ باسمها. فالقاهرة كلمة عربية لكنها محرفة في اللغات الأوربية، ومعناها: التي تقهر[38]، ومؤسسها في العصور الحديثة عبد من الصقالبة يدعى جوهر الكاتب، كما أظن أنني ذكرته في القسم الأول من هذا الكتاب[39].

والواقع أن المدينة ــ أعني المدينة المسورة ــ تضم نحو ثمانية آلاف كانون. وفيها تسكن الأسر الكريمة، وتتدفق الثروات الواردة من كل جهة، ويوجد المسجد الجامع الشهير المعروف بجامع الأزهر، أي اللاّمع.

تقوم المدينة في سهل عند قدم جبل يسمى المقطم، على بعد نحو

(38) تقول الرواية التقليدية إنه أطلق هذا الاسم على المدينة لأنها بنيت عند طالع كوكب مارس ــ القاهر بالعربية ــ لأن الكوكب مارس كان ماراً عندما شرع في بناء سورها.

(39) بدأ هذا التأسيس حسب المقريزي يوم السبت 23 جمادى الثانية عام 359 هـ / 30 أبريل 970 م.

ميلين من النيل، وتحدق بها أسوار جميلة متينة ذات أبواب بديعة مصفحة بالحديد، أشهرها ثلاثة: واحد يسمى باب النصر في الجهة الشرقية باتجاه الصحراء التي يقطعها الذاهب إلى البحر الأحمر، وآخر يدعى باب زويلة[40] يفضي إلى النيل وإلى المدينة القديمة، وثالث يعرف بباب الفتوح ويؤدي إلى بركة كان يجتمع فيها الحجيج قبل ذهابهم في القافلة، وإلى الممتلكات المزروعة.

وفي المدينة عدد كثير من الصناع والتجار، يقيمون بالأخص في زقاق يمتد من باب النصر إلى باب زويلة. وهناك يوجد معظم نبلاء القاهرة، وعدد من المدارس التي تثير الإعجاب بأبعادها وحسن بنائها وزخرفتها، وكذلك عدد من المساجد المنسجمة البديعة، منها جامع الحاكم ثالث الخلفاء الشيعيين الذين تولوا الحكم بالقاهرة[41]. وهناك أيضاً عدد لا يحصى من المساجد الأخرى المعروفة، لكن لا حاجة إلى ذكرها واحداً واحداً، بالإضافة إلى عدة حمامات مبنية بفن معماري عظيم.

ويضم حي يسمى بين القصرين دكاكين يباع فيها اللحم الناضج، وهي نحو ستين دكاناً، كلها مجهزة بأوان من قصدير، وتباع في أخرى مياه مصنوعة من جميع أنواع الأزهار، مذاقها رفيع جداً، ولذلك يشرب منها جميع النبلاء، ويحفظها الباعة في قوارير جميلة جداً من الزجاج أو القصدير مصنوعة بشكل فني. وتأتي بعدها دكاكين أخرى تباع فيها حلويات معروضة بطريقة مسنة، ومختلفة عما يباع عادة في أوربا، وهي نوعان، نوع بالعسل وآخر بالسكر. ثم يأتي الفاكهانيون الذين يبيعون الفواكه المجلوبة من الشام، كالإجاص والسفرجل والرمان، إلخ... مما لا ينبت

---

(40) سمي باسم جنود جيش جوهر الآتين من زويلة ربض المهدية بتونس.

(41) تولى الحُكمَ الخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله المنصور من عام 386 إلى 1020-996/411. وجامع الحاكم اليوم خراب.

في مصر. وبين هذه الدكاكين دكاكين أخرى مبعثرة تباع فيها الفطائر والبيض المقلي والجبن المقلي. وقرب هذه الدكاكين حي يسكنه الصناع الذين يزاولون مختلف المهن الشريفة. وبعيداً من هناك توجد المدرسة الجديدة التي بناها السلطان الغوري الذي هلك في الحرب ضد سليم امبراطور الترك(42). وبعد هذه المدرسة تأتي فنادق القماش، ويضم كل فندق كمية كبيرة من الدكاكين. تباع في الفندق الأول منسوجات أجنبية من الطراز الأول، كقماش بعلبك الذي هو من القطن المتناهي في الدقة، وقماش الموصل ــ أي نينوى ــ(43) الذي يدهش بدقته وصلابته، ويتخذ منه جميع الشخصيات والأعيان قمصانهم والغطاء والخمار الذي يضعونه على العمامة. ثم تأتي الفنادق التي يباع فيها أجمل قماش ايطاليا، مثل الطلس الدمقسي، والمخمل، و(طفطة) الخَزّ الصقيل، والديباج. وأستطيع أن أؤكد أنني لم أر مثلها في ايطاليا حيث تصنع.

وبعيداً من هناك توجد فنادق الثياب الصوفية المستوردة كذلك من جميع بلاد أوربا، كأجواخ البندقية وميورقة، وأجواخ (المرش) الايطالية. وتباع بعيداً من هناك أيضاً الشملات الخ...(44) ونصل شيئاً فشيئاً إلى باب زويلة لنجد كذلك عدداً لا يحصى من الصناع، وقرب هذا الزقاق فندق يسمى خان الخليلي حيث يقيم التجار الفرس. ويشبه هذا الفندق قصر أمير كبير: فهو مرتفع كثيراً متين البنيان، له ثلاث طبقات، في الطابق الأرضي حجرات يقتبل فيها التجار زبناءهم ويتجرون في السلع الثمينة.

---

(42) كان السلطان الأشرف قانصوه الغوري قد أمر ببناء مدرسة تمت عام 1503/908 وبجانبها قبره الذي تم في السنة الموالية، ويعدّان من أجمل بنايات القاهرة، وقد هلك في 26 رجب 25/922 غشت 1516 في معركة مرج دابق قرب حلب إثر سقوطه عن فرسه ولم يعثر على جثته.

(43) ذلك لأن نينوى قريبة من الموصل.

(44) منسوجات من شعر نوع خاص من الماعز تربى خصوصاً في قونيا بآسيا الصغرى. وكان هذا الشعر ناصع البياض ناعمًا كالخز.

ولا يملك في هذا الفندق مستودعات إلّا التجار الذين لهم موارد عظيمة. وتشتمل سلعهم على التوابل والأحجار الكريمة ومنسوجات الهند كالكريب إلخ . . .

وفي الجانب الآخر من الزقاق الرئيسي حي يقيم فيه بائعو العطور كالزباد والمسك والعنبر وصمغ جاوة. وهذه المواد كثيرة حتى إنه إذا أراد أحد أن يشتري من تاجر أوقية من المسك عرض عليه مائة رطل، وهذا شيء مدهش. وعلى جانب من هذا الزقاق الرئيسي ما يُفضي إلى حي يباع فيه الورق الجميل الصقيل. والتجار الذين يبيعون هذا الورق يبيعون أيضاً الأحجار الكريمة، يحملها دلال من دكان إلى دكان معلناً الثمن للمزاد.

وعلى نفس الزقاق ما يفضي إلى حي الصاغة، وهم يهود تمرُّ بين أيديهم ثروات عظيمة، ويقيم في حي آخر تجار يبيعون بالتقسيط كمية وافرة من المنسوجات الفاخرة التي استلموها من أهل المدينة ومن الأعيان. وليست هذه المنسوجات قباءات ولا سترات ولا خمارات، بل هي قطع عجيبة ذات قيمة فائقة. وقد شاهدت من جملتها هناك زينة خباء أو شبكة صيد سوداء مخيطة بالإبرة، مغطاة كلها بشبكة من الجواهر. قال لي البائع إن الجواهر تزن خمسة وأربعين رطلاً مصرياً، وبيعت الزينة وحدها بدون الجواهر بعشرة آلاف (دينار) أشرفي. ورأيت في هذه الدكاكين عدة أشياء أخرى بأثمان مماثلة.

وفي القاهرة بيمارستان كبير بناه بيبرس أول سلطان من المماليك(45)، له دخل يبلغ مائتي ألف (دينار) أشرفي، وهو مفتوح للجميع، يجد فيه المريض كل التسهيلات والعلاجات الطبية، وجميع

(45) ليس بيبرس، سلطان المماليك الرابع، هو الذي أسس هذا البيمارستان، بل السلطان السابع منهم المنصور سيف الدين قلاوون الذي حكم من عام 677 إلى 1279/690 إلى 1290 . وقد أنهى البناء ولده عام 1293/692 . واضمحل البيمارستان، لكن بقي الجامع والمدرسة تحت اسم جامع ومدرسة قلاوون.

ما يحتاج إليه حتى الشفاء. لكن إذا مات فيه أحد آلت جميع أمواله إلى البيمارستان.

الرَّبَضُ المعروف بباب زْويلَة

وهو ربض كبير جداً يضم نحو اثني عشر ألف كانون، يبتدىء عند باب زويلة، ويمتد غرباً على مسافة ميل تقريباً، وجنوباً إلى قلعة السلطان، وشمالاً إلى الربض المعروف بباب اللوق(46). وسكان ربض باب زويلة هذا من الطبقة الراقية كأهل المدينة. وللكثير منهم دكان في الربض ومسكن في المدينة أو عكس ذلك. ويشتمل الربض على عدد من المساجد والزوايا والمدارس، وبالأخص المدرسة الشهيرة التي أسسها السلطان حسن. وهي عالية القباب متينة البنيان بشكل عجيب، حتى إنه إذا حدث أن ثار سلطان على سلطان آخر، فان الذي لا يحتل القلعة إذا عمل بحذق على الاستيلاء على المدرسة تحصن فيها وهاجم منها القلعة التي فيها السلطان الآخر، لأن المدرسة لا تبعد عنها بأكثر من نصف مرمى بندقية(47).

الرَّبَضُ المعروف بجامع طُولُون

هو ربض آخر يتاخم السابق شرقاً، ويمتد غرباً إلى الخرائب المجاورة للمدينة القديمة. وهذا الربض بناه قبل أن تبنى القاهرة المدعو طولون، وهو مولى لأحد خلفاء بغداد ونائبه بمصر. كان رجلاً حكيمًا حذراً، ترك المدينة القديمة وأقام في هذا الربض، وبنى فيه قصراً فخمًا عظيمًا، وجامعاً لا يقل

---

(46) كان هذا الربض في الجانب الغرب ـ شمال ـ غربي، بين باب زويلة والنيل.

(47) هذا البناء من أجمل بناءات القاهرة بل العالم، شيده السلطان الناصر سيف الدين حسن (حكم مرتين من عام 748 إلى 752/1347-1351. ثم من عام 755 إلى 762/1354-1361) تماماً في نفس الوقت الذي شيدت فيه ثانية جوهرة الفن المعماري وهي المدرسة البوعنانية بفاس.

عنه فخامة. وفي هذا الربض عدد كثير جداً من الصناع والتجار، لا سيما من بلاد البربر.

رَبَضُ باب اللُّوق

هو أيضاً ربض كبير على بعد نحو ميل من سور القاهرة، ويضم نحو ثلاثة آلاف كانون، وسكانه صناع وتجار من كل صنف. فيه ساحة كبيرة يوجد بها قصر فسيح ومدرسة عجيبة بناهما مملوك اسمه يزبك، كان فيما مضى مستشاراً لأحد السلاطين، وسميت الساحة من أجل ذلك الأزبكية[48]. يجتمع فيها عادة جميع سكان القاهرة كل يوم جمعة بعد الصلاة والخطبة، لأنهم يجدون في ذلك الربض بعض المسليات القبيحة كالحانات والعاهرات. ويتجمع أيضاً في هذه الساحة عدد كبير من البهلوانيين، وبالأخص من يرقصون الإبل والحمير والكلاب، وهو منظر ممتع حقاً.

واليكم مثلاً مشهد الحمار: فبعد أن يرقص البهلواني حماره قليلاً يخاطبه مبيناً له أن السلطان يعتزم القيام ببناء كبير واستخدام جميع حمر القاهرة لحمل الجير والحجر وكل الضروريات. فيسقط الحمار حيناً على الأرض وينقلب رافعاً قوائمه في الهواء، نافخاً بطنه مغمضاً عينيه كأنه ميت. فيأخذ المهرج أمام المشاهدين في التفجيع على فقدان حماره طالباً منهم المساعدة لشراء حمار آخر. وبعد جمع التبرعات يتابع قائلاً: «لا تظنوا أن حماري مات! فالشره يعرف فقر مولاه، فيتماوت لأشتري له علفاً بما أعطيته». ثم يلتفت إلى الحمار ويطلب منه أن يقف، لكنه لا يتململ ولا

(48) هي ساحة الأزبكية الشهيرة التي تحتلها الآن البساتين، وهي مركز القاهرة الحديث. كان الأمير يزبك قائداً رئيسياً للسلطان الأشرف سيف الدين قايت باي. وقد اضمحلت البنايات المذكورة. أما الجامع المدرسي المشيد عام 1496/901 فكان جديداً تقريباً أيام المؤلف.

يبدي أدنى حراك رغم ما ينهال عليه من ضربات العصا. فيستأنف الرجل كلامه المنمق قائلاً: «سادتي، ليكن في علمكم أن السلطان أصدر المرسوم الآتي: على جميع سكان القاهرة أن يخرجوا غداً لحضور دخوله المظفر. ويأمر جميع نساء الطبقة العليا وكل حسناوات القاهرة أن يركبن حميراً جميلة ويطعمنها شعيراً ويسقينها من ماء النيل العذب!». ما كاد المهرج يفوه بهذه الكلمات حتى قفز الحمار على قوائمه متصنعاً الزهو متظاهراً بالسرور والبشر، ويتابع المضحك قائلاً: «حقاً إن رئيس الحي طلب مني أن أعيره حيواني الظريف لامرأته العجوز الشمطاء» وحينئذ يغض الحمار طرفه وكأنه ذو ذكاء إنساني، ويأخذ في المشي متصنعاً العرج كما لو كان كسيحاً، فيقول له سيده: «إذن تعجبك الشابات؟» فيطرق الحمار رأسه وكأنه يجيب بنعم. فيتابع المهرج قائلاً له: «هيا! هنا الكثير من الشابات. فأرنا من أعجبتك أكثر!» فيدور الحمار مسرعاً حول حلقة المشاهدين، ويوجد من بينهم دائماً بعض النساء المتفرجات، فيختار أحسنهن ويتوجه نحوها ويلمسها برأسه فيصيح الجمهور على الفور: «إيه! يا ذات الحمار!» استهزاء بالمرأة. ثم يقفز مضحكنا على حماره ويمضي إلى مكان آخر.

وهناك نوع آخر من البهلوانيين لهم طويرات صغيرة مربوطة إلى علبة على شكل خوان، تستخرج منها هذه الطويرات بمنقارها رقعاً كتب فيها فأل حسن أو قبيح. وعلى من يرغبون في معرفة مستقبلهم أن يضعوا فلساً «كواطرينو» واحداً أمام الطوير. فيأخذه بمنقاره ويضعه في العلبة ثم يعود وفي منقاره الرقعة المكتوب عليها الجواب. وحدث لي شخصياً أن استلمت رقعة شؤم لم أعرها أي اهتمام، غير أن ما حدث لي كان أسوأ مما كان مكتوباً فيها[49].

(49) لعله يشير إلى أسره من طرف القراصنة المسيحيين.

ويشاهد أيضاً في ساحة الأزبكية ضاربون بالسيف والعصا، ومصارعون. . . إلخ، وأشخاص آخرون يتغنون بالوقائع بين العرب والمصريين أثناء فتح مصر. فما يقال ويعمل هناك من حماقات وفكاهات وكلام بذيء، كل ذلك لا يدخل تحت عدٍّ ويسلّي الناس، لكنه يتعذر ذكر كل ذلك في مؤلَّف كهذا.

الرَّبَض المعروف بِبُولاَق

بولاق ربض كبير جداً بعيد بنحو ميلين عن المدينة المسورة، لكن توجد على طول الطريق المؤدية إليه بيوت وطاحونات تديرها الدواب. وهذا الربض القديم جداً مشيد على ضفة النيل، وفيه نحو أربعة آلاف كانون. يضم عدداً كثيراً من الصناع والتجار خصوصاً منهم بائعي الحبوب والزيت والسكر.

وفي هذا الربض أيضاً بنايات حسنة من مساجد ومنازل ومدارس للطلبة. والدور المبنية على ضفة النيل بالأخص جميلة جداً، ويتمتع الناظر من نوافذها برؤية السفن الآتية عن طريق النيل إلى مرسى القاهرة الواقع في هذا الربض، وترسو فيه أحياناً قرابة ألف زورق، لا سيما في إبان الحصاد. وهناك يقيم المكاسون الذين يراقبون السلع الواردة من الإسكندرية أو دمياط. إلاّ أن الضرائب التي تؤدى عن هذه السلع خفيفة، إذ سبق أن أدى عليها أصحابها رسوم المكس لدى إرسائها في الشاطىء. ولا تؤدى الضريبة بأتمها إلاّ عن البضائع الوافدة من مصر لا غير.

رَبَضُ الْقَرَافَة

القرافة(50) ربض بشكل مدينة صغيرة، على مسافة رمية حجر من الجبل ونحو ميلين من أسوار المدينة، وفيه نحو ألفي كانون. كان قديماً

(50) القرافة اسم قبيلة عربية خيمت في سفح جبل المقطم ابان فتح مصر. وقد أطلق على مقبرة القاهرة.

عامراً أكثر مما هو عليه في الوقت الحاضر، إذ يكاد يكون خرباً. وفيه عدة أضرحة لأشخاص يعتقد العامة لحماقتهم أنهم أولياء. وهي أبنية شاهقة ذات قباب بهية، مزخرفة من داخل بنحوت متنوعة وألوان مختلفة، أرضها مفروشة بأرفع الزرابي، وجدرانها مكسوة بالسجف. يأتي كثير من أهل القاهرة وضواحيها صباح كل يوم جمعة لزيارة هذه الأضرحة تبركاً، ويتصدقون فيها كثيراً.

المدينة القديمة المعروفة بمصر العتيقة

هي أول مدينة بنيت بمصر في عصر المسلمين(51) أسسها عمرو (بن العاص) قائد عمر ثاني الخلفاء الراشدين، وبناها على ضفة النيل. وليست مسورة، لكنها على شكل ربض كبير يمتد على طول النيل. وفيها عدة قصور جميلة عالية، لا سيما القصور الواقعة على ضفة النهر؛ وجامع عجيب هو جامع عمرو المدهش بجماله وكبره واتقانه. وفيها كذلك ما يكفي من الصناع من مختلف الحرف.

وهناك يوجد ضريح السيدة الصالحة نفيسة(52) التي يجلها المسلمون كثيراً. وهي ابنة زين العابدين بن علي ابن عم محمد (صلعم). ولما رأت هذه السيدة أن أهلها الأقربين حرموا أسرتها من الخلافة استولى عليها اليأس وغادرت الكوفة ببلاد العرب وجاءت لتسكن هذه المدينة. ويعتبرها الشعب المصري من الصالحات لانتسابها إلى بيت محمد (صلعم)، ولتقواها ونسكها. ولذلك شيد عليها في عهد الخلفاء الشيعيين أقرباؤها ضريح

---

(51) كانت بابليون موجودة قبل الإسلام بثمانية قرون أو تسعة، وربما كان مؤسسوها هم قوم جاؤوا من بابليون التي على شاطىء الفرات. وقد فتح عمرو بن العاص حصن بابليون عام 20 هـ ثم بنى مدينة الفسطاط بجواره في نفس السنة، فعمرت الفسطاط وخلا حصن بابليون ومدينة منف حاضرة مصر القديمة.

(52) يوجد ضريح السيدة نفيسة بأحد أبواب القرافة.

حافل مزدان اليوم بزرابي الحرير ومصابيح الفضة . . . إلخ. وبلغ من بعد صيت السيدة نفيسة أن كل مسلم، تاجراً كان أو غيره، وفد على القاهرة براً أو بحراً إلاّ زار قبرها. ويقدم كل واحد منهم الهدايا، كذلك يفعل جميع سكان الضواحي، حتى أصبحت الصدقات السنوية تصل إلى مائة ألف (دينار) أشرفي، توزع بين فقراء آل محمد (صلعم) ومن يتولى خدمة الضريح وصيانته. ويحاول هؤلاء، اعتماداً على الكرامات المزعومة المنسوبة إلى هذه السيدة، أن يشحذوا حماسة البسطاء ليحملوهم على مزيد من الاعتقاد والسخاء لفائدتهم. ولما دخل عظيم الترك سليم إلى القاهرة نهب الانكشارية الضريح ووجدوا فيه خمسمائة ألف (دينار) أشرفي نقداً، فضلاً عن المصابيح والسلاسل الفضية والزرابي. حقاً إن سليمًا أمر بإعادة قسط كبير من هذه الذخائر إلى الضريح. ولم يتعرض مؤلفو كتب تراجم الأولياء المسلمين إلى ذكر السيدة نفيسة إلاّ قليلاً، قائلين إنها كانت امرأة شريفة عفيفة من آل علي. لكن الجمهور لسذاجته يعتقد عدة كرامات، وهذه الكرامات هي سبب ثروة هذا الضريح(53).

وفي عالية هذا الربض على النيل يوجد المكس الخاص بالسلع الواردة من الصعيد.

* * *

وفي خارج الحاضرة المسورة أضرحة السلاطين. وهي جميلة فخمة، متقنة الصنع شامخة البنيان، ذات قباب كبيرة. وقد فتح أحد السلاطين في عهد قريب محجة بين جدارين عاليين، تبتدىء عند أحد أبواب المدينة وتسير حتى مكان الأضرحة. وفي طرف هذين الجدارين برجان عاليان يقيم فيهما الحرس الذي يرقب ورود السلع الآتية من جبل سيناء(54).

---

(53) وصف هذا الضريح ــ في الترجمة الفرنسية المنقول عنها ــ بلعين أو كريه، وهو بلا شك تحريف أو اقحام من طرف نقلة متعصبين، لأن سياق المؤلف يأباه.

(54) تلك الأضرحة هي التي تسمى اليوم خطأ أضرحة الخلفاء، ويبدو وأنها كانت في الموقع الذي شيد فيه خان الخليلي. وقد اضمحلت. وكذلك المحجة المذكورة. ومن =

وعلى بعد نحو ميل من هذه الأضرحة توجد الأراضي الزراعية المعروفة بالمطريَّة، حيث يوجد بستان الشجرة الوحيدة التي تنتج البلسم، إذ لا يوجد في العالم كله شجرة سواها. وهي مغروسة في وسط عين ماء تشبه بئراً، وليست كبيرة جداً، وتشبه أوراقها أوراق الكرم إلا أنها أصغر منها. وحسب ما سمعته فإنه إذا نقص ماء العين مثلاً جف النبات حالاً، ويكون الأمر أسوأ لو سقي بماء آخر. وهذه من عجائب الطبيعة. والبستان الذي تقع فيه هذه الشجرة مسور تماماً بأسوار متينة، ولا يمكن الدخول إليه إلا بمراعاة فائقة أو ببعض هدايا تعطى للحارس[55].

وفي وسط النيل تجاه المدينة القديمة جزيرة تسمى المقياس، لأن فيها الآلة التي تقيس فيضان النيل[56]. فالخصب أو المحل اللذان سيسود أحدهما مصر منوطان بالفيضان. وهي تجربة لا تخطىء توصل إليها قدماء المصريين.

هذه الجزيرة عامرة جداً بالسكان، تضم نحو ألف وخمسمائة كانون. وفي طرفها قصر كبير شيده سلطان عاش في أيامنا هذه، وجامع فسيح رائق المنظر لموقعه على ضفة النهر. وبجانب هذا الجامع بناء صغير منعزل ومغلق، أقيمت في وسطه تحت غطاء حفرة مربعة عمقها ثمانية عشر ذراعاً[57]. وعلى جانب هذه الحفرة تفتح قناة تحت الأرض تطابق مجرى النيل. وفي وسط الحفرة عمود مدرج ومرقم حسب عدد أذرع عمق الحفرة، أي ثمانية عشر ذراعاً. وعندما يبدأ فيضان النيل يدخل الماء في

= المحتمل أن أحد البرجين هو برج الظفر الباقية أطلاله ومرسى سيناء هو القلزم الذي قضى عليه مرسى السويس.

(55) هذا البستان أصبح الآن بستاناً خاملاً يزوره السواح، بعد أن كان من أقدس أماكن العالم.

(56) تسمى هذه الجزيرة في الحقيقة الروضة، وفي طرفها مقياس النيل.

(57) في الحقيقة 17 ذراعاً.

القناة ويصل إلى الحفرة فيرتفع يوماً بقدر أصبعين، ويوماً بثلاثة، ويوماً آخر بنصف ذراع، ويأتي كل يوم أشخاص مختصون لهذه الخدمة لمراقبة ارتفاع الفيضان على هذا العمود. ويطلعون على ذلك أطفالاً معممين بمنديل أصفر ليعرفوا، وهؤلاء الأطفال مكلفون بإعلان ارتفاع فيضان النيل في القاهرة كلها وفي الأرباض، ويتوصلون من أجل ذلك بهدايا من جميع الصناع والتجار والنساء إلى نهاية الفيضان. وتثبت التجربة أن السنة ستكون حسنة إذا بلغ الفيضان خمسة عشر ذراعاً على العمود، وهزيلة إذا لم يبلغ غير اثني عشر إلى خمسة عشر ذراعاً. وإذا كان الارتفاع ما بين عشرة واثني عشر ذراعاً فإن سعر القمح سيكون عشرة مثاقيل لكيل (مود جيو). لكن إذا بلغ الارتفاع ثمانية عشر ذراعاً فإن جميع الدكاكين المسكونة ستتعرض لخطر غمر المياه، وعلى المكلفين بالمقياس أن يشعروا السكان بذلك. وينطلق الأطفال في الأزقة صارخين: «أيها الناس، اتقوا الله من جبل إلى جبل!». ومعناه أن الماء يأتي من جبل إحدى ضفتي النيل إلى جبل الضفة الأخرى. فيفرغ السكان ويشرعون في إقامة الصلوات وإيتاء الصدقات.

وهكذا يستمر ارتفاع النيل أربعين يوماً، وتناقصه في نفس المدة. وطوال هذه الفترة لحركة المياه يلاحظ نقص في الأقوات، فيكون لكل واحد الحق في أن يبيع الخبز بالثمن الذي يريده، إلا أن ذلك يتم بشيء من التستر. وبعد ثمانين يوماً يسعر المحتسب ثمن المواد الغذائية لا سيما الخبز. ويقع هذا التسعير مرة واحدة في السنة، لأن الموظفين يعرفون حسب فيضان النيل المناطق التي ستسقى جيداً والتي ستسقى بإفراط والتي ستسقى سقياً ناقصاً حسب مستوى الأراضي الزراعية. وبحدّد سعر القمح بناء على هذه المعطيات. وتقام بالقاهرة حفلة كبرى في الأيام الأولى لفيضان النيل، يرتفع أثناءها ضجيج الصراخ والموسيقى حتى لكأن المدينة تنقلب رأساً عن عقب. تأخذ كل أسرة زورقاً تزينه بأرفع القماش وأزهى الزرابي

وتتزود بكمية وافرة من المؤن والحلويات ومشاعل من الشمع جميلة جداً. ويكون جميع السكان في الزوارق يتسلون حسب إمكاناتهم. ويشارك السلطان نفسه في الاحتفال مع أمرائه الكبار وضباطه. فيذهب إلى قناة مسوّرة تدعى القناة الكبرى[58]، وهناك يتناول شاقوراً ويشرع في هدم الجدار، ويفعل كبار الشخصيات فعله حتى يتهدم جزء الجدار الذي كان يمنع وصول الماء. فيتدفق النيل حالاً في القناة بقوة كبيرة وينتشر من هناك في باقي القنوات بالضواحي والمدينة المسورة، بحيث إن القاهرة تكون ذلك اليوم شبيهة بالبندقية، فيمكن الذهاب بالزوارق إلى جميع الأماكن المسكونة وكل أطراف مصر. ويستمر الاحتفال سبعة أيام وسبع ليال، بحيث إن التاجر أو الصانع ينفق كل ما ربحه أثناء السنة في هذا الاسبوع على الطعام والحلويات والمشاعل والعطور والمغنين. وهذا الحفل من بقايا حفلات قدماء المصريين[59].

وفي خارج القاهرة قرب ربض باب زويلة توجد قلعة السلطان المشيدة على رأس جبل المقطم. أسوارها شاهقة متينة. وتكتنفها قصور بديعة يعجز القول عن وصفها، وهي مفروشة بقطع من المرمر مختلفة الألوان منسقة بكيفية عجيبة، وسقوفها كلها مكسوة بالذهب وأحسن الألوان، ونوافذها مزدانة بالزجاج الملون مثل ما يشاهد في بعض أماكن أوربا. وأبوابها الخشبية منقوشة بفن رائع مزدانة بالألوان مموهة بالذهب. وكانت هذه القصور مخصصة إما لأسرة السلطان نفسها، أو لنسائه أو لحظاياه، أو لبعض خصيانه أو حرسه. ومنها ما كان السلطان يقيم فيها ولائمه الرسمية أو يقتبل فيهاالسفراء، وتجري فيها المراسم الكبرى. وكانت قصور أخرى مخصصة للموظفين المكلفين بتدبير شؤون البلاط. لكن ذلك كله اختفى اليوم، وقد أمر السلطان سليم بحذفه.

---

(58) فم الخليج.

(59) كان فرعون نفسه فعلاً يذهب لكسر السد. وما زال حفل الوفاء باقياً لكنه مجرد رمز، حيث إن فيضان النيل لم يعد مسألة حياة أو موت بالنسبة للشعب المصري.

عادات سكان القاهرة وأرباضها
ولباسهم وممارساتهم

سكان القاهرة أناس على جانب كبير من الظرف والمرح، حديثهم ممتع، لكن عملهم قليل كما هي العادة في جميع كبريات مدن العالم. يزاولون التجارة والصناعة، إلا أنهم لا يغادرون بلادهم. ويقبل الكثير منهم على دراسة القانون والقليل منهم يدرس الآداب. وعلى الرغم من أن المدارس غاصة دائمًا بالطلبة فلا يستفيد منهم إلا النزر القليل.

يرتدي سكان القاهرة لباساً حسناً يكون في الشتاء عبارة عن أقمشة صوفية وأخرى محشوة بالقطن، ويلبسون في الصيف قمصاناً كبيرة من القماش الرقيق يضعون فوقها ملابس من القماش المنسوج بالحرير المخطط بالألوان أو بعض الأردية، ويضعون على رؤوسهم عمائم كبيرة من قماش الكريب المستورد من الهند.

ولباس السيدات فاخر، يخرجن متبرجات بالحلي، يحملن أكاليل على جباههن وعقوداً في أعناقهن، ويضعن على رؤوسهن غطاء ثميناً ضيقاً عالياً بقدر شبر على شكل أنبوب. ويتكون لباسهن من فستان من الجوخ ضيق الأكمام. ويختلف نوع الثوب، لكن الفستان مصنوع بعناية ومزدان بطرز جميل. ويتدثرن بغطاء من نسيج القطن بالغ الدقة والنعومة مستورد من الهند. ويضعن على وجوههن غلالة سوداء رقيقة جداً لكنها خشنة بعض الشيء وكأنها مصنوعة من الشعر. يستطعن هكذا رؤية الرجال دون أن يعرفوهن. وينتعلن أخفافاً أو أحذية جميلة على الطراز التركي. وهؤلاء النساء متصنعات يعرن للقيل والقال أهمية كبرى، إلى حد أن أية واحدة منهن لا ترضى أن تقوم بالغزل أو الخياطة أو الطهي، فيضطر الزوج إلى شراء الطعام جاهزاً من الطباخين خارج البيت. ويطبخ القليل من الناس طعامهم في منازلهم، ما عدا الأسر الكثيرة الأفراد. وتتمتع هؤلاء السيدات بحرية كبيرة واستقلال كثير. فإذا ذهب الزوج إلى دكانه ارتدت زوجته

لباسها وتعطرت، ثم ركبت حماراً وخرجت للتنزه في المدينة وزيارة أهلها وأصحابها.

وإليكم بعض التفاصيل عن الحمير التي يركبها الرجال والنساء: يوجد في القاهرة أناس يعيشون من كراء الحمير يتخذون لذلك دواب كبيرة مدربة على أن تمشي هَوْناً، مزدانة بأغطية جميلة. فيكرونها مع غلام يسوقها وخادمين يسيران في ركاب المكتري. وفي القاهرة عدد كثير ممن لا يقطعون مسافة ربع ميل راجلين، وفيها كما في كثير من المدن الأخرى عدد لا يحصى ممن يتجولون طيلة النهار وهم يبيعون أشياء متنوعة كالفواكه والجبن واللحم النيء والمطبوخ، إلى غير ذلك من المواد الغذائية. وهناك أيضاً عدد كبير من الأشخاص الذين يحملون على الإبل كميات من القرب الضخمة المملوءة ماء، لأن المدينة ـ كما قلت ـ بعيدة عن النيل بميلين كاملين. ويحمل آخرون على أعناقهم قرباً مزخرفة في أفواهها أنابيب من نحاس، وبأيديهم طاسات دمشقية منقوشة نقشاً فنياً، يسيرون وهم ينادون على الماء. ويؤدي الزبون نصف فلس «كواطرينو» من النقد المحلي.

ويتجول في المدينة كثير من بائعي الفراريج يبيعونها بالكيل لا بالواحد، حسب عادة البلاد. ويستعملون أسلوباً مدهشاً لتوليدها: يتناولون ألف بيضة وأكثر يضعونها كلها في شبه أفران متعددة الطوابق وفي الطابق الأعلى ثقب. ثم يوقدون ناراً خفيفة تحتها. وبعد سبعة أيام تبدأ الفراخ تتولد بكثرة. ثم يجمعونها في أوعية كبيرة ويبيعونها مستعملين آلة كيل، بدون قعر توضع في سلة المشتري وتملأ بالفراريج ثم ترفع عند ملئها. ويؤدي المختصون بتوليد الفراريج إتاوة هامة للسلطان.

تبقى المطاعم مفتوحة حتى منتصف الليل، ويغلق ما عداها من الدكاكين قبل الساعة الثالثة والعشرين، ويذهب أصحابها من ربض إلى آخر يتنزهون في المدينة ويمرحون.

*

لا يراعي سكان القاهرة في أحـاديثهم جانب الحشمـة والحياء. ولنضرب صفحاً عن معظم هذه الوقاحات، لكن نذكر من ذلك أنه غالباً ما يحدث أن تشتكي امرأة إلى القاضي عدم قيام زوجها بواجبه الزوجي كل ليلة. وهذا من جملة الأسباب الكثيرة في الطلاق والزواج المتجدد، كما سنشرح ذلك بعـد في هذا المؤلف الصغـير عندمـا نتعرض للشـريعة الإسلامية.

ويؤكد كاتب هذه السطور أنه شاهد بالقاهرة أموراً يخجل من ذكرها لشدة خستها.

*

وإذا اتفق أن أحد الصناع أنجز في حرفته عملاً جيـداً مبتكراً لم يسبق أن شوهد له مثيل، ألبسوه سترة من ديباج وطافوا به من دكان إلى دكان مصحوباً بالموسيقيين في شبه جولة المنتصرين، وأعطاه كل واحد شيئاً من المال. ورأيت بالقاهرة رجلاً خصص له شرف الانتصار هذا لأنه صنع سلسلة لبرغوثة كان يمسكها مقيدة بها على ورقة، وكان أحد أصحابه يظهرها للناس ويجمع النقود. وشاهدت أيضاً انتصاراً باهراً حققه أحد سقائي الماء الذين يتجولون بِقِرَب معلقة في أعناقهم. فقد راهن السقاء شخصاً على أنه سيحمل قربة من جلد عجل مملوءة ماء مربوطة بسلسلة من حديد أياماً عديدة، وحمل فعلاً هذه القربة المعلقة بسلسلة على كتفه العاري طوال سبعة أيام متوالية من الصباح إلى المساء، فربح رهـانـه ونال تكريم الانتصار الباهر في موكب ضمّ مختلف المغنـين وجميع السقـائين بالقاهرة، ويقدر عددهم بثلاثة آلاف. وفيما عدا ذلك ليس لسكان القاهرة كبير شجاعة، ولا سلاح عندهم، بل لا يوجد في بيوتهم سكين لقطع الجبن إلا بمقشة. يتشاجرون أحياناً ويتبادلون اللكمات، فيسرع إذ ذاك المئات من النظارة ولا ينصرفون حتى يتم الصلح بين المتخاصمين.

* * *

أكثر الطعام انتشاراً هو لحم الجاموس مع كمية وافرة من الخضر، وعند الأكل يبسط سماط قصير مستدير إذا كان عدد أفراد الأسرة غير كثير، ويبسط سماط مستطيل كالذي يستعمل في البلاط إذا كان عدد أفراد الأسرة كثيراً.

وعند المسلمين مذهب يبيح لأتباعه أكل لحم الحصان. فإذا عطب فرس اشتراه الجزارون الذين يتمذهبون بهذا المذهب وسمنوه وذبحوه، ويتهافت الناس على شراء لحمه. ويسمى هذا المذهب بالمذهب الحنفي، ويتبعه الأتراك والمماليك ومعظم مسلمي آسيا. إلا أن الأتراك لم يتعودوا أكل لحم الفرس ولو أنه حلّ لهم.

وفي القاهرة ومصر كلها أربعة مذاهب دينية تختلف بينها في إقامة العبادات وتطبيق الشريعة المدنية والقانونية، لكنها كلها معتمدة على القرآن. ويجب أن تعلم أن أربعة أئمة كبار في القديم أوجدوا بفضل اجتهادهم طريقة إدماج النوازل الخاصة في عموم ما جاء به محمد (صلعم). وقد أول كل واحد منهم هذا الكتاب حسب رأيه مستنتجاً منه ما رآه صالحاً، ولذلك اختلفت آراؤهم كثيراً، ونال هؤلاء الأئمة الأربعة ثقة عظيمة بفضل الاعتبار الكبير لقواعدهم، وهم الذين أسسوا هذه المذاهب الأربعة واعتُبروا رؤساءها. وتتبع جميع الشعوب الإسلامية أحد هذه المذاهب، ولا يمكن لمن اتبع مذهباً أن يتركه ليتبع مذهباً آخر، اللهم إلا لمجتهد يعرف العلل ويدركها. وفي القاهرة أربعة أشخاص يدعون قضاة القضاة، يفصلون في القضايا الهامة ويرأسون عدداً لا يحصى من القضاة، بحيث يوجد منهم اثنان أو ثلاثة في كل حي للبت في أتفه المسائل. فإذا كان المتقاضي يتبع مذهباً وخصمه يتبع مذهباً آخر دعاه المدعي أمام قاضي مذهبه هو، غير أن المدعى عليه يمكنه أن يستأنف أمام قاضٍ معين من قبل الأربعة كقاض أعلى، وهو تابع للمذهب الشافعي.

وإذا ارتكب شخص عملاً محظوراً في مذهبه عاقبه قاضي هذا المذهب بشدة.

ويختلف أيضاً أئمة هذه المذاهب في إقامة الصلوات وفي عدد من المناسك أخرى، إلا أنه رغم هذه الفوارق لا كراهة ولا عداوة بين الناس، خصوصاً منهم العامة. لكن المتعلمين منهم كثيراً ما يتناظرون ويختصمون في حالات خاصة مدافعين عن آرائهم، محاولين إظهار صحة مذهبهم. ومهما يكن من أمر فإنهم لا يقدرون على أن يتكلموا بسوء في حق أحد من الأئمة الأربعة، وإلا عوقبوا عقاباً جسدياً شديداً. وفيما يخص الاعتقاد فكلهم في الحقيقة سواء، لأنهم يتمذهبون بمذهب الأشعري إمام كافة المتكلمين. والعقيدة الأشعرية هي السائدة في جميع افريقيا وآسيا، ما عدا البلدان الخاضعة للصوفي[60] التي لا يتبع أهلها لا الأشعري ولا أي مذهب من المذاهب الأربعة، وسموا لذلك مبتدعة شيعة. وسيطول الكلام ويكون مملاً لو أردنا أن نشرح هنا الأسباب التي دعت إلى اختلاف آراء الأئمة. وقد بسطتها في كتيّب ألفته في العقيدة والشريعة الإسلامية على مذهب مالك، وهو رجل على قدر عظيم من الذكاء والمعرفة السامية. ولد بالمدينة التي دفن فيها محمد (صلعم). ومذهبه منتشر في افريقيا كلها، وكذلك في مصر والشام والجزيرة العربية. وعلى من يرغب في المزيد من المعرفة أن يقرأ هذا الكتاب فيجد فيه بغيته.

* * *

والعقوبات المفروضة على الجناة شديدة قاسية، خصوصاً ما يصدر منها في بلاط الملك. فيشنق السارق، ومن قتل أحد غدراً تعرض إلى

(60) الصوفي هو لقب للشاه اسماعيل بن حيدر أول ملوك الدولة الصفوية بإيران، الذي حكم من عام 905 إلى 930 هـ/1499-1523 م. وكان الشاه اسماعيل ـ كسائر أفراد أسرته ـ صوفياً، فرأى أن يدخل مذهب الشيعة الاثني عشرية الجعفرية إلى ايران ويجعله المذهب الرسمي فيها، واستجاب الإيرانيون لذلك لميلهم إلى تكريم عليّ بن أبي طالب. ومن ثم صارت ايران مقر الشيعة حتى اليوم.

القصاص الآتي: يمسكه أحد أعوان الجلاد من رجليه وآخر من رأسه، ويتناول الجلاد سيفاً ذا قبضتين، يقطع به الجسد شطرين، ويوضع الشطر الأعلى على كومة جير حام، وقد يستمر حياً هكذا عشرين دقيقة وهو يتكلم. وهذا شيء رهيب يفجع الناظر والسامع. أما القتلة والثوار فتسلخ جلودهم وهم أحياء، ثم تحشى بالنخالة وتخاط بحيث تشبه الناس في المظهر ويضعونها على بعير يطوفون به في المدينة كلها وهم يعلنون عن الجريمة التي ارتكبها الممثل به. وهذا أقسى عقاب قضائي رأيته في العالم، لأن المحكوم عليه يقاسي كثيراً من الآلام، ويظل حياً إلى أن تصل سكين السالخ إلى الصرة فيموت حيناً. ولا يقع هذا إلاَّ بأمر خاص من السلطة العليا.

وأما المسجونون من أجل الدَّين إذا عجزوا عن الأداء، فإن قائد السجن يؤدي ما وجب لدائنيهم عوضاً عنهم، ويحتفظ بهؤلاء الأشقياء في السجن، يرسلهم كل يوم إلى المدينة والأغلال في أعناقهم تحت قيادة حراسهم يسألون الناس، ثم يأخذ الصدقات ولا يترك للمعتقلين إلا ما يسدون به رمقهم.

*

وتتجول أيضاً في المدينة بعض العجائز وهن صائحات بكلام لا أفهمه، وحرفتهن خفاض البنات، وهي عملية أوصى بها محمد (صلعم) لكن لا يعمل بها إلا في مصر والشام.

السلطان

أهم موظفيه وضباطه حسب مراتبهم

جرد عظيم الترك سليم، سنة 1517 من ميلاد المسيح[61]، سلطان مصر من شرفه وسلطته، فتغيرت بذلك جميع النظم التي كان عليها سلاطين مصر. ولما اتفق وجودي بمصر في عهد قريب من عهد هؤلاء السلاطين وأمكنني مشاهدة ودراسة نمط الحياة في هذه البلاد أثناء الرحلات الثلاث التي قمت بها ــ كما سبق أن قلته في هذا الكتيّب ــ، بدا لي من المفيد أن أقدم المعلومات التالية عن بلاط السلطان ومراتب حاشيته.

السلطان

كان أشرف المماليك هو الذي يرشح عادة إلى هذه الدرجة وهذا المنصب. وكان المماليك مسيحيين اختطفهم التتار صغاراً من إقليم الجراكسة على البحر الأسود، فكانوا يباعون في المدينة المسماة الكافة[62]،

---

(61) لقد سُلّم آخر سلطان المماليك طومان باي، بعد محاولة مقاومة فاشلة، إلى السلطان سليم، فأمر بشنقه في 12 ربيع الأول 12/923 أبريل 1517، وبذلك انقرضت دولة المماليك الجراكسة.

(62) تدعى مدينة الكافة بالاغريقية : ثيودوزيا، وتسمى اليوم فودوزيا في شبه جزيرة القرم.

ومنها يساقون إلى القاهرة على يد نخاسين، فيشتريهم السلطان ويبدل أسماءهم النصرانية حيناً، ثم يسلمهم إلى معلمي اللغة العربية والتركية والتدريب العسكري. ومن هناك كان هؤلاء المماليك يرتقون درجات في المراتب والمناصب ليصلوا أحياناً إلى السلطة العليا.

لكن هذه العادة التي تقضي بأن يكون السلطان مملوكاً وعبداً لن يُعمل بها إلا منذ مائتين وخمسين سنة، أي منذ انقراض دولة البطل صلاح الدين المعروف مجده لدى الجميع(63).

وفي الوقت الذي أراد آخر ملوك بيت القدس أن يحتل القاهرة التي كادت أن تصبح تابعة له من جراء تهاون وجبن الخليفة الذي كان الحاكم بأمره آنئذ، استنجد الفقهاء والقضاة بأمير من آسيا من شعب يدعى الكرد، وهم يعيشون تحت الخيام كالأعراب. وكان هذا الأمير يسمى أسد الدين، وله ولد اسمه صلاح الدين.

فعين أسد الدين صلاح الدين قائداً عاماً على الجيش المعد لمحاربة ملك بيت القدس، وجاء إلى مصر بخمسين ألف فارس. واعترف لصلاح الدين بشجاعة كبيرة رغم صغر سنه فعين قائداً لجباية كل موارد مصر والتصرف فيها. ثم زحف صلاح الدين ضِدَّ المسيحيين بعد أن نظم الجيوش وأحرز انتصاراً سريعاً وطردهم من بيت القدس وسائر بلاد الشام. ولما عاد إلى القاهرة صمم على أن يصبح عاهلاً لها، فقتل رئيسي حرسي الخليفة، وكانا من جنسيتين مختلفتين، إذ كان أحدهما مؤلفاً من

(63) يبدو أن تاريخ تأسيس لفيف المماليك هذا يرجع إلى عهد الخليفة العباسي المعتصم (833-842). وكان أول سلطان المماليك هو المعز أيبك الذي ولي في 29 ربيع الثاني 648/31 يوليوز 1250؛ وآخرهم طومان باي. فدام ملكهم في مصر 275 سنة هجرية. وقد استمر وجودهم حتى 7 ربيع الثاني عام 1226هـ/ فاتح ماي 1811 حيث أمر محمد علي بالقضاء عليهم. وكانوا قبل ذلك حاربوا القائد الفرنسي بونابارت واستشهد منهم 7000 في وقعة الأهرام.

زنوج إثيوبيا، والآخر من الصقالبة وكان رئيساهما يسيطران على الدولة كلها. ولما وجد الخليفة نفسه بدون حرس همَّ باعتقال صلاح الدين، لكنه فطن للأمر فأمر بقتله وبعث في الحين ببيعته إلى خليفة بغداد الحقيقي، لأن خليفة القاهرة كان شيعياً[64].

وقد حكم خلفاء القاهرة مائتين وثلاثين سنة. ولما مات آخرهم لم يبق إلا خليفة بغداد الذي هو الخليفة الحقيقي الشرعي[65].

وبعد اضمحلال الخلافة الشيعية نشأ خلاف بين خليفة بغداد وصلاح الدين المستولي على سلطنة القاهرة، لأن سلطان بغداد كان يدَّعي أن القاهرة راجعة إليه لانتمائه إلى شعب آسيوي، ولكونه كان قبل ملكاً على الإقليمين الواقعين على نهر الغنج، وهما مزندران وخوارزم. وأراد أن يشهر الحرب ضد صلاح الدين لكن عاقه عن ذلك دخول التتار إلى

(64) تختلط الحقائق التاريخية في رواية الحسن الوزان بكثير من الأوهام الناشئة عن ضعف ذاكرته وطول عهده بكتب التاريخ، والواقع أن صلاح الدين يوسف بن أيوب الكردي كان ــ كأبيه أيوب وعمه سيركوه ــ من قواد السلطان نور الدين محمود بن زنكي صاحب الشام، في حين كانت الدولة الفاطمية بمصر قد ذهبت سطوتها وتحكم الوزراء فيها. وقد استنجد قواد مصر بنور الدين محمود فأنجدهم بسيركوه وابن أخيه صلاح الدين، ومات سيركوه بعد أن استوزر في مصر، ثم مات الخليفة العاضد الفاطمي يوم 11 محرم 14/567 شتنبر 1171 فآلت السلطة في مصر إلى صلاح الدين. ثم كانت له الوقائع العظيمة التي هزم فيها الإفرنج وطردهم من القدس وبلاد الشام، وتوارث أبناؤه ملك مصر والشام باسم الدولة الأيوبية إلى عام 1250/648 حيث انتقلت السلطة إلى المماليك الجراكسية.

انظر تفاصيل ذلك عند رزق الله منقريوس الصدفي، **تاريخ دولة الإسلام**، 222:2 وما بعدها.

(65) لم تدم الخلافة الفاطمية بمصر أكثر من 209 سنة، لأن القائد جوهر الكاتب دعا للخليفة المعز الفاطمي بمصر لأول مرة في خطبة يوم الجمعة 20 شعبان عام 9/358 يوليوز 969، وانتهت خلافة الفاطميين بموت العاضد أوائل محرم 567 كما سبق. وإذا اعتبرنا قيام الدولة الفاطمية في المغرب الأدنى عام 287هـ كانت مدتها 270 عاماً.

خراسان وفتكهم فيه فتكاً دريعاً[66]. وكان صلاح الدين من جهته يخشى مجيء المسيحيين إلى الشام لأخذ الثأر من إهانته لهم. ثم إن من جنوده من قتلوا في الحروب، ومنهم من جرفهم الطاعون، ومنهم أخيراً من استخدموا في الإدارة وتدبير المملكة.

ذلك هو السبب الذي جعله يشتري العبيد الجراكسة الذين اعتاد ملوك أرمينيا أن يختطفوهم ويبعثوا بهم ليباعوا في القاهرة. فحملهم صلاح الدين على نبذ الديانة النصرانية، وعلمهم استعمال السلاح واللغة التركية التي كانت لغته الخاصة[67]. وزاد عدد هؤلاء العبيد وارتقت درجاتهم، حتى أصبح منهم جنود صالحون وضباط محنكون وموظفون ممتازون للمملكة بأسرها.

وبقي الحكم بعد موت صلاح الدين بأيدي ذويه طوال مائة وخمسين عاماً[68]: واحتفظ خلفاؤه كذلك بعادة شراء العبيد.

ولما سقطت دولة آل صلاح الدين (الأيوبية) اختار هؤلاء العبيد ملكاً عظيم الشأن يدعى بيبرس ليكون أميراً لهم وسلطاناً[69].

(66) يبدو أن الكاتب خدعته ذاكرته أو مبيضاته. فالواقع أن خليفة بغداد العباسي أيد صلاح الدين في مصر، وأن صلاح الدين كان وفياً لسلطان حلب الزنجي نور الدين محمود الذي كان يطمح في حكم مصر. لكنه استخلص من خلفه عند وفاته.

(67) كان صلاح الدين في الحقيقة أديباً عربياً من أصل كردي لا تركي.

(68) لم تدم الدولة الأيوبية بمصر والشام أكثر من 82 سنة، إذ بدأت باستيلاء صلاح الدين على السلطة بعد موت الخليفة الفاطمي العاضد عام 1171/567، وانتهت بمقتل توران شاه عام 1250/648 على يد مماليك أبيه، وفي مقدمتهم ركن الدين بيبرس الذي سيصير سلطاناً فيما بعد. وقد اختلط أمر توافق التاريخين الهجري والميلادي على المعلقين في الترجمة الفرنسية المنقول عنها، فجعلوا مقابل سنة 1193 م. العام الهجرس 486 بدلاً من 589، واستنتجوا ــ خطأً ــ أن مدة حكم الدولة الأيوبية 162 سنة.

(69) بل كان ركن الدين بيبرس على رأس المماليك الذين قتلوا توران شاه كما سبق، لكنه لم يتول الحكم بعده، بل تولى الأمر شجرة الدر على أن يكون المملوك المعز أيبك =

ودامت هذه العادة منذ ذلك العهـد، بحيث إن ابن السلطان لا يستطيع أن يصل إلى هذا المنصب ما لم يكن مملوكاً سبق أن كان مسيحياً ثم اعتنق الإسلام، وما لم يكن يعرف اللغة الجركسية واللغة التركية. وقد أرسل كثير من السلاطين أبناءهم صغاراً إلى بلاد الجركس لتعلم اللغة التركية والتعود على العادات الخشنة حتى يؤهلوا لأن يكونوا سلاطين، لكن حيلتهم ظلت بدون نتيجة لأن المماليك لم يقبلوها قطّ.

ذلكم كان تاريخ دولة المماليك وتاريخ أمرائها المعروفين بالسلاطين إلى العصر الحاضر.

الدَّوَادَار

الدوادار[70] كانت مرتبة ثانية المراتب بعد مرتبة السلطان. وكان السلطان يفوض له سلطة لا تكاد تقل عن سلطته للحكم والجواب عن الرسائل والتعيين في المناصب والعزل عنها، وتدبير جميع الشؤون. وكان للدوادار مجلس لا يختلف كثيراً عن مجلس السلطان.

الأمير الكبير

كان هذا ثالث المراتب، وكان صاحب هذه المرتبة شبه قائد عام، ينظم الجيوش ويرسلها ضد الأعراب والأعداء، ويعين أمراء الحصون وولاة المدن، ويتصرف في بيت المال لكل ما يراه ضرورياً.

= أتابك العساكر، ثم أقام المصريون أيبك ملكاً عليهم ولقبوه بالملك المعز، ودام حكمه من عام 648-1250/655-1257. ثم ولي الأمر بعده ولده نور الدين علي بن أيبك، فالمملوك المظفر سيف الدين قطز. وقد شارك بيبرس في اغتيال المظفر وولي الحكم بعده من عام 658 إلى 1260/676-1277.

(70) الدوادار: لقب مركب من كلمتين، إحداهما عربية، وهي الدواة، والثانية فارسية وهي دار، ومعناه: ممسك الدواة. واللقب يطلق على من يحمل دواة السلطان، وينضاف إليه الأمور اللازمة لهذا المعنى من حكم وتنفيذ أمور وغير ذلك بحسب ما يقتضيه الحال. انظر القلقشندي، صبح الأعشى، ج 5: ص 462، ملحق التيسير والاعتبار لمحمد الأسدي تحقيق الدكتور عبد القادر أحمد طليمات، ص 192.

نائب الشام

كان هذا رابع شخصية في الدولة، مقيمًا بالشام كنائب ملك، يدبر شؤونها ويستخلص مواردها ويصرفها كيفما شاء. إلا أن القصور والحصون كانت بأيدي قواد يعينهم السلطان. وكان هذا الوزير ملزماً بدفع بضعة آلاف (دينار) أشرفي سنوياً إلى السلطان.

الأُسْتَادَار

الأستادار[71] خامس شخصية في الدولة، كان سيد القصر يزود السلطان وأسرته بالمؤن والحلي وكل الأشياء الضرورية. وكان السلاطين يسندون عادة هذا المنصب إلى أحد الشيوخ الذي يحترمه أهله لأنه رباهم منذ صغرهم، ويكون معروفاً بالفضل.

أمير آخُور

كانت مرتبة أمير آخور[72] سادس المراتب. وكان مكلفاً بتزويد البلاط بالخيل والإبل تجهيزاً وعلفاً، وتوزيعها بين أسر البلاط حسب قيمة كل واحد ورتبته.

---

(71) الأستادار: لقب مركب من كلمتين فارسيتين، إحداهما «أستا» ومعناها الأخذ، والثانية «دار» ومعناها المسك. والمعنى: المتولي الأخذ، سمي بذلك لأنه يتولى قبض المال.

انظر القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج 5: ص 457؛ **ملحق التيسير والاعتبار**، ص 182.

(72) أمير آخور: لقب يتركب أيضاً من كلمتين، إحداهما عربية وهي أمير، والثانية فارسية وهي «آخور» ومعناه معلف. والمعنى: أمير العلف لأنه المتولي لأمر الدواب (اصطبل السلطان).

انظر القلقشندي، **صبح الأعشى**، ج 4: ص 19 وج 5: ص 461؛ **ملحق التيسير والاعتبار**، ص 185.

أمير أَلْف

كانت مرتبة أمير ألف(73) سابع المراتب، وكان يشغلها بعض كبار المماليك الذين كانت رتبتهم تعادل رتبة كولونيل في أوربـا. وكان كل واحد منهم رئيساً على ألف مملوك. وهم متعددون، لهم الصلاحية في شن الغارة وتدبير جيوش الملك.

أمير مائة

كان يشغل هذا المنصب الثامن(74) بعض الشخصيات، يرأس كل واحد منهم مائة مملوك. وكانوا يحيطون دائمًا بالملك عندما كان يمتطي فرسه، وكذلك في العروض العسكرية.

خَازَنْدَار

كان خازندار(75) الشخصية التاسعة، وهو الأمين الذي كان يحصي

---

(73) **أمراء الألوف الخاصكية**: هم الأمراء الذين يحضرون على الملك في أوقات خلواته وفراغه، وينالون من ذلك ما لا يناله أكابر المقدمين، ويوجههم السلطان في مهماته. ومن مهمتهم أنهم يسوقون المحمل الشريف، ويتميزون عن غيرهم من الأمراء في الخدمة بحملهم سيوفهم، ولباسهم المطرّز والمزركش.

انظر: **التيسير والاعتبار**، ص 184.

وذكر في هامش الترجمة الفرنسية المنقول عنها أن لقب أمير ألف من أقدم الألقاب في العالم، يوجد في الألواح البابلية وأنشودة رولان، الأمر الذي يدل على أن هذا اللقب دخل إلى لغة الرومان.

(74) الذي في **صبح الأعشى** (ج 4، ص 14) **والتيسير والاعتبار** (ص 185-186) أمير مائة (مقدم ألف) وفيه أن عدة الأمير مائة فارس. وربما زاد العشرة والعشرين، وله المقدمة على ألف فارس ممن دونه من الأمراء. وطبقة أمراء المئين مقدمي الألوف أعلى مراتب الأمراء على تقارب درجاتهم، ومنهم يكون أكابر أرباب الوظائف والنواب.

(75) خازندار: لقب مركّب من مقطعين، أحدهما عربي وهو خزانة، والثاني فارسي وهو «دار» بمعنى ممسك، والمعنى: ممسك الخزانة أي المتولي لأمورها، وكان هذا اللقب يطلق على الذي يشرف على خزائن الأموال السلطانية من نقد وقماش وغير ذلك.

انظر: **صبح الأعشى**، 463:5؛ ملحق **التيسير والاعتبار**، ص 191.

موارد المملكة، يستلمها ويودعها بيت المال، ويسلم إلى الأمناء المبالغ الضرورية للنفقات، ويحتفظ بالباقي في القلعة.

أمير سلاح

كان صاحب هذا المنصب العاشر مكلفاً بسلاح السلطان، يحرسه ويخزنه في قاعة كبيرة حيث يصقل ويعوض إذا اقتضى الحال. وكان تحت تصرفه عدة مماليك لصيانة هذه الأسلحة.

تَخْتْخَانَة

كان صاحب هذا المنصب الحادي عشر(76) مكلفاً بملابس السلطان التي كان يسلمها اياه سيد القصر، فيوزعها وفق أوامر السلطان، إذ كان من عادة الملك أن يخلع على كل من عينه في منصب خلعة، وكانت هذه الملابس من المخمل أو الديباج أو الطلس. وكان هذا الموظف يسير في الطريق محاطاً دائمًا بعدد من المسلحين.

وكانت في البلاط مناصب أخرى كمنصب شَرَابْدَار(77) الذي كان يعتني بمشروبات السلطان محتفظاً بمياه حلوة لذيذة وأخرى مركبة.

---

(76) ورد في **صبح الأعشى** (6:4) وملحق **التيسير والاعتبار** (ص 188) أن التخت: سرير الملك، وهو من الأمور العامة للملوك. وكان معاوية بن أبي سفيان أول من اتخذ في الإسلام مرتبة للجلوس عليها، ثم تنافس الملوك من بعده في ذلك حتى اتخذوا الأسرة. ولم يذكروا في جملة البيوت السلطانية تختخانة.

(77) ورد في **صبح الأعشى** (10:4) وملحق **التيسير والاعتبار** (ص 196)، **الشراب خانة** ـ لا شرابدار ـ من جملة البيوت السلطانية، ومعناه بيت الشراب، ويشتمل على أنواع الأشربة المرصدة لخاص السلطان، والمشروب الخاص من السكر وغير ذلك، وبه الأواني النفيسة من الصيني الفاخر من اللازوردي وغيره مما تساوي السكلاجة (إناء السكر) الواحدة منها ألف درهم أو نحوه.

وكان يعهد إلى الفراشين[78] أي مختلف خدم الحجرات بتزيين حجرات السلطان بالبسط من الطلس وبالزرابي، ويهتمون كذلك بالمصابيح ومشاعل الشمع التي كانت تمزج بالعنبر، بحيث إنها كانت تضيء الحجرات وتعطرها.

وكان أيضاً الشّبابطية، أي السيافون.

وكان هناك آخرون يدعون طبرشانية، أي حاملي الرماح الذين كانوا يقفون بجانب الملك عندما يمتطي فرسه أو يستقبل الناس.

والعدَّاوية كانوا يسبقون موكب السلطان إذا كان محارباً أو مسافراً. ومن بينهم كان يختار الجلاد عندما يفرغ منصبه. وكلما قام الجلاد بعمله ضد أحد المجرمين أعانه أحد العداوية للتدْريب على المهنة وبالأخص عند سلخ المحكوم عليهم أحياء أو تعذيبهم قصد الحصول على الاعترافات.

وكان السعاة الذين يحملون رسائل السلطان إلى بلاد الشام ويقطعون مشياً على الأقدام ستين ميلاً في اليوم، إذ لا جبل ولا مستنقع بين مصر والشام. غير أن حاملي الرسائل الهامة جداً كانوا يمتطون الإبل.

جنود السلطان

كان جنود السلطان منقسمين إلى أربع طوائف. أولاها الخصاكية أي الفرسان، وكانوا يمثلون نخبة في خدمة السلاح، يختار السلطان من بينهم قواده وعماله في المدن. وكان بعضهم يتقاضى أجراً نقداً من بيت المال، وبعضهم يتقاضى موارد القرى والقصور.

---

(78) الفراشون: جماعة من الغلمان مرصدون للخدمة في «الفراش خاناه» أحد البيوت السلطانية، ويشتمل على أنواع الفرش من البسط والخيام، ولها «مهتار» أي كبير الغلمان الذين يخدمون في الفراش خاناه في الحضر والسفر.
انظر: **صبح الأعشى** (11:4 و470:5) وملحق التيسير والاعتبار ص 198.

وكان جنود الطائفة الثانية يدعون السيفية. وهم راجلون لا سلاح لهم غير السيف. وكانت أجورهم تؤخذ أيضاً من بيت المال.

وكان جنود الطائفة الثالثة يطلق عليهم اسم الكرانسة (الطرخانية)[79]، أي الذين ينتظرون. وكانوا فوق العدد المأجور، يعفون من جميع المصاريف لا غير. وإذا مات مملوك مأجور عوضه أحدهم.

وأخيراً كان الجنود المعروفون بالجلب. وهم المماليك المجندون حديثاً، لا يعرفون اللغة التركية ولا اللغة العربية، ولم يكونوا قدقدموا أي برهان على قيمتهم.

موظفون ملحقون بالادارة العامة

الناظر الخاص: كان شبه مدير خزينة البابا، مهمته أن يكري مكوس الدولة وإتاوتها ويسلم مواردها إلى أمين بيت المال. وكان يتولى بنفسه في القاهرة منصب مدير المكوس الذي كان يدر عليه مئات آلاف (الدنانير) الأشرفية. ولم يكن في الحقيقة بامكان أحد أن يمارس هذه الوظيفة ما لم يدفع مسبقاً للسلطان مائة ألف (دينار) أشرفي. وكان يسترجعها في ظرف ستة أشهر.

كاتب السر: كان هذا هو الكاتب الذي يضبط حساباً خاصاً باحصاء جميع الأراضي المزروعة بمصر، بالاضافة إلى وظيفته العادية، وهي املاء الرسائل والتوقيعات والاجابة باسم السلطان. وكان يجمع شخصياً موارد عدد من هذه الأراضي التي أقطع اياها.

(79) في **صبح الأعشى** (13:48-52) وملحق التيسير والاعتبار (ص196) الطرخانية: أن يصير الشخص مسموحاً له بالخدم السلطانية، يقيم حيث شاء، ويرتحل متى شاء، تارة بمعلوم يتناوله مجاناً، وتارة بغير معلوم. والطرخانية تكتب للأمراء تارة وللأجناد أخرى، وأكثر ما تكتب لمن كبرت سنه وضعفت قدرته وعجز عن الخدمة السلطانية.

المُوقِّع: كان هذا ثاني الكتاب، أقل رتبة من السابق، لكنه أكثر صلة بالسلطان. يتلقى التوقيعات من الكاتب الأول لينظر هل هي مطابقة لتعليمات الملك، ثم يثبت في البياض الذي يتركه الكاتب لهذا الغرض اسم السلطان. غير أن الكاتب الأول كان لديه عدد من المختصرين المتعودين على تحرير هذه الوثائق بحيث إن الموقع قلما كان يجد ما يشطب عليه لشدة تمرس هؤلاء في عملهم.

المحتسب: كان هذا الموظف شبه حاكم أو قائد السوق، ان صح التعبير. يراقب سعر بيع القمح وسائر المواد الغذائية. كان هذا السعر يرتفع أو ينخفض حسب عدد السفن الآتية من الصعيد والريف، وكذلك حسب فيضان النيل. وكان يفرض على المخالفين العقوبات المقررة من قبل السلطان. سمعت أثناء اقامتي بالقاهرة أن هذا الوظيف كان يجلب لصاحبه نحو ألف (دينار) أشرفي في اليوم ليس من القاهرة فحسب، بل من جميع المدن والأماكن التي وضع فيها هذا الموظف نواباً يمثلونه ملزمين بتقديم الحسابات إليه.

أمير الحج: كان لهذا المنصب رتبة عالية ومهمة ثقيلة، يسنده السلطان إلى أكثر مماليكه كفاية وثروة. فكان هذا الشخص قائد القافلة الذاهبة من القاهرة إلى مكة، مرة كل سنة، فلا يستطيع القيام بهذه المهمة دون نفقات طائلة إذا أراد أن تكون الرحلة محاطة بالأبهة والرفاهية. وكان يصحب معه عدداً من المماليك الآخرين لحراسة القافلة، وتدوم الرحلة ثلاثة أشهر ذهاباً وإياباً. ولا يمكن ذكر الصعوبات والنفقات التي كان يتحملها هذا القائد، دون أن يتقاضى أي أجر لا من السلطان ولا من رجال القافلة.

وهناك مناصب أخرى أقل أهمية لا فائدة في ذكرها.

الـجيزَة

مدينة على ضفة النيل تجاه المدينة القديمة مفصولة عنها بالجزيرة[80]. وهي عامرة بسكان متحضرين، تضم قصوراً جميلة بناها مماليك كبار لراحتهم بعيداً عن عامة القاهرة. وفيها أيضاً عدد كبير من الصناع والتجار، لا سيما باعة المواشي التي يأتي بها الأعراب من جبال برقة. وحيث إنه يصعب عليهم حمل هذه الماشية في الزوارق لاجتياز النهر فإن التجار يحضرون ليشتروها منهم ويبيعوها إلى قصابي القاهرة الذين يأتون بدورهم لأخذها منهم. وعلى ضفة النيل جامع المدينة وأبنية أخرى جميلة أنيقة. وتحيط بالجيزة حدائق ومغارس نخيل، ويفد عليها مختلف الصناع من القاهرة ليشتغلوا فيها ويعودوا مساء إلى منازلهم.

وتمرّ بهذه المدينة طريق الأهرام، وهي مقابر ملوك مصر القدماء. وكان موقعها في القديم يسمى منفيس[81]. وبين الجيزة الأهرام مفازة رملية لا غير، فبها عدة مستنقعات مكونة من فيضان النيل. ومع ذلك يمكن الذهاب إليها بدون كبير عناء مع رائد خبير يعرف البلاد جيداً.

المُعَلَّقَة

مدينة صغيرة على بعد ثلاثة أميال من المدينة القديمة، شيّدت على ضفة النيل في عهد المصريين القدماء، وفيها دور حسنة وبنايات جميلة، لا سيما الجامع القائم على ضفة النيل ذاتها. وتحيط بالمدينة حدائق النخيل ومغارس شجر الجميز. وللسكان نفس عادات سكان القاهرة[82].

(80) يعني الروضة: جزيرة مقياس النيل.

(81) كانت منفيس في الحقيقة أبعد في جهة الجنوب، بين أهرام سكرة (سقارة ـــ المشرف) والنيل.

(82) المعلّقة هي القاهرة القديمة أو مدينة الفسطاط التي خلفت بابليون، وربما اختلط الأمر على المؤلف، فالمعلقة كناية عن كنيسة قبطية في القاهرةالقديمة، لأنها مبنية على سطح السور القديم لفوساطون المسماة أطلالها اليوم قصر الشمع أو كنيسة الست مريم.

الخَانْقَاه

الخانقاه مدينة كبيرة مشيدة على طرف الصحراء الواقعة على الطريق المؤدية إلى سيناء، على بعد نحو ستة أميال من القاهرة[83]. فيها دور حسنة ومساجد جميلة ومدارس. وعلى طول مسافة الأميال الستة الفاصلة بين هذه المدينة والقاهرة كثير من البساتين وحوائط النخيل، لكن لا يوجد من هناك إلى مرسى سيناء أي مكان مسكون على مسافة 140 ميلاً.

وسكان الخانقاه أغنياء جداً، لأنها ملتقى المسافرين الذين يريدون السير في القافلة إلى الشام فيشترون مختلف الأشياء الواردة من القاهرة، إذ لا ينبت في الخانقاه شيء باستثناء النخيل. وينطلق منها طريقان رئيسيان يذهب أحدهما إلى الجزيرة العربية، والآخر إلى الشام. وليس لها من موارد الماء غير ما يصل إليها بواسطة القنوات. وتتحطم حواجز هذه القنوات عند فيضان النيل، فتتدفق المياه في السهل حيث تكون بحيرات صغيرة، ومن هناك يجرّ الماء إلى المدينة عبر سواق ويدخل في الخزانات.

المُعَيْصِرة

مدينة صغيرة على ضفة النيل بعيدة عن القاهـرة بنحو ثـلاثين ميلاً[84]، تنبت هناك كمية وافرة من الجلجلان. وفي المـدينة عـدة طاحونات تستخرج الزيت من حب الجلجلان. وجميع السكان فلاحون باستثناء البعض الذين لهم دكاكين.

بني سْوِيف

مدينة صـغيرة مشيدة على الضفة الافريقية للنيل، بعيدة عن القاهرة بنحو مائة وعشرين ميلاً[85]. ويحيط بها أراضٍ واسعة صالحة

(83) 14 ميلاً.

(84) بل بعيدة بنحو 12 ميلاً فقط.

(85) بل بنحو 71 ميلاً فقط.

لزراعة الكتان والقنب. والكتان فيها من الدرجة الأولى بحيث إنه يصدر حتى إلى تونس ببلاد البربر، ويصنع منه نسيج عجيب في الرقة والمتانة، تتزود منه مصر كلها. إلا أن النيل في الحقيقة يقرض باستمرار هذه الأرض، وتجرف التربة أحياناً أثناء الفيضان فتتقلص المساحة الصالحة للزراعة. وعندما كنت في هذه المدينة ذهب النيل بأكثر من نصف النخيل. ويستخدم جميع السكان في الأعمال التي يستلزمها الكتان بعد الحصاد.

وفيما وراء هذه المدينة توجد التماسيح التي تفترس الناس، كما سنذكر ذلك في القسم المخصص للحيوانات من هذا الكتاب.

المُنْيَة

مدينة جميلة جداً شيّدها أيام المسلمين أحد نواب (الملك) في مصر اسمه الخصيب الذي كان والياً لأحد خلفاء بغداد[86]. تقع في مكان مرتفع على الضفة الافريقية للنيل، ويحيط بها عدد من الحدائق والكروم التي تنتج فواكه جيدة تحمل منها كمية كبيرة إلى القاهرة،لكن لا تصل إليها طرية لبعدها عنها بنحو مائة وثمانين ميلاً. وللمنية أبنية حسنة جداً وقصور ومساجد، فضلاً عن آثار مبان يرجع تاريخها إلى عهد المصريين الأقدمين.

والسكان أغنياء لأنهم يذهبون إلى مملكة كاوكاو ببلاد السودان للاتجار فيها.

الفَيُّوم

مدينة أزلية شيّدها أحد الفراعنة في الوقت الذي خرج فيه العبريون من مصر. وكان هذا الفرعون يستخدمهم في صنع الآجر وغيره من

(86) سماها ياقوت في **معجم البلدان**(ج 8، ص 188) منية أبي الخصيب، وقال: «إنها مدينة كبيرة حسنة كثيرة الأهل والسكن على شاطىء النيل في الصعيد الأدنى، قد أنشأ فيها أبو اللمطي أحد الرؤساء بتلك النواحي جامعاً حسناً، وفي قبلتها مقام ابراهيم، عليه السلام». وكان الخصيب بن عبد الحميد جابي خراج مصر من قِبل الخليفة هارون الرشيد.

الأعمال. وبنى المدينة على فرع صغير للنيل(87) في مكان مرتفع تكثر فيه الأشجار المثمرة وشجر الزيتون، لكن الزيتون لا يصلح إلا للأكل ولا يصنع منه الزيت. وفي هذه المدينة دفن يوسف بن اسرائيل، وحمل موسى جثته عندما هرب العبرانيون من مصر. والمدينة متحضرة عامرة جداً تضم كثيراً من الصناع، لا سيما النساجين(88).

مَنْفَلُوط

مدينة كبيرة جداً وعريقة في القدم، بناها المصريون وخرّبها الرومان. وبدأ السكان يعمّرونها من جديد في عهد الإسلام، لكنها لا تكاد تعتبر مسكونة بالنسبة لماضيها. وما زالت بها أعمدة ضخمة عالية وأبواب مكتوب عليها أبيات شعرية باللغة المصرية. وبالقرب من النيل طلل كبير لبناء عظيم يبدو أنه كان معبداً. ويعثر السكان أحياناً على مسكوكات من الذهب والفضة والرصاص، على أحد وجهيها حروف مصرية وفي الآخر صور الملوك الأقدمين. والتربة خصبة، لكن الحرارة شديدة. وتفتك التماسيح بالسكان فتكاً ذريعاً، الأمر الذي أدى بالرومان ــ على ما يظن ــ إلى مغادرة المدينة(89)، إلا أن سكان منفلوط يعيشون في رخاء لأنهم يتجرون مع بلاد السودان.

أَسْيُوط

هي كذلك مدينة عتيقة شيّدها المصريون على ضفة النيل، بعيدة عن القاهرة بنحو مائتين وخمسين ميلاً. وهي مدهشة بكبرها ومبانيها القديمة

(87) هو أحد فروع بحر يوسف.

(88) اعتبر المؤلف أن بتُوم التوراة هي مدينة الفيوم، ويبدو أنه خلط بين متاهة هيرودوت وضريح يوسف. وقد قال آنفاً إنه لن يتعرّض للفيوم التي يعتبرها لسبب مجهول خارجة عن افريقيا.

(89) يقع قرب منفلوط كهف التماسيح الشهير.

وكتاباتها العديدة، لكن الكل في حالة خراب وتلف، ومع ذلك يمكن التعرّف على الكتابة المصرية. وقد سكنها عدد كبير من الفرسان الأشراف في العصر الإسلامي، واحتفظت حتى الآن بالنبل والثراء. وفيها نحو مائة من دور المسيحيين وثلاث أو أربع كنائس. وفي خارج المدينة دير مسيحي يعيش فيه أكثر من مائة راهب لا يأكلون لحمًا ولا سمكاً، وإنما يتغذّون بالخبز والخضر والزيتون. ويصنعون مأكولات لذيذة لا يدخل فيها أي شحم. وهذا الدير غني، من عادته أن يطعم كل غريب عابر سبيل، يضيفه ثلاثة أيام. ويربي لهذا الغرض كثيراً من الحمام والدجاج.

إِخْمِيمْ

أقدم حاضرة بمصر أسسها إخميم بن مصرائيم بن كوش بن حام، على الضفة الآسيوية للنيل، بعيدة عن القاهرة شرقاً بنحو ثلاثمائة ميل؛ لكنها دمّرت عند مجيء المسلمين إلى مصر لأسباب يذكرها التأريخ، حتى لم يبق من المدينة غير أسسها، لأن الأعمدة وغيرها من الحجر حملت إلى الضفة المقابلة لبناء المدينة الآتية.

الْمُنْشِيَة

بنيت إذن هذه المدينة بأنقاض المدينة السابقة على يد أحد نواب الخليفة. وليس لها أناقة ولا جمال. وأزقّتها ضيقة لا يمكن المرور بها صيفاً لكثرة الغبار. ويكثر فيها القمح والماشية[90].

(90) ذكر ياقوت في **معجم البلدان** (ج 8، ص 176) أربع قرى مصرية تسمى كل منها مُنْشِية، إحداها من كورة الجيزة، والثانية من عمل قوس، والثالثة من عمل إخميم ـ هي هذه التي يتحدث عنها الحسن الوزان ـ ويقال لها منشية الصلعاء، والصلعاء قرية إلى جانبها، أما الرابعة فهي الكبْرى من كورة الدنجاوية.

وكانت المدينة وإقليمها إقطاعاً لأمير افريقي من شعب بربري يسمى هوارة، ورث الإمارة عن أجداده أمراء هوارة الذين أتوا لنجدة جوهر الصقلبي مؤسس القاهرة. ولما جاء بعد ذلك الخليفة القائم من القيروان إلى القاهرة أقطع إقليم اخميم هذا إلى أمير هوارة مكافأة له. ولم يرغب هذا الأمير في إعادة بناء اخميم لأن الأعراب كانوا يسببون له متاعب. فبنى المنشية على الضفة الأخرى للنيل[91] لاجتناب الأعراب. ودامت الإمارة في هذه الأسرة إلى أيامنا هذه. وهي تؤدي الإتاوات دائمًا إلى السلطان، لكنها جردت من إمارتها في عهد سليمان تاسع ملوك الأتراك، وصودر الكل لفائدة خزينة عظيم الترك.

جَرْجَا

كانت جرجا ديراً مسيحياً في غاية السعة والغنى يسمى سان جورج، على بعد نحو ستة أميال من المنشية[92]. وكانت تحيط به أراض زراعية فسيحة ومروج، ويضم أكثر من مائتي راهب كانوا بدورهم يطعمون الغرباء ويبعثون بما يدخرونه من الموارد إلى بطريق القاهرة ليوزعه على المسيحيين الفقراء. إلا أنه منذ مائة سنة أصيبت مصر بوباء الطاعون الذي ذهب بجميع رهبان هذا الدير، وبقي المكان خالياً مدة ثلاث سنوات لم يسكنه أحد، حتى إن أمير المنشية أخذ في تسويره وبناء دور للتجار والصناع من مختلف الحرف. وجاء ليسكنه بنفسه بعد أن استلفت نظره ما فيه من حدائق جميلة على التلال المجاورة. لكن بطريق اليعاقبة شكا ذلك إلى السلطان، فاضطر إلى بناء دير آخر مكان المدينة القديمة ومنحه مورداً كافياً يعيش به ثلاثون راهباً عيشة راضية.

(91) على الضفة اليسرى، على بعد ثلاثمائة وواحد وثلاثين ميلًا من القاهرة.

(92) بل ثلاثة عشر ميلًا جنوباً.

الخِيَام

الخيام[93] مدينة صغيرة شيّدت على النيل في العصر الإسلامي، لا يسكنها إلا نصارى يعاقبة، كلهم فلاحون يربون الدجاج والأوز. ولهم أيضاً عدد لا يحصى من الحمام، بحيث لو أعطيتهم قطعة نقدية تساوي نحو «بايوتشيين» لباعوك بها عشرة طيور. وهناك بعض الأديرة المسيحية التي تقدّم الطعام للغرباء كذلك. ولا وجود لمسلم في هذه المدينة باستثناء الوالي وأسرته.

بَرْبَنْدَة

بربندة[94] مدينة بناها المصريون الأقدمون على ضفة النيل، بعيدة عن القاهرة بنحو أبعمائة ميل، خربها الرومان، ولا يشاهد بها الآن سوى أطلال ضخمة. حملت أجود موادها إلى إسْنَا التي سنذكرها فيما يلي. ويعثر في هذه الأطلال على عدة مسكوكات من الذهب والفضة، وكذلك على قطع كثيرة من الزمرد.

قِنَا

قِنا[95] مدينة عتيقة مشيّدة على النيل تجاه بربندة، محاطة بسور من الآجر النيء. وسكانها فلاحون بسطاء فقراء، لكن المدينة غاصة بالقمح، لأنها مستودع السلع المحمولة من القاهرة إلى مكة على النيل.

---

(93) قرية في الضفة اليمنى، على بعد ثلاثمائة وتسعة وخمسون ميلاً من القاهرة.

(94) هي أنقاض معبد دندرة، على بعد أربعمائة وسبعة عشر ميلاً من القاهرة على طريق النهر.

(95) ذكرها ياقوت في معجم البلدان (ج 7، ص 162) وقال: إنها مدينة بالصعيد لطيفة بينها وبين قوص يوم واحد. وربما كتب بعضهم إقْنَا.

وتقع قنا فعلاً على بعد نحو مائة وعشرين ميلاً من البحر الأحمر عن طريق الفلاة. ولا وجود للماء في هذه الفلاة حتى الساحل حيث المرسى المسمى بالقصير، فيه عدة أكواخ لوضع السلع، وجميع بيوته قائمة بالحصر. ويصطاد السمك بكثرة في القصير.

ويقع تجاه هذا المرسى على الساحل الآسيوي للبحر الأحمر مرسى يدعى يَنْبُع، ينزل فيه الحجاج في طريقهم إلى المدينة حيث قبر محمد (صلعم). ويزود ينبع المدينة ومكة بالقمح لاحتياجهما الكبير إليه.

إِسْنَا

كانت تسمى سِيَانَة في القديم، لكن العرب سمّوها إسنا، لأن لفظ سيانة يشبه كلمة عربية معناها قبيحة، بينما إسنا يعني حسناء(؟).

ومدينة إسنا فعلاً في غاية الحسن، مبنية على الضفة الافريقية للنيل[96]. وقد أعيد بناؤها بكيفية حسنة في الإسلام بعد أن خربها الرومان تقريباً. لكنها تبدو خالية بالنسبة للعصور الغابرة، إذ ما زالت تشاهد إلى يومنا هذا أسس أسوارها على دائرة واسعة. وسكانها أغنياء بما لهم من حبوب وماشية ونقود، لأنهم يتجرون مع النوبة عن طريقي القفر والنيل.

وتوجد داخل سور المدينة أنقاض بنايات عظيمة وأضرحة عجيبة وشواهد قبور عليها نقوش مصرية ولاتينية[97].

(96) على بعد أربعمائة وستة وتسعين ميلاً من القاهرة عن طريق النهر.
(97) هي أنقاض معبد خموم الذي جدد على يد عدد من أباطرة الرومان.

أَسْوَان

مدينة كبيرة عتيقة، بناها المصريون على ضفة النيل، بعيدة عن إسنا بنحـو ثمانـين ميلاً[98]. وتحيط بها أراض صالحة لزراعة الحبوب. وهذه المدينة آهلة جداً بالسكان، وتجارتها مهمة لموقعها في تخوم مملكة نوبية، ولأن ركوب النيل مستحيل فيما وراءها، إذ ينتشر النهر في عاليتها مخترقاً السهول فلا يبقى للماء العمق الكافي لاستخدامه[99].

وتتاخم المدينة أيضاً الصحراء التي يقطعها المسافرون للوصول إلى السواكن على البحر الأحمر في بداية إثيوبيا.

والحرارة بأسوان في الصيف مفرطة، ولذلك يكاد يكون جميع السكان سمراً. ولأنهم كذلك مختلطون بالنوبيين والإثيوبيين. ويشاهد فيها أيضاً في عدة أماكن بنايات لقدماء المصريين وبعض الأبراج الشاهقة التي تدعى «بَرْبَا» بلغة البلاد[100].

* * *

ولا يوجد وراء أسوان مدينة ولا مكان مأهول يستحق الذكر، وإنما هناك قوى يسكنها قوم من الجنس الأسمر يتكلمون لهجة تختلط فيها العربية والمصرية والإثيوبية. ويخضعون لقوم يسمون الْبُجَة، يعيشون في البوادي على شاكلة الأعراب. وليس للسلطان أيُّ نفوذ في هذه النواحي التي تنتهي فيها دولته.

* * *

(98) في الواقع على بعد ثمانية وتسعين ميلاً ونصف ميل من إسنا، وخمسمائة وأربعة وتسعين ميلاً ونصف ميل من القاهرة.
(99) بل تقطع الشلالات ركوب النهر.
(100) هي أعمدة معابد جزيرة فيلا التي يسميها العرب جزيرة البربا.

تلك هي أشهر المدن على ذراع النيل الكبير. وقد شاهدها كاتب هذه السطور ودخل بعضها ومرَّ قرب البعض الآخر، لكنه تلقى عنها أتمّ المعلومات من سكانها أو من التجار الذين صحبوه من القاهرة إلى أسوان والذين رجع معهم إلى قِنا.

وتابع سيره من هناك في القفر حتى البحر الأحمر الذي قطعه ليصل إلى شاطىء البلاد العربية الصحراوية في مينائي يَنْبُع وجَدّة الواقعين في آسيا. ولا حاجة إلى الحديث عنهما لعدم وجودهما في افريقيا.

إلا أن المؤلف بعون الله تعالى موطد العزم على أن يصف في كُتَيِّب الجزءَ الذي رآه من آسيا، وسيتعرّض لذكر البلاد العربية الصحراورية، والبلاد العربية السعيدة، والبلاد العربية الصخرية، وللقسم المصري الواقع في آسيا. كما سيتحدّث عن بابل، وجزء من بلاد فارس وأرمينيا وبلاد التتر التي تجول فيها وهو ما يزال يافعاً؛ كما سيصف عدداً من الجزر التي شاهدها أثناء رحلته الأخيرة من فاس إلى القسطنطينية ومنها إلى مصر على طريق البحر، ثم لدى عودته من مصر إلى شاطىء ايطاليا.

وللمؤلف بعد ذلك العزم القاطع على أن ينظّم كتابه عندما يعود سالماً بفضل الله من سفره إلى اوروبا. وسيبدأ بوصف اوروبا التي تستحق أكثر من غيرها أن يبدأ بها لشرفها، ثم يتابع بكامل الاتقان والعناية وصف آسيا، يعني القسم الذي زاره منها، وسيجعل في الأخير هذا الكتيب جزءاً ثالثاً.

القسم التاسع

الأنهار والحيوانات والنباتات بإفريقيا

توطئــة

يُعنى هذا القسم بجميع الأنهار والحيوانات والنباتات التي تستحق الذكر أكثر من غيرها في إفريقيا. وسنتحدث أولاً عن المياه الجارية المشهورة في بلاد البربر، مبتدئين من جهة الغرب.

نهر تَنْسِيفَتْ

تنسيفت نهر كبير ينبع من الأطلس قرب مدينة تدعى أَغْمَاتْ شرق مراكش[1]، ويجري نحو الشمال[2] مخترقاً سهولاً حتى يصب في المحيط بإقليم آسفي من ناحية دكالة. ويتلقّى قبل وصوله إلى البحر عدة أنهار أشهرها اثنان معروفان جداً، أحدهما أَسِيفْ اَلْمَال الذي ينبع من جبل هنتانة قرب مراكش، ثم ينحدر في السهل حتى يلتحق بالنهر؛ والآخر نْفِيسْ الذي ينبع أيضاً من الأطلس في ضواحي مراكش ويسيل في السهل المحيط بمراكش ثم يصب في النهر.

تنسيفت كثير العمق لكنه يمكن أن يقطع في بعض الأماكن ولو أن الماء يغمر ركابي الفارس، وعلى الراجل أن يتجرد من ثيابه لقطعه. وبالقرب من مراكش جسر بناه الملك المنصور[3] من خمسة عشر عقداً

(1) تبعد عين تنسيفت ـ راس الماء ـ ببضعة كلم شمال غرب أغماي الذي يسمى اليوم سيدي رحال الواقع على الردم أحد روافد تنسيفت.

(2) بل نحو الغرب.

(3) في الروض المعطار أن علي بن يوسف بن تاشفين المرابطي بنى قنطرة تانسيفت فهدمها السيل بعد ذلك. ثم أمر يوسف بن عبد المؤمن الموحدي ببناء قنطرة تنسيفت، فشرع في بنائها يوم الأحد ثالث صفر 17/566 أكتوبر 1170. ولعل ولده يعقوب هو الذي أتم بناءها، لأن المؤرخين ذكروا في جملة منشآته العمرانية بناء قناطر. ويرى هنري طيلس =

(قوساً). وهو من أجمل بنايات افريقيا كلها. وقد حطم ثلاثة من هذه العقد أبو دبوس آخِرُ ملك وخليفة (موحدي) بمراكش ليمنع مرور يعقوب (بن عبد الحق) أول ملوك بني مرين، لكن ذلك لم يغن عنه شيئاً.

تِسَاوِينْ

تِساوين نهران ينبعان من جبل غُجْدامة، وتفصل بينهما مسافة ثلاثة أميال، ويحمل كِلاهما نفس الاسم تَسَاوَتْ، جمعه تِسَاوِينْ، أي الحواشي (أو البطون) باللغة الإفريقية [4].

واد العبيد

ينبع هذا النهر من الأطلس بين جبال عالية باردة، ويمر من شعاب وعرة على تخوم هسكورة وإقليم تادلا، وينحدر في السهل متوجهاً شطر الشمال حتى يصب في نهر أم الربيع. وهو مهمّ جداً، لا سيما في شهر مايه عندما تذوب الثلوج في الجبل.

= أن القسم الأوسط من العقود السبعة والعشرين الموجودة حالياً في قنطرة تنسيفت هي موحدية، ويبقى إثبات ذلك للبحث الاركيولوجي.

انظر: أحمد الناصري، **الاستقصا**، ج 2، ص 133، وهامش 1، مع ص 177 منه. وكتاب مراكش لدوفيردان، ج 1، ص 201.

(4) هذان النهران هما الآن واد الأخضر شمالاً وتَسَّاوت جنوباً ثم غرباً. وقد سبق للمؤلف في القسم الثاني (ج 1، ص175) أن أطلق تِسّاوين على المرتفع الذي ينبع فيه هذان النهران، وهما جبلان أحدهما بجوار الآخر، وذلك في مرتفع فطواكة، لا غجدامة الواقع إلى الغرب من تَسَّاوت.

أمّ الرّبيع

نهر كبير جداً ينبع من الأطلس بين جبال عالية في حدود تادلا وناحية فاس، ويجري عبر سهول أَدَخْسَان[5]، ثم يخترق شعاباً ضيقة بها جسر جميل بناه أبو الحسن رابع ملوك بني مرين[6]. ويجتاز النهر فيما وراء هذا الجسر شطر الجنوب سهولاً بين ناحية دكالة وناحية تامسنا إلى أن يصب في المحيط قرب سور مدينة أزمور. ولا يمكن قطعه خوضاً في الشتاء والربيع، غير أن سكان القرى الواقعة على ضفتيه يجيزون الناس والأمتعة على شبه مراكب كبيرة مثبتة على قرب منفوخة. وتصب بعض الروافد الصغيرة في هذا النهر.

ومنذ الفصل الذي يبدأ فيه نزول الأمطار في افريقيا إلى شهر مايه، تصطاد من أم الربيع كمية وافرة من السمك المعروف في أيطاليا (لاتشية)[7] يتغذى به جميع سكان آزمور، وتذهب إلى مملكة البرتغال عدة سفن محملة بهذا السمك المملح، كما ذكرنا ذلك عند الكلام على مدينة آزمور.

أبو رَقْرَاق

ينبع هذا النهر من أحد الجبال المتفرعة عن الأطلس، ويمر عبر شعاب وغابات كثيرة، ثم يخرج بين تلال في سهل ليذهب إلى المحيط. وهناك مدينتا سلا والرباط اللتان تبتدىء بهما مملكة فاس. ولا ميناء لهما

---

(5) هو اليوم سهل خنيفرة.

(6) أبو الحسن سادس ملوك بني مرين، ولعل الإشارة إلى الجسر المتهدم عند دشرة الواد الذي ربما كان هو المعبر عنه في كتب التاريخ بمشرع بوعقبة الذي جرت فيه معارك عديدة بين السعديين والوطاسيين في منتصف القرن العاشر الهجري/ 16 م.
انظر كتابنا الحركة الفكرية، ج 1، ص 45، وهامش 7.

(7) هو الشابل.

سوى مصب النهر الذي يعسر على السفن دخوله، بحيث إنه لا بد للسفينة من دليل محنك وإلّا جنحت على الرمل. ولولا صعوبة هذا المدخل لما احتفظت المدينتان بحريتهما، ولاستحال الدفاع عنهما ضد أصغر أسطول لأي ملك مسيحي.

بَهْتْ

ينبع نهر بهت أيضاً من الأطلس، ويسيل نحو الشمال بين جبال وغابات، ثم يخرج وسط تلال لينتشر في أحد سهول إقليم أَزْغَار، بحيث يتحول إلى مستنقعات وبحيرات يصطاد فيها عدد لا يحصى من السمك كالبيوض والأنقاليس (النون) والشابل المدهشة بحجمها وشحمها. ويقيم حول هذه المستنقعات والبحيرات رعاة من الأعراب يعيشون من ماشيتهم وصيدهم، ويأكلون كثيراً من السمك واللبن والسمن، حتى إن عدداً كبيراً منهم يصابون بالداء المعروف بالبرص. ويمكن عبرُ هذا النهر خوضاً كل وقت في أماكن معينة، ما عدا أيام الأمطار الغزيرة أو عند ذوبان الثلوج. ويتلقى بهت بعض الروافد الصغيرة النابعة من الأطلس أيضاً.

سْبُو

نهر ينبع في جبل يسمى سليلكو في الحوز بإقليم مملكة فاس. وأصله عين كبيرة في غابة مخيفة، ثم ينحدر من هناك في شعب بين جبال وتلال، ويجري في سهل ماراً على بعد نحو ستة أميال من فاس. وبعد ذلك يقطع سهلاً فاصلاً بين الهبط وأزغار، ويتابع سيره إلى أن يصب في المحيط قرب بلدة اسمها المعمورة تبعد عن سلا بـ. . . [8] وتنصب بعض الأنهار في سبو، منها ما ينحدر من جبال غمارة كَوَرْغَة وأَوْضُور [9]. ومنها ما ينحدر من

---

(8) هنا بياض، وقد ذكر المؤلف في القسم الثالث أن هذه المسافة اثنا عشر ميلاً، بينما هي اثنان وعشرون ميلاً.

(9) هناك أربعة أنهر تنبع من جبال غمارة ــ أَوْضُور أحدها ــ وتصب في ورغة. انظر كتابنا الحركة الفكرية، ج 2، ص 475.

جبال في إقليم تازا. ومجرى هذا النهر طويل ومياهه غزيرة، غير أن به عدة أماكن يمكن عبوره منها، ولا يمكن ذلك في الشتاء ولا في الربيع، بل يعبر حينئذٍ بواسطة الفلك. وينصب كذلك في سبو النهر الذي يخترق مدينة فاس المسمى بواد الجواهر بلغة البلاد. وتوجد فيه كمية وافرة من السمك وخصوصاً في وقت الشابل، كما ذكرنا ذلك عند تعرضنا لوسائل العيش بفاس، حتى إن هذا السمك يباع فيها بثمن بخس.

وعندما يصب سبو في البحر يكون مصبه في غاية العرض والعمق بحيث يمكن للسفن العظيمة أن تدخله، كما فعله البرتغاليون والاسبانيون مراراً. وهذا النهر صالح للملاحة تماماً، لكن نظراً لجهل أهل البلاد لا يوجد فيه قارب مسطح ولا زورق واحد لحمل أي شيء كان. ولو استعمل أهل فاس نهر سبو للملاحة لنتج عن ذلك بالتأكيد انخفاض في سعر القمح الحالي إلى النصف. فقد لاحظت أن نقل القمح من أزغار إلى فاس تكلف نفقة الحِمْلِ المنقول ما تكلفه نفقة شرائه، ومع ذلك فإن القمح يباع في فاس بثلث مثقال رغم تكاليف هذا النوع من النقل. ولو نقل القمح عن طريق الماء لما بلغ ثمن الحمل حينئذ حتى ربع مثقال للحمل الواحد.

لُكُوسْ

نهر ينبع من جبال غمارة ويجري نحو الغرب عبر سهول الهبط وأزغار ماراً بالقرب من مدينة القصر الكبير، ثم يتابع سيره إلى أن يصب في المحيط قرب مدينة العرائش بإقليم أزغار على تخوم الهبط. ويقع مرسى المدينة عند مصب النهر، لكن الدخول إليه عسير جداً، لا سيما بالنسبة لمن لا خبرة له.

مَلُّولُو

ملّولو نهر نابع من الأطلس في تخوم مدينتي تازا ودبدو، لكنه إلى دبدو أقرب. ويسيل في سهول تيرست[10] وتَفْراطة الوعرة اليابسة، ثم يصب بعد ذلك في ملوية.

مَلْوِيَـــة

ملوية نهر كبير ينبع من الأطلس في ناحية الحوز، على بعد نحو خمسة وعشرين ميلاً من مدينة كَرسلوين[11]، فيجتاز أولاً بعض السهول الوعرة اليابسة ليصل إلى سهل أكثر وعورة ويبساً بين مفازات أَنْكَّاد وكَرْط، ويمر في سفح جبل بني يزناسن ويدخل في البحر المتوسط غير بعيد عن مدينة غِسَاسَة. ويُقطع هذا النهر في الصيف خوضاً على طول مجراه كله، ويوجد فيه قرب البحر سمك جيد.

زَا

زا نهـر ينبع من الأطلس ويسيل بسهل قفر أَنْكَّاد في الحد الفاصل بين مملكتي فاس وتلمسان. ولم أر قط مجرى هذا النهر عـامراً، لكنـه منخفض جداً، وفيه سمك كثير. إلّا أن أهل البلاد، وهم جهــال، لا يستطيعون صيده لسببين: الأول عدم امتلاكهم آلات الصيد، والثاني شدة صفاء الماء، وذلك غير صالح للصيد.

التَّافْنَــة

التافنة نهر يميل إلى الصغر، وينبع من جبال تقع في تخوم نوميديا، ثم يسيل نحو الشمال عبر قفر أنكاد إلى أن يصب في البحر المتوسط، ماراً على

---

(10) تِيرْسْتْ بالبربرية ــ عبارة عن أرض بيضاء كالصلصال، وهي غير التَّيْرس التي تعْني الأرض الخصبة السوداء المعروفة.

(11) يقع في الحقيقة نبع ملوية على بعد أكثر من 100 كلم غرباً، ويمر هذا النهر على بعد نحو 80 كلم شمال غرسلوين على واد زيز.

بعد نحو خمسة عشر ميلاً من تلمسان[12]، ولا يوجد فيه إلّا سمك صغير جداً لا قيمة له.

مِينَا

مينا نهر لا بأس به من حيث الكبر، ينحدر من الجبال المجاورة لتَقْدْمَت، ويمر عبر سهل مدينة البطحاء، ثم يتوجه شمالاً إلى أن يصب في البحر المتوسط[13].

الشّلَفْ

الشلف نهر كبير ينبع في جبال ونشريس وينحدر عبر سهول قفرة في تخوم مملكتي تلمسان وتَنَس، ليتابع سيره إلى أن يصب في البحر المتوسط فاصلاً بين قرية تدعى مَزْغْران ومدينة مسْتْغَانَم[14]، ويصطاد في مصب هذا النهر كمية وافرة من السمك الجيد، منه كبير وصغير.

الشّفَـــة

نهر ليس بالطويل، ينبع من الأطلس ويسيل في سهل يدعى المتيجة مجاور لمدينة الجزائر، ثم يصب في البحر المتوسط قرب مدينة عتيقة تدعى تمندفوست[15].

---

(12) بل على بعد تسعة عشر ميلاً من تلمسان.

(13) هذا غلط لأن مينا أحد روافد الشلف.

(14) لا يمر الشلف في الحقيقة بين مزغران ومستغانم، لكنه يصب في البحر شمال هذه المدينة.

(15) ذكر أحمد توفيق المدني في كتاب الجزائر (ص 171) أن وادي الشفة ينزل من جبال موزايا، ويخترق مضيقاً من أبدع ماتراه العيون، ويتصل بوادي سيدي الكبير، ثم ينصب في وادي الجر قرب القليعة. ويتكون من ذلك وغيره وادي مازافران الذي ينصب في البحر شرقي القليعة ــ غرب مدينة الجزائر ــ. أما النهر الذي لا يبعد مصبه عن أطلال المستعمرة الرومانية المعروفة عند البربر بتمندفوست فهو وادي حمير ــ في خليج الجزائر في رأس ماتيفو ــ.

النهرّ المدعوّ الواد الكبير

ينبع هذا النهر من جبال متاخمة لإقليم الزاب، وينحدر بين جبال شاهقة إلى أن يصب في البحر المتوسط، على بعد نحو ثلاثة أميال من بجاية. ولا يفيض إلاّ أيام الشتاء والثلج وليس من عادة صيادي بجاية أن يصطادوا فيه لقربهم المباشر من البحر.

السُّمَار

ينبع نهر السمار(16) من جبال متاخمة لجبل الأوراس، وينحدر عبر بادية جافة ليخرج في إقليم قسنطينة، وهناك يدخل تحت الأرض ويتصل بنهر آخر صغير. ثم يتوجه نحو الشمال، تارة بين تلال وأخرى بين جبال إلى أن يصب في البحر المتوسط، بعد أن يفصل إقليم مدينة الْقَالَة عن إقليم قصر جِيجَل.

يَدُوغ

يدوغ(17) نهر ليس بالكبير جداً، ينبع من بعض الجبال المجاورة لمدينة قسنطينة ويسيل بين جبال نحو الشرق إلى أن ينصب في البحر المتوسط قرب عَنَّابة.

---

(16) وادي السُّمَار ــ كما في كتاب **الجزائر**، ص 171 ــ من فروع وادي الحراش المتكون في جبال البليدة، المخترق سهول المتيجة، المنصب على بعد 8 كيلومترات من مدينة الجزائر. وهذا غير ما ذكره الوزان هنا، لذلك أول معلق الترجمة الفرنسية المنقول عنها اسم النهر فجعله وادي الرمل أو الرميل، وهو أقرب إلى الموضوع وأبعد عن التسمية.

(17) ينطبق الوصف المذكور في هذه الترجمة على نهر السيبوز الذي يجمع أودية شرف وبوحمدان ووادي الزناتي قبل أن يصب قرب عنابة.
انظر أحمد توفيق المدني، **كتاب الجزائر**، ص 170.

واد البَرْبَر

ينبع هذا النهر من بعض الجبال المتاخمة لإقليم مـدينة أوربس، ولا يزال يسيل بين تلال وجبـال. ومجراه كثـير الانعراجـات حتى أن المسافرين من تونس إلى عنابة يضطرون إلى اجتيازه حوالي خمس وعشرين مرة مع انعدام أي جسر أو زورق. وينصب أخيراً في البحر المتوسط قرب مرسى خال يسمى طَبْرقة، على بعد نحو خمسة عشر ميلاً من بَاجَة(18).

المَجَرْدَة

المجردة نهر كبير جداً ينبع من الجبال المتاخمة لإقليم الزاب، قرب مدينة تبسَّة(19)، متجهاً نحو الشمال إلى أن يصب في البحر المتوسط في المكان المسمى غار الملح، على بعد نحو أربعين ميلاً من تونس. ويَفيض كثيراً أيام الشتاء حتى يضطر التجار المسافرون إلى الإقامة يومين وثلاثة أيام في انتظار انخفاض المياه لعدم وجود أي زورق هناك. ويبعد هذا الممر عن تونس بنحو ستة أميال، وبهذا يمكن تقدير قلة كفاية الأفارقة وخمول ذهنهم وقلة إقدامهم على العمل.

واد قَابِسْ

هو جدول ماء نابع في صحراء إلى جهة الجنوب، ينحدر عبر سهول رملية إلى أن يقتحم البحر المتوسط قرب مدينة قـابس. ولمائـه طعم الكبريت. وهو حار جداً، لا بد من تركه ساعة يبرد ليمكن شربه.

* * *

(18) النهر الصغير الساحلي الذي يقع مصبه عند طبرقة، هو المسمى اليوم الواد الكبير. لكن النهر الذي ينبع من منطقة الأوربص هو تيسة الرافد الأيمن للمجردة، والنهر الذي يجب قطعه 25 مرة في طريق تونس ـ عنابة لا يمكن أن يكون غير المجردة في مجراه الأعلى.

(19) واد ملاك هو الذي ينبع قرب تبسَّة ويصب بعد ذلك في المجردة.

تلك هي مجاري المياه التي تستحق الذكر في بلاد البربر. وهناك أخرى كثيرة وهامة لا نتعرض لها في هذا الكتيب حتى لا يطول بنا الحديث عن أشياء غير معروفة. ونتابع الآن كلامنا عن أنهار نوميديا.

سُوس

نهر كبير نابع من جبال الأطلس، أي الفاصلة بين ناحية حاحة وناحية سوس. ينحدر نحو الجنوب بين هذه الجبال وينفذ إلى حقول ناحية سوس، ثم يسير غرباً إلى أن يلج المحيط قرب بلدة يقال لها كرطكَسيمة (أكَادير). ويفيض كثيراً في الشتاء حتى إنه يحمل كمية كبيرة من التربة الصالحة للفلاحة، لكنه يتناقص في الصيف حتى يمكن عبوره خوضاً بسهولة في بعض الأماكن.

دَرْعَـــة

نهر ينبع من الأطلس عند حدود هسكورة، وينحدر إلى جهة الجنوب عبر إقليم درعة، ثم يمر في القفر منتشراً في بادية تنبت الكثير من العشب في فصل الربيع ويأتي إليها الأعراب المجاورون لرعي إبلهم، لكنهم غالباً ما يتحاربون من أجل هذه المراعي ويقتتلون.

ويعود هذا النهر جافاً في الصيف حتى يمكن قطعه مع الاحتفاظ بالأحذية، لكنه يفيض في الشتاء حتى لا يمكن قطعه بحال من الأحوال ولو كان هناك زوارق. ويكون ماؤه مالحاً عند القيظ.

زِيزْ

ينبع زيز من الأطلس في جبال تقطنها صنهاجة، ويسيل نحو الجنوب بين عدة جبال ماراً بالقرب من مدينة تدعى غرسلوين. ويستمر فيها وراء ذلك مخترقاً أقاليم الخَنْك ومَضْغَرة والـرّتَبْ، فيدخـل في بلاد مـدينة

سجلماسة ماراً بين أراضيها الزراعية ويخرج إلى القفر حيث يسيل قرب قصر سغيلة. ثم يكوّن بحيرة وسط الرمال[20]، حيث لا يوجد أي سكن، غير أن الصيادين من الأعراب يختلفون إلى ضواحيها لأنهم يجدون فيها صيداً حسناً جداً.

كِيرْ

نهر نابع هو الآخر من الأطلس،يسيل نحو الجنوب عبر مفازات، ويمر بمنطقة آهلة بالسكان تدعى بني كّومي[21]، ويتوغل وراءها في القفر ليتحول أخيراً كذلك إلى بحيرة في وسط الصحراء[22].

* * *

لقد سبق أن حدثتكم عن النهر الذي سماه بطليموس النيجر في القسم الأول من هذا الكتاب الصغير، عندما تعرضت لأقسام افريقيا.

* * *

نهر النيل العظيم

إن الأشياء المتعلقة بالنيل ومجراه لعجيبة جداً، وكذلك الحيوانات التي تعيش فيه كالخيل والبقر البحرية والتماسيح التي لا يحصى عددها ولا تحد شراستها، كما سبق أن ذكرنا ذلك في القسم الخاص بالنيجر، وكما سنبيّنه في القسم الخاص بالحيوانات الغريبة في إفريقيا.

لم تكن التماسيح أيام المصريين والرومان تحدث من الأضرار مثل

(20) لم يبق ذكر لهذه البحيرة في الناحية.

(21) إن بني كومي في الواقع متاخمون لزُزفانة قبل أن يُصبّ في كير بايكلي حيث يجتمعان ويحملان اسم وادي الساورة.

(22) لقد اضمحلت هذه البحيرة منذ قديم بعد أن غمرتها الرمال.

ما تحدثه اليوم، وقد ازداد خطرها منذ دخل المسلمون إلى مصر. يروي المسعودي في كتابه[23] عن الاكتشافات العجيبة في العصور الحديثة أنه عندما كان أحمد بن طولون والياً على مصر من قبل جعفر المتوكل خليفة بغداد عام 270 للهجرة، عثر على تمثال تمساح من رصاص في حجم أحد هذه الحيوانات وعليه حروف مصرية. وقد وقع اكتشاف هذا التمثال في أسس معبد وثني، فأمر الوالي بتحطيمه وبدأت التماسيح منذ تلك السنة تلحق أضراراً كبيرة بالسكان. فاعتقد الناس أن هذا التمثال صُنع تحت أرصاد فلكية لاتقاء شر هذه الوحوش، لكن الذي يبدو غريباً هو أن التماسيح التي تعيش في النيل بين القاهرة والبحر لا تؤذي أبداً، بينما التي توجد على عالية القاهرة تفتك بالناس وتحدث أضراراً كثيرة.

يدوم فيضان النيل في مصر أربعين يوماً ابتداء من سابع عشر يونيو. ويدوم تناقصه أربعين يوماً كذلك. وقبل أن يصل الفيضان إلى مصر، يبقى طيلة شهر ماي وجزء من شهر يونيو وهو ينحدر في مجرى النهر[24]. وتختلف الآراء حول أصل النيل. فمنهم من يقول إنه ينبع من جبل يسمى جبل القمر، ومنهم من يزعم أنه ينبع في سهول مهجورة بسفح هذا الجبل من عدة عيون متباعدة جداً بعضها عن بعض. ويؤكد أنصار الرأي الأول أن النهر ينحط من الجبل بتدفق شديد إلى حد أنه يدخل تحت الأرض ثم يخرج من مختلف هذه العيون. لكن هذين الرأيين ليسا إلاّ مجرد افتراضات، إذ لم يشاهد قط شيء من ذلك، ولا يزال غير ممكن رؤية شيء منه.

---

(23) مروج الذهب ومعدن الجوهر، مطبوع أكثر من مرة.

(24) يعلن النيل الأزرق الآتي من أثيوبيا فيضانه بالخرطوم في 26 أبريل، ويضاف إليه هناك النيل الأبيض الآتي من البحيرات الاستوائية الكبرى في 19 ماي. ويلحق الفيضان بدنقلة في 17 ماي، وبأسوان في 29 ماي. ويقضي الفيضان 52 يوماً لقطع مسافة 2.759 كلم الفاصلة بين الخرطوم والقاهرة.

غير أن تجار إثيوبيا الذين يذهبون إلى دنقلة يقولون إن النيل يتسع في الجنوب شيئاً فشيئاً ويصير كأنه بحيرة، بحيث يتعذر التعرف على رسم مجراه. وينقسم في الجنوب كذلك إلى عدة فروع تسيل في هذه المغاور ممتدة شرقاً وغرباً ومانعة الناس من العبور للالتفاف حول تعرجات النهر.

ويؤكد عدد كبير من الإثيوبيين الذين يتنقلون في هذه النواحي على غرار الأعراب، أن بعض من فقدوا منهم إبلاً في وقت النزو ذهبوا لنشدانها نحو الجنوب على مسافة نحو ألف ميل، فلم يروا من النيل سوى بحيرات صغيرة وفروع كبيرة متتالية، وأنهم وجدوا جبالاً كبيرة جافة خالية. ويذكر نفس المؤرخ المسعودي وجود قوم متوحشين في هذه الجبال يجرون كالوعول ويأكلون العشب ويعيشون في الفلوات مثل الوحوش المفترسة. ولعل هذا من الأكاذيب الشائعة التي أضعفت الثقة والاعتماد على مؤلفات هذا المؤرخ. ويذكر أيضاً أنه يوجد في هذه الجبال كثير من الزمرد، ومن الممكن أن يكون هذا صحيحاً. ولو ذكرنا كل ما قاله الجغرافيون عن النيل لاستغرب الناس ودهشوا، وربما لم يصدقوا ذلك، فلنضرب عنه صفحاً حتى لا يضيع الوقت فيما لا ثقة فيه.

الحيوانات

ولننتقل الآن إلى الحيوانات، وليس من غرضي أن أتحدث عن كل ما يوجد منها بافريقيا، فذلك شيء يكاد يكون مستحيلاً، ولكن أذكر فقط ما لا يوجد منها في أوربا، أو يختلف عما هو فيها. وسأتعرض بالتتابع إلى الحيوانات البرية، فالحيوانات المائية والحيوانات الطائرة، ضارباً صفحاً عن أشياء كثيرة كتبها بلين الذي كان عالماً فريداً من نوعه، ورغم ذلك فإنه ارتكب أخطاء في بعض الجزئيات الخاصة بافريقيا، ولم يكن ذلك الخطأ منه، بل من الذين أخبروه والذين كتبوا قبله. وكما يقول المثل العامي العربي: «ماذا ينجس بول الطفل من مياه البحر؟!».

الفيل

الفيل حيوان وحشي لكنه يستطيع أن يتعلم. يوجد بكثرة في غابات بلاد السودان. وعندما يلتقي بإنسان يجتنبه ويخلي له المكان، لكن إذا أثاره الإنسان أمسكه بخرطومه الطويل ورفعه إلى السماء ثم رمى به إلى الأرض وداسه بأقدامه إلى أن يتركه كالميت. ورغم أن الفيل دابة عظيمة شرسة فإن صيادي إثيوبيا يقنصون الكثير منه بالكيفية التالية:

يذهبون إلى الغابات الكثيفة حيث يعرفون أن هذه الحيوانات تستريح في الليل، فينصبون هناك بين الأشجار عارضات من الأغصان القوية تكوّن سياجاً سميكاً، ويتركون به مكاناً صغيراً فارغاً. ثم يربطون به باباً يتركونه مبسوطاً على الأرض على شكل باب محرب يمكن رفعه بحبل لإغلاق الممر بسرعة. فإذا دخل الفيل في السياج بعد أن نام (واستيقظ) جذبوا الحبل بقوة ووقع في السجن. فينزل إذ ذاك الصيادون من الأشجار ويقتلون الفيل بالنبال ثم يأخذون أنيابه ليبيعوها. لكن إذا خرج الفيل من السياج قتل كل من وجد من الناس.

وفي الهند واثيوبيا العليا طريقة أخرى لصيد الفيل لا أذكرها.

الزَّرَافَة

الزرافة حيوان وحشي لا يكاد يُرى، لأنه يختفي في غابات وصحارى ليس بها حيوانات أخرى. يفرّ إذا رأى الناس لكنه بطيء في عدوه. رأسه رأس البعير، وأذناه أذنا الثور، وحوافره حوافر... (25) ولا يقنص الصيادون الزرافات الكبيرة أبداً، وإنما يذهبون إلى الغابات للبحث عن الصغار في مأواها.

(25) هنا بياض، وقد ترجم طمبورال هكذا: «... أذنا الثور وحوافر الثور...».

البعير

البعير حيوان أهلي هادىء جداً، توجد منه كمية عظيمة في افريقيا، خصوصاً في صحارى نوميديا وليبيا وحتى في بلاد البربر. وتكوّن الإبل ثروة الأعراب وأرزاقهم، وعندما يراد ذكر ثروة أمير أوشريف من الأعراب يقال: «فلان له مقدار كذا من آلاف الإبل»، ولا يقال: «له مقدار كذا من الدنانير أو الممتلكات».

وجميع الأعراب الذين يملكون الإبل أمراء يعيشون أحراراً، إذ بها يستطيعون الإقامة في الصحارى التي لا يقدر ملك ولا أمير أن يذهب إليها لجفافها.

توجد هذه الحيوانات في كل أنحاء العالم، في آسيا وافريقيا وحتى في اوربـا. ويملكها في آسيا التتر والأكراد والديلم والتركمان، كما يستعملها في اوربـا الأمراء الأتراك في قوافلهم، وكذلك في افريقيا بالنسبة للأعراب وسكان صحارى ليبيا. ويقتنيها أيضاً جميع الملوك لحمل مؤنهم وأمتعتهم، إلا أن إبل افريقيا أفضل من إبل آسيا لأنها تحمل الأثقال مدة أربعين أو خمسين يوماً دون أن تستلزم علفاً في المساء، وإنما تنزل عنها الأحمال وتترك ترعى في البرية قليلاً من العشب والشوك وأغصان الشجر، وذلك ما لا يمكن عمله مع إبل آسيا.

ويجب عند السفر أن يكون الجمل كثير السمن مملوء البطن. فقد أظهرت التجربة أن الجمل عندما يسافر خمسة أيام وهو يحمل الثقل دون أن يأكل، يذهب أولاً شحم سنامه، ثم بعد خمسة أيام أخرى يذهب شحم بطنه، ثم شحم ساقيه بعد خمسة أيام كذلك. وإذا فقد شحمه كله لا يستطيع حمل مائة رطل، لذلك فإن التجار الذين يستعملون الإبل بآسيا يعلفونها كل مساء، الأمر الذي يضطرهم إلى أن يأخذوا مع كل جمل يحمل ثقلاً جملاً آخر يحمل علفاً. وهكذا فإن الجمال في قوافل آسيا تسير وهي محمّلة دائـماً، سواء في الـذهاب والإيـاب، وتبقى مـع ذلـك سمينة

ولو ضاعفت الأسفار. لكن التجار الأفارقة الذين يذهبون إلى إثيوبيا لا يهتمون بالرجوع، لأن دوابهم تعود فارغة، إذ ما يأتون به من إثيوبيا قليل الوزن بالنسبة لما يحملون إليها، ولذلك فإن جمالهم تكون هزيلة وتصبح ظهورها مصد ألم لها عندما تصل إلى إثيوبيا. فتباع حينذاك بدراهم معدودة إلى أهل الصحراء الذين يعملون على إصلاح حالها.

ولا يحتاج التجار لعودتهم إلى نوميديا أو إلى بلاد البربر إلا لعدد قليل من الدواب لحملهم ونقل المؤن والذهب وبعض الأشياء الخفيفة.

والإبل ثلاثة أصناف ــ أو إن شئتم ثلاثة أنواع ــ يدعى الصنف الأول منها هُجْنا، وهي ضخمة طويلة وحاملات ممتازة، لكنها لا تستطيع أن تحمل ثقلاً قبل أن تبلغ السنة الرابعة، وحينئذ يصبح أضعفها قادراً على حمل ألف رطل ايطالي. ولوضع الأحمال عليها تلمس بقضيب في ركبتيها وعنقها فتبرك حيناً في الأرض بالغريزة. وبمجرد ما يحس البعير بما يكفيه من الوزن الموضوع عليه يقف. ومن عادة الأفارقة الذين يرغبون في احتفاظ إبلهم بمزاياها كحاملات أن يُخصوها غير محتفظين إلا بذكر واحد لعشر من الإناث.

ويدعى البعير من الصنف الثاني بُخْتاً، وله سنامان، كلاهما صالح لحمل الثقل أو الركاب، لكنه لا يوجد إلا في آسيا.

ويطلق اسم رواحل على إبل النوع الثالث، وهي نحيلة الجسم رقيقة الأعضاء لا تصلح لغير الركوب، لكنها سريعة جداً، أغلبها قادر على قطع مائة ميل أو أكثر في اليوم، مع الاحتفاظ بالعَدْوِ مدة ثمانية أيام أو عشرة في الفلاة بأقل زاد. ويستعملها جميع الأشراف من أعراب نوميديا وأفارقة ليبيا مطايا لهم. وإذا أراد ملك تمبكتو إبلاغ أمر هام إلى تجار نوميديا، أرسله بواسطة ساع راكب أحد هذه الجمال التي تقطع مسافة تسعمائة ميل بين تمبكتو ودرعة أو سجلماسة في ظرف سبعة أيام

أو ثمانية. إلا أنه من الضروري أن يكون للمكلفين بمثل هذه المهام خبرة كبيرة بالصحراء، ويطلبون للسفر ذهاباً وإياباً أجرة قدرها خمسمائة مثقال.

ويكون نزو الإبل في أوائل الشتاء، فلا تتصارع حينئذ بينها فحسب، لكنها تهاجم الذين آذوها حتى تقتلهم، لأنها تتذكر كل لحظة تلقت فيها الضربات من صاحبها. وإذا أمسكت أحداً بين أسنانها تركته يسقط ثم داسته بقوة بأخفافها الأمامية. ولا يدوم نزوها إلا أربعين يوماً ثم تعود هادئة. وتصبر على العطش صبرها على الجوع. ففي استطاعتها أن تبقى خمسة عشر يوماً دون أن تشرب ولا أن تتأذى بذلك. وإذا أورد أحد إبله كل ثلاثة أيام أضرّها ذلك لاعتيادها الورود كل خمسة أيام فقط أو كل تسعة أيام، بل وكل خمسة عشر يوماً إن اقتضى الحال. وللجمال إحساسات عاطفية طبيعية وبعض العواطف الإنسانية. وهكذا فقد يتفق أن الذين يسوقونها في الطريق بين إثيوبيا وبلاد البربر يضطرون إلى قطع مرحلة أطول من المعتاد. فإذا لاحظوا أن جمالهم تأبى أن تسير أبعد من ذلك، لم يرغموها على المسير بالضرب وإنما يغنون لها ألحاناً خاصة تطرب لها وتتابع سيرها بأسرع مما تفعله الخيل المدفوعة بالسوط والمهماز، حتى إن حُداتها يشق عليهم اتباعها.

وشاهدت بالقاهرة جملاً يرقص على إيقاع طبلة، فأخبرني صاحبه بالطريقة التي درَّبه عليها. وإليكم ما فعل: اختار جملاً صغيراً وأخذ يحبسه مدة نصف ساعة في حجرة مبنية على شكل حمام أرضها مسخّنة بموقد، ويكون الرجل في هذه الأثناء خارج الحجرة يعزف بالطبلة. فكان الجمل يرفع رجلاً تارة ورجلاً أخرى تارة كأنه يرقص، لا من أجل هذا العزف ولكن من أجل الحرارة التي كانت تؤلمه. وبعد عشرة أشهر أو سنة من هذا التدريب جاء المربي بالحيوان إلى ساحة عمومية، وبمجرد ما سمع الطبلة ظن أنه على نفس الأرض متذكراً فقط حرارة النار فرفع أرجله بنفس الطريقة،

حتى إن الناظر إليه يظنُّ أنه يرقص. وبما أن العادة طبيعة ثانية فإن الجمل لم يفقد بعد ذلك هذه العادة قط.

وفي إمكاني أن أقول أشياء أخرى كثيرة عن الجمل، إلا أنني أضرب عنها صفحاً حتى لا أكون مملاً.

فرس المغرب

تسمى هذه الخيول في ايطاليا «بربري» وكذلك في اوربا كلها[26] لأنها تأتي من بلاد البربر. وهي من نوع يولد في هذه البلاد. وقد يخطىء من يظن أنها من جنس خاص، لأن الخيل العادية في بلاد البربر مثل التي في غيرها من البلاد.

إلا أن الخيل الأكثر خفة وسرعة سواء في الشام أو مصر أو الجزيرة العربية الصحراوية أو السعيدة (اليمن) أو في آسيا، تسمى الخيول العربية. ويعتقد المؤرخون أن هذا النوع من الخيل نتج عن الأفراس الوحشية التي كانت تتيه في فلوات الجزيرة العربية، وأن العرب جعلوا يدجنونها منذ عهد إسماعيل، فتكاثر عددها وانتشرت في افريقيا كلها. وهذا الرأي عندي صحيح إذ ما زال حتى الآن يشاهد بعض هذه الأفراس الوحشية في قفار الجزيرة العربية وبعض الصحارى الافريقية. وقد رأيت بنفسي في صحراء نوميديا أثناء رحلتي الثانية إليها مهراً ابن سنة ونصف كان أبيض اللون منتصب العرف وحشي الوجه، ولم يكن بعيداً عني بأكثر من رميتي حجر.

وأهم اختبار لسرعة هذه الخيل هو العَدْوُ وراء حيوان يدعى اللمت أو خلف نعامة. فإذا أدرك أحد هذين الحيوانين قُدّر ثمنه بألف مثقال أو مائة بعير.

---

(26) غلب عليها في فرنسا اسم «بارب».

ولا يوجد إلا القليل من الخيول العربية في بلاد البربر، إلا أن أعراب الصحراء وأهل ليبيا يربّون الكثير منها ولا يستعملونها للسفر ولا للحرب بل للصيد فقط. ولا يطعمونها غير لبن النياق مرتين في النهار والليل، وكذلك يحافظون على نشاطها وخفتها ولو أنها تبدو ضامرة، ويتركونها ترعى العشب في فصل الربيع لكنهم لا يركبونها في ذلك الوقت.

وليس للخيل التي يملكها ملوك بلاد البربر مثل هذه السرعة في السباق، لكنها أكثر حسناً وامتلاء، لأنها تعلف الحبوب. وبفضل هذه الخيل ينجون بأنفسهم إذا ما اضطروا إلى الهروب من وجه أعدائهم.

الفرس الوحشيّ

يعتبر الفرس الوحشي كصيد ولا يُرى منه إلا النادر. وإذا اصْطاد أعراب القفر واحداً أكلوه، ويقولون إن لحمه لذيذ لا سيما إذا كان جذعاً. إلا أنه من النادر أن يصطاد فرس وحشي بالخيل والكلاب، بل تصنع حبال توضع عند الماء الذي يرده هذا الحيوان وتغطس بالرمل، وبمجرد ما يضع قوائمه في هذا الفخ يتعرقل بحيث يرغم على البقاء هناك، وهكذا يمكن القبض عليه.

اللَّمْت

هو حيوان يشبه الثور في شكله لكنه أصغر منه، وحوافره وقرونه أدق. يميل لون جلده إلى البياض، إلا أن أظلافه شديدة السواد. وهو سريع جداً بحيث لا يسبقه حيوان آخر في الجري ما عدا بعض الخيول المغربية كما سبق أن قلناه. ويصطاد بسهولة في الصيف لأنه يفقد بسبب حرارة الرمل أظلافه وسرعة عدوه، حتى يمنعه الألم من العدو. وتصطاد الغزلان والوعول لنفس السبب. وتصنع من جلد اللمت تروس صلبة جداً بحيث لا يخترقها شيء باستثناء القذائف النارية، لكن هذه التروس تباع بأثمان باهظة.

الثَّور الوحشيّ

يشبه هذا الحيوان الثور، لكنه أصغر منه أيضاً. ويكاد لون البقر الوحشي كله يكون رمادياً أسمر. وهو أيضاً كثير السرعة ولا يوجد إلا في الصحارى أو تخومها. ولحمه ممتاز.

الحمار الوحشيّ

يوجد الكثير من هذه الحمر في القفر، ولونها رمادي أسمر، وهي شديدة السرعة لا تسبقها إلا الخيول المغربية. وعندما تبصر إنساناً تأخذ في النهيق والرفس، وتمكث في مكانها إلى أن يقترب منها الإنسان حتى يوشك أن يمسها بيده فتفر حينئذ. يقنصها أعراب الصحراء بأشراك وآلات أخرى. وتجتمع حمر الوحش في قطيع عند رعيها وورودها الماء. ولحمها جيد إلا أن رائحته كريهة عندما يكون ساخناً تفوح منه رائحة الوحش، لكنه يصير ممتازاً ولذيذاً إذا ترك يبرد مدة ساعتين بعد طهيه.

بقر جبال افريقيا

إن جميع البقر الداجن الذي يولد في جبال افريقيا صغير القامة إلى حد أنه يشبه العجول التي بلغ سنها عامين من عجول البقر العادي. غير أن الجبليين يستخدمونها للحرث ويدعون أنها قوية جداً صبورة على التعب.

الدَّمَّانْ

هذا الحيوان داجن، شكله شكل الخروف، إلا أن قامته قامة حمار قصير وأذناه طويلتان متدليتان. يملك أهل ليبيا قطعان أغنام من هذا النوع، يستخرجون منها كيمة من اللبن يصنعون منه الزبد والجبن، وصوفها جيد لكنه قصير. وللإناث وحدها قرون بخلاف الذكور. والدمان

هادىء جداً، أردت مرة أثناء طفولتي الجامحة أن أختبر قوة هذا الحيوان، فركبت كبشاً حملني مسافة ربع ميل. ولا يوجد الدمان بكثرة إلا في صحارى ليبيا، ويُرى القليل منه مع ذلك في بلاد نوميديا، لكنه يُعتبر هناك كأشياء غير عادية.

الغنم

لا تختلف هذه الغنم عن غيرها إلا بذيلها العظيم. وكلما كان الذيل ضخماً كان الحيوان سميناً. ومنها ما يزن ذيله خمسة عشر إلى عشرين رطلاً، ويحدث ذلك عندما تتغذى بنفسها. لكن الكثير من الناس في مصر يتعاطون إلى تسمينها، ويطعمونها النخالة والحبوب، فيتضخم ذيلها لدرجة أن الذين يعلفونها يربطونه في عربة صغيرة لتتمكن من السير. وشاهدت بأسيوط، وهي مدينة مصرية على النيل بعيدة بمائة وخمسين ميلاً[27] من القاهرة، أحد هذه الخرفان يزن ذيلها ثمانين رطلاً. ويؤكد الكثير من الناس أنهم رأوا منها ما يزن مائة وخمسين رطلاً. وشحم هذا الحيوان كله في ذيله. ولا يوجد إلا في تونس ومصر.

الأسد

هذه الحيوانات وحشية وخطيرة على سائر الحيوانات. وهي أقوى منها وأكثر شجاعة وشراسة، لا تفترس الأسود الحيوانات فقط بل الناس أيضاً، ومنها ما تتجرأ في بعض الأماكن على مهاجمة مائتي فارس، يرتمي كل أسد على القطيع بدون تردد مختطفاً منه فريسة يحملها إلى الغابة أو العرين الذي يحتضن أشباله. أما الفرسان فيقتل منهم ـ كما قلت آنفاً ـ خمسة أو ستة. والأسود التي تعيش في الجبال الباردة أقل جرأة وشراسة وإذاية،

(27) سبق قلم، بل مائتين وخمسون ميلا، وهو الرقم الصحيح الذي قدّمه المؤلف عندما وصف أسيوط في القسم السابق.

لا سيما بالنسبة للإنسان. وبعكس ذلك، كلما اشتد الحر زادت شراستها وجرأتها. ذلك شأن الأسود التي توجد بين تامسنا ومملكة فاس، وفي صحراء أنكّاد بالقرب من تلمسان، وبين عنابة وتونس. وهي أشهر أسود افريقيا كلها وأكثرها شراسة. تتقاتل بينها قتالاً دامياً في الشتاء عند النـزو، ويا تعس من تصادفه! ويشاهد أحياناً عشرة أسود أو اثنا عشر تتبع نفس اللبؤة.

وقد سمعت من رجال ونساء كثيرين أن ما على المرأة إذا وجدت نفسها أمام أسد في مكان منفرد إلا أن تكشف له عن عورتها، فيزأر إذ ذاك الأسد زئيراً قوياً ويغض الطرف ثم ينصرف. وليعتقد كل أحد ما شاء!

وأخيراً فإن الأسد يحمل في فمه كل ما اصطاده ولو كان جملاً، وقد كدت مرتين أن أكون فريسة الأسود، ونجوت فيهما من الخطر بلطف الله.

النُّمور

تعيش هذه الحيوانات في غابات بلاد البربر، وهي قوية شرسة لكنها لا تؤذي الإنسان إلا في حالات نادرة حين تصادف أحداً في بعض الطرق الضيقة التي لا تساعد على الفرار. وتهاجم أيضاً كل من صرخ أو تحداها، فيقفز الوحش عندئذ على ظهر الإنسان، ممزقاً وجهه بأظفاره ومقتلعاً كل ما أمكنه من لحمه. ويكسر أحياناً رأسه ويقتله. لا يهاجم النمر أبداً قطعان الماشية، لكنه عدوٌّ لدود للكلاب فيقتلها ويفترسها. ومن عادة سكان جبال ناحية قسنطينة أن يصطادوا النمر على الخيل. يسدون أمامه جميع المنافذ، وعندما يحاول الفرار يجد على المنفذ عدداً من الفرسان، فيسرع إلى الآخر فيجد فرساناً آخرين. ويُقتل في الأخير بعد أن يجري عبثاً في كل الجهات. ويفرض على كل من تركه يخلص من المكان الذي يحرسه أن يقيم وليمة لسائر الصيادين ولو بلغ عددهم ثلاثمائة صياد.

الضَّبُع

الضبع حيوان في حجم الذئب وشكله تقريباً، وتشبه رجلاه ويداه أعضاء الإنسان السفلى، ويسميه العرب ضبعاً والأفارقة إفِيس[28]. لا يؤذي هذا الحيوان غيره من الحيوانات، لكنه ينبش عن القبور ويأكل جثث الأموات. وهو كريه بليد، إذا اكتشف الصيادون المغارة التي يأوي إليها قصدوها وهم يضربون على الطبلة ويغنون. فيطرب الحيوان إلى هذا الغناء حتى إنه لا ينتبه إلى الرجل الذي يربط أرجله بحبل متين، فإذا شد وثاقه أخرج من جحره وقتله الصيادون الآخرون[29].

قطُّ الزَّبَاد

هذه القطط وحشية بطبيعتها، موجودة في غابات إثيوبيا، يصطادها التجار وهي صغيرة، فيربونها في القفص ويغذونها باللبن وحساء النخالة، بالإضافة إلى اللحم. ويستخرجون منها الزباد مرتين أو ثلاث مرات في اليوم، وما هو إلا عرق الحيوان. فيضرب القطّ بقضيب صغير ليتحرك في قفصه حتى يعرق، ثم يجمع العرق تحت إبطيه وفخذيه وذنبه، وذلك ما يكوّن الزباد.

القِرَدَة

القردة أجناس مختلفة، منها المذنَّبة التي تدعى «مونِّي» بالايطالية، ومنها غير المذنبَّة وتسمى «بابويني». توجد كمية وافرة من القردة في جبال موريطانيا وجبال قسنطينة. وهي شبيهة جداً بالإنسان ــ كما هو معروف ــ

---

(28) كتب في الأصل أسيف.

(29) إن ميل الضبع للموسيقى مشبوه فيه كثيراً، لكن أمثلة عديدة تبرهن على أن هذا الحيوان يصاب بنوع من الكبت عندما يفاجأ في مغارته.

لا في أرجلها وأيديها فحسب، ولكن أيضاً في وجوهها. وقد حبتها الطبيعة بدهاء وذكاء عجيبين، تتغذى بالأعشاب والحبوب. وإذا أرادت أن تختلس السنابل جاء منها عشرون أو ثلاثون مجتمعين، وبقي واحد خارج الحقل ليعس، وبمجرد ما يرى صاحب الحقل قادماً يطلق صرخات حادة، فتسرع الأخرى بالهرب وهي تقفز على الأشجار قفزات عظيمة من شجرة إلى أخرى. وتحمل الإناث صغارها على أكتافها وتقفز بها وهي متعلقة بها. وتقوم القردة المدربة بأشياء عجيبة. وهي حيوانات غضوبة شريرة، لكنها تهدأ بسهولة.

الأرانب

توجد الأرانب الوحشية بكمية كثيرة في جبال غمارة وموريطانيا، وتصاد فيها كما تصاد الأرانب البرية.

يقول الكثير من جغرافيي البلاد إن هذه الحيوانات لم تكن وحشية في قديم الزمان، إلا أنه بعد أن استولى الرومان والقوط على دول افريقيا أصبح عدد كثير من المدن والقصور مهجوراً، فتوحشت الأرانب التي كانت فيها والتجأت إلى الغابات. ولا يجزم بصحة هذا القول أو بعدم صحته، لكنه يمكن أن يصدق، لأن لحم هذه الأرانب الوحشية له نفس لون وطعم لحم الأرانب الداجنة.

الأسماك

سمك الْعَنْبَرة

لنتكلم الآن على الأسماك: العنبرة سمك مرعب فظيع في شكله وحجمه، ولا يُرى أبداً إلا ميتاً، لأن البحر يقذف به على الشاطىء. ورأسه صلب جداً كأنه من حجر. ومنه ما يبلغ طوله خمسة وعشرين ذراعاً أو أكثر. ويقول سكان ساحل المحيط إن هذا السمك هو الذي يفرز العنبر، ولكنهم يختلفون فيما إذا كان يحصل من برازه أو من منيه. ومهما يكن من أمر فإنه حريّ بأن يدعى حوتاً بسبب شكله.

فرسُ الماء

يوجد هذا الحيوان في النيجر وكذلك في النيل، له شكل فرس لكن بدون شعر، جلده صلب جداً وقامته قامة حمار. يعيش في الماء والبر على السواء، لكنه لا يخرج من الماء إلا ليلاً. وهو شرير خطير على الزوارق الصغيرة التي تنحدر في النيجر وهي محملة، فإذا اصطدمت بظهره قلبها وأغرقها. ويا ويل لمن لا يحسن السباحة!

ثَوْرُ الماء

هو حيوان يشبه الثور في جميع أطرافه، لكنه أصغر منه بكثير، وقامته قريبة من قامة عجل ابن ستة أشهر. يوجد في النيجر وكذلك في النيل، ويأخذ الصيادون ما يعيش من ثيران الماء طويلاً في البر. وجلودها شديدة

الصلابة. ورأيت واحداً منها في القاهرة يسوقه رجل بسلسلة في عنقه، قال لي إنه اصطاده في النيل قرب إسنا، وهي مدينة على بعد نحو أربعمائة ميل جنوب القاهرة[30].

السُّلَحْفَاةُ العِمْلاقة

كان الواجب أن يُعدّ هذا الحيوان من جملة الحيوانات البرية لأنه يعيش في الصحارى، ويوجد في صحراء ليبيا كثير من هذه السلاحف التي يبلغ حجمها بوطة[31]. وذكر الجغرافي البكري في كتابه عن ممالك افريقيا ومسالكها أن رجلاً فاضلاً كان ليلة في أحد قفار ليبيا هذه وقد تعب من سفره، فأبصر بقربه صخرة عالية رأى أن ينام عليها ليتقي أذى بعض الدواب السامة، ففعل، ووجد نفسه في صباح الغد على مسافة ثلاثة أميال من المكان الذي توقف فيه. فذهل ولاحظ إذاك أن ما توهمه صخرة كان سلحفاة عملاقة، تظل واقفة بالنهار وتسير ليلاً لترعى لكن ببطء شديد بحيث لا تثير الانتباه[32]. ولم أرَ قط سلاحف بهذا الحجم، إلا أنني رأيت بعضها في حجم برميل كبير[33]. ويزعم سكان الصحراء أن كل من أصيب بالبرص منذ أقل من سبع سنوات وأكل من لحمها طيلة سبعة أيام شُفي منه. وهم يعرفون عدة وصفات سرية مبنية على خصائص هذا الحيوان. إلا أنني لن أتكلم عنها لأن هذا الكتيب ليس تأليفاً في الطب.

---

(30) تقع إسنا، على بعد أربعمائة وستة وتسعين ميلاً، جنوب القاهرة على طريق النهر.

(31) البوطة: مكيال للخمر سعته نحو 933 ليتر.

(32) ذكر البكري فعلاً السلاحف العملاقة المائية منها والبرية، لكن القصة التي يرويها المؤلف ليست نفس القصة، فالأمر يتعلق بمسافر وضع أمتعته على ما توهمه حجرة ضخمة لوقايتها من الأرضة ولم يجد شيئاً في الصباح. فتتبع أثر السلاحفاة ووجدها بعيدة من هناك بعدة أميال والأمتعة لم تزل على ظهرها.

(33) الرميل أو البريلي: هو جزء من ستة عشر جزءاً من البوطة (نحو 58 ليتراً).

التّمساح

يُوجد كثير من التماسيح في النيجر والنيل، وهو حيوان خبيث يؤذي كثيراً، ويبلغ طوله اثني عشر ذراعاً، وطول ذنبه بقدر طول سائر جسده، إلا أنه من النادر العثور على ما له هذه الأبعاد. له أربعة أرجل وشكله تماماً شكل الوزغ، ولا يتعدى علوه ذراعاً ونصفاً. يبدو ذنبه وكأنه مؤلف من سلسلة حلقات، وجلده صلب لدرجة أنه لا يمكن أن تخترقه قذيفة قوية. ولا تأكل بعض التماسيح غير السمك، ويأكل بعضها الحيوانات البرية والإنسان، فتختبىء بدهاء عظيم قرب ضفاف النهر التي يختلف إليها الناس وكثير من الدواب، فإذا أبصرت أحداً رمت بذنبها فجأة خارج الماء، وأحاطت بالرجل أو الحيوان ثم سحبته إلى الماء وافترسته.

وإذا أكل التمساح تحرّك فكه الأعلى وحده، لأن فكه الأسفل ملتحم مع عظام الصدر. وليست جميع التماسيح من هذا النوع، وإلا لما استطاع أحد أن يسكن على ضفاف النيجر أو النيل.

كنت مبحراً مرة في سفينة ذاهبة من القاهرة إلى قنا، وهي مدينة في مصر العليا على بعد أربعمائة ميل من القاهرة، وبلغنا منتصف الرحلة في ليلة احتجب فيها القمر قليلاً بالسحب، وكانت الرياح تسرع بنا، والبحّارة والمسافرون كلهم نيام. أما أنا فدخلت قمريتي حيث كنت اشتغل تحت ضوء شمعة، وإذا بشيخ فاضل يناديني، وكان ساهراً يصلي. فقال لي: «يا هذا، نبِّه أحد أصحابنا ليعينني على التقاط قطعة كبيرة من الخشب تنفعنا كثيراً غداً لطهي الطعام!» فأجبته: «أتريد أن آتي أنا؟ ذلك خير من إيقاظ أحد في هذه الساعة». وكان الوقت منتصف الليل تقريباً. فقال لي الشيخ: «سأريك أنني قادر على إمساكها وحدي!». ولما قدَّر أن السفينة صارت قريبة من قطعة الخشب أدلى يديه ليوثقها بربقة، وفي الوقت ذاته برز من الماء ذنب طويل استدار على وسط الشيخ وأسقطه حيناً في النهر، فجعلت أصيح، وقفز جميع من كانوا في السفينة على أرجلهم، ثم أنزل

الشراع وتوقفت السفينة، فارتمى عدد كثير من الناس في الماء وبقينا ساعة كاملة والسفينة مربوطة في حافة النهر لكن بدون جدوى. ولم يعثر للشيخ على أثر، وتيقّن الجمع أن التمساح افترسه.

وبينما كنا نتابع طريقنا في النهر أبصرنا منها جماعات تتركب من عشرة إلى اثني عشر تمساحاً على جُزَيرات النيل، وكانت فاتحة أفواهها في الشمس، بينما كانت طيور صغيرة بيضاء في حجم السمنة تدخلها وتمكث فيها هنيهة ثم تخرج وتطير إلى جهة أخرى. فاستفسرت عن الأمر فقيل لي إن التماسيح تأكل كثيراً من السمك وغيره من الحيوانات، فيبقى دائمًا على لثّاتها وبين أسنانها فتات اللحم فيتعفن ويتولد عنه دود صغير يزعجها، فتبصر الطيور في تحليقها هذا الدود وتدخل في فم التمساح لتأكله. وفي إمكان التمساح أن يطبق فمه ليزدرد الطائر لكن لهذا الطائر في قمة رأسه شوكة صلبة وحادة تخز حنك التمساح وترغمه على فتح فيه ثانياً فيتمكن الطائر من النجاة. ولا شك أنني لو حصلت على أحد هذه الطيور لرويت هذه القصة بكيفية أكثر وثوقاً.

تبيض التماسيح في الأرض ثم تغطي بيضها بالرمل، وبمجرد ما تتولد الصغار تدخل النهر، وهناك أيضاً بعض التماسيح التي تقيم بالصحراء وتتحاشى الماء، وهي سامة بخلاف التي تعيش في النهر.

ويأكل كثير من الناس في مصر التمساح ويؤكدون أنه لذيذ جداً، ويباع شحمه في القاهرة بثمن مرتفع، يقال إنه نافع لشفاء الجروح المزمنة والأكالية.

وتصطاد التماسيح بالكيفية الآتية: يأخذ الصيادون حبلاً غليظاً طوله مائة ذراع أو أكثر، يثبتون أحد طرفيه بقوة في شجرة ضخمة أو عمود مغروز لهذا الغرض على حافة النيل، ويثبتون في الطرف الآخر كلّاباً من حديد طوله ذراع في غلظ أصبع الإنسان يربطون فيه شاة أو عنزة حية. وعندما يصيح الحيوان يخرج التمساح من الماء متوجهاً إلى الضفة ويبتلع

الحيوان بسرعة مع كُلاب الحديد الذي ينفذ إلى أمعائه ويثبت بحيث يستحيل إخراجه. وعندئذ يأخذ الصيادون في إرخاء الحبل تارة وجرِّه إليهم أخرى، فيتخبّط التمساح ضارباً بذيله يميناً وشمالاً إلى أن يقهر ويخرّ صريعاً كالميت. فيقتله الصيادون حينئذ بالحراب ويشقون فمه وباطن أرجله والمكان الذي يرق فيه الجلد من بطنه، بينما يكون جلد ظهره غليظاً صلباً لدرجة أن ضربة من قاذفة أو مدفع صغير لا تكاد تكفي لاختراقه.

ورأيت على أسوار مدينة قنا أكثر من ثلاثمائة رأس تمساح معلقة فاغرة أفواهها، وهي أفواه في غاية السعة والكبر تستطيع بقرة كاملة أن تدخل في واحد منها، وكانت أسنانها حادة طويلة. وجميع الصيادين المصريين عندما يصطادون تمساحاً يقطعون رأسه ويعلقونه على السور، كما يفعل الصيادون برؤوس الحيوانات المفترسة.

التنّين

توجد في بعض مغارات الأطلس تنانين عظيمة، وهي دواب (حيات) ثقيلة تتحرك بصعوبة، لأن جزءاً من جسمها وهو الأعلى غليظ جداً، والباقي دقيق جداً، سواء من جهة الذيل أو الرأس. وهي سامة جداً، فإذا اتفق أن أحداً لسعته، تفتت لحمه حيناً، وصار ليناً كالصابون ولا يستطيع النجاة.

الهيْدرَة

الهيدرة أفعى قصيرة دقيقة الرأس والذنب، توجد بكثرة في صحراء ليبيا، وسمّها مؤثّر جداً. يقال إن من لسعته هذه الأفعى لا دواء له سوى بتر العضو الملسوع قبل سريان السم إلى سائر الأعضاء.

الضَّبُّ

يعيش هذا الحيوان في القفار ويشبه الوزغ في شكله، لكنه أضخم منه. طوله ذراع رجل وعرضه أربعة أصابيع، لا يشرب أبداً، وإذا ما أرغم على الشرب بوضع الماء في فيه مات لحينه. وبيضه كبيض السلحفاة. ولا سمّ فيه. رأيت أعراباً يأخذون منه في الصحراء فأخذت منه بدوري وذبحته، غير أنه لا يسيل منه دم كثير، ولا يسلخ جلده إلا عند أكله بعد أن يشوى. ولحمه لذيذ كلحم الضفدع، وله نفس الطعم. وهو سريع كالوزغ. وإذا اختفى في غار وبقي ذيله خارجاً فلا تستطيع أية قوة إخراجه منه، فالصيادون يوسعون الغار بمعول صغير ويمسكونه. وإذا قرب من النار بعد ثلاثة أيام من ذبحه تحرّك كما لو كان قد ذبح في تلك الساعة.

الوَرَل

الورل[34] حيوان يشبه الضب إلا أنه أكبر منه، وسمّه في رأسه وذنبه. ورأيت أعراباً يقطعون هذين الطرفين ويأكلونها. لونه قبيح وشكله كريه، بحيث إنني لم أقدم قط على أكله.

الحِرْباء

الحرباء حيوان في حجم الوزغ، لكنه قبيح أحدب هزيل ذو ذنب طويل كذنب الفأر. يسير ببطء ويتغذى بالهواء وأشعة الشمس[35]، فبمجرد ما يظهر شعاع يدور نحوه فاتحاً فاه ويدور معه أينما دار. ويتغير لونه حسب تغير الأماكن التي يوجد فيها، فإذا كان فوق سواد

(34) حُرّف هذا الاسم العربي في الفرنسية إلى فرن، وليس ساماً كما ذكر المؤلف.

(35) لقد اعتُقد هذا طويلاً، إذ أن سرعتها المفرطة التي تصيد بها الذباب بلسانها اللزج كانت تخفى على الملاحظ السطحي كيفية اقتيات هذا الحيوان.

صار أسود، أو خضرة صار أخضر، وهكذا دواليك بالنسبة لسائر الألوان. وقد قمت بنفسي بالتجربة. والحرباء عدوّةلدود للحيات السامة، فإذا أبصرت إحداها نائمة تحت شجرة تسلقت الشجرة حيناً واختارت مكاناً يكون فيه عمودياً تماماً بالنسبة لرأس الأفعى. ثم نفثت خيطاً من لعاب كلعاب الضفدع تتكوّن في طرفه قطرة كجوهرة صغيرة، وإذا رأت أن الخيط لا ينزل عمودياً على رأس الأفعى انتقلت حتى تسقط القطرة على رأسها. ومن خاصيات هذه القطرة أن تنفذ إلى رأس الحية وتقتلها بمجرد ما تلمسه. وقد روى كتابنا الأفارقة عدة أشياء عن خاصيات الحرباء وفوائدها لم أعد أتذكرها الآن.

الطيـــور

النّعـــامة

لنتكلم قليلاً عن الطيور أيضاً.

النعامة طائر وحشي طويل القامة، يشبه شكله قليلاً شكل الأوزة، لكن قوائم النعامة وعنقها طويلة جداً، منها ما يبلغ طول عنقها ذراعين، وكذلك الساقان. وجسم النعامة ضخم، وجناحاها مكسوّان بريش كبير لا يساعدها على الطيران. لكنها عندما تعدو تستعين بخفق الجناحين والذنب. وريشها أسود وأبيض كريش اللقلاق. وتعيش عادة في القفار اليابسة حيث لا يوجد ماء. وتضع بيضها في الرمل ما بين عشرة إلى اثنتي عشرة بيضة، وكل بيضة ضخمة بحجم قذيفة مدفع من زنة خمسة عشر إلى ستة عشر رطلاً. لكن النعامات الصغيرة تضع بيضاً أصغر. وما إن تبيض النعامة حتى تنسى المكان الذي وضعت فيه بيضها لضعف ذاكـرتها، ويؤدّي ذلك إلى أن الأنثى التي تجد بيضاً سواء كان لها أو لغيرها تحتضنه وتدفئه، وبمجرد ما تتولّد الفراخ تسرح في البادية باحثة عن قوتها. وتكون سريعة جداً في السباق قبل أن ينبت ريشها حتى لا يمكن اللحاق بها. والنعامة غبية لا تحس بأي شيء من أذنيها لأنها صمّاء، وتأكل كل ما تجده حتى الحديد. ولحمها لزج يثير القيء لاسيما لحم الفخذين، ومع ذلك تؤكل كمية وافرة منها في أقاليم نوميديا، حيث تصطاد وهي صغيرة فتُعلف

وتسمّن، كما أسلفنا القول[36]. وتسير هذه الطيور في الصحراء متتابعة الواحدة وراء الأخرى، ومن شاهدها من بعيد ظنّها فرساناً. وكثيراً ما أحدثت للقوافل قلقاً وفزعاً شديدين. وقد أكلتُ بدوري لحم النعامة عندما كنت في نوميديا فلم أجده رديئاً جداً.

النُّسـور

توجد عدة أنواع متميّزة من هذه الطيور حسب خاصياتها وقامتها ولونها. ويسمّى نوعها الأساسي نسراً باللغة العربية.

النَّسـر

النسر أكبر طيور افريقيا، وهو أضخم من الكركي لكن رجليه وعنقه ومنقاره أقلّ طولاً. ويرتفع في الجو عندما يحلّق حتى يختفي عن النظر، وإذا أبصر جيفة انقضّ عليها فوراً. وعندما يطير يكون دائمًا مع نسور أخرى سِرباً. ويعمّر طويلاً بحيث يشاهد كثير من النسور وهي صلعاء لا ريشة على رؤوسها كما لو حلقت. وتعيش هذه الطيور سنوات عديدة ــ كما قلنا ــ فتسقط مع مرور الزمان قوادمها وخوافيها وسائر ريشها، وتمكث في النهاية في عشّها كأنها حديثة عهد بالولادة تأتي إليها الصغار بقوتها. وسمعت أن هذا الطائر يحمل اسم (فولطوري) بالإيطالية فلم أتمكّن من تحقيق ذلك. ويعشّش عادة في صخور قمم الجبال الشاهقة الخالية ولاسيما في الأطلس، ومع ذلك فإن من يختلفون إلى هذه الأماكن يأخذون بعض هذه الطيور.

البَـازي

يسمّى البازي (أسطوري) باللغة الإيطالية. وتوجد هذه الطيور بكثرة كاثرة في افريقيا، بعضها أبيض يُصطاد في جبال قفار نوميديا.

---

(36) في القسم السادس عند وصف درعة ــ ص 118 ــ.

وهو أغلاها ثمناً وأجودها، وبه تصطاد الكراكي، وتوجد منه أنواع مختلفة: منها ما يصلح لصيد السمّاني والحجل، ومنها ما يصلح لصيد الأرانب.

وتُدرّب النسور في افريقيا على قنص الثعالب والذئاب، وعلى المصارعة فيما بينها. لكن النسور المتدربة على المصارعة تمسك هذه الوحوش من ظهرها بمخالبها، ومن رأسها بمنقارها حتى لا تتمكّن من عضّها، فتنقلب على ظهرها، إلا أن النسور لا تطلقها حتى تقتلها أو تفقأ أعينها.

الخُفّاش

توجد هذه الطيور الكريهة المعادية للنور في العالم بأسره، إلا أن في مغارات الأطلس كثيراً منها. وهي في حجم الحمام بل أكبر، لاسيما فيما يتعلّق بطول أجنحتها. إنني لم أرها شخصياً قط، ولكن حدّثني عنها كثير ممن يحفرون الأرض بحثاً عن الكنوز.

الببّغاء

توجد هذه الطيور بكثرة في غابات إثيوبيا. ريشها مختلف متعدد الألوان، وأفضلها الخضراء التي تتعلم أحسن من غيرها كيف تقلّد صوت الإنسان.

ويشاهد كثير منها في حجم الحمام مختلف الألوان: من أسود وأحمر ورمادي أسمر، وليست قادرة تماماً على تقليد كلام الإنسان، لكن غناءها عذب شجي.

الجَراد

يشاهد أحياناً بافريقيا كمية وافرة من هذه الحيوانات، حتى إنها لتحجب ضوء الشمس عندما تطير مثلما يفعل السحاب. تأكل من الأشجار

الفواكه والأوراق. وتترك عند ذهابها بيضاً يتولّد منه جراد آخر لا يطير، لكنه أسوأ من أمهاته، يلتهم حتى لحاء الأشجار. وحيثما مرّ الجراد ترك مجاعة كبيرة، لاسيما في موريطانيا.

ورغم ذلك فإن سكان الجزيرة العربية الصحراوية وسكان ليبيا يعتبرون هجوم الجراد من أسعد الحوادث. فالبعض منهم يأكلونه مطبوخاً والبعض الآخر يجُفّفونه في الشمس ثم يسحقونه، فيحصلون من ذلك على نوع من الدقيق يستهلكونه.

تلك هي تقريباً جميع مميّزات هذه الطيور والحيوانات التي لا توجد بأوربا أو التي تختلف عن مثيلاتها الأوربية في بعض النقط. وسنقدّم الآن نبذة يسيرة عن المعادن التي توجد في افريقيا، وبعض الفواكه والأشجار المغروسة والبرية، ثم نختتم هذا المؤلَّف.

المعـــادن

المـــلح

لا يوجد في معظم أجزاء افريقيا ملح غير الذي يُستخرج من المناجم بحفر سراديب كما يفعل بالرخام والجبس. ومنه الرمادي والأبيض والأحمر. ويكثر جداً في بلاد البربر. ويقلّ في نوميديا لكنه كاف. ولا وجود له في بلاد السودان خصوصاً في إثيوبيا السفلى، حيث يساوي ثمن الرطل منه نصف مثقال. لذلك لم يتعوّد أهل هذه البلاد وضع مملحات على الخوان، لكنهم عندما يأكلون الخبز يمسكون بقطعة ملح في يدهم فيلحسونها مع كل مضغة حتى لا يستهلكوه بكثرة.

ويجمد الملح في الصيف في بعض البحيرات الصغيرة والغدران ببلاد البربر، مكوّناً طبقة بيضاء مستقيمة كما يشاهد ذلك مثلاً في ضواحي فاس.

الكُحْـــل

ينشأ هذا المعدن في بعض أماكن افريقيا في مناجم الرصاص، ويقوم العمال المدرّبون بفصله عن الرصاص بواسطة الكبريت. ويوجد بكثرة كبيرة في سفح الأطلس بجهة الجنوب، لاسيما في التخوم بين نوميديا ومملكة فاس، كما يوجد الكبريت أيضاً بكثرة في مواضع أخرى.

الفَرْبْيُــون

الفربيون صمغ أحد النباتات التي تنمو على شكل قدم الخرشف البري، وتكبر بين فروع هذا النبات ثمارٌ في حجم الخيار. تكون خضراء مكسوّة بحبيبات كالخيار، إلا أنها أطول منه، يبلغ طول بعضها ذراعاً فأكثر. لا تنبت هذه الثمار على فروع النبات لكنها تبرز من الأرض كجذع أو ساق. ويتولّد من قدم فربيون واحد وعشرون أو خمسة وعشرون أو ثلاثون ثمرة. وعندما تنضج يشقّها الفلاحون بسكين فيخرج منها عصير كالحليب يصير لزجاً؛ ثم يعزل العصير بسكين ويجُعل في قِرب حيث يجفّ. ونذكر أن هذا النبات مغطّى بالشوك.

القَطِــران

القطران نوعان: نوع طبيعي يلقط من فوق أحجار توجد في قلب بعض العيون التي ينشر ماؤها رائحة كريهة جداً وله نفس الطعم[37]، ونوع اصطناعي يُستخرج من العرعر أو الصنوبر، وقد رأيت كيف يُصنع في الأطلس: يتّخذون فرناً مستديراً عميقاً في طرفه الأسفل ثقب متّصل بتجويف على شكل صحن. ثم يأخذون فروعاً خضراء من العرعر أو الصنوبر فيكسرونها قطعاً صغيرة ويضعونها في الفرن الذي يغلق بابه ويُسخّن بنار معتدلة. فيقطر الخشب عند تسخينه وتسيل المادة في التجويف من الثقب المتّخذ لهذا الغرض في قعر الفرن. وهكذا يجمع القطران ويوضع في القِرَب.

الَمــوز

هذه الفاكهة جميلة حلوة جداً، وهي كبيرة في حجم خيار صغير، تنبت على شجيرة لها أوراق كبيرة عريضة طولها ذراع. ويقول فقهاء المسلمين إن هذه هي الثمرة التي حرّم الله على حواء وآدم. وفعلاً لما أكلاها

(37) هو البيتوم أو البترول.

وأرادا ستر عورتهما أخذا يخصفان عليهما من ورق الموز، وهو أنسب من غيره لهذا الغرض. وينبت الموز بكثرة في سلا إحدى مدن مملكة فاس، لكن معظمه ينبت في مصر لاسيما في دمياط.

سَنْط العنبر

إن الأشجار التي تنتج العنبر ضخمة جداً، أوراقها شبيهة تقريباً بأوراق شجر التوت، وأزهارها كبيرة شديدة البياض. وتثمر كثيراً إلى درجة أنه ينقص الكثير من ثمارها قبل نضجها للتخفيف على الفروع حتى لا تتكسّر تحت الثقل. ولا تنبت إلا في مصر.

التِّرْفَـــاس

يمكن القول إن الترفاس جذر نباتي أكثر مما هو ثمر. ويشبه الكمأة لكنه أضخم منها وذو قشرة بيضاء. ينبت في الرمل في الأماكن الحارة. ويُعرف وجوده بحدبات في الأرض مشقّقة شيئاً ما. بعضه في حجم الجوز والبعض الآخر في حجم البرتقال. وهو ثمر منعش في نظر الأطباء الذين يدعونه كمئاً. ينبت بكثرة في صحراء نوميديا. ويتلذّذ الأعراب بأكله كما لو كان سكراً. والواقع أنه غذاء لطيف جداً إذا كان مشوياً على الجمر ثم قُشّر وطبخ في مرق دسم. يأكله الأعراب مطبوخاً في الماء أو اللبن. ويوجد أيضاً بكثرة في الرمل بضواحي مدينة سلا(38).

النَّخْـــل

لا نقول الآن شيئاً عن النخل الذي تكلمنـا عنه عنـد وصفنا لسجلماسة، إحدى مدن نوميديا.

---

(38) كل ماذكره المؤلف عن الترفاس صحيح، ومازال حتى اليوم كثيراً في غابة معمورة بضواحي سلا.

تين مصر المعروف عندهم بالجُمَّيز

إن خشب هذه الشجرة وأوراقها كخشب وأوراق غيرها من شجر التين، لكنها في غاية الضخامة والارتفاع. ولا تنبت ثمارها بين الأوراق على الأغصان في أطراف الأفنان، بل على جذع الشجرة نفسه، حيث لا توجد الأوراق. ولها نفس مذاق التين العادي، لكن قشرها غليظ جداً ولونها بنفسجي.

شجرة الطَّلْح

شجرة الطلح كبيرة شائكة لها أوراق كالعرعر، وتنتج صمغاً شبيهاً بالمصطكى يستعمله عقاقيريُّو افريقيا لتقليد المصطكى، إذ له نفس اللون والرائحة تقريباً. ويوجد الطلح في قفار نوميديا وليبيا، وكذلك في بلاد السودان. إلا أن ما يوجد منه في نوميديا يكون داخله أبيض عندما يشقّ كغيره من الشجر، بينما يكون داخله أسود تماماً في بلاد السودان. وخشب هذه الأشجار هو الذي يسمّى (سانكْتو) في إيطاليا، وتصنع منه بعض الأشياءالجميلة الأنيقة. ويستعمل الآن أطباء افريقيا الخشب البنفسجي في علاج الداء الافرنجي، وتسمّيه العامة لذلك خشب الداء الافرنجي.

تَسَـرْغِينَتْ

تسرغينت[39] جذر عطريّ يوجد في ساحل المحيط إلى جهة الغرب، يحمله تجار موريطانيا إلى بلاد السودان حيث يُستعمل كعطر رفيع. ولا حاجة إلى حرقه أو تسخينه، لأنه إذا حُفظ في حجرة نشر فيها نفس الرائحة، على أية حال. يساوي حمل بعير من تسرغينت في موريطانيا مثقالاً ونصفاً، وثمن نفس الحمل في بلاد السودان ثمانون مثقالاً أو مائة مثقال، وأحياناً أكثر من ذلك.

---

(39) صيغة تأنيث بربرية، والاسم العربي سرغينة.

الــــدَّادْ

الداد نبات جذره سامٌ إلى درجة أن زنة درهم[40] من الماء المقطّر منه كاف لقتل رجل في ساعة واحدة. وهذا شيء معروف في افريقيا كلها حتى عند النساء.

السَّـــرْمَق

السرمق أيضاً جذر نبات ينمو في القسم الغربي للأطلس. ومن خصائصه ــ حسب قول الناس ــ أنه يقوّي العضو التناسلي للرجل، ويمكّن من يتناوله في معجون معسول من مضاعفة نكاحه. ويقال أيضاً إن من اتّفق له أن بال على هذا الجذر أنعظ لحينه. ولا أخفي كذلك ما يحكيه جميع سكان الأطلس من أنهم رأوا عدداً كثيراً من الفتيات اللواتي يرعين ماشيتهن في الجبل فقدن بكارتهن مصادفة لكونهن بلن على هذا الجذر. فأجبت ممازحاً من روى لي ذلك أنني أثق فعلاً بما يقولون عن هذا الجذر، وأن هؤلاء الفتيات تسمّمن كثيراً لدرجة أنهن لم يفقدن بكارتهن فحسب، بل انتفخ جسمهن كله!

* * *

والحاصل أن ذلك ما شاهدته ــ أنا يوحنا ليون ــ مما هو جميل وجدير بالذكر في كل افريقيا التي جبتها من جهة إلى أخرى. وقد أثبت بعناية يوماً فيوماً كل ما رأيته يستحق الذكر كما شاهدته. وما لم أشاهده أخبرني به من يوثق به إخباراً صحيحاً كاملاً. ثم رتّبت هذه المذكرات بقدر استطاعتي، وألّفت منها في الأخير كتاباً عندما كنت بروما في العام الميلادي 1526 في العاشر من مارس.

وهنا ينتهي كتاب يوحنا ليون الأندلسي المولد، المغربي النشأة.

(40) زنة الدرهم (الطبي) نحو 3 غْرامات ونصف غْرام. ونشير إلى أن الداد مازال حتى اليوم معروفاً عند العشابين بالمغرب، ويوصف في العلاج بخوراً، ولا سيّما لإبطال السحر. ويذكرون أنه سام، لكن ليس بهذه الخطورة التي يذكرها المؤلف.

فهرس موضوعات الجزء الثاني
من كتاب وصف افريقيا

القسم الرابع
مملكة تلمسان

القسم الخامس
مملكة بجاية
ومملكة تونس

القسم السادس
نوميديا

القسم السابع
بلاد السودان

القسم الثامن
مصر

القسم التاسع
الأنهار والحيوانات والنباتات بإفريقيا

الفهارس العامة

فــهــرس
أعلام الأشخاص والقبائل والأمم والفِرق

فهرس الأماكن

فهرس
الكتب المذكورة في متن وصف افريقيا

مصادر الترجمة والتعاليق

لقد رجعنا في ترجمة وصف افريقيا وكتابة بعض التعاليق ومراجعة ما ترجمناه منها عن الفرنسية ــ زيادة على المصادر الواحد والثلاثين المذكورة في المقدمة ــ إلى عدد كثير من المصادر التاريخية والجغرافية واللغوية وغيرها، وأثبتنا أهمها فيما يلي مرتّبة على أسماء المؤلفين بحسب حروف المعجم:

ــ ابن أبي دينار (محمد) **المؤنس في أخبار افريقيا وتونس**، تحقيق محمد شمام، تونس، 1967.

ــ ابن أبي الضياف (أحمد) **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهدالأمان**، 8 أجزاء، تونس 1963.

ــ ابن حوقل (أبو القاسم محمد بن علي) **صورة الأرض أو المسالك والممالك**، دار مكتبة الحياة بيروت، بدون تاريخ.

ــ ابن خلدون (عبد الرحمان) **كتاب العبر**، 7 أجزاء، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1956.

ــ ابن العربي (الصديق) **كتاب المغرب**، الرباط، 1956.

ــ ابن عسكر (محمد) **دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر**، دار المغرب الرباط، 1976.

ــ الأسدي (محمد بن محمد بن خليل) **التيسير والاعتبار، والتحرير والاختبار، فيما يجب من حسن التدبير والتصرف والاختيار**، تحقيق د. عبد القادر طليمات، دار الفكر العربي، 1968.

ــ إسماعيل باشا البغدادي، **إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون**، جزآن استنبول، 1945. ــ **هدية العارفين أسماء المؤلفين المصنفين**، جزآن، استنبول، 1951.

ــ الأفراني (محمد) **نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي**، المطبعة الحجرية بفاس، بدون تاريخ.

ـ الجيلالي (عبد الرحمن) **تاريخ الجزائر العام**، جزآن، مكتبة الحياة بيروت، 1965.
ـ حاجي خليفة، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، جزآن، استنبول، 1941.
ـ حجي محمد ـ **الزاوية الدلائية**، المطبعة الوطنية بالرباط، 1964.
ـ د. حسن إبراهيم حسن:
ـ **انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى شرقي القارة الافريقية وغربها**، القاهرة، 1957.
ـ **تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي**، 3 أجزاء، القاهرة 1953.
ـ **تاريخ الدولة الفاطمية في المغرب ومصر وسورية وبلاد العرب**، القاهرة 1958.
ـ حسن حسني عبد الوهاب:
ـ **خلاصة تاريخ تونس**، الدار التونسية للنشر، 1968.
ـ **ورقات عن الحضارة العربية بافريقية**، 3 أجزاء، تونس، 1965.
ـ دوفيردان، **مراكش**، جزآن، الرباط، 1959.
ـ زبادية (عبد القادر) **مملكة سنغاي في عهد الأسقيين**، الجزائر، 1971.
ـ السراج (محمد) **الحلل السندسية في الأخبار التونسية**، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، الدار التونسية للنشر 1970.
ـ سركيس (يوسف) **معجم المطبوعات العربية والمعربة**، جزآن، القاهرة، 1928.
ـ السعدي (عبد الرحمن) **تاريخ السودان**، باعتناء وترجمة هوداس، باريز، 1964.
ـ عنان محمد عبد الله، **دولة الإسلام في الأندلس**، القاهرة، 1955.
ـ العياشي أبو سالم، **الرحلة العياشية أو ماء الموائد**، جزآن، المطبعة الحجرية بفاس، 1898.
ـ الفاسي محمد البشير، **قبيلة بني زروال**، الرباط، 1962.
ـ القلقشندي (أحمد) **صبح الأعشى في كتابة الإنشا**، 14 جزءاً، دار الكتب المصرية 1913 - 1920.
ـ كحالة (عمر رضى) **معجم المؤلفين**، 15 جزءاً، دمشق، 1957.
ـ كعتيي (محمد) **تاريخ الفتاش في أخبار البلدان والجيوش وأكابر الناس**، باريز 1964.
ـ مجهول، **تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان**، باعتناء وترجمة هوداس، باريز، 1966.
ـ المدني (أحمد توفيق):
ـ **حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا**، الجزائر، دون تاريخ.
ـ **كتاب الجزائر**، المطبعة العربية في الجزائر، 1350هـ.
ـ المقريزي، **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، أو خطط المقريزي، جزآن، دار صادر بيروت.
ـ منقريوس رزق الله، **تاريخ دول الإسلام**، 3 أجزاء، القاهرة، 1907.

ـ الناصري أحمد، **الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى**، 9 أجزاء، الدار البيضاء، 1954.
ـ الحموي ياقوت، **معجم البلدان**، 10 أجزاء، مطبعة السعادة بمصر، 1906.
ـ اليعقوبي (أحمد بن أبي يعقوب المعروف بابن واضح) **تاريخ اليعقوبي**، دار العراق بيروت، 1955.

فهرس الخرائط

دار الغرب الإسلامي
بيروت - لبنان
لصاحبها الحبيب اللمسي

شارع الصوراتي (المعماري) ـ الحمراء ـ بناية الأسود
تلفون 340131 - 340132 ـ ص . ب . 5787 - 113 بيروت ـ لبنان
DAR AL-GHARB AL-ISLAMI – B.P.:113-5787 - Beyrouth - Liban

الرقم 1983/4/2000/25
سحب جديد 1988/10/2000

مؤسسة جواد للطباعة والتصوير
هاتف ٢-٨٣٨١٥٧ - ٨٣٧٧ - بيروت - لبنان

Jean - Léon l'Africain (al - Hasan al - Wazzan)

DESCRIPTION DE L'AFRIQUE

Trad.en Arabe par

Dr.M.Hajji

Dr.M.Lakhdar

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI

DESCRIPTION DE L'AFRIQUE

Jean - Léon l'Africain (al - Hasan al - Wazzan)

DESCRIPTION DE L'AFRIQUE

Trad. en Arabe par

D^r. M. Hajji D^r. M. Lakhdar

DAR AL-GHARB AL-ISLAMI
Beyrouth